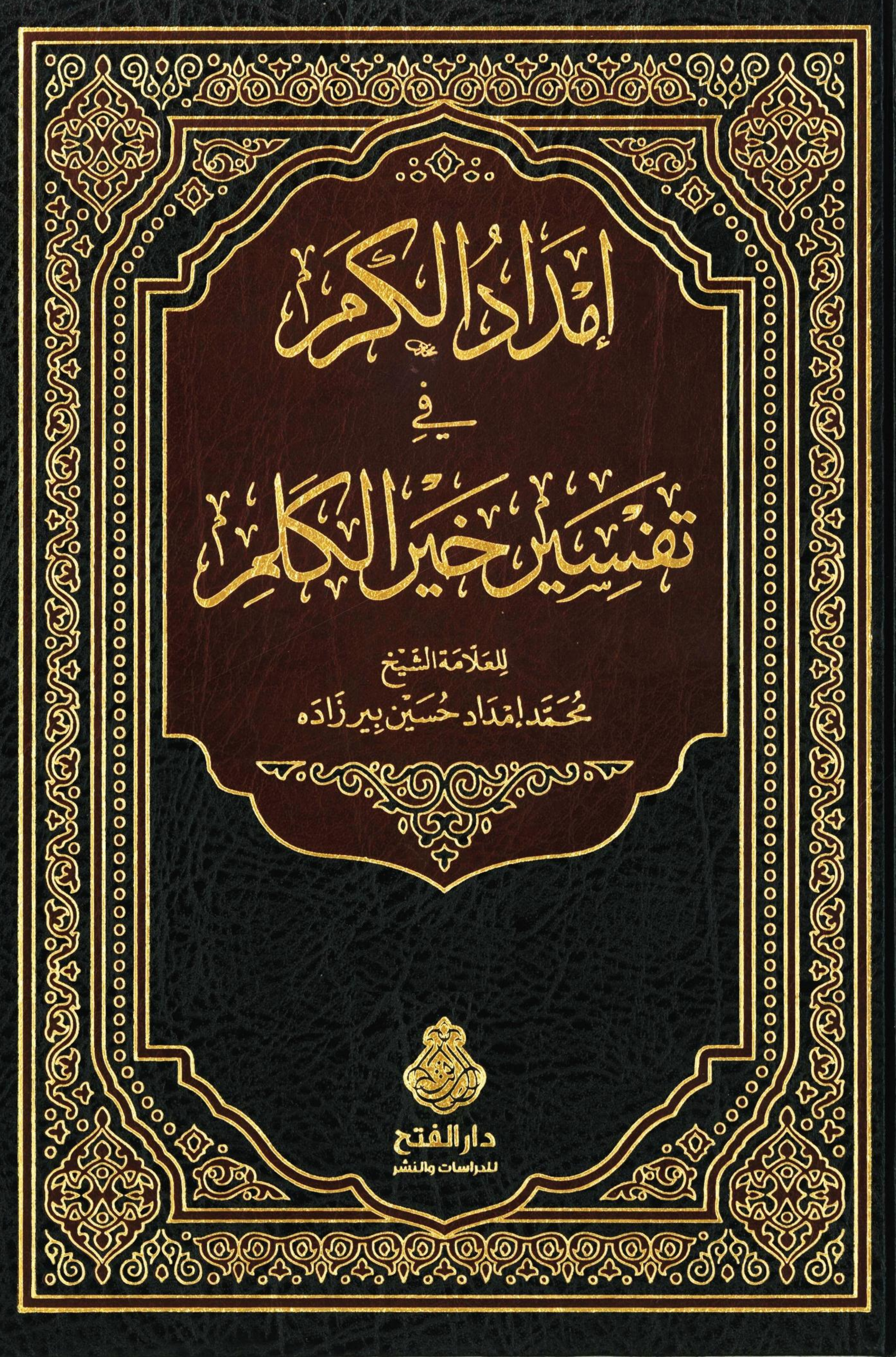

إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر

إمداد الكرم

في

تفسير خير الكلم

للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم

للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده

نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)





هاتف: 4646199 6 (00962)

جوال: 777925467 (00962)

ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن

البريد الإلكتروني: info@daralfath.com

الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:

AL-KARAM PUBLICATIONS

Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com



للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأردية
أ. د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الجزء الرابع



دار الفتح
للدراسات والنشر



بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس مضامين

المجلد الرابع

فهرس مطالب

المجلد الرابع

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٢٣) سُورَةُ المؤمِنُونَ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «المؤمنون»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى فيها.

مضامين السورة

ـ جاء في الآياتِ الأُولى لهذه السُّورة بيانُ صفاتِ المؤمنينَ، وأنّ السُّعَداءَ هم الذين يتَّصفونَ بهذه الصِّفات، فهؤلاءِ لهمُ الفلاحُ في الدارَيْن، وكَتَب اللهُ لهم جَنَّة الفِردَوْس.

ـ جاءت في هذه السورة الدَّلائلُ الواضحةُ على عقيدتَيْنِ أساسيَّتَيْنِ من عقائدِ الإسلام، يعني: التوحيدَ والآخِرةَ، بأسلوبٍ سَهْل بسيط، على سَبيل المثال: كيف أنّ اللهَ تعالى جَعَل من قطرةِ ماءٍ دمًا ولحمًا وعظامًا، ثم خَلَق منها إنسانًا جميلًا، وذلك حتى يَعرِفَ الإنسانُ خالقَه، ويؤدِّيَ شُكرَه، وأيضًا كما أنّ اللهَ تعالى خَلَق إنسانًا حيًّا من قطرةِ ماء، هو كذلك قادرٌ على أن يُحييَ الموتَى من جديد.

ـ جاء في هذه السُّورةِ ذِكرٌ لبعضِ الأنبياءِ الكرام السّابقينَ عليهمُ السَّلام، والذين سَلَكتْ معَهم أُمّتُهم سُلوكًا سيِّئًا، فابتَلاهمُ اللهُ تعالى بالعذابِ عقابًا لهم، وفي هذا قَصْدٌ إلى التسرية عن النبيِّ ﷺ من جانب، بأنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ يا رسولَ الله ﷺ، فقد حَدَث مِثلُ هذا السُّلوكِ السيِّئ معَ الأنبياءِ السّابقينَ عليهم

السَّلام، ومن جانبٍ آخَرَ تنبيهٌ للمشركينَ بأنْ يَعتبِروا من الأُمم السّابقة، ولا يَستنزِلوا على أنفُسِهم العذابَ بعصيانِهم المستمرِّ.

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضيَ اللهُ عنه: «كان النّبيُّ ﷺ إذا نَزَل عليه الوحيُ سَمِع عندَ وَجْهِه كدُوِيِّ النَّحْل، فأُنْزِلَ عليه يومًا فمكَثْنا ساعةً، فسُرِّيَ عنه، فاستقبَلَ القِبلةَ ورَفَع يدَيْه وقال: «اللّهُمّ زِدْنا ولا تَنقُصْنا، وأكرِمْنا ولا تُهِنّا، وأعطِنا ولا تحرِمْنا، وآثِرْنا ولا تؤْثِرْ علينا، وأَرْضِنا وارضَ عنّا». ثمّ قال ﷺ: «أُنزِل عليَّ عشْرُ آياتٍ مَن أقامَهُنَّ دَخَل الجنَّة». ثمّ قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتّى ختَم عشْرَ آياتٍ[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الجمُعة الثامنَ من أغسطس ٢٠٠٨م
الموافق السادسَ من شعبانَ عام ١٤٢٩هـ.

* * *

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة المؤمنون (٢٣): باب ٢٤ برقم ٣١٧٣.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ (٢٣)،

مكية (٧٤)، آياتها (١١٨)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾

١ ـ ذُكِرت في الآياتِ الأُولى من هذه السُّورة سبعُ صفاتٍ للمؤمنين، مَن عمِلَ بها أَفْلح ونال الفِردَوْس، وأولُ هذه الصِّفات: الخشوع.

والمرادُ بالشَّخص الخاشع في اصطلاح الشَّريعة هو: من كان في قلبِه خوفُ الله تعالى، ويبدو التواضُعُ من أعضاءِ بدَنِه، ونَنقُلُ هنا قولَ العلّامة باني بتي فيما يتعلَّقُ بالخشوع، إذ يقولُ: «الخشوعُ في الصَّلاة هو: جَمْعُ الهِمّةِ لها، والإعراضُ عمّا سواه، والتدبُّر فيما يَجري على لسانِه من القراءةِ والذكر»[١].

بعض الأحاديث والأقوال المتعلقة بالخشوع:

١ ـ رَوى الإمامُ التِّرمذيُّ، عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ رأى رجلًا يعبَثُ بلِحيتِه في صلاتِه، فقال: «لو خَشَع قلبُ هذا خَشَعتْ جَوارحُه»[٢].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يزالُ الله عزّ وجلّ مُقبِلًا على العبدِ وهو في صَلاتِه ما لم يَلتفتْ، فإذا التفَتَ انصَرفَ عنه»[٣].

٣ ـ سأل سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أين أضَعُ بصَري في الصّلاة؟ قال: «عندَ موضع سُجودِك يا أنس»[٤].

٤ ـ قال سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمر رضيَ اللهُ عنهما في تفسيرِ هذه الآية: «كانوا إذا قاموا في الصّلاةِ أقْبَلوا على صلاتِهم، وخَفَضوا أبصارَهم إلى موضع سجودِهم،

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٦٥ برقم ٩٠٩.

(٤) السنن الكبرى، البيهقي، ٢: ٢٨٤.

وعَلِموا أنّ اللهَ يُقبِلُ عليهم فلا يلتفتونَ يمينًا ولا شمالًا»[١].

٥ ـ رَوى الإمامُ ابنُ أبي شَيْبةَ رضي اللهُ عنه، عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قولَه: «إذا صَلّيتَ فإنّ ربَّك أمامَك وأنت مُناجيه، فلا تلتفِتْ. قال عطاءٌ: وبَلَغني أنّ الربَّ يقولُ إلى مَن يلتفتُ: يا ابنَ آدم، أنا خيرٌ لك ممَّن تلتفتُ إليه»[٢].

٦ ـ يُستحَبُّ لمَن يُصلِّي أن يكونَ «نظَرُه إلى موضع سجودِه حالَ قيامِه، وإلى ظهرِ قدَميْه حالَ ركوعِه، وإلى أرْنبةِ أنْفِه حالَ سجودِه، وإلى حِجرِه حالَ قعودِه، وإلى مَنكِبِه الأيمن والأيسَر عندَ التسليمةِ الأولى والثانية، لتحصيل الخشُوع»[٣]، ولمزيدٍ من التفصيل عن الخُشوع في الصَّلاة راجعِ الآيةَ رقم **٣١** من سُورة إبراهيمَ (**١٤**)، وكذا الحاشيةُ رقم **٢٨**.

الآداب الظاهرة والباطنة للصلاة:

«ذُكِر أنّ حاتمًا الزاهدَ دَخَل على عاصم بن يوسُفَ، فقال له عاصم: يا حاتمُ، هل تُحسنُ أن تُصلِّيَ؟ فقال: نعَمْ. قال: كيف تُصلِّي؟ قال: إذا تقارَبَ وقتُ الصّلاة أُسبِغُ الوضوءَ، ثم أستوي في الموضِع الذي أُصلِّي فيه، حتى يستقرَّ كلُّ عضوٍ منِّي، وأرى الكعبَة بينَ حاجبي، والمقامَ بحِيال صَدْري، واللهُ فوقي يَعلَمُ ما في قلبي، وكأنّ قدميَّ على الصِّراط، والجنَّة عن يميني، والنارَ عن شمالي، ومَلَكَ الموتِ خلفي، وأظُنُّ أنها آخِرُ الصَّلاة، ثم أُكبِّرُ تكبيرًا بإحسان، وأقرأُ قراءةً بتفكُّر، وأركعُ ركوعًا بالتواضُع، وأسجُد سجودًا بالتضرُّع، ثم أجلسُ على التَّمام، وأتشهَّدُ على الرَّجاء، وأُسلِّمُ على السُّنّة، ثم أُسلِّمُها للإخلاص، وأقومُ بينَ الخوفِ والرَّجاء، ثم

---

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، ١: ٤٩٢ برقم ٤٥٣٨.

(٣) حاشية رد المحتار، ١: ٤٧٧.

أتعاهَدُ على الصَّبر. قال عاصم: يا حاتم، أهكذا صلاتُك؟ قال: كذا صلاتي منذُ ثلاثينَ سَنةً. فبكَى عاصمٌ وقال: ما صَلَّيتُ من صلاتي مثلَ هذا قطُّ»[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾

٢ ـ الصِّفةُ الثانيةُ لأهلِ الإيمان أنّهم يتجنَّبونَ اللَّغوَ، والمرادُ باللَّغو: «ما لا يُعتَدُّ به من كلامٍ وغيرِه، ولا يُحصَلُ منه على فائدةٍ ولا نَفْع..»[٢]، يعني: أنّ شأنَ أهلِ الإيمان أنّهم لا يُضيِّعونَ وقتَهم في التافهِ من الأقوالِ والأفعال، وإنّما ينشغلونَ دائمًا في أن يجعَلوا كلَّ لحظةٍ من الحياة ذاتَ هدف؛ لأنّ الله تعالى لم يَخلُق الإنسانَ عبَثًا، ولهذا قال نبيُّنا الكريمُ ﷺ فيما رَواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «مِن حُسن إسلام المرءِ تَرْكُه ما لا يَعْنيه»[٣]، ونَصَح النبيُّ الكريم ﷺ أُمّتَه بقولِه: «علامةُ إعراضِ الله عن العبدِ اشتغالُه بما لا يَعْنيه ... ومَن جاوَزَ الأربعينَ ولم يَغلِبْ خيرُه شرَّه فلْيتجهَّزْ إلى النّار»[٤]، وقال سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي اللهُ عنه: «إنّي لأَكرهُ أن أرى أحدَكم فارغًا سَبَهْلَلًا لا في عمَل دُنياه ولا في عمَل آخِرتـِه»[٥]، لكنّ التفريحَ عن النَّفس بما يكونُ سببًا في الحفاظِ على الصِّحة الجِسْمانيّة، ويبعَثُ النشاطَ في القلبِ والرُّوح لا يَدخُلُ في اللَّغو.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾

٣ ـ الصِّفةُ الثالثةُ لأهلِ الإيمان هي: أنّهم يؤدُّونَ الزكاة، والمعنى اللُّغويُّ

---

(١) تفسير روح البيان، ١: ٣٣.

(٢) لسان العرب.

(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ١١.

(٤) أيها الولد، الإمام الغزالي رحمه الله.

(٥) روح المعاني، تفسير سورة الانشراح (٩٤).

للزَّكاة هو: «التَّزكيةُ والتطهير»، والمرادُ منها في اصطلاح الشَّريعة هو: مبلغُ اثنَيْنِ ونصفٍ في المائةِ الذي يُخرجُه مَن مَلَك النِّصَابَ، ولأنّ الإعلانَ بشكل مقَنَّنٍ عن نظام زكاةِ المال ونصابِها تَمَّ في المدينةِ المنوَّرة، وهذه السُّورةُ نَزَلت في مكّةَ، لهذا فإنّ المرادَ بالزَّكاة هنا هو المعنى اللُّغويُّ الذي يشمَلُ زكاةَ المال أيضًا، بمعنى أنّ شأنَ أهلِ الإيمان هو أنّهم دائمًا مشغولونَ بتطهيرِ أنفُسِهم وأعمالِهم وأقوالِهم وأموالِهم.

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

٤ ـ الصِّفةُ الرابعةُ لأهل الإيمان هي: أنّهم يحافظونَ على شَرَفِهم وعِفَّتِهم، بمعنى أنّهم لا يقرَبونَ سوى أزواجِهم أو ما مَلَكتْ أيمانُهم من الإماءِ فقطْ لإشباع رغَباتِهم الجِنسيّة؛ لأنّ الشريعةَ حرَّمت أيَّ طريقٍ آخَرَ لإشباع الغريزةِ الجِنسيّة غيرِ هذا الطريق، والآنَ لم يبقَ سوى الأزواج، باعتبارِ أنّ عصرَ مِلكِ اليمين من الإماءِ قدِ انتهى.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ ﴾

٥ ـ الصِّفةُ الخامسةُ لأهل الإيمان هي: أنّهم يحافظونَ على الأمانات، والمرادُ بالأماناتِ هنا: كلُّ المسئوليّاتِ التي أسنَدَها اللهُ تعالى إلى الإنسان، أو أسنَدَها إنسانٌ إلى آخَرَ، والمؤمنُ لا يُقصِّرُ في أداءِ المسئوليّاتِ المسنَدة إليه؛ لأنّ المؤمنَ الذي يخُونُ الأمانةَ يكونُ إيمانُه في خطر، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له»[1].

﴿ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

٦ ـ الصِّفةُ السادسةُ لأهل الإيمانِ هي: أنّهم يحافظونَ على عهودِهم، والمرادُ بالعهودِ: كلُّ المعاهداتِ المُبرَمة بينَ الله والإنسان، أو بينَ إنسانٍ وآخَرَ، والمؤمنُ

---

(١) مسند أحمد، ٣: ١٣٥.

يحافظُ على عهودِه؛ لأنّ المؤمنَ الذي يُخلِفُ الوعدَ يكونُ إيمانُه في خَطَر، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذَب، وإذا اؤتُمِنَ خان، وإذا وَعَد أَخْلف»[1]، ولمزيدٍ من التفصيل عن العهودِ والمواثيقِ راجعِ الآيةَ رقم ٧٢ من سُورة الأنفال (٨)، وكذا الحاشيةُ رقم **٥٢**.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾

٧ ـ الصِّفةُ السابعةُ هي: أنّهم ملتزِمونَ بأداءِ الصَّلاة، بمعنى: أنّهم لا يتكاسَلونَ عن الصّلاة، ويؤدُّونَها في وقتِها، أي: لا يؤخِّرونَ الصّلاةَ، ولا يؤدُّونَها قضاءً دون عُذرٍ مشروع.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

٨ ـ أهلُ الإيمانِ الذين يتَّصفُونَ بالصِّفاتِ السّابقة يستحِقُّونَ أن يَرِثوا جنّةَ الفِردَوس، والجنّةُ على عمومِها للمؤمنينَ عمومًا، لكن لأنّ الفِردوسَ هي أعلى درجةٍ في الجنّة، لذا يَدخُلُها أعلى المؤمنينَ درجةً.

قال رسولُ الله ﷺ: «في الجنّة مائةُ درجةٍ ما بينَ كلِّ درجتَيْنِ كما بينَ السّماءِ والأرض، والفِردَوسُ أعلاها درجةً، ومنها تَفجَّرُ أنهارُ الجنّةِ الأربعةُ، ومن فوقِها يكونُ العرشُ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوْس»[2].

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾

٩ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأولَ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من الطِّينِ مباشرةً،

---

(١) البخاري، كتاب الشهادات، باب ٢٨ برقم ٢٦٨٢.

(٢) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٤ برقم ٢٥٣١.

وخَلَق أولادَ آدمَ عليه السَّلامُ من النُّطفةِ التي تتكوَّنُ أصلًا من الأغذيةِ الناتِجة من الطِّين، ولهذا فإنّ أصلَ كلِّ إنسانٍ في الحالتَيْنِ هو الطِّينُ.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

١٠ ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بيَّن اللهُ تعالى المراحلَ المختلفَة لخَلْقِ الإنسان في بطنِ الأُمِّ، يعني: نُطفةً تتَّخذُ شكلَ الدّم متماسكِ القِوام، ثم مُضْغة، ثم عِظامًا، ثم يغطِّي اللَّحمُ العظامَ، ثم يَنفُخُ اللهُ فيه الرُّوحَ فيجعَلُ منه مخلوقًا جميلًا يُسمَّى السيِّدَ الإنسانَ أشرفَ المخلوقات.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾

١١ ـ جَعَلْنا فوقَكم سبعَ طُرُقٍ ومداراتٍ تدورُ فيها الكواكبُ، ويمكنُ أن يكونَ المرادَ منها السَّماواتُ السَّبعُ أيضًا، بمعنى: أنّ خَلْقَ الإنسانِ من قطرةِ ماءٍ أمرٌ عظيم، لكنّ الأعظَم منه أيضًا خَلْقُ السّماواتِ العالية اللامُتناهية.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

١٢ ـ يعني: أنّنا خَلَقْنا السّماواتِ ولم نَغفُلْ من مصلحةِ المخلوقِ الأرضيِّ واحتياجاتِه، بل إنّ في خَلْقِ السّماءِ ودَورانِ الكواكبِ فيها فائدةً لهذا المخلوقِ الأرضيِّ أيضًا.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾:

١٣ ـ نحن نُنزِلُ المطَر طبقًا لاحتياجاتِكم، وبه تَرتَوي حقولُكم وحدائقُكم، وتتجمَّعُ مياهُه في القنَوات، وبعضُ هذه المياه تمتَصُّه الأرضُ وتُخزِّنُه بباطِنِها،

فيفيدُكم عن طريقِ الآبارِ والعيون، ولكنْ إذا أرَدْنا جَعَلْنا الماءَ كلَّه يَنزِلُ في البحار، ويتبخَّرُ هذا الماءُ فيرتفعُ إلى أعلى، أو نجعَلُه يغوصُ في أعماقِ الأرض بحيث يصبحُ من المستحيل عليكم أن تستخرِجوه، لكنَّنا لم نفعَلْ ذلك نظرًا لاحتياجِكم إليه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾

١٤ ـ من بينِ النِّعم التي تَنبُتُ من الأرضِ للإنسان: شجرةُ الزَّيتون، والتي تَنبُتُ وتنمو بكثرةٍ في منطقة طُور سَيْناءَ، وقد أَقْسم اللهُ تعالى بالزَّيتون في سورةِ (التِّين)، ويُستخرَجُ الزَّيتُ من هذه الشجرة، كما أنّ ثمارَها تُطبَخُ وتؤكلُ، ولهذا فهي شجرةٌ مباركةٌ ومفيدة.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

١٥ ـ جَعَل اللهُ تعالى في الأنعام فوائدَ عظيمةً لكم، فتشربونَ الألبانَ من بعضِها، وتأكلونَ لحومَ بعضِها، وتركَبونَ ظهورَ البعضِ الآخَر، وفي هذا مقامٌ للتفكُّرِ والتدبُّر، حتى تشعُروا بنِعَم الله تعالى وحِكمتِه، وتؤدُّوا شُكرَه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾

١٦ ـ حين يُنادي أحدٌ بإصلاح الأحوالِ وفلاح الدّاريْن، فإنّ أصحابَ السُّلطةِ ومخالفي الحقِّ يتّهمونَه ـ على الفَوْر ـ بأنه شخصٌ متعطِّشٌ إلى السُّلطة، وهذا هو نفسُ الاتّهام الذي وَجَّهه كُبَراءُ قوم سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ إليه، بأنه ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، وهو نفسُ الاتّهام الذي وجَّهه فِرعَونُ ورجالُ بَلاطِه إلى سيّدِنا موسى وسيّدِنا هارونَ عليهما السَّلام: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، كما أنّ سادةَ مكّةَ وكُبَراءها كانوا يُشيعونَ هذا الأمرَ حولَ نبيِّنا الحبيبِ ﷺ، ولهذا عَرَضُوا عليه المالَ والثّروةَ وحُكمَ مكّة، بشَرْطِ أن يتخَلَّى عن دعوةِ التوحيد، لكنّه ﷺ قال لهم: «ما جئتُ بما جئتُكم به أطلُبُ أموالَكم ولا الشَّرفَ فيكم ولا المُلكَ عليكم، ولكنّ اللهَ بعثَني إليكم رسولًا. واللهِ! لو وضَعتُم الشّمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أترُكَ هذا الأمرَ حتّى يُظهِرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُه»[1].

والحقيقةُ أنّ الذين يُفْنُونَ أعمارَهم في تحقيقِ مصالحِهم الشَّخصيّةِ والحصُولِ على العزِّ والجاهِ الدُّنيَويِّ، يَصعُبُ عليهم تصوُّرُ أن يكونَ في هذه الدُّنيا مخلِصونَ يوقِفونَ حياتَهم على خِدمة بني الإنسانِ فقطْ، ودونَ مقابلٍ أو أَجْر، وتاريخُ هذا الصِّراع بينَ الحقِّ والباطل قديمٌ قِدَمَ الإنسانِ نفسِه، لكنّ اللهَ تعالى يُقَيِّضُ في كلِّ

(١) سيرة ابن كثير، ١: ٤٧٤.

عصرٍ من الناسِ من يسيرُ على خُطَى الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام موقِفين حياتَهم لرِفعةِ شأنِ الحقِّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾

١٧ ـ قال سيِّدُنا نوحُ عليه السَّلام: يا قومي، لقد أرسَلَني اللهُ إليكم نبيًّا، فاتَّقوا اللهَ واخشَوْه ولا تعبُدوا أحدًا سواه؛ لأنه لا أحدَ غيرَهُ يستحِقُّ العبادة. وعندَئذٍ قال الكُفَّارُ من كُبَراءِ قومِه للناس: هذا الشَّخصُ بشَرٌ مِثلُكم، فكيف يكونُ نبيًّا، ولو أنَّ اللهَ تعالى أراد أن يُرسلَ أحدًا نبيًّا لاتَّخذَه من الملائكة، كما أنَّ التوحيدَ الذي يدعُوكم إليه هذا الشَّخصُ لم نسمَعْ بدعوةٍ مِثلِه من آبائنا وأجدادِنا أبدًا، وإنّنا نعتقدُ أنَّ هذا الشَّخصَ مجنونٌ أو به لُوثةٌ، لهذا أمهِلوه لفترةٍ حتى يزولَ عنه جنونُه، وعندَئذٍ سيتخَلَّى هو بنفسِه عن هذه الدَّعوة.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾

١٨ ـ ضاق سيِّدُنا نوحُ عليه السَّلامُ بتكذيبِ قومِه له، فلجَأَ إلى حضرةِ الله تعالى شاكيًا إليه، وعندَئذٍ قال اللهُ تعالى لسيِّدِنا نُوح عليه السَّلامُ أنِ اصنَعْ سفينةً طِبقًا لِما نُوحي به إليك، وحينَ يتفجَّرُ الماءُ من الأرضِ وتمتلئُ به، ويَخرُجُ الماءُ حتى من مواقدِ النار أيضًا، عندَئذٍ عليك أن تَصطحبَ معَك في السَّفينِ زوجَيْنِ اثنَيْنِ من كلِّ نوع، واصطَحِبْ أهلَ بيتِك أيضًا، ما عدا أولئك الظالمينَ الذين قرَّرنا أن نُغرِقَهم، وحين يُحيطُ الغرَقُ بهؤلاءِ الظالمينَ فلا تشفَعْ لإنقاذِهم؛ لأنّهمُ استحَقُّوا الغرقَ بسببِ طُغيانِهم وتمرُّدِهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

١٩ ـ في قصّةِ سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ آياتٌ ودروسٌ وعِبَرٌ كثيرةٌ، يعني: أنّ الأنبياءَ الذين دَعَوا إلى التوحيدِ كانوا على الحقِّ، وأنّ الذين كذَّبوهم كانوا على الباطل، وأيضًا كما أنّ اللهَ تعالى ابتَلَى قومَ نُوح، سيَبتلي أيضًا الناسَ جميعًا، ليرى من يَعتبرُ بسَماع هذه الآياتِ ومن لا يَعتبِر.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

٢٠ ـ بعدَ سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ خَلَق اللهُ تعالى قومَ عادٍ أو قومَ ثمُودَ، وأرسَل إليهم رسُولًا منهم أيضًا، حيث قام بدعوةِ قومِه وتبليغِهم نفسَ الرِّسالةِ التي ظلَّ الأنبياءُ الكرامُ السابقونَ يُبلِّغونَها إلى أقوامِهم، يعني: اتَّقوا اللهَ واعبُدوه؛ لأنه لا أحدَ يستحِقُّ العبادةَ سواه.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا

لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

٢١ ـ حينَ أرسَلَ اللهُ تعالى نبيًّا إلى قوم عادٍ أو قوم ثَمُودَ بعدَ سيِّدِنا نُوح عليه السَّلام، قال المُرَفَّهونَ ماديًّا والمُنكِرونَ للتوحيدِ والآخِرة من كُبَراءِ قومِه للناس: هذا الشّخصُ بشَرٌ مِثلُكم، يأكلُ كما تأكلون، ويشربُ كما تشربون، فكيف يكونُ نبيًّا؟ ولهذا إنْ تخلَّيتُم عن حُرِّيَّتِكم، واتَّبعتُم بشَرًا مِثلَكم، فإنّكم خاسِرونَ على وَجْهِ اليقين.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾

٢٢ ـ قال أولئك الكُفّارُ من السَّادة: هذا النبيُّ يؤكِّدُ لكم على بَعْثِكم من جديدٍ بعدَ أن تموتوا وتصبحوا ترابًا، معَ أنّ تصديقَ مِثلِ هذا الكلام بعيدٌ تمامًا عن العقل.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

٢٣ ـ كان أولئك الكُفّارُ من السَّادة يعتقدونَ أنّ حياتَنا هي هذه الحياةُ الدُّنيا فقطْ، نَحيا ونموتُ فيها، ولن نُبعَثَ بعدَ ذلك من قبورِنا، ولكنّ هذا الشّخصُ يفتري على اللهِ الكذِبَ قائلًا بأنّنا سنُبعَثُ من جديد، ولهذا لن نؤمنَ به.

أهمية عقيدة القيامة وضرورتها:

علَّق شيخُ طريقتي ضياءُ الأُمة سيِّدُنا القاضي الشّيخُ محمَّد كرَم شاه الأَزْهريُّ رحمَه اللهُ تعالى تعليقًا جميلًا عن القيامة، وأنا أَنقُلُ ما قاله بنصِّه للقُرّاءِ الكرام هنا:

«هذه الدُّنيا دارُ العمل، وليست دارَ الحساب، ونحنُ هنا في هذه الدُّنيا نرى أُناسًا يعيشونَ في رَفاهيَةٍ وعزٍّ رَغْم كونِهم في غايةِ السُّوءِ أخلاقًا، وأناسًا مخلصينَ يُحِبُّونَ الخيرَ وبِصِدقٍ لبني جِلدتِهم، بل لبني الإنسانِ جميعًا، وبالرَّغم من ذلك تراهُم مُبتَلَيْنَ بالمصائبِ المختلفة والابتلاءاتِ المتعدِّدة، ولو أنّ الموتَ هو المحطةُ النِّهائيةُ لحياةِ الإنسان فعلًا، لكان ذلك ظُلمًا عظيمًا لا نظيرَ له، إذ إنّ الإنسانَ الصّالحَ المُخلِصَ يتقلَّبُ على الأشواكِ طيلةَ العمُر، بينَما المجرمُ القاتلُ يتنعَّمُ راغدًا، في مِثل هذه الظروفِ، مَن يتبنَّى تلك القِيَمَ الأخلاقيّةَ التي ترتبطُ بعظَمةِ الإنسان إذًا؟ بل من سينظُرُ إلى هذه القِيَم على أنها شيءٌ جيِّدٌ أصلًا؟ ذلك الفدائيُّ الذي يُضحِّي بشبابِه ورفاهيَةِ عمُرِه من أَجْل حرِّيةِ قومِه ووطنِه، سيكونُ أفضَلَ منه ذلك الخائنُ الذي قضَى عمُرَه في عزٍّ ورفاهيَة، وتَرَكَ لأولادِه من بعدِه أكوامًا من الذَّهب، رَغْم أنه باع شرَفَ قومِه وعِرضَهم للعدوِّ! والاكتفاءُ بالقولِ: إنّ من يعمَلُ الصّالحاتِ يترُكُ خَلْفَه السُّمعةَ الطيِّبة، وتَزْدَانُ صفَحاتُ التاريخ بذِكرِه، مما يُعتبَرُ مكافأةً له على فدائه، مِثلُ هذا القولِ ظُلمٌ عظيم، فاللهُ تعالى ـ وهو العادلُ الحكيم ـ لا يمكنُ أن يَحدُثَ مِثلُ هذا التزييفِ في مَلَكوتِه، ولهذا فإنّ حِكمتَه تقتضي أن تكونَ هناك حياةٌ خالدةٌ بعدَ هذه الحياةِ الفانية، حيث تتحقَّقُ مقتَضَياتُ العدلِ والإنصاف، وينالُ الصّالحونَ المخلِصونَ أَجْرَ جَدِّهم واجتهادِهم كاملًا، ويُعاقَبُ المسيئونَ عقابًا كاملًا على ما ارتكبوه من سيِّئاتٍ وجرائمَ.

ولو قيل: إنّ اللهَ تعالى عادل، فلماذا لا يَظهَرُ العدلُ في هذه الدُّنيا؟ فإنّني أقولُ ردًّا على هذا باختصار: إنّ دائرةَ حياتِنا الدُّنيا هذه محدودةٌ للغاية، بحيث لا يمكنُ أن تتحقَّق فيها مقتَضَياتُ العدلِ والإنصافِ بصورةٍ كاملة، وهناك بعضُ الأعمال الجَليلةِ التي لا يمكنُ أن ينالَ صاحبُها أَجْرَه كاملًا في هذه الدُّنيا، إذ ما الأَجْرُ الذي

يمكنُ أن تعطيَه في هذه الدُّنيا لمن قَدَّم رُوحَه إعلاءً للحق؟ والإنسانُ كلما تعمَّقَ في التفكيرِ حولَ هذه المسألة، قَوِيَ اعتقادُه بالحياةِ الآخِرة وأصبح متينًا»[1].

أهمية عقيدة القيامة وضرورتها:

لا يمكنُ أن تتحقَّقَ مقتَضَياتُ العدلِ والإنصافِ في هذه الحياةِ الفانية، ولهذا فإنّ الإيمانَ بالقيامة ضرورةٌ لا غنى عنها، وإليك بعضَ الأدِلةِ العَقْليّة والأدِلّة البسيطةِ عليها:

١ ـ أَجْرُ الشَّهيد:

مجاهدٌ بَذَل رُوحَه لرفعةِ الحقِّ وحمايةِ وطنِه وأُمّتِه، يحِقُّ له أن ينالَ الأَجْرَ الذي يَليقُ بتضحيتِه، إذْ ما الفائدةُ التي تعودُ على ذاتِه من تكفينِه ودفنِه في عَلَم البلاد، وإقامةِ نُصُبٍ تذكاريٍّ باسمِه؟ كما أنّ الشُّهرةَ التاريخيّةَ فقطْ لا تكفي أن تكونَ أجرًا على بَذْل أغلى شيءٍ وهو الرُّوح، وإنّما من الضَّروريِّ أن تكونَ هناك حياةٌ خالدةٌ بعدَ هذه الحياةِ الفانية، حيث يُنعِمُ اللهُ تعالى فيها على شُهداءِ الأُمّةِ هؤلاء بما يليقُ بهم من أجرٍ وثواب.

٢ ـ قِصَاصُ المقتول:

كَهْلٌ في السبعينَ من عمُرِه، عاشَ الفترةَ الذَّهبيّةَ من حياتِه، لو أنه أطلَقَ الرَّصاصَ من بُندقيَّتِه وقَتَل شابًّا في الثلاثينَ من عمُرِه بلا سبب، فإنّ القانونَ في هذه الدنيا سيُعاقبُه بالسِّجنِ لخمسٍ أو عشْرِ سنين، أو على أقصَى حدٍّ بالإعدام، فهل يؤدِّي هذا حقَّ الشابِّ المقتول؟ وهل ـ بهذا ـ سيؤدَّى حقُّ زوجتِه الشابّة وأطفالِه

---

(١) تفسير ضياء القرآن.

اليتامى؟ بالطبع لا، وتقتضي الحقوقُ الإنسانيّةُ أن يأتيَ يومُ القيامة، الذي سيؤدَّى فيه حقُّ هذا المظلوم، ويَلقَى فيه الظالمُ العقابَ الذي يستحِقُّه.

٣ ـ سَفّاح يورْك شايَر:

قام بيتَر وليَم سُتّ كْليف (Peter William Sutcliffe) المعروفُ باسم (سَفّاح يورْك شايَر: Yorkshire Ripper) بقتل ثلاثَ عشْرةَ امرأةً في الفترةِ من ١٩٧٥م إلى ١٩٨٠م، وحاول قَتْلَ سبعَ سيّداتٍ أُخرَيات، وحَكَم عليه القاضي بالسِّجن مدى الحياة عشرينَ مرة[1]، يعني: الرَّجلُ لديه حياةٌ واحدةٌ سيقضيها في السِّجن، ولو كان لديه عشرونَ حياةً لَحَكمتْ عليه المحكمةُ بأنْ يقضيَ هذه العشرينَ حياةً في السِّجن عقابًا له على ما ارتكبَه ضدَّ عشرينَ امرأة، ولهذا هناك حاجةٌ إلى حياةِ الآخرةِ الطويلة، حتى يمكنَ عقابُ «سَفّاح يورْك شايَر» على قَتْل السيّداتِ التِّسعَ عشْرةَ الأُخرَيات.

٤ ـ محرَقةُ الهولوكوست:

تمَّ قَتْلُ وحرقُ ستةِ ملايينَ يهوديٍّ بأمرِ (هتلر: Hitler) إبّانَ الحربِ العالميّة الثانية، واليومَ لا يستطيعُ أيُّ قانونٍ من قوانينِ الدنيا معاقبةَ هذا الظالم بالعقابِ الذي يستحِقُّه، ولهذا منَ الضَّروريِّ أن تكونَ هناك الحياةُ الآخِرةُ الدائمة، حتى يمكنُ معاقبةُ هتلَر على قَتْل ستةِ ملايينَ يهوديٍّ فردًا فردًا.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾

٢٤ ـ هذا النبيُّ عليه السَّلامُ قد ضاقَ هو الآخَرُ أيضًا بتكذيبِ أُمّتِه له مثلَما حدَث معَ سيّدِنا نُوح عليه السَّلام، فطلَبَ المدَدَ منَ الله تعالى، فقال اللهُ تعالى: إنّ

---

(١) The Guardian Friday, May 22, 1981.

العذابَ سيَنزِلُ على هؤلاءِ القوم قريبًا، وسيندَمونَ حينَ يرَوْنَه، ولكنْ لا جدوى من النَّدم في اللَّحظاتِ الأخيرة، وهكذا عندَما تحقَّق وعْدُ الله الحقُّ، وحَلَّ بهم عذابُ الصَّيحة، أهلَكَهم وجَعَلَهم كالغُشبِ الجافِّ، والظالمونَ محرومونَ دائمًا من عذابِ الله تعالى.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾

٢٥ ـ الوقتُ الذي حدَّده اللهُ تعالى لنزولِ العذابِ على أُمّةٍ من الأُمم، سيَنزِلُ العذابُ طِبقًا له تمامًا، ولن يتأخَّرَ أو يتقدَّمَ ولو للحظةٍ واحدة.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

٢٦ ـ أهلَكَ اللهُ تعالى بعضَ الأُمم، وأنشَأَ بعدَها أُممًا أخرى، وبَعَث رسولًا إلى كلِّ أُمّةٍ منها، لكنّ كلَّ أمةٍ كذّبتْ برسولِها، فأهلكَ اللهُ تعالى كلَّ أمةٍ فعلت ذلك، بحيث لمْ يَعدْ لها ذكرٌ، وأصبَحتْ قصةً تُحكى، والحقيقةُ أنّ الذين لا يؤمنونَ باللهِ تعالى محرومونَ دائمًا من رحمته.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾

٢٧ ـ أرسَل اللهُ تعالى سيّدَنا موسى وسيّدَنا هارونَ عليهما السَّلامُ إلى فِرعَونَ ورجالِه، وكانوا باغينَ متكبِّرين، فكذَّبوهما، الأمرُ الذي أدَّى إلى أنْ أَغْرقَهم اللهُ تعالى جميعًا عقابًا لهم على تكذيبِهم.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

٢٨ ـ إنّ ولادةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ، وحَمْلَ السيّدةِ مريَمَ العذراءَ

عليها السَّلامُ بغيرِ زوجٍ من آياتِ قُدرةِ الله تعالى، والمرادُ بالرَّبوةِ أو المكانِ المرتفع هنا ربَّما يكونُ: ذلك المكانُ الذي لَجأتْ إليه السيِّدةُ مريَمُ عليها السَّلامُ لتتوارى عن عيونِ الناس، ووُلد سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ، وتفجَّرتْ من تحتِه عينُ ماءٍ، مثلَما جاء في الآيةِ رقم **٢٤** من سُورة مريَم **(١٩)**.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

٢٩ ـ في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى بأَكْل الأشياءِ الطاهرةِ الحَلال، بمعنَى: تلك الأشياءِ التي تكونُ طاهرةً في ذاتِها، وتمَّ الحصُولُ عليها بطريقةٍ مشروعة، والنَّتيجةُ الحَتْميّةُ لهذا أن لا تؤكَلَ الأشياءُ النَّجِسةُ المحرَّمة.

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أيُّها النّاسُ، إنّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبَلُ إلّا طيّبًا، وإنّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المرسَلينَ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثمّ ذكَر الرّجُلَ يُطيلُ السَّفَر أشعَثَ أغْبَر يمُدُّ يدَيْه إلى السّماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطْعَمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، وملبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يُستجابُ لذلك؟»[1].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضيَ اللهُ عنه: سمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم يقول: «لا يَدخُلُ الجنّةَ لحمٌ ودمٌ نَبَتا من بَخْسٍ»[2].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

٣٠ ـ دَعا الأنبياءُ الكرامُ جميعًا عليهمُ السَّلامُ إلى دِينٍ واحد، أي: دينِ التوحيد، لكنّ الناسَ فيما بعدُ تَركوا التوحيدَ وانقَسَموا فِرَقًا، وكلُّ فرقةٍ سعيدةٌ بنظريّاتِها مطمئنّةٌ بها.

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

٣١ ـ قال اللهُ تعالى لنبيِّه الحَبيب ﷺ: لقد أدَّيتَ حقَّ الدّعوةِ إلى الحقِّ،

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب ١٩ برقم ١٠١٥.

(٢) شعب الإيمان، ٥: ٥٥ برقم ٥٧٥٧.

فإذا ظلَّ هؤلاءِ الناسُ أُسارى لتعصُّبِهم رَغْم كلِّ هذا، ولم يؤْمنوا بك، فلا تحزَنْ ولا تغتمَّ، ودَعْهُم في غَفْلتِهم يعمَهون، وحين تنتهي مدّةُ حياتِهم، سيتَّضحُ لهم الحقُّ والباطلُ بشكلٍ واضح.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

٣٢ ـ أصحابُ العقائدِ والأعمالِ السيِّئة في هذه الدُّنيا، لكنَّهم من الناحيةِ الدُّنيويّة أصحابُ عزٍّ وثروة، لا ينبغي لهم أن يعتقِدوا أنّ اللهَ تعالى ـ بهذا ـ راضٍ عنهم، وإنّما هذا ابتلاءٌ لهم، لكنّهم لا يفهَمونَ الحقيقةَ؛ لأنّ طُرُقَ الله تعالى في الابتلاءِ مختلفة، أحيانًا يبتلي بالمالِ والأولاد، وأحيانًا يبتلي بالحِرمانِ من كلِّ هذا، لكنّه يرضَى فقطْ عن أولئك الذين يُطيعونَه في كلِّ حال. يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجلّ يُعطي الدّنيا من يُحبُّ ومَن لا يُحبّ، ولا يُعطي الدِّينَ إلّا لمَن أَحبّ، فمَن أعطاهُ اللهُ الدِّينَ، فقد أَحبَّه»[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾

٣٣ ـ أهلُ الإيمانِ الذين يُنفقونَ مالَهم في سَبيل الله تعالى، ويستعملونَ إمكانيّاتِهم في الأعمالِ الصّالحةِ الأخرى، وفي نفسِ الوقت لا يتفاخَرونَ بحسَناتِهم، وإنّما يظَلُّونَ في خَشْيةٍ من الله تعالى خوفًا من أن تضيعَ حسَناتُهم بسببِ تقصيرٍ منهم، هؤلاءِ هم ـ في الحقيقة ـ الذين يتقدَّمونَ دائمًا في عمَل الخير، مثلَما وَرَد في الحديثِ النَّبويِّ الذي تقولُ فيه أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت

(١) مسند أحمد، ١: ٣٨٧.

عائشة: أهمُ الّذين يشربونَ الخمرَ ويسرقونَ؟ قال: «لا يا بنتَ الصّدِّيق، ولكنّهم الّذين يصُومونَ ويُصَلُّون ويتَصدَّقونَ وهم يخافونَ أن لا يُقبَلَ منهم، أولئك الّذين يسارعونَ في الخيراتِ وهم لها سابقون»[1]، ويقولُ سيّدُنا الحسَنُ البَصْريُّ: «لقد أدرَكْنا أقوامًا كانوا ـ من حسَناتِهم أن تُرَدَّ عليهم ـ أشفقَ منكم على سيّئاتِكم أن تُعذَّبوا عليها»[2].

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

٣٤ ـ اللهُ تعالى لا يُطالبُ أحدًا بأعمالٍ لا يستطيعُ القيامَ بها، لكنْ بالرَّغْم من ذلك مَن يعصي اللهَ تعالى فإنّ كلَّ حركاتِه وسَكَناتِه مدوَّنةٌ في صحيفةِ أعمالِه، وسوف تُفتَحُ هذه الصَّحيفةُ وتوضَعُ أمامَه يومَ القيامة، وسيكونُ عقابُه طبقًا لها، ولن يُظلَمَ أحدٌ ولو بمقدارِ ذَرّةٍ.

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾

٣٥ ـ قلوبُ الكُفّارِ غافلةٌ عن عقيدةِ التوحيدِ وعقيدةِ الآخِرة، وأعمالُهم على عكسِ أعمالِ المؤمنين، يعني: أنّ عقيدتَهم باطلة، وأعمالَهم أيضًا سيّئة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾

٣٦ ـ عندَما ينزِلُ العذابُ لا يُفرِّقُ بينَ المنعَّمِينَ والفقراءِ المُدْقِعين، ولكنْ في مِثل هذه الأوقاتِ فإنّ المنعَّمينَ هم الذين يُثيرونَ الضَّجيجَ والصَّخَب، ولهذا خوطِبوا أن لا تَصْرُخوا، فلن يساعدَكم أحدٌ، والمرادُ بهذا إن كان العذابُ الدُّنيَويُّ فهو ميدانُ معركةِ بَدْرٍ الذي قُتِل فيه سبعونَ من الكُفّار، وأُسِر سبعونَ آخَرون، بينَما

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة المؤمنون (٢٣): باب ٢٤ برقم ٣١٧٥.

(٢) تفسير القرطبي.

فرَّ الباقونَ صارخينَ هاربينَ، أمّا إن كان المرادَ به العذابُ الأُخْرَويُّ فإنّ صُراخَهم وعَويلَهم هناك في جهنَّمَ لن يُفيدَهم بشيءٍ؛ لأنّ تلك الدارَ هي دارُ الجزاء.

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

٣٧ - حين يصرُخُ الكُفّارُ المبتَلوْنَ بالعذابِ سيقالُ لهم: ألا تَذكُرونَ ذلك الوقتَ حينَ كان رسولُ الله يَتْلو عليكم آياتِ القرآن، وكنتُم لا تُطيقونَ سَماعَه، وتفِرُّونَ من المكانِ متكبِّرين، كما أنكم كنتُم تقْضُونَ اللياليَ القمَريّةَ عندَ الكعبة، وتتآمَرون على صاحبِ القرآن، ولهذا ذوقوا اليومَ نتيجةَ تآمُرِكم، ولن يُفيدَكم صُراخُكم وعَويلُكم في شيءٍ.

الحديث بعد صلاة العشاء:

يقولُ سيّدُنا أبو بَرْزةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ كان يَكرَهُ النّومَ قبلَ العشاء والحديثَ بعدَها(١).

ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «ورُوِيَ عن عُمرَ، أنّه كان يضربُ النّاسَ على الحديثِ بعدَ العشاء، ويقول: أسُمَّرًا أوّلَ اللّيل ونُوَّمًا آخِرَه! أريحوا كُتّابَكم»(٢)، ويقولُ أهلُ العلم: «إنّ الحِكمةَ في كراهيَةِ الحديثِ بعدَها إنّما هو لِمَا أنّ اللهَ تعالى جَعَل اللّيلَ سَكَنًا، أي: يُسكَنُ فيه، فإذا تحدَّثَ الإنسانُ فيه فقد جَعَله في النّهارِ الّذي هو متصرَّفُ المعاش، فكأنّه قَصَد إلى مخالفةِ حِكمةِ الله تعالى الّتي أَجْرى عليها وجودَه»(٣).

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٢٣ برقم ٥٦٨.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) المرجع السابق.

ويُكرَهُ الحديثُ الطَّويلُ بعدَ صلاةِ العشاءِ في حالةِ ما لو كان الكلامُ تافهًا ولا جَدْوى من ورائه، أمّا الحديثُ في الدِّين والعِلم، والاستماعُ للوَعْظِ والنَّصيحة، والانشغالُ بالذِّكر وصلاةِ النوافل، والتشاورُ في أعمالِ الخيرِ وغيرِها ـ ولو كان إلى وقتٍ متأخِّرٍ من الليل ـ ليس ممنوعًا.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

٣٨ ـ الحقيقةُ أنّ كُفّارَ مكّةَ لم يتدبَّروا القرآنَ الكريمَ، ولو تدبَّروه لآمَنوا به، كما أنّ نزولَ القرآنِ الكريم ليس بالأمرِ الجديد، إذ إنّ الأنبياءَ الكرامَ السّابقينَ عليهم السَّلام كانوا يأتُونَ آباءكم وأجدادَكم، أي: الأُمَمَ السَّابقة، بكلام الله تعالى، إلّا أنّ كلامَ الله الذي جاء إلى أهلِ مكّةَ هو الآخِرُ، وهو الأعظَمُ شأنًا، ولهذا كان عليهم أن يُبادروا باستقبالِه، وأن يشكُروا اللهَ تعالى على هذا الفَضْل.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

٣٩ ـ هل كذَّبَ كُفّارُ مكَّةَ النبيَّ ﷺ لأنّهم لم يكونوا يعرفونَه؟ معَ أنّهم كانوا معترفينَ بصِدقِه وأمانتِه إلى درجةِ أنهم كانوا يُلقِّبونَه بالصّادقِ الأمين، مثلَما قال سيّدُنا جعفرٌ الطّيارُ رضيَ اللهُ عنه في حضرةِ نَجاشيِّ الحَبشة عندَ التعريفِ بالنبيِّ الكريم ﷺ: إنّ اللهَ تعالى أرسَلَ إلينا رسولًا منّا نَعرِفُ حسَبَه ونسَبَه وصِدقَه وأمانتَه وطهارتَه. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الواقعة راجعْ تفسيرَ الآية رقم **٨٣** من سُورة المائدة (**٥**)، وكذا الحاشيةُ رقم **١١٦**.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

٤٠ ـ هل لا يؤمنُ هؤلاءِ به ﷺ لأنّهم يعتقدونَ أنّ به مسًّا من الجنون، معَ أنه ﷺ أتاهم بقرآنٍ تعجِزُ الدُّنيا كلُّها عن أن تأتيَ بمثلِه، ولا يمكنُ أن يكونَ من يأتي

بهذا الكلام الذي لا نَظيرَ له في الفصاحةِ والبلاغة مجنونًا؟ والحقيقةُ أنه ﷺ قد جاءهم بدِين الحقِّ الذي يُخالفُ رغَباتِهم وعقائدَ آبائهم وأجدادِهم، ولهذا فإنّهم يَنفِرونَ من الحقِّ بسببِ عنادِهم ورغبتِهم في السِّيادةِ واللَّهو والعَبَثِ لا أكثرَ[1].

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾

٤١ ـ المرادُ بالحقِّ يمكنُ أن يكونَ: اللهَ تعالى، والنبيَّ ﷺ، والقرآنَ المَجِيدَ، ودينَ الحقِّ جميعًا، وكان من رَغَباتِ الكُفّار أن يتَخلَّوْا عن التوحيد ويعترفوا بمئآتِ الآلهة، والآنَ إذا تمَّ الاعترافُ في دينِ الحقِّ بمئآتِ الآلهة، فإنّ كلَّ نظام الأرض والسّماءِ سيختَلُّ، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى في صُورةِ دِين الحقِّ أتاهم بنصيحةٍ تُمثِّلُ وسيلةً لعزِّهم ووقارِهم، لكنّهم بَلَغوا من الحُمقِ والجهالةِ قَدْرًا جَعَلَهم يُعرضونَ عن خيرِ أنفُسِهم واحترامِها.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

٤٢ ـ هل لا يَقبَلُ هؤلاءِ دعوتَك خوفًا من أن تَطلُبَ منهم أجرًا عليها؟ مع أنّ هذا لا يمكنُ؛ لأنّ ربَّك هو الرازقُ، وهو أفضَلُ الرازقينَ وخيرُهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾

٤٣ ـ النبيُّ ﷺ يدعو الناسَ إلى الصِّراطِ المستقيم، وذلك لكي يترُكوا طريقَ السيِّئات، ويَسلُكوا سُبُلَ الخير، فينالوا في الآخِرة أجرًا عظيمًا، لكنّ الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة سيُعرِضونَ ـ يقينًا ـ عن الصِّراطِ المستقيم.

---

(١) «وهم له كارهون عنادًا وظلمًا لحب الرياسة واتباع الشهوات وتقليد الجهال». التفسير المظهري.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

٤٤ ـ هؤلاءِ قد تَوغَّلوا في طريقِ عبادةِ الباطل، وماتت ضمائرُهم إلى الحدِّ الذي لو رَحِمناهم معَه، ورَفَعْنا عنهم الضُرَّ، فلن يؤمنوا برَغْم هذا، وإنما سيظَلُّونَ منهمِكينَ في طُغيانِهم مصرِّينَ عليه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾

٤٥ ـ لقدِ ابتلاهُم اللهُ تعالى بالعذابِ مرّاتٍ عديدةً في صُورةِ أعوام من القَحْطِ ومعارِكَ وحروبٍ هُزِموا فيها، لكنّهم معَ ذلك لم يُوفَّقوا إلى التوبة، ولن يعودَ هؤلاءِ عن كُفرِهم ما لم يُفتَحْ عليهم بابٌ من العذابِ الأليم، وسيكونونَ في ذلك الوقتِ في قمّة يأْسِهم؛ لأنّ بابَ التوبةِ سيكونُ قد أُغلِقَ بالفعل.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

٤٦ ـ جاء في الآياتِ السّابقةِ أنّ اللهَ تعالى مثلَما خَلَق بني البشَرِ لأولِ مرةٍ

وأسكَنَهم الأرضَ، فإنه بنفسِ الطريقة سيُحييهم ثانيةً ويجمَعُهم في حضرتِه يومًا ما بعدَ مماتِهم، واللهُ تعالى كذلك هو خالقُ الموتِ والحياة، ومالكُ تعاقُبِ اللّيلِ والنهار، ولهذا فإنّ عمليةَ الإحياءِ بعدَ المماتِ لا تُمثِّلُ صعوبةً بالنِّسبة له، لكن كفّارَ مكّةَ رَدَّدوا نفسَ الكلام الذي كان الكُفّارُ من قبلِهم يقولونَه، بمعنى: أنه كيف يمكنُ أن يُحيِيَنا اللهُ تعالى بعدَ أن نموتَ ونصيرَ ترابًا، وأنّ الحقيقةَ هي أنّ قيامَ الساعةِ مجرَّدُ وعدٍ قيل لآبائنا وأجدادِنا منذ قُرون، ولا يزالُ يقالُ لنا أيضًا، ولم يتِمَّ تنفيذُه إلى الآنَ، وهذا يعني ـ ببساطة ـ أنّ هذا كلُّه مجرَّدُ قَصَصٍ وحكاياتٍ تَناقَلت إلينا ممّن سبَقُونا، ولا علاقةَ لها بالحقيقةِ من قريبٍ أو بعيد.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

٤٧ ـ يعني: بما أنّكم تعترفونَ بأنّ مالكَ الأرضِ وما عليها من مخلوقات، والسماواتِ السَّبعَ والعرشَ العظيمَ هو لله تعالى وحدَه، فلماذا لا تؤمنونَ بتوحيدِه، ولماذا لا تتدبَّرونَ أمرَ نَجاتِكم من عذابِه تعالى؟

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

٤٨ ـ يعني: بما أنّكم تعترفونَ أنّ المالكَ الحقيقيَّ لكلِّ شيءٍ هو اللهُ تعالى، وهو يُجيرُ من يشاء، وإن شاء لا يستطيعُ أحدٌ أن يُجيرَ أحدًا، فمنِ الذي سَحَر عقولَكم إذًا حتى جعَلَكم تشركونَ معَ الله القادرِ المطلَق؟

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

٤٩ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى الحقَّ إليهم حتى يعمَلوا به وينالوا رضاه، لكنَّهم انهَمَكوا

في عقائدَ باطلةٍ مثلَ: الشِّرك وإنكارِ الآخِرة إلى درجةٍ جَعَلتْهم لا يُبالونَ بالحقِّ ولا ينتبهونَ إليه.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

٥٠ ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، ولا حاجةَ به إلى أولاد، كما أنه أيضًا واحدٌ أحدٌ، ولو كان هناكَ أكثرُ من إلهٍ لَاصْطَدَم كلُّ إلهٍ بالإلهِ الآخَر متعاليًا عليه بما خَلَق، وهكذا يختَلُّ نظامُ الكائنات، ولذا فإنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن الشّريكِ والوَلَد.

﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

٥١ ـ مثلَما أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ على خَلْق كلِّ شيء، سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، وكذا قادرٌ على حُكمِه، فإنه أيضًا عالمٌ مطلَقٌ بكلِّ شيءٍ خَفِيٍّ وظاهر.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٥٢ ـ يعني: يا إلهي، لو نَزَل على الكفّارِ العذابُ الذي وُعِدوا به وأنا موجودٌ بينَهم، فلا تجعَلْني معَهم، والنبيُّ ﷺ معصومٌ، ولن يصيبَه ما سيصيبُ الظالمينَ من عذاب، ومعَ ذلك فإنّ اللهَ تعالى يرشدُ النبيَّ ﷺ هنا إلى التواضُع، حتى يزيدَ في أَجْرِه وثوابِه.

والتفسيرُ الآخَرُ لهذه الآية هو: أنه رَغْم أنّ الخطابَ فيها للنبيِّ الكريم ﷺ، لكنّ المقصودَ هو الأُمّةُ، يعني: على كلِّ واحدٍ من الأُمةِ أن يَطلُبَ من اللهِ تعالى هذا الدُّعاءَ أنْ يا ربِّ، لا تجعَلْني معَ القوم الظالمينَ عندما يَنزِلُ عليهمُ العذاب.

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾

٥٣ ـ اللهُ تعالى قادرٌ على أن يُريَ النبيَّ ﷺ عذابَ الكفّار، لكنّه لا يريدُ أن يُنزِلَ عليهمُ العذابَ في وجودِه ﷺ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾

٥٤ ـ أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، الكلامُ غيرُ المهذَّب الذي يقولُه عنكَ هؤلاءِ الكُفّارُ نحن نَعلَمُه تمامَ العِلم، وسوف نُعاقبُهم على هذا الكلام في الوقتِ المناسبِ أيضًا، ولكنّ عليكَ أن تُعاملَهم بالحُسنى والأخلاقِ الطيِّبة في مقابلِ سُوءِ أخلاقِهم وسُوءِ سلوكِهم. وخُلُقُ النبيِّ ﷺ وسلوكُه حتى من قَبْلِ النُّبوةِ رفيعٌ راقٍ لا يُدانيه خُلُقٌ، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى ـ في هذه الآية ـ يُعلِّمُ الأُمةَ الأخلاقَ الحسَنةَ عن طريق النبيِّ ﷺ، أي: أنّ مقابلةَ السيِّئة بالسيِّئةِ أمرٌ سهلٌ، ولكنّ هذا يؤدِّي إلى استمراريّةِ الوضع السيِّئ، لكنّ قلبَ العدوِّ يَلِينُ بالعَفْو والتسامح، ويَسُودُ بذلك جوٌّ من الأمنِ والسلام، وإليكَ بعضَ أقوالِ وأفعالِ النبيِّ ﷺ في هذا الخصوص:

١ ـ قال الكُفّارُ عن النبيِّ ﷺ: إنه ساحرٌ ومجنونٌ، وقاطَعوه اجتماعيًّا، وتآمَروا على قَتْلِه والعياذُ بالله، وأجبَروه على الهجرةِ من مكّةَ المكرَّمةِ، وقَتَلوا عمَّه سيِّدَنا حمزةَ بنَ عبدِ المطَّلب رضي اللهُ عنه ومَثَّلوا بجُثّتِه، ولكنْ حينَ فَتَح النبيُّ ﷺ مكّةَ بعد ثماني سنواتٍ من الهجرةِ خَطَب في هؤلاءِ الأعداءِ الألِدّاءِ في الكعبةِ قائلًا: «يا معشَر قُريشٍ! ما ترَوْنَ أنّي فاعلٌ بكم؟»، قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «أقولُ كما قال أخي يوسُف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، اذهَبوا فأنتم الطُّلَقاءُ»[1]، وهذا المثالُ من التَّسامح والعَفْو الذي ضَرَبَه النبيُّ ﷺ لا نجدُ له نظيرًا في التاريخ الإنساني، فلمّا رأى أهلُ مكّةَ هذا الكرمَ العظيمَ منه ﷺ تقدَّموا إليه صفوفًا، ودخَلوا في الإسلام على يدَيْه المباركتَيْنِ.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٨: ١٨، والسنن الكبرى، البيهقي، ٩: ١١٨.

٢ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضي اللهُ عنها: ما انتقَم رسولُ الله ﷺ لنفسِه في شيءٍ قطُّ، إلّا أن تُنتهَكَ حُرمةُ الله، فينتقمُ بها لله[١].

٣ ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ الصدِّيقةُ رضي الله عنها حينَ سَألَها أبو عبدِ الله الجَدَليُّ عن خُلُقِه ﷺ: «لم يكنْ فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صَخّابًا في الأسواق، ولا يَجزي بالسّيِّئة السّيِّئةَ، ولكنْ يعفو ويصفَح[٢].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «صِلْ مَن قَطَعَك، وأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وقُل الحقَّ ولو على نفسِك»[٣].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾

٥٥ ـ في هذه الآيةِ عَلَّم اللهُ تعالى عبادَه طريقةَ الاستعاذةِ من شرِّ الشياطين، عن طريقِ النبيِّ ﷺ، فالشّيطانُ أحيانًا يوَسوِسُ إلى الإنسانِ وهو بعيدٌ عنه، وأحيانًا يتبدَّى في شكلِ إنسان، ويشيرُ على الإنسانِ بمشورةٍ خاطئة، مثلَما ذَهَب إلى سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ عندَما همَّ بذَبْح سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السلام، وحاوَلَ منْعَه من ذَبْحِه. وباختصار: فإنّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مُبين، وهو يَرى الإنسانَ من حيثُ لا يراه، ولذا ينبغي للإنسانِ أن يستعيذَ بالله تعالى من شرِّ الشّيطان، حتى يَحفَظَه اللهُ تعالى من الشّيطانِ ومن وَسوستِه، وإليك بعضَ الأَدعيةِ في هذا الخصُوص:

ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رواه عَمْرُو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه: «إذا فَزِع أحدُكم في النّوم فلْيَقُلْ: أعوذُ بكلماتِ الله التّامّةِ من غضَبِه وعقابِه وشرِّ عبادِه، ومن

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.
(٢) الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ٦٩ برقم ٢٠١٦.
(٣) كنز العمال، ٣: ٣٥٩ برقم ٦٩٢٩.

هَمَزاتِ الشّياطين، وأن يَحضُرون، فإنّها لن تَضُرَّه»، قال: وكان عبدُ الله بنُ عَمْرٍو يُلقِّنُها مَن بَلَغ من وَلَدِه، ومَن لم يَبلُغْ منهم كتبَها في صكٍّ ثمّ عَلَّقها في عنُقه»[١].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾

٥٦ ـ سيتمنّى الكافرُ عندَ موتـِه، وعندَ بَعْثِه من قبرِه، وعندَ إلقائه في جهنّم، أن لو أعيدَ إلى الحياةِ الدُّنيا ثانيةً، حتى يعمَلَ الصّالحاتِ، ولكنّ هذا الكلامَ كلَّه لن يُفيدَه بشيء؛ لأنّ وقتَ التوبةِ كان قبلَ ذلك بكثيرٍ، وهو لم يستفِدْ منه، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فهو يكذِبُ؛ لأنه على فَرْض المستحيلِ لو أُرسلَ إلى الدُّنيا ثانيةً فلن يعمَلَ صالحًا، لأنه لم يكنْ مُنكِرًا للإسلام في الدُّنيا بسببِ سُوءِ فَهْم مثلًا، وإنما كثيرًا ما يحدث أن يكون الإنسان على علم جيدٍ بحقيقةٍ من الحقائق، ولكنّه يُنكرُ هذه الحقيقةَ بسببِ عنادِه وتعصُّبه وتكبُّره وحِقدِه وطمَعِه واتِّباع هوى النفْس، وهذه كلُّها أمراضٌ مُهلِكةٌ تجعَلُ الإنسانَ غافلًا عن عاقبتِه ومصيرِه، كما أنّ اللهَ تعالى قد خَلَق هذه الدُّنيا للابتلاء، فإذا أَرَيْنا إنسانًا عاقبةَ السُّوء، ثم أرسَلناهُ إلى الدُّنيا ثانيةً، فلن يكونَ هناك معنًى للابتلاءِ عندئذٍ.

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

٥٧ ـ ما يكونُ حائلًا بينَ شيئَيْنِ وعقَبةً بينَهما يُطلَقُ عليه «بَرْزَخ»، والمرادُ بالبَرْزَخ هنا: الفترةُ التي تفصِلُ بينَ الموتِ والقيامة؛ لأنه حِجابٌ بينَ الحياةِ الدُّنيا والحياةِ الآخِرة، ولهذا لا يستطيعُ أحدٌ أن يعودَ إلى هذه الدُّنيا بعدَ أن يفارقَها، وإنّما سيبقَى في هذا البَرْزَخ حتى يومِ القيامة.

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٤ برقم ٣٥٢٨.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

٥٨ ـ ستنقطعُ كلُّ الأرحام بينَ الكُفّارِ يومَ القيامة، وليس معنى هذا أنّ الأبَ لن يكونَ أبًا، وأنّ الابنَ لن يكونَ ابنًا، ولكنّ معناهُ أنّ أحدًا لن يُباليَ بالآخَر، إذ سيكونُ كلُّ واحدٍ مشغولًا بأمرِ نفسِه، وسيَفِرُّ كلُّ واحدٍ من الآخَرِ بعيدًا، لكنّ أرحامَ النبيِّ ﷺ ستبقَى قائمةً مثلَما وَرَد عن سيّدِنا المِسوَر بن مَخْرَمةَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «فاطمةُ شَجْنةٌ منّي، يَبسُطُني ما بَسَطَها، ويقبِضُني ما قَبَضَها، وإنّه ينقطعُ يومَ القيامة الأنسابُ والأسباب، إلّا نَسَبي وسَبَبي وصهري»[1]، وستَظلُّ أنسابُ أهل الإيمانِ بالنبيِّ ﷺ قائمةً أيضًا، وسوف يُعينُ كلُّ منهم الآخَرَ؛ لأنّ النبيَّ ﷺ هو أبو المؤمنين، وأزواجُه المطهَّراتُ رضي اللهُ عنهنَّ أُمّهاتُ أهل الإيمان. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الموضوع راجعِ الآيةَ رقم ٢٣ من سُورة الرعد (١٣)، وكذا الحاشيةُ رقم ٣٢.

يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: سمِعتُ النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم يقول: إذا كان يومُ القيامة نادَى منادٍ من وراءِ الحِجاب: يا أهلَ الجَمْع، غُضُّوا أبصارَكم عن فاطمةَ بنتِ محمّدٍ صلّى الله عليه وآلِه وسلّم حتّى تَمُرَّ»[2].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

٥٩ ـ الذين تكونُ حسَناتُهم يومَ القيامة أكثرَ من غيرِهم همُ المفلِحون، وسيَدخُلونَ الجنّةَ، والذين ستكونُ سيِّئاتُهم هي الأكثرَ فهم الخائبونَ، وسيُلقَوْنَ في جهنَّمَ داخِرين، حيث ستحترقُ لحومُ وجوهِهم بنارِ جهنَّم وتنكمشُ، وتنكشفُ أسنانُهم، وسيكونُ منظرُهم في غايةِ القُبح.

---

(١) مسند أحمد، ٤: ٣٢٣، والمستدرك للحاكم، ٣: ١٥٨.

(٢) المستدرك، الإمام الحاكم، ٣: ١٦١، ومسند فاطمة، ١٣١.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

٦٠ ـ ألا تذكُرونَ حين كانت آياتُنا تُتلَى عليكم، وأنتم تكذِّبونَ بها؟ وعليه سيعترفونَ بالذنبِ قائلين: يقينًا غَلَبت علينا تَعاسةُ وشِقوةُ اتِّباع النفْسِ والهوى، وكنّا ـ بالفعل ـ قومًا ضالِّين.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

٦١ ـ يعني: أَخْرِجْنا مرّةً من نارِ جهنَّمَ وأعِدْنا إلى الدُّنيا ثانيةً، وإن عصَيْناكَ عندَها فنحن إذًا من الظّالمينَ ونستحِقُّ العقابَ، فيقولُ اللهُ تعالى لهم: لقد فات وقتُ الاستغاثة، ولهذا ذُوقوا عذابَ طُغيانِكم وضَلالِكمُ الآنَ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

٦٢ ـ يعني: حين كان المسلمونَ في الدُّنيا يَرفَعونَ يدَ الدُّعاءِ في حَضْرتي بالاستغفار، كنتُم تسخَرونَ منهم، وكنتُم تنهمِكونَ في مُضايقتِهم إلى الحدِّ الذي جَعَلَكم تنسَوْنَني، لكنّهم صَبَروا على إيذائكم، واليومَ أُنعِم عليهم لقاءَ صَبْرِهم بأَجْرٍ عظيمٍ بحينَ أصبحوا هم المُفلِحينَ الفائزينَ في كلِّ أمرٍ من الأمور.

﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

٦٣ ـ كان الكُفّارُ يعتقِدونَ أنّ الحياةَ الدُّنيا هي كلُّ شيء، وكانوا يُنكِرونَ الحياةَ الأُخرى، ولهذا سيُسألونَ يومَ القيامة: كم مَكَثْتُم في الدُّنيا من الوقت؟ وسيكونونَ في

غايةِ القلقِ والخوفِ عندَما يرَوْنَ أهوالَ يوم القيامةِ بحيث يشعُرونَ وكأنّ الحياةَ الدُّنيا أقلُّ من يوم واحد، وستُخبِرُهمُ الملائكةُ بالعددِ الصَّحيح، وعندَئذٍ سيقولُ اللهُ تعالى: إنّ الحياةَ الدُّنيا قليلةٌ فعلًا في مقابلِ الحياةِ الآخِرةِ الخالدة، ليتَكم عَرَفتُم أنّكم في هذه الدُّنيا لستُم خالدينَ، لَكنتُمُ اليومَ من المفلِحينَ الفائزينَ أيضًا معَ أهلِ الإيمان.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

٦٤ ـ اللهُ تعالى لم يَخلُقْ شيئًا عَبثًا ولو كان ذَرّةً صغيرةً، فكيف يمكنُ أن يَخلُقَ أشرفَ المخلوقاتِ السيّدَ الإنسانَ بلا مقصِدٍ أو هدف؟ فلقد أَنْعم عليه بإمكاناتٍ عظيمة من العَقْل والفَهْم استطاعَ بفَضْلِها إخضاعَ الأحياءِ جميعًا، ولهذا لا بدَّ أن يُسألَ عن هذه النِّعم العظيمة.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

٦٥ ـ الذين يُشركونَ معَ الله تعالى ليس لديهِم أيُّ دليل على إشراكِهم، ولهذا فإنّهم لا يمكنُ أن يُفلحوا يومَ القيامةِ أبدًا في حسابِ الله لهم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العصرِ من يوم الخميس ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨م
الموافق ١٨ رمضان ١٤٢٩هـ

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «النُّور»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٣٥** فيها.

وقت نزولها:

نَزَلت هذه السُّورةُ بعدَ غزوةِ بني المُصطَلَق؛ لأنّ بها ذِكرًا لحادثةِ «الإفْكِ» التي وَقَعت بعدَ غزوةِ بني المُصطلَق.

مضامين السورة:

الزِّنا جريمةٌ كبرى وذنبٌ عظيمٌ في الإسلام، وعقابُه شديدٌ في القرآنِ الكريم والحديثِ النَّبويِّ الشّريف، فإنْ زنا شخصٌ غيرُ متزوِّج يُجلَدُ مائةَ جَلدة، أمّا إنْ زنا المتزوِّجُ فيُرجَمُ، والشّخصُ غيرُ المتزوِّج قد تَغلِبُه شهوتُه في وقتٍ من الأوقات، أمّا زِنا المتزوِّج فهو خيانةٌ لزوجِه وتَعَدٍّ على حدودِ الله غيرُ مبرَّرٍ، ولهذا كان عقابُه مشدَّدًا.

في هذه السُّورة نَهى اللهُ تعالى عن ارتكابِ الأسبابِ التي يمكنُ أن تؤدِّي إلى الزِّنا، على سَبيل المثال: أمَرَ اللهُ تعالى كلَّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ أن يغُضَّ بصَرَه،؛لأنّ الشّيطانَ يُلقي بالأفكارِ السيِّئة في القلبِ عن طريقِ النظَر، ولهذا أنْزل اللهُ تعالى أحكامَ الحِجاب، ومَنَع من دخولِ بيتِ أحدٍ آخَرَ بغيرِ إذْنِه، حتى لا يَختلطَ غيرُ المَحارم من الرِّجالِ والنِّساءِ معًا.

كما جاءت في هذه السُّورةِ تلك الآياتُ التي برَّأَ اللهُ تعالى فيها أُمَّ المؤمنينَ السيّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها ممّا اتَّهمَها به المنافقونَ، وفي نفسِ الوقت أَغْلقَ اللهُ تعالى كلَّ أبوابِ اتِّهام النِّساءِ بلا سببٍ أو دليل، بأنّ من يتَّهِمُ امرأةً مسلمةً بالزِّنا، ولا يستطيعُ تقديمَ أربعةِ شهودٍ على ما يدَّعيه، فإنه يُجلَدُ ثمانينَ جَلدةً.

يقولُ سيّدُنا مجاهدٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عَلِّموا رجالَكم سُورةَ المائدة، وعلِّموا نساءَكم سُورة النُّور»[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكَرم، إنجلترا
بعدَ صلاةِ العصر من يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٨م
الموافق ٢٤ رمضانَ المبارك ١٤٢٩هـ

* * *

(١) كنز العمال، ١٦: ٣٧٢ برقم ٤٤٩٤٩.

سُورَةُ النُّورِ (٢٤)،

مكية (١٠٢)، آياتها (٦٤)، ركوعاتها (٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

١ ـ اللهُ تعالى هو الذي أَنْزل كلَّ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، وهو الذي قرَّر كلَّ الأحكام التي وَرَدتْ فيها، وبالتالي فإنّ من الممكنِ أن يكونَ معنى أن يَنسُبَ اللهُ تعالى نزولَ هذه السُّورةِ بصفةٍ خاصّةٍ إلى نفسِه أنّ أحكامَ هذه السُّورةِ بالذّاتِ على قدرٍ عظيم من

الأهميّة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «علِّموا رجالَكم سُورةَ المائدة، وعلِّموا نساءكم سُورةَ النُّور»(١).

الوِحدةُ الأُولى والأساسيّةُ للمجتمَع في الإسلام هي الأُسرة، فإذا صَحَّ نظامُ الأُسرةِ عاشَ المجتمَعُ كلُّه في أمنٍ وأمان، ولِعفّةِ كلِّ امرأةٍ في الأُسرةِ وكرامتِها مكانةٌ مركزيّةٌ، ولأنّ أحكامًا تتعلَّقُ بالمرأةِ قد أُنزِلت في هذه السُّورة، لهذا فإنّ لها أهميّةً خاصّةً.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾

٢ ـ جاء تحديدُ العقابِ في القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريفِ لأربع جرائمَ هي: السَّرقة، وقَذْفُ الشُّرفاءِ رجالًا ونساءً بالزِّنا، وشربُ الخمر، والزِّنا، وهو ما يُطلَقُ عليه الحدودُ، أمّا عقابُ باقي الجرائم فيقترحُه الأميرُ أو القاضي طِبقًا للظروف، وهو ما يُطلَقُ عليه التَّعزيرُ.

حكم وعقاب الزنا:

كان الزِّنا منتشِرًا في العصرِ الجاهليِّ، ولم يكنْ أكثرُ الناس يعتبرونَه عيبًا، ولهذا كان من الصَّعبِ إعلانُ عقابٍ شديدٍ له فجأةً، وهكذا نَزَل حُكمُ تحريم الزِّنا تدريجيًّا مثلَما حَدَث معَ حُكم تحريم شربِ الخمر، وكان أولَ حُكم نَزَل في هذا الخُصوص هو أنّ النساءَ اللّائي يرتِكبْنَ الزِّنا يتِمُّ حبسُهنَّ في البيوتِ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥]، حتّى لا يرتكِبْنَ هذا الذَّنب

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

مستقبَلًا، والحُكمُ الثاني في هذا الخُصوصِ مذكورٌ في الآيةِ رقم (٢) من هذه السُّورةِ نفسِها، يعني: اجلِدوا الرَّجلَ والمرأةَ عندَ ثبوتِ ارتكابِهما الزِّنا مائةَ جَلدةٍ، ثم بعدَ ذلك جاء النبيُّ ﷺ بحُكم أنّ مائةَ جَلدةٍ عقابُ غيرِ المتزوِّجينَ الذين يَزْنون، أما الذين يَزْنُونَ من المتزوِّجينَ رجالًا ونساءً فعقابُهم الرَّجْم.

شروط إثبات الزنا:

عقابُ الزِّنا هو أقسَى عقابٍ في الإسلام؛ لأنه ليس جريمةً تتعلَّقُ بشخصَيْنِ فقطْ، وإنّما هو جريمةٌ بَشِعةٌ في حقِّ شرفِ وكرامةِ أُسرتَيْنِ، ولهذا حدَّد الإسلامُ لإثباتِ وقوع هذه الجريمةِ أربعةَ شهودٍ بدَلًا من شاهدَيْنِ، على أن يكونوا مسلمينَ، وشهودَ عِيانٍ أيضًا، فإذا اتَّهَم شخصٌ شخصًا آخَرَ بالزِّنا، ولم يستطعْ تقديمَ أربعةِ شهود، يُجلَدُ ثمانينَ جَلدةً عقابًا له على هذا القَذْف، حتى لا يتجرَّأَ مستقبَلًا على اللعبِ بشَرفِ أحدٍ بغيرِ دليل، وقد ثَبَت وقوعُ جريمةِ الزِّنا مرَّتَيْنِ فقطْ في العهدِ النبويِّ الكريم، وكان اعترافًا ممَّن ارتكَبوا الزِّنا أيضًا، ولم يتحقَّقْ شرطُ وجود أربعةِ شهود، وفي هذا الخصُوص هناك حديثانِ طويلانِ وَرَد فيهما ذِكرٌ لرَجْم سيِّدِنا ماعزِ بن مالكٍ وامرأةٍ لارتكابِهما الزِّنا واعترافِهما بذلك دونَ وجودِ شهودٍ عليهما[١].

عقاب الزنا في الكتاب المقدس:

١ ـ لو ثَبَت صحةُ ادِّعاءِ رجلٍ بأنّ الفتاةَ ليست عذراءَ، يُخرِجُ القاضي هذه الفتاةَ أمامَ بابِ بيتِ أبيها، حيث يقومُ الناسُ في المدينة برَجْمِها[٢].

---

(١) السنن الكبرى، البيهقي، ٨: ٢١٤.

(٢) الكتاب المقدس الحي، الاستثناء: ٢٢: ٢٠- ٢١.

٢ ـ لو تزوَّجتْ عذراءُ بشخصٍ ما، وقام شخصٌ آخَرُ في المدينةِ بمعاشَرتِها، فإنّ هذَيْنِ يُخرَجانِ إلى بابِ المدينة ويُرجَمانِ هناك(١).

٣ ـ جاء الفقيهُ والفريسيُّ بامرأةٍ زَنَت، فأُوقِفت في جَمْع من الناس، وقيل ليَسُوع: يا أُستاذ، لقد قُبِض على هذه المرأةِ أثناءَ ارتكابِها الزِّنا، وحُكمُ موسى عليه السَّلام في التَّوراة أن نَقتُلَ مِثلَ هذه المرأة، فبماذا تَحكُمُ أنت في هذا الأمر؟ لقد قالوا هذا لاختبارِه، حتى يَجِدوا سببًا يتَّهمونَه به، ولكنّ يَسُوعَ عليه السَّلام انحنَى على الأرضِ وأخَذ يَكتُبُ بأصبعِه عليها، فلمّا استمرُّوا في سؤالِه اعتدَلَ عليه السَّلام وقال: حسنًا، ارجُموها(٢).

عقاب الزناة غير المتزوجين رجالًا ونساءً:

عقابُ مرتكِبِ الزِّنا الحُرِّ البالغ العاقِل المسلم غيرِ المتزوِّج رجُلًا كان أو امرأةً هو: الجَلدُ مائةَ جَلدة، فإنْ لم يكنْ بالغًا أو عاقلًا فليس بمكلَّف، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه سيِّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «رُفع القلمُ عن ثلاثةٍ: عن النّائم حتّى يَستيقِظَ، وعن الصّبيِّ حتّى يَشِبَّ، وعن المعتوهِ حتّى يَعقِل»(٣).

كيفية الجلد:

يقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: «وفي لفظِ الجَلد إشارةٌ إلى أنّه لا ينبغي أن يتجاوَزَ الألمُ إلى اللَّحْم، ولأنّ الجَلدَ: ضَرْبُ الجِلد، يُضرَبُ بسَوْطٍ وَسَطٍ لا جديدٍ يَجرَحُ ولا خَلِقٍ لم يؤلِمْ، ويُضرَبُ ضربًا بينَ ضربَيْنِ لا شديدٍ ولا واهٍ»(٤)،

---

(١) الكتاب المقدس الحي: الاستثناء: ٢٢: ٢٣- ٢٤.
(٢) الكتاب المقدس الحي: يوحنا: ٨: ٣- ٧.
(٣) الترمذي، أبواب الحدود، باب ١ برقم ٤٢٣.
(٤) التفسير الكبير.

ولهذا قال سيّدُنا عُمرُ رضي اللهُ عنه لمَن كان يقومُ بالجَلد عندَما جيءَ برجلٍ في حدٍّ: «اضرِبْ ولا يُرى إبطُك»[1]، بمعنى: لا تَرفَعْ يدَك لتضربَه بكلِّ قوّتِك، وإنّما تضربُه ضربًا متوسِّطًا.

كما أنّه لا تجوزُ الإساءةُ إلى المرجوم عندَ الرَّجْم، وإنّما تُطلَبُ له الرَّحمةُ من الله تعالى، مثلَما قال سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ أُتِيَ برجلٍ قد شربَ، فقال: «اضرِبوه». قال أبو هريرة: فمنّا الضّاربُ بيدِه والضّاربُ بنَعْلِه والضّاربُ بثوبِه، فلمّا انصرَف قال بعضُ القوم: أَخْزاك الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشّيطانَ. ولكنْ قولوا: اللّهُمَّ اغفِرْ له، اللّهُمَّ ارحَمْه»[2].

عقاب العبد أو الأمة عند ارتكابهما الزنا:

العبدُ البالغُ العاقلُ، وكذا الأَمَةُ البالغةُ العاقلةُ، إن زَنا أحدُهما فعقابُه: الجَلدُ خمسينَ جَلدةً: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وذلك لأنّهم - أي: العبيدَ والإماءَ - يُضطَرُّونَ إلى التنقُّل هنا وهناك من أَجْل تلبيةِ احتياجاتِ البيوت، مما يُعرِّضُهم إلى الإغراءِ بارتكابِ هذا الفعل، ولهذا كان التعاملُ معَهم بشكلٍ أقلَّ قسوةً من الآخَرينَ بسببِ حالةِ الاضْطِرارِ هذه.

عقاب الرجل المتزوج والمرأة المتزوجة:

المسلمُ الحُرُّ العاقلُ البالغُ المتزوِّجُ، سواءٌ كان رجُلًا أو امرأةً، إذا زَنا، فإنّ عقابَه هو الرَّجم، وعقابُه في التَّوراةِ أيضًا هو الرَّجمُ. ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ حواشيَ الآياتِ من ٤١ إلى ٤٣ من سُورة المائدة.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) أبو داود، كتاب الحدود برقم ٤٤٧٧، ٤٤٧٨.

«ولأنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم رَجَم ماعزًا ورَجَم الغامِديّةَ وغيرَهما، ولأنّ الخُلفاءَ الراشدينَ أقاموا حدَّ الرَّجْم بالإجماع من غيرِ نكِير من واحدٍ منهم، فحدُّ الرَّجْم ثابتٌ بالأحاديثِ المتواترة، وفعلِ الرَّسولِ صلى الله عليه وآلِه وسلم، وإجماعِ الأُمة»[١].

يقولُ الشَّعبيُّ رضي اللهُ عنه محدِّثًا عن سيّدِنا عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه: إنه «حينَ رَجَم المرأةَ يومَ الجمُعة قال: قد رَجمتُها بسُنّةِ رسولِ الله ﷺ»[٢].

ويقولُ سيّدُنا عُبادةُ بن الصّامتِ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خُذوا عنّي، خُذوا عنّي، خُذوا عنّي، فقد جَعَل اللهُ لهُنّ سبيلًا، البِكرُ بالبِكر جَلدُ مائةٍ ونَفْيُ سنةٍ، والثّيِّبُ بالثّيِّب، جَلدُ مائةٍ والرَّجمُ»[٣].

وقد ذَكَرتِ الآيةُ الثانيةُ من سُورة النُّور عقابَ مَن يزني من غيرِ المتزوِّجينَ رجالًا ونساءً، وهو الجَلدُ مائةَ جلدة، وفي هذا الحديثِ أضيفُ جزءٌ آخَرُ وهو النَّفيُ لمدةِ عام، لكنّ الأحنافَ يرَوْنَ أنّ النَّفيَ من الوطنِ لمدةِ عام ليس داخلًا في الحدِّ، وإنّما هو منَ التعزير، فلو رأى القاضي أن يَنفيَ هذا الزانيَ غيرَ المحصَن عامًا، جنبًا إلى جنبٍ معَ جَلْدِه مائةَ جلدةٍ فله ذلك، وبنفسِ الطريقة جاء في هذا الحديثِ جَلدُ الزاني المحصَن رجلًا أو امرأةً مائةَ جَلْدةٍ قبلَ الرَّجْم، ولكنْ ثَبَت في حديثٍ آخَرَ ومن فِعل النبيِّ ﷺ والخلفاءِ الراشدينَ رضوانُ الله عليهم أنّ هذَيْنِ العقابَيْنِ لا يجتَمِعانِ على أحد، ولهذا يقولُ العلّامةُ السَّرخسيُّ: «(وحجّتُنا): حديثُ ماعزٍ والغامِديّة قد رَجَمَهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ ولم يَجلِدْهما»[٤].

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الحدود، ٥: ٦٠.

(٢) البخاري، كتاب الحدود، باب ٢١ برقم ٦٨١٢.

(٣) مسلم، كتاب الحدود، باب ٣ برقم ١٦٩٠.

(٤) المبسوط، كتاب الحدود، ٩: ٤٦.

وحين يموتُ الزَّاني في الرَّجم فلا يُمثَّلُ بجُثّتِه، ولا تُمتهَنُ، وإنّما يُغسَّلُ كعامّةِ المسلمينَ ويُكفَّنُ وتُصَلَّى عليه الجَنازة، ويُدفنُ بكلِّ احترامٍ وتكريم في مقابرِ المسلمين[١].

يقولُ سيّدُنا بُرَيْدةُ رضي اللهُ عنه: لمّا رُجِم ماعزُ بنُ مالك قال رسولُ الله ﷺ: «استغفِروا لِماعزِ بن مالك»، فقالوا: غَفَر اللهُ لِماعِز بنِ مالك، فقال رسولُ الله ﷺ: «لقد تابَ توبةً لو قُسِمت بينَ أُمّةٍ لَوسِعَتْهم»[٢].

ويقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: لمّا رُجِم ماعزُ بنُ مالك فسَمِع النّبيُّ ﷺ رجُلَيْنِ من أصحابِه يقولُ أحدُهما لصاحبِه: انظُرْ إلى هذا الّذي سَتَر اللهُ عليه فلم تدَعْه نفسُه حتّى رُجِمَ رَجْمَ الكلب. فسَكَت عنهما، ثمّ سار ساعةً حتّى مرَّ بجِيفةِ حمارٍ شائلٍ برجلِه فقال: «أين فلانٌ وفلانٌ؟»، فقالا: نحن ذانِ يا رسولَ الله، قال: «انزِلا فكُلا من جِيفةِ هذا الحمار»، فقالا: يا نبيَّ الله، من يأكُل من هذا؟ قال: «فما نِلتُما من عِرْضِ أخيكما آنفًا أشدُّ من أكلٍ منه، والّذي نفسي بيدِه، إنّه الآنَ لَفي أنهارِ الجنّة ينغمسُ فيها»[٣].

ليس على الكافر حد:

عندَ جمهورِ الفقهاءِ يُشترَطُ لإقامةِ حدِّ الزِّنا أن يكونَ الزاني: مسلمًا، رجلًا أو امرأةً، ولا يقامُ الحدُّ على كافرٍ مُحصَن زَنَى، لكنْ يُجلَد، وعندَ فقهاءِ الشافعيَّةِ والحنابلة: لا يقامُ حدُّ الزِّنا أو شربِ الخمرِ على كافرٍ؛ لأنّ هذا حقُّ الله تعالى،

---

(١) «إذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين». التفسير الكبير.

(٢) مسلم، كتاب الحدود، باب ٥ برقم ٤٤٣١.

(٣) أبو داود، كتاب الحدود برقم ٤٤٢٨.

والكافرُ لم يلتزمْ بحقوقِ الله تعالى، وعندَ فقهاءِ المالكيَّة: لو زَنا كافرٌ بكافرةٍ فلا يقامُ عليهما الحدُّ، ولكنْ يمكنُ عقابُه بغَرَضِ التأديب(١).

حاكم الوقت هو الذي يقيم الحد:

اتَّفق الفقهاءُ على أنه «لا يقيمُ الحدودَ إلا الإمامُ أو مَن فوَّضَ إليه الإمامُ باتّفاقِ الفقهاء؛ لأنه لم يَقُمْ حدٌّ على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم إلا بإذْنِه، ولا في أيام الخلفاءِ إلّا بإذْنِهم، ولأنّ الحدَّ حقٌّ لله تعالى يَفتقرُ إلى الاجتهاد، ولا يؤمَنُ فيه الحَيْف، فلم يَجُزْ بغيرِ إذْنِ الإمام»(٢).

لا حدود في دار الحرب:

اتَّفق الأئمةُ على أنّ «الحدودَ لا تُقامُ في حالِ الغَزْو، ولا في دارِ الحرب. والدّليلُ على ذلك: ما فَعَله سيّدُنا سَعدُ بنُ أبي وَقّاص معَ أبي مِحْجَن الثَّقفي. فتَرك سَعدُ بنُ أبي وَقّاص إقامةَ الحدِّ عليه حيثُ أنّ الحدودَ لا تُقامُ في حالِ الغزو. والتعزيرُ يَرجِعُ إلى الاجتهاد، وقد رَأى سيّدُنا سعدٌ عَدَمَ إقامةِ حدِّ الشربِ على أبي مِحْجَن ولا تعزيرَه بعدَ أنْ بذَلَ نفسَه في سَبيل الله تعالى، وقد رُوي أنّ النّبيَّ ﷺ نَهى أن يُقامَ حدٌّ في أرضِ العدوِّ»(٣).

---

(١) «أن يكون مسلمًا، في رأي المالكية، فلا يحد الكافر إن زنى بكافرة ولكنه يؤدب إن أظهره،... وقال الجمهور: يحد الكافر حد الزنا، لكنه لا يرجم المحصن عند الحنفية، وإنما يجلد. ولا حد للزنا وشرب الخمر عند الشافعية والحنابلة على المستأمن؛ لأنه حق لله تعالى، ولم يلتزم بالعهد حقوق الله تعالى». الفقه الإسلامي وأدلته، حد الزنا، ٦: ٣٧.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ٦: ٥٨.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الحدود، ٥: ٤٦-٤٧.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾

٣ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ أفضَلَ منّا عن حقيقةِ الجرائم وعقابِها، وسواءٌ كان الحُكمُ قاسيًا أم غيرَ قاسٍ، فإنّه لا يخلو من حِكمة، والذين يؤمنونَ بالله تعالى لا يُبدِّلونَ في حدودِه وأحكامِه؛ لأنّ العقابَ بأقلَّ من المقرَّر يُفقِدُ العقابَ أثرَه، والعقابُ بأكثرَ من المقرَّر ظُلمٌ، واللهُ تعالى لا يحبُّ الظالمين، ويقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «في الحديثِ «يؤتَى بوالٍ نَقَص من الحدِّ سَوطًا، فيقالُ له: لمَ فعلتَ ذاك؟ فيقولُ رحمةً لعبادِك، فيقالُ له: أنت أرحَمُ بهم منّي! فيؤمَرُ به إلى النّار، ويؤتَى بمَن زاد سَوطًا فيقالُ له: لمَ فعلتَ ذلك؟ فيقول: لينتَهوا عن معاصِيك، فيقول: أنت أحكَمُ به منّي! فيؤمَرُ به إلى النّار»[1].

ولم يَسمَح النبيُّ ﷺ ـ في إقامةِ الحدودِ ـ بأيِّ تفرقةٍ أو تمييز، على سبيل المثال: قالتِ السيّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها: إنّ قُريشًا أهمَّهم شأنُ المرأةِ المَخزوميّة الّتي سَرَقت، فقالوا: ومَن يُكلِّمُ فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومَن يجترئُ عليه إلّا أُسامةُ بنُ زيدٍ، حِبُّ رسولِ الله ﷺ؟ فكَلَّمه أُسامةُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أتشفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله»، ثمّ قام فاختَطَب، ثمّ قال: «إنّما أهلَكَ الّذين قبلَكم أنّهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشّريفُ ترَكُوهُ، وإذا سَرَق فيهم الضّعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايمُ الله، لو أنّ فاطمةَ ابنةَ محمّدٍ سَرَقتْ لَقطعتُ يدَها»[2]. فإذا ادَّعى أحدٌ أنّ الحدودَ التي قرَّرها اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم والسُّنةِ النَّبويّة حدودٌ همَجيّةٌ! قاسيةٌ، فهذا يعني أنه يتَّهمُ اللهَ تعالى والنبيَّ ﷺ بالهَمَجيّةِ والعياذُ بالله، ولهذا فإنّ مِثلَ هذا الشخصِ يَخرُجُ من الإسلام.

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٦ برقم ٣٤٧٥.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

٤ ـ المقصِدُ الأَصْليُّ من العقابِ أن يَلقَى المجرمُ عقـابَ جُـرمِه، ويرتَدعَ الآخَرونَ عن ارتكابِ الجُرم عندَما يرَوْن ذلَّ العقاب، ولكي لا يتشجَّعوا على ارتكابِ الجُرم إن فَكَّروا في ارتكابِه، ولهذا يأمُرُ الإسلامُ أن يقامَ الحدُّ على المُجرم أمامَ الناس.

ولسُوءِ الحظِّ فإنّ تنفيذَ الحُكم على الملأِ في أيامِنا هذه يُعتبَرُ مخالِفًا لحقوقِ الإنسان، أمّا حقوقُ الضَّحايا التي أتلَفَها هؤلاءِ المجرمونَ على الملأِ فلا يهتَمُّ بها أحدٌ، على سَبيل المثال: لو أنّ مجموعةً من المجرمينَ ذَبَحوا شابًّا بالسِّكينِ أمامَ أعيُن الناسِ في السُّوق ثم هَرَبوا، ولفَظَ المَجْنيُّ عليه أنفاسَه منتفِضًا من الألم أمامَ أعيُن الناس، وأصبح أطفالُه يتامَى وزوجتُه ثَكْلى، هؤلاءِ المجرمونَ لم يرتكِبوا مخالفةً لحقوقِ الإنسانِ بالنِّسبة للمقتولِ فقطْ، وإنّما اغتَصَبوا حقوقَ زوجتِه وأطفالِه أيضًا، وبالتالي كـان يجبُ أن يُعـاقَب هـؤلاءِ المجـرِمونَ الذين اعتَدَوْا على حقوقِ الإنسان بالعقابِ الذي يستحِقُّونَه، وأنْ لا يتمَّ التعاملُ معَهم بأيِّ نوع من الرَّأفة، وأن يتِمَّ تعليقُهم على المشانِق في نفسِ السُّوق الذي ارتكَبوا فيه جُرمَهم وأمامَ أعيُنِ الناسِ أيضًا، لكنّ الذي يَحدُثُ هو وضعُ المجرِمينَ في السِّجنِ لعدّةِ سنوات، ثم إطلاقُ سراحِهم، فيمثِّلونَ مزيدًا من الخَطَر، وفي رأيي أنّ في هذا مخالفةً للعدلِ والإنصاف، وتشجيعًا للمجرمينَ، ولهذا تزدادُ نسبةُ جرائم القتل، والرَّحمةُ بالناس أمرٌ طيِّبٌ ومطلوب، ولكنّ الرَّحمةَ معَ المجرِمينَ تعني ـ ببساطةٍ ـ أنّ نتيجةَ هذه الرَّحمة هي التعدِّي على أمنِ الناس وأمانِهم بالظُّلم.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

٥ ـ التجربةُ العمَليّةُ تقولُ: إنّ الزانيَ يتزوَّجُ بزانيةٍ أو مشركةٍ طبقًا لذَوْقِه الخبيث، وهكذا الزّانيةُ أيضًا يتزوَّجُها زانٍ أو مشركٌ؛ لأنّ الدَّيِّنينَ أصحابَ العِفّةِ وطهارةِ الذَّيل من الرجالِ والنساءِ لا يَقبَلونَ أن يرتكِبوا الزِّنا ولا الشِّركَ كذلك، ولهذا حُرِّم الزّواجُ من هؤلاءِ الخُبَثاءِ رجالًا ونساءً على أهل الإيمان، صحيحٌ أنه سُمِح بعدَ ذلك بالزَّواج من المسلم الزّاني والمسلمةِ الزّانية، بينَما بَقِيت حُرمةُ الزّواج بالمشرِك والمشرِكةِ قائمةً[1]، لكنْ إن لم يَرجِعْ هؤلاء عن فعلِ الزِّنا القبيح حتى بعدَ الزَّواج فإنّ الزَّواجَ وإن كان صحيحًا، لكنّ فعلَ الزِّنا حرامٌ وذنبٌ عظيمٌ، وينبغي التوبةُ منه بأسرع ما يمكن، وحين يتوبُ الزاني أو المشرِكُ ـ رجالًا أونساءً ـ من الزِّنا والشِّرك، فليس هناك مانعٌ منَ الاقترانِ معَهُنَّ بالزَّواج؛ لأنّ اللهَ تعالى يغفرُ ذنوبَ التائبين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

٦ ـ منِ اتَّهم شخصًا عفيفًا ـ رجلًا كان أم امرأةً ـ بالزِّنا ولم يستطعْ تقديمَ أربعةِ شهودٍ على ما يقولُ، فإنّ عقابَه هو الجَلدُ ثمانينَ جَلْدةً، وهو ما يُسمَّى حدَّ القَذْف، كما أنّ هذا القاذفَ لا تُقبَلُ شهادتُه بعدَ ذلك، ويصبحُ فاسقًا.

وجديرٌ بالذِّكر أنه لو قال ثلاثةُ شهودٍ: إنهم رأَوْا فلانًا وفلانةً في حالةِ الزِّنا، يُطبَّقُ عليهم أيضًا حدُّ القَذْف؛ لأنّهم ليسوا أربعةً، ولو قال آلافٌ: إنّ فلانًا زنا، ولم يكنْ هناك شهودُ عِيانٍ: عوقبَ كلُّ هؤلاءِ[2].

---

(١) «وكان الحكم عامًا في الزناة أن لا يتزوج أحدهم إلا زانية، ثم جاءت الرخصة ونسخ ذلك». روح المعاني.

(٢) تفسير نور العرفان.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

٧ ـ من يَتُبْ بعدَ ارتكابِ جريمةِ القَذْف وأَصْلَح نفسَه، لا يُعفَى من الثمانينَ جَلْدةً، أمّا العذابُ الذي كان سيَلقاهُ يومَ القيامة بسببِ فِسقِه، يُنجيهِ اللهُ تعالى منه، ولكن هل تُقبَلُ شهادتُه بعدَ توبتِه أم لا؟ اختلفَ العلماءُ في هذا، وعندَ الأحناف: أنه لا تُقبَلُ شهادتُه حتى بعدَ توبتِه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

٨ ـ طبقًا للآية رقم ٤ الشَّخصُ الذي يَتَّهمُ امرأةً بالزِّنا ولم يستطعْ تقديمَ أربعةِ شهودٍ على ذلك، يُجلَدُ ثمانينَ جَلدةً، وهو ما يُطلَقُ عليه حدُّ القَذْف.

ولكنْ، إنِ اتَّهم زوجٌ زوجتَه بالزِّنا فلا يُطبَّقُ عليه حدُّ القذف؛ لأنه إن كان ممكنًا لأحدٍ من عامّة الناس أن يَصمُتَ ولا يُبلِّغَ عن واقعةِ الزِّنا إذا لم يتوافَرْ لديهِ شهودٌ أربعةٌ، فإنّ الأمرَ يصبحُ أكثرَ قسوةً فيما لو رأى زوجٌ زوجتَه في حالةِ الزِّنا، إذ إنه لو ذهَبَ ليُحضِرَ شهودًا، لَأدَّى ذلك إلى إمكانيّةِ هروبِ الزاني، وإن اتَّهَم هو زوجتَه بالزِّنا دونَ شهودٍ أُقيم عليه حدُّ القَذْفِ ثمانينَ جَلدةً، وإن لم يُبلِّغْ عن الواقعةِ وصَمَت، فكيف يقضي بقيّةَ عمُرِه معَ زوجةٍ زانية؟ ولهذا، فإنّ اللهَ تعالى في هذه الآياتِ الأربع قرَّر عقابَ اللِّعانِ للزَّوجَيْنِ بدلًا من القَذْف، بمعنى: أنّ الزّوجَ يُقسِمُ بالله أربعَ مرّاتٍ أنّ زوجتَه زَنَت معَ فلان، وأنه صادقٌ فيما يقولُ، وفي المرةِ الخامسة يقول: إنّ لعنةَ الله عليه إن كان كاذبًا في دَعْواه، وتُقسِمُ الزَّوجةُ أيضًا أربعَ مرّاتٍ أنّ زوجَها كاذبٌ في اتِّهامِه لها، وفي المرةِ الخامسة تقولُ: إنّ غضَبَ الله عليها إن كان زوجُها صادقًا في دَعْواه، وبهذه الطّريقةِ نَجا كلٌّ من الزَّوج والزَّوجةِ من حدِّ

القَذْف، ويُطلَقُ على هذه الخُطُواتِ كلِّها: اللِّعانُ، ثم يُفرِّقُ القاضي بينَ الزَّوجَيْن، ولا يعودانِ بعدَها إلى بعضِهما متزوِّجينِ أبدًا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

٩ ـ يعني: لو أُقيم حدُّ القذفِ على الزَّوجَيْنِ لَأصبحت حياتُهما جحيمًا، ولهذا فإنّ من فَضْل اللهِ تعالى وكرَمِه العظيم أنْ قرَّر حُكمَ اللِّعانِ للزَّوجَيْن.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾

١٠ ـ المرادُ بالإفْكِ: تلك الواقعةُ التي اتَّهم فيها المنافقونَ السيّدةَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، وبالَغوا في اتِّهاماتِهم والدِّعاية الكاذبةِ لها، حتى تأثَّر بها بعضُ البُسَطاءِ من المسلمين، وقد آذَى هذا الأمرُ سيّدَنا رسولَ الله ﷺ والسيّدةَ عائشةَ رضي الله عنها

والمسلمينَ كثيرًا، ولهذا صَعِد النبيُّ ﷺ المِنبَرَ ذاتَ يوم وبَرَّأَ زوجتَه أُمَّ المؤمنينَ قائلًا: «فوالله، ما عَلِمتُ على أهلي إلّا خيرًا»[١].

وبعدَ ذلك أَنْزل اللهُ تعالى عَشْرَ آياتٍ في القرآنِ المَجيد تُبرّئُ السيّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها وتؤكِّدُ على طهارتِها وعِفّتِها، وبالفعل، تمَّ تطبيقُ حدِّ القَذْف على مَن جاء بالإفْكِ، وجُلِد ثمانينَ جَلدةً، إذْ لم يستطعْ تقديمَ أربعةِ شهودٍ على دَعْواه.

يقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي: إنّ اللهَ تعالى قدِ اختَصَّ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ بعذابِ الآخِرة، أمّا الآخَرونَ الذين تَورَّطوا في هذا الموضوع مثلَ سيّدِنا حَسّانَ وسيّدنا مِسطَح وحَمْنةَ، فقد أُقيم عليهم حدُّ القَذْف في الدُّنيا لتطهيرِهم[٢]. وإليك بعضَ الرِّواياتِ في هذا الخصُوص:

١ ـ عن عائشةَ، قالت: لمّا نَزَل عُذري قام رسولُ الله ﷺ على المِنبَر، فذَكَر ذلك وتَلا القرآنَ، فلمّا نَزَل أمَرَ برجُلَيْنِ وامرأةٍ فضُربوا حدَّهم[٣].

٢ ـ رَوى محمّدُ بنُ إسحاقَ وغيرُه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم جَلَد في الإفْكِ رجُلَيْن وامرأةً: مِسطَحًا وحسّانَ وحَمْنةَ[٤].

٣ ـ قال أبو أُوَيْس: حدَّثني أبي، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم أمَرَ بالذين رَمَوْا عائشةَ فجُلدوا الحدَّ جميعًا ثمانينَ ثمانينَ[٥].

وقد نَقَل الإمامُ البخاريُّ والإمام مسلمٌ حادثةَ الإفْكِ في حديثَيْنِ طويلَيْنِ من

---

(١) البخاري، برقم ٤٧٥٠، ومسلم، برقم ٢٧٧٠.
(٢) تفسير تبيان القرآن.
(٣) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٢٤، سورة النور (٢٤) برقم ٣١٨١.
(٤) ذكره الترمذي. تفسيرالقرطبي.
(٥) المعجم الكبير للطبراني، ٢٣: ١١٦ برقم ١٥١.

روايةٍ عن السيّدةِ عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها، تقولُ فيها: «كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد أن يَخرُجَ أَقْرعَ بينَ أزواجِه، فأَيّتُهنَّ خَرَج سَهْمُها خَرَج بها رسولُ الله ﷺ معه. قالت عائشةُ: فأَقْرع بينَنا في غزوةٍ غَزاها (غزوة بني المُصطلَق)، فخَرجَ سَهْمي، فخَرَجتُ معَ رسولِ الله ﷺ بعدَ ما نَزل الحِجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَوْدجي وأُنزَلُ فيه، فسِرنا، حتّى إذا فَرَغ رسولُ الله ﷺ من غَزْوتِه تلك وقَفَل، ودنَوْنا من المدينة قافِلينَ آذَنَ ليلةً بالرَّحيل، فقُمتُ حين آذَنوا بالرَّحيل، فمشَيْتُ حتّى جاوَزْتُ الجيشَ، فلمّا قضَيْتُ شأني أَقْبلتُ إلى رَحْلي، فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظِفار قدِ انقَطَع، فالتمَسْتُ عِقدي، وحَبَسَني ابتغاؤه، وأَقْبلَ الرَّهطُ الّذين كانوا يُرحِّلونَ لي، فاحتَمَلوا هَوْدجي، فرَحَّلوه على بعيري الّذي كنتُ ركِبتُ، وهم يَحسَبونَ أنّي فيه، وكان النّساءُ إذْ ذاك خِفافًا لم يُثقِلْهُنَّ اللّحمُ، إنّما تأكلُ العلَقةَ من الطّعام، فلم يَستنكِرِ القومُ خِفّةَ الهَوْدج حين رَفَعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنّ، فبَعَثوا الجَمَلَ وساروا، فوجَدتُ عِقدي بعدَ ما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منازلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأمَّمتُ منزلي الّذي كنتُ به وظَنَنتُ أنّهم سيَفقِدوني فيَرجِعونَ إليّ، فبيْنَا أنا جالسةٌ في منزلي غَلَبتْني عيني فنِمتُ، وكان صَفوانُ بنُ المُعطَّل السُّلَميُّ ثُمّ الذَّكْوانيُّ من وراءِ الجيش، فأَدْلجَ فأصبح عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعَرَفَني حين رآني، وكان يراني قَبْلَ الحجابِ، فاستيقَظْتُ باسترجاعِه حين عَرَفَني، فخَمَّرتُ وَجْهي بجِلبابي، والله ما كَلَّمني كلمةً ولا سَمِعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِه، حتّى أناخَ راحلتَه فوطِئَ على يدَيْها فركِبتُها، فانطَلَق يقودُ بيَ الرّاحلةَ حتّى أتَيْنا الجيشَ بعدَما نَزَلوا موغِرينَ في نَحْرِ الظّهيرة، فهَلَك مَن هَلَك، وكان الّذي تَولّى الإفْكَ عبدُ الله بنُ أبيٍّ ابن سَلُول، فقَدِمنا المدينةَ، فاشتكَيْتُ حين قَدِمتُ شهرًا، والنّاسُ يُفيضونَ في قولِ أصحابِ الإفْكِ، لا أشعرُ بشيءٍ من ذلك........».

ولكي يقضي رسولُ الله ﷺ على هذه الادِّعاءاتِ الكاذبةِ اعتَلَى المِنبَرَ في المسجدِ النَّبويِّ ذاتَ يوم وخَطَب في الناسِ قائلًا: «يا معشَرَ المسلمين، من يَعذِرُني من رجلٍ قد بَلَغَني أذاهُ في أهل بيتي؟ فوالله ما عَلِمتُ على أهلي إلّا خيرًا، ولقد ذَكَروا رجلًا، ما عَلِمتُ عليه إلّا خيرًا، وما كان يَدخُلُ على أهلي إلّا معي». فقام سعدُ بن مُعاذٍ الأنصاريُّ، فقال: يا رسولَ الله، أنا أعذِرُك منه، إن كان من الأَوْس، ضَربتُ عُنقَه، وإن كان من إخوانِنا من الخَزرْجَ، أمَرْتَنا، ففعَلْنا أمرَك..........

فلمّا نَزَلتِ الآياتُ العشْرُ من سُورة النُّور (من الآية ١١ إلى الآية ٢٠) مُبرِّئةً السيّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها من الإفْكِ، قال لها النبيُّ ﷺ: «يا عائشة، أمّا اللهُ عزّ وجلّ فقد برَّأكِ»[(١)].

وإن كان مِثلُ هذا الاتِّهام قد أصابَ السيّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها، فقد أصابَ السيّدةَ مريَمَ العذراءَ قبلَها مثلُه. «قال بعضُ أهل التحقيق: إنّ يوسُفَ عليه السّلام لمّا رُميَ بالفاحشة برَّأهُ اللهُ على لسانِ صبيٍّ في المَهْد، وإنّ مريَمَ لمّا رُمِيت بالفاحشة برَّأها اللهُ على لسانِ ابنِها عيسى صَلواتُ الله عليه، وإنّ عائشةَ لمّا رُميت بالفاحشةِ برَّأها اللهُ تعالى بالقرآنِ، فما رَضيَ لها ببراءةِ صبيٍّ ولا نبيٍّ حتّى برَّأها اللهُ بكلامِه من القَذْفِ والبُهتان»[(٢)]. ومعَ نزولِ براءةِ السيّدة عائشةَ رضي اللهُ عنها في هذه الآيات، ثَبتَت براءةُ سيّدِنا صفوانَ رضي الله عنه بشكلٍ تلقائيٍّ.

على أيِّ حال، شَهِد القرآنُ الكريمُ نفسُه بطهارةِ وعِفّةِ هاتَيْنِ الشخصيَّتَيْنِ المقدَّستَيْنِ، وليس هناك أعظمُ من شهادةِ القرآن، وبالتالي فإنّ الشكَّ في براءتِهما بمثابةِ الشكِّ في القرآنِ المَجِيد نفسه.

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النور (٢٤): برقم٤٧٥٠، ومسلم، برقم ٢٧٧٠، كتاب التوبة: باب ١٠.

(٢) تفسير القرطبي، سورة النور (٢٤): الآية ٢٦.

لقد صَعِد النبيُّ ﷺ المِنبَرَ في المسجدِ النَّبويِّ، وأعلَن براءةَ زوجِه حالفًا بالله، وأمَرَ بالانتقام ممَّن افترى عليها كذبًا، ويُعلَمُ من هذا أنّ النبيَّ ﷺ كان على يقينٍ من كذبِ الاتِّهام فيما يتعلَّقُ بالسيِّدةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، وإلّا لَما أَقْسمَ، ولَما أمَرَ بمعاقبةِ منِ افترى، مثلَما يقولُ الإمامُ الرازي: «إنّ المعروفَ من حالِ عائشةَ قبلَ تلك الواقعة إنّما هو الصَّوْنُ والبعدُ عن مقدِّماتِ الفجور، ومَن كان كذلك كان اللّائقُ إحسانَ الظّنِّ به أنّ كونَها زوجةً للرّسولِ ﷺ المعصوم يمنَعُ من ذلك؛ لأنّ الأنبياءَ مبعوثونَ إلى الكُفّارِ ليَدْعوهم ويَستعطِفُوهم، فوجَبَ أن لا يكونَ معَهم ما يُنفِّرُهم عنهم، وكونُ الإنسانِ بحيث تكونُ زوجتُه مسافحةً من أعظم المنفِّرات»[1].

وقد وقَفَ الخلفاءُ الراشدونَ رضي اللهُ عنهم جميعًا معَ السيّدةِ عائشةَ الصدِّيقة رضي اللهُ عنها في هذا الموقفِ العَصِيب، شاهدِينَ على عِفّتِها وطهارتِها، مثلَما يقولُ العلّامةُ النَّسَفيُّ: «وذلك نحوَ ما يُروى أنّ عُمرَ رضي اللهُ عنه قال لرسول الله عليه الصّلاةُ والسلام: أنا قاطعٌ بكذبِ المنافقينَ؛ لأنّ اللهَ عَصَمَكَ من وقوعِ الذُّبابِ على جلدِكَ لأنه يقَعُ على النَّجاساتِ فيتلطَّخُ بها، فلمَّا عصَمَك اللهُ من ذلك القَذْرِ من القَذَر فكيف لا يعصِمُك عن صُحبةِ مَن تكونُ متلطِّخةً بمِثل هذه الفاحشة؟ وقال عثمانُ: إنّ اللهَ ما أَوْقعَ ظلَّك على الأرضِ لئلّا يضعَ إنسانٌ قدمَه على ذلك الظِّلِّ، فلمّا لم يمكِّنْ أحدًا من وَضْع القَدَم على ظلِّك كيف يمكِّنُ أحدًا من تلويثِ عِرضِ زوجتِك؟ وكذا قال عليٌّ رضي اللهُ عنه: إنّ جِبريلَ أخبَرَكَ أنّ على نَعْلَيْكَ قَذَرًا وأمَرَكَ بإخراج النَّعلِ عن رِجلِك بسببِ ما التَصقَ به من القَذَر، فكيف لا يأمُرُك بإخراجِها بتقديرِ أن تكونَ متلطِّخةً بشيءٍ من الفواحش؟»[2].

---

(١) التفسير الكبير، سورة النور (٢٤): الآية ١١.

(٢) مدارك التنزيل، ٣: ٢٠١، سورة النور (٢٤): الآية ١٢.

ويقولُ العلّامةُ الرازي: «رُوي أنّ أبا أيّوبَ الأنصاريَّ رضي اللهُ عنه قال لأُمِّ أيّوبَ: أمَا ترَيْنَ ما يقال؟ فقالت: لو كنتَ بدَلَ صَفْوانَ أكنتَ تظُنُّ بحُرَم رسولِ الله سُوءًا؟ قال: لا، قالت: ولو كنتُ بدَلَ عائشةَ ما خُنتُ رسولَ الله ﷺ، فعائشةُ خيرٌ منّي وصَفوانُ خيرٌ منك»[١].

وكان النبيُّ ﷺ قد كَلَّف سيّدَنا صَفْوانَ رضي اللهُ عنه بأن يكونَ رَدِيفًا للجيش ويَسيرَ وراءه، فإنْ عثَرَ على أمتِعةٍ تخلَّفت لأحدٍ، حَمَلَها وأَوْصَلَها لصاحبِها، فكيف يمكنُ لمنِ استأْمَنَه النبيُّ ﷺ على أماناتِ الناس أن يَخُونَ في أمانةِ قائدِه ومُرشِدِه وهاديهِ المصطفى ﷺ؟

«وقال ابنُ زيدٍ: ذلك معاتبةٌ للمؤمنين، إذِ المؤمنُ لا يَفجُرُ بأُمِّه ولا الأُمُّ بابنِها، وعائشةُ رضي الله عنها هي أُمُّ المؤمنين»[٢]، ولهذا فإنّ مجرَّدَ التفكيرِ في مِثل هذا: ذنبٌ أيضًا.

يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «لم تَزْنِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ»[٣]، إذ إنّ زنا الزّوجةِ أمرٌ في غايةِ القُبح، حتى أنّ الكُفّارَ أنفسَهم ينفِرونَ منه، وأمرٌ فِطريٌّ أن لا يحبَّ أحدٌ أن ترتكبَ زوجتُه الفاحشةَ، ولهذا فإنه، على الرَّغم من أنّ زوجةَ سيّدِنا نُوح عليه السَّلام وزوجةَ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام كانتا كافرتَين، إلّا أنّهما لم تتورَّطا في أيِّ جريمةٍ أخلاقيّة؛ لأنّ اللهَ تعالى حَفِظ زوجاتِ الأنبياءِ الكرام جميعًا عليهمُ السَّلامُ من الزِّنا، سواءٌ في حياةِ أزواجِهم الأنبياء أم بعدَ وفاتِهم[٤]، فإذا لم

(١) التفسير الكبير، سورة النور (٢٤): الآية ١٢.

(٢) المرجع السابق، سورة النور (٢٤): الآية ١٢.

(٣) البحر المحيط، ١٠: ٢١٥، سورة التحريم (٦٦): الآية ١٠.

(٤) «ولا ينبغي لمن يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ أن يخالج قلبه بعد الوقوف على الآيات والأخبار شك في طهارة نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الفجور في حياة أزواجهن وبعد وفاتهم عنهن». روح المعاني، سورة النور (٢٤): الآية ١٧.

ترتكبْ زوجةٌ من أزواج الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ أيَّ فاحشة، فكيف لزوجةِ إمام الأنبياءِ والمرسَلينَ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ الطاهرةِ أن تُلوِّثَ عِفّتَها وطهارتَها.

﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾

١١ ـ معَ أنّ رأسَ هذه الفتنةِ كان رئيسَ المنافقينَ عبدَ الله بنَ أُبَيّ، ولعِبت فيها جماعةُ المنافقينَ دورًا مِحوَريًّا، لكنْ لأنّهم كانوا يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُعَدُّونَ من المسلمين، لهذا قال عنهمُ القرآنُ المَجِيد: إنّهم جماعةٌ منكم، رَغْم أنّ بعضَ البُسَطاءِ من المسلمينَ قد خُدِعوا بهم، ومنهم: سيّدُنا حَسّانُ رضي الله عنه، وسيّدُنا مِسطَحُ رضي الله عنه، والسيّدةُ حَمْنةُ بنتُ جَحْش رضي الله عنها، لكنّهم جميعًا تابوا إلى الله تعالى بعدَ نزولِ الآياتِ القرآنيَّة.

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾

١٢ ـ تأذَّى المسلمونَ عمومًا، وأُسرةُ السيّدةِ عائشةَ رضي الله عنها وأُسرةُ سيّدِنا صفوانَ رضي اللهُ عنه خاصةً، كثيرًا من هذا الاتِّهام، وعليه طَمْأَنَهم اللهُ تعالى بأنّ هذه التُّهمةَ وإن كانت مؤلمةً في الظاهر، لكنّها ـ في الحقيقة ـ خيرٌ لكم، إذْ سوف تلقَوْنَ أجرًا عظيمًا لقاءَ صبرِكم عليه من جانب، ومن جانبٍ آخرَ أَنْزل اللهُ تعالى براءةَ السيّدةِ عائشةَ رضي اللهُ تعالى عنها في شكلِ قرآنٍ يُتلَى حتى قيام الساعة.

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

١٣ ـ الدَّورُ الأكبرُ والرئيسُ في هذه التُّهمة لرئيسِ المنافقينَ عبدِ الله بن أُبَيَّ، ولهذا سيَلقَى يومَ القيامة عذابًا عظيمًا.

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾

١٤ ـ طالما لم يتوفَّرْ دليلٌ ضدَّ أحدٍ يجبُ على المسلمينَ أن يُحسِنوا الظنَّ به،

وأن يُثبِّطوا همّةَ من يَتَّهمُ الآخرينَ بغيرِ دليل، قائلينَ له: إنّ هذا بُهتانٌ وكذبٌ واضح، ويجبُ أن تقوموا بتكذيبِ ما يقولُه أولئك الظالمونَ من إفْكٍ عن السيّدةِ الفاضلةِ الجَليلةِ أُمِّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها، وهي الزَّوجةُ المحبَّبةُ إلى قلبِ نبيِّنا الحَبيب ﷺ.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

١٥ ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ من يتَّهمُ أحدًا زُورًا، ولا يستطيعُ تقديمَ أربعةِ شهود، فهو ـ طبقًا لقانونِ الله تعالى ـ كاذبٌ، ولهذا فإنّ منِ اتَّهَموا السيّدةَ عائشةَ رضي الله عنها كاذبون، والسيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها بَراءٌ منَ اتِّهامِهم الكاذب.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

١٦ ـ يعني: أنّ الافتراءَ الكاذبَ الذي تورَّطتُم فيه، كان من الممكنِ أن يصيبَكم بسببِه عذابٌ عظيم، لكنّ اللهَ تعالى تفضَّل عليكُم بكرَمِه، ووفَّقكم إلى التوبة، ونَجّاكم من العذابِ العظيم في الآخِرة.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾

١٧ ـ لقد كنتُم تنشُرونَ افتراءً كاذبًا سمِعتُموه دونَ تحقُّقٍ، وكنتُم تعتقدونَ أنّ هذه الاداعاءاتِ الكاذبةَ أمورٌ عاديّةٌ، لكنّها عندَ الله تعالى ذنبٌ عظيمٌ؛ لأنّها لم تؤدِّ إلى استهدافِ سُمعةِ سيّدةٍ طاهرةٍ عفيفةٍ والتعريضِ بها فقطْ، وإنّما كانت ستؤدِّي إلى إيذاءِ قلبِ النبيِّ ﷺ وإعاقةِ مهمّتِه وتشويهِها.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾

١٨ ـ يعني: أنّ شأنَ زوجةِ النبيِّ ﷺ الطاهرةِ ليس كشأنِ عمومِ الزَّوجات،

ولذا كان يجبُ عليكم ـ عندَ سَماع هذا الاتِّهام الكاذبِ من المنافقينَ ـ أن تقولوا: إنّ هذا بهتانٌ عظيم.

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

١٩ ـ يقتضي حُكمُ الله تعالى أنْ يحتاطَ أهلُ الإيمانِ وينتبِهوا جيِّدًا، وأنْ لا يتورَّطوا مستقبَلًا في اتِّهام أحدٍ بغيرِ دليل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

٢٠ ـ الذين أسهَموا في نَشْرِ هذا الاتِّهام الكاذبِ بغيرِ دليل أُقيم عليهم حدُّ القَذْف في الدُّنيا وتمَّ جَلدُهم، ومَن لم يتُبْ منهم سيَلقَى يومَ القيامة عذابًا شديدًا في جهنَّم.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ الذين ينشُرونَ الفاحشةَ من خلالِ الإذاعةِ والتلفزيون والصُّحُف والمجلّاتِ والأغاني وغيرِها يستحِقُّونَ العذابَ الإلهيَّ في الدُّنيا والآخِرة أيضًا.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

٢١ ـ للتعرُّف على تفسيرِ هذه الآية الكريمة راجع الحاشيةَ رقم ١٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

٢٢ ـ أيُّها المؤمنونَ، لا تتَّبِعوا الشّيطانَ، لأنه يُقدِّمُ لكم الفحشاءَ والمُنكرَ في صورةٍ جميلة، بحيث لا تلتفتونَ إلى عاقبتِه وضَرَرِه، وتسيرونَ خلفَه دونَ تفكيرٍ، على سَبيل المثال: قَدَّم إليكم هذه الحادثةَ بشكلٍ مبالَغ فيه كثيرًا بحيث انْخدعَ بعضُ البُسَطاءِ من المسلمينَ بما فَعَل، ولو لم يتفضَّل اللهُ تعالى عليهم بتوفيقِهم إلى التّوبة، لَظلُّوا مذنِبينَ دائمًا.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

٢٣ ـ كان سيّدُنا مِسطَحُ مُهاجرًا فقيرًا، ومن أقاربِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وكان سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه يَكفُلُه، لكنْ حينَ تورَّط سيّدُنا مِسطَحُ في موضوع الإفْكِ، ونَزَلت براءةُ السيّدةِ عائشةَ رضي اللهُ عنها، حَزِن سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ كثيرًا، وأَقْسم غاضبًا أنه لن يساعدَ سيّدَنا مِسطَحًا ماليًّا مستقبَلًا، فنَزَلت هذه الآيةُ قائلةً: إنّ الخطأَ يمكنُ أن يقعَ من أيِّ إنسان، ومن

يعفو عن خطإِ أخيه يعفو اللهُ تعالى عن أخطائه، وعليه كَفَّر سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه عن يمينِه، واستمرَّ في دعم سيّدِنا مِسطَح ماليًّا كما كان يفعَلُ في السابق.

مسألة:

يقولُ الإمامُ أبو بكرٍ الجَصّاص: «وفي هذا دليلٌ أنّ مَن حَلَف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها أنّه ينبغي له أن يأتيَ الّذي هو خيرٌ. ورُوي عن النّبيِّ ﷺ أنّه قال: مَن حَلَف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها فليْأتِ الّذي هو خيرٌ ولْيكفِّرْ عن يمينِه»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

٢٤ ـ الذين يَرمُونَ العفيفاتِ الطاهراتِ من النِّساء واللائي لا يَعرِفْنَ مجرَّدَ تصوُّرِ الفاحشة، بالاتِّهاماتِ الكاذبة، يستحِقُّونَ لعنةَ الله تعالى في الآخِرة.

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

٢٥ ـ الذين يَخدَعونَ الناسَ في أيامِنا هذه بمعسولِ الكلام والمعلوماتِ الخاطئة، عليهم أن يتذكَّروا ذلك اليومَ الذي ستَشهَدُ عليهم فيه ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم، ولن يُخْفوا أبدًا شيئًا من السيِّئاتِ فَعَلوه، وسوف يُعاقبُهم اللهُ تعالى بما يستحِقُّونَه بالعَدْل والإنصافِ، ولن يُظلَمَ أحدٌ إذْ ذاك.

في سورة «يسٓ» بعدَ ذلك قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال هنا: إنّ ألسنَتَهم

---

(١) أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص.

ستشهَدُ عليهم، وهذا يعني أنه بعدَ أن يختِمَ اللهُ على أفواهِهم لن يستطيعوا أن يتفوَّهوا بشيءٍ برضاهم، وإنّما ستَقُصُّ ألسنتُهم نفسُها ما جَرى، مخبِرينَ عن الكذبِ الذي اختَلَقوه عن طريقِها.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ ﴾

٢٦ ـ المشاهَدُ بشكلٍ عامٍّ أنّ الخَبِيثينَ من الرِّجال يَميلُونَ إلى الخَبيثاتِ من النِّساء، وأنّ الخَبيثاتِ من النِّساء يمِلْنَ إلى الخَبيثينَ من الرِّجال، ويُضيِّعُ هؤلاءِ جميعًا حياتَهم في أمورٍ خَبيثة وكلام خَبيث، بينَما يَميلُ الطيِّبونَ من الرِّجال إلى الطيِّباتِ من النِّساء، وتميلُ النِّساءُ الطيِّبات إلى الرِّجالِ الطيِّبين، ويَقْضُونَ حياتَهم في الأعمالِ الطيِّبة والكلام الطيِّب، ولهذا فإنّ الطيِّبينَ من الرِّجال والنِّساء بريئونَ من تلك الاتِّهامات التي يَرميهم بها الخَبيثون، ويُعلَمُ منه أنّ السيّدةَ عائشةَ رضي الله عنها طاهرةٌ؛ لأنّها زوجُ أفضَلِ المخلوقاتِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولو لم تكنِ السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها طاهرةَ الذَّيل، لَما اختارَها اللهُ تعالى لتكونَ زوجةً للنبيِّ ﷺ[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

---

(١) «وهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحبّ عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة». صفوة التفاسير.

زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

٢٧ ـ عن عَدِيِّ بن ثابت: «أنّ امرأةً من الأنصار، قالت: يا رسولَ الله، إنّي أكونُ في منزلي على الحالِ التي لا أُحبُّ أن يَراني أحدٌ عليها والدٌ ولا وَلَد، وإنه لا يزالُ يَدخُلُ عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال؟ قال: فنزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾... الآية»[1].

عندما يكونُ الإنسانُ خارجَ بيتِه، أو في بيتٍ آخرَ غيرِ بيتِه، فإنه يكونُ ملتزِمًا بالآدابِ الاجتماعيَّة، وبيتُ الإنسانِ فقطْ هو جَنّتُه التي يستطيعُ أن يعيشَ فيها ببساطةٍ ودونَ تكلُّف، ولو جازَ أن يَدخُلَ أحدٌ إلى بيتِ أحدٍ آخرَ هنا في أيِّ وقتٍ ودونَ

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

استئذان، فإنّ هذا يُضيِّقُ على أهلِ البيتِ حرِّيتَهم ويُضيِّعُها، وخاصّةً عندما تكونُ المرأةُ أو الرجلُ وحيدًا في البيتِ يَستحِمُّ أو يُبدِّلُ ملابسَه، ثم فجأةً يَدخُلُ عليه رجلٌ أو امرأةٌ من خارج بيتِه، ولكَ أن تتخيّلَ كم من المشكلاتِ يواجهُها كلاهما، ولهذا فإنّ الإسلامَ بيَّن ـ بالتفصيل ـ آدابَ دخولِ أحدٍ إلى بيتِه، وكذا دخولُه إلى بيتِ أحدٍ آخَرَ.

آداب الدخول في بيت غير بيوتنا:

بعدَ أن يَصِلَ أحدٌ عندَ بابِ بيتِ أحدٍ آخَر، عليه أولًا أن يُسلِّمَ على أهل البيت، ثم يُخبِرَهم باسمِه، ويَطلُبَ الإذْنَ بالدُّخول؛ لأنه لو أجابَ عندَ الاستفسارِ عمّن يكونُ بقولِه: «أنا، وأريدُ الدخولَ»، فإنّ قولَه: «أنا» لا يمكِّنُ أهلَ البيتِ من التعرُّف عليه بشكلٍ كامل، وإنما سيُضْطَرُّونَ إلى سؤالِه: ما اسمُك؟ ولهذا يجبُ الإخبارُ بالاسم مباشرةً بعدَ السَّلام، مثلَما «ثَبَت عن عُمرَ بن الخطّاب، أنّه أتَى النّبيَّ ﷺ وهو في مشربةٍ له، فقال: السّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، السّلامُ عليكم، أيدخُلُ عُمر؟»[1]، وهناك مثالٌ مشهورٌ فَحْواه أنّ شخصًا طَرَقَ بابَ أحدِ أصدقائه، فجاءه صوتٌ من الداخل: من تكونُ؟ قال الطارق: أنا. فأجابَ صاحبُ البيت من الداخل: عُدْ من حيثُ جئتَ، فليس من بينِ أصدقائي من يُدعَى «أنا»!

في الماضي لم تكنْ هناك أبوابٌ على صَحْن البيوتِ في الغالب، ولهذا كان صوتُ القادم يصلُ إلى داخِل البيت، ولكنْ في أيامِنا هذه يمكنُ الاستئذانُ بالطَّرْقِ على الأبوابِ، أو بدقِّ أجراسِها، وحين يَفتَحُ صاحبُ البيتِ البابَ، فيكونُ السَّلامُ أولًا، ثم الكلامُ من بعدِه، وأمّا إذا كان في البيتِ هاتف، فيجبُ أن يحدِّدَ الشخصُ الراغبُ في الزيارةِ الوقتَ مسبَقًا من خلالِه.

---

(١) تفسير القرطبي.

والأمرُ بطلَبِ الإذْنِ قبْلَ الدُّخول ليس مقصورًا على الرِّجال فقطْ، وإنّما على النِّساء أيضًا إذا أرَدْنَ زيارةَ أحدٍ آخَرَ أن يَطلُبْنَ الإذْنَ قبْلَ إتمام الزِّيارة، مثلَما تقولُ السيّدةُ أُمُّ إياسٍ رضي اللهُ عنها: «كنتُ في أربع نسوةٍ نَستأذنُ على عائشةَ، فقلتُ: ندخُل؟ فقالت: لا، فقلتُ لِصاحبَتِكُنَّ نَستأذِن؟ فقالت: السّلام عليكم أندخُل؟ فقالت: ادخلوا، ثمّ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾»[١].

آداب الدخول في بيوتنا:

البيتُ الذي تعيشُ فيه الأُمُّ أو الأُختُ، يجبُ طلَبُ الإذْنِ مسبَقًا قبْلَ زيارتِه[٢]، مثلَما وَرَد أنّ شخصًا سألَ النبيَّ ﷺ: أستأذِنُ على أُمِّي؟ قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري، أفأستأذِنُ عليها كلَّما دخَلتُ؟ قال: «أتحبُّ أن تراها عُريانةً؟» قال الرجلُ: لا. قال: «فاستأذِنْ عليها»[٣].

والاحتياطُ يقتضي أنْ لا يدخُلَ المرءُ فجأةً إلى بيتِه حيثُ تعيشُ زوجتُه دونَ أن يُطلِعَها مسبَقًا بقدومِه، وإنّما من خلال سَعْلةٍ يسعُلُها، أو تسبيحةٍ أو تكبيرةٍ يرفَعُ بها صوتَه، أو بأيِّ طريقةٍ خاصّة أخرى يُطلِعُ بها أهلَ بيتِه بقدومِه، بأنْ يطرُقَ بابَ البيتِ أو يدُقَّ جرسَ الباب، فمنَ الممكنِ أن تكونَ امرأةٌ غريبةٌ عنه في البيتِ ضيفةً على زوجتِه، وبالتالي لا يكونُ من المناسِب أن يدخُلَ عليها رجلٌ أجنبيٌّ عنها. تقولُ زوجةُ سيّدِنا عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنهما: «كان عبدُ الله إذا جاء من حاجةٍ فانتَهى إلى الباب، تَنحنَحَ وبزَقَ، كراهةَ أن يَهجُمَ منّا على أمرٍ يكرهُه»[٤].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) «ويستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما». القرطبي.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري.
(٤) المرجع السابق.

لكنّ البيتَ الذي يعيشُ فيه الإنسانُ وحدَه يستطيعُ أن يدخُلَه في أيِّ وقتٍ شاء، وبالطَّبع لا يستأذِنُ أحدًا.

ـ عن جابرِ بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أنّ النّبيَّ ﷺ قال: «إذا دخَلتَ ليلًا فلا تدخُلْ على أهلِك حتّى تستحِدَّ المُغيَّبةُ وتمتشِطَ الشَّعِثة»[1].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

٢٨ ـ بعدَ السَّلام وطلَبِ الإذْنِ بالدُّخول، إنْ أذِنَ أهلُ البيتِ دَخَل القادمُ، وإن قالوا له: ارجِعْ، عليه أن يَرجِعَ دونَ أن يغضَبَ أو يحزَن، وإن طَلَب القادمُ الإذْنَ ثلاثَ مرّاتٍ ولم يُجِبْه أحدٌ فعليه أن يَرجِعَ أيضًا؛ لأنّ إصرارَه قد يؤْذي أهلَ البيتِ ويزعجُهم، ومن الممكنِ أن يكونوا في هذا الوقتِ مشغولينَ في أمرٍ ولا يريدونَ الانقطاعَ عنه[2]، ومن الممكنِ أيضًا أنْ لا يكونَ أحدٌ في البيتِ في ذلك الوقت، وليس من حقِّ أحدٍ في مِثل هذا الوقتِ أن يَدخُلَ بيتَ أحدٍ آخَرَ في غيرِ وجودِه.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

٢٩ ـ المرادُ بالبيوتِ غيرِ المسكونة: المطاعمُ والفنادقُ ودُوْرُ الضِّيافة وغيرُها، والمفتوحةُ أمامَ أيِّ إنسانٍ ليَدخُلَها ويستريحَ فيها.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

٣٠ ـ يعني: عندَما يتَواجَهُ الرجالُ معَ غيرِ المَحارم من النِّساء، يجبُ عليهم أن

---

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب ١٢٢ برقم ٥٢٤٦.

(٢) «وصورة الاستئذان أن يقول الرّجل: السّلام عليكم، أأدخل؟ فإن أذن له دخل، وإن أمر بالرّجوع انصرف، وإن سكت عنه استأذن ثلاثًا، ثمّ ينصرف من بعد الثّلاث؟ لأنّ الزّيادة على ذلك قد تقلق ربّ المنزل، وربّما يضرّه الإلحاح حتّى ينقطع عمّا كان مشغولًا به». تفسير القرطبي.

يغُضُّوا أبصارَهم، ويُعلَمُ منه أنه ليس من الفرضِ على النِّساءِ أن يُغطِّينَ وجوهَهنّ؛ لأنه إذا كان وجهُ المرأةِ مغطًّى فلا معنى لأنْ يغُضَّ الرِّجالُ أبصارَهم.

ونظرةُ السُّوءِ هي البابُ الأوّلُ الذي يقودُ الإنسانَ إلى الفاحشةِ والزِّنا، ولهذا أمَرَ الإسلامُ الرّجالَ أن يَغُضُّوا أبصارَهم؛ لأنه عندَما لا تنظُرُ العينُ إلى غيرِ مَحْرَم، فلن تتولَّدَ في القلبِ جاذبيّةٌ تُجاهَه، ولن يَرِدَ على الخاطرِ فعلُ الفاحشة. يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «البصرُ هو البابُ الأكبرُ إلى القلب، وأعمَرُ طُرُق الحواسِّ إليه، وبحسَب ذلك كثُرَ السّقوطُ من جهتِه. ووَجَب التّحذيرُ منه، وغَضُّه واجبٌ عن جميع المحرَّمات، وكلِّ ما يُخشَى الفتنةُ من أَجْلِه»[١].

وليس معنى هذا الحُكم أن يغُضَّ المؤمنُ البصرَ حيث ذَهَب، فينظُرَ دائمًا إلى أسفل! إذ إنه لو فَعَل لَعرَّض نفسَه إلى أيِّ حادثٍ بسببِ عدَم النظَر أمامَه، ولكنّ المقصودَ في الحقيقةِ هو أنه حينَ يقَعُ البصَرُ على غيرِ مَحْرَم، علينا أن نُعرِضَ ببصرِنا، ولا نتعمَّدَ النظَرَ إليه ثانيةً، وإليك بعضَ الأحاديثِ الواردةِ في هذا الشأن:

١ ـ عن جَرير بن عبدِ الله، قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن نظرةِ الفَجْأة، فأمَرَني أن أصرِفَ بصَري»[٢].

٢ ـ عن بُرَيْدَة، رَفَعَه، قال: «يا عليُّ، لا تُتْبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنّ لكَ الأُولى وليست لكَ الآخِرة»[٣].

٣ ـ عن عبد الله بن مسعودٍ، رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال اللهُ تعالى: إنّ النّظَرَ سَهمٌ من سِهام إبليسَ مسمومٌ، مَن تَرَكَه مَخافتي، أبدَلتُه إيمانًا يجِدُ حلاوتَه في قلبِه»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) الترمذي، أبواب الأدب، باب ٢٨ برقم ٢٧٧٦.
(٣) الترمذي، أبواب الأدب، باب ٢٨ برقم ٢٧٧٧.
(٤) تفسير ابن كثير.

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾

٣١ـ أحدُ معاني حِفظِ الفروج هو: أن يَتِمَّ الابتعادُ بها عن الاستعمالِ غيرِ الشَّرعيِّ، والمعنى الثاني هو سَتْرُها وتغطيتُها، بمعنى: تجنُّبِ ارتداءِ الملابسِ الضيِّقةِ الشَّفافةِ التي تلفِتُ أنظارَ الآخَرينَ وتدعوها إلى النَّظَر، ولهذا من الأفضَل لهم غَضُّ البصَر وحِفظُ الفروجِ، والذين لا يحفَظونَ فروجَهم يجبُ أن يَعرِفوا أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ ما يقومونَ به، وأنه سوف يحاسبُهم طِبقًا لكلِّ هذا.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾

٣٢ـ في الآية السابقة أمَرَ اللهَ تعالى المؤمنينَ من الرِّجال بأن يَغُضُّوا أبصارَهم، وأن لا يتعمَّدوا النَظرَ إلى الأجنبيّاتِ عنهم من النِّساء، وفي هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى النِّساءَ المؤمناتِ بأن يَغْضُضْنَ أبصارَهنَّ أيضًا، وأن لا يتعمَّدنَ النظَرَ إلى الأجانبِ عنهُنَّ من الرِّجال، مثلَما تقولُ السيِّدةُ أُمُّ سَلَمةَ أُمُّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها ـ وقد كانت عندَ رسولِ الله ﷺ: فبَيْنا نحنُ عندَه أَقْبلَ ابنُ أُمِّ مكتومٍ، فدَخَلَ عليه، وذلك بعدَ ما أمَرَنا بالحِجاب، فقال رسولُ الله ﷺ: «احتَجِبا منه»، فقلتُ: يا رسولَ الله، أليس هو أعمَى لا يُبصِرُنا ولا يعرِفُنا؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أفَعمْياوانِ أنتما؟ ألستُما تُبصِرانِه؟». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ[1].

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

٣٣ـ في الآيةِ السابقة أمَرَ اللهُ تعالى الرِّجال بأنْ يحفَظوا فروجَهم، وفي هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى النساءَ أيضًا بأنْ يحفَظْنَ فروجَهنَّ، يعني: يحفَظْنَها من أيِّ استعمالٍ غيرِ شَرْعيّ، أو لا يَلبَسْنَ ملابسَ ضيِّقةً وشَفّافةً تدعو الآخَرينَ إلى النظَرِ إليهنَّ.

---

(١) الترمذي، أبواب الأدب، باب ٢٩ برقم ٢٧٧٨.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾

٣٤ ـ باعتبارِ اللُّغة يُطلَقُ لفظُ الزِّينة على: كلِّ شيءٍ يُجمِّلُ منظرَ الإنسان، مثلَ: الحُلِيّ، والكُحْل، والألوانِ والملابس، وهو ما يُطلَقُ عليه في أيامِنا هذه «الماكياج: Make Up»، لكنّ المرادَ بالزِّينة هنا: الحُسنَ والجَمال، سواءٌ كان جَمالًا طبيعيًّا، يعني: جمالَ أعضاءِ البدَن، أو كان جَمالًا ناتجًا عن استخدام الماكياج[١].

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

٣٥ ـ لا يجوزُ للمرأةِ أن تُظهِرَ أيَّ مكوِّنٍ من مكوِّناتِ زينتِها أمامَ غيرِ المحَارم من الرِّجال، ما عدا تلك التي تَظهَرُ بنفسِها بشكلٍ طبيعيّ، وعندَ الجمهور: المرادُ منه الوَجْهُ والكفَّانِ، وزينتُهما، يعني: الكُحلَ والخِضَابَ والخاتَمَ وما إلى ذلك مما يَظهَرُ عادةً أثناءَ الحركةِ والعمَل والتعامُل معَ الآخَرين، وما تُضْطَرُّ إلى كَشْفِه عندَ البَيْع والشِّراءِ والإدلاءِ بشهادتِها والعلاج عندَ الطّبيب، مثلَما قال سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنه: «﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: والزِّينةُ الظاهرة: الوَجْهُ، وكُحلُ العَيْن، وخِضابُ الكفّ، والخاتَم، فهذه تَظهَرُ في بيتِها لمن دَخَل من الناسِ عليها»[٢].

يقولُ الإمامُ أبو بكرٍ الجَصّاص: «وقال أصحابُنا: المرادُ: الوجهُ والكفّانِ؛ لأنّ الكُحلَ زينةُ الوَجْه، والخِضَابُ والخاتَمُ زينةُ الكفّ، فإذْ قد أباحَ النّظَرَ إلى زينةِ الوَجْهِ والكفِّ فقدِ اقتضَى ذلك ـ لا مَحالةَ ـ إباحةُ النّظرِ إلى الوَجْهِ والكفَّيْن، ويدُلُّ على أنّ الوجهَ والكفَّيْنِ من المرأةِ ليسا بعورةٍ أيضًا: أنّها تُصلِّي مكشوفةَ

---

(١) «وقيل: المراد بالزينة: ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية». تفسير البيضاوي.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

الوجهِ واليدَيْن، فلو كانا عورةً لكان عليها سَتْرُهما كما عليها سَتْرُ ما هو عورةٌ، وإذا كان ذالك: جازَ للأجنبيِّ أن يَنظُرَ من المرأةِ إلى وجهِها ويدَيْها بغيرِ شهوةٍ، فإنْ كان يشتهيها إذا نَظَر إليها جازَ أن ينظُرَ لعُذرٍ مثلَ: أن يريدَ تزويجَها أو الشّهادةَ عليها أو حاكمٌ يريدُ أن يسمعَ إقرارَها، ويدُلُّ على أنّه لا يجوزُ له النّظرُ إلى الوجهِ لشهوةٍ، قولُه ﷺ لعليٍّ: «لا تُتبعِ النّظرةَ النَّظرةَ فإنّ لك الأُولى وليس لك الآخِرة»[١]، وقد اتَّفق الإمامُ أبو حنيفةَ والإمامُ مالكٌ والإمامُ الشافعيُّ والإمامُ أحمدُ على أنّ وجهَ المرأة مستثنًى من السَّتْر[٢].

ويقولُ الإمـامُ ابنُ جَرير الطَّبـريُّ بعـدَ أنْ نقَلَ الأقـوالَ المخـتلفةَ في هذا الخصوص: «وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّواب: قولُ مَن قال: عنَى بذلك: الوَجْهَ والكفَّيْنِ، يدخُل في ذلك إذا كان كذلك: الكُحلُ، والخاتَم، والسِّوار، والخِضَابُ. وإنّما قلنا: ذلك أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالتأويل؛ لإجماع الجميع على أنّ على كلِّ مُصَلٍّ أن يَستُرَ عورتَه في صَلاته، وأنّ للمرأةِ أن تكشفَ وجهَها وكفَّيها في صلاتِها، وأنّ عليها أن تَستُرَ ما عدا ذلك من بدَنِها، فإذا كان ذلك من جميعِهم إجماعًا، كان معلومًا بذلك أنّ لها أن تُبديَ من بدنِها ما لم يكنْ عورةً كما ذاك للرِّجال؛ لانّ ما لم يكنْ عورةً، فغيرُ حرام إظهارُه»[٣]، وقد قال النبيُّ ﷺ: «ولا تنتقِبِ المرأةُ المُحرِمةُ ولا تلبَسِ القُفّازَيْن»[٤]. ولو كان سَترُ وجهِ المرأةِ وكفَّيْها واجبَيْنِ لَما منعهُنَّ النبيُّ ﷺ من سَتْرِهما، كما أنّ الذي يريدُ أن يتزوَّجَ بامرأةٍ يستطيعُ أن يرى وجهَها، وهناك اختلافٌ بينَ العلماءِ في مسألةِ سَتْرِ الوجهِ والكفَّين، على أيِّ حال، تستطيعُ

---

(١) أحكام القرآن، الإمام أبو بكر الجصاص.

(٢) «فالوجه مستثنى باتفاق العلماء الأربعة». التفسير المظهري.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري.

(٤) البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب ١٣ برقم ١٨٣٨.

المرأةُ ـ عندَ الضَّرورة ـ كشْفَ وجهِها وكفَّيْها، مثلَما يقولُ الدكتور وهبة الزُّحَيلي: «والعورةُ هي ما عدا الوجْهَ والكفَّيْنِ»[١].

ويقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «فإنْ كانت حرّةً فجميعُ بدنِها عورةٌ، ولا يجوزُ له أن يَنظُرَ إلى شيءٍ منها إلّا الوجهَ والكفَّيْن؛ لأنّها تحتاجُ إلى إبرازِ الوجهِ في البَيْع والشّراء، وإلى إخراج الكفِّ للأَخْذِ والعطاء... أنّه عند المبايَعة يَنظُرُ إلى وجهِها متأمّلًا حتّى يَعرِفَها عندَ الحاجةِ إليه»[٢].

ـ عن عائشةَ رضي الله عنها، أنّ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ، دَخَلت على رسولِ الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ، فأعرَضَ عنها رسولُ الله ﷺ وقال: «يا أسماء، إنّ المرأةَ إذا بَلَغتِ المحِيضَ لم تَصلُحْ أن يُرى منها إلّا هذا وهذا»، وأشار إلى وجههِ وكفَّيْه[٣]، يعني: أنه لايجوزُ أن يَظهَرَ من المرأةِ سوى وجهِها وكفَّيْها.

ـ عن عبدِ الله بن عبّاسٍ ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال: «أَرْدفَ رسولُ الله ﷺ الفَضْلَ بنَ عبّاسٍ يومَ النَّحر خَلْفَه على عَجُزِ راحلتِه، وكان الفَضْلُ رجُلًا وَضِيئًا، فوقَفَ النّبيُّ ﷺ للنّاسِ يُفتيهم، وأقبلَتِ امرأةٌ من خَثْعَم وضِيئةٌ تَستفتي رسولَ الله ﷺ، فطَفِقَ الفَضْلُ ينظُرُ إليها، وأعجَبَه حُسنُها، فالتفَت النّبيُّ ﷺ يَنظُرُ إليها، فأَخْلَف بيدِه فأخَذ بذَقْنِ الفَضْل، فعَدَل وجهَه عن النّظرِ إليها»[٤]. ويُعلَمُ منه أنّ سترَ وجهِ المرأةِ ليس واجبًا عليها، وإلّا لَما أتَتْ تلك المرأةُ سافرةً عن وجهِها، ولو كان ذلك واجبًا وأتَتِ النبيَّ ﷺ لَأمَرَها النبيُّ ﷺ بسَترِ وجهِها.

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ٧: ١٨.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) أبو داود، كتاب اللباس، باب ١٣ برقم ٤١٠٤.

(٤) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ١ برقم ٦٢٢٨.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾

٣٦ ـ كانتِ النساءُ اللائي يضَعْنَ رداءً على رءوسِهنَّ في العصرِ الجاهليِّ، يضَعْنَ طرَفَي الرِّداءِ خلفَ ظهورِهنَّ، وبهذه الطريقة تبدو أعناقُهنَّ وصدورُهنَّ أيضًا، وفي هذه الآيةِ أمَرَهُنَّ اللهُ تعالى بأنْ يضَعْنَ أحدَ طرَفَي الرِّداءِ على رءوسِهنَّ، والطَّرفَ الآخَرَ على جيوبِهنَّ، حتى يُمكنَ سَترُ أعناقِهنَّ وصدورِهنّ جنبًا إلى جنبٍ معَ شعورِهنَّ عمَّن ينظُرُ إليهنَّ.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾

٣٧ ـ أُمِرتِ النِّساءُ المسلماتُ أن يُخْفينَ زينَتَهنَّ عن عامّةِ الرجال، ولكنْ هناك بعضُ القَراباتِ الخاصّة، وبعضُ الناس الذين جاء ذِكرُهم في هذه الآية، لَسْنَ في حاجةٍ إلى إخفاءِ زينتِهنَّ عنهم، وعلى رأسِ هؤلاء: الزَّوج، وبعدَه الأبُ والابنُ، وبعدَهما الأقاربُ المَحارمُ الآخرون، والنِّساءُ المسلماتُ، والإماءُ والأطفالُ.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾

٣٨ ـ الخَدَمُ الذين حُرِموا من القُوّة الرُّجوليّة، وفَقَدوا الرَّغبةَ الجِنسيّةَ لمرضٍ من الأمراض، أو لضرورةٍ ألمّت بهم، لا تحتاجُ المرأةُ إلى أن تُخفيَ زينتَها عنهم.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾

٣٩ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما «كانتِ المرأةُ تمُرُّ بالناسِ وتضربُ برِجلِها ليُسمعَ صوتُ خُلخالِها، فنَهَى اللهُ تعالى عن ذلك؛ لأنه من عمل

الشيطان»[١]، ويُعلَمُ منه أنه ينبغي للمرأةِ تجنُّبُ أيِّ عملٍ أو لباسٍ يلفِتُ نظَرَ غيرِ المَحارِمِ إليها.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾

٤٠ ـ الرَّغبةُ الجَنسيّةُ أمرٌ فِطريّ، فإذا حَظَرْناها أصابَ الإنسانَ اليأسُ وشَعَر بالوَحدة، وانقَطَع النَّسلُ الإنسانيُّ، ولو تركْناها بلا قيودٍ لانتشَر الفسادُ والانحلالُ الأخلاقيُّ في المجتمَع، وما يَنتُجُ عنه من أطفالٍ جاءوا من الحرام، ولهذا جاء الحُكمُ في هذه الآيةِ أن يتزوَّجَ المسلمونَ الرِّجالُ من النِّساءِ المسلماتِ غيرِ المتزوِّجات، سواءٌ كُنّ ثيِّباتٍ أم أبكارًا، وكذا النِّساءُ المسلماتُ يتزوَّجنَ من الرجالِ المسلمينَ، سواءٌ كانوا عزّابًا أم مطلَّقين، وذلك حتى يتمَّ إشباعُ الرَّغبةِ الجِنسيّة، وإليك بعضَ الأحاديثِ النَّبويّةِ الواردةِ في هذا الخصُوص:

ـ قال عبدُ الله: كنّا معَ النّبيِّ ﷺ شبابًا لا نجدُ شيئًا، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «يا معشرَ الشّباب، من استطاع الباءةَ فلْيتزوَّجْ، فإنّه أغَضُّ للبصَر، وأحصَنُ للفَرْج، ومَن لم يستطعْ فعليه بالصَّوم، فإنّه له وجاءٌ»[٢].

ـ عن أبي نَجيح، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم قال: «مَن كان موسِرًا لِأن يَنكِحَ ثم لم يَنكِحْ فليس منّي»[٣].

ـ عن أبي أيوبَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ «أربعٌ مِن سُنَنِ المرسَلينَ: الحياءُ، والتعطُّر، والسِّواك، والنِّكاح»[٤].

---

(١) صفوة التفاسير.
(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب ٣ برقم ٥٠٦٦.
(٣) المعجم الأوسط، ١: ٥٢٨ برقم ٩٩٣، ومجمع الزوائد، ٤: ٢٥١.
(٤) الترمذي، أبواب النكاح، باب ١ برقم ١٠٨٠.

والنِّكاحُ في الأحوالِ العاديّة سُنّة، ولكنْ إذا غَلَبتِ الرَّغبةُ الجِنسيّةُ على شخصٍ ما لدرجةِ تعرُّضِه بشكلٍ كبيرٍ إلى الزِّنا لو لم يتزوَّجْ، وهو يَـملِكُ نفقاتِ الزَّواج، فالنِّكاحُ عندَئذٍ واجبٌ عليه.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾

٤١ ـ من يَملِكُ المقدرةَ من العَبيدِ والإماءِ على الزَّواج، ويريدُ أن يتزوَّجَ لكي يحافظَ على عِفّتِه وصلاحِه، فعلى مالكِه أن يتدبَّرَ أمرَ زواجِه، ولكنّ العبدَ غيرَ المستقيم، والأَمَةَ غيرَ المستقيمة، ولا أملَ في أن يستقيمَ معَ شريكِ حياتِه، فإنّ مسئوليّةَ تزويجِه ليست على مالكِه.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾

٤٢ ـ المسلمُ الفقيرُ الذي يريدُ أن يتزوَّجَ ليُحافظَ على دينِه، لكنّه لا يَملِكُ الوسائلَ الماليّةَ المناسبةَ لذلك، يبشِّرُه اللهُ تعالى في هذه الآية بأنْ لا يَترُكَ إرادتَه في الزَّواج لمجرَّدِ أنه فقيرٌ، فسوف يوسِّعُ اللهُ عليه ماليًّا من فضلِه، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عَوْنُهم: المجاهدُ في سَبيل الله، والمكاتَبُ الّذي يريدُ الأداءَ، والنّاكحُ الّذي يريدُ العَفافَ»[1]، فاللهُ تعالى هو خالقُ الأسباب، وفي أحيانٍ كثيرةٍ يزدادُ الإحساسُ بالمسئوليّة بسببِ الزَّواج، ويباركُ اللهُ تعالى في الدَّخْل الماديِّ بسببِ الاجتهادِ في العمَل، كما أنّ الزَّوجةَ عندَما تشاركُ زوجَها في مسألةِ العمَل، فإنّ الظروفَ تتغيَّر، ومن الممكنِ أيضًا أن تكونَ الزَّوجةُ سعيدةَ الطالع، فيُنعِمَ اللهُ تعالى على زوجِها برَغَدِ العيش ببركتِها.

---

(١) الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، باب ٢٠ برقم ١٦٥٥.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

٤٣ ـ الذين لا يمتلكونَ نَفقاتِ الزَّواج عليهم أيضًا أن يتجنَّبوا الفواحشَ، ويحافظوا على عَفافِهم وطهارةِ ذَيْلِهم بالصِّيام، وينتظروا إلى أن يُهيِّئَ اللهُ تعالى الأسبابَ والوسائلَ التي تُيسِّرُ لهم أمرَ الزَّواج.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾

٤٤ ـ كان الرِّقُّ سائدًا وقتَ نزولِ القرآن، وقد عَمِل الإسلامُ على أن يتراجعَ الرِّقُّ، ورَغَّبَ في تحريرِ العبيد، وهو ما نَتَج عنه القضاءُ على الرِّقِّ تدريجيًّا، واليومَ لا يُرى أثرٌ للرِّقِّ في العالَم الإسلاميِّ، وكانت إحدى حلَقاتِ هذه السِّلسلة أنه إذا أراد العبدُ أو الأَمَةُ أن يُعاهِدَ سيِّدَه على أن يعمَلَ لفترةٍ ما، يجمَعُ قدرًا معيَّنًا من المال يُعطيه لسيِّدِه، فيقومُ سيِّدُه بتحريرِه مقابلَ هذا المقدارِ من المال، فإنّ القرآنَ المَجيدَ في هذه الآيةِ يحُثُّ المالكَ على أن يُبرِمَ مِثلَ هذه المعاهَدةِ مَع عبدِه أو أَمَتِه إن رَأى فيها خيرًا للعبدِ أو الأَمَة، ولَمَسَ صِدقَه في ذلك، بل وعليه أن يُساعدَه ماليًّا في هذا الأمرِ بالزَّكاةِ والصَّدَقات، حتى يُمكنَه التحرُّرُ في أقصرِ وقتٍ ممكن، ويستطيعُ المسلمونَ الآخَرون نَيْلَ ثوابِ الدارَيْنِ بمساعدةِ مِثل هذا العبدِ أو الأَمَةِ بالزَّكاة والصَّدقاتِ أيضًا.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

٤٥ ـ كان بعضُ الناسِ في الجاهليَّة يُكرِهونَ إماءَهم على البِغاءِ، وكان عبدُ الله بنُ أُبيٍّ يتكسَّبُ من وراءِ إكراهِ إمائه على البِغاء، وبعضُ هؤلاءِ الإماءِ

أَسْلَمْنَ، ورَفَضْنَ العملَ بالبِغاء، فنَزَلت هذه الآيةُ عندَئذٍ، إذ إنّ إكراهَ الإماءِ أو غيرِهن من النِّساءِ الأُخرَياتِ على البِغاءِ أمرٌ محرَّمٌ على أيِّ حال، سواءٌ فعَلْنَ هذا برضاهُنَّ أو رَغْمًا عنهُنَّ، لكنْ إن لم تُرِدِ الإماءُ القيامَ بهذا العمَل القبيح، ومعَ ذلك يُجبِرُهنَّ المالكُ عليه لتحصيل المنافع الدُّنيَويّة، فإنّ هذا يُعَدُّ أكثرَ قبحًا وفحشًا، ومن يُجبِرُهنَّ سيلقَى يومَ القيامة عذابًا شديدًا، بينَما لا يكونُ هناكَ حَرَجٌ على مَن تمَّ إجبارُهنَّ، واللهُ تعالى سيَرحَمُهنَّ.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

٤٦ ـ بيَّن اللهُ تعالى في القرآنِ المَجيد وقائعَ الأُمم السّابقةِ بوضوح، تلك الأُممُ التي لم تعمَلْ بأحكام الله تعالى، واستحَقَّ هؤلاء العذابَ الإلهيَّ، وذلك لكي يَعتبرَ بهذه الوقائع والأحداثِ أولئك الذين تَخشَى قلوبُهمُ اللهَ تعالى.

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٤٧ ـ مِن أسماءِ الله تعالى الحُسنى: «النُّور»، يعني: أنّ اللهَ تعالى هو الذي يمنَحُ النُّورَ للسماءِ والأرضِ بالشمسِ والقمر، ويُنيرُ طريقَ الهداية لأهلِ السَّماءِ والأرض.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

٤٨ ـ بيَّن أهلُ العِلم مختلَفَ معاني هذا المثال، ونُقدِّمُ إليك هنا بعضًا منها:

«قال ابنُ عبّاسٍ لكعبِ الأحبار: أخبِرْني عن قولِه تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال كعبٌ: هذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ لنبيِّه ﷺ، فالمِشكاةُ: صدرُه، والزُّجاجةُ: قلبُه، والمصباحُ فيه النُّبوَّة توقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ هي شجرةُ النُّبوّة، يكاد نورُ محمّدٍ وأمرُه يتبيَّنُ للنّاس ولو لم يتكلَّمْ أنّه نبيٌّ، كما يكادُ ذلك الزَّيتُ يُضيءُ ولو لم تَمْسَسْه نارٌ»[١]. ولكنْ، حين تلتقي النارُ معَه، فإنّ حالَ نُورِه يكونُ عجيبًا متفرِّدًا. وبنفسِ الطريقة، فإنّ شأنَ النبيِّ ﷺ كان عظيمًا، وكذا كانت سيرتُه ﷺ قبْلَ النُّبوة، ولكنْ حين نَزَل عليه القرآنُ الكريم، كان كالذَّهبِ الذي زادَه الصَّقلُ جَلاءً، وازدادَ النُّورُ ضياءً، كما أنّ نُبوَّته ﷺ ليست منحصِرةً في زمانٍ أو مكانٍ أو مشرِق أو مغرِب، وإنّما نُبوّتُه ﷺ عامّةٌ وشاملةٌ لكلِّ أُمّةٍ وعِرقٍ ومكان.

بعض جوانب عظمة النبي الكريم ﷺ قبل البعثة النبوية:

١ ـ تقولُ السيِّدةُ آمِنةُ رضي الله عنها: «لقد رأيتُ ليلةَ وَضَعتُه نورًا أضاءَتْ له قصورُ الشام حتى رأيتُها»[٢].

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) المواهب اللدنية، ١: ١٢٨.

٢ ـ تقولُ السيِّدةُ حَليمةُ السَّعديّةُ رضي الله عنها: «ما كنّا نحتاجُ الى السِّرّاج من يومَ أَخَذْناه؛ لأنّ نورَ وجهِه كان أنورَ من السِّراج، فإذا احتَجْنا إلى السِّراج في مكانٍ جئنا به، فتنوَّرتِ الأمكنةُ ببركتِه ﷺ»[١].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «كانت حَليمةُ لا تَدَعُه يذهَبُ مكانًا بعيدًا، فغَفَلت عنه، فخَرَج معَ أُختِه الشَّيماءِ في الظَّهيرةِ إلى البُهْم، فخَرَجت حَليمةُ تطلُبُه، فوجَدتْه معَ أُختِه، فقالت: في هذا الحرّ؟ فقالت أُختُه: يا أُمَّه، ما وَجَد أخي حرًّا، رأيتُ غَمامةً تُظِلُّه، إذا وَقَف وقَفَتْ، وإذا سارَ سارَتْ معَه»[٢].

٤ ـ أَخْرج ابنُ عساكر، أنّ أبا طالبٍ حين أَقْحطَ الوادي استَسْقَى ومعَه النبيُّ ﷺ وهو غُلام، فأخَذ أبو طالبِ النبيَّ ﷺ، وأَلْصقَ ظهرَه بالكعبة، ولاذَ النبيُّ ﷺ بإصبعِه وما في السّماءِ قَزْعةٌ، فأقْبلَ السَّحابُ من هاهنا وهاهنا، وأَغْدقَ وأَغْدقَ وانْفجَر له الوادي، وفي ذلك قال أبو طالبٍ شعرًا:

وأبيضُ يُستسقَى الغَمامُ بوجهِه ... ثمال اليَتامَى عصمةٌ للأراملِ[٣]

٥ ـ نَقَل الإمامُ الترمذيُّ، والمؤرِّخونَ كذلك، واقعةً خلاصتُها: أنه حين كان النبيُّ ﷺ في الثانيةَ عشْرةَ من عمُرِه تقريبًا خَرَج معَ عمِّه أبي طالبٍ في سَفَر تجاريٍّ إلى الشام، وعندَما دَخَلت القافلةُ في وادي بُصرى نَظَر راهبٌ نَصْرانيٌّ من صَوْمعتِه، فرأى سحابةً تُظلِّلُ طفلًا صغيرًا، وحيثُما اتَّجه هذا الطِّفلُ رافقَتْه هذه السَّحابةُ تُظلِّلُه، ولمّا رأى الراهبُ بَحِيرى هذا المنظرَ من نافذةِ صَوْمعتِه خَطَر ببالِه أنّ هذا الطِّفلَ ربَّما يكونُ هو ذلك النبيَّ الصّادقَ الأمينَ الذي ننتظرُه، والذي

---

(١) التفسير المظهري.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

ذُكِرت علاماتُه في كتُبِنا، ولهذا ينبغي أن أراهُ من قُرب. وهكذا، قام هذا الرّاهبُ بدعوةِ أفرادِ القافلةِ جميعًا إلى الطّعام لدَيْه، ولمَّا فَرَغ هؤلاءِ من الطّعام ودَّعَهمُ الراهبُ، ولكنّه استَوْقفَ السيّدَ أبا طالبٍ وسيّدَنا محمّدًا ﷺ، وأخَذ يستفسرُ من سيّدِنا محمدٍ ﷺ عن أحوالِ نومِه ويقَظتِه وغيرِها، وفي النِّهاية رَفَع ثيابَ النبيِّ ﷺ عن ظهرِه الطاهر، ورأى خَتْمَ النُّبوة بنفسِ الشكلِ الموجودِ عندَه، فانحنَى بطريقةٍ لا إراديّةٍ وقَبَّل خَتْمَ النُّبوة.

وحينَ فَرَغ الراهبُ بَحِيرى من هذا اتَّجه إلى السيِّدِ أبي طالبٍ وسأَلُه عن قَرابةِ هذا الطِّفل إليه، فقال له: إنه ابني، فقال بَحِيرى: إنه ليس ابنَك، ولا يمكنُ أن يكونَ أبوه على قَيْدِ الحياة، وعندَئذٍ قال أبو طالب: إنه ابنُ أخي، فقال بَحِيرى: خُذِ ابنَ أخيك وعُدْ إلى بلدِك، واحذَرْ دائمًا من اليهود؛ لأنّهم إنْ رأَوْه وعَلِموا بما أعلَمُه فسوف لا يتورَّعونَ عن إيذائه، وسيكونُ لابنِ أخيك شأنٌ عظيم، فهو رسولُ ربِّ العالَمين. وهكذا ذَهَب السيِّدُ أبو طالبٍ إلى الشام معَ القافلة، وفَرَغ سريعًا من الأعمالِ التِّجاريّة وعاد بسيّدِنا محمدٍ ﷺ إلى مكّةَ[١].

٦ ـ خَلا الأخنَسُ بأبي جَهْل، وقال: «أتَرى محمّدًا يكذِب؟ فقال أبو جهل: كيف يكذبُ على الله وقد كنّا نُسمِّيه الأمينَ لأنه ما كذَبَ قطُّ! ولكنْ إذا كانت في عبدِ منافٍ السِّقايةُ والرِّفادةُ والمَشُورة، ثم تكونُ فيهم النُّبوة، فأيُّ شيءٍ بقيَ لنا؟»[٢].

٧ ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ سَمُرةَ: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّي لَأعرِفُ حَجَرًا بمكّةَ كان يُسلِّمُ عليَّ قبْلَ أن أُبعثَ، إنّي لَأعرِفُه الآنَ»[٣]. ولكن، بأيِّ

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣، برقم ٣٦٢٠، وكذا كتب التاريخ.
(٢) إمتاع الأسماع، ١: ٩١.
(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٥٩٣٩.

ألفاظٍ كانتِ الأحجارُ تُسلِّمُ على النبيِّ ﷺ؟ إليك هذا المثالَ فتأمَّلْه: «عن عليِّ بن أبي طالبٍ، قال: كنتُ معَ النّبيِّ ﷺ بمكَّة، فخَرجْنا في بعضِ نواحيها، فما استقبَلَه جبلٌ ولا شجرٌ إلّا وهو يقولُ: السّلامُ عليك يا رسولَ الله»(١).

٨ ـ يَنقُلُ الإمامُ القَسْطلّانيُّ «أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حين أرادَ اللهُ كرامتَه وابتداءه بالنُّبوة، كان لا يمُرُّ بحَجرٍ ولا شجرٍ إلا سَلَّم عليه... وهي تُحيِّيه بتحيّةِ النُّبوة: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله»(٢).

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾

٤٩ ـ كانت هناك أنواعٌ مختلفةٌ من الزُّيوتِ تُستعمَلُ في ذلك الوقتِ لإشعالِ المصابيح، ومن بينِها كان زيتُ الزَّيتونِ هو الأقوى ضوءًا عندَ اشتعالِه، كما أنه هو الأكثرُ شفافيَةً والأقلُّ تلويثًا بالدُّخَان، وفي نفسِ الوقت فإنّ زيتَ الزَّيتونِ يوضَعُ في الطّعام ويؤكَلُ مثلَ السَّمْن، وتناولُ ثمارِه كان أمرًا مفيدًا للغاية، ولا تنحصرُ بركاتُ هذه الشّجرةِ في أهل المشرِق والمغرِبِ فقط، بل إنّها عامّةٌ يستفيدُ منها أهلُ الشّمالِ والجنوبِ أيضًا، بل وكلُّ من يَستعملُ زيتَ هذه الشّجرةِ وثمارَها يستفيدُ من برَكاتِها، وكما أنّ بَركاتِ شجرةِ الزَّيتونِ عامّةٌ للجميع، كذلك بَركاتُ نبوّةِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ عامّةٌ للدنيا كلِّها وشاملةٌ لها.

يقولُ سيّدُنا أبو أَسِيد رضي اللهُ عنه: إنّ النبي ﷺ قال: «كلوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به فإنّه من شجرةٍ مباركةٍ»(٣).

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٦.

(٢) المواهب اللدنية، ١: ٢٠٠.

(٣) الترمذي، أبواب الأطعمة، باب ٤٣ برقم ٨٥٢.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾

٥٠ ـ المرادُ بالبيوتِ: المساجدُ، يعني: أن تكونَ المساجدُ عاليةَ المقام والبُنيانِ وعظيمةَ الشان، بحيثُ يَعلَمُ القادمونَ من بعيدٍ أين يقَعُ المسجد، وينبغي أن تكونَ جُدرانُ المساجدِ وأرضيَّتُها وفُرُشُها نظيفةً طاهرةً، بحيث تُسعِدُ قلوبَ الناظرينَ إليها، ويجبُ أن لا يدورَ في المساجدِ من الأحاديثِ ما يتنافَى معَ الآدابِ الإسلاميّة، بحيث تطمئنُّ قلوبُ المصَلِّينَ والمسبِّحينَ بحمدِ الله فيها كلَّ يوم صباحًا ومساءً.

يقولُ سيِّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: إن رسولَ الله ﷺ قال: «مَن أحبّ الله عزَّ وجلّ فلْيُحِبَّني، ومَن أحبَّني فلْيُحِبَّ أصحابي، ومَن أحبَّ أصحابي فلْيُحِبَّ القرآنَ، ومَن أحَبَّ القرآنَ فلْيُحِبَّ المساجدَ فإنّها أفنِيةُ الله، أبنيتُه أَذِنَ اللهُ في رَفْعِها وبارَك فيها، ميمونةٌ ميمونٌ أهلُها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلُها، هم في صلاتِهم واللهُ عزّ وجلّ في حوائجِهم، هم في مساجدِهم واللهُ مِن ورائهم»[1].

وفي الدّنيا أربعةُ مساجدَ بناها الأنبياءُ عليهمُ السَّلام: بيتُ الله، وبيتُ المقدِس، ومسجدُ قُباء، والمسجدُ النَّبويُّ[2]، ولمزيد من التفصيل عن فضل المساجد وآدابها راجع الحاشية رقم ١٠ من سورة التوبة (٩).

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

٥١ ـ الذين يسبِّحونَ بحَمْدِ الله تعالى في المساجدِ صباحًا ومساءً بغَرَض

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «قال البغوي: روى صالح... بن حبان، عن بريدة في هذه الآية، قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل، وبيت المقدس بناها داود وسليمان، ومسجد المدينة ومسجد قبا أسّس على التّقوى من أوّل يوم، بناهما رسول الله ﷺ». التفسير المظهري.

نَيْل رضا الله تعالى، هم أولئك السُّعَداءُ الذين لا تُلهيهمُ المشاغلُ الدُّنيَويّةُ عن ذِكرِ الله تعالى وعن أداءِ الصَّلاة وأداءِ الزَّكاة، لكنّهم بالرَّغم من هذه الأعمالِ الصّالحة فإنّ قلوبَهم وَجِلةٌ من يوم القيامة، ذلك اليوم الذي ترتعدُ القلوبُ من أهوالِه حين يرَوْنَها، وتكاد أحداقُهم تنفجرُ حَيْرةً ودهشةً.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

٥٢ ـ الصّالحونَ يعمَلونَ الصّالحاتِ حتى يَجزِيَهمُ اللهُ تعالى خيرَ الجزاءِ من فَضْلِه، وشأنُ كرَم الله تعالى أنّ من يعمَلُ الصّالحاتِ يَعُدُّها عدًّا فإنّ اللهَ تعالى يضاعفُ له أَجْرَ هذه الأعمالِ مئاتٍ، بل آلافَ المرّات، أما الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ دونَ أن يَعُدُّوها فإنّ اللهَ تعالى يَجزِيهم بغيرِ حساب، مثلَما تقولُ السيّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال لها: «أنفِقي ـ أو انضَحي أو انفَحي ـ ولا تُحصي فيُحصيَ اللهُ عليكِ»[(١)].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾

٥٣ ـ الكُفّارُ قسمان؛ أحدُهما: هم أولئك الكُفّارُ الذين يؤمنونَ بالآخِرة بشكلٍ من الأشكال، ويأمُلونَ في خيرِ الجزاءِ على أعمالِهم الصّالحة، وأعمالُ هؤلاء الصّالحةُ كمَثَل السَّراب، أي: الرِّمالِ اللامعةِ التي تبدو من بعيدٍ ماءً بسببِ ضوء الشمس، ولكنْ حين يقتربُ منها الظَّمآنُ يُفاجَأُ بأنّ ما رآه لم يكنْ ماءً، وإنّما رمالٌ، وهكذا يموتُ من شدّةِ الظَّمأ، وهكذا فإنه عندما يموتُ الكافرُ من هذا النوع يتيقَّنُ أنّ أعمالَه الصّالحةَ لا قيمةَ لها في الآخِرة بسببِ عَدَم إيمانِه، وأنّ اللهَ

---

(١) مسلم، برقم ١٠٢٩.

تعالى قد أعطاه أَجرَ هذه الأعمالِ الصّالحة في الدُّنيا في شكلِ الحياةِ المريحةِ الرَّغِدة، وبالتالي سيكونُ الحسابُ في الآخِرة على سيّئاتِه.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾

٥٤ ـ القسمُ الثاني من الكُفّار هم الذين يُنكرونَ الآخـرةَ تمامًا، ومثالُهم: شخص في ظُلُماتٍ وَسَطَ بحرٍ عميق، والأمواجُ من فوقِه ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعض، ثم فوقَ كلِّ هذا سُحُبٌ وغيومٌ، وباختصار: فهو محاصَرٌ بظلام دامس، بحيثُ إذا أَخْرج يدَه لم يكَدْ يراها، يعني: أنّ يدَه التي هي عضوٌ من جسَدِه، وفي غايةِ القُرب منه، إذا لم يستطعْ مشاهدتَها، فأيُّ شيءٍ آخَرَ يمكنُ أن يراه هذا الشّخص؟ وهكذا يومَ القيامة يكونُ حالُ ذلك الشّخصِ الذي حُرِم من نُورِ الإيمان، إذْ لا يبدو له في الأُفُق أيُّ شُعاع للأملِ في النَّجاة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ

ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

٥٥ ـ مثلَما تعرِفونَ، فإنّ كلَّ شيءٍ في الأرضِ والسَّماء، وحتى الطيورُ التي تطيرُ في الفضاء، كلُّها تسبِّحُ بحمدِ الله تعالى، وقد أوْدعَ اللهُ تعالى في فِطرةِ كلِّ شيءٍ طريقةَ الدُّعاءِ لله تعالى وتسبيحِه، وهو أمرٌ يعرِفُه كلُّ شيءٍ مثلَما يعرِفُ كلُّ حيَوانٍ ـ بالفِطرة ـ طعامَه الذي يختلفُ عن طعام غيرِه من الحيَوانات، على سَبيل المثال: الكلبُ لا يأكلُ العُشبَ، والشّاةُ لا تأكلُ اللَّحمَ، وبنفسِ الطريقة فإنّ طريقةَ تسبيح كلِّ شيءٍ مختلفةٌ عن طريقةِ الآخَر، ومعَ أنّنا لا نفهَمُ تسبيحَ هذه الأشياء، لكنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم مَن يفعَلُ ماذا؟ لكنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ بمعجِزاتِهم، والأولياءُ الصّالحينَ بكراماتِهم، يستطيعونَ سَماعَ تلك التسبيحات، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ولقد كنّا نسمعُ تسبيحَ الطّعام وهو يؤكَلُ»[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾

٥٦ ـ مثلَما تعلَمونَ فإنّ اللهَ تعالى يُسيِّرُ السَّحابَ طبقاتٍ فوقَ طبقات، ثم يُمطِرُ من بينِها الماءُ والبرَدُ، وحيثُما شاء يُنزِلُ البرَدَ، ويُنجّي منه المكانَ الذي يريد.

---

(١) البخاري، برقم ٣٥٧٩.

كيف تتكون السحب والمطر والثلج والبرد؟

طبقًا للبحثِ العلميِّ فإنّ بُخارَ الماء يرتفعُ في طبقاتِ الهواءِ بسببِ حرارةِ الشمس، وحين يصِلُ هذا البُخارُ إلى طبقاتِ الهواءِ البارد يتجمَّدُ ويتَّخذُ شكلَ قَطَراتِ الماء، وتقتربُ هذه القَطَراتُ من بعضِها وتجتمعُ معًا، بحيثُ لا يستطيعُ الهواءُ حَمْلَها حين تصبحُ ثقيلةً، فتبدأُ في التساقُطِ على الأرضِ في شكلِ أمطار، ولو أنّ هذه السُّحُبَ ارتفعَتْ في هواءٍ أكثرَ برودةً فإنّها تصبحُ أكثرَ تجمُّدًا، وتصيرُ ثلوجًا، فإذا ارتفَعَت في هواءٍ أكثرَ برودةً تحوَّلت إلى بَرَدٍ يتساقَطُ إلى أسفلَ.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾

٥٧ ـ حينَ يُبرِقُ الرعدُ في السُّحب، فإنّ هذا ـ بصفةٍ عامّة ـ يُعتبَرُ مقدِّمةً وإرهاصاتٍ بنزولِ الأمطار، ولكنّها حيثما تَسْقُط يَحدُثُ الضَّرَر، وفي بعضِ الأحيان يكونُ البرقُ شديدًا إلى درجةٍ يبدو معَها وكأنّ هذا البَرْقَ سيذهَبُ بالأبصارِ ويَعميها.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

٥٨ ـ خالقُ نظام الكائناتِ هذا ومالكُها هو اللهُ تعالى، وهو الذي يأتي باللَّيل بعدَ النّهار وبالنهارِ بعدَ اللَّيل، وفي هذا دَرسُ عِبرةٍ لأصحابِ العقول، حتى يستطيعوا فَهْمَ قدرةِ الله تعالى العظيمةِ، ويعبُدوهُ وحدَه لا شريكَ له.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

٥٩ ـ اللهُ تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، وقد خَلَق كلَّ الحيَواناتِ من قطرةِ ماء (ولمزيدٍ من التفصيلِ في هذا الموضوع راجعِ الآيةَ رقم ٣٠ من سُورةِ الأنبياءِ (٢١)،

وكذا الحاشيةُ رقم ٢٦)، كما أنّ اللهَ تعالى قد أعطَى الحيَواناتِ كلَّها أشكالًا وصُوَرًا مختلفةً، ولهذا تجدُ بعضَها يزحَفُ على بطنِه مثلَ الثَّعابين، وبعضَها يمشي على رِجلَيْنِ مثلَ الإنسان، وبعضَها يمشي على أربعِ أرجُلٍ مثلَ البقرِ والماعز.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

٦٠ ـ بيَّنت آياتُ القرآنِ المَجيد توحيدَ الله تعالى بصورةٍ واضحة، ومعَ ذلك فإنّ من يهتدونَ إلى الصِّراطِ المستقيم هم الذين يحاولونَ البحثَ عنه بتوفيقِ الله تعالى.

﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾

٦١ ـ كان بينَ صفوفِ المسلمينَ منافقونَ يدَّعُونَ الإيمانَ بألسنتِهم، ولكنّهم إذا خاصَموا أحدًا، ودُعُوا إلى الاحتكام إلى رسولِ الله ﷺ، فإنْ كان الخطأُ من المنافقينَ سَوَّفوا في الذّهابِ إلى رسولِ الله ﷺ وماطَلوا فيه، وإن كانوا على الحقِّ في خصامِهم هذا تجدُهم يُهَرولونَ مُسرِعينَ إليه؛ لأنّهم كانوا على يقينٍ من أنّ رسولَ الله ﷺ يَحكُمُ بالحقِّ، ولا ينحازُ إلى أحدٍ، كما أنه لا يَقبَلُ الوساطةَ في الحقِّ من أحدٍ.

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

٦٢ ـ الذين يُعرِضُونَ عن الاحتكام إلى رسولِ الله ﷺ إمّا أنّ في قلوبِهم نفاقًا وكُفرًا، وإمّا أنهم يَشُكُّونَ في نُبوّتِـه ﷺ، أو أنّهم يخافونَ أن يَظلِمَهم رسولُ الله ﷺ، ولا يمكنُ أن يكونَ مؤمنًا من يعتقدُ في شيءٍ من هذه الأشياء، بل على العكس، فهو بذلك يَظلِمُ نفسَه ويُفسِد آخِرتَه.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

٦٣ ـ على عكسِ المنافقينَ، كان شأنُ المؤمنينَ أنّهم كلَّما دُعوا إلى الاحتكام إلى الله ورسولِه، فإنّهم كانوا يخضَعونَ لكلِّ ما يقرِّرُه رسولُ الله ﷺ ويُذعِنونَ له، ويَعمَلون به كذلك، ولهذا استحَقُّوا الفلاحَ في الدارَيْنِ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

٦٤ ـ كان المنافقونَ ـ من أَجْلِ إخفاءِ نفاقِهم ـ يُقسِمونَ بأغلظِ الأَيْمانِ قائلين: إنّهم على أتمِّ استعدادٍ للتضحية بكلِّ شيءٍ إذا أمَرَهم رسولُ الله ﷺ بذلك، فقال لهم النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: لا حاجةَ لكم إلى الإكثارِ من الحَلِف، فإنّنا نَعلَمُ

تمامًا حالَ طاعتِكم من تصرُّفاتِكمُ السابقة، وعندَما تكونُ الحاجةُ فإنّكم تنسَوْنَ أَيْمانَكم، وتأخُذونَ في المماطلةِ والتسويف، كما أنّ الناسَ قد ينخدِعونَ بشكلٍ مؤقَّتٍ بالأَيْمانِ الكاذبة، لكنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم مكنونَ قلوبِكم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

٦٥ ـ مسئوليّةُ النبيِّ ﷺ هي أن يُبلِّغَكم أحكامَ الله تعالى بشكلٍ واضح، ومسئوليّتُكم هي أن تُطيعوا رسولَ الله ﷺ وتهتَدوا، وإن لم تُطيعوا رسولَ الله ﷺ، فإنّ ذلك لن يُضيرَه في شيءٍ، فقد أدَّى ﷺ فَرْضَ الدَّعوة، وسيَجزيهِ اللهُ تعالى الأَجْرَ العظيمَ على ذلك.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾

٦٦ ـ الذين آمَنوا بالله تعالى قبلَ النبيِّ الكريم ﷺ، وأطاعوا أنبياءَهم الكرامَ عليهمُ السَّلام، وعَمِلوا الصّالحاتِ، أَنْعم اللهُ تعالى عليهم بحُكم الأرض، ونَجّاهم من الخوفِ من الأعداء، مثلَما نَجّى قومَ طالوتَ من خوفِ جالوت، وقومَ موسى من خوفِ فرعَوْن، وبنفسِ الطريقة وَعَد اللهُ تعالى المسلمينَ أيضًا أنّهم إن أطاعوا نبيَّهمُ الكريمَ ﷺ وعَمِلوا الصّالحات، فسوف يُنَجِّيهم من الخوفِ من الأعداء، ويُنعِمُ عليهم بالاستخلافِ في الأرض، وهكذا فإنّ التاريخَ شاهدٌ على أنّ اللهَ تعالى ـ في سنواتٍ قلائلَ ـ نَجّى المسلمينَ من خوفِ كُفّار مكّةَ، بل من خوفِ كُفّارِ العربِ والعجَم على السَّواء، واستَخْلفَهم في الأرض، وإليكَ في هذا المقام حديثَيْنِ شريفَيْنِ:

١ ـ أَخْرج عبدُ بنُ حُمَيد وابنُ أبي حاتم، عن أبي العالية، قال: كان النّبيُّ ﷺ وأصحابُه بمكّةَ نحوًا من عشْرِ سنين، يَدْعُونَ إلى الله وحدَه، وعبادتِه وحدَه لا شريكَ له سرًّا وهم خائفون، لا يؤمَرونَ بالقتالِ حتّى أُمِروا بالهجرةِ إلى المدينة، فقَدِموا المدينة، فأمَرَهمُ اللهُ بالقتال، وكانوا بها خائفينَ؛ يُمسُونَ في السّلاح، ويصبحونَ في السّلاح، فغَيَّروا بذلك ما شاء الله، ثمّ إنّ رجلًا من أصحابِه قال: يا رسولَ الله، أبدَ الدّهرِ نحن خائفونَ هكذا؟ أما يأتي علينا يومٌ نأمَنُ فيه، ونضَعُ فيه السّلاحَ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لن تُغيِّروا إلّا قليلًا، حتّى يجلسَ الرجلُ منكم في الملأِ العظيم مُحتبِيًا ليست فيهم حديدة، فأَنْزل اللهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرِ الآية، فأظهَرَ اللهُ نبيَّه على جزيرةِ العرب، فأَمِنوا ووَضَعوا السّلاحَ، ثمّ إنّ اللهَ قَبَض نبيَّه، فكانوا كذلك آمِنينَ في إمارةِ أبي بكرٍ وعُمرَ وعثمانَ، حتّى وَقَعوا فيما وَقَعوا، وكَفَروا النِّعمةَ، فأَدخَل اللهُ عليهم الخوفَ الّذي كان رُفِع عنهم، واتَّخذوا الحَجَرَ والشُّرَط، وغَيَّروا فغُيِّر ما بهم[1].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عَدِيُّ بن حاتم رضي الله عنه: بَيْنا أنا عندَ النّبيّ، ﷺ إذْ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثمّ أتاه آخَرُ، فشكا قَطْعَ السَّبيل. فقال: «يا عَدِيّ، هل رأيتَ الحِيرة؟». قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها، قال: «فإنْ طالت بك حياةٌ لَترَينَّ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرة، حتّى تطوف بالكعبة، لا تخافُ أحدًا إلّا الله» ـ قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّارُ طيّئٍ الّذين قد سَعَّروا البلاد؟ ـ ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفتحَنَّ كنوزُ كسرى». قلت: كسرى بنِ هُرمُز؟ قال: «كسرى بنِ هُرمُز، ولئن طالتْ بك حياةٌ، لَترَينَّ الرّجُلَ يُخرِجُ ملءَ كفِّه من ذهبٍ أو فضّةٍ، يطلُبُ مَن يَقبلُه منه، فلا

---

(١) تفسير الدر المنثور.

يجدُ أحدًا يَقبَلُه منه...»، قال عَديٌّ: فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرة حتّى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ إلّا الله، وكنتُ فيمَن افتَتح كنوزَ كسرى بن هُرمُز[١].

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ خلافةَ الخلفاءِ الراشدينَ كانت حقًّا؛ لأنّ نُبوءةَ النبيِّ ﷺ قد تحقَّقت في ذلك الزمان، وكُتِبت الغَلَبَةُ للمسلمين، ونالوا الأمنَ والأموالَ، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «الخلافةُ في أُمّتي ثلاثونَ سنةً ثمّ مُلكٌ بعدَ ذلك»[٢]. وقد بيَّن العلّامةُ الخازنُ تفصيلَ هذه الثلاثينَ عامًا قائلًا: «إنّ خلافةَ أبي بكرٍ كانت سنتَيْنِ وثلاثةَ أشهر، وخلافةَ عُمرَ كانت عشْرَ سنينَ وستةَ أشهر، وخلافةَ عثمانَ اثنتَيْ عشْرةَ سنةً كما ذُكِر في الحديث، وخلافةَ عليٍّ أربعَ سنينَ وتسعةَ أشهر، ولهذا جاء في بعضِ رواياتِ الحديث على كذا، ولم يبيِّنْ تعيينَ مدّتِه، فعلى هذا التفصيل تكونُ مدةُ خلافةِ الأئمة الأربعة تسعةً وعشرينَ سنةً وستةَ أشهر، وكَمُلت ثلاثينَ سنةً بخلافةِ الحسَن، كانت ستةَ أشهُر، ثم نَزَل عنها، والله أعلم»[٣]، وهذه الآيةُ دليلٌ على نُبوّةِ النبيِّ ﷺ أيضًا؛ لأنّ النُّبوءةَ التي جاءت فيها تحقَّقت بشكلٍ كامل.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

٦٧ ـ لو أراد المسلمونَ في أيامِنا هذه أيضًا الحصُولَ على رحمةِ الله تعالى والنَّجاةَ من الخوفِ من الأعداء، فإنّ في هذه الآية ما يُرشدُهم إلى ذلك، يعني: يقيموا الصَّلاة، ويؤتوا الزكاة، ويُطيعوا رسولَ الله ﷺ طاعةً كاملة، إذْ كان هذا هو الطريقَ الذي سار عليه الصّحابةُ الكرامُ رضي اللهُ عنهم، فنالوا رحمةَ الله وعَوْنَه، ونَجّاهم اللهُ تعالى من ظُلم الكُفّار.

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٩٥.
(٢) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٤٨ برقم ٢٢٢٦.
(٣) تفسير الخازن.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

٦٨ ـ يعني: أنّ الله تعالى إذا أراد أن يَرحمَ الصّالحينَ، وأراد أن يُبدِلَ خوفَهم أمنًا، فلا يستطيعُ الكُفّارُ تعطيلَ إرادةِ الله تعالى ولا إفشالَها، وإنّما هم ـ في الأصل ـ مجرِمونَ في حقِّ الله تعالى بسببِ كُفرِهم به، ولهذا السببِ سيَدخُلونَ جهنَّمَ داخِرين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾

٦٩ ـ قبلَ صلاةِ الفجر، ووقتَ القَيْلولةِ في الظَّهيرة، وبعدَ صلاةِ العشاء،

هذه أوقاتٌ ثلاثةٌ يخلَعُ فيها الإنسانُ ما زاد من ملابسِه، وينام بغيرِ تكلُّف، كما أنّ مخالطةَ الزَّوجاتِ عادةً ما تكونُ في مثلِ هذه الأوقاتِ أيضًا، ولهذا فلا ينبغي أن يُسمحَ للعبيدِ ولا للأطفالِ غيرِ البالغينَ بدخولِ البيوتِ بغيرِ استئذانٍ في هذه الأوقات، أمّا في غيرِ هذه الأوقاتِ فلا حاجةَ لهم إلى الاستئذان؛ لأنّهم كثيرًا ما يحتاجونَ إلى الدخولِ بعضُهم عندَ بعض.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾

٧٠ ـ يمكنُ للأطفالِ غيرِ البالغينَ الدُّخولُ إلى البيوتِ دونَ استئذانٍ في غيرِ الأوقاتِ السابقة، لكنْ عندَما يَبلُغُ الأطفالُ الأحرارُ الحُلُمَ، يكونُ عليهم عندَئذٍ الاستئذانُ مثلَما يفعَلُ غيرُهم من البالغينَ مِثلِهم، فيستأذنونَ دائمًا قبلَ الدخول.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾

٧١ ـ عندَما تتقدَّمُ المرأةُ في السِّنِّ إلى درجةٍ ينقطعُ معَها حَيْضُها، ولا تعودُ قادرةً على الإنجاب، فإنّ الرَّغبةَ الجِنسيّةَ والجاذبيّةَ إليها تنتهي في هذا السنِّ، ولا تعودُ المرأةُ راغبةً في الزَّواج من أيِّ رجل، كما لا يَرغَبُ أيُّ رجل في الزَّواج منها، ومِثلُ هذه المرأةِ لا يجبُ عليها الحجابُ، وتستطيعُ التخلِّي عن بعضِ ما يزيدُ من الملابسِ مِثلَ الجِلبابِ وغيرِه، بشَرْطِ أن لا تقصِدَ بذلك إظهارَ زينتِها، ومعَ ذلك لوِ ارتَدتْ هذه المرأةُ الملابسَ الإضافيّةَ لكان ذلك خيرًا لها وأفضَلَ.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾

٧٢ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «لكنّ المختارَ أن يقالَ: إنّ الله رَفَع الحَرَجَ عن الأعمى فيما يتعلَّقُ بالتّكليفِ الّذي يُشترَطُ فيه البَصر، وعن الأعرجِ فيما يُشترَطُ في

التّكليفِ به من المشي، وما يتعذَّرُ من الأفعالِ معَ وجودِ العَرَج، وعن المريضِ فيما يؤثِّرُ المرضُ في إسقاطِه، كالصَّوم وشروطِ الصّلاة وأركانِها، والجهادِ ونحوِ ذلك»[1].

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾

٧٣ ـ الأقرباءُ المقرَّبون، أو الأصدقاءُ المخصُوصونَ، والذين يعتادونَ على التَّزاوُرِ بعضهم مَع بعض، يَعتبِرونَ استضافةَ بعضِهم لبعضٍ باعثًا للتكريم والتشريف، ومِثلُ هؤلاءِ لا حَرَجَ عليهم في أن يأكُلوا بعضُهم عندَ بعض بغيرِ استئذان، ولكنْ إن لم يَستحسِنْ هؤلاءِ الأقاربُ أو هؤلاءِ الأصدقاءُ هذا الأمرَ، فلا يصحُّ تناولُ الطعام عندَهم بغيرِ إذْنِهم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾

٧٤ ـ بعضُ الناسِ لا يُحِبُّونَ تناولَ الطعام في جماعة، والبعضُ الآخَر لا يُحِبُّونَ تناولَ الطعام فُرادى، فقال اللهُ تعالى في هذه الآية: سواءٌ أكلتُم في جماعةٍ أو أكلتُم فُرادى، كلتا الحالتَيْنِ جائزةٌ، ومعَ ذلك عندَما يكونُ هناك الكثيرونَ ممن سيأكلونَ الطعامَ، فإنّ البرَكةَ تحِلُّ في اجتماعِهم عليه.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾

٧٥ ـ عادةً عندَما يذهَبُ الناسُ إلى أحد، فإنّهم يُسلِّمونَ عليه، ولكنْ حين يأتونَ إلى بيوتِهم يَحرِمونَ أطفالَهم وزوجاتِهم من برَكاتِ السَّلام عليهم، وفي

---

(١) تفسير القرطبي.

هذه الآية ترغيبٌ من الله تعالى بأنّكم حين تَدخُلونَ بيوتكم سَلِّموا على أهلِكم؛ لأنّ هذه هديّةٌ من الله تعالى طاهرةٌ ومباركةٌ للِّقاء.

السلام وأحكامه:

ألفاظُ السَّلام ومعانيها

تَشِيعُ لدى كلِّ شعبٍ من شعوبِ العالَم ألفاظٌ يتبادلونَها عندَ لقائهم معبِّرينَ بها عن حُسن أخلاقِهم وتعاطُفِهم ومحبَّتِهم بعضُهم لبعضٍ، وألفاظُ السّلام في الإسلام هي: «السَّلامُ عليكم»، وهي مِثلُ «الحمدُ لله» بوجودِ الألفِ واللام في أوّلِها، والألفُ واللامُ: للاستغراق، بمعنى: أنّ المستحِقَّ الحقيقيَّ للحمدِ في كلِّ زمانٍ ومكان، ومن كلِّ أُمةٍ ومن كلِّ شيءٍ في الدُّنيا هو اللهُ تعالى، وبنفسِ الطريقة تدُلُّ الألفُ واللامُ في بدايةِ «السَّلامُ عليكم» على الاستغراقِ أيضًا، وتعني: لِيَكتُبِ اللهُ تعالى لك السَّلامة في الصّحةِ والعُمرِ والمالِ والأولادِ والأُسرةِ والإيمانِ وفي الحالِ والمستقبَل، وفي الدُّنيا والآخِرة، وباختصار: السَّلامةُ في كلِّ شيء، ولْيَحفَظْك من كلِّ شرّ، ولا نجدُ في أيِّ دينٍ من أديانِ الدنيا هذا القَدْرَ الكبيرَ من الدُّعاءِ في لفظَيْنِ فقطْ، ولهذا فإنّ المسلمينَ في كلِّ مكانٍ أيًا كانت لغتُهم، يستخدمونَ هذَيْنِ اللَّفظَيْنِ العربيَّيْنِ في السَّلام فيما بينَهم، بينَما تتبدَّلُ تحايا الشعوبِ والأُمم الأُخرى فيما بينَهم بتبدُّلِ لغاتِهم واختلافِها.

اسمُ الله تعالى

السَّلامُ: اسمٌ من أسماءِ الله تعالى الحُسنى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وهكذا فإنّ النبيَّ ﷺ عندَما كان يَفرُغُ من الصَّلاةِ كان يستغفرُ اللهَ ثلاثَ مرّات، ثم يَدْعوه قائلًا: «اللّهُمَّ أنت السّلامُ ومنكَ

السَّلام..»[١].

ومعنى اسم الله تعالى «السَّلام» هو «المانحُ للسَّلام والحامي المُحافِظ»، وبهذا الاعتبارِ فإنّ معنى «السَّلامُ عليكم» يكون: «لِيَكُنِ اللهُ حافظَك، ولْيمنَحْكَ السّلامةَ»، وبهذا الاعتبارِ أيضًا يقالُ: «اللهُ حافظٌ»[٢]. وبهذه الطريقة فإنّ المسلمَ يدعو لأخيه المسلم من خلالِ هذَيْنِ اللَّفظَيْنِ بالسَّلامة، ليس هذا فقطْ، وإنّما يحصُلُ على الثوابِ من العَمل بحُكم إلهيٍّ من أحكام الله تعالى بذِكرِ اسمِه، وهو الحُكم الذي جاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

تاريخُ السَّلام

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «لمّا خَلَق اللهُ آدمَ قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أولئك ـ نفرٍ من الملائكةِ جلوس ـ فاستمِعْ ما يُحَيُّونَك، فإنّها تحيّتُك وتحيّةُ ذُرّيّتِك، فقال: السّلامُ عليكم، فقالوا: السّلامُ عليكَ ورحمةُ الله، فزادوه: ورحمةُ الله»[٣]. ويُعلَمُ من هذا الحديثِ القُدُسيِّ أنّ السّلامَ الإسلاميَّ ليس شيئًا جديدًا، وإنّما بدأَ معَ الإنسانِ الأولِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وظَلَّ ساريًا في زمنِ الأنبياءِ الكرام جميعًا عليهمُ السَّلام، حتى أنّ سلامَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ جاء مكتوبًا هكذا في الإنْجيل الحالي: «Peace be on you»[٤]، والترجمةُ العربيّةُ لهذه الألفاظِ الإنجليزيّة هي: «السَّلامُ عليكم»، ولا أعرِفُ متى تَخَلّى المسيحيُّونَ عن سُنّةِ سيّدِنا عيسى عليه

---

(١) عن ثوبان رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا وقال: «اللّهمّ أنت السّلام ومنك السّلام، تباركت ذا الجلال والإكرام». مسلم، كتاب المساجد، باب ٢٦ برقم ١٣٣٤.

(٢) تعبير بالأردية أصله عربي، ويستعمل عند توديع شخص ما بما يعني «مع السلامة» عندنا. «المترجم».

(٣) رياض الصالحين، كتاب السلام.

(٤) The Holy Bible: Like: Chapter 24, Verse 36.

السَّلام، يعني: «السَّلامُ عليكم»، وتجاوَزُوها إلى «Good Morning»، ولماذا فَعَلوا ذلك؟ بل لقد أَجْرَوْا على هذه التحيّة تخفيفًا، فحَذَفوا لفظَ «Good» منها، ولم يبقَ إلا «Morning»، ولا أدري ماذا يقصِدونَ به؟

حُكمُ السلام

يقولُ اللهُ تعالى:

١ ـ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٢ ـ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

وفي هذا الإطارِ يقولُ عَمْرُو بن دينار (وهو إمامُ الحديث، ورَوى عنه أصحابُ الصِّحاح السِّتة الأحاديثَ): «(في قولِه) أي: اللهِ سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أهليكم ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾. (قال) ابنُ دينار: (إن لم يكن في البيتِ أحدٌ فقل: السّلامُ على النّبيِّ ورحمةُ الله وبرَكاتُه)». ويَكتُبُ المُلّا عليّ القاري (توفي عام ١٠١٤هـ) فيما يتعلَّقُ بهذا الأمرِ: «أي: لأنّ رُوحَه عليه السَّلامُ حاضرةٌ في بيوتِ أهل الإسلام»[١].

والسُّنةُ أنه حينَ نمُرُّ بمقابرَ فإنّنا نقولُ: السَّلامُ عليكم، ونَدعو بالمغفرةِ لأهلِها[٢]، في حينَ أنّ أجسادَ مَن في هذه القبورِ قد صارت ترابًا، ولم يبقَ سوى

---

(١) شرح الشفا، القاضي عياض، ٢: ١١٨.

(٢) «عن بريدة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر، كان قائلهم يقول: السّلام عليكم أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون. نسأل الله لنا ولكم العافية». ابن ماجه، ١٥٤٧، أبواب الجنائز، باب ٣٦.

الأرواح التي تَربِطُها بها علاقةٌ من نوع ما، وهي الأرواحُ التي نقولُ لها: السَّلامُ عليكم، وبنفسِ الطريقة، وطبقًا لفَهْم المُلّا عليٍّ القاري؛ لأنّ رُوحَ النبيِّ ﷺ الطاهرةَ مرتبطةٌ ببيوتِ أهل الإسلام جميعًا، وإنْ كان جسَدُه الطاهرُ يرقُدُ في المدينةِ المنوَّرة، ونحن بوَساطةِ هذه الرُّوح الطاهرةِ نُرسلُ السَّلامَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وهو ما نقولُه في التشهُّدِ في الصلاة، أي: السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبَركاتُه. يقولُ سيّدُنا سَهلُ بن سَعْدٍ السّاعِدي: جاء رجلٌ يشكو إلى رسولِ الله ﷺ الفقرَ وضِيقَ ذاتِ اليد، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إذا دخَلتَ البيتَ فسلِّمْ إن كان فيه أحدٌ، وإن لم يكنْ فيه أحدٌ فسلِّمْ علَيّ واقرَأْ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّةً واحدةً». ففعَلَ الرّجُل، فأدرَّ اللهُ عليه الرّزقَ حتّى أفاضَ على جيرانِه(١).

قال النبيُّ ﷺ:

١ - «والّذي نفْسي بيدِه، لا تَدخُلوا الجنّةَ حتّى تؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتّى تَحابّوا، أَلا أَدُلُّكم على أمرٍ إذا أنتم فعَلتُموهُ تحابَبْتُم؟ أَفْشُوا السّلامَ بينَكم»(٢).

٢ - «إذا دَخلتُم بيوتَكم فسَلِّموا على أهلِها، وإذا طَعِمتُم فاذكُروا اسمَ الله، وإذا سَلَّم أحدُكم حينَ يدخُلُ بيتَه وذَكَر اسمَ الله على طعامِه يقولُ الشّيطانُ لأصحابِه: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ، وإذا لم يُسلِّمْ أحدُكم ولم يَذكُرِ اسمَ الله على طعامِه يقولُ الشّيطانُ لأصحابِه: أدركتُم المَبيتَ والعَشاءَ»(٣).

٣ - «مَن سرَّه أن لا يجدَ الشّيطانُ عندَه طعامًا ولا مَقِيلًا ولا مَبِيتًا فلْيُسلِّمْ إذا دَخَل بيتَه ولْيُسمِّ على طعامِه»(٤).

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الإخلاص (١١٢).

(٢) الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ١ برقم ٢٦٨٨. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كنز العمال، ١٥: ٣٩٩ برقم ٤١٥٤٥. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كنز العمال، ١٥: ٣٩٩ برقم ٤١٥٤٦. والحديث عن سلمان رضي الله عنه.

مِن الذين لا يجوزُ إلقاءُ السّلام عليهم؟

فيما يلي ذِكرٌ لأولئك الذين لا يَجوزُ إلقاءُ السَّلام عليهم، وهم: المشغولونَ بالصَّلاة والخُطبة والأذانِ والإقامة، وتلاوةِ القرآن، ومُدارسةِ العِلم الشَّرعي، ووَعْظِ الناس، وسَماع الوَعْظ، ورَفْع الحاجة، وإذا ألقَى عليهم السَّلامَ أحدٌ لم يَلزَمْهم ردُّ السّلام عليه.

رَدُّ السَّلام

إلقاءُ السَّلامُ سُنّة، ورَدُّه فَرْضٌ، وينبغي أن يكونَ رَدُّ السَّلام بصوتٍ واضح وبأسلوبٍ مفهوم، بما يؤكِّد لمن ألـقَى السَّلامَ أنّ سلامَه قد تَمَّ الرّدُّ عليه، فلا ينبغي أن نَرُدَّ السَّلامَ في أنفسِنا، فيَفهَمُ مَن ألقَى السَّلامَ أنّ سَلامَه لم يتِمَّ الردُّ عليه، كما أنّ ردَّ السّلام يجبُ أن يكونَ بأفضلِ الأساليب، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]، وهذا يعني أنه لو قال أحدٌ: السَّلامُ عليكم، ينبغي أن يكونَ ردُّه: وعليكمُ السَّلامُ ورحمةُ الله، فإذا قال أحدٌ: السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله، فيكونُ رَدُّه: وعليكمُ السَّلامُ ورحمةُ الله وبرَكاتُه، وقد قال سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: «ورُدُّوها مِثلَ ما سُلِّم عليكم على غيرِ أهلِ دينِكم»[١].

ردُّ السَّلام المكتوبِ في الخطاب

ينبغي أن نَرُدَّ السَّلامَ المكتوبَ في الخطابِ حين قراءتِه، فمنَ الممكنِ أن يأتيَ الموتُ قبلَ أن يَكتُبَ المرسَلُ إليه الردَّ على المرسِل، ويبقى هذا الفرضُ دَيْنًا في عنُقِه.

---

(١) تفسير تنوير المقباس، سورة النساء (٤): الآية ٨٦.

الابتسامُ عندَ اللِّقاء

ينبغي أن تَظهَرَ البسمةُ على شفتَيْ مَن يُلقي السَّلامَ ومَن يرُدُّ عليه، وأن تبدوَ الفرحةُ على وجهَيْهِما، إذ إنّ ذلك يزيدُ في الاحترام بينَهما، ويغفرُ اللهُ لهما ذنوبَهما مثلما جاء في الحديثِ، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال لي النّبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلم: «لا تحقِرَنّ من المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تلقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»(١)، ووَرَد أيضًا، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تبسُّمُك في وَجْهِ أخيك لكَ صدقةٌ»(٢)، وكذلك عن معاذِ بن جَبَلٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «والصَّدقةُ تطفىءُ الخطيئةَ كما يطفىءُ الماءُ النّارَ»(٣).

آدابُ السَّلام

١ ـ عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم قال: «مَن بدَأَ بالسّلام فهو أَوْلى بالله عزّ وجلّ ورسولِه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم»(٤).

٢ ـ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «يُسلِّمُ الرّاكبُ على الماشي، والماشي على القاعد، والقليلُ على الكثير، ويُسلِّمُ الصّغيرُ على الكبير»(٥).

٣ ـ عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم:

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ٤٣ برقم ٦٦٩٠.
(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٣٦ برقم ١٩٥٦.
(٣) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ٨ برقم ٢٦١٦.
(٤) مسند أحمد، ٥: ٢٥٤.
(٥) الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ١٤ برقم ٣٧٠٣.

«يا بُنيّ، إذا دَخَلتَ على أهلِك فسلِّمْ يكُنْ بركةً عليكَ وعلى أهلِ بيتِك»(١).

٤ ـ عن عِمران بن حَصِينٍ رضي الله عنه: أنّ رجُلًا جاء إلى النّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: السّلامُ عليكم، [قال]: فقال النّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «عشْرٌ»، ثمّ جاء آخَرُ فقال: السّلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال النّبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلم: «عشرونَ»، ثمّ جاء آخَرُ فقال: السّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبَركاتُه، فقال النّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثون»(٢).

٥ ـ عن أُسامةَ رضي الله عنه، أنّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلم مرَّ على مجلسٍ فيه أَخْلاطٌ من المسلمينَ والمشركينَ عَبَدةِ الأوثانِ واليهود، فسَلَّم عليهم النّبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلم(٣). ويُعلَمُ من هذا أنه إذا اجتَمعَ المسلمُ وغيرُ المسلم في مجلسٍ واحد، فيجوزُ للمسلم أن يُلقيَ السَّلامَ على المجلسِ كلِّه بما فيه غيرُ المسلم، أمّا إذا كان مَن في المجلس من غيرِ المسلمينَ فقطْ فينبغي إظهارُ المودّةِ وحُسنِ القولِ بقول: «Good Morning».

الدُّعاءُ والسَّلامُ في الجنَّة

قال اللهُ تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]. فإن كنتَ تريدُ تصوُّرَ الصُّورةِ التي رُسِمت في هذه الآيةِ لدعاءِ أهلِ الجنّة في هذه الدُّنيا فتأمَّلْ في الصَّلاة، حيث تبدأُ بـ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾، وتنتهي بـ«السَّلامُ عليكم»، والعبدُ المؤمنُ حين ينهَضُ بعدَ

---

(١) جامع الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ١٠ برقم ٢٦٩٨.

(٢) جامع الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ٢ برقم ٢٦٨٩.

(٣) رياض الصالحين، باب تحريم ابتدائنا الكافر بالسلام، ٢٩٠.

فراغِه من الصّلاة فإنه يشكُرُ اللهَ تعالى الذي وفَّقه إلى أداءِ الصّلاة قائلًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

سَلامُ الملائكة

لقد كان أولَ مَن سَلَّم عليهم سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام هم الملائكةُ، ولهذا فإنّنا عندَما نُسلِّمُ على أحدٍ علينا أن يكونَ في نيّتِنا أولئك الملائكةُ أيضًا الذين يكتُبونَ حسَناتِنا وسيّئاتِنا، حتى يَرُدُّوا هم أيضًا السَّلامَ علينا، ونستفيدَ نحن من سلامِهم الطاهر، كما ينبغي للإمام والمأموم حينَ السَّلام، خروجًا من صلاةِ الجماعة، أن يُسلِّموا ـ بالإضافة إلى المصَلِّينَ على اليمينِ والشِّمال ـ وفي نيَّتِهم الملائكةُ المكلَّفونَ على اليمين وعلى اليسار، فإذا كان الشخصُ يُصلِّي فردًا فإنه يُسلِّمُ مرتَيْنِ فقطْ وفي نيّتِه أيضًا الملائكةُ المكلَّفون على يمينِه وشِماله[١]، إذ ماذا سيقولُ هؤلاءِ الملائكةُ المحيطونَ بنا عنا إذا لم نُلقِ عليهمُ السَّلام؟ سيقولون: إنّنا نعيشُ معَ هذا المسلم منذ خمسينَ أو ستينَ عامًا، لكنه لم يُسلِّمْ علينا مرةً، صحيحٌ أنّ الملائكةَ لا يظهَرونَ لنا، ولكنّنا نُسلِّمُ على أهل القبورِ وهم لا يَظهَرونَ لنا أيضًا، ثم إنّ السّلامَ على الملائكةِ سيُذكِّرُنا أنّ هؤلاءِ الذين هم بمثابةِ كاميراتِ المراقبة من اللهِ تعالى معَنا دائمًا، وهم يسجِّلونَ فيلمًا عن حركاتِنا وسَكَناتِنا للعَرْض في ميدانِ الحَشْر، ولهذا علينا أن نفكِّرَ مراتٍ عديدةً قبلَ ارتكابِ أيِّ خطأٍ؛ لأنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يختفيَ بعيدًا عن عيونِ كاميراتِ الملائكة.

---

(١) «إن كان إمامًا ينوي بضمير الخطاب (في السلام) المصلين من الإنس والجن والملائكة، وإن كان مقتديًا ينوي إمامه والمصلّين، وإن كان منفردًا ينوي الملائكة الحفظة»: الفقه على المذاهب الأربعة، ١: ٢٦٦.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾

٧٦ ـ شأنُ المؤمنِ هو أنه حينَ يستدعيهِ رسولُ الله ﷺ لمَشُورةٍ هامّة، أو لمهمّةٍ جماعيّة، أو للجهادِ، فإنه يُلبِّي الدَّعوةَ فورًا، ولا يعودُ من عندِه قبلَ أن يأذَنَ له بذلك، وحين يَستأذِنُ منه لعملٍ خاصٍّ به، فإنّ هذا يتوقَّفُ على النبيِّ ﷺ؛ يأذَنُ لمن شاء، ويوقفُ مَن يشاءُ طبقًا لحساسيّةِ الموقفِ نفسِه، وعلى أهلِ الإيمانِ في أيامِنا هذه أيضًا أن يُطيعوا أميرَهم من أَجْلِ الأعمالِ الجماعيّة.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾

٧٧ ـ في هذه الآيةِ تعليمٌ لآدابِ الحديثِ عن الحَضْرةِ النَّبويّة، بأنّكم حين تريدونَ الحديثَ إلى رسولِ الله ﷺ، فلا تنادوهُ كما تنادونَ بعضَكم بأسمائكم وبصوتٍ عالٍ، وإنّما عليكم أن تُنادُوهُ بكلِّ أدبٍ ورقّةٍ ومحَبّةٍ لتلفِتوا إنتباهَه إليكم، كما لا ينبغي لكم أن تقيسوا استدعاءَ النبيِّ ﷺ على استدعاءِ بعضِكُم البعضَ،

فتُلَبُّونَ إن أردتُم، أو لا تُلَبُّون، وإنّما عليكم الحضورُ فَوْرَ استدعائكم من قِبَلِه ﷺ حتى وإن كنتُم في الصَّلاة؛ لأنّ تلبيةَ استدعاءِ النبيِّ ﷺ فورًا فَرْضٌ على أهلِ الإيمان، كما أنه لن يُضِيعَ إيمانُكم بتلبيةِ الاستدعاء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٧٨ ـ حين كان النبيُّ ﷺ يستدعي المسلمينَ لعمَلٍ جماعيٍّ، فإنّ المنافقينَ كانوا يحضُرونَ على مضَض خوفًا مـنَ افتـضاح أمرِ نفاقِهم، ولكنّهم بعدَ أن يُثبتوا حضورَهم كانوا ينسحِبونَ من المجلسِ خُفْيةً واحدًا تِلوَ الآخَر، ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ الذين لم يكونوا يُلَبُّونَ استدعاءَ النبيِّ ﷺ لهم، أو يَحضُرونَ ثم ينسحِبونَ من المجلس بغيرِ إذْنِه، عليهم أن يخافوا غضَبَ الله تعالى، إذْ منَ الممكنِ أن تُصيبَهم مصيبةٌ بسببِ عصيانِهم هذا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾

٧٩ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للمنافقينَ بأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم المؤامراتِ التي يدبِّرونَها ضدَّ الإسلام، وسوف يُحاسبُهم يومَ القيامة طبقًا لأفعالِهم القبيحةِ هذه.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاةَ العشاء من يوم الخميس ١٨ ديسمبر ٢٠٠٨م
الموافق ٢٠ ذو الحجة ١٤٢٩هـ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٢٥) سُورَةُ الفُرۡقَانِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الفُرقانُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى فيها، ولأنّ أهلَ مكّةَ كانوا مُنكِرينَ للقرآنِ والتوحيدِ والنُّبوّة، لهذا جاءتِ المحاولةُ في هذه السُّورةِ لإفهامِهمُ العقائدَ الإسلاميّةَ بأساليبَ وطُرُقٍ مختلفة.

يقولُ اللهُ تعالى للمشركينَ عن التوحيد: إنّ خالقَ كلِّ شيءٍ ومالكَه هو اللهُ تعالى، وليس له شريكٌ، أمّا من تعبُدونَهم من دونِ الله فلا يستطيعونَ أن يَخلُقوا شيئًا، وإنّما هم مِن خَلْقِ الله، فكيف يمكنُ أن يكونوا آلهةً؟

كان المشركونَ يقولونَ عن القرآنِ الكريم: إنه قَصَصُ الأُمم السّابقةِ كَتَبها النبيُّ ﷺ، ويَتْلوها صباحًا ومساءً، ولهذا قيلَ لهم في الآيةِ الأولى من هذه السُّورة: إنّ اللهَ تعالى أَنْزل القرآنَ المَجِيدَ على سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وهو كتابٌ يُفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطل.

وكان المشركونَ يقولونَ عن رسولِ الله ﷺ: كيف يكونُ ذلك الشّخصُ نبيًّا وهو يأكُل ويشربُ مثلَنا، ويمشي في الأسواقِ مثلَنا؟ ولو كان رسولًا حقًّا لَوجَبَ أن يكونَ معَه مَلَكٌ من الملائكة، وأن تكونَ لديهِ الثّروةُ والبساتينُ، لكنْ لو أنّ اللهَ تعالى أَنْعم عليه بالقصورِ والحدائقِ، لَما آمَن هؤلاءِ بالرَّغم من ذلك؛ لأنّهم يُنكِرونَ يومَ القيامة.

وفي آخِر هذه السُّورةِ جاء بيانٌ لصفاتِ أهل الإيمانِ الحميدة، والتي سيُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم بالأَجْر العظيم في الجنّةِ بسببِها.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيِرْزاده:
جامعة الكرَم، إيتن هال، إنجلترا
بعدَ صلاةِ الفجر من يوم الجمُعة ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٨م
الموافق ٢٨ من ذي الحجة ١٤٢٩هـ.

* * *

سُورَةُ الفُرْقَانِ (٢٥)،

مكية (٤٢)، آياتها (٧٧)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾

١ ـ معنى «الفُرقان»: الفارقُ بينَ الحقِّ والباطل، وهو اسمٌ من أسماءِ القرآن المَجيدِ العظيمةِ، يعني: أنّ القرآنَ الكريمَ الذي أَنْزلَه اللهُ تعالى على نبيِّه الحبيبِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ فرّقَ بينَ الحقِّ والباطل بشكلٍ واضح.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾

٢ ـ يُعلَمُ منه أنّ نُبوّةَ نبيِّنا الحَبيبِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ ليست منحصِرةً في منطقةٍ بعينِها، أو لونٍ أو عِرقٍ بذاتِه، وإنّما نُبوّةٌ عالَميّة، وهو نَبيٌّ لبني الإنسانِ جميعًا حتى يوم القيامة. ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الآيةَ رقم ٥٨ من سُورة الأعراف (٧)، وكذا الحاشيةُ رقم ٨٤.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

٣ ـ خالقُ الكائناتِ كلِّها هو اللهُ تعالى، وقد خَلَق كلَّ شيءٍ بصُورةٍ جميلة ومتوازِنة، ولهذا فإنّ كلَّ شيءٍ يَعمَلُ في دائرتِه بكلِّ نَظْم وانضباط، ولو حَدَث أيُّ تبديل ولو بسيطًا في أيِّ جزءٍ من هذا الشّيءِ، فإنّ نظامَ الكائناتِ كلِّها يصابُ بالخَلَل، على سَبيل المثال: الشمسُ والقمر، لو أنّ اللهَ تعالى جَعَلهما يتصادَمانِ معًا في يوم من الأيام، فلا يمكنُ تصوُّرُ الضَّرَر الذي يمكنُ أن يَحدُث، وبنفسِ الطريقة لو أنّ اللهَ تعالى جَعَل للأسدِ في الغابةِ أجنحةً، فإنّ الأسدَ كلَّما أراد سيهاجِمُ القُرى العامرةَ ويفترسُ البَشَر فيها، ولو لم يَجعَلْ للطيورِ أجنحةً فإنّ القططَ ستَلتهِمُ الطيورَ، ولهذا خَلَق اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ بطريقةٍ خاصّة، بحيث تتوفَّرُ بداخلِه وسائلُ نموِّه وحمايتِه.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾

٤ ـ الآلهةُ التي عَبَدَها المشركونَ متَخلِّينَ عن عبادةِ الله تعالى لا تستطيعُ أن تَخلُقَ شيئًا، فهي نفسُها مخلوقةٌ، وبَلَغ الأمرُ من عَجْزِها أنها لا تَملِكُ نفعًا ولا ضَرًّا لنفسِها، ولا تَملِكُ حياتَها ولا مماتَها، فكيف يمكنُ أن تكونَ آلهةً إذًا؟ لهذا فإنّ اللهَ تعالى ـ وحدَه ـ هو المستحِقُّ للعبادة، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ ومالكُه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾

٥ ـ كان كفّارُ مكّةَ كثيرًا ما يَدَّعونَ أنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ يؤلِّفُ القرآنَ الكريم، وحين كان يقالُ لهم: إنّ النبيَّ ﷺ أُمّيٌّ، ولم يقرَأْ كتابًا أو يَكتُبْ كتابًا حتى الأربعينَ من عمُرِه، فكيف يمكنُ أن يؤلِّفَ قرآنًا بليغًا وفصيحًا بهذا الشَّكل؟ فإنّهم كانوا يقولون: لا بدَّ أنّ هناك مَن يُعَلِّمُه، وحينَ كانوا يُسألونَ: من ذلك الذي يُعلِّمُه؟ كانوا أحيانًا يقولونَ: «جَبْر»، وأحيانًا أخرى يقولونَ: يعيشُ وعداسٌ ويَسارٌ أو بَلْعامُ، وهؤلاءِ جميعًا غِلمانٌ من العجَم، والبعضُ منهم نَصْرانيٌّ، والبعضُ الآخَرُ يهوديٌّ، والبعضُ الثالثُ قد أَسْلم. يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ عن جَبْر: «أي: كيف يُعلِّمُه جَبْرٌ وهو أعجَميٌّ؟ هذا الكلامُ الّذي لا يستطيعُ الإنسُ والجنُّ أن يعارضوا منه سورةً واحدةً فما فوقَها. وذَكَر النَّقّاشُ أنّ مَولى جَبْرٍ كان يضربُه ويقولُ له: أنت تُعلِّمُ محمّدًا، فيقول: لا والله، بل هو يُعلِّمُني ويَهديني»(١). والآنَ الأمرُ الذي يستحِقُّ التمعُّنَ هو لو أنّ جبرًا كان يُعلِّمُ النبيَّ ﷺ القرآنَ الكريمَ، فلا بدَّ أنه كان يَعلَمُ أنّ هذا ليسَ كلام الله تعالى، وإنّما هو من تعليمِه هو، فما كانت حاجتُه إذًا لأن يُسلمَ ويتعرَّضَ للضربِ من مالكِه؟ لكنّ الحقيقةَ هي ما ذَكَرها جَبْرٌ فيما سَبَق، بأنه حصَل على التعليم والهدايةِ من رسولِ الله ﷺ، وهي بالتأكيد نَزَلت من اللهِ تعالى.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

٦ ـ كان المشركونَ يقولونَ: إنّ القرآنَ الكريمَ مجموعةٌ من قَصَص السّابقين، ولكنْ هذا كلامٌ خاطئ؛ لأنه لو أنّ القرآنَ الكريمَ يشتملُ على حكاياتِ السابقين، نَقَلها النبيُّ ﷺ عن اليهودِ والنَّصارى، لَكان من الممكنِ لأيِّ أحدٍ أن يؤلِّفَ مِثلَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة النحل (١٦): الآية ١٠٣.

هذا القرآن، ولكنْ لأنّ اللهَ تعالى هو الذي أَنْزل القرآنَ الكريمَ، وهو الذي يَعلَمُ كلَّ أسرارِ السّماءِ والأرض، لهذا لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾

٧ ـ كان الكُفّارُ يعترِضونَ قائلين: كيف يكونُ محمّدٌ رسولًا وهو يأكل ويشربُ مِثلَنا، ويمشي في الأسواقِ مِثلَنا، فما الفَرقُ بينَنا وبينَه إذًا؟ ثم لو أنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يبعَثَه رسولًا، لَأنْزلَ معَه مَلَكٌ من الملائكة نراه بأعيُنِنا، يبقَى معَه ويُصدِّقُه فيما يقولُ، ويخوِّفُ الناسَ أنّهم إن لم يتَّبِعوا الرَّسولَ فسوف يَلْقَوْنَ العذابَ الإلهيَّ في الآخرة.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

٨ ـ ولو أنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يَبعَثَ سيّدَنا محمّدًا رسولًا لَأنزلَ معَه خزائنَ من الذهبِ والفضَّة، أو أن يكونَ له بستانٌ يوفِّرُ له احتياجاتِه الحياتيّةَ الضَّروريّةَ، فإذا لم يكنْ عندَه شيءٌ من هذا بالفعل، فيبدو إذًا وكأنّ أحدًا قد سَحَره، وماذا أصاب أولئك المسلمينَ حتى يتَّبِعوا شخصًا مسحورًا.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

٩ ـ ضَرب الكُفّارُ أمثِلةً عجيبةً وغريبةً عن النبيِّ ﷺ، أدَّت بهم إلى قمّةِ الضلال، بحيث ما عادوا يجِدونَ طريقَ الهدايةِ الآنَ.

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾

١٠ ـ من بينِ اعتراضاتِ المشركينَ أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ يبشِّرُ المؤمنينَ به بالجِنانِ والقصورِ في الآخِرة، بينَما هم لا يملِكونَ في هذه الدُّنيا جنّةً أو قصرًا، وعليه نَزَلت هذه الآية، يعني: أنه ليس بالأمرِ العسيرِ على اللهِ تعالى أن يُنعِمَ على نبيِّه الكريم ﷺ بالمالِ والثّروةِ الوَفِيرة، لكنّ اللهَ تعالى أحبَّ لنبيِّه ﷺ أن يعيشَ بينَ المسلمينَ الفقراءِ، كما أنّ النبيَّ ﷺ أحبَّ لنفسِه أيضًا هذا الأمرَ، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو أُمامَةَ رضي اللهُ عنه، من أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عَرَض علَيَّ ربِّي لِيجعَلَ لي بطحاءَ مكّةَ ذهبًا، قلتُ: لا يا ربِّ، ولكن أشبَعُ يومًا وأجوعُ يومًا ـ أو قال: ثلاثًا أو نحوَ هذا ـ فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليكَ وذكرتُكَ، وإذا شَبِعتُ شكرتُك وحمِدتُك»[١].

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٥ برقم ٢٣٤٧.

ويقولُ سيّدُنا خَيْثمةُ رضي اللهُ عنه في تفسيرِ هذه الآية: «قيل للنّبيِّ ﷺ: نعطيك خزائنَ الأرضِ ومفاتيحَها لم نُعطِها أحدًا قبلَكَ لا يَنقُصُك ذلك عندَ الله شيء، قال: اجمَعْها لي في الآخِرة»(١).

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾

١١ ـ الكُفّارُ الذين كانوا كثيرًا ما يعترضونَ على نُبوّةِ النبيِّ ﷺ هم ـ في الحقيقة ـ لا يؤمنونَ بالقيامة، ولهذا يقولونَ على الفَوْر ما يُلقي الشّيطانُ في أذهانِهم، ولو أنّهم يؤمنونَ بيوم القيامة، لَكانوا تدبَّروا كلَّ قولٍ يلفِظونَه وفكَّروا فيه جيِّدًا خوفًا من الحسابِ والعقاب.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

١٢ ـ النارُ التي أعدَّها اللهُ تعالى لمُنكِري يوم القيامة، يَصدُرُ عنها بسببِ لهيبِها المشتعِلِ المتوهِّج صوتٌ يجعَلُ قلوبَهم تكادُ تتمزَّقُ في صدورِهم.

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

١٣ ـ حينَ يُقيَّدُ الكُفّارُ في السَّلاسلِ ويُلقَوْنَ في وادٍ ضيِّقٍ في جهنَّم، سيَصرُخونَ قائلين: ليتَ الموتَ يأتينا، فيقالُ لهم: ليس هناك فائدةٌ الآنَ من الدُّعاءِ بالموت، فهنا سلسلةٌ لا متناهيةٍ من الأهوالِ التي لن يستطيعَ أحدٌ من أهلِ النار الإفلاتُ منها.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾

١٤ ـ سيُسألُ أهلُ جهنَّم: هل هذه النارُ خيرٌ أم تلك الجنّةُ الخالدةُ التي وُعِد

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم ١٤٩٩١.

بها المتَّقون؟ ورَغْم أنّ هذا السّؤالَ سيكونُ يومَ القيامة، ولكنْ قُدِّمت صورةٌ له هنا حتى يخافَها المُنكِرونَ ويختاروا طريقَ التقوى.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾

١٥ ـ أهلُ الجنّة سيَخلُدونَ في الجنّة، ولديهِم في الجنّةِ كلُّ شيءٍ يُحِبُّونَه، وهذا الوعدُ بِحُسْنِ الجزاءِ كَرمٌ خاصٌّ من الله تعالى، تعهَّد به من فَضْلِه وإحسانِه، وسيُحَقِّقُه في كلِّ حال، وعلى فَرْض المستحيلِ لو تأخَّر هذا الأجرُ على أحدٍ، فإنّ اللهَ تعالى سَمَح له أن يطالبَ اللهَ تعالى بحقِّه.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

١٦ ـ سيَسألُ اللهُ تعالى يومَ القيامة أولئك الذين كان المشركونَ يعبُدونَهم: هل قلتُم لعبادي أن يَترُكوا عبادتي ويعبُدوكم؟ وسيقولون: إذا كنّا نحن لا نُجيزُ أن يُشرِكَ أحدٌ أحدًا معَك، فكيف يمكنُ أن نقولَ لأحدٍ أن يجعَلَ منا شُركاءَ لك؟ ولكنْ يمكنُ أن يكونَ سببُه أنّ نِعَمَك التي أنْعمتَ بها عليهم أغفَلتْهم عن ذِكرِك، وسيُسألُ سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ مِثلَ هذا السّؤالِ أيضًا. ولمزيدٍ من التفصيل راجِعِ الآيةَ رقم ١١٦ من سُورة المائدة (٥)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٥٥.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

١٧ ـ حين يُكذِّبُ من كان يَعبُدُهم المشركونَ ويأمُلونَ في عَوْنِهم كلَّ دعاوى المشركينَ ويُعلنُونَ براءتَهم منهم، عندَئذٍ سيقولُ اللهُ تعالى للمشركين: الآنَ لا يستطيعُ أحدٌ أن يُنجِّيَكم من عذابِ شِركِكم؛ لأنّ الشِّركَ ظُلمٌ عظيم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾

١٨ ـ كان الأنبياءُ السّابقونَ عليهم السَّلامُ من البشَرِ أيضًا، وكانوا يأكُلونَ الطعامَ، ويَذهَبونَ إلى الأسواقِ لكَسْبِ الرِّزقِ الحلال، وهذا لا يتنافَى أبدًا معَ نُبوَّتِهم.

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾

١٩ ـ جَعَل اللهُ تعالى بعضَ الناس فقراءَ، والبعضَ الآخَرَ أغنياءَ، وذلك لكي يبتليَ الناسَ جميعًا، ولهذا ينبغي للأغنياءِ أن يشكروا اللهَ تعالى على نِعَمِه، وينبغي للفقراءِ أن يَصبِروا على الابتلاء؛ لأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم حالَ كلِّ إنسان، وسوف يُحاسبُه طِبقًا لأحوالِه، فيُثيبُه أو يُعاقبُه.

طريقة أن نكون صابرين شاكرين:

قال رسولُ الله ﷺ: «خَصْلتانِ مَن كانتا فيه كَتَبه اللهُ شاكرًا صابرًا، ومَن لم تكونا فيه لم يَكتُبْه اللهُ شاكرًا ولا صابرًا: مَن نَظَر في دينِه إلى مَن هو فوقَه فاقتدَى به، ونَظَر في دُنياهُ إلى مَن هو دونَه فحَمِدَ اللهَ على ما فَضَّله به عليه، كَتَبه اللهُ شاكرًا صابرًا، ومَن نَظرَ في دينِه إلى من هو دونَه ونَظَر في دُنياه إلى مَن هو فوقَه فأسِفَ على ما فاتَه منه لم يَكتُبْه اللهُ شاكرًا ولا صابرًا»[١]، وقال ﷺ: «انظُروا إلى مَن هو أسفلُ منكم ولا تَنظُروا إلى من هو فوقَكم فإنّه أجدَرُ أن لا تَزدَروا نِعمة الله عليكم»[٢].

اشتُهِر عن أحدِ المشايخ المعروفينَ أنه ذاتَ مرّةٍ صَلّى صلاةَ الجمُعةِ في المسجدِ الجامع بدمشقَ، وحين خَرَج من المسجدِ لم يجِدْ حذاءه حيث وَضَعَه، فعاد الشيخُ إلى المسجدِ واشتكَى إلى الله قائلًا: لقد جئتُ إلى بيتِك لأداءِ صَلاتِك،

(١) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٥٨ برقم ٢٥١٢.
(٢) الترمذي، برقم ٢٥١٣، الباب هو.

فسرقَ أحدُهم حذائي، ثم اتَّجه الشيخُ شاكيًا إلى السُّوقِ ليشتريَ حذاءً جديدًا، لكنّه رأى على بابِ السُّوق متسوِّلًا يَسألُ الناسَ، وكانت يداهُ ورجلاهُ مقطوعتَيْنِ، فلمَّا رآهُ الشّيخُ شَعَر بخطإِه، فعاد وشَكَر اللهَ تعالى قائلًا: على الأقلِّ أنعمْتَ عليَّ بقدمَيْنِ، أمّا الحذاءُ فيمكنُ الحصُولُ على غيرِه، بينَما ذلك المتسوِّلُ لم يكنْ لديه قدَمان أصلًا يمكنُه ارتداءُ حذاءٍ فيهما. ولهذا ينبغي لكلِّ إنسانٍ عندَ الابتلاءِ أن يتذكَّرَ نِعَمَ اللهِ الأخرى عليه، وأن يَنظُرَ إلى مَن هم أقلُّ منه، ويتَّخذَ طريقَ الشُّكرِ له طريقًا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾

٢٠ ـ الذين يُنكِرونَ لقاءنا يومَ القيامة يقولون: لماذا لم تنزِلْ علينا ملائكةٌ يخبِرونَنا أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ رسولٌ حقًّا، أو ليتَ أنّنا نرى ربّنا بأعيُنِنا، فيُخبِرُنا

بنفسِه أنّ محمّدًا ﷺ رسولٌ أرسَلتُهُ إليكم، وعندَئذٍ يَسهُلُ علينا تصديقُه! والحقيقةُ أنّ مطالبتَهم هذه بمثابةِ قمّةِ التكبُّرِ والطُّغيان منهم، فهم لا يَملِكونَ مجرَّدَ المقدرةِ على رؤيةِ الملائكة، فكيف يُمكنُهم رؤيةُ الله تعالى؟ لأنّ الإنسانَ خُلِق من طِين، والملائكة خُلِقوا من نُور، ولو أنّ الملائكةَ تظهَرُ للعِيان، فكيف يمكنُ لهؤلاءِ المنكِرينَ معرفةُ أنّ هؤلاءِ ملائكةٌ من نُور أم شياطينُ من نار؟ ولكنّ هناك طريقةً لرؤيةِ الملائكة في هذه الدُّنيا، وهي أن يَظهَرَ المَلَكُ في شكلٍ بشَريّ، فإذا ظَهَر المَلَكُ في شكلِ بشَرٍ فسيعترِضونَ قائلينَ: إنّ هذا بشَرٌ وليس ملكًا، وبالتالي فإنّ مطالبتَهم هذه ما هي إلّا مظهَرٌ من مظاهرِ تكبُّرِهم وعنادِهم.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

٢١ ـ لا يمكنُ لمُنكري القيامةِ أن يرَوُا الملائكةَ في هذه الدنيا، لكنَّهم سيَروْنَهم عندَ الموتِ ويومَ القيامة، وعندَما تبشِّرُهم الملائكةُ بعذابِ جهنَّم سيَصرُخونَ مذعورينَ: ليتَنا لا نستطيعُ رؤيةَ الملائكة، حتى لا يبشِّرونَنا بالعذاب.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

٢٢ ـ سيحاولُ المنكِرونَ عندَ رؤيةِ عذابِ جهنَّمَ تقديمَ أعمالِهم الصَّالحة، ربَّما أفادَتْهم بشيءٍ، لكنْ لأنه لم يكنِ الإيمانُ من وراءِ هذه الأعمال، لهذا لن يكونَ لها أثَرٌ، وسوف تُذَرُّ في الهواءِ مثلَ ذَرّاتِ التُّراب، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

٢٣ ـ سيبدو يومُ القيامةِ للمجرمينَ كأنه يَعدِلُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، مثلَما

قال اللهُ تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، لكنّ هذا اليومَ سيبدو لأهلِ الإيمان أقصرَ من الوقتِ الذي تؤدَّى فيه صَلاةٌ واحدةٌ مفروضة[1].

يقولُ سعيدُ الصَّوّافُ في تفسيرِ هذه الآية: إنه بَلَغَه «أنّ يومَ القيامة يقضي على المؤمنين حتى يكونُ كما بينَ العصرِ إلى غروبِ الشَّمس، وأنهم يَقِيلون في رياضِ الجنة حتى يَفرُغَ من الناس»[2].

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾

٢٤ ـ رُويَ أن «السَّماءَ تتشقَّقُ عن سَحابٍ أبيضَ رقيقٍ مثلِ الضَّبابة، ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ أي: من السّماءِ إلى الأرضِ لحسابِ الثَّقلَيْنِ»[3].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾

٢٥ ـ سوف يتيقَّنُ الكُفّارُ حينَ يرَوْنَ يومَ القيامة أنّ المالكَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى، وسيكونُ ذلك اليومُ قاسيًا شديدًا على الكُفّار، وسوف يَعضُّونَ على أصابعِهم بأسنانِهم من الحَسْرة والأسَف، وسيقولونَ: ليتَنا آمَنّا بالرَّسولِ في الدُّنيا، واختَرْنا طريقَ الهداية، فأَنْجانا اللهُ من هذا العذابِ اليومَ.

---

(١) قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا». مسند أحمد، المجلد الثالث: ٧٥.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

(٣) تفسير القرطبي.

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾

٢٦ ـ في مَعِيّةِ الصُّحبةِ السيِّئة يَكثُرُ ابتلاءُ الإنسانِ بالسُّوءِ والوقوع فيه، وعندَما يرى الإنسانُ يومَ القيامة عاقبةَ هذا السُّوءِ سيَصرُخُ مناديًا: ليتَني لم أتَّخذْ من فلانٍ صديقًا في الحياة، فقد أضَلَّني، وصديقُ السُّوءِ ـ في الحقيقة ـ ممثِّلٌ للشّيطان، والشيطانُ يبتَلي الإنسانَ بالشرِّ ثم يتخَلَّى عنه ويترُكُه هاربًا.

الصحبة الحسنة والصحبة السيئة

ـ قال النبيُّ ﷺ: «الوحدةُ خيرٌ من جليسِ السُّوء، والجليسُ الصّالحُ خيرٌ من الوِحدة»[١].

ـ عن أبي هريرةَ، أنّ النّبيَّ ﷺ قال: «الرّجُلُ على دِينِ خليلِه، فلْينظُرْ أحدُكم مَن يُخالِل»[٢].

ـ عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ الجليس الصّالح والسُّوءِ كحامِلِ المِسكِ ونافخِ الكِير، فحاملُ المِسكِ إمّا أن يَحْذِيَك، وإمّا أن تبتاعَ منه، وإمّا أن تجدَ منه ريحًا طيّبةً، ونافخُ الكِير إمّا أن يَحرِقَ ثيابَك، وإمّا أن تَجدَ منه ريحًا خبيثةً»[٣].

ـ ذَكَر أبو بكرٍ البزّارُ، عن ابن عبّاسٍ، قال: قيلَ: يا رسولَ الله، أيُّ جُلَسائنا خيرٌ؟ قال: «مَن ذَكَّركم باللهِ رؤيتُه، وزاد في علمِكم منطِقُه، وذَكَّركم بالآخِرة عمَلُه»[٤].

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي، برقم ٤٩٩٣.
(٢) أبو داود، كتاب الأدب، باب ١٦ برقم ٤٨٣٣.
(٣) البخاري، كتاب الذبائح، باب ٣١ برقم ٥٥٣٤.
(٤) تفسير القرطبي.

ـ قال مالكُ بن دينارٍ: إنّك إن تَنقُلِ الأحجارَ معَ الأبرار خيرٌ لك من أن تأكلَ الخَبيصَ معَ الفُجّار»(١).

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾

٢٧ ـ عندما كان كُفّارُ قُريشٍ يُعرِضونَ عن دعوةِ القرآن، كان قلبُ النبيِّ ﷺ يحزَنُ كثيرًا، وعليه طَمْأَنه اللهُ تعالى قائلًا: لقد عادَى المجرمونَ من قبلُ الأنبياءَ والرُّسُلَ السابقين، ولهذا لا تحزَنْ ولا تغتمَّ من كلامِهم الجارح، فربُّك سوف ينصُرُك، وسوف تنتشرُ رسالةُ هدايتِك في الدنيا كلِّها وتعُمُّها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾

٢٨ ـ من بيْنِ الاعتراضاتِ التي كان المشركونَ يثيرونَها: أنه لماذا لم يَنزِلِ القرآنُ كاملًا على النبيِّ ﷺ دَفْعةً واحدةً مثلَما نَزَلت التَّوراةُ والزَّبورُ والإنْجِيلُ دفعةً واحدة؟ وعليه نَزَلت هذه الآيةُ.

وأحدُ أسبابِ نزولِ القرآنِ تدريجيًّا هو: أن يَرسَخَ مفهومُ كلِّ آيةٍ من آياتِ القرآنِ المَجيد في ذِهن المسلمينَ جيِّدًا، والسببُ الثاني هو: أنّ للإسلام نظامًا كاملًا في الحياةِ أحدَثَ تغييراتٍ ثوريّةً في كلِّ مناحي الحياة، وقضَى على كلِّ تقليدٍ سيِّئٍ من تقاليدِ الجاهلية، فلو أعلَن إلغاءَ كلِّ هذه الجهالاتِ دفعةً واحدةً، لكان ردُّ الفعل سلبيًّا، على سَبيل المثال: كان الناسُ معتادينَ على شربِ الخمر، فلو جاء تحريمُ الخَمْرِ دَفعةً واحدة لَكان من الصَّعبِ على الناس تنفيذُ هذا الأمرِ والعمَلُ به، ولهذا أَخْبر القرآنُ الكريمُ بأضرارِ الخمرِ تدريجيًّا، حتى يُمهِّدَ الجوَّ

(١) تفسير القرطبي.

المناسبَ ضدَّها، ثم نَزَل بعدَ ذلك الحُكمُ بتحريمِها، وهو ما أَغْلق تمامًا بابَ ردِّ الفعل السَّلبي، ونَفَّذ الناسُ هذا الحُكمَ برضًى وسرور.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

٢٩ ـ كانت هناك حِكمةٌ أخرى وراءَ نزولِ القرآنِ الكريم تدريجيًّا، وهي: أنه عندما يأتي الكُفّارُ بمثالٍ خلافَ رسولِ الله ﷺ ويثيرونَ اعتراضًا ضدَّه، فإنّ اللهَ تعالى يُعطيهم الجوابَ الصَّحيحَ من خلالِ القرآنِ الكريم.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

٣٠ ـ الأكثرُ ضَلالًا من الناس سيُسحَبُونَ على وجوهِهم يومَ القيامة ويُلقَى بهم في جهنَّم، وسيكونُ مصيرُهم في غايةِ السُّوء.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾

٣١ ـ كان فِرعَونُ وقومُه يُكذِّبون بكلِّ دلائلِ التوحيد التي وَرَدت في تعاليم

الأنبياءِ السّابقينَ والمنتشِرةِ في كلِّ الكائنات، فأرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى وسيّدَنا هارونَ عليهما السَّلامُ إلى فِرعَونَ وقومِه، لكي يتَّقوا اللهَ تعالى ويُقِرُّوا بتوحيدِه، ولكنْ حينَ لم يَرجِعوا عن كُفرِهم أَغْرَقَهمُ اللهُ تعالى في البحرِ وأهلَكَهم جميعًا.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

٣٢ ـ وحينَ كذَّب قومُ نُوحٍ سيّدَنا نوحًا عليه السَّلامُ، وكذا الأنبياءُ الكرامُ السابقون عليهمُ السَّلامُ أيضًا، أَغْرَقَهم اللهُ تعالى في الماء، وجَعَلَهم عِبرةً لمَن يأتي بعدَهم.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾

٣٣ ـ المرادُ بأصحابِ الرَّسِّ: أولئك القومُ الذين ألقَوْا بنبيِّهم في البئرِ وقَتَلوه، ولكنّ اللهَ تعالى أهلَكَ قومَ عادٍ وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وكلَّ الأقوام الأخرى التي لم تَعتبِرْ من الأمثلةِ السابقة، ولم تَرجِعْ عن طُغيانِها.

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

٣٤ ـ عندَما كان كُفّارُ مكّةَ يذهَبونَ إلى الشام وفِلَسطينَ بغَرَض التِّجارة، كان يمُرُّونَ في طريقِهم على قُرى قوم لوطٍ المدَمَّرة، والتي دَمَّرها وأهلَها اللهُ تعالى بإمطارِ الحجارة، ولكنّهم لم يكونوا يعتَبِرونَ من هذه القُرى المدمَّرة؛ لأنّهم لم يكونوا يؤمنونَ بالقيامة ولا بالبعثِ بعدَ الموت، وكانوا يَعتَبِرونَ هذه الحياةَ الدنيا هي الغايةَ الأخيرةَ لخَلْقِ الإنسان.

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

٣٥ ـ عندَما كان كُفّارُ مكّةَ يرَوْنَ النبيَّ ﷺ كانوا يَسخَرونَ منه في كلِّ مرّةٍ قائلين: ألم يجدِ اللهُ تعالى من يجعَلُه نبيًّا غيرَ هذا الرجُلِ فقطْ؟ أيُّ ميزةٍ فيه تؤهِّلُه لأنْ يكونَ نبيًّا؟ لكنّ هناك أمرًا آخرَ، وهو: أنّ لأخلاقِه وكلامِه سِحرًا لا يدَعُ مَن يلقاهُ لا يتأثَّرُ به، حتى أنّنا نحن أيضًا لو لم نلجَأْ إلى التعصُّبِ والعنادِ في أمرِ آلهتِنا لَكان قد أضَلَّنا عن هذه الآلهة. ولكنْ حين يَرى هؤلاءِ المشركونَ العذابَ بأعيُنِهم يومَ القيامة سيتأكَّدونَ أنّ هذا الرسولَ كان على الحقِّ، وأنّهم هم الذين كانوا على ضَلال.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

٣٦ ـ الذين يتَّخِذونَ من هواهم آلهةً لا يستمعونَ إلى كلام العقل والحِكمة، وإنّما يفعَلونَ ما يُمليه عليهم هَواهُم، وهؤلاءِ يكونونَ كالحَيوانات؛ لأنّ الحَيواناتِ أيضًا لا تستمعُ إلى كلام العقل، إلّا أنّ الحيَواناتِ معذورةٌ في هذا؛ لأنّها محرومةٌ من العقل، بينَما أَنْعم اللهُ تعالى على الإنسانِ بالعقل، فإنْ لم يَستعمِلْه ويستفِدْ منه، فهو ـ إذًا ـ أسوأُ من الحَيوانات، مثلَما يقولُ أهلُ العلم: اللهُ تعالى أودَعَ الملائكةَ عقلًا مطلقًا فقطْ، وهو ما يجعَلُهم مُطيعينَ له في كلِّ وقت، وأَوْدعَ في الحَيواناتِ الشَّهوةَ المطلَقَة فقطْ، ولهذا فهيَ تُعربِدُ، لكنّ اللهَ تعالى أَوْدعَ العقلَ والشَّهوةَ معًا في الإنسان، فإنْ غَلَبَ عقلُه على شهوتِه صار أفضَلَ من الملائكة، وإنْ غَلَبت شهوتُه على عَقْلِه صار أسوأَ من الحَيوانات، وما أحسَنَ ما قاله الشاعرُ في هذا الخُصوص:

ـ أن تكونَ إنسانًا أفضَلُ من أن تكونَ مَلَكًا، ولكنّ هذا يَستلزمُ جُهدًا كبيرًا.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ

ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾

٣٧ ـ في كلِّ مكانٍ في هذه الكائناتِ آياتٌ تدُلُّ على قُدرةِ الله تعالى، على سَبيل المثال: حينَ تَطلُعُ الشمسُ يكونُ ظِلُّ كلِّ شيءٍ ممتدًّا وطويلًا، لدرجةِ أنّ ظلَّ الجبالِ قد يُغطِّي مدُنًا بأكمَلِها، ولكنْ حين ترتفعُ الشمسُ تدريجيًّا، ينكمِشُ الظلُّ هو الآخَرُ شيئًا فشيئًا، حتى ينكمشَ تمامًا بمجيءِ وقتِ الظَّهيرة، ثم بعدَ وقتِ الظَّهيرةِ يبدأُ الظلُّ في التمدُّدَ ثانيةً، إلى أن يختفيَ تمامًا معَ غروبِ الشمس، والناسُ يعتقدونَ أنّ هذا التمدُّدَ في الظلِّ وانكماشَه إنّما هو معجِزاتُ الشمسِ وعجائبُها، ولا يَروْنَ منِ الذي خَلَق هذه الشمسَ، والذي بسببِه وُجِد الظلُّ والحرارةُ، ولو أوقَفَ اللهُ تعالى الظلَّ في مكانٍ واحدٍ لَعاش بعضُ الناس في الحرِّ الدائم، ولَعاش البعضُ الآخَرُ في الظلِّ الدائم، وهو ما يجعَلُ الحياةَ الإنسانيّةَ تتعرَّضُ للمشاكل.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾

٣٨ ـ كما أنّ الملابسَ تُخفي بَدَنَ الإنسانِ وتستُرُه، فإنّ ظلامَ اللّيل أيضًا يُخفي كلَّ شيءٍ ويستُرُه، وينامُ الناسُ فيه ليستريحوا من عناءِ النّهارِ كلِّه، وحين يَطلُعُ النّهارُ ثانيةً ينهَضونَ في نشاطٍ وحيويّةٍ ويسعَوْنَ باحثينَ عن أرزاقِهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

٣٩ ـ يأتي هواءُ فَصْلِ الأمطارِ ببُشْرى نزولِ المطرِ أولًا، ثم ينزِلُ الماءُ الطاهرُ من السَّماء، مما يُحيي الأرضَ المَواتَ، فتَدِبُّ فيها الحياةُ، وتخضَرُّ الأرضُ وتَيْنَع، بعدَ أن كانت تُرابًا يتطاير، ويَرتوي الكثيرُ من البشَرِ والحَيواناتِ على السّواءِ بشربِ ماءِ الأمطار، كما أنّ المطرَ لا يَنزِلُ على المدُنِ كلِّها في يوم واحدٍ ولا بصُورةٍ واحدة، وإنّما يَنزِلُ بغزارةٍ في مكان، وبمقدارٍ أقلَّ في مكانٍ آخَرَ، ويَنزِلُ اليومَ في مكان، وفي الغدِ يَنزِلُ في مكانٍ آخَرَ، حتى يتدبَّرَ الناسُ قُدرةَ الله تعالى ويتأمَّلوها، لكنّ أكثرَ الناسِ يعمَهُونَ في ضلالِهم ويستغرقونَ في جحودِهم، بسببِ عَدَم التدبُّر والتأمُّل في هذه الآياتِ والمعجزات.

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِى كُلِّ قَرۡيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

٤٠ ـ يعني: لو أرَدْنا لَأرسَلْنا في كلِّ قريةٍ نبيًّا مختلفًا، ولكنّ الحِكمةَ الآنَ تقتضي أن يكونَ هناك نبيٌّ واحدٌ للدُّنيا كلِّها، ولهذا لا تَلتفِتْ إلى نقدِ الكفّارِ لك، وواصِل جِهادَك ضدَّهم بالدَّلائل من القرآنِ الكريم وبكلِّ جَدّيّةٍ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

٤١ ـ ثلاثةُ أرباع هذا العالَم تُغطِّيه البحارُ ذاتُ الماءِ المالح، ورُبعُه من الأرض، وهو الذي تَجري فيه الأنهارُ والجداولُ والقَنواتُ وتتفجَّر فيه العيونُ ذاتُ الماءِ العَذْب الحُلو، وحين تَصُبُّ الأنهارُ ذاتُ الماءِ العذبِ في البحار، تسيرُ المياهُ العَذْبةُ معَ المياهِ المالحة جَنْبًا إلى جنبٍ لأميالٍ عديدة، ويبدو وكأنّ القُدرةَ الإلهيّةَ قد وَضَعتْ بينَهما حدًّا فاصلًا بحيثُ لا يلتقِيانِ ولا يمتزِجان، معَ أنّ الطبيعيَّ أن يمتزجَ الماءانِ حين يلتقيانِ، وبنفسِ الطريقة حينَ يَصُبُّ نهرُ النِّيل في البحرِ الأبيضِ المتوسِّط، لا يمتزجُ ماؤه ـ لأميالٍ عديدة ـ بماءِ البحر، ويبقَى متفرِّدًا في لونِه وطعمِه، وكذلك يوجَدُ الماءُ تحتَ أرضِنا، وهو قسمانِ أيضًا، وفي بعضِ الأحيان نَحفِرُ بئرًا أو قناةً في مكانٍ ما، فيَخرُجُ الماءُ عَذْبًا حُلوًا، وعلى بُعدِ أمتارٍ قليلةٍ من هذا المكانِ نَحفِرُ بئرًا آخَرَ أو قناةً أخرى فيَخرُجُ الماءُ مالحًا غيرَ صالح للشرب.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

٤٢ ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، خَلَق من قطرةِ ماءٍ إنسانًا رائعَ الحُسنِ والجمال، وجَعَل بعضَ بني الإنسانِ إناثًا، والبعضَ الآخَرَ ذكورًا، ورَغْم أنّ بينَ هذَيْنِ الصِّنفَيْنِ فرقًا في الأعضاءِ الظاهريّةِ والعواطفِ القلبيَّة، لكنّ كلًّا منهما يحتاجُ إلى الآخَر، وبالتوافُقِ بينَهما يسُودُ جوٌّ من المحبّةِ والوُدِّ في المجتمع.

والمرادُ بالنِّسَب: تلك القَراباتُ التي تكونُ من ناحيةِ الأُمِّ والأبِ، والمرادُ بالصِّهر: تلك القَراباتُ التي تكون من ناحيةِ الزَّوجة.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

٤٣ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ من قطرةِ ماء، ثم أَجْرى الأنهارَ والعيونَ ذاتَ

الماءِ العَذْبِ لِيحفَظَ عليه بقاءه، لكنّ الإنسانَ جاحدٌ عجيب، إذْ يُعِينُ الشّيطانَ ضدَّ ربِّه المحسِنِ إليه المتفضِّل عليه، ويترُكُ اللهَ سبحانَه وتعالى ويَعبُدُ مِن دونِه ما لا يستطيعُ أن ينفعَه أو يَضُرُّه.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾

٤٤ ـ لقد أرسَلَني اللهُ تعالى للدَّعوةِ إلى الإسلام، وأنا مُجِدٌّ في إنجازِ ما كُلِّفتُ به من مسئوليّاتٍ، ولهذا فإنّني لا أطلُبُ منكم أجرًا ولا مالًا على دعوتي لكم، ولكنْ من يشاءُ يختارُ طريقَ الهداية إلى ربِّه، ويُصبحُ من المفلِحين، وفي هذا أجرٌ يكفيني.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾

٤٥ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتمَّ لكثرةِ عددِ هؤلاءِ المنكِرينَ ولا لعداوتِهم للإسلام، فكلُّ هذا إلى فناءٍ، وإنّما عليكَ أن تتوكَّلَ على الله الحيِّ الذي لا يموتُ، وهو يَعلَمُ تمامَ العِلم ذنوبَ أولئك المنكِرينَ، وسوف يُعاقبُهم طبقًا لِما ارتكبوه من جرائمَ.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾

٤٦ ـ ما المرادُ بستةِ أيام؟ لأنّ الشمسَ لم تكنْ قد خُلِقت بعدُ، وهي التي يتعيَّنُ اليومُ بطلوعِها وغروبِها؟ وما المرادُ كذلك بتجلِّي اللهِ تعالى على العرش؟ معَ أنه منزَّهٌ عن المكان؟ والحقيقةُ أنّ الذي يَعلَمُ حقيقةَ هذه الأمورِ كلِّها تمامَ العلم هو اللهُ تعالى وحدَه، ولا يَخْلو أيُّ فعلٍ من أفعالِه من الحِكمة.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾

٤٧ ـ من أسماءِ اللهِ تعالى: الرَّحمن، فإنْ أراد أحدٌ أن يَسألَ عن الرَّحمن، فإنّ أكثرَ من يعرفُ عنه من المخلوقاتِ هو سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، والذي جَمَع اللهُ تعالى في ذاتِه كلَّ علوم الأوَّلينَ والآخِرين.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾

٤٨ ـ عندَما كان يقالُ لكفّارِ مكّةَ: اسجُدوا للرَّحمن، كانوا يقولون: نحن لا نعرفُ الرَّحمنَ، ولن نسجُدَ له، ولأنّهم كانوا يُنكِرونَ الرَّحمنَ، لهذا كانت كراهيتُهم وعداوتُهم تزدادُ بشكلٍ أكبرَ بهذه الدَّعوة. وهذه الآيةُ الكريمةُ آيةُ سَجْدة. ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجع الحاشيةَ رقم ١١٧ للآية رقم ٢٠٦ من سُورة الأعراف (٧).

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

٤٩ ـ في خَلْقِ الشمسِ والقمرِ والنُّجوم، وفي تعاقُبِ اللَّيل والنَّهار ودوَرانِهما آياتٌ تدُلُّ على قُدرةِ الله تعالى وتوحيدِه، لكنّ هذه الآياتِ لا يراها إلا أولئك الذين يتدبَّرونَها ويتأمَّلونَها للاعتبارِ منها، أو أولئك الذين يريدونَ أن يكونوا من الشاكرينَ عندَ استفادتِهم من كلِّ هذه النِّعم.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾

٥٠ ـ من هنا يبدَأُ اللهُ تعالى في بيانِ صفاتِ عبادِه الصّالحين، يعني: أنّهم لا يمشُونَ في الأرضِ مِثلَ أولئك المتكبِّرينَ الذين يحتَقِرونَ الآخَرين، ولا يتَسكَّعونَ فيها مثلَ الأشقياءِ المجرِمينَ الذين يؤذونَ الآخَرينَ، وإنّما يسيرونَ في الأرضِ بتواضُع جمٍّ، ولا يجرَحونَ قلبَ أحدٍ، وإنْ حدَثَ أنْ تعامَلوا معَ الجُهلاءِ الذين يُسيئونَ إليهم، فإنّهم لا يرُدُّون على كلامِهم السيِّئ بمثلِه، وإنّما يتجنَّبونَهم داعِينَ لهم بالسَّلامة.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾

٥١ ـ عندَما ينامُ عامّةُ الناسِ ليلًا، فإنّ أهلَ الله يُضَحُّونَ بجزءٍ من وقتِ نومِهم يُمضُونَه في عبادةِ الله تعالى:

ـ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَنزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدّنيا حين يبقَى ثُلُثُ اللَّيل الآخِر، يقولُ: مَن يَدعُوني فأَستجيبَ له، من يَسألُني فأُعطِيَه، من يَستغفرُني فأغفرَ له»[١].

(١) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.

- عن عثمانَ بن عفّانَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن صَلَّى العِشاءَ في جماعةٍ كان كقيام نصفِ ليلةٍ، ومَن صَلَّى العِشاءَ والفجرَ في جماعةٍ كان كقيام ليلةٍ»(١).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

٥٢ - عبادُ الله تعالى الصَّالحونَ لا يغتَرُّونَ بعبادتِهم برَغْم سَهَرِهم اللَّياليَ فيها، وإنّما يستعيذونَ في تواضُعٍ وعَجْز من عذابِ جهنَّم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

٥٣ - الإنفاقُ على الأعمالِ التي تُغضِبُ اللهَ تعالى أو تَعصيه تبذيرٌ وإسراف، وعَدَمُ الإنفاقِ على الأعمالِ التي تُرضي اللهَ وتُعينُ على طاعتِه بُخلٌ وتقتيرٌ، والإنفاقُ على الأعمالِ التي تجلُبُ رضا الله تعالى وتؤدِّي إلى طاعتِه إنّما هو اعتدالٌ وتوازن.

عندما كان عبدُ المَلِك بنُ مروانَ يزوِّجُ ابنَته، سأل سيّدَنا عُمرَ بنَ عبدِ العزيز رضي الله عنه عن حالِ الإنفاق، فقال له سيّدُنا عُمرُ بنُ عبد العزيز رضي اللهُ عنه: الحسَنةُ وسَطٌ بينَ سيِّئتَيْنِ. ويعني بهذا: أنّ الاعتدالَ في الإنفاق حسَنة، وهو بينَ سيِّئتَيْنِ: الإسرافِ والتقتير(٢).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾

٥٤ - شأنُ عبادِ الله الصّالحينَ أنهم لا يقتربونَ من الشِّرك، ولا يقتُلونَ أحدًا بغيرِ حقّ، ولا يرتكِبونَ الفاحشةَ؛ لأنّ هذه الأفعالَ الثلاثةَ (الشِّركَ، والقتلَ، والزِّنا)

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ٤٧ برقم ٥٥٥.
(٢) تفسير خزائن العرفان.

ذنوبٌ عظيمة، ومن يرتكبُ هذه الأفعالَ سيَلقَى عذابًا أليمًا مضاعَفًا يومَ القيامة، وسوف يَخلُدُ في جهنَّم مُهانًا.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

٥٥ ـ لكنّ الذي يتُوبُ إلى اللهِ توبةً صادقة، سيَغفِرُ اللهُ له ذنوبَه كلَّها، حتى الكبائرَ منها أيضًا، وكما بدَّلَ كُفرَه إسلامًا، وفِسقَه طاعةً، فإنّ اللهَ يتفضَّلُ عليه ويبدِّلُ بالحسَناتِ سيّئاتِه السابقةَ كلَّها.

ينقُل الإمامُ ابنُ أبي حاتم روايةً في تفسيرِ هذه الآية خُلاصتُها: أنه «جاء شيخٌ كبيرٌ هَرِمٌ قد سَقَط حاجباهُ على عينَيْه، فقال: يا رسولَ الله، رجلٌ غَدَر وفَجَر لم يدَعْ حاجةً ولا داجَةً إلا اقتطَعها بيمينِه، لو قُسِّمت خطيئتُه بينَ أهل الأرض لَأوبقَتْهم، فهل له من توبةٍ؟ فقال النّبيُّ ﷺ: «أَسْلمتَ؟»، فقال: أمّا أنا فأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه، فقال النّبيُّ ﷺ: «فإنّ اللهَ غافرٌ لك ما كنتَ كذلك ومبدِّلٌ سيّئاتِك حسناتٍ»، قال: يا رسولَ الله، وغَدَراتي وفَجَراتي؟ قال: «وغَدَراتِك وفَجَراتِك»، قال: فوَلَّى الرّجلُ يكبِّرُ ويُهلِّل[1].

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾

٥٦ ـ حقُّ التّوبةِ الصّادقة أن تتغيَّرَ حياةُ الإنسانِ تغيُّرًا جَذْريًّا، بمعنى: أنْ لا يقرَبَ السيِّئاتِ ثانيةً، ويجتهدَ في عمَل الصّالحاتِ دائمًا. والتّوبةُ في الآيةِ السّابقة تتعلَّقُ بالمشركينَ؛ لأنّهم إن لم يتوبوا سيَخلُدونَ في جهنَّم، لكنّ هذه التوبةَ تتعلَّقُ بالعُصاةِ من المؤمنين؛ لأنّهم إذا دَخَلوا جهنَّمَ فلن يَخلُدوا فيها، وإنّما سيَخرُجونَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨: ٢٧٣٥ برقم ١٥٤٤٤.

منها بعدَ قضاءِ فترةِ عقابِهم، ويَدخُلونَ الجنّةَ في نهايةِ الأمر.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾

٥٧ ـ إن كانت شهادةُ الزُّورِ فيما يتعلَّقُ بالله تعالى فإنّ فيها مخالفةً لحقوقِ الله، وإن كانت فيما يتعلَّقُ بالناسِ ففيها ضَياعٌ لحقوقِ العباد، ولهذا فإنّ عبادَ الرَّحمن لا يشاركونَ في حديثٍ أو عمَل أو مجلسٍ تكونُ فيه مخالفةٌ لحقوقِ الله أو حقوقِ العباد، وإنْ حَدَث بمجرَّدِ الصُّدفة أنْ وُجِدوا في مجلسِ سُوءٍ فإنّهم يعمَلونَ على عَدَم تلويثِ سمعتِهم بالكذب، وينسحِبونَ من مِثل هذا المجلسِ بطريقةٍ وقُورةٍ محترمة.

يقولُ الدكتور وَهْبة الزُّحيلي في تفسيرِ هذه الآية: «وكان عُمرُ بنُ الخطاب يَجلِدُ شاهدَ الزُّور أربعينَ جَلدةً، ويُسخِّمُ وجهَه (يَطْليه بالسَّواد) ويَحلِقُ رأسَه، ويُطوِّفُ به السُّوقَ»[1]، حتى يَنفِرَ الناسُ من شهادةِ الزُّور.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

٥٨ ـ عندَما كانت آياتُ القرآنِ الكريم تُتلَى على الكُفّار، لم يكونوا يهتَمُّونَ بها، كأنّهم صُمٌّ وعُمْيانٌ ولا يسمَعونَ شيئًا، لكنّ عبادَ الرَّحمن يستمعونَ إلى آياتِ القرآنِ بكلِّ تمعُّنٍ وانتباه، يتفكَّرونَ فيها، ويعتبِرونَ منها.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

٥٩ ـ عندَما يتحدَّثُ الإنسانُ إلى الآخَرينَ فإنه ـ في بعضِ الأحيان ـ يقولُ كلامًا ليس في قلبِه، لكنّ العبدَ الصّالحَ إذا دَعا فإنه يُظهرُ كلَّ أمانيهِ الدَّفينةِ في أعماقِ قلبِه قائلًا: يا ربَّنا، اجعَلْ زوجاتِنا وأولادَنا من الصّالحين، حتى تَسعدَ قلوبُنا

---

(١) التفسير المنير.

وتقَرَّ عيونُنا برؤيةِ صَلاحِهم وتَقْواهم، ووفِّقْنا إلى أن نكونَ نموذَجًا للتقوى، فيفخَرَ أهلُونا بالاقتداءِ بنا وطاعتِنا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾

٦٠ ـ نَصَب الشّيطانُ في هذه الدُّنيا شِبَاكًا من الرَّغَباتِ والشَّهواتِ الحَيوانيّة في كلِّ مكان، لكنّ عبادَ الرَّحمن يضربونَ المَثَلَ في مخالفتِه وفي الصَّبرِ والاستقامة، وسوف يَجْزيهم اللهُ تعالى لقاءَ هذا قصُورًا عظيمةً ورائعةً في الجنة، حيث تستقبِلُهم الملائكةُ بالدُّعاءِ والسلام.

﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾

٦١ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ ليعبُدَه، والذين لا يعبُدونَ اللهَ تعالى لا يعبَأُ اللهُ بهم، فهو سبحانَه وتعالى يقدِّرُ الذين يعبُدونَه، أمّا مَن لا يعبُدونَه فهم في الأصلِ يُنكرونَ اللهَ تعالى ويكفُرونَ به، وسوف يَخلُدونَ في جهنَّم بسببِ إنكارِهم هذا وكُفرِهم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بيرْزاده
جامعة الكرَم، إيتن هال، إنجلترا
بعدَ صلاة المغرِب من يوم الأربعاء ٢٨ يناير ٢٠٠٩م
الموافق الأولَ من صَفَر ١٤٣٠هـ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

هذه السُّورةُ مكِّيةٌ، لكنّ الآياتِ الأربَعِ الأخيرةَ منها نَزَلت في المدينةِ المنوَّرة[١]، واسمُ السُّورة هو: «الشُّعراء»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٢٢٤** منها، وشعراءُ: جَمْعُ شاعرٍ.

كان من بينِ اعتراضاتِ المشرِكينَ واتّهاماتِهم: أنّ النبيَّ ﷺ شاعرٌ، وأنّ القرآنَ المَجِيدَ ليس كتابَ الله تعالى، وإنّما هو خيالٌ شِعريٌّ من النبيِّ ﷺ لا علاقةَ له بالحقيقة، وقد جاء الردُّ على هذا الاعتراضِ في هذه السُّورةِ بأنّ:

ـ الشُّعراءَ بصفةٍ عامّة يقولونَ ما لا يفعَلون، بينَما النبيُّ ﷺ إذا قال شيئًا عمِل به أولًا، ثم دَعا الناسَ بعدَ ذلك إلى العمَل به.

ـ المتَّبِعونَ للشُّعراءِ ضالُّونَ متواكِلون، بينَما متَّبِعو النبيِّ ﷺ والمؤمنونَ به قد تابوا من كلِّ أنواع الظُّلم والجَوْر، وقدَّموا أمثِلةً رائعةً في الأخلاقِ الحسَنة والأعمالِ الصّالحة.

ـ الشُّعراءُ يتجاوَزونَ كلَّ حدٍّ في مَدْح أحدٍ وهجاءِ آخَرَ بقَصْدِ الحصُول على العطاءِ والاستحسان، في حينَ أنّ النبيَّ ﷺ يتَّبعُ دائمًا الحقَّ والصِّدقَ والاعتدال، ولهذا كان أهلُ مكّةَ يطلقونَ عليه: الصادقَ الأمين.

---

(١) التفسير المظهري.

ولكنّ الشُّعراءَ ليسوا جميعًا سواءً، فالشّاعرُ الذي يوظِّفُ شعرَه في الدَّعوة إلى الحقِّ والصِّدق، ويتجنَّبُ الإفراطَ والتفريطَ، مستثنًى من عامّةِ الشُّعراء، ويستحِقُّ شعرُه المدحَ والثناءَ عليه.

إنّ النبيَّ ﷺ لم يَأْلُ جهدًا ولا وقتًا في دعوةِ المشركينَ إلى الإسلام، وبالرَّغْم من ذلك لم تَقبَل الأكثَريّةُ من أهلِ مكّةَ الإسلامَ، ولذلك حَزِن النبيُّ ﷺ كثيرًا لهذا الأمرِ حتى كاد يُهلِكُ نفسَه في هذا الحُزن، وهكذا طَمْأنَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ في هذه السُّورة بأنك قد أدَّيتَ حقَّ الدَّعوة إلى الإسلام، فلا حاجةَ بكَ إلى الحُزنِ والقلق، إذ إنّ هؤلاءِ قد سيطَر عليهم تعصُّبُهم وعنادُهم، وهم مسئولونَ عن مصيرِهمُ السيِّئ، كما أنّنا إذا أرَدْنا أَنْزلنا من السماءِ آيةً يخضَعونَ برؤيتِها، ويُضْطَرُّونَ إلى قَبولِ الإسلام، لكنّ إجبارَ أحدٍ وإكراهَه على الإسلام يتنافَى معَ حكمتِنا.

جاء في هذه السُّورةِ أيضًا ذِكرٌ لبعضِ الأنبياءِ السَّابقينَ عليهمُ السَّلام وأحوالِ أقوامِهم، حتى يطمئنَّ قلبُ النبيِّ ﷺ من جانبٍ بأنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ أيضًا قد واجَهوا أقوامًا أَعْرَضوا عن قَبولِ دعوتِهم، ومن جانبٍ آخَرَ فيه تنبيهٌ للمشركينَ بأنّكم إن لم تتعقَّلوا كمَثَل الأُمم السابقة فسوف تفشَلون في الدنيا، ولن تُفلتوا يومَ القيامة من العقاب.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
يومَ الجمُعة السادسَ من مارس عام ٢٠٠٩م
الموافقَ الثامنَ من ربيعٍ الأول عام ١٤٣٠هـ.

* * *

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦)،

مكية (٤٧)، آياتها (٢٢٧)، ركوعاتها (١١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿طسٓمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، وهي سِرٌّ بينَ الله تعالى وحبيبِه ﷺ، ولمزيدٍ من الشَّرح والتفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

٢ ـ إنّ النبيَّ ﷺ لم يَأْلُ جُهدًا ولا وقتًا في دعوةِ المشركينَ إلى الإسلام، وبالرَّغْم من ذلك لم تَقبلِ الأكثريّةُ من أهلِ مكّةَ الإسلامَ، ولذلك حَزِن النبيُّ ﷺ كثيرًا لهذا الأمرِ حتى كاد يُهلِكُ نفسَه في هذا الحُزن.

وهكذا، طَمْأنَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ في هذه السُّورةِ بأنّك قد أدَّيت حقَّ

الدعوةِ إلى الإسلام، فلا حاجةَ بكَ إلى الحُزنِ والقلق، إذ إنّ هؤلاءِ قد سيطَر عليهم تعصُّبُهم وعنادُهم، وهم مسئولونُ عن مصيرِهمُ السيِّئ.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾

٣ ـ لو أرَدْنا لَأنْزلنا من السماءِ آيةً يخضَعونَ برؤيتِها، ويُضْطَرُّونَ إلى قَبول الإسلام، لكنّ إجبارَ أحدٍ وإكراهَه على الإسلام يتنافَى معَ حِكمتِنا.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

٤ ـ كلَّما نَزَل حُكمٌ من الله تعالى كان هؤلاءِ الناسُ يعترِضونَ عليه بدايةً، ثم يكذِّبونَه، وفي نهايةِ الأمرِ يَسخَرونَ منه، ويَبلُغونَ المدى في كُفرِهم وشِركِهم، ولكنْ ما أن يأتيَهم الموتُ قريبًا، سيتيقَّنونَ من أنّ الدِّينَ الذي كانوا يسخَرونَ منه هو ـ في الحقيقة ـ الدِّينُ الصَّحيح.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾

٥ ـ لو لم يَنـزِلِ المطرُ لفترةٍ لَتطاير من الأرضِ الغبـارُ والتـرابُ لجفـافِها، وأخَذ كلُّ إنسانٍ يحاولُ أن يحفَظَ بدنَه وملابسَه من كلِّ هذا، ولكنْ ما أن يَنزلَ المطرُ حتى تظهَرَ في هذه الأرضِ المَواتِ اليُنوعةُ، وتَنبُتَ النباتاتُ الرائعة، ممّا يُسعِدُ قلبَ كلِّ إنسان، وكما أنّ اللهَ تعالى أَنْبتَ العُشبَ الأخضَرَ في هذه الأرضِ البُور مكانَ الغبارِ والتراب، فإنّه يستطيعُ أيضًا أن يُحييَ الإنسانَ بعدَ موتِه، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يعتبِرونَ من آيةِ القُدرةِ هذه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

٦ ـ اللهُ تعالى غالبٌ على كلِّ شيء، وهو قادرٌ على معاقبةِ الكافرينَ به فَوْرًا،

لكنّه رحيمٌ بعبادِه إلى جانبِ كونـِه غالبًا عليهم، ولهذا لا يؤاخِذُهم على الفَوْر، وإنّما يُمهِلُهم بشكلٍ كامل حتى يتوبوا إلى اللهِ ويُصلحوا من أنفسِهم.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

٧ ـ من ناحيةٍ كان قومُ فِرعَونَ يعتبِرونَه إلهًا ويعبُدونَه من دونِ الله مرتكبينَ بذلك ظُلمًا عظيمًا، ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ فرعَوْنَ وقومَه استَعبَدوا بني إسرائيلَ لأربعِمائةِ عام، وارتكَبوا في حقِّهم كلَّ أنواع الظُّلم والجَوْر معتبِرينَ أنّ هذا حقٌّ لهم، ولهذا قال اللهُ تعالى لسيّدِنا موسى عليه السلام: اذهَبْ إلى فرعَوْنَ ورجالِه وقلْ لهم: اتَّقوا اللهَ وارجِعوا عن ظُلمِكم.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾

٨ ـ فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: يا ربِّ، أشعُر بضِيقٍ في قلبي وانقباضٍ فيه؛ لأنّني متَّهمٌ بقَتْل قِبْطيٍّ من جانب، ولهذا أخشَى أن يقتُلوني قبْلَ أن أُبلِّغَهم دعوتَك، ومن جانبٍ آخرَ في لساني لكْنةٌ، وأخشَى أن يُسارعوا إلى تكذيبي قبْلَ أن أُكملَ كلامي معَهم، ولهذا أرسِلْ معي أخي هارونَ عليه السَّلام يرافِقُني مُعاوِنًا لي؛ لأنّ لسانَه أكثرُ فصاحةً وسَلاسة.

﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾

٩ ـ كانت رغبةُ سيّدِنا موسى عليه السَّلام أن يَجعَلَ اللهُ تعالى من هارونَ نبيًّا ويُرسلَه معَه إلى فرعَوْنَ وقومِه، ومن جانبٍ آخرَ كان يخشَى أن يَقتُلَه فرعَوْنُ بتهمةِ قَتْل القِبْطيِّ، وعليه قال اللهُ تعالى أنِ اصْطحِبْ سيّدَنا هارونَ عليه السَّلامُ معك، ومعَك أيضًا معجِزاتُنا، أي: اليدُ البيضاءُ والعصا، كما أنّه لا حاجةَ لك إلى أن تخافَ فرعونَ وقومَه، فإنّهم لا يستطيعونَ إيذاءك في شيءٍ، لأنّنا معَك، ونحن نسمَعُ كلَّ كلامِكم وسنَحميكُما منهم.

﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

١٠ ـ ذَهَب سيّدُنا موسى وسيّدُنا هارونُ عليهما السَّلامُ إلى فِرعَونَ وقالا له: إنّنا رسولانِ من ربِّكَ إليك، ولقد جئناكَ لكي تُحرِّرَ بني إسرائيلَ وتُطلقَ سراحَهم، وسنأخُذُهم نحن معَنا عائدينَ إلى وطنِنا فِلَسطين. ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الآيةَ رقم ١٠٣ من سُورة الأعراف، وكذا الحاشيةُ رقم ٥٧.

﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

١١ ـ كان الفِرعَونُ يَدَّعي أنه ربُّ الأرباب! وبالتالي كان من غيرِ المحتمَلِ

بالنِّسبة له أن يدَّعيَ شخصٌ ما في بَلاطِه أنه رسولٌ لإلهٍ آخَرَ غيرِه، كما أنّ بني إسرائيلَ كانوا يقومونَ بكلِّ أعمالِ الزِّراعة وكذا الخِدمةُ في بيوتِ فرعَونَ ورجالِه، ولذلك لم يكونوا على استعدادٍ للتخلِّي عن مِثلِ هؤلاءِ العمّالِ الذين يعمَلونَ مجّانًا وإرسالِهم إلى الشام، وهكذا استَشاطَ فِرعونُ غضبًا وقال: ألستَ أنت الذي رَبَّيناهُ في بيتِنا ورَبَّيناه بينَنا، ثم نَسِيتَ إحسانَنا عليك وقَتَلتَ فردًا من قومِنا، وفَرَرتَ من مِصرَ إلى مَدْيَن؟ إننا لم نَنْسَ جريمةَ القتلِ هذه حتى الآنَ، وتقولُ: إنك تريدُ أن تصطحبَ بني إسرائيلَ معَك؟

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

١٢ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إنَّني لم أقتُل القِبطيَّ عامدًا، ولم أكنْ أعلَمُ أصلًا أنه سيموتُ من مجرَّدِ وَكْزةٍ بسيطةٍ، ولكنّي بعدَ موتـِه ذهبتُ إلى مَدْيَنَ خوفًا من أن تقتلوني في مقابلِ ذلك، ثم أَنْعم اللهُ تعالى عليَّ بالنُّبوّة، والآنَ جئتُكم باعتباري رسولًا.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

١٣ ـ يعني: صحيحٌ أنك رَبَّيتَني في بيتِك، لكنْ لا حقَّ لكَ في أن تَمُنَّ علَيَّ بهذا الأمر؛ لأنّك قَيّدتَ قَوْمي كلَّهم في سلاسلِ العُبوديّة، ونَفَّذتَ في أطفالِهم حُكمَ القتل، وأمامَ حُكمِك الظالم هذا وضَعَتْني أُمِّي في صُندوق وأودعَتْني نهرَ النِّيل، ولو لم يكنْ حُكمُك الظالمُ هذا لَتربَّيْتُ في بيتِ والدَيَّ، لهذا فإنّ هذا ليس بالأمرِ الذي تمُنُّ به علَيَّ، وإنما حقٌّ لك أن تموتَ خَجَلًا بسببِ حركاتِك وتصرُّفاتِك الظالمة، ثم إنّ اللهَ تعالى أَوْصَلَني إلى بيتِك لِيُريَكَ قُدرتَه، بأنّ الطِّفلَ الذي ذَبحتَ مئآتِ الآلافِ من الأطفالِ لكي تقضيَ عليه ظَلَّ يتربَّى في بيـتِك ويعيشُ معَك في رَغَدٍ من العيش.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

١٤ ـ كان فرعَونُ يدَّعـي أنه إلهٌ، ولهـذا سـأل: مـا هو ربُّك الذي أرسَلَك نبيًّا، حدِّثْنا عنه؟ فردَّ عليه سيدُنا موسى عليه السَّلامُ قائلًا: إنّه ربُّ السّماواتِ والأرض وما بينهُما، ولو أنّ لديكَ المقدرةَ على فَهْم هذه الحقيقةِ واليقينَ عليها، فإنّ كلَّ ذَرّةٍ في السّماواتِ والأَرضِ تكفي للتأكيدِ على توحيدِ الله تعالى.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾

١٥ ـ فالتفَتَ فِرعونُ إلى رجالِ بَلاطِه وقال: أتسمعونَ ماذا يقول؟ أيُّ ربٍّ هذا الذي يتحدَّثُ عنه وليس هناك إلهٌ غيري؟

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

١٦ ـ فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إنّك لم تكنْ موجودًا في الماضي، وأنت موجودٌ اليومَ فقط، ولن تكونَ موجودًا في المستقبَل، وبالتالي لا يمكنُ أن تكونَ إلهًا؛ لأنّ الإلهَ يكونُ أزليًّا وأبديًّا، فحينَ لم تكنْ أنت موجودًا، من كان إلهَك وإلهَ آبائك عندئذٍ؟ وحينَ لن تكونَ موجودًا فمَن يا تُرى سيكونُ إلهَ ذُرِّيتِك القادمة؟ وربِّي هو الذي كان إلَه آبائك وأجدادِك في الماضي، وهو إلهُك اليومَ، وربُّ كلِّ المخلوقاتِ حتى يوم القيامة، فهو أزَليٌّ ودائمٌ إلى الأبد.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾

١٧ ـ لمَّا سمعَ فِرعونُ هذا الكلامَ قال: إنّ هذا الرجُلَ مجنونٌ على وجهِ اليقين، وهل يمكنُ أن يكونَ هناك أصلًا إلهٌ غيري؟

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

١٨ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ لفِرعَونَ: تَعقَّلْ ما تقول، إنّ حكومتَك تنتهي عند حدودِ مِصرَ، وخارجَ هذه الحدود لا يخضَعُ أحدٌ لحُكمِك، فكيف يمكنُ أن تكونَ ربًّا للعالَم كلِّه؟ والحقيقةُ أنّ ربِّي هو الربُّ الحَقّ، وهو ربُّ السماءِ والأرض وما بينَهما، وربُّ المشرقِ والمغربِ ومن فيهما جميعًا.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾

١٩ ـ كان فِرعَونُ يدَّعي أنه إلهٌ، مثلَما وَرَد من أقوالِه في القرآنِ الكريم:

ـ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

فلمَّا لم يستطعْ فِرعَونُ إثباتَ كونِه ربًّا بالأدِلّة، هدَّد سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ قائلًا: إنْ لم ترجِعْ عن دَعْواكَ، وأصرَرْتَ على اتّخاذِ إلهٍ غيري، فسوف أسجِنُك.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾

٢٠ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: لو أَريتُكَ معجِزةً يتَّضحُ منها أنّي رسولٌ من ربِّ العالَمين، فهل تؤمنُ بي وتُسلِّمُ بما أقول؟

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾

٢١ ـ وهكذا، بناءً على مطالبةِ فرعونَ، ألقَى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عصاهُ، فتحوَّلت إلى أفعًى، ووَضَعَ يدَه في جيبِه ثم أَخْرجَها فإذا هي بيضاءُ ناصعة.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

٢٢ ـ لمَّا رأى فِرعَونُ معجزاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ خافَ وارتَبَك، وقال لرجالِ بَلاطِه: إنه ساحرٌ ماهرٌ محترِف، وإن لم نَتدارَكْ أمرَه فسوف ينتصرُ عليكم بقوَّةِ سحرِه، وسوف يُخرِجُكم من بلادِكم ويستولي عليها، ولذا أخبِروني ماذا نفعَلُ معه؟

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾

٢٣ ـ قال رجالُ البَلاط: إنّ مواجهةَ السِّحرِ لا تكونُ إلّا بالسِّحر، لهذا لا تقُلْ شيئًا لهذَيْنِ الآنَ، وأعلِنْ في كلِّ أرجاءِ مِصرَ أنْ يجتمعَ السَّحَرةُ جميعًا عندَك، ثم يواجِهَ هؤلاءِ مجتمِعينَ سيِّدَنا موسى عليه السَّلام.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾

٢٤ ـ حينَ اجتَمع كلُّ سَحَرةِ مِصرَ، وتمَّ تحديدُ يومِ وساعةِ المواجَهة، قيل للناس أنْ تعالَوْا جميعًا لمشاهدةِ هذه المواجَهة، حتى إذا ما انتَصر السَّحَرةُ تُعلنونَ تمسُّكَكم بدِينِ سَحَرتِكم، الدِّين الفِرعَوْنيِّ، وتُنكِرونَ دينَ سيِّدِنا موسى الجديدَ.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾

٢٥ ـ كان سَحَرةُ مِصرَ على يقينٍ مَن انتصارِهم وتفوُّقِهم، لهذا طَلَبوا من الفِرعَونِ مسبَقًا أنْ إذا انتصَرْنا فما المكافأةُ التي ستقدِّمُها لنا؟ فأجابَهم فِرعَونُ بأنّكم ستكونونَ ضمنَ المقرَّبينَ إليَّ، وستجلسونَ في البَلاطِ الملكيِّ بجانبِ الوزراء، بالإضافةِ إلى المكافآتِ الماليَّة التي ستَتَقاضَوْنَها.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

٢٦ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام للسَّحَرة: اعرِضوا أنتم مجتمِعينَ ما في جُعبتِكم من قوّةِ السِّحرِ أولًا، ثم سأُريكم أنا قوّةَ النُّبوّة، وهكذا ألقَى السَّحَرةُ بحِبالِهم وعِصِيِّهم، فبَدَت لأعيُنِ الناس ثعابينَ، وكان السَّحَرةُ على يقينٍ من تفوُّقِهم بحيث أنهم أَقْسموا بفِرعَونَ إنّهم لَمنتصِرون.

﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

٢٧ ـ ثُم حينَ ألقَى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عصاهُ، تحوَّلتْ إلى ثُعبانٍ

كبير ابتَلَع كلَّ حبالِ وعِصيِّ السَّحَرة، فلمَّا رأى السَّحَرةُ هذا تيقَّنوا من أنَّ سيِّدَنا موسى عليه السَّلام ليس ساحرًا، ولهذا أعلَنوا إيمانَهم بربِّ سيِّدِنا موسى وسيِّدِنا هارونَ عليهما السَّلامُ، وخَرُّوا ساجِدينَ بصُورةٍ لا إراديّةٍ، وكأنّ معجِزةَ العَصا ومعرفةَ الحقِّ أجبَرتهُم على السُّجود.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٢٨ ـ قال فِرعَونُ لسَحَرتِه: أنا ربُّكم الأعلى، فلمَ آمنتُم به دونَ إذْنٍ مني؟ يبدو كأنّكم تعلَّمتُم السِّحرَ من سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وتعمَّدتُم قَبولَ الهزيمةِ أمامَ مُعلِّمِكم، فاستعِدُّوا للعقابِ لقاءَ مؤامرتِكم هذه، وسوف أُقطِّعُ أيديَكم وأرجُلَكم من خلافٍ وأُصلِّبُكم.

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

٢٩ ـ أجابَ السَّحَرةُ فِرعونَ قائلينَ: إنّنا لا نُبالي بما ذكَرتَ من عقابٍ؛ لأنّنا عرَفْنا ربَّنا الحقيقيَّ، وهو الذي سنَرجِعُ إلى حضرتِه ذاتَ يوم، ونأمُلُ أن يغفرَ خطايانا السابقةَ؛ لأنّنا سبَقْناكم جميعًا إلى نَيل سعادةِ الإيمان.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

٣٠ ـ بعدَ هذه الواقعة زاد فِرعونُ في إيقاع الظُّلم ببني إسرائيلَ، وعليه أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلام أنِ اصْطحِبْ بني إسرائيلَ وهاجِرْ بهم ليلًا من مِصرَ، ومعَ أنّ فِرعونَ وجيشَه سيتعقَّبونكم لكي يعتقلوكم ويُعيدوكم إليهم، لكنْ لستُم في حاجةٍ إلى الخوفِ من ذلك؛ لأنه لن يستطيعَ أن يُلحِقَ بكم أذًى.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

٣١ ـ حينَ عَلِم الفِرعونُ أنّ بني إسرائيلَ قد هَرَبوا من البلادِ ليلًا، أعلَن في المدُنِ كلِّها أنّ بني إسرائيلَ مجرَّدُ مجموعةٍ حقيرةٍ صغيرة قياسًا بنا، وقد عَصَوْا أمْرَنا وأثاروا غضَبَنا، ولهذا عليكم أن تَخرُجوا إليهم في أعدادٍ غفيرةٍ وباحتياطٍ كبير، واعتقِلوهم جميعًا وأعيدوهم إلينا.

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾

٣٢ ـ تَرَكَ فِرعونُ ورجالُه حدائقَهم وعيونَهم وخزائنَهم وكنوزَهم وقصورَهمُ الفاخرةَ وخَرَجوا متعقِّبينَ بني إسرائيلَ حتى يعتقلوهم ويُعاقبوهم، لكنْ أنَّى لهؤلاءِ الفِرعَوْنيِّينَ أن يَعرِفوا أنّهم هم الذين لن يعودوا إلى بيوتِـهم ثانيةً، وأنّ اللهَ تعالى إنّما أَخْرجَهم منها حتى يُعاقبَهم على ظُلمِهم، ويُغرِقَهم في البحر.

ولكنْ، أين ذَهَب بنو إسرائيلَ بعدَ غَرقِ فرعونَ؟ هناك اختلافٌ بينَ المؤرِّخين في هذا الأمر، لكنّ المفهومَ الظاهريَّ لهذه الآية هو أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ عاد بقومِه إلى مِصرَ بدايةً[1]، وأقاموا لفترةٍ في مساكنِ الفِرعَوْنيِّينَ وحدائقِهم،

---

(١) «﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعني: تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك بأن الله تعالى ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن». تفسير القرطبي والتفسير المظهري.

واستفادوا بكنوزِهم ومُمتلكاتِهم، ثم استعَدُّوا بعدَ ذلك بشكلٍ كامل، وخَرَجوا مهاجرينَ من مِصرَ إلى الأرضِ المقدَّسة، وفي الطريقِ وَقَعت أحداثُ التِّيه.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

٣٣ ـ ومعَ طلوعِ الشمسِ خَرَج فِرعَونُ ورجالُه متعقِّبينَ بني إسرائيلَ، فلمَّا رأى بنو إسرائيلَ الجيشَ الفِرعَوْنيَّ خافوا، إذ إنّ البحرَ من أمامِهم، وجيشُ فِرعَونَ من خَلْفِهم، فما سيحدُثُ لهم يا ترى؟ وحينَئذٍ قال لهم سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ باطمئنانٍ كامل: لقد خَرَجتُ بكم بأمرٍ من الله تعالى، ولهذا لا تخافوا شيئًا، وسيحفَظُنا اللهُ تعالى من هؤلاءِ الفِرعَوْنيِّين.

وقد حدَثتْ مِثلُ هذه الواقعة معَ نبيِّنا الحَبيبِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، فعندما دخَل سيّدُنا محمدٌ ﷺ غارَ ثَوْر برِفقةِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيق رضي اللهُ عنهُ أثناءَ الهجرةِ النَّبويّة، ووَصَلَ كُفّارُ مكّةَ حتى بابِ الغار باحثينَ عنهما، استَشعَر سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه الخطَر بأنه لو نَظَر الكفّارُ إلى أسفلَ قليلًا لَرأَوْنا، وعندئذٍ قال النبيُّ ﷺ لسيّدِنا أبي بكرٍ الصّدِّيق رضي الله عنه بكلِّ اطمئنانٍ: «لا تحزَنْ، إنّ اللهَ معنا»، ولهذا لن يستطيعَ الكفّارُ رؤيتَنا.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

٣٤ ـ ضَربَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بأمرٍ من الله تعالى البحرَ بعصاهُ، فانشَقَّ ماءُ البحرِ وسَكَن كأنّه الجبالُ، ومشَى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ معَ رفاقِه من بين شِقَّي البحرِ وعَبَروا إلى الجانبِ الآخَر.

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾

٣٥ ـ حين وَصَل فِرعَونُ ورجالُه إلى شاطئِ البحر اعتقَدوا أنه ربَّما حدَثَ

تغيُّرٌ مفاجئٌ في البحر، وسَكَّن الماءُ من حركتِه، فنزَلوا هم أيضًا إلى البحر، وفي تلك الأثناءِ تحرَّك ماءُ البحرِ الساكنُ بأمرِ الله ثانيةً، وغَرِقَ فيه فِرعَونُ وجنودُه.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

٣٦ ـ في هذه الواقعة درسُ عِبرةٍ كبيرٌ لكُفّارِ مكّة، بأنّ فِرعَونَ ورجالَه لم يؤمِنْ منهم إلّا القليلُ حتى بعدَ رؤيةِ معجِزةِ العَصا واليدِ البيضاء، ولم يفكِّروا في أنْ يؤمنوا بعدَ أنْ رأَوْا معجِزةَ شَقِّ البحرِ وعبورَ بني إسرائيلَ من خلالِه إلى الجانبِ الآخَر، وحين بدأَوا في الغَرَقِ اضْطُرُّوا إلى إعلانِ إيمانِهم لإنقاذِ أرواحِهم، رَغْم أنّ الإيمانَ الاضطراريَّ هذا وفي الوقتِ الأخيرِ ليس مقبولًا عندَ الله تعالى، ولهذا ينبغي لكُفّارِ مكّةَ أن يعتبِروا من هذه الواقعة، وأن يؤمنوا بالنبيِّ ﷺ، ومعَ ذلك لم يؤمنْ أكثرُهم.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾

٣٧ ـ المرادُ بأبي سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في هذه الآية هو: عمُّه آزَرُ، وهو الذي رَبَّى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام. ولمزيدٍ من التفصيلِ في هذا الأمرِ راجعْ حاشيةَ الآية رقم ٧٤ من سُورة الأنعام (٦).

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴾

٣٨ ـ قال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: هذه الأصنامُ التي تعبُدونَها من دونِ الله تعالى، هل تستطيعُ سَماعَكم إذا ناديتُموها أوِ استغثتُم بها؟ وهل تستطيعُ جَلْبَ النَّفع أو الضُّرِّ لكم؟

﴿ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴾

٣٩ ـ إذا كانت هذه الأصنامُ لا تَملِكُ لكم نفعًا ولا ضُرًّا، فلمَ تعبدونَها من دُونِ الله إذًا؟ ولم يكنْ لدى الكُفّارِ إجابةٌ معقولةٌ على هذا السُّؤال، فقالوا: إنّ آباءنا وأجدادَنا كانوا يعبُدونَها، ولهذا نحن أيضًا نعبُدُها، معَ أنّ تقليدَ الآباءِ والأجدادِ لا يمكنُ أن يكونَ دليلًا على الحقِّ أو الباطل، وعليه قال سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: عليكُم أن تتدبَّروا الأمرَ، فالذين تعبُدونَهم لا يملِكونَ لكم نفعًا، وإنْ لم تعبُدوهم لن يَضُرُّوكم في شيءٍ، فلمَ تعبُدونَهم إذًا؟

﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

٤٠ ـ هؤلاءِ الذين تعبُدونَهم من دونِ الله سيُعلِنونَ براءتَهم منكم يومَ القيامة قائلين: لا نحن نستحِقُّ العبادةَ، ولا نحن أمَرْنا أحدًا أن يعبدَنا، فلمَ عبدتُمونا إذًا؟ ويُعلَمُ منه أنّ الآلهةَ الباطلةَ هذه لن تستطيعَ أن تنفعَ أحدًا يومَ القيامة، ليس هذا فقطْ،

وإنّما سيخالفونَ مَن كانوا يعبدونَهم أيضًا، ولهذا فإنّ هذه الأصنامَ أعداءٌ لنا جميعًا، وعلينا أن نتجنَّبَهم ونبتعدَ عنهم، وأن نعبدَ اللهَ وحدَه لا شريكَ له، وهو ربُّ العالَمين جميعًا، وهو الذي يُنعِمُ على الجميع بما يحتاجونَه.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

٤١ ـ استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام هذا، وأَنْعم عليه بالقَبولِ الواسع بينَ أبناءِ الأجيالِ القادمة من بعدِه، بحيث أنّ كلَّ الأُمم التي تؤمنُ بالوَحْي في أيامِنا هذه تنظُر إليه نظرةَ احترام وتقدير، أمّا المسلمونَ فإنّهم يُصَلُّونَ ويسلِّمونَ على سيّدِنا إبراهيمَ وعلى آلِه جنبًا إلى جنبٍ معَ صلاتِهم وتسليمِهم على نبيِّنا الحبيبِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ في كلِّ صلاة.

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾

٤٢ ـ المرادُ بأبي سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في هذه الآية هو عمُّه آزَرُ الذي ربَّى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الدُّعاءِ بالمغفرةِ له راجع الحاشيةَ رقم ٩٢ للآية رقم ١١٤ من سُورة التوبة (٩).

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾

٤٣ ـ الجزءُ الأخيرُ من دعاءِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في هذه الآياتِ هو: يا ربِّ لا تُخْزِني يومَ يُبعَثُ الناسُ من قبورِهم يومَ القيامة، يعني: لا تؤاخِذْني على عملٍ قمتُ به خلافَ الأَوْلى.

يا ربَّ العالَمين، هذا الفقيرُ إليك يتوسَّلُ في حضرتِك متَّبِعًا سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ قائلًا: يا رحمنُ يا رحيم، لا تُخْزِ أحدًا من المسلمينَ يومَ القيامة، وخصوصًا

والدَيَّ وأولادي وأساتذتي وطُلّابي وطالباتي وكلَّ القائمينَ على أمرِ جمعيّةِ المسلم الخَيْريّة وجامعةِ الكرَم، واستُرْ أخطاءنا برحمةٍ منك، آمينَ يا ربَّ العالَمين، بجاهِ حبيبِك الكريم عليه التحيَّةُ والتسليم.

مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ اللهَ يُدْني المؤمنَ فيضَعُ عليه كنَفَه، ويستُرُه فيقولُ: أتعرِفُ ذنبَ كذا، أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ فيقولُ: نعم أيْ ربِّ. حتّى إذا قرَّره بذنوبِه ورأى في نفسِه أنّه هَلَك قال: سترتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ. فيُعطَى كتابَ حسَناتِه، وأمّا الكفّارُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[1].

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾

٤٤ ـ الشَّخصُ الذي يكونُ قلْبه طاهرًا من الكُفرِ والشِّرك، وعامرًا بتوحيدِ الله عزَّ وجلَّ، سينفَعُه يومَ القيامة ما أنفَقَه من مالٍ في الدنيا في طريقِ الخير، وسيشفَعُ له مَن مات من أولادِه المعصُومينَ، وسيَدعو له أولادُه الصّالحونَ بالمغفرةِ ويَهَبُونَ له الثوابَ، لكنّ الذي لا يُنيرُ مصباحُ التوحيد الإلهيِّ قلبَه، فإنّ ما أنفقه من مالٍ في الدنيا في طريقِ الخيرِ لن يفيدَه بشيءٍ في الآخِرة، حتى إنّ أصبح أولادُه مسلمينَ متَّقينَ، فإنّ شفاعتَهم لأبيهمُ الكافرِ لن تُقبَل.

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾

٤٥ ـ سيُقالُ للضالِّينَ يومَ القيامة: أيـن الذيـن كـنتُم تعبـدونَهم من دونِ الله اليوم؟ انظُروا، إنّهمُ اليومَ عاجزونَ لا حِيلَة لهم، بل ولا يستطيعونَ حتى مساعدةَ أنفسِهم، فكيف يستطيعونَ مساعدتكم أنتم؟ ثم بعدَ ذلك يُلقَى بهؤلاءِ الضّالِّينَ الشيطانيِّينَ وآلهتِهم المزعومةِ في نارِ جهنَّم.

---

(١) البخاري، كتاب المظالم، باب ٢ برقم ٢٤٤١، وكتاب تفسير القرآن، سورة هود (١١) برقم ٤٦٨٥.

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

٤٦ ـ سيشعُر الضالُّونَ ـ حين يُلقَى بهم في جهنَّمَ ـ بخطئهم، وسيقولونَ لآلهتِهم الباطلة: لقد ضَلَلْنا حين اعتبرْناكُم آلهةً مثلَ الله تعالى، والحقيقةُ أنّ كُبَراءنا وأصدقاءنا السيِّئينَ هم الذين أوقعُونا في هذا الضَّلال، وبسببِ هذا الضَّلالِ لا نجدُ اليومَ من يشفَعُ لنا.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

٤٧ ـ سيقولُ الضالُّونَ يومَ القيامة: ليتَنا تُتاحُ لنا فرصةُ العودةِ ثانيةً إلى الحياةِ الدنيا، وعندَها لن نعصيَ الله أبدًا، وإنّما سنكونُ مؤمنينَ راسخي الإيمان، ولكن ليس هناك أيُّ مجالٍ للعودة من هناك ثانيةً، ولهذا فإنّ الإيمانَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، والعمَلَ الصّالحَ فقطْ هو الذي سيفيدُ في الآخِرة.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

٤٨ ـ في هذه الواقعةِ معَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ يوجَدُ دليلٌ قويٌّ وواضحٌ ضدَّ عبادةِ المشركينَ للأصنام، ومعَ ذلك فإنّ أكثرَ هؤلاءِ لم يؤمنوا.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا

لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

٤٩ ـ رَغْم أنّ قومَ نُوح عليه السَّلامُ كذَّبوا رسولًا واحدًا، يعني: سيّدَنا نوحًا عليه السَّلام، لكنّ هذه الآيةَ ذَكَرتْ أنّ قومَ نُوح كَذَّبوا الرُّسُلَ جميعًا، وهذا يعني أن رسالةَ الرُّسُلِ جميعًا ومهمَّتَهم واحدةٌ، ولهذا فإنّ تكذيبَ رسولٍ واحدٍ يعني تكذيبَ الرُّسُلِ جميعًا.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

٥٠ ـ قال سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلامُ لقومِه: أنا لستُ غريبًا عنكم، وإنّما أنا أخوكم في الوطن، وأنتم تعرِفونَ جيِّدًا صِدقي وأمانتي، فإذا كنتُ لم أَخُنْكم مطلَقًا، فكيف يمكنُ أن أخونَ اللهَ تعالى؟ ولذا فإنّي أَصْدُقُكم القولَ بأنّ اللهَ تعالى أرسَلَني إليكم، وما أقولُه لكم ليس كلامي، وإنما رسالةُ الله تعالى إليكم، وأنا أُبلِّغُها لكم دونَ زيادةٍ أو نُقصان، ولهذا عليكم أن تتَّقوا اللهَ وتُطيعوني لتنالوا رضاه.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٥١ ـ إنّ الهدفَ ممّا أُبلِّغُكم به هو خيرُكم وهدايتُكم، وأنا لا أسألُكم على ذلك أجرًا، وإنّما أطلبُ رضا ربِّي، وهو الذي سيأجُرُني.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾

٥٢ ـ قالوا: يا نوحُ، إنّ المؤمنينَ بكَ أُناسٌ يُعتبَرونَ متخلِّفينَ حقيرينَ في

المجتمع بسببِ فقرِهم وعائلاتِهم البسيطةِ والحِرَف التي يمتَهِنُونَها، وهم لم يؤمنوا بكَ لأنّهم أحَبُّوا دِينَك، وإنّما أرادوا التخلُّصَ من فقرِهم وتخلُّفِهم عن طريقِ هذا الدِّين، ولا يليقُ بنا نحن ـ الوجهاءَ الأغنياءَ المخلِصينَ أبناءَ العائلاتِ الكبيرة ـ أن نجلسَ معَ أولئك الحُقَراء، ولئنْ طَرَدتَ هؤلاءِ الوضِيعينَ من عندِك لَأمكَن لنا أن نتفاهمَ معَك.

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾

٥٣ ـ قال سيّدُنا نُوحٌ عليه السَّلام: إنّني لم أُرسَلْ إليكم لكي أتفحَّصَ في ماضي من يؤمنُ بي، وأعرِفَ أيَّ مكانةٍ يحتَلُّها، وكيف هي نيَّتُه، وإنّما أُرسِلتُ إليكم لكي أُفهِمَ من يؤمنُ بي أحكامَ الله تعالى وأُخوِّفَه من عذابِه، أمّا مسألةُ وَضْعِه الماليِّ ونيّتُه فلستُ مسئولًا عن ذلك؛ لأنّ اللهَ تعالى هو الذي يَعلَمُ تمامَ العِلم ماضيَ الناس ونواياهم وأحوالَ قلوبِهم، وهو الذي سيُحاسبُهم جميعًا.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

٥٤ ـ لقد أُرسِلتُ إلى الناسِ لكي أُنذرَهم من عذابِ الله تعالى، سواءٌ كان هؤلاء من عِلْيةِ القوم دُنيويًّا أم غيرَ ذلك، وأنا لا أستطيعُ أن أطرُدَهم.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٥٥ ـ قال سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ: يا إلهي، لقد رَفَض قومي دعوتي لهم، بل وهدَّدوني بأنْ يَرجُموني، والآنَ لا أتوقَّعُ أن يؤمنوا بي، ولهذا أَنْزِلْ عليهم يا ربِّ عذابًا من عندِك، وهكذا أنقذَ اللهُ تعالى سيّدَنا نوحًا عليه السَّلامُ ومَن آمَن معَه بأنْ جَعَلهم يركَبونَ السّفينةَ، وأَغْرقَ المنكِرينَ جميعًا الذين تخلَّفوا عن الركوبِ في السَّفينة.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

٥٦ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ الآيات من **١٢٣** إلى **١٢٧** راجعْ تفسيرَ الآياتِ من **١٠٥** إلى **١٠٩**.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

٥٧ ـ كان قومُ عادٍ يَبْنُونَ نُصُبًا فوقَ أماكنَ مرتفعةٍ للَّهوِ واللعب، كما كانوا يتنافسونَ فيما بينَهم في بناءِ القصورِ العاليةِ القويّة، وعليه نبَّههم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ قائلًا: لا تضيِّعوا الأموالَ في بناءِ النُّصُب والقصورِ العالية لتتفاخَروا فيما بينكم؛ لأنّكم لن تعيشوا في هذه الدنيا إلى الأبد، وسيأتي يومٌ تغادرونَ فيه هذه الدنيا.

يقولُ أهلُ العِلم في تفسير هذه الآية: ليس هناك ما يمنَعُ من بناءِ المباني العاليةِ القويَّةِ للضَّرورة، وإنّما المنْعُ هو من تضييع المالِ والوقتِ في بناءِ مثلِ هذه الأشياءِ بقَصْدِ التفاخُرِ والتكبُّر، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «لا يَدخُلُ الجنّةَ من كان في قلبِه مِثقالُ ذرّةٍ من كبرٍ»، قال رجلٌ: إنّ الرّجُلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسَنًا ونَعلُه حسَنةً؟ قال: «إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ. الكِبرُ (حرامٌ؛ لأنه) بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ النّاس»[1].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٣٩ برقم ٢٦٥.

ويُعلَمُ منه أنه لا مانعَ أبدًا منَ ارتداءِ اللِّباس الجيِّد، فهو وسيلةٌ لإظهارِ النِّعم، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ «إنّ الله يحبُّ أن يرى أثَرَ نعمتِه على عبدِه»[1].

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾

٥٨ ـ كان قومُ عادٍ قُساةَ القلوبِ متجبِّرين، إذا وَقَع من أحدٍ خطأٌ أوقَعوا به جبالًا من الظُّلم، ولم يكونوا يعرِفونَ شيئًا عن العَفْو والتسامح، وقد نبَّههم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ إلى أنه حين يقعُ خطأٌ من أحدٍ لا ينبغي أن تُسارعوا إلى القسوةِ عليه، وإنّما عليكم أن تفهَموه بلينٍ، وتعطُوه الفُرصةَ لكي يتَداركَ الخطأَ ويتماسَكَ؛ لأنّكم أنتم أيضًا ستحاسَبُونَ وتُسألونَ، وإليك بعضَ الأحاديثِ النَّبويّة الشّريفة في هذا الخصُوص:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو مسعودٍ الأنصاريُّ رضي اللهُ عنه: «كنتُ أضربُ غلامًا لي، فسمِعتُ مِن خَلْفي صوتًا: «اعلم أبا مسعودٍ». قال ابنُ المثَنَّى مرّتَيْنِ: «لَلّـهُ أقدرُ عليك منكَ عليه»، فالتفتُّ، فإذا هو النّبيُّ ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله، هو حُرٌّ لوجهِ الله. قال: «أمَا إنّك لو لم تفعَلْ لَلَفعَتْكَ النّارُ، أو: لمسَّتْك النّارُ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمر رضي الله عنهما: جاء رجلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كم نعفو عن الخادم؟ فصَمَت، ثمّ أعاد عليه الكلامَ، فصَمَت، فلمّا كان في الثّالثة قال: «اعفوا عنه في كلِّ يومٍ سبعينَ مرّةً»[3].

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾

٥٩ ـ قال سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ لقومِه: إنكم تعلَمونَ جيِّدًا أنّ اللهَ تعالى قد

---

(١) الترمذي، أبواب الأدب، باب ٥٤ برقم ٢٨١٩.
(٢) أبو داود، كتاب الأدب، باب ١٢٣ برقم ٥١٥٩.
(٣) أبو داود، كتاب الأدب، باب ١٣٣ برقم ٥١٦٤.

أَنْعم عليكم بنِعَمٍ متنوِّعة، على سَبيل المثال: الأنعامُ والأولادُ والحدائقُ وعيونُ الماء وغيرُها، ولهذا ينبغي لكم أن تشكروه وترجِعوا عن عصيانِه.

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾

٦٠ ـ وإن لم تَرجِعوا عن عصيانِ الله تعالى وجحودِه تكونونَ مستحِقِّينَ للعذابِ الإلهيِّ، ومن الممكنِ أن يَنزِلَ هذا العذابُ عليكم في الدُّنيا، وإلّا فلن يستطيعَ مجرمٌ أن يُفلتَ من العقابِ في الآخِرة، وعليه قال له قومُ عاد: إنّنا نسيرُ على نفسِ الطريقِ الذي سار عليه آباؤنا وأجدادنا من قرونٍ، وسواءٌ أنذرتَنا بالعذابِ الإلهيِّ أم لم تُنذِرْنا به، فإنّنا لا نخشَى أيَّ عذاب؛ لأنّ كثيرًا من المرشدينَ الدِّينيِّينَ من قبلِك قد هدَّدوا آباءنا وأجدادَنا بمثلِ هذه التهديداتِ، ولم ينزِلْ عليهم أيُّ عذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾

٦١ ـ عندَما أصرَّ هؤلاءِ على تكذيبِ سيّدِنا هودٍ عليه السَّلام أتاهم طُوفانٌ من الرِّيح العاصفِ استمرَّ ثمانيةَ أيام دمَّر كلَّ شيء، وصارت جُثثُ هؤلاءِ القوم كأنّها جذوعُ نَخْل مقطَّعةٌ متناثرةٌ على الأرض.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

٦٢ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ الآياتِ من ١٤١ إلى ١٤٥ راجع تفسيرَ الآياتِ من ١٠٥ إلى ١٠٩.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴾:

٦٣ ـ حذَّرَ سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ قومَه قائلًا: لقد أَنْعم اللهُ تعالى عليكم بالحدائقِ والحقولِ وعيونِ الماء والقصورِ الشامخةِ كالجبال، لكنْ تذكَّروا أنكم لن تعيشوا هنا للأبد، وأنكم يومًا ما ستُترَكونَ هذه النِّعمَ كلَّها وتُدفَنونَ في باطنِ الأرض.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

٦٤ ـ لهذا عليكُم أن تشكُروا اللهَ تعالى وتطيعوني لتنالوا رضا الله تعالى، ولا تتَّبِعوا أولئك المفسِدينَ الذين يتجاوزونَ الحدود.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

٦٥ ـ قالوا لسيِّدنا صالح عليه السَّلامُ: من المؤكَّدِ أنّ أحدًا سَحَرك! وهو ما جَعَلَك تدَّعي النُّبوةَ، معَ أنك بشَرٌ مِثلُنا، فكيف يمكنُ أن تكونَ نبيًّا؟ ولو أنك صادقٌ في دعواك فعليكَ أن تُريَنا معجِزةً.

﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

٦٦ ـ يقولُ سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: «قالوا: إن كنتَ صادقًا فادعُ اللهَ يُخرِجْ لنا من هذا الجَبل ناقةً حمراءَ عَشْراءَ فتضَعُ ونحن نَنظُر، وتَرِدُ هذا الماءَ فتشربُ وتغدو علينا بمثلِه لبنًا. فدعا اللهَ و فَعَل اللهُ ذلك»[1].

---

(١) تفسير القرطبي.

وعليه قال سيّدُنا صالحُ عليه السَّلام: هذه الناقةُ دليلٌ وآيةٌ على نُبوَّتي، فاتْرُكوها حُرّةً، وستشربُ هذه الناقةُ وحدَها يومًا، وتشربونَ أنتم وأنعامُكم في اليوم التالي، لكنْ تذكَّروا أنْ لا تؤْذوا هذه الناقةَ وإلّا نزَل عليكمُ العذاب.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴾

٦٧ ـ حين أَخْرج اللهُ تعالى الناقَة من الصَّخرة آمَن بعضُ الناسِ بسيّدِنا صالح عليه السَّلامُ لمَّا رأَوْا هذه المعجزةَ، لكنّ عِليةَ القوم المتكبِّرينَ رَفضوا الإيمانَ، وتآمَروا على الناقة وذَبَحوها، وقالوا لسيّدِنا صالح عليه السلام: لقد أهلَكْنا الناقةَ، فأْتِنا بالعذاب الذي كنتَ تهدِّدُنا به فيما لو آذَيْناها، وعليه قال لهم سيّدُنا صالحُ عليه السَّلام: سيأتيكمُ العذابُ بعدَ ثلاثة أيام. وحينَ بدَأَتْ آثارُ نزولِ العذابِ في الظهورِ أخَذوا يُبدُونَ ندمَهم على ما فَعَلوا، ولكنْ لا فائدةَ من النَّدَم والتوبةِ بعدَ ظهورِ علاماتِ العذاب، وهكذا أصابَهم زِلزالٌ شديدٌ معَ صاعقةٍ أهلَكَت كلَّ أولئك المتكبِّرينَ المُنكِرين.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

٦٨ ـ للتعرُّف على تفسيرِ الآيات من ١٦٠ إلى ١٦٤ راجعْ تفسيرَ الآياتِ من ١٠٥ إلى ١٠٩.

﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

٦٩ ـ فِعلُ رجلٍ الفاحشةَ معَ رجلٍ آخَر ابتدَأَه قومُ لوط، ولهذا أُطلِق على هذا الفعل «اللِّواط»، قال لهم سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام: تترُكونَ زوجاتِكم المحلَّلةَ لكم وترتكبونَ الفاحشةَ معَ رجالٍ مِثلِكم؟ إنه أمرٌ مخالفٌ للفِطرةِ ومُتجاوزٌ لكلِّ الحدودِ الإنسانيَّة، والحَيواناتُ أيضًا تَدخُلُ ضمنَ «العالَمين»، ولذا يُعلَمُ منه أنّ مِثلَ هذا الفعلِ السيِّئِ لا يرتكبُه حتى الحَيوانُ.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾

٧٠ ـ قالوا: دَعْنا وشأنَنا، وإن لم تَرجِعْ عن مَنْعِنا فسوف نَطرُدُك من بلادِنا، وعليه قال سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلام: افعَلوا ما شئتُم ضدِّي، لكنّ هذا الفعلَ الذي ترتكبونَ حرامٌ وكريهٌ، ومَنْعُكم منَ ارتكابِه فَرْضٌ علَيَّ.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾

٧١ ـ عندما تيقَّنَ سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ من أنّ هؤلاءِ الناسَ لن يَرجِعوا عن ارتكابِ الفحشاءِ، وأنّ العذابَ لا بدَّ نازلٌ عليهم، عندَئذٍ دعا اللهَ قائلًا: يا إلهي، نجِّني أنا وأهلَ بيتي من هذا العذابِ الذي سيَنزِل، وهكذا حينَ حانَ وقتُ العذاب أَخْرج اللهُ تعالى سيّدَنا لوطًا عليه السلام وأهلَ بيتِه من هناك، لكنّ العجوزَ زوجةَ سيّدنا لوطٍ عليه السَّلامُ تخلَّفت عنهم؛ لأنّها كانت كافرةً، وأهلَكَها اللهُ تعالى معَ الكفّارِ الآخَرين.

﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾

٧٢ ـ أَنْذَرهم سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ وخوَّفَهم من أنّهم إن لم يَرجِعوا عن هذا الفعل القبيح فسيَنزِلُ العذابُ عليهم، وعندَما حان وقتُ العذابِ دَمَّر اللهُ

تعالى قُراهم كلَّها وقَلَبَها رأسًا على عَقِب، ثم أَمطَرهم بعدَ ذلك بأمطارٍ متواصلةٍ من الحجارة بحيث هَلَك الكُفّارُ جميعًا، مثلَما ذُكِر في الآية رقم ٨٢ و ٨٣ من سُورة هُود (١١).

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

٧٣ ـ للتعرُّف على تفسيرِ الآيات من ١٧٦ إلى ١٨٠ راجعْ تفسيرَ الآياتِ من ١٠٥ إلى ١٠٩.

﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾

٧٤ ـ كان هؤلاءِ مشركينَ، وكانوا يُطفِّفونَ في الموازين، فقال لهم سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلام: أَتِمُّوا المَوازينَ، ولا تَنقُصوا فيما تَزِنونَ للناس من أشياءَ وتخدعوهم، ولا تنشُروا الفسادَ في أرضِ اللهِ تعالى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

٧٥ ـ مِن معاني «الجِبِلّة»: المخلوقُ، يعني: اتَّقوا اللهَ تعالى الذي خَلَقَكم وخَلَقَ مَن قبلَكم، والمعنى الثاني للفظِ «الجِبِلّة» هو: الفِطرةُ، يعني: العادةَ المتأصِّلَة داخلَ الفِطرةِ ولا تنفصلُ عنها، وباعتبارِ المعنى الثاني يكونُ معنى هذه الآية هو: اتَّقوا اللهَ الذي خَلَقَكم وخَلَقَ فِطرةَ الذين مِن قبلِكم.

يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: بينَما نحن عندَ رسولِ الله ﷺ نتذاكَرُ ما يكونُ، إذْ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سَمِعتُم بجَبَلٍ زال عن مكانِه، فصَدِّقوا، وإذا سمِعتُم برجُلٍ تغيَّر عن خُلُقِه، فلا تُصدِّقوا به، وإنّه يصيرُ إلى ما جُبِل عليه»[1]، والحديثُ سنَدُه صحيح.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

٧٦ ـ قالوا لسيّدِنا شُعَيبٍ عليه السَّلام: من المؤكَّد أنّ شخصًا ما قد سَحَرَك، وهو ما جَعَلَك تدَّعي النُّبوةَ، معَ أنك بشَرٌ مِثلُنا، فكيف تكونُ نبيًّا؟ ولهذا فإنّنا نعتقدُ أنك كاذبٌ.

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

٧٧ ـ واصَلَ سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ دعوتَه ضدَّ خيانتِهم في الموازين، وحذَّرهم قائلًا: إنْ لم تعودوا عن هذه الخيانةِ فمنَ الممكنِ أن يَنزِلَ العذابُ عليكم، وبدَلًا من أن يَرجِعوا عن خِداعهم هذا قالوا: إنّنا لا نُطيعُ ما تقول، وإن كنتَ نبيًّا حقًّا فأسقِطْ علينا من السماءِ ما تريدُ، وعليه قال لهم سيّدُنا شُعَيبٌ عليه

---

(١) مسند أحمد، ٦: ٤٤٣، ومجمع الزوائد، ٧: ١٩٦.

السلام: إنزالُ العذابِ ليس من عمَلي، وإنّما عمَلي هو تحذيرُكم من العذاب، وربِّي يَعلَمُ تمامَ العِلم ما تفعَلونَ، وسيُنزِلُ العذابَ عليكم في الوقتِ المناسب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

٧٨ ـ عندَما تجاوَزوا كلَّ حدٍّ في تكذيبِ سيّدِنا شُعَيبٍ عليه السَّلام، ظَلَّل اللهُ تعالى عليهم ظُلّةً من السَّحابِ أمطرَتْهم نارًا، فاحتَرقَ المنكِرونَ جميعًا واستحالوا رمادًا.

لقد أُرسِل سيّدُنا شُعيبٌ عليه السَّلامُ إلى قومَيْنِ مختلفَيْن، أحدُهما: أهلُ مَدْيَن، والآخَر: أهلُ الأَيْكة، وكان هذانِ القومانِ يخُونانِ في الموازين، فأهلَكَ أهلَ مَدْيَنَ بالزِّلزالِ والصَّيحة، وأهلَكَ أهلَ الأَيْكةِ بالسُّحُبِ التي أمطَرتْ نارًا فأحرقَتْهم.

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾

تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٧٩ ـ كان كُفّارُ مكّةَ يعتقدونَ أنّ القرآنَ المَجيدَ ليس كلامَ اللهِ تعالى، فأوضَحَتْ هذه الآيةُ أنّ اللهَ تعالى هو الذي أنْزل القرآنَ الكريمَ، ودليلُ ذلك: أنّ فيه بيانًا للأحداثِ التي وَقَعتْ معَ الأنبياءِ السّابقينَ عليهمُ السَّلام، هذه الأحداثُ لم يسمَعْ عنها النبيُّ ﷺ من أيِّ مرشدٍ ديني، ولم يقرَأْها في أيِّ كتابٍ سابق، وإنما أطلَعه اللهُ تعالى عليها عن طريقِ الوحي.

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

٨٠ ـ في هذه الآية أُطلِقَ على سيِّدِنا جِبريلَ عليه السَّلام اسمُ «الرُّوح الأمين»، فالرُّوحُ لأنّ جميعَ الملائكةِ نُورانيُّونَ رُوحانيُّون، أي: منزَّهُونَ عن الأجسام الماديَّة، والأمينُ: لأنّ اللهَ تعالى جعَلَه أمينًا على ألفاظِ القرآن الكريم، وقد أوصَلَ هذه الألفاظَ بكلِّ أمانةٍ إلى قلبِ النبيِّ ﷺ الطاهر.

يقول العلّامةُ إسماعيلُ حقيّ: «﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي: تَلاه عليكَ يا محمَّدُ حتى وعَيْتَه بقلبِك، فخَصَّ القلبَ بالذِّكر لأنه محَلُّ الوعي والتثبيتِ ومعدِنُ الوحي والإلهام، وليس شيءٌ في وجودِ الإنسان يليقُ بالخطابِ والفَيْض غيرُه، وهو عليه السَّلام مختصٌّ بهذه الرُّتبة العَلِيّة والكرامةِ السَّنِيَّة من بينِ سائرِ الأنبياءِ، فانّ كتُبَهم منزَّلةٌ في الألواح والصحائفِ جُملةً واحدةً على صورتِهم، لا على قلوبِهم»[1].

---

(١) تفسير روح البيان.

كم مرةً نزل فيها جبريل الأمين على النبي ﷺ؟

نقَلَ العلّامةُ إسماعيلُ حقّي عن «الفتاوى الزَّينيّة» قائلًا: «سُئل عن السيِّد جِبريلَ: كم مرّةً نَزَل على النبيِّ عليه السَّلام؟ أجاب: نَزَل عليه أربعةً وعشرينَ ألفَ مرةٍ على المشهور. انتهى. وفي «مِشكاة الأنوار»: نَزَل عليه سبعةً وعشرينَ ألفَ مرّة، وعلى سائر الأنبياءِ لم يَنزِلْ أكثرَ من ثلاثةِ آلافِ مرة»[١].

ونقَلَ الإمامُ القَسْطَلانيُّ عن «تفسيرِ ابن عادل»، أنّ «جِبريلَ ـ عليه السَّلامُ ـ نَزَل على النبيِّ ﷺ ـ أربعةً وعشرينَ ألفَ مرّةٍ، ونَزَل على آدمَ اثنتَيْ عشْرةَ مرّةً، وعلى إدريسَ أربعَ مرّات، وعلى نُوح خمسينَ مرّةً، وعلى إبراهيمَ اثنتَيْنِ وأربعينَ مرّةً، وعلى موسى أربعَمائةِ مرَّة، وعلى عيسى عشْرَ مرّات»[٢].

الجهاتُ البَشريّةُ والنُّورانيَّةُ للنبيِّ ﷺ:

يقولُ العلّامةُ سيِّد محمود الآلُوسيُّ: «كان له صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم جهتانِ: جهةٌ مَلَكيّة يَستفيضُ بها، وجهةٌ بشَريّةٌ يُفيضُ بها»[٣].

ويقولُ الإمامُ الأصفَهانيُّ في أوائل تفسيرِه: «اتَّفق أهلُ السُّنّة والجماعةِ على أنّ كلامَ الله تعالى منزَّلٌ واختَلَفوا في معنى الإنزال، فمنهم من قال: إظهارُ القراءة، ومنهم من قال: إنّ اللهَ تعالى ألهَمَ كلامَه جِبريلَ عليه السَّلامُ وهو في السّماءِ وعلَّمه قراءتَه ثم جِبريلُ أدَّاه في الأرضِ وهو يَهبِطُ في المكانِ، وفي ذلك طريقتانِ، إحداهما: أنّ النبيَّ ﷺ انْخَلع من صورةِ البشَريّة إلى صُورةِ المَلَكيّة وأخَذَه من

---

(١) تفسير روح البيان.

(٢) المواهب اللدنية، مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ١: ٢١٠.

(٣) تفسير روح المعاني.

جِبريلَ عليه السَّلام، وثانيتُهما: أنّ المَلَكَ انْخَلع إلى البشَريّة حتى يأخُذَه النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم منه»[1].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾

٨١ ـ أُنزِل القرآنُ المَجِيدُ بلغةٍ عربيّةٍ واضحة، حتى لا يحتجَّ العربُ بأنّهم لا يفهَمونَ لغةَ الوحي، ومنه يَظهَرُ فضلُ اللُّغة العربيّة أيضًا؛ لأنّ اللهَ تعالى أَنْزل القرآنَ الكريمَ باللُّغة العربيَّة، وستكونُ لغةُ أهل الجنّةِ هي العربيّةَ مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: «أحِبُّوا العربَ لثلاثٍ؛ لأني عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ (لسانُ) أهلِ الجنّة عربيٌّ»[2].

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

٨٢ ـ القرآنُ المَجِيدُ ليس كتابًا غيرَ معروف، وإنّما وَرَد ذِكرُ القرآنِ الكريم وصاحبِ القرآنِ الكريم في الكتُبِ السَّماويّةِ السّابقة أيضًا، حتى أنّ التعاليمَ الأساسيّةَ للقرآنِ المَجِيد، أي: التوحيدَ والآخِرةَ وغيرَهما موجودةٌ في الكتُبِ السّابقة كذلك.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

٨٣ ـ يَعرِفُ علماءُ بني إسرائيلَ جيّدًا أنّ هذا هو الكتابُ، وهذا هو الرَّسولُ الذي وَرَد ذِكرُه في الكتُبِ السَّماويةِ السّابقة، وقد تأكّد أهلُ مكّةَ من هذه الحقائق عن طريقِ علماءِ اليهود، ألم تكن شهادةُ علماءِ اليهودِ هذه كافيةً لأهل مكّةَ؟

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) المستدرك، ٤: ٩٨، وكنز العمال، برقم ٣٣٩٢٢.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾

٨٤ ـ أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، عندَما تَتْلو القرآنَ على كُفّارِ مكّةَ فإنّهم يُنكرونَه قائلين: إنّ هذا ليس كلامَ الله تعالى، وإنّما هو كلامُك أنت، ولو أنّنا أنْزلنا هذا الكلامَ على شخصٍ غيرِ عربيّ، وتلاه عليهم بلُغةٍ عربيّةٍ فصيحة، لَأنكرَه هؤلاءِ الكُفّارُ متذرِّعينَ بذريعةٍ أخرى، والحقيقةُ أنّ تعاليمَ القرآنِ الكريم تخالفُ عقائدَ آبائهم وأجدادِهم، ولهذا أيًّا من كان مُبلِّغُ القرآنِ، فإنّهم لن يؤمنوا به.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

٨٥ ـ ترسَّخ إنكارُ القرآنِ الكريم في قلوبِ الكُفّارِ إلى درجةِ أنّهم لن يؤمنوا به ما لم يَرَوا العذابَ الأليم، لكنّ الإيمانَ بعدَ رؤيةِ العذابِ لن يكونَ مقبولًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ [غافر: ٨٥].

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾

٨٦ ـ والآنَ يقولُ الكُفّارُ: إن كنتَ صادقًا فيما تهدِّدُنا به من عذابٍ بسببِ إنكارِنا، فلمَ لا يَنزِلُ علينا هذا العذابُ؟ ولكنْ عندما يَنزِلُ العذابُ عليهم بَغْتةً سيقولونَ فزِعينَ مرعوبينَ: أمهِلْنا قليلًا، وسنتوبُ توبةً صادقةً ونؤمن، لكنّ الإيمانَ بعدَ رؤيةِ العذابِ لا يفيدُ بشيء.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾

٨٧ ـ لو تمَّ تأخيرُ العذابِ عن العُصاةِ والمجرِمين، وأمهَلْناهم بضعَ سنينَ في هذه الدُّنيا ليستمتعوا بمالِها ومتاعِها، فإنّ كلَّ ما في هذه الدُّنيا من متاع لن يستطيعَ أن يفيدَهم بشيءٍ حين يَنزِلُ عليهمُ العذابُ بسببِ عصيانِهم، بل إنّهم

بقَدْرِ ما يرتكبونَ من عصيانٍ معَ طولِ الفترة في هذه الدُّنيا، بقَدْرِ ما يزيدُ ذلك في عذابِهم.

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾

٨٨ ـ إنّ سُنّةَ الله تعالى الطيِّبةَ منذُ البداية هي أنه أرسَلَ إلى كلِّ منطقةٍ أُناسًا مختارونَ منهم، يحذِّرونَهم من عذابِ الله تعالى، ويُذكِّرونَهم بأنّكم إن عصَيْتُم سيَنزِلُ العذابُ عليكم، وبعدَ هذا التحذيرِ فإنّ الأُمّةَ التي لا تختارُ طريقَ الهدايةِ يُهلِكُهم اللهُ تعالى لقاءَ إجرامِهم.

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾

٨٩ ـ كان كُفّارُ مكّةَ يعتقدونَ أنه مثلَما تنزَّلُ الشّياطينُ على الكَهَنة، وتأتيهم بخبرِ السماء، فإنّ الشَّياطينَ أيضًا هي التي تنزَّلُ على سيّدِنا محمدٍ ﷺ والعياذُ بالله، ويأتونَه بهذا الكلام، وقد جاء الردُّ على هذا في هذه الآياتِ الثلاث، بأنّ الشَّياطينَ ليس في مقدرتِهم أصلًا الإتيانُ بمثلِ هذا الكلام؛ لأنّ هدفَ الشّياطينِ ـ في الأصل ـ هو نشْرُ الفسادِ والشرِّ، بينَما مهمّةُ القرآنِ الكريم هي الدَّعوةُ إلى الخيرِ والسلام، كما أنّ الشّياطينَ لم يكنْ لهم أيُّ دخْلٍ في أيِّ مرحلةٍ من مراحلِ نزولِ القرآن الكريم، وحيثُما أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ على سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ في العالَم العُلْويِّ، لا تستطيعُ الشَّياطينُ الوصُولَ إلى هناك، ولئن حاولوا الوصُولَ هناك لَسقطتْ عليهم النُّجومُ في صُورةِ صواعقَ، وأجبَرتْهم على العودةِ من حيث جاءوا، وفي العالَم الدُّنيَويِّ حيثما أَنْزلَ سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ القرآنَ الكريمَ على سيّدِنا محمدٍ ﷺ، كان يتِمُّ إبعاد الشّياطينِ بحيث لا يستطيعونَ سَماعَ القرآنِ الكريم، ولكنْ عندَما نَزَل القرآنُ الكريمُ على قلبِ النبيِّ ﷺ وحفِظَه اللهُ تعالى فيه،

عندَئذٍ ليسمَعه الشَّياطينُ كما يُحِبُّون؛ لأنّهم لم يعُدْ باستطاعتِهم التدخُّلُ فيه عندَئذٍ، كما أنّ الشَّياطينَ لا طاقَة لهم على تحمُّل نزولِ القرآنِ الكريم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾

٩٠ ـ النبيُّ الكريمُ ﷺ معصومٌ دائمًا من الشِّركِ ومن الذُّنوب، ولهذا فإنّ الخطابَ في هذه الآية رَغْم مجيئه للنبيِّ ﷺ، لكنّه ـ في الحقيقة ـ يُقصَدُ به الآخَرونَ حتى يبتعدوا عن الشِّركِ ويتجنَّبوه.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾

٩١ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى نبيَّنا الحَبيبَ محمدًا ﷺ نبيًّا إلى الناسِ كافةً، ولكنّ دعوتَه ﷺ تشتملُ على ثلاثِ مراحلَ، في المرحلةِ الأولى: دعا أقاربَه، وفي المرحلةِ الثانية: دعا أهلَ الجزيرةِ العربيّة، وفي المرحلةِ الثالثة: دعا البلادَ الأخرى.

في هذا الترتيبِ جاء الأقاربُ أولًا؛ لأنّهم مقدَّمونَ في المعروفِ، وهكذا صَعِدَ النبيُّ ﷺ إلى جبل الصَّفا ودعا أقاربَه أولًا، فلمَّا اجتمَعوا إليه قال لهم: لو أنّي أخبرتُكم أنّ جيشًا جَرّارًا يأتيكم من خَلْفِ هذا الجَبل (وهو في طريقهِ لأنْ يهاجمَكم)، أكنتم مصَدِّقيَّ؟ فقالوا جميعًا: إنّنا لم نعهَدْ عليك كذبًا أبدًا، لهذا سنُصدِّقُك. فقال لهم ﷺ: فأنا أُنذرُكم (إنْ لم تَرجِعوا عن شركِكم) من عذابٍ شديد، وهنا قال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتَنا؟ ثم هَبّ واقفًا، وهنا نَزَلتْ هذه الآية ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][1]، ويُعلَمُ منه أنّ على الإنسانِ أن يدعوَ أولًا أقاربَه الأقربين، مثلَما قال اللهُ

---

(١) عن ابن عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: لمّا نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك =

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

٩٢ - في هذه الآيةِ الكريمة جاء الأمرُ إلى النبيِّ ﷺ أنْ تعامَلْ معَ أهل الإيمان بالشَّفقةِ والرَّحمة واللِّين، معَ أنّ النبيَّ ﷺ كان يتَّصفُ حتى قبلَ البَعْثةِ النَّبويّةِ بقمّةِ الشَّفقةِ والرَّحمة، والحقيقةُ أنّ هذه الآيةَ تقصِدُ إلى ترغيبِ الحُكّام والمسئولينَ في أن يتعاملوا معَ رعاياهم بالشَّفقةِ والرَّحمةِ واللِّين، حتى يشعُرَ الناسُ بسعادةٍ في طاعتِهم.

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

٩٣ - فإنْ عصَى هؤلاءِ برَغْم شفَقتِك ورحمتِك، فتوكَّلْ على الله تعالى، وأوضِحْ لهم أنك بريءٌ من أعمالِهم السيِّئة، حتى يشعُروا بسيِّئاتِهم ويرجِعوا عنها.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

٩٤ - اللهُ تعالى رحيمٌ بكَ غايةَ الرَّحمة، وعيونُ رحمتِه موجَّهةٌ إليكَ في كلِّ حين، سواءٌ كنتَ تقفُ وحدَك، أم تتجوَّلُ بينَ المصلِّين.

إيمان والدي النبي ﷺ:

وهناك تفسيرٌ آخَرُ لهذه الآية أيضًا، وهو: أنّ آباءَ النبيِّ ﷺ وأجدادَه من سيّدِنا

= منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتّى صعد الصّفا فهتف: «يا صباحاه»، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه. فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ؟»، قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا. قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ»، قال أبو لهبٍ: تبًّا لك! ما جمعتنا إلّا لهذا؟ ثمّ قام فنزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ وقد تبّ، هكذا قرأها الأعمش يومئذٍ. البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المسد (١١١): برقم ٤٩٧١.

آدَم عليه السَّلامُ وحتى والدتِه السيّدةِ آمنةَ رضي اللهُ عنها ووالدِه سيّدِنا عبد الله رضي الله عنه كانوا مؤمنينَ، وحين كان نُورُه ﷺ ينتقلُ من أصلابِ آبائه وأجدادِه، كانت عينُ رحمةِ الله تعالى تنظُرُ إليه وترعاهُ، ولهذا يقولُ العلّامةُ الآلوسيُّ: «عنِ ابن عبّاسٍ أيضا، إلّا أنه رضي اللهُ تعالى عنه فسّر التقلُّبَ فيهم بالتنقُّلِ في أصلابِهم حتى وَلَدتْه أُمُّه عليه الصَّلاةُ والسلام، وجَوَّزَ على حَمْل التقَلُّب على التنقُّل في الأصلابِ أن يرادَ بالساجدينَ: المؤمنونَ، واستَدلَّ بالآيةِ على إيمانِ أبوَيْه صلّى اللهُ تعالى عليه وسلَّم كما ذَهَب إليه كثيرٌ من أجِلّةِ أهل السُّنّة»[1]، وإليك هذَيْنِ الحديثَيْنِ الشريفَيْنِ في تأييدِ ما قاله العلّامةُ الآلُوسيِّ:

ـ أَخْرج ابنُ مِردَوْيه، عن ابن عبّاس، قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: بأبي أنت وأُمِّي، أين كنتَ وآدمُ في الجنّة؟ فتبسَّم حتّى بَدَت نَواجِذُهُ ثمّ قال: «إنّي كنتُ في صُلبه، وهَبَط إلى الأرضِ وأنا في صُلبِه، ورَكِبتُ السّفينَةَ في صُلبِ أبي نوح، وقُذِفتُ في النّارِ في صُلبِ أبي إبراهيمَ، ولم يلتقِ أبوايَ قطُّ على سِفَاح، لم يَزَلِ اللهُ ينقُلُني من الإصلابِ الطَّيِّبة إلى الأرحام الطاهرة مصَفًّى مهذَّبًا لا تتشعَّبُ شُعبتانِ إلّا كنتُ في خيرِهما»[2].

ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: خَطَب رسولُ الله ﷺ، فقال: «ما افترقَ النّاسُ فِرقتَيْنِ إلّا جعَلَني اللهُ في خيرِهما. فأُخرِجتُ من بينِ أبوَيْنِ، فلم يُصِبْني شيءٌ من عُهرِ الجاهليّة. وخَرَجتُ من نِكاحٍ، ولم أَخرُجْ من سِفَاحٍ، من لدُنْ آدمَ، حتّى انتَهَيتُ إلى أبي وأُمّي، فأنا خيرُكم نفسًا، وخيرُكم أبًا»[3].

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) دلائل النبوة، الإمام البيهقي، ١: ١٧٤.

إيذاء النبي ﷺ:

بعدَ فتح مكّةَ كان سيّدُنا عِكرِمةُ رضيَ اللهُ عنه بنُ أبي جَهْل كلَّما مرَّ بمجلسٍ من مجالسِ الأنصار، قالوا: هذا ابنُ أبي جَهْل، فسُبُّوا أبا جهل، فشَكَا ذلك عِكرمةُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «لا تُؤْذوا الأحياءَ بسبِّ الأموات»[1].

لقد تأذَّى سيّدُنا عِكرِمةُ رضي اللهُ عنه من سبِّ أبيه وقولِهم عنه: إنه كافر، فمن المؤكَّدِ إذًا أنّ القولَ عن والدَي النبيِّ ﷺ: إنّهما كافرانِ أمرٌ يؤْذي النبيَّ ﷺ غايةَ الإيذاء، ولاحِظْ ماذا يقولُ اللهُ تعالى عمن يؤْذي النبيَّ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾

٩٥ ـ كان الكُفّارُ يعتقِدونَ أنّ الشَّياطينَ تنزَّلُ بالقرآنِ على النبيِّ ﷺ، فأَخْبر اللهُ تعالى في الآياتِ من ٢١٠ إلى ٢١٢ ردًّا على هذا الادِّعاءِ قائلًا: إنّ الشّياطينَ لا تستطيعُ الاقترابَ من النبيِّ ﷺ في أيِّ مرحلةٍ من مراحلِ نزولِ القرآنِ المَجيد، وفي هذه الآياتِ الثلاث هنا قال اللهُ تعالى: إنّ الشياطينَ تنزَّلُ على أولئك الذين يكذِّبونَ ويرتكبونَ السُّوءَ، وهؤلاء الكذَّابونَ من الناسِ هم الذين يستمِعونَ بتمعُّنٍ إلى كلام الشّياطين، ثم يُضيفونَ إليه مَزيدًا من الكذبِ من عندِ أنفُسِهم، لكي يزيدوا في الفتنةِ والفساد.

ويُعلَمُ منه أنّ الشّياطينَ تنزَّلُ على الناس، في حينَ أنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ

---

(١) كنز العمال، ١٣: ٥٤٠ برقم ٣٧٤١٧.

صِدِّيقونَ، ونبيُّنا الحبيبُ ﷺ صادقٌ أمينٌ إلى درجةٍ شَهِد له بذلك الأعداءُ، ولذا فإنّ الشّياطينَ لا تنزَّلُ على الأنبياءِ، وإنّما تَنزَّلُ عليهم الملائكةَ.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾

٩٦ ـ كان الكُفّارُ يتّهمونَ النبيَّ ﷺ بأنه شاعرٌ، وأنه ليس في القرآنِ سوى أَخْيلةٍ شِعريّةٍ لا علاقةَ لها بالحقيقةِ من قريبٍ أو بعيد، فأَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ ردًّا على هذا الاتِّهام بأنّ الشُّعراءَ في غالبِ الأحيان يقولونَ ما لا يفعَلون، ويستعمِلونَ كلَّ وسيلةٍ لكسبِ المالِ والشُّهرة، بصَرْفِ النظرِ عن كونِها وسيلةً محرَّمةً أو حلالًا، وكثيرًا ما يَتيهُونَ في أَوْديةِ الإفراطِ والتفريط، والمتَّبعونَ للشُّعراءِ أكثرُهم من الضّالِّين، في حينَ أنّ ما يقولُه النبيُّ ﷺ يعمَلُ به أولًا، والمتَّبعونَ له ﷺ جادُّونَ على طريقِ الحقِّ والصِّدق، ويبذُلونَ قُصارى جُهدِهم ضدَّ الضَّلال.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾

٩٧ ـ يقولُ العلّامةُ سيِّد محمود الآلُوسيُّ: «لمّا نَزَلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ الآيةَ، جاء عبدُ الله بنُ رَواحةَ وحسّانُ بن ثابتٍ وكعبُ بن مالكٍ وهم يبكُونَ، فقالوا: يا رسولَ الله، لقد أَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ وهو يَعلَمُ أنّا شُعراءُ، هلَكْنا! فأَنْزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلخ، فدعاهم رسولُ الله ﷺ فتلاها عليهم»[1]. وهذا يعني أنّ الشُّعراءَ الذين جاء ذَمُّهم في الآياتِ السابقة هم أولئك الشُّعراءُ الذين لا يَميزونَ بينَ الحقِّ والباطل، ويَتيهُونَ في أَوْديةِ الإفراطِ والتفريطِ طلبًا للمصالح الدُّنيَويّة، ولهذا مَنَع النبيُّ ﷺ من حِفظِ وسَماعِ أشعارِ أمثالِ هؤلاء، أمّا أنتم فقد رَددتُم بشِعرِكم على اعتراضاتِ الكفّارِ على القرآنِ وصاحبِ القرآن، ولهذا فإنّ شِعرَكم يستحِقُّ الثناءَ، والشِّعرُ لا يكونُ بذاتِه سيِّئًا طالما لم يشتملْ على أفكارٍ وأَخْيلةٍ سيِّئة.

---

(١) تفسير روح المعاني.

بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بالأشعار

ـ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: ذُكِر عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم الشِّعرُ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هو كلامٌ، فحسَنُه حسَنٌ وقبيحُه قبيحٌ»(١).

ـعن سيّدِنا أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ مِنَ الشِّعر حِكمةً»(٢).

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ الله عنها: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لحسّانَ: «إنّ رُوحَ القُدُس لا يزالُ يؤيِّدُك ما نافَحْتَ عن الله ورسولِه». وقالت: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هَجاهم حسَّانُ فشفَى واشتَفَى»(٣).

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: كان رسولُ الله ﷺ يضَعُ لحسّانَ مِنبَرًا في المسجدِ يقومُ عليه قائمًا يُفاخرُ عن رسولِ الله ﷺ ـ أو قال: ينافحُ عن رسولِ الله ﷺ ـ ويقولُ رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ يؤيِّدُ حسّانَ برُوح القُدُس ما يُفاخرُ أو يُنافحُ عن رسولِ الله ﷺ»(٤).

ـ قال سيّدُنا كعبُ بنُ مالكٍ الأنصاري للنّبيِّ ﷺ: إنّ اللهَ عزَّ وجلّ قد أَنْزل في الشِّعرِ ما أَنْزل، فقال: «إنّ المؤمنَ يجاهدُ بسيفِه ولسانِه، والّذي نفسي بيدِه، لكأنّ ما ترمُونَهم به نَضْحُ النَّبْل»(٥).

---

(١) سنن الدارقطني، كتاب المكاتب، باب خبر الواحد يوجب العمل، ٤: ١٥٥.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٩٠ برقم ٦١٤٥.

(٣) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ٣٤ برقم ٦٣٩٥.

(٤) سنن الترمذي، أبواب الأدب، باب ٧٠ برقم ٢٨٤٦.

(٥) مسند أحمد، ٦: ٣٨٧، وصحيح ابن حبان، كتاب فضائل الصحابة، المجلد الخامس: ٣٨٢ برقم ٥٧٩٥.

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾

٩٨ ـ في النِّهاية حذَّر اللهُ تعالى الكُفّارَ من أنه عندَما تقومُ القيامةُ قريبًا، فستعلمونَ حينَ ترَوْنَ نارَ جهنَّم أنكم كنتُم ظالمينَ غايةَ الظُّلم، وأنكم كنتُم تفترونَ كذبًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده
فندق بلازا التابع للأُمم المتحدة بنيويورك
الطابق الحادي والثلاثون، حجرة رقم ٣١٠٨
يوم الجمُعة ١٥ مايو ٢٠٠٩م
الموافق ٢٠ جُمادى الأولى ١٤٣٠هـ.

ـ انعقَد المؤتمرُ الدَّولي للأديان من ١٥ إلى ١٧ مايو ٢٠٠٩م في فندق بلازا التابع للأُمم المتحدة، والواقع أمام مبنى الأُمم المتحدة الشاهقِ بنيويورك، وقد دعَتْني بريطانيا لإلقاءِ خطابٍ في هذا المؤتمر، وهكذا وصَلتُ أنا وابني جُنَيد بِيرْزاده وتلميذي العلّامةُ حافظ جُلّ محمد إلى نيويوركَ في الثالثَ عشَرَ من مايو، حيث استقبَلَنا في المطار المحترم سيّد مِير حُسَين شاه والعلّامة رضاءُ الدِّين صدِّيقي وآخرونَ من أبناءِ الطريقة، وأمضَيْنا الليلةَ الأولى في شقة شودهري نادر خان ببروكْلِن بنيويورك، وهناك وبعدَ صلاة فجرِ يوم الرابعَ عشَرَ من مايو أُتيحت لي فرصةُ كتابةِ تفسير الخمسِ آياتٍ الأولى من هذه السُّورة. وفي مساء الرابعَ عشَرَ من مايو انتقَلْنا إلى فندق يو إن بلازا، حيث من المقرَّر انعقادُ المؤتمر، ونزلتُ في حجرة رقم ٣١٠٨ بالطابق الحادي والثلاثين، بينَما نَزَل جُنيد بِيرْزاده والعلّامةُ حافظ جُلّ محمد في حجرة رقم ٣٠٢٨ من الطابق الثلاثين.

وبعدَ صلاة فجرِ يوم الخامسَ عشَرَ من مايو كتبتُ تفسيرَ الآياتِ الباقية من هذه السُّورة، ثم شاركتُ في المؤتمر من التاسعة صباحًا وحتى الثانيةَ عشْرَة ظهرًا، ثم خرجنا لصلاة الجمُعة بمسجد بيت الكرَم ببروكْلن، وعُدنا إلى الفندق بعدَ صلاة العصر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٧) سُورَةُ النَّمْلِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، وجاء فيها بيانٌ لواقعةِ النَّمل، وبسببِ ذلك أُطلِق عليها «سورةُ النَّمل».

مضامين السورة

- في بدايةِ هذه السُّورة جاء تعريفٌ بالقرآنِ المَجِيد بأنه ليس كلامَ بشَر، وإنّما أَنْزلَه الحكيمُ العليمُ على سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، وأنه كتابُ هداية، وفيه بُشرى للمؤمنين، لكنّ الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة، يقضُونَ حياتَهم منهمِكينَ في اتِّباع شهَواتِهم الدُّنيويّة فقط، ولا يستفيدونَ من تعاليم القرآنِ الكريم، ولهذا فإنّ هؤلاءِ في الآخِرة من الخاسرين.

- أعطَى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ المعجِزاتِ وأرسَلَه إلى الفِرعَون، وما أنْ رأى فِرعَونُ وقومُه هذه المعجِزاتِ حتى تأكَّد لهم أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ نبيٌّ صادقٌ، ولكنَّهم - بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم - أنكروه قائلينَ عن المعجِزات: إنّها سِحرٌ، وقد أَغْرق اللهُ تعالى فِرعونَ وقومَه في البحرِ بسببِ هذا التكبُّر والطُّغيان.

- لقد أصابَ فِرعونَ التكبُّرُ والغرورُ لمجرَّدِ أنه حَكَم مِصرَ، إلى درجةِ أنه

ادَّعى الأُلوهيّةَ، وعلى العكسِ من ذلك أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا سليمانَ بمُلكٍ أكبرَ من مُلكِ مِصرَ، بل إنّ اللهَ تعالى سَخَّر له الرِّيحَ والجنَّ والطَّيرَ جنبًا إلى جنبٍ معَ البَشر، وأَنْعم على واحدٍ من أُمّتِه بقوّةٍ استطاع بها أن يأتيَ بعرشِ بِلْقِيسَ في أقلَّ من طَرْفةِ عَيْن، لكنّ سيّدَنا سُليمانَ عليه السَّلامُ لم يغترَّ بهذا المُلكِ العظيم ولم يتكبَّرْ بسببِه، وإنّما ظلَّ يشكُر اللهَ تعالى عليه.

ـ أهلَكَ اللهُ تعالى قومَ ثمودَ بسببِ طُغيانِهم، وأمطَر قومَ لُوطٍ بالحجارةِ بسببِ سُوءِ سلوكِهم فأهَلَكهم ودمَّرهم.

ـ في الآياتِ من ٦٠ إلى ٦٤ بيَّن اللهُ تعالى بعضَ الأمثلة البسيطةِ على توحيدِه، يعني: أنّ اللهَ تعالى خَلَق الأرضَ والسّماءَ والجبالَ والبحارَ، وجَعَل لكم فيها وسائلَ للرِّزق، وبالتالي فإنه هو ـ وحدَه ـ الذي يستحِقُّ أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا.

ـ في آخِر هذه السُّورة جاء ذِكرُ أهوالِ يوم القيامة، وفيه تنبيهٌ للناسِ بأنّ الذين سيؤمنونَ ويعمَلونَ الصّالحاتِ سينفَعُهم ذلك في الآخِرة، أمّا الذين يُنكرونَ الآخرةَ ويَطْغَوْنَ فإنّهم في الآخِرة من الخاسرين.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده
فندق يو إن بلازا، نيويورك، أمريكا
حجرة رقم ٣١٠٨، الطابق الحادي والثلاثون
يوم السبت ١٦ مايو ٢٠٠٩م
الموافق ٢١ جُمادى الأولى ١٤٣٠هـ.

* * *

سُورَةُ النَّمْلِ (٢٧)،

مكية (٤٨)، آياتها (٩٣)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

﴿طسٓۚ﴾

١ ـ للتعرُّفِ على الحروفِ المقطَّعاتِ راجعْ تفسيرَ الآية الأُولى من سُورة البقرة.

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٢ ـ رَغْمَ أنّ القرآنَ الكريمَ وسيلةُ هدايةٍ لبني الإنسانِ جميعًا، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ المؤمنينَ الذين يوقنونَ بالآخِرة ويقيمونَ الصّلاةَ ويؤتونَ الزَّكاةَ هم الذين يحصُلونَ على هذه الهداية تأكيدًا، والقرآنُ المَجيدُ يبشِّرُ هؤلاءِ السُّعداءَ على وَجْهِ التحديد ببُشرى حُسنِ الجزاءِ في الآخِرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾

٣ ـ الذين لا يؤمنونَ بالآخِرة تبدو لهم أعمالُهم السيِّئةُ حسَنةً وجميلةً، فيستغرقونَ في السيِّئاتِ غيرَ مُبالِينَ بالعاقبة، وهؤلاءِ هم الذين سيَلقَوْنَ العذابَ الأليم، وسيكونونَ في الآخِرة من أكثرِ الناس خسارةً.

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

٤ ـ يعني: أنه لا يُعلِّمُك جِنٌّ أو بَشَرٌ هذا القرآنَ، وإنّما يُعلِّمُك إياهُ اللهُ تعالى أحكَمُ الحاكِمين وأعلمُ العالِمين.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

٥ ـ توجَّه سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من مِصرَ إلى مَدْينَ معَ زوجتِه، وحين وَصَلا بالقربِ من جَبَل الطُّور، وكان اللّيلُ مظلِمًا وباردًا، رأى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ـ من بعيدٍ ـ نارًا، فقال لزوجتِه: انتظري هنا، وسأذهبُ أنا هناك حيث تشتعلُ النار، فلا بدَّ أنّ هناك بشَرًا يعيشونَ، وسأستفسِرُ منهم عن الطريقِ الصَّحيح إلى مِصرَ، حتى لا نَضِلَّ الطريقَ في ظَلامِ الليل، أو أنّني سآتي بشُعلةٍ من النارِ نَصْطلي بها ونَحْمي أنفسَنا من البَرْد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

٦ ـ ما أنْ وَصَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى مكانِ النار حتى رأى منظَرًا عجيبًا، فما بَدا له نارًا كان نُورًا من السَّماء يَخلُبُ الألبابَ، وفجأةً خَرَج من هذا النُّورِ صوتٌ يقول: تبارَكَت تلك الذّاتُ المتجلِّيةُ في هذا النُّورِ شبيهِ النار، وبورِكَ كلُّ ما حولَها.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

٧ ـ قال اللهُ تعالى: يا موسى عليه السَّلام، هذا النُّورُ شبيهُ النارِ الذي يبدو لك، إنما هو التجَلِّي منِّي، وأنا أُخاطبُك.

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

٨ ـ عندما يختارُ اللهُ تعالى إنسانًا للنُّبوّة، يَخلُقُ بداخلِه مَلَكةً، بفَضْلِها لا يبقَى لدى هذا الإنسانِ شكٌّ في التعرُّفِ على كلام الله تعالى ومَلَكِ الوحي، وفي تلك اللَّيلةِ كَلَّم اللهُ تعالى سيّدنا موسى عليه السَّلامُ وكلَّفَه بالنُّبوة، ورَغْمَ أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ كان على يقينٍ من أنّ هذا الصّوتَ هو صوتُ الله تعالى، لكنّ اللهَ تعالى أعطاه بعضَ المعجِزاتِ لترسيخِ هذا اليقين، وأمَرَه أن يُلقيَ عصاه، فألقَى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عصاهُ، فإذا بها تتحوَّلُ إلى ثُعبانٍ ضَخْمٍ مُخيف، ولهذا أصابه الخَوفُ فهَرَب من المكان، وعليه قال اللهُ تعالى له: يا موسى عليه السَّلام، لا تخَفْ؛ لأنّ الرُّسُلَ لا يخافونَ في حَضْرتي.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

٩ ـ إلا أنّ الظالمينَ ينبغي أن يخافوا اللهَ تعالى ويخشَوْه، ولكنْ حتى الظّالمونَ

إنْ تابوا إلى اللهِ تعالى توبةً صادقة، وعَمِلوا الصّالحاتِ وأزالوا آثارَ السيِّئات التي ارتكبوها، فإنّ اللهَ تعالى يَعفُو عنهم ويغفرُ لهم.

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

١٠ ـ أعطَى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ المعجِزةَ الثانيةَ، وهي: اليدُ البيضاء، يعني: عندما يضَعُ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ يدَه في جَيْبِه ويُخرِجُها تكونُ ناصعةَ البياض برّاقةً، ثم أعطَى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ سبعَ معجِزاتٍ أخرى إضافةً إلى هاتَيْنِ المعجِزتَيْن، ثم أَرسَلَه إلى فِرعَونَ وقومِه لأنّهم كانوا قد عصَوْا وطَغَوْا. وللتعرُّفِ على هذه المعجِزاتِ التّسع راجعِ الحاشيةَ رقم ٩٩ للآية رقم ١٠١ من سُورة الإسراء (١٧).

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

١١ ـ عندَما رأى فِرعَونُ ورجالُه هذه المعجِزاتِ تيقَّنت قلوبُهم من أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ نبيٌّ صادقٌ، لكنّهم ـ بسببِ تعصُّبِهم وتكبُّرِهم ـ رَفَضوا الإيمانَ به قائلينَ عن معجِزاتِه: إنّها سِحرٌ! وكان نتيجةَ ذلك أنْ أَغرقَهم اللهُ تعالى في البحر.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾

١٢ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ بالمُلكِ والعِلم ومعجزةِ جَعْل الحديدِ ليّنًا، وأَنْعم على سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ بالعِلم والمُلكِ ومعرفةِ لُغةِ الحَيوانات، لكنّ اللهَ تعالى ذَكَر هنا نِعمةَ العِلم فقطْ، ويُعلَمُ منه أنّ العِلمَ نعمةٌ عظيمةٌ ذَكَرها اللهُ تعالى بصفةٍ خاصّة.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

١٣ ـ يُعلَمُ من هذا أنه إذا ما أَنْعَم اللهُ تعالى على عبدٍ بنعمةٍ، وخاصّةً إذا اختَصَّه بهذه النِّعمة المتميِّزة دونَ كثيرٍ من الناس، فإنّ على هذا العبدِ أن يؤدِّيَ شُكرَ الله تعالى على هذه النِّعمة المتميِّزة بطريقةٍ متميِّزةٍ أيضًا، وهذه سُنّةُ عبادِ الله المختارينَ المقرَّبينَ، أي: الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، وسيّدُنا داودُ وسيّدُنا سُليمانُ عليهما السَّلام أفضَلُ مِن كثيرٍ من الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، لكنّ نبيَّنا الحبيبَ سيّدَنا محمدًا ﷺ أفضَلُ الأنبياءِ جميعًا عليهمُ السَّلام.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾

١٤ ـ خَلَف سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ سيّدَنا داودَ عليه السَّلام، فقال: لقد عَلَّمَنا اللهُ تعالى لُغةَ الطَّير، وأَنْعم علينا بكلِّ أنواع النِّعَم، وهذا على وَجْهِ اليقين فضلٌ من الله خاصٌّ وعظيم.

كان لسيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ أولادٌ كثيرونَ، وكان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ أصغَرهم، والإرثُ الذي خَلَف سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام فيه أباه سيّدَنا داودَ عليه السَّلامُ هو إرثُ النُّبوةِ والمُلك، ولو أنّ هذا الإرثَ كان للمالِ والمَتَاع الدُّنيويِّ لَورِثَ معَه إخوتُه الآخَرونَ نصيبًا، ولكنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام لا يورِّثونَ مالًا ولا متاعًا دُنيويًّا، وإنما يورِّثون العِلمَ. ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح راجع الحاشيةَ رقم ٥ للآية رقم ٥ من سُورة مريمَ (١٩).

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

١٥ ـ سَخَّر اللهُ تعالى الجنَّ والطَّيرَ لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ، بالإضافةِ إلى البشَر، وكان هؤلاءِ جميعًا يسيرونَ معَ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ في شكلِ مجموعاتٍ وكتائبَ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

١٦ ـ ذاتَ مرّةٍ كان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام يسيرُ معَ جيشِه مارًّا من منطقةٍ ما، وفي الطريقِ عندَما وَصَل بالقُربِ من وادي النَّمل، وكان الجيشُ في هذا الوقتِ على بُعد ميلَيْنِ، أعلَنَتْ نملةٌ في كلِّ النَّمل الموجودِ في المنطقةِ أنّ جيشَ

سيّدِنا سُليمانَ في طريـقِه للمرور من هنا، ولهذا عليكُم أن تُسـرِعوا إلى الدُّخولِ في جُحورِكم، ورَغْم أنّهم لن يتعمَّدوا إيذاءكم، لكنّ من الممكنِ أن يَسحَقُوكم بأرجُلِهم دونَ أن يَدْروا.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾

١٧ ـ لو أنّنا حمَلْنا بعضَ النَّمل على راحةِ يدنا، ثم قرَّبناهُ من آذانِنا، لن نستطيعَ ـ برَغْم ذلك ـ سَماعَ أصواتِه! ولئنْ سَمِعنا صوتًا بسيطًا منها فإنّنا لن نستطيعَ أن نفهمَ لغتَه، ولكنْ، أيُّ عظَمةٍ هذه لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، إذْ سمعَ صوتَ النَّملةِ من على بُعد ميلَيْنِ، ليس هذا فقطْ، وإنّما فَهِم إعلانَها وهدَفَها أيضًا، فابتسَم معبِّرًا عن سَعادتِه بقدرةِ الله تعالى الذي مَنَح مخلوقًا صغيرًا مثلَ هذه النَّملةِ هذا الوعيَ والشُّعورَ، بحيث تُدركُ الأخطارَ المحتمَلةَ، وتُخطِّطُ مسبَقًا للدِّفاع ضدَّ هذه الأخطار. ليتَ المسلمينَ اليومَ يُدركونَ الأخطارَ المحتمَلَة ويستشعرونَها، ويخطِّطونَ مسبَقًا للدِّفاع عن أنفُسِهم ضدَّها.

يقولُ سيّدُنا عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا فعَلَت أُمّتي خمسَ عشْرةَ خَصلةً حَلَّ بها البلاء»، فقيل: وما هُنَّ يا رسولَ الله؟ قال:

١ ـ «إذا كان المغنَمُ دُوَلًا.

٢ ـ والأمانةُ مغنَمًا.

٣ ـ والزَّكاةُ مغرَمًا.

٤ ـ وأطاع الرّجلُ زوجتَه.

٥ ـ وعقَّ أُمَّه.

٦ ـ وبَرَّ صديقَه.

٧ ـ وجَفَا أباهُ.

٨ ـ وارتفَعتِ الأصواتُ في المساجد.

٩ ـ وكان زعيمَ القوم أرذَلُهم.

١٠ ـ وأُكرمَ الرّجلُ مخافةَ شرِّه.

١١ ـ وشُرِبت الخمورُ.

١٢ ـ ولُبِس الحرير.

١٣ ـ واتُّخِذت القَيْنات.

١٤ ـ والمعازفُ.

١٥ ـ ولَعَن آخرُ هذه الأُمّةِ أوّلَها.

فلْيرتقِبوا عندَ ذلك ريحًا حمراءَ أو خَسْفًا ومَسْخًا»[1].

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾

١٨ ـ في الآيةِ رقم ١٥ شَكَر سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى، ولكنْ لأنّ سلسلةَ نِعَم الله تعالى تظَلُّ متواصلةً، لهذا ينبغي للعبدِ أيضًا أن يواصلَ الشُّكرَ لله تعالى، وأن يدعوَه عزَّ وجلّ أن يوفِّقَه إلى أداءِ الشكر.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

١٩ ـ في الجزءِ الأخيرِ من الدُّعاءِ طلَبَ سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام منَ الله تعالى أن يوفِّقَه إلى الأعمالِ الصّالحة، كما طلَبَ منه في نفسِ الوقتِ أيضًا أن يوفِّقَه

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٣٨ برقم ٢٢١٠، ٢٢١١.

إلى صُحبةِ الصّالحينَ؛ لأنّ صُحبةَ الصّالحينَ هي التي ترغِّبُ في الأعمالِ الصّالحة.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾

٢٠ ـ سَخَّر اللهُ تعالى لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ الرِّيحَ أيضًا، بالإضافةِ إلى الجنِّ والطَّير والبشَر، وعندَما كان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ يرغَبُ في السَّفر بالريح، كان الريحُ يحمِلُ عرشَه، وكلُّ أنواع الطيورِ تطيرُ فوقَه بحيث تُظلِّلُه وتحميه من حرارةِ الشمس، وكانت هذه معجِزةً له عليه السَّلام، وقد أنْعم اللهُ تعالى على الإنسانِ بالعقلِ فصَنَع في هذا العصرِ الطائرةَ على هذه الشّاكلة، بحيثُ تطيرُ في الهواء، ويستطيعُ مئاتٌ من الناس الجلوسَ بداخلِها والسَّفَر عن طريقِها بكلِّ سهولةٍ ويُسر، ومن محاسنِ الصُّدَف أنّني أكتُبُ تفسيرَ هذه الآية وأنا في طائرةٍ مستغرِقةٍ في سَفَرِها في الفضاء، وربّما كان من الصَّعب على بعضِ الناس قبلَ اختراع الطائرةِ فهْمُ مِثلِ هذه المعجِزات، ولكنّ فَهْمَ هذه المعجِزة اليومَ سهلٌ يسير، فإذا كان عَقْلُ الإنسانِ يستطيعُ أن يجعَلَ ألواحَ الحديدِ تطيرُ في الهواءِ حاملةً مئاتٍ من البشَر، فما بالُك بالله تعالى القادرِ على كلِّ شيءٍ، هل يَصعُب عليه أن يَجعَلَ عرشَ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ يطيرُ في الهواء؟!

ملحوظة:

كتبتُ تفسيرَ خمسِ آيات (١٥- ١٩) من هذه السُّورة في دمشقِ الشام، وكتبتُ تفسيرَ الآية رقم ٢٠ وأنا في الطائرةِ عائدًا من دمشقَ إلى لندنَ في الثالثِ من يونيه ٢٠٠٩م، ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ نهايةَ تفسيرِ هذه السُّورة.

﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾

٢١ ـ ذاتَ يوم تَفَقَّد سيّدُنا سُليمانُ الطيرَ ولم يرَ الهُدهُدَ، فقال: لماذا لا أرى

الهدهد، هل تغيَّب اليومَ؟ إن كان تغيَّبَ اليومَ فسيكونُ عليه أن يقدِّمُ تبريرًا لعَدَم حضورِه، وإلّا سأُعاقبُه عقابًا شديدًا؛ لأنه لم يَحضُرْ ليؤدِّيَ واجباتِه.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾

٢٢ ـ وبعدَ فترةٍ وجيزة، جاء الهُدهُد، وأَخبر عن السّببِ الذي جَعَله يتأخَّر، وهو أنه ذَهَب إلى سَبَأٍ، ومن هناك جاء بخبرٍ جديدٍ وصادقٍ لسيّدِنا سُليمانَ، و«سبأٌ: اسمُ مدينةٍ تُعرَفُ بمَأربَ باليمن»[١].

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾

٢٣ ـ والخبَرُ الصّادقُ هو: أنّ امرأةً (بِلْقِيْسَ) تَحكُمُ سبأً، وقد أَنْعم اللهُ تعالى عليها بكلِّ أنواع النِّعَم، ولديها عرشٌ عظيم.

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾

٢٤ ـ كما أنّ بِلْقِيْسَ وقومَها تَرَكوا عبادةَ الله تعالى ويسجُدونَ للشّمس، وقد زيَّن الشّيطانُ لهم كُفرَهم وشِركَهم، بحيث جَعَلهم ينسَوْنَ تمامًا الطريقَ المستقيم، ولم يعودوا يَقبَلونَ الهدايةَ.

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾

٢٥ ـ قال الهُدهد: إنّ اللهَ تعالى قد أَنْعم عليهم بنِعَمٍ عظيمة، لكنّهم جاحدونَ إلى حدٍّ كبير، إذ إنهم يعبدونَ الشمسَ، ولا يعبدونَ خالقَهم الحقيقيَّ، معَ أنّ العبادةَ لا تليقُ إلّا بالله سبحانه وتعالى فقطْ.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

٢٦ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه، ويُظهِرُ ما خَفِي في باطنِ الأرضِ مثلَ: المعادِن والنّباتاتِ وغيرِها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

٢٧ ـ يقولُ العلّامةُ الرازي: إنّ «وَصْفَ عرشِها بالعِظَم تعظيمٌ له بالإضافةِ إلى عروشِ أبناءِ جنسِها من الملوكِ، ووَصْفَ عرشِ الله بالعِظَم تعظيمٌ له بالنّسبةِ إلى سائرِ ما خَلَق من السّمواتِ والأرض»[1].

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

٢٨ ـ قال سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ للهُدهُد: سنَبدَأُ نحن التَّحقُّقَ من صِدقِ ما تقول، خُذْ خِطابي هذا، وضَعْه أمامَهم، ثم اجلِسْ بعيدًا وانظُرْ ماذا يقولونَ عن خطابي. ويُعلَمُ منه أنه قد تولَّد بداخلِ الهُدهدِ ببَركةِ النبيِّ قَدْرٌ كبيرٌ من الوَعْي والشّعور، بحيث بَدَأ يفهَمُ لغةَ البشَر.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

٢٩ ـ أَخبَرتِ المَلِكةُ بلقيسُ قادتَها قائلةً: لقد جاءَتْني رسالةٌ غايةٌ في الأهميّة من سُليمانَ عليه السَّلام، وقد بدَأَتْ هذه الرِّسالةُ بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والابتداءُ باسم الله تعالى سُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام:

ـ ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

---

(١) التفسير الكبير.

ـ كَتَب سيِّدُنا سُليمانُ إلى بلقيسَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ـ يقولُ العلّامةُ نُورُ الدِّين الحَلَبي: إنّ النبيَّ ﷺ اصْطَحَب سيِّدَنا زَيْدَ بنَ حارثَةَ رضي اللهُ عنه إلى الطائفِ في السَّنَةِ العاشِرة للبَعْثَةِ النَّبوية، ودَعا أهلَها إلى الإسلام، فرماهُ أهلُ الطائفِ بالحجارة حتى أدمَوْه، فخَرَج النبيُّ ﷺ من الطائف، وجَلَس في ظلِّ شجرةِ عِنَب بالقربِ من بُستان، فعَطَف العاملُ في البستانِ ـ ويُدعى عَدّاسًا ـ على هؤلاءِ الجَرْحى الغُرباءِ وقدَّم لهم شيئًا من العِنَب، فقال النبيُّ ﷺ: «بسم الله» ثمّ أكل، فنَظَر عَدّاسٌ في وجهِه وقال: والله إنّ هذا الكلامَ ما يَقولُهُ أهلُ هذه البلاد، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم: «من أيِّ البلادِ أنت، وما دِينُك يا عَدّاس!»، قال: نَصْرانيٌّ، وأنا من أهلِ نينَوى، فقال له رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من مدينة الرّجُل الصّالح يونُسَ بن مَتَّى». وعند ذلك قال عَدّاسٌ له صلّى الله عليه وآلِه وسلّم: وما يدريكَ ما يونُسُ بنُ متّى؟ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ذاك أخي كان نبيًّا، وأنا نبيٌّ أُمّيٌّ»، فعندَ ذلك أَكَبَّ عَدّاسٌ على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يُقبِّلُ رأسَه ويدَيْه وقدمَيْه[1].

ـ تعاليمُ الإسلام تقولُ: إنّ المسلمَ يبدأُ كلَّ عمَل جائزٍ ببسم الله، حتى يتيسَّرَ العمَلُ ببركةِ اسم الله تعالى، مثلَما يقولُ النبيُّ ﷺ: «كلُّ أمرٍ لا يُبدَأُ فيه ببسم الله الرّحمنِ الرّحيم فهو أَجْذَم»[2].

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾

٣٠ ـ في هذه الرِّسالةِ دَعا سيِّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ المَلِكَة بِلقيسَ وقومَها إلى الإسلام، ونَهاهم عن الطُّغيان.

---

(١) السيرة الحلبية، ١: ٥٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الفاتحة (١).

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

٣١ ـ قالتِ المَلِكةُ بلقيسُ لقادتِها: أَشِيروا علَيَّ في هذا الأمر؛ لأنّني لا أفعَلُ شيئًا دونَ استشارتكم.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾

٣٢ ـ قال القادةُ: لدينا الكثيرُ من الشَّبابِ الأقوياءِ المحارِبين، وإنْ هَجَم علينا فإنّنا سنُواجِهُه بقوةٍ وثبات، ومعَ ذلك فإنّ القرارَ الأخيرَ لكِ، وسوف نُنفِّذُ أيَّ قرارٍ تتَّخذينَه.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

٣٣ ـ قالتِ المَلِكةَ بلقيسُ: عندَما يَفتَحُ الملوكُ بلدًا عَنْوةً فإنّهم يُدمِّرونَه، ويقتُلونَ أصحابَ السُّلطة في هذا البلد، أو يعتقلونَهم ويُذلُّونَهم، ومن الممكنِ أن يفعَلَ سُليمانُ مِثلَ هذا أيضًا، ولهذا فإنّني ـ بدايةً ـ سأُرسلُ إليه هديّةً من المَتَاع الثَّمين، ثم أستنتجُ منَ الردِّ الذي سيأتي به الرَّسولُ إن كان سُليمانُ هذا مَلِكًا دُنيويًّا أو نبيًّا حقًّا؟ وإن كان نبيًّا حقًّا فسوف أُطيعُه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

٣٤ ـ عندَما قَدَّم الرَّسولُ هديَّةَ بلقيسَ إلى سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ قال: هل تحاولونَ إغرائي بمالِ الدنيا ومتاعِها؟ ولكنْ ينبغي أن تَعلَموا أنّ اللهَ تعالى قد أعطاني مالًا أكثرَ منكم، فارجِعوا بمالِكم هذا، مبارَكٌ لكم مالُكُم، فأعيدوا المالَ إليها وأخبِروها أنْ تختارَ طاعتي، وإلّا فإنّ جيشي سيَغزُوكم ويَطرُدُكم من هذا البلد.

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

٣٥ ـ عندَما عاد الرَّسولُ بكلِّ مَتَاع الهدايا إلى المَلِكة بلقيسَ استَنتجتْ أنّ سُليمانَ عليه السَّلامُ ـ بالفعل ـ نبيٌّ حقًّا، وأنّها لا تستطيعُ مواجهتَه أو الوقوفَ في وجهِه، وهكذا قرَّرت المَلِكةُ سبأُ أن تخضَعَ لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، واصْطَحَبت قادتَها وتوجَّهت إلى سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، فخَطَّط سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام لِأنْ يأتيَ بعرشِ بِلقيسَ عندَه قبلَ أن تَصِلَ هي إليه، بغَرَض إظهارِ قوةِ عَبيدِه وغِلمانِه، فقال لرجالِ بَلاطِه: من مِنكم يأتيني بعرشِ بِلقيسَ قبْلَ أن تصلَ هي إلى هنا؟ معَ أنّ المسافةَ من بيتِ المقدِس إلى سبأٍ حيث يوجَدُ العرشُ حوالَيْ ألفٍ وخمسِمائة مِيلٍ ذهابًا ومِثلَها إيابًا.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

٣٦ ـ قال جِنٌّ قويُّ البُنيانِ من بَلاطِ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام: أنا أستطيعُ أنْ آتيَك بعرشِ بِلقيسَ قبْلَ أن يَنفَضَّ مجلسُك، وأنا قادرٌ على هذا ولن أخُونَ فيه.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾

٣٧ ـ بعدَ هذا الجنِّ القويِّ قال عالِمُ دينٍ يُدعَى آصَفَ بنَ برخيا: أنا أستطيعُ أن آتيَك بعرشِ بِلقيسَ قبلَ أن تَطرُفَ عينُك، وحين طَرَفتْ عينُ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام نَظَر فإذا بالعرشِ أمامَه! فلمّا رأى سيّدُنا سليمانُ هذه الكرامةَ لواحدٍ من أُمّتِه قال: هذا فَضْلُ ربِّي لِيبلُوَني إن كنتُ سأشكرُه على هذا أم لا، ومن يَشكُر اللهَ تعالى على أيِّ نعمةٍ من نِعَمِه فإنّ مكانتَه ترتفعُ، ومن يَجْحَدُ نِعمةَ الله تعالى فإنّ اللهَ لا يُبالي به.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾

٣٨ ـ أمَرَ سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ أصحابَ البَلاطِ أن يُغيِّروا ويبدِّلوا قليلًا في شكلِ وهيئةِ عَرْشِ بِلقيسَ حتى يَختبِرَها إن كانت تستطيعُ التعرُّفَ على عرشِها أم لا.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

٣٩ ـ عندَما وَصَلت بِلقيسُ عندَ سيّدِنا سُليمانَ قيلَ لها: هل عرشُكِ هكذا؟ فأجابت: وكأنّ هذا هو عرشي، وقبلَ أن أرى معجِزتَك هذه فإنّ كلَّ الأمورِ التي حدَثَت بينَنا جعلَتْنا نتأكَّدُ من أنك نبيٌّ حقًّا، ولهذا فنحن حضَرْنا إليكَ مُطيعينَ خاضِعين.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

٤٠ – لقد مَنَعت عبادةُ غيرِ الله بِلقيسَ من عبادةِ الله، والسَّببُ في ذلك أنّها كانت تعيشُ بينَ قوم كُفّار، ولم تكنْ تَعلَمُ شيئًا عن التوحيد.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٤١ ـ كان قصرُ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ مزيّنًا بالمرايا والزُّجاج، فلمّا دَخلت بِلقيسُ القصرَ بَدَت لها أرضيّةُ القَصْرِ الزُّجاجيّةُ كأنّها ماءٌ، ولهذا رَفَعتْ ملابسَها عن رجلَيْها إلى ما فوقَ ساقَيْها حتى لا تبتَلَّ بالماء، ولم تتصوَّرْ أنّ هذا ليس ماءً، وإنما هو زجاجٌ، فنبَّهَها سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ إلى خطئها هذا، وعندَئذٍ شَعَرت بِلقيسُ بخطئها، وشَعَرت معَه أيضًا أنّها ظلَمَتْ نفسَها كثيرًا بأنْ أمضَتْ حياتَها في الكفُرِ والشِّرك، ولهذا نَدِمت على ضَلالِها السّابق وأعلنتْ إسلامَها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ

قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

٤٢ ـ عندَما دعا سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ قومَه إلى عبادةِ الله تعالى، وأنْ لا يعبدوا أحدًا غيرَه، قَبِلَ بعضُ هؤلاءِ دعوتَه، لكنّ الأكثريّةَ منهم أنكَرتْ هذه الدَّعوةَ ورفضَتْها، وهكذا انقَسم قومُ سيِّدِنا صالح عليه السَّلامُ إلى فريقَيْنِ متخاصِمَيْن.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

٤٣ ـ قال سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلام لقومِه: ارجعوا عن شِركِكم، وإلّا أصابَكم عذابٌ أليم، فقالوا له بتكبُّرٍ وغرور: لو أنك صادقٌ فيما تقولُ فأْتِنا بالعذابِ الذي تهدِّدُنا به، فنحن لن نؤمنَ بك. وعليه قال سيّدُنا صالحُ عليه السَّلام: ينبغي لكم أن تتوبوا وتَطلُبوا الخيرَ، لكنْ ما أعجَبَكم من أُناس تتَّسِمونَ بالحُمق! إذْ تسارعونَ إلى طلبِ السيِّئةِ والعذاب، وإذا جاء الوقتُ السيِّئُ فلن تستطيعوا الإفلاتَ منه، ولهذا لا يزالُ أمامَكم الوقتُ، فارجِعوا إلى الله، إنه رحيمٌ غايةَ الرَّحمة، وسيَرحَمُكم.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾

٤٤ ـ قال قومُ ثمُودَ لسيّدِنا صالح عليه السَّلام: إنّك تَدعُونا إلى الإيمانِ، بينَما نحن نعتقدُ أنك والمؤمنينَ بك شُؤمٌ ونَحْسٌ؛ لأنّ المطرَ انقطَعَ عنا بعدَ دعوتِك

الجديدةِ هذه، والناسُ يموتونَ جوعًا، وعليه قال لهم سيّدُنا صالحُ عليه السَّلام، أهلُ الإيمانِ ليسوا نَحْسًا، ولكنّ اللهَ قدَّر لكم النَّحْسَ، وهذا النَّحسُ نتيجةُ أعمالِكم السيِّئة، ويمكنُ أن يكونَ معناه أيضًا: أنّ اللهَ تعالى قدِ ابتَلاكم بالقَحْطِ ليختبرَكم.

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

٤٥ ـ كان بينَ قوم ثمُودَ تسعةُ سادةٍ منهم منهمكونَ دائمًا في الأنشطةِ التَّخريبية، حتى أنّهم ذَبَحوا ناقةَ سيّدِنا صالح عليه السَّلامُ أيضًا، وعليه قال لهم سيّدُنا صالحُ عليه السَّلام: سيأتيكُم العذابُ بعدَ ثلاثة أيام بسببِ طُغيانِكم هذا، وهكذا اجتَمعَ هؤلاءِ السادةُ التِّسعةُ ذاتَ يوم وتعاهَدوا فيما بينَهم حالفينَ بأنه سنَرى حينَ ينزِلُ العذابُ، ولكنّ علينا قبلَ كلِّ شيءٍ أن نذهبَ في ظلام اللَّيل إلى صالح عليه السَّلام فنقتُلَه هو وأهلَ بيتِه، فإذا ما سألَنا أحدٌ من ورَثتِه عن هذا فسنُنكِرُ تمامًا أنّنا فعلناهُ قائلين: إنّنا لم نكنْ موجودينَ في ذلك الوقتِ أصلًا، ولهذا فإنّنا لا نعرِفُ مَن قتَلَهم.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

٤٦ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «أرسَلَ اللهُ تعالى الملائكةَ تلك اللّيلةَ، فامتَلأتْ بهم دارُ صالحٍ، فأتَى التّسعةُ دارَ صالحٍ شاهرينَ سيوفَهم، فقتَلَهم الملائكةُ رَضْخًا بالحجارةِ فيرَوْنَ الحجارةَ ولا يرَوْنَ مَن يرميها»[1].

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٤٧ ـ والآنَ انظُرْ كيف كانت عاقبةُ تآمُرِهم سيّئةً، فقد أهلَكَ اللهُ تعالى هؤلاءِ

---

(١) تفسير القرطبي.

السادةَ التِّسعةَ بالحجارة، وأهلَكَ الطُّغاةَ الباقينَ بالزِّلازلِ والصَّيحة[1]، وجَعَل اللهُ تعالى من بيوتِهم المهجورةِ آيةَ عبرةٍ للأجيالِ الذين جاءوا من بعدِهم، وحَفِظَ سيِّدَنا صالحًا عليه السَّلامُ والمؤمنينَ به.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

٤٨ ـ خَلَق اللهُ تعالى النِّساءَ لإشباع الرَّغَباتِ النَّفسانيّة، لكنّ قومَ لوطٍ كانوا في غايةِ الحُمق، إذْ كانوا يُشبعونَ رغَباتِهم هذه معَ الرجال، وعليه قال سيِّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ لقومِه: أنتم تَعلَمونَ أنّ ما تفعَلونَه فاحشةٌ، ولم يرتكبْ قومٌ قبلَكم مثلَ ما تفعَلونَ من الفاحشة، ومِثلُ هذه الفاحشةِ يجبُ أن لا تُرتكَبَ ولا حتى في الخفاء، لكنّ طُغيانَكم قد بَلَغ الحدَّ الذي جَعَلَكم ترتكبونَها أمامَ الناسِ وفي وَضَح النَّهار.

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

٤٩ ـ إنّكم تَعلَمونَ أنّ ما تفعلونَه فاحشة، ولكنّكم بالرَّغم من ذلك تُعاندونَ وتُصِرُّونَ على فِعلِها مثلَ الجاهلين، أو أنكم غافلونَ عن عقابِها في الآخِرة، وإلّا لَما فعلتُموها.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

٥٠ ـ تَشاوَرَ قومُ لوطٍ فيما بينَهم قائلين: إنّ لوطًا والذين آمَنوا معَه يعتقِدونَ أنّنا جاهلونَ مُخطئون، ويظنُّونَ أنفُسَهم علماءَ كبارًا ذوي عِفّة وطُهرٍ، ولهذا يجبُ أن نَطرُدَهم من بلادِنا، حتى لا يستطيعَ أحدٌ أن يمنَعَنا مما نفعَلُ.

---

(١) «والأظهر أنّ التّسعة هلكوا بعذابٍ مفردٍ، ثمّ هلك الباقون بالصّيحة والدّمدمة». تفسير القرطبي.

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾

٥١ ـ وبَدلًا من أن يتوبَ هؤلاءِ من أفعالِهم السيِّئةِ ويُطهِّروا أنفُسَهم، فإنّهم خَطَّطوا لطردِ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ والمؤمنينَ معَه من البلاد، وعليه أنْقذَ اللهُ تعالى سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ ومَن آمَن معَه من مؤامرتِهم، باستثناءِ زوجةِ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلام؛ لأنّها لم تؤمنْ به، وكَتَبَ اللهُ عليها العذابَ بسببِ كُفرِها، ولهذا فقد هلَكَتْ هي الأخرى معَ مَن هلَكَ من الكفّارِ الآخرين.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

٥٢ ـ حَذّر سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ قومَه من عاقبةِ الفاحشةِ التي يرتكبونَها، وحين لم يَرجِعوا عنها أُمطِروا مطرًا شديدًا من الحجارة، وهو ما دمَّرهم وأهلَكَهم.

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

٥٣ ـ بعدَ هذه الآيةِ جاءت خُطبةٌ مستقِلّةٌ عن التوحيد، وهذه الآيةُ جاءت بمثابةِ المقدِّمةِ لها، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «ولقد توارَثَ العلماءُ والخُطَباءُ والوُعّاظُ، كابرًا عن كابرٍ، هذا الأدبَ، فحَمِدوا اللهَ وصَلَّوْا على رسولِ الله ﷺ أمامَ كلّ علمٍ مفادٍ، وقبلَ كلِّ عِظةٍ وفي مفتَتح كلِّ خُطبةٍ، وتَبِعَهم المترسِّلونَ فأَجْرَوْا عليه أوائلَ كتُبِهم في الفتوح والتَّهاني، وغيرِ ذلك من الحوادثِ الّتي لها شأنٌ»[١]. وإليك بعض الأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه بالحَمْد أقطَعُ»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كلُّ كلامٍ لا يُبدَأُ فيه بالحمدُ لله فهو أَجْذَم»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه بحمدِ الله والصّلاةِ علَيَّ فهو أقطَعُ أبتَرُ ممحوقٌ من كلِّ بركةٍ»[٤].

ويُعلَمُ منه أنّ كلَّ خُطبةٍ ينبغي أن تَبدَأَ بحَمْدِ الله والصّلاةِ على نبيِّه ﷺ، والأمرُ الثاني: أنه حينَ يَحمَدُ اللهَ تعالى ينبغي أن يُصلِّيَ ويُسلِّمَ على رُسُلِه وأوليائه الصّالحين، مثلَما نقرأُ في كلِّ صلاة: «التحيَّاتُ لله والصَّلَواتُ الطيِّباتُ، السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبرَكاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصَّالحين».

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) سنن ابن ماجه، أبواب النكاح، باب ١٩ برقم ١٨٩٤.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ٢١ برقم ٤٨٤٠.

(٤) كنز العمال، ١: ٥٥٨ برقم ٢٥١٠.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

٥٤ ـ في هذهِ الآياتِ بيَّن اللهُ تعالى الدَّلائلَ الواضحةَ على التوحيد، يعني: أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو الذي خَلَقَ السّماءَ والأرضَ، ورَفَع الماءَ إلى أعلى في شكلِ أَبْخِرةِ الماءِ من البحار، ثم أَنْزلَها على الأرضِ في صورةِ المطر، وهو الذي تَزرَعونَ من خلالِه الحدائقَ والبساتينَ الجميلةَ، في حينَ أنّكم بأنفُسِكم لا تستطيعونَ إنباتَ شجرةٍ واحدة؛ لأنه لو لم يَخلُقِ اللهُ تعالى الأرضَ لَما كان لكم وجودٌ، فكيف كنتُم ستُنبِتُونَ شجرةً؟ لهذا فإنّ اللهَ تعالى خالقُ الكائناتِ واحدٌ، وهو الذي تليقُ العبادةُ به، والذين يشركونَ معَ الله إلهًا آخَرَ ضَلُّوا الطريقَ المستقيم.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٥٥ ـ يعني: أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو الذي جَعَل الأرضَ صالحةً للسُّكنى، وهو الذي شَقَّ فيها الأنهارَ وجَعَل فيها الجبالَ، وكذا البحارُ التي تجدُ في جزءٍ منها الماءَ العذبَ، وفي جزءٍ آخَرَ الماءَ المالحَ، وكأنه بحرانِ وبينَهما حاجزٌ غيرُ مَرْئيٍّ، بحيث يبقَى الماءانِ منفصلَيْنِ لا يمتزِجانِ، وقد جاء في الآيةِ رقم ٥٣ من سُورةِ الفرقان ذِكرٌ لِمثلِ هذَيْنِ البحرَيْنِ، وتفصيلُ ذلك كالتالي:

ثلاثةُ أرباع هذا العالَم تُغطِّيه البحارُ ذاتُ الماءِ المالح، ورُبعُه من الأرض، وهو الذي تَجري فيه الأنهارُ والجَداول والقنَواتُ وتتفجَّرُ فيه العيونُ ذاتُ الماءِ العَذْب الحُلو، وحين تَصُبُّ الأنهارُ ذاتُ الماءِ العَذْب في البحار، تسيرُ المياهُ العَذْبةُ معَ المياهِ المالحةِ جنبًا إلى جنبٍ لأميالٍ عديدة، ويبدو وكأنّ القُدرةَ الإلهيَّةَ

قد وَضَعت بينَهما حدًّا فاصلًا بحيث لا يلتقيانِ ولا يمتزِجان، معَ أنّ الطبيعيَّ أن يمتزجَ الماءانِ حينَ يَلتقِيانِ، وبنفسِ الطريقة حين يَصُبُّ نهرُ النِّيل في البحرِ الأبيضِ المتوسِّط، لا يمتزجُ ماؤه لأميالٍ عديدة بماءِ البحر، ويبقَى متفرِّدًا في لونِه وطعمِه، وكذلك يوجَدُ الماءُ تحتَ أرضِنا، وهو قسمانِ أيضًا، وفي بعضِ الأحيانِ نحفِرُ بئرًا أو قناةً في مكانٍ ما، فيَخرُج الماءُ عذبًا حُلوًا، وعلى بُعدِ أمتارٍ قليلةٍ من هذا المكان نحفِرُ بئرًا آخَرَ أو قناةً أخرى فيَخرُج الماءُ مالحًا غيرَ صالحٍ للشرب.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

٥٦ - يعني: أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو الذي يسمَعُ دعاءَ المضْطرِّ ويُزيحُ عنه البلاءَ، وهو الذي جَعَلكم خُلفاءَ لمن سبَقُوكم في الأرض، ولو أنه لم يَخلُقْكم لَما كنتُم في الدُّنيا اليومَ، ولهذا فإنّ الذي تليقُ به العبادةُ هو اللهُ تعالى فقطْ، وليس له شريكٌ، ولكنّ الذين يقبَلونَ النَّصيحةَ منكم قليلون.

الشَّخصُ المُضطرُّ والمصابُ، سواءٌ كان مسلمًا أم كافرًا، يَقبَلُ اللهُ تعالى دعاءه، مثلَما رُوي عن سيّدِنا أبي ذرٍّ رضي اللهُ تعالى عنه، من أنّ النبيَّ ﷺ قال عن ربِّه: «فإنّي لا أرُدُّها (أي: دعوةَ المظلوم) ولو كانت من فم كافرٍ»[1]، ولو شَعَر شخصٌ مُضْطرٌّ أنّ دعاءه لم يُقبَلْ، فلا ينبغي أن يَيْأَسَ؛ لأنه في بعضِ الأحيانَ يَقبَلُ الدعاء، ولكن يظهر أثره بعد فترة لحكمة عند الله عز وجل، أو أن على مثل هذا الشخصُ أن يراجعَ إخلاصَه، فربَّما قصَّر فيه، وفي هذا الخصُوص راجعِ الحاشيةَ رقم ١٤٢ للآية رقم ١٨٦ من سُورة البقرة.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾

٥٧ ـ اللهُ تعالى هو الذي زَيَّن السّماءَ بالنُّجوم المتلألئة، فإذا ضَلَلتُم الطَّريقَ أثناءَ سَيْرِكم في ظُلُماتِ اللّيل، فإنّ هذه النُّجومَ تكون بمثابةِ وسيلةِ الهداية والإرشادِ بالنِّسبة لكم، فتحدِّدونَ طريقَكم استرشادًا بها.

منذ ١٤٠٠ عام سبقَت حينَ لم تكنِ السّياراتُ ولا الطائراتُ ولا البوصَلاتُ قد اختُرِعت، كان الناسُ يسافرونَ على البرِّ مشيًا على الأقدام أو مُمْتطِينَ الجِمالَ، وفي البحرِ يركَبونَ السُّفُن، ويحدِّدونَ وِجهتَهم وطريقَهم في الظّلام مسترشِدينَ بالنُّجوم.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾

٥٨ ـ حينَ يَحِلُّ القَحْطُ بالناس، ويَلحَقُ بهمُ الأذى، فإنّ اللهَ هو الذي يُرسلُ الهواءَ الباردَ أولًا، وهي التي تَبعَثُ الأملَ بنزولِ المطر، فتسُودُ موجةٌ من السُّرور والاطمئنانِ بينَ الناس.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

٥٩ ـ إنّه اللهُ تعالى الذي خَلَق الخَلْقَ جميعًا لأولِ مرّةٍ بقُدرتِه، ثم استمرَّت سلسلةُ الخَلْق بالوسائلِ التي خَلَقَها هو، وهو الذي أَنْزلَ الحرارةَ والمطرَ من السَّماء، فأَنْبتَ بها الزُّروعَ من الأرض، وهيَّأَ بذلك لمخلوقاتِه الرِّزقَ، وسيأتي يومٌ على وَجْه اليقين يفنَى فيه الخَلقُ جميعًا، وسيُحييهمُ اللهُ تعالى من جديدٍ بقُدرتِه.

في آخِر هذه الآية يُفهِمُ اللهُ تعالى المشركينَ أنّ اللهَ تعالى متفرِّدٌ في كلِّ الصِّفاتِ السّابقة، ولا شريكَ له، ومعَ ذلك إنْ أشْركتُم أحدًا معَ اللهِ تعالى، فعليكم أن تقدِّموا الدَّليلَ على صحّةِ ما تفعَلون، وليس عندَ أحدٍ مِثلُ هذا الدَّليل.

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾

٦٠ ـ مفهومُ هذه الآية هو أنّ الملائكةَ والجِنَّ والإنسانَ في الأرضِ والسَّماءِ لا يمكنُ أن يعلَموا الغيبَ بأنفُسِهم، واللهُ تعالى وحدَه هو عالِمُ الغَيْب، ولكنْ ثَبَت من كثيرٍ من الآياتِ والأحاديثِ أنّ اللهَ تعالى أَطْلع بعضَ الملائكةِ وبعضَ عبادِه المختارينَ على الغَيْب، ولذلك منَ الضَّروريِّ أولًا أن نَشْرَحَ ما المقصودُ بعِلم الغَيْب، حتى لا تبقَى شُبهَةُ تناقُضٍ بينَ آياتِ القرآن الكريم.

علم الغيب:

يقولُ العلّامةُ البيضاويُّ: «والمرادُ به: الخَفِيُّ الذي لا يُدرِكُه الحِسُّ ولا تقتضيه بديهةُ العقل، وهو قسمانِ: قسمٌ لا دليلَ عليه، وقسمٌ نُصِب موقع عليه دليل»[1].

والقسمُ الأولُ من الغَيْب هو الذي لا دليلَ على علمِه، وهو خاصٌّ بالله تعالى، ولا يمكنُ أن يَعلَمَه سواه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. أمّا القسمُ الثاني من الغَيْب فهو الذي يقومُ على عِلمِه دليلٌ عَقْليٌّ أو نَقْليّ، وهذا يمكنُ أن يعرِفَه الإنسانُ بالتوصُّل إلى أدلّته، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، والدَّليلُ على عِلم الرَّسولِ بالغَيْب هنا عطاءٌ من الله تعالى، فلو لم يُطْلِعْه اللهُ تعالى على الغَيْب لَما استطاع معرفتَه.

---

(١) تفسير البيضاوي، سورة البقرة (٢): الآية ٣.

علم الله تعالى للغيب:

عِلمُ اللهِ تعالى ذاتيٌّ، لم يَمنَحْه أحدٌ إيّاه، وعِلمُ اللهِ تعالى قديمٌ، يعني: منذُ الأزَل، وسيبقَى إلى الأبَد، وعِلمُ الله تعالى غيرُ محدودٍ، ومِثلُ هذا العِلم يليقُ باللهِ تعالى، وإثباتُه لأحدٍ غيرِ الله تعالى شِركٌ.

علم رسول الله ﷺ للغيب:

عِلمُ رسولِ الله ﷺ عطائيٌّ وحادثٌ، بمعنى: أنه لم يكنْ ﷺ يَعلَمُه من قبلُ، لكنّ اللهَ تعالى أنْعم عليه به بعدَ ذلك، وعِلمُ رسولِ الله ﷺ محدودٌ، يعني: بقَدْرِ ما أعطاه اللهُ تعالى منه، وعِلمُ رسولِ الله ﷺ قياسًا بعِلم الله تعالى المحيطِ لا يَعدِلُ حتى مجرَّدَ قطرةِ ماءٍ في مقابلِ بحارِ الدُّنيا كلِّها، ولكنّ عِلمَ رسولِ الله ﷺ في مقابلِ عِلم باقي المخلوقاتِ واسعٌ بحيث لا يمكنُ أن يتصوَّرَه مخلوقٌ، وهذا النوعُ من العِلم العطائيِّ الحادثِ المحدودِ إنّما هو فضْلٌ من الله تعالى وإحسانٌ على أنبيائه الكرام عليهمُ السَّلام، ونِسبةُ مِثلِ هذا النّوع من عِلم الغَيْبِ إلى الله تعالى كُفرٌ.

علم الملائكة للغيب:

أعطَى اللهُ تعالى لمَلَكِ الموتِ عليه السَّلام العِلمَ بيَوم وتاريخ ومكانِ موت العبد، وأعطَى بعضَ الملائكةِ العِلمَ بمستقبَل الطِّفل في بطنِ أُمِّه، مثلَما يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ أحَدكم يُجمَعُ خَلقُه في بطنِ أُمِّه (نُطفةً) أربعينَ يومًا، ثمّ يكونُ عَلَقةً (الدَّمُ ذو القِوام المتماسِك) مثلَ ذلك، ثمّ يكونُ مُضغةً (قطعةً منَ اللَّحم) مثلَ ذلك، ثمّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيؤمَرُ

بأربع كلماتٍ، ويقالُ له: اكتُبْ عمَلَه ورِزقَه وأجَلَه وشقيٌّ أو سعيدٌ. ثمّ يُنفَخُ فيه الرُّوح»[1].

ويُعلَمُ منه أنّ المَلَكَ يعلَمُ ـ بإطلاعِ الله له ـ أنّ هذا الطِّفلَ في بطنِ أُمِّه كيف سيكونُ عمَلُه بعدَ أن يولَد؟ وما هو مستوى رِزقِه (من المالِ والثّروة والعِلم والحِكمة)؟ ومتى سيموتُ؟ وهل سيكونُ سعيدًا أم شقيًّا؟

وكما أنّ الملائكةَ يعلَمونَ الغَيْبَ بإطلاع اللهِ لهم على ما يريدُ، كذلك يَعلَمُ الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلامُ وأولياءُ الله الصالحونَ الغَيْبَ بإطلاع اللهِ لهم على ما يريدُ عن طريقِ المعجِزاتِ والكرامات.

ما الدليل على تقسيم العلم إلى ذاتي وعطائي؟

لو لم نعترفْ بهذا الفَرْقِ سيكونُ هناك تناقُضٌ بينَ القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف، على سَبيل المثال: قال اللهُ تعالى عن نبيِّه ﷺ: إنه رؤوفٌ رحيم: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٢٨]، وخَلَق الإنسانَ سميعًا بصيرًا: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وعلى الجانبِ الآخَر قال اللهُ تعالى عن نفسِه: إنه رؤوفٌ رحيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] وسميعٌ بصير: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، ولفَهْم كلِّ هذه الآياتِ لا مفرَّ من التسليم بالفَرْقِ الذي بيَّناهُ، بمعنى: أنّ كلَّ صفاتِ الله تعالى ذاتيّةٌ قديمةٌ وغيرُ محدودة، وكلُّ صفاتِ الأنبياءِ الكرام والأولياءِ الصّالحينَ

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٨.

والمخلوقاتِ الأُخرى جميعًا عطائيّةٌ حادثةٌ ومحدودة، وينبغي التسليمُ بهذا الفَرْق أيضًا في موضوع عِلم الغَيْب، ولهذا فإنّ المرادَ بآياتِ النَّفي هو العِلمُ الذاتيُّ القديمُ غيرُ المحدود، وهو الذي لا يجوزُ أن يكونَ لغيرِ الله تعالى، والمرادُ بآياتِ الإثباتِ هو: العِلمُ العطائيُّ الحادثُ المحدودُ، وهو الخاصُّ بالمخلوقِ فقطْ.

بعض أمثلة لعلم المخلوق للغيب

ـ قال سيّدُنا عيسى عليه السَّلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «هل ترَوْنَ قِبلتي ها هنا؟ والله ما يخفَى عليَّ ركوعُكم ولا خشُوعُكم، وإنّي لَأراكم وراءَ ظهري»(١)، فالرُّكوعُ يقالُ للصُّورةِ الظاهريّة من الصَّلاة، أمّا الخشوعُ فيقالُ للكيفيّةِ الباطنة، ولهذا يُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ النبيَّ ﷺ يَعلَمُ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه، ويَعلَمُ كذلك ما يَغيبُ عن الأعيُن؛ لأنّ وَجْهَ النبيِّ صلى الله في الصَّلاة يكونُ إلى القِبلة، والصَّحابةُ الكرامُ في صفوفٍ خَلْفَه، وبالرَّغم من ذلك يَعلَمُ النبيُّ ﷺ ظاهرَهم وباطنَهم.

ـ رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ تعالى قد رَفَع ليَ الدُّنيا فأنا أنظُر إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يوم القيامةِ كأنّما أنظُر إلى كفِّي هذه»(٢).

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨٨ برقم ٧٤١.

(٢) كنز العمال، ١١: ٤٢٠ برقم ٣١٩٧١.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: إنّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم صَعِد أُحُدًا وأبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ، فرَجَف بهم، فقال: «اثبُتْ أُحُدُ! فإنّما عليكَ نبيٌّ وصِدّيقٌ وشهيدان»[١]، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلَمُ أنّ سيّدَنا أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضي اللهُ عنه سيموتُ موتةً طبيعيّة، وأنّ سيّدَنا عُمرَ وسيّدَنا عثمانَ رضي اللهُ عنهما سيُستَشهَدانِ.

ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه، أنّ عُمرَ رضي الله عنه، قال: إنّ رسولَ الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهلِ بَدْر بالأمسِ يقول: «هذا مصرَعُ فلانٍ غدًا إن شاء الله». قال: فقال عُمر: «فوالّذي بَعَثَه بالحقّ، ما أخطأوا الحدودَ الّتي حَدَّ رسولُ الله ﷺ»[٢].

ـ عَقَد النبيُّ ﷺ بعدَ معركةِ بدرٍ جلسةَ تشاوُر حولَ الأَسْرى السَّبعينَ من الكُفّار، وقُدِّمتِ اقتراحاتٌ عديدةٌ بأن يتِمَّ قتْلُ هؤلاءِ الظّالمينَ، لكنّ النبيَّ ﷺ اقترحَ أن يكونَ «فداؤهم أن يُعلِّموا أولادَ الأنصارِ الكتابَة»[٣]، «فكان زَيْدُ بنُ ثابت رضي الله عنه ممَّن عُلِّم»[٤].

ـ رُويَ عن سيّدِنا ابن عبّاس رضي اللهُ عنهما: «أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم جَعَل فداءَ أهلِ الجاهليّة يومَ بدرٍ أربعَ مائة، وادَّعى العبّاسُ أنه لا مالَ عندَه، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «فأين المالُ الذي دفنْتَه أنت وأُمُّ الفَضْل وقلتَ لها: إنْ أُصِبتُ في سَفَري فهذا لبَنيَّ: الفَضْلِ، وعبدِ الله، وقُثَمَ؟»، فقال: والله إنّي لَأعلَمُ أنّك رسولُ الله، إنّ هذا الشّيءَ ما عَلِمَه إلّا أنا وأُمُّ الفَضْل[٥].

---

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٧.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٧ برقم ٧٢٢٢.

(٣) مسند أحمد، ١: ٢٤٧.

(٤) طبقات ابن سعد، ٢: ٢٠.

(٥) سبل الهدى والرشاد، ٤: ١٠٥، ومسند أحمد، ١: ٣٥٣.

ـ قال النبيُّ ﷺ: «أتاني اللَّيلَة ربّي تبارَك وتَعالى في أحسَنِ صُورةٍ. قال: أحسَبُه قال: في المنام. فقال: يا محمّد، هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوَضَع يدَه بينَ كتِفَيَّ حتّى وَجدتُ بَرْدَها بينَ ثَدْييَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض»[1].

ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زَوَى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها»[2].

ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي ـ والله ـ لَأنظُرُ إلى حَوْضيَ الآنَ، وإنّي أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الارض»[3]، فالذّاتُ التي ترى حوضَ الكوثر وهي تعيشُ في هذه الدُّنيا، والتي أعطاها اللهُ تعالى مفاتيحَ خزائنِ الأرض، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتصوَّرَ مدى عِلمِها للغَيْب، ولا مدى هذه الخزائن، وإنّما يَعلَمُ اللهُ تعالى وحبيبُه النبيُّ ﷺ كم من عِلم الغَيْب وكم من الخزائنِ هذه أُعطِيَتْ له ﷺ، وقد قال النبيُّ ﷺ في حديثٍ آخَر: «واللهُ المُعطي وأنا القاسم»[4].

ولمزيدٍ من التفصيل حولَ هذا الموضوع راجع الحاشيةَ رقم ١٢٥، ١٢٦ للآية رقم ١٧٩ من سورة آل عمران (٣)، والحاشيةَ رقم ٥٥ للآية رقم ٥٩، والحاشيةَ رقم ٥٨ للآية رقم ٦١ من سُورة الأنعام (٦)، وكذا الحاشيةُ رقم ١٠٦ للآية رقم ١٨٨ من سُورة الأعراف (٧).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

٦١ ـ الناسُ لا يعلَمونَ متى ستكونُ القيامة، والتي سيُبعثونَ عندَها من جديد، وقد نَقَل العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي قولَ المحقِّقينَ في هذا الخُصوص بأنّ:

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، برقم ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥.

(٢) صحيح مسلم، برقم ٢٨٨٩.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٣ برقم ١٣٤٤.

(٤) البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ٧ برقم ٣١١٦.

«السببَ في إخفاءِ الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلَموا متى تكونُ كانوا على حَذَر منها، فيكونُ ذلك أدعَى إلى الطاعة، وأزْجَر عن المعصية»[١]، ولهذا السببِ أيضًا أخفَى اللهُ تعالى وقتَ الموتِ عن عامّةِ الناس؛ لأنه إذا أُخبرَ أحدٌ أنه سيموتُ بعدَ عشْرِ سنواتٍ مثلًا، فمن الممكنِ أن يتغلَّبَ عليه الشّيطان، فيقرِّرَ أن يقضيَ تسعَ سنواتٍ من العشْرِ في اللّهوِ واللّعب، ثم يتوبَ بعدَ ذلك، أو أن يتملَّكه الخوفُ من الموتِ بحيث يترُكُ كلَّ الأعمالِ ويتفرَّغُ للعبادةِ فقطْ، ويعيشُ أهلُ بيتِه في فقرٍ مُدقعٍ، والحالتانِ غيرُ محمودتَيْنِ له. وباختصار: أخفَى اللهُ تعالى وقتَ قيام الساعةِ عن عامّةِ الناسِ حتى يعمَلوا على التخلُّصِ من الذنوبِ والآثام، أمّا الأنبياءُ عليهم السَّلامُ فقد طَهَّرهم اللهُ من الذُّنوبِ من الأَصْل، وهم يخشَوْن اللهَ تعالى في كلِّ حال، ولذا لم يكنْ هناك داعٍ لإخفاءِ وقتِ قيام السّاعةِ عنهم، وفي هذا الخصُوص يقولُ الشّيخُ أحمدُ الصّاوي: «إنّها من الأمرِ المكتوم الذي استَأثَرَ اللهُ بعِلمِه فلم يُطلِعْ عليه أحدًا إلّا منِ ارتضاهُ من الرُّسُل.

والذي يجبُ الايمانُ به أنّ رسولَ الله ﷺ لم ينتقلْ من الدُّنيا حتى أعلَمَه اللهُ بجميع المغَيَّباتِ التي تحصُلُ في الدُّنيا والآخِرة، فهو يَعلَمُها كما هي عيْنَ يقينٍ، لِما وَرَد: «رُفِعت ليَ الدُّنيا، فأنا أنظُر فيها كما أنظُرُ إلى كفِّي هذا»، ووَرَد أنه اطَّلع على الجنّةِ وما فيها والنارِ وما فيها، وغيرِ ذلك بما تواتَرتْ به الأخبارُ، ولكنْ أُمِر بكِتمانِ البعض»[٢]، ولهذا أَخبَر النبيُّ ﷺ بعلاماتِ الساعة، ولكنّه أخفَى تاريخَها، كما أنّ إرادةَ الله تعالى هي أن تقومَ الساعةُ بَغْتةً، وأنْ لا يَعرفَ الناسُ بها قبلَها، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا

---

(١) التفسير الكبير، سورة الأعراف (٧)، الآية ١٨٧.

(٢) حاشية الصاوي، سورة الأعراف (٧)، الآية ١٨٧.

تَسۡعَىٰ ﴾ [طه: ١٥][(١)]، وهكذا أخفى الله تعالى ليلةَ القدرِ أيضًا، حتى يقضيَ الناسُ أكبرَ عددٍ ممكنٍ من اللَّيالي في عبادةِ الله تعالى، وأخفى أيضًا ساعةَ القَبولِ في يوم الجمُعةِ حتى يقضيَ الناسُ أكبرَ وقتٍ ممكنٍ من يوم الجمُعة في ذِكرِ الله تعالى.

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾

٦٢ ـ البعضُ من مُنكري الآخِرة لم يستطعْ عِلمُهم الماديُّ إدراكَ مغزَى الآخِرة، بمعنى: أنّ عقولَهم لم تستوعبْ كيف يمكنُ إحياءُ الناسِ من جديدٍ بعدَ أن يكونوا قد ماتوا وصاروا ترابًا، والبعضُ ابتُليَ بالشكِّ في هذا الأمر، ولكنّهم أَغْلَقوا عيونَهم عن الأدِلة بسببِ عنادِهم، معَ أنّهم لو تَدبَّروا الأدِلّةَ لَكان من الممكنِ أن يهتَدوا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

---

(١) حاشية الصاوي، سورة الأعراف (٧)، الآية ١٨٧.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

٦٣ ـ من قبلُ كان يتِمُّ تخويفُ آبائنا وأجدادِنا، واليومَ يتِمُّ تخويفُنا من أنّكم إن لم تَرجِعوا عن عصيانِ الله تعالى فإنّكم ستُحاسَبونَ يومَ القيامةِ عندَما يبعَثُكم اللهُ من قبورِكم، وقد مَضَت قرونٌ عديدةٌ ونحن نسمَعُ هذه التهديداتِ، ولم نَر أيَّ أثرٍ لقيام الساعةِ هذه، والحقيقةُ أنّ هذا الأمرَ منَ اختراع السّابقين، ولا علاقةَ له بالحقيقةِ من قريبٍ أو بعيد.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

٦٤ ـ الأُممُ السّابقةُ الذين حذَّرهمُ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ من العذاب، يمكنُكم مشاهدةُ قُراهم ومساكنِهم المدَمَّرة، فقد جاءهُم العذابُ، وواجَهوا عذابًا أليمًا مثيرًا للاعتبار، وهكذا فإنّ يومَ القيامة الذي أَخْبَر به الأنبياءُ عليهمُ السَّلام حقٌّ أيضًا، وسوف يتحقَّقُ ذاتَ يوم.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

٦٥ ـ في هذه الآيةِ يُطمئِنُ اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ إلى أنْ لا يحزَنَ ولا يغتمَّ لأولئك الذين لا يقبَلونَ الإسلامَ، ولا يَضِيقُ صدرُه بسببِ أولئك الذين يتآمَرونَ ضدَّ الإسلام؛ لأنك قد أدَّيتَ حقَّ الدّعوةِ إلى الإسلام، وبالتالي هم مسئولونَ عن كُفرِهم ومكرِهم وخِداعِهم.

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

٦٦ ـ عندَما طالبَ الكُفّارُ متسائلينَ: متى يأتيهم عذابُ القيامة؟ قال لهم النبيُّ ﷺ: إنّ العذابَ الذي تستعجِلونَه ربَّما تكونُ بدايتُه قدِ اقترَبت؛ لأنّ الموتَ

في ذاتِه قيامةٌ صُغرى يبدأُ معَه العذابُ، والموتُ يمكنُ أن يأتيَ في أيِّ لحظة. يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا مات أحدُكم فقد قامت قيامتُه، فاعبُدوا اللهَ كأنّكم ترَوْنَه واستغفِروه كلَّ ساعةٍ»[1].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

٦٧ ـ اللهُ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بعبادِه، وحين يَعصي مسلمٌ أو غيرُ مسلمٍ اللهَ تعالى فإنّ اللهَ لا يؤاخِذُه على الفَوْر، وإنّما يُمهِلُه حتى يُصلحَ من نفسِه، ومعَ ذلك فإنّ أكثرَ الناسِ لا يشكُرون.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

٦٨ ـ اللهُ تعالى لا يَعلَمُ الحركاتِ الظاهرةَ لأولئك الكُفّارِ فقطْ، وإنّما يعلَمُ تمامَ العِلم حتى المؤامراتِ التي يدبِّرونَها في داخِلِهم أيضًا، وعندما يحينُ وقتُ مؤاخَذتِهم فإنه سيُحاسبُهم على كلِّ حركةٍ قاموا بها.

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

٦٩ ـ كَتَب اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ خَفِيٍّ في السّماءِ والأرضِ في اللَّوح المحفوظِ عنده، وعندَما يحينُ وقتُ وقوعِه لا يمكنُ أن يتقدَّمَ أو يتأخَّرَ مهما صَرَخَ أحدُهم أو أثار ضجيجًا وصَخَبًا.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

٧٠ ـ القضايا التي كان علماءُ بني إسرائيلَ يختلفونَ فيها، وتفرَّقوا بسببِ إفراطِهم وتفريطِهم فيها، بيَّنَ القرآنُ المَجيدُ معظَمَ هذه القضايا في صُورتِها الحقيقيَّة،

---

(١) كنز العمال، ١٥ : ٦٨٦ برقم ٤٢٧٤٨.

والآنَ إن تَفكَّروا وتدبَّروا بنيّةٍ خالصةٍ فيما بيَّنَه القرآنُ الكريمُ فسينتهي الخلافُ بينَهم، وسيَقبَلون الإسلام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

٧١ ـ القرآنُ المَجيدُ هدايةٌ ورحمةٌ للناسِ جميعًا، ولكنّ الذين يستفيدونَ منه هم أهلُ الإيمانِ فقطْ، ولهذا فإنّ القرآنَ ـ من الناحيةِ العمَليّة ـ هدايةٌ ورحمةٌ لهؤلاءِ فقط.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾

٧٢ ـ اللهُ تعالى سيَحكُمُ يومَ القيامة بينَ بني إسرائيلَ، مَن كان منهم على الحقِّ ومَن كان على الضَّلال، واللهُ تعالى غالبٌ على أمرِه، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُردَّ له حُكمًا.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾

٧٣ ـ توكَّلْ على الله تعالى، ولا تُبالِ بمخالفةِ الكُفّارِ والمنكِرينَ لك؛ لأنّك على الحقِّ، وأهلُ الحقِّ فقطْ هم الذين يُفلحونَ في نهايةِ المطاف.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

٧٤ ـ يقولُ العلّامةُ الخازنُ: «﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: موتى القلوبِ وهم الكُفّار»[١]، يعني: أنهم قد عَطَّلوا عقولَهم وأفهامَهم بكثرةِ طُغيانِهم وعنادِهم المتواصل، بحيث يتساوى الآنَ سماعُهم معَ عَدَم سَماعِه؛ لأنّهم ليسوا على استعدادٍ للسَّمع.

---

(١) تفسير الخازن.

يقولُ البعضُ في تفسيرِ هذه الآية: إنّ الموتَى لا يسمَعونَ كلامَ الأحياء، معَ أنّ المرادَ هنا ليس أولئك الموتَى الذين فارقَتْ أرواحُهم أجسادَهم، وإنّما المرادُ هم الكُفّارُ الأحياءُ الذين ماتت قلوبُهم، أمّا الموتَى الحقيقيُّونَ فهم على العكس من هؤلاءِ يسمَعون، سواءٌ كانوا مسلمينَ أم غيرَ مسلمين، وإليك بعضَ الدّلائلِ في هذا الخصوص:

ـ حين أهلَكَ اللهُ تعالى قومَ ثمودَ بالزِّلزالِ والصَّيحة خاطَبَ سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ هؤلاءِ الموتَى بقوله: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]. ويُعلَمُ منه أنّ الموتَى يَسمَعون، وإلّا لَما توجَّه إليهم سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ بالخطاب.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم تَرَكَ قَتْلى بدرٍ ثلاثًا، ثمّ أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جَهْل بنَ هشام! يا أُميّةُ بنَ خَلَفٍ! يا عُتبةُ بنَ ربيعةَ! يا شَيْبةُ بنَ ربيعةَ! أليس قد وَجدتُم ما وَعَد ربُّكم حقًّا؟ فإنّي قد وَجَدتُ ما وَعَدني ربّي حقًّا». فسمع عُمرُ قولَ النّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم فقال: يا رسولَ الله! كيف يسمعونَ وأنَّى يُجيبونَ وقد جَيَّفوا؟ قال: «والّذي نفسي بيدِه! ما أنتم بأسمعَ لِما أقولُ منهم، ولكنّهم لا يقدِرُونَ أن يُجيبوا». ثمّ أمَرَ بهم فسُحِبوا، فأُلقوا في قَليبِ بَدْر[١].

إذا كان الكافر يسمع في القبر فلم لا يسمع المؤمن؟

ـ يقول سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «العبدُ إذا وُضِع في قبرِه، وتَولَّى وذَهَب أصحابُه حتّى إنّه لَيسمَعُ قَرْعَ نعالِهم»[٢].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ٨ برقم ٣٩٧٦، ومسلم، كتاب الجنة، باب ١٧ برقم ٧٢٢٣.
(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٦٧ برقم ١٣٣٨.

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ أتى المقبُرةَ فقال: «السَّلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحِقون»[1]. ولهذا فإنّنا حينَ نمُرُّ بالمقابرِ فمنَ السُّنّةِ أن نُلقيَ على مَن فيها السَّلامَ، معَ أنّ أجسادَهم ربّما تكونُ قد صارت ترابًا، ولكنّ أرواحَهم تكونُ مرتبِطةً بشكلٍ أو بآخَرَ بقبورِهم، وهي التي نُلقي عليها السَّلامَ.

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «إذا مرَّ الرّجلُ بقبرٍ يعرفُه فسَلَّم عليه رَدَّ عليه السَّلامَ وعرَفَه، وإذا مرَّ بقبرٍ لا يَعرِفُه فسَلَّم عليه رَدَّ عليه السَّلامَ»[2].

ـ يقولُ بِشْر بن منصُورٍ رضي الله عنه: «لمّا كان زمنُ الطّاعونِ كان رجلٌ يختلفُ إلى الجَبّانِ فيشهَدُ الصّلاةَ على الجنائز، فإذا أمسَى وَقَف على بابِ المقابرِ فقال آنَسَ اللهُ وَحشَتكم، ورَحِم اللهُ غُربتَكم، وتجاوَزَ اللهُ عن سيّئاتِكم، وقَبِل اللهُ حسَناتِكم، لا يزيدُ على هؤلاءِ الكلمات، قال ذلك الرّجلُ: فأمسَيْتُ ذاتَ ليلةٍ فانصَرفتُ إلى أهلي ولم آتِ المقابرَ، قال: فبينَما أنا نائمٌ إذا أنا بخَلْقٍ كثيرٍ قد جاءوني، قلت: ما أنتم وما حاجتُكم؟ قالوا: نحن أهلُ المقابر، قلتُ: ما جاء بكم؟ قالوا: إنّك قد كنتَ عوَّدتَنا منك هديّةً عندَ انصرافِك إلى أهلِك. قلت: وما هي؟ قال: الدّعَواتُ الّتي كنتَ تدعو بها. قال قلتُ: فإنّي أعودُ لذلك، قال: فما تركتُها بعدُ»[3].

ـ يقولُ بشّارُ بنُ غالبٍ رضي الله عنه: «رأيتُ رابعةَ العَدَويّةَ في منامي، وكنتُ كثيرَ الدّعاءِ لها، فقالت لي: يا بشّار، هداياكَ تأتينا على أطباقٍ من نورٍ مخمَّرةً بمناديلَ من الحرير، قلت: وكيف ذاك؟ قالت: هكذا دعاءُ المؤمنينَ الأحياءُ إذا

---

(١) مسلم، كتاب الطهارة، باب ١٢ برقم ٥٨٤.
(٢) شعب الإيمان، برقم ٩٢٩٦:
(٣) شعب الإيمان، ٧: ١٧ برقم ٩٢٩٨.

دَعَوْا للموتَى فاستُجيبَ لهم، جُعِل ذلك الدُّعاءُ على أطباقٍ وخُمِّر بمناديلِ الحرير ثمّ أُتيَ به الّذي قد دُعيَ له من الموتَى وقيل: هذه هديّةُ فلانٍ إليك»[١].

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾

٧٥ ـ المرادُ هنا بالصُّمِّ: أولئك الكُفّارُ الذين صُمَّت قلوبُهم عن سَماع الحق، كما أنّهم يَفِرُّونَ منه، فالشخصُ الأصَمُّ يكونُ من الصَّعبِ إسماعُه ولو كان واقفًا أمامَك، ولكنْ حين يُولِّي هذا الأصَمُّ دُبُرَه ويفِرُّ بعيدًا، يصبح من غيرِ الممكنِ إسماعُه.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

٧٦ ـ المرادُ هنا أيضًا من العُمْي هم: الكُفّارُ الذين عَمِيت قلوبُهم عن رؤيةِ الحقِّ، وإنْ حاولتَ جاهدًا أن تُريَهم الحقَّ فإنّهم لا يرَوْنَه بسبب تعصُّبهم وعنادِهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، أمّا الذين ليس في قلوبِهم بُغضٌ وعنادٌ فإنّهم يسمَعون، بل ويؤمنونَ أيضًا.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

٧٧ ـ يقولُ الإمامُ ابنُ كثير: «هذه الدّابّةُ تَخرُج في آخِر الزّمانِ عندَ فسادِ النّاس وتَرْكِهم أوامرَ الله وتبديلِهم الدِّينَ الحقَّ، يُخرِجُ اللهُ لهم دابّةً من الأرض»[٢].

يعني: حين تقتربُ القيامةُ يَظهَرُ من الأرضِ حَيوانٌ عجيبٌ وغريبٌ سيُكلِّمُ أولئك المفسِدينَ العُصاةَ، وسيُخبرُهم بأنّكم كنتُم تُنكِرونَ علاماتِ يوم القيامة، فشاهدوها الآنَ بأعيُنِكم، فإنّها تظهَرُ الآنَ.

---

(١) شعب الإيمان، ٧: ١٧ برقم ٩٢٩٩.

(٢) تفسير ابن كثير.

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ بنُ أُسَيْدٍ الغِفاريُّ رضي الله عنه: اطَّلع النّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكَرُ، فقال: «ما تَذاكَرون؟». قالوا: نَذكُرُ السّاعةَ. قال: «إنّها لن تقومَ حتّى ترَوْنَ قبلَها عشْرَ آياتٍ». فذَكَر الدُّخَانَ والدَّجّالَ والدّابّةَ وطُلوعَ الشّمسِ من مغربِها ونزولَ عيسى ابنِ مريَمَ ﷺ ويَأْجُوجَ ومَأْجوجَ وثلاثةِ خسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرةِ العربِ، وآخِرُ ذلك: نارٌ تَخرُج من اليمنِ تَطرُدُ النّاسَ إلى محشَرِهم»(١)، يعني: ستقومُ الساعةُ بَغْتةً بعدَ ظهورِ هذه العلامات.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ مِن أشراطِ السّاعةِ أن يُرفَعَ العِلم، ويَكثُرَ الجَهلُ، ويَكثُرَ الزّنا، ويَكثُرَ شربُ الخمر، ويقِلَّ الرّجالُ، ويَكثُرَ النّساءُ حتّى يكونَ لخمسينَ امرأةً القَيّمُ الواحدُ»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عَمْرو بن العاصِ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزاعًا، ينتزِعُه من العباد، ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبْضِ العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا، اتَّخذَ النّاسُ رُءوسًا جُهّالًا فسُئلوا، فأفتَوْا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا»(٣).

وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ

---

(١) مسلم، كتاب الفتن، باب ١٣ برقم ٧٢٨٥.

(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب ١١١ برقم ٥٢٣١.

(٣) البخاري، كتاب العلم، باب ٣٤ برقم ١٠٠.

إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٧٨ ـ يومَ القيامة سيُفصَلُ عن أُمم الأنبياءِ الكرام جميعًا عليهمُ السَّلامُ تلك الجماعاتُ التي كان أصحابُها يُنكِرونَ آياتِ الله تعالى، وحينَ يصلُ هؤلاءِ إلى مقام الحسابِ سيقولُ الله تعالى لهم: هل كنتُم تكذِّبونَ آياتي دونَ فَهْم وتدبُّرٍ ودونَ أيِّ دليل؟ فإنْ لم يكن هذا فماذا كنتُم تفعَلونَ إذًا ممّا لم يَدْعكم تتدبَّرونَ آياتي؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾

٧٩ ـ حينَ يَحكُمُ اللهُ تعالى يومَ القيامة بالعذابِ في حقِّ الظالمينَ ستكونُ مظالمُهم واضحةً إلى درجةِ أنهم لن يستطيعوا تقديمَ حُجّةٍ عنها، وسيقفونَ صامتينَ في حَيْرةٍ كأنّ ألسنتَهم قد خِيطت فلا تنطِق.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٨٠ ـ جَعَل اللهُ تعالى اللَّيلَ حتى يستريحَ الناسُ في ظلامِه، وجَعَل النهارَ لكي يَطلُبوا أرزاقَهم في ضيائه، وهذا النظامُ الجميلُ يدُلُّ دِلالةً قاطعةً على وجودِ مدبِّر عظيم هو اللهُ تعالى الذي جَعَل تعاقُبَ اللّيل والنَّهار من أَجْل التوازُن في نظام الحياة.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾

٨١ - حين يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ لأولِ مرّة يَفزَعُ كلُّ مَن في السّماءِ والأرض، ما عدا الملائكةَ والأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ والشُّهداءَ الكرامَ[١]، وسيحفَظُهم اللهُ تعالى من الفَزَع، وحين يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّور للمرّةِ الثانية التي سيُبعَثُ الناسُ بها من القبور، فسيَمثُلُ الناسُ جميعًا في حضرةِ الله تعالى بكلِّ تواضُع وعَجْز.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾

٨٢ - جاء هنا بيانٌ للحالاتِ المختلفةِ للجبال يومَ القيامة، بمعنى: أنّها - في الظاهر - ستكونُ راسخةً في مكانِها، لكنّها - في الحقيقة - تسيرُ وتتحرَّكُ؛ لأنّ الأشياءَ ضخمةُ الحجم، عندما تسيرُ لا يشعُرُ أحدٌ بحركتِها، وعلى سبيل المثال: الأرضُ متحرِّكة، ولكنَّنا لا نشعُرُ بحركتِها، وهكذا يومَ القيامة، الجبالُ ستكونُ متحرِّكةً، ثم فجأةً ستُرفَعُ وتتحطَّمُ وتتناثَر، وتتطايَرُ مِثلَ الغبارِ والسَّحابِ والعِهْنِ المنفوش.

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

٨٣ - هذا صنعُ الله تعالى العظيم بأنه خَلَق كلَّ شيءٍ طبقًا لحاجتِه صحيحًا وقويًّا ورائعًا، انظُرْ إلى نظام السّماءِ والأرض والشمسِ والقمرِ كيف يسيرُ بكلِّ دقةٍ ورَوْعةٍ منذُ أمدٍ بعيد، ولم يحدُثْ فيه أيُّ خَلَل، لكنّ قُدرةَ الله غالبةٌ على كلِّ شيء، ويومَ القيامة ستتطايرُ هذه الجبالُ الضَّخمةُ الشامخةُ بأمرِه تعالى مِثلَ السُّحُبِ والقُطنِ

---

(١) «﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور «نفخة الفزع» فلا يبقى أحدٌ من أهل السماوات والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء». صفوة التفاسير.

المنفوش، ويقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وقولُ النّبيِّ ﷺ: «رَحِم اللهُ مَن عمِل عملًا فأتقنَه»[1]، يعني: أنه ينبغي للمسلم أن يؤدِّيَ كلَّ أعمالِه بإتقانٍ واهتمام كامل؛ لأنّ عملًا طيِّبًا مِثلَ الصّلاة إن أدَّاها المسلمُ بقلبٍ غيرِ منتبه فإنّها لا تُقبَل، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾

٨٤ ـ سيكونُ الناسُ جميعًا يومَ القيامة فَزِعِينَ من جَلالِ الله تعالى، لكنّ الذين جاءوا بالأعمالِ الصّالحة سيُثيبُهمُ اللهُ تعالى على كلِّ حسَنةٍ على الأقلِّ عشَرةَ أضعافِها في الأَجْر، وحين يحصُلونَ على الأَجْر العظيم لحسَناتِهم فإنّهم سيكونونَ بأمانٍ من الفَزَع يومَ القيامة.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٨٥ ـ أمّا الذين سيأتونَ يومَ القيامة بالكُفرِ والشِّركِ فسيُلقَى بهم في جهنَّم، وسيقالُ لهم: إنّكم لا تُظلَمونَ الآنَ، وإنّما تُجزَوْنَ أَجْرَ ما كنتُم تعمَلونَ في الدنيا.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

٨٦ ـ دَعا النبيُّ ﷺ أهلَ مكّةَ إلى عبادةِ الله تعالى قائلًا: إنْ لم تعبُدوه عزَّ وجلَّ فقد أُمِرتُ على كلِّ حالٍ أن أعبدَ اللهَ تعالى الذي هو ربُّ كلِّ شيءٍ في الكائناتِ ومالكُه وليس بلدةَ مكّةَ فقطْ، وأنا مُطيعٌ لهذا الربِّ الحقيقيِّ، وأتلو عليكمُ القرآنَ الذي أَنْزلَه علَيَّ.

---

(١) تفسير القرطبي.

والمرادُ بالبلدةِ هنا هو: مكّةُ التي أعزَّها اللهُ تعالى من جوانبَ عديدةٍ، بمعنى: أنّ في هذه البلدةِ الكعبةَ المشرَّفةَ والصَّفا والمَرْوةَ، وهي محَلُّ ميلادِ النبيِّ ﷺ، ومئاتُ الألوفِ من الناسِ يحُجُّونَ كلَّ عام في هذه البلدة.

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾

٨٧ ـ لقد أرسَلَني اللهُ تعالى لكي أُحذِّرَ الناسَ من عاقبةِ السُّوءِ للضَّلال، فمنِ اهتدَى فإنّما الفائدةُ له هو، إذْ إنه سينجو من عذابِ الله تعالى، ومن بقيَ على ضلالِه فسينالُ عقابَ ضَلالِه.

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

٨٨ ـ الذين يُنكِرونَ الآخِرةَ حين يرَوْنَ علاماتِ القيامة، ويُقامُ ميدانُ الحَشْر، سيتيقَّنونَ من الآخِرة، لكنّ إيمانَهم في ذلك الوقتِ لن يكونَ مقبولًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الظهرِ من يوم الأربعاءِ ١٩ أغسطس ٢٠٠٩م
الموافق ٢٧ شعبان ١٤٣٠هـ.

ـ الآياتُ الأربعَ عشْرةَ الأُولى من هذه السُّورة كتَبتُ تفسيرَها في نيويوركَ بأمريكا، ويمكنُكَ التعرُّفَ على تفصيلِ ذلك في آخِر السُّورة السابقة.

ـ كتبتُ تفسيرَ خمسِ آيات من هذه السُّورة (من الآية ١٥ إلى الآية ١٩) في حُجرة رقم ٥٤٧ بفندق إيبلا الشام بدمشقَ، وسببُ ذلك أنّ وِزارةَ الأوقاف

السُّورية بالتعاون معَ السِّفارة البريطانيّة بدمشقَ قد عَقَدت مؤتمرًا بعُنوان «رسالةُ السَّلام في الإسلام» يومَي: الأول والثاني من شهر يونيو عام **٢٠٠٩**م، شارك فيه ثلاثُمائةِ عالِم وشيخ من مختلفِ أنحاءِ العالَم، وقد دُعيت أنا أيضًا للمشاركة فيه، وكتبتُ تفسيرَ الآياتِ في أوقاتِ الفراغ التي أُتيحت لي بينَ الجَلَسات، وقد رافقَني في هذه الرِّحلة ابني الأكبرُ بَخْتيار حيدر بِيرْزاده، وكان يقيمُ في الحجرة رقم **٥٤٩** بالفندق نفسِه.

ـ كتبتُ تفسيرَ سبع آياتٍ من هذه السُّورة (من الآية **٢٥** إلى الآية **٣١**) في حجرة رقم **٤٤١٤** بفندق منصورٍ الذّهبي بمَرّاكُش المغرب، وكان سببَ ذلك أنّ وِزارة الأوقافِ المغربيّة عَقَدت المؤتمرَ الدوليَّ الثانيَ للتصوُّف في الفترة من **١٠** إلى **١٢** يوليو عام **٢٠٠٩**م، حيث دُعيت أنا من بريطانيا للمشاركة فيه، وهناك كتبتُ تفسيرَ الآياتِ في أوقاتِ الفراغ، وقد رافقَني في هذه الرِّحلة ابني الصَّغيرُ معروفُ بِيرزاده، وكان يقيمُ في الحجرة رقم **٤٤١٠** من الفندق نفسِه.

❃ ❃ ❃

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «القَصَصُ»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٢٥** منها.

والنِّصفُ الأولُ من هذه السُّورة يشتملُ على قصّةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ منذُ أن وُلِد وحتّى بُعِث رسولًا، وذلك بقَدْرٍ كبيرٍ من التفصيل، بحيثُ لم يكنْ أحدٌ يَعلَمُ كلَّ هذه التفاصيلَ قبل نزولِ القرآنِ الكريم، ويَعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى هو الذي أَخْبر المصطفى ﷺ بهذه الأحداث، وهو دليلٌ على أنّ القرآنَ المَجِيدَ كلامُ الله تعالى.

وفي حُكم فرعَوْنَ واستعبادِه لبني إسرائيلَ إشارةٌ كذلك إلى أنّ القُوى المادّيَةَ قد تُضعِفُ أهلَ الإيمان لفترة، ولكنّها لا تستطيعُ أن تقضيَ عليهم للأبد، وعندَما يقصِّرُ أهلُ الإيمانِ فإنّهم يُبتلَوْنَ، ولكنْ حينَ يُصلِحونَ أنفسَهم تَظهَرُ بركاتُ الإيمانِ عليهم من جديد.

في هذه الواقعةِ درسُ عِبرةٍ لكفّارِ مكّةَ أيضًا بأنّهم ليسوا أكثرَ قوةً من فرعَوْنَ وحكومتِه، وإذا كان فرعَوْنُ وجيوشُه لم يستطعوا إثناءَ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ عن تبليغ رسالةِ التوحيد، فكيف يمكنُ لأهلِ مكّةَ أن يُثْنوا النبيَّ الكريمَ ﷺ عن تبليغ رسالةِ التوحيد، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فيها تسريةٌ عن قلوبِ أهلِ الإيمان وطَمْأنةٌ لهم بأنه إذا لم تستطعْ قوّةٌ مِثلُ فِرعَونَ القضاءَ على الإسلام، فإنّ كفّارَ مكّةَ أيضًا لا يستطيعونَ القضاءَ على الإسلام، وفي النِّهاية سينتصرُ أهلُ الإيمان.

في هذه السُّورة بيانٌ لقصّةِ واحدٍ من قوم سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ (قارونَ)، والذي كان في بدايةِ أمرِه فقيرًا مُدقِعًا، ولمّا صار بفَضْل الله تعالى ثرِيًّا تحوَّل إلى بَخيلٍ غايةً في البُخل، وطغَى وتكبَّر، وهو ما عاقبَه اللهُ تعالى عليه بأنِ ابتَلعتْه الأرضُ هو وكلَّ خزائنِه. ويُعلَمُ من هذه الواقعة أنّ الذين يؤمنونَ بأنّ مالَ الدُّنيا ومتاعَها عطاءٌ من الله تعالى يكونونَ أسخِياءَ، فيستفيدونَ من هذا العطاءِ بأنفسِهم، ويُفيدونَ خَلْقَ الله تعالى به أيضًا، وفوقَ ذلك يحترمُهم الناسُ ويُجِلُّونَهم، ويكونونَ عندَ الله من الفائزين، أمّا الذين يعتقدونَ أنّ مالَ الدنيا ومتاعَها إنّما هو نتيجةٌ لعلمِهم، وينسَوْنَ أنّ هذا العِلمَ عطاءٌ من الله تعالى أيضًا، فإنّهم يكونونَ بُخلاءَ مِثلَ قارونَ، فلا يستفيدونَ من المالِ بأنفُسِهم، ولا يَدَعُونَ خَلْقَ الله تعالى يستفيدونَ منه، ويصبحونَ مثارَ كراهيَةٍ ونفورٍ بينَ الناس في الدُّنيا، ويندَمونَ أشدَّ النَّدم في الآخِرة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده
جامعة الكرَم، إيتن هال، إنجلترا
بعدَ صلاةِ الظهر من يوم السبت ٢٢ أغسطس ٢٠٠٩م
الموافق الأولَ من رمضانَ المباركِ ١٤٣٠هـ.

* * *

سُورَةُ القَصَصِ (٢٨)،

مكية (٤٩)، آياتها (٨٨)، ركوعاتها (٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿طسٓمٓ﴾

١ ـ راجعْ تفسيرَ الآيةِ الأُولى من سُورة البقرة للتعرُّفِ على تفسيرِ الحروف المقطَّعات.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

٢ ـ القرآنُ المَجِيدُ كتابٌ واضحٌ ومنير، ولا مجالَ فيه لأيِّ شكٍّ أو إبهام، ولهذا فإنّ كلَّ الأحكام والقَصَص الواردةِ فيه واضحةٌ جَلِيّةٌ أيضًا.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾

٣ ـ كانت قصّةُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ والفِرعَونِ معروفةً تمامًا في الجزيرةِ العربيّة، لكنَّها كانت مختصَرةً ومبهَمة، وقد بيَّن النبيُّ الكريمُ ﷺ هذه القصّةَ بتفصيلٍ كامل مثلَما حدَثتْ تمامًا، ويُعلَمُ منه أنّ اللهَ تعالى هو الذي أَخْبر النبيَّ الكريمَ ﷺ بالقصّة، وهو دليلٌ على أنّ القرآنَ المَجِيدَ كلامُ الله تعالى، وأنّ سيِّدَنا محمدًا رسولُ الله ﷺ ونبيُّه.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٤ ـ رَغْم أنّ في هذه القصَّةِ درسَ عِبرةٍ للناسِ جميعًا، لكنّ الذين يستفيدونَ منها في الواقع هم الذين يؤمنونَ بالقرآنِ الكريم وبصِدق القَصَص التي ورَدَتْ فيه، ويُعلَمُ منه أنّ الاستماعَ إلى الأحداثِ التاريخيّةِ وقَصَّها على الآخَرينَ والتدبُّرَ فيها من العبادة.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾

٥ ـ كان فرعونُ يَحكُمُ في بلادِ مِصرَ، وكان طاغيةً متكبِّرًا إلى درجةٍ جعَلَتْه

يدَّعي أنه الربُّ الأعلى، وكان الناسُ يعبدونَه، وقَسَم شعَبِ بلادِه إلى قسمَيْنِ، القسمُ الأول، يعني: القِبطَ، وجَعَلهم سادةً؛ لأنّ السُّكانَ الأصْليِّينَ لمِصرَ كانوا أقباطًا، وكان الفِرعونُ منهم أيضًا، أمّا القسمُ الثاني فهم بنو إسرائيلَ، والذين سَكَنوا مِصرَ في عهدِ حُكم سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ لها، هؤلاءِ عَمِل الفِرعونُ على إذلالِهم، فكانوا يُعَدُّونَ مواطنينَ من الدرجةِ السُّفلى، وكانوا يتكسَّبونَ من خدمةِ الأقباط.

يقولُ سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ بني إسرائيلَ لمَّا كثُروا بمِصرَ استطالوا على الناسِ وعَمِلوا بالمعاصي ولم يأمُروا بالمعروفِ ولم ينهَوْا عن المنكر، فسَلَّط اللهُ عليهم القِبطَ»[1].

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

٦ ـ أَخْبر المنجِّمونَ فِرعونَ أنّ طفلًا سيولَدُ في بني إسرائيلَ سيكونُ سببًا في زوالِ مُلكِه، ولهذا أمَرَ الفِرعونُ بذَبْح أيِّ طفل يولَدُ في بني إسرائيلَ، بينَما يُترَكُ بناتُهم أحياءً حتى يُصبحنَ إماءً عندَ الأقباط، كما أنه لم يكن هناك أيُّ خطرٍ من مخالفةِ النِّساء؛ لأنّ الكَهَنةَ تحدَّثوا عن الولَدِ فقطْ، وكان الفِرعونُ بلا شكٍّ ظالمًا متجبِّرًا ومفسِدًا طاغيةً بسببِ قَتْلِه الأطفالَ وإذلالِ بني إسرائيل.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

٧ ـ لقد ظَلَم الفِرعونُ مرّةً حين جَعَل من بني إسرائيلَ مواطنينَ من الدَّرجةِ السُّفلَى واستعبَدَهم، وظَلَم المرّةَ الثانيةَ حين أمَرَ بقتلِ الآلافِ من أطفالِ بني إسرائيلَ حديثي الولادةِ خوفًا من أن يكونَ من بينِهم ذلك الطِّفلُ الذي يُمثِّلُ خطورةً

---

(١) تفسير الخازن.

على مُلكِه، ولكنّه لم يكنْ يَعلَمُ أنّ الحكوماتِ قد تبقَى برَغْم الكُفرِ والشِّركِ، لكنّ الحكوماتِ تنهارُ بسببِ الظُّلم والجَوْر، وهكذا أحسَن اللهُ تعالى إلى بني إسرائيلَ لكي يعـاقبَ الفِرعونَ على ما ارتـكَبَ من مظالمَ، فأراد أن يجعَلَهم المرشدينَ الدِّينيِّين لمِصرَ، والوارثينَ لها والحُكّامَ عليها، وهيَّأ لذلك الطِّفل، الذي تخوَّفَ منه الفِرعونُ ووزيرُه هامانُ وجيوشُه، أن يتربَّى ويكبَرَ في قصُورِ الفِرعونِ نفسِه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

٨ ـ أصدرَ الفِرعَونُ حُكمَه بأن يُقتَلَ كلُّ طفلٍ يولَدُ في بني إسرائيل، وهكذا قَتَل سبعينَ ألفَ طفلٍ[(١)]، وفي تلك الأيام وُلد سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ.

وقد نَقَل العلّامةُ البَغَويُّ ما قاله وَهبُ بنُ منبِّهٍ في هذا الخصُوص: «لمّا حَمَلت أُمُّ موسى بموسى فلم يَنْتَأْ بطنُها، ولم يتغيَّرْ لونُها، ولم يظهَرْ لبنُها، وكانتِ القوابلُ لا تتعرَّضُ لها، فلمَّا كانت اللّيلةُ الّتي وُلِد فيها وَلَدتْه ولا رقيبَ عليها ولا قابلة، ولم يطَّلعْ عليها أحدٌ إلّا أُختُه مريَمُ، فأوحَى الله إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ الآيةَ، فكتمَتْه أمُّه ثلاثةَ أشهرٍ تُرضِعُه في حِجرِها، لا يبكي ولا يتحرَّكُ»[(٢)].

وعَدَمُ ظهورِ آثارِ الحَمْل على أُمِّ سيّدِنا موسى عليه السَّلام قبْلَ ولادتِه، وعَدَمُ بكاءِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ بعدَ الولادة، كلُّها أمورٌ غيرُ فِطريّة، وقدِ استَنْتَجَت منها أُمُّ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ أنّ ابنَها هذا سيكونُ له شأنٌ غيرُ عاديٍّ، وقدِ اطمَأنَّ قلبُها أكثرَ حين ألهمَها اللهُ تعالى، أيْ: ألقَى في رُوعِها أنِ استمرِّي في إرضاع الطِّفل، وحين تشعرينَ بالخطرِ يَحِيقُ بحياةِ الطِّفل ضَعِيه في صندوقٍ،

---

(١) «قال وهب: بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد». تفسير القرطبي.

(٢) تفسير البغوي، معالم التنزيل.

وقومي بإلقائه في نهرِ النِّيل، ولا تغتمِّي ولا تقلقي بشأنِه، فسوف نُعيدُه إليكِ أنتِ أُمِّه، وسوف ينشَأُ ويكبَرُ في سَلام، وسوف يُبعَثُ رسولًا حين يَبلُغُ مبلغَ الشباب.

والمرادُ بالوَحْي في هذه الآيةِ ليس ذلك الوحيَ الذي يكونُ للأنبياء، وإنّما هو الإلهامُ الذي يُلقي به اللهُ تعالى في قلوبِ عبادِه المقبولين؛ لأنه ليس هناك امرأةٌ نَزَلت عليها النُّبوّةُ. وراجع في هذا الخصُوص الحاشيةَ رقم ٢١ للآية رقم ٤٢ من سُورة آلِ عِمران (٣).

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾

٩ ـ حين وَصَل صندوقُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ منجَرِفًا معَ تيّارِ الماءِ بالقُربِ من قصرِ فرعَوْن، أَخْرجه رجالُ البَلاطِ وقدَّموه إلى فرعَوْنَ وزوجتِه، فاعتبَر هذانِ الطِّفلَ قُرّةَ أعيُنِهما وقرَّرا أن يُربِّياهُ في القَصْر، لكنّ نتيجةَ ذلك كانت أنّ هذا الطِّفلَ أصبح عدوًّا لفِرعَونَ وبمثابةِ السببِ في غمِّه وحُزنِـه، وكان السببَ في ذلك أنّ فِرعونَ وجيشَه كانوا جميعًا خاطئينَ ظالمينَ، فجَعَل اللهُ تعالى ذلك الطِّفلَ الذي تربَّى في القصرِ وسيلةً لهلاكِهم جميعًا عقابًا لهم على ما ارتكَبوه من مظالمَ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

١٠ ـ لمَّا رأتِ امرأةُ فرعونَ هذا الطِّفلَ قالت لِفرعونَ: ليس لدينا وَلدٌ، وهذا طفلٌ جميل، فلْنتَّخِذْه ولدًا لنا، وسيكبَرُ هذا الطّفلُ ويصبحُ وسيلةً لسعادتِنا وراحةِ قلوبِنا، لكنَّهم كانو غافلينَ عن عاقبة ذلك، إذ إنّ هذا هو الطّفلُ الذي سيكونُ سببًا في هلاكِ فرعونَ في نهايةِ الأمر.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

١١ ـ يقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: «فجاءها الشّيطانُ فقال لها: كرِهتِ أن يقتُلَ فِرعونُ ولدَكِ فيكونَ لكِ أجرٌ فتولَّيتِ إهلاكَه»[1]! وبعدَ هذه الوَسْوسةِ خَلا قلبُ والدةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ من الأفكارِ الأخرى، وامتَلأَ بالحُزنِ والألم على ولدِها، تُرى ماذا سيحدُثُ لولَدِها؟ واشتدَّ اضْطِرابُها وفزَعُها إلى درجةِ أنّها كادت تُفشي سرَّها بنفسِها معترِفةً أنّ هذا ابنُها، لكنّ اللهَ تعالى قَوَّى قلبَها، حتى تتيقَّنَ من وَعْدِ الله لها بأنه سيعيدُ إليها ولَدَها.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

١٢ ـ بعدَ أن ألقَتْ والدةُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ به في النَّهر، قالت لأُختِه أنْ تتعقَّبَ الصُّندوقَ، وتَرى إلى أين يذهبُ؟ وهكذا ظلَّتِ الأُختُ تراقبُ الصُّندوقَ الذي يضُمُّ أخاها من بعيدٍ بطريقةٍ لم يشعُرْ معَها رجالُ الفِرعونِ بأنّ هذه الفتاةَ تتعقَّبُ الصُّندوقَ، أو أنّ لها علاقةً بالطِّفلِ الذي بداخلِه.

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾

١٣ ـ حين وَصَل الصُّندوقُ إلى قصورِ الفِرعَون، وتقرَّر الإبقاءُ على سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ حيًّا، استَدعتِ امرأةُ فِرعونَ عددًا من النِّساءِ لإرضاعِه، ودَخَلت أُختُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ هي الأخرى معَ النِّساءِ الأُخرَياتِ إلى القَصْر، ورأتْ أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ لا يرضَعُ اللَّبنَ من أيِّ امرأة؛ لأنّ اللهَ تعالى

---

(١) التفسير الكبير.

قد حرَّمَ لبنَ المرضِعاتِ على سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وعندَئذٍ قالت أُختُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ لامرأةِ فرعونَ: أنا أَدُلُّكم على امرأةٍ سيَرضَعُ هذا الطِّفلُ لبنَها، وستقومُ هذه المرأةُ بتربيتِه بكلِّ سعادةٍ ومحبّةٍ ورضىً.

﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٤ ـ وهكذا أحضَرت أُختُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ أُمَّها، وأخَذ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ يَرضَعُ من لبنِها، ففَرِحتِ امرأةُ فرعونَ بهذا كثيرًا، وقالت لأُمِّ سيّدِنا موسى عليه السَّلام: أقيمي هنا في القصور وقومي بتربيةِ هذا الطِّفل، لكنّ والدةَ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ قالت: لا أستطيعُ أن أترُكَ زوجي وأولادي وأعيشَ هنا، وهكذا تقرَّر أن تأخُذَ الطِّفلَ معَها إلى بيتِها وتربِّيَهُ عندَها، على أنْ تتقاضَى أجرًا على ذلك من الخِزانةِ المَلَكيّة، وقد قَبِلت أُمُّ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ هذا الأَجْرَ حتى لا ينكشفَ سِرُّها؛ لأنه لو عَلِم فِرعونُ أنها أُمُّه الحقيقيّةُ، وأنها ألقَتْ بسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ في النهرِ لتُنقِذَه من القتل، لَكان من الممكنِ أن يحاولَ الفِرعونُ قتْلَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام. على أيِّ حال، أعاد اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ إلى أُمِّه بهذه الطريقة، حتى تقَرَّ عينُها ولا تحزَنَ، وتتيقَّنَ من أنّ وعدَ الله حقّ، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يوقِنونَ بوعدِ الله تعالى، وقد بقيَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ في بيتِ والدتِه حتى بَلَغَ سنَّ الفِطام، ثم انتقَل بعدَ ذلك إلى قصرِ فرعَوْنَ.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ

مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

١٥ ـ حين بَلَغ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ مبلغَ الشَّباب، واكتملَ نموُّه وتَرعرَعَ، أَنْعم اللهُ تعالى عليه بالحِكمةِ والمعرفة وبعِلم دينِ آبائه وأجدادِه[1]، وكان سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ وأُمُّه صالحَيْنِ، ولهذا أَنْعم اللهُ تعالى عليهما بكرَمٍ خاصٍّ من عندِه، يعني: أَنْقذَهم من مظالم الفِرعَون، وهكذا يُثيبُ اللهُ تعالى الذين يعمَلون الصالحاتِ أحسنَ الأَجْر.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾

١٦ ـ حين عَرَف سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بدينِ التوحيد عن طريقِ العِلم والحِكمة التي أَنْعم اللهُ بهما عليه، أَخَذ يذُمُّ كُفرَ فِرعونَ وقومِه وشِركَهم، وبناءً

---

(١) «﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: الحكمة والعلم بما في دينه ودين آبائه». تفسير القرطبي.

عليه أصبح قومُ فرعَونَ مخالفينَ لسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ، وقَطَع الفِرعَونُ أيضًا علاقتَه معَه وطرَدَه من المدينة، فابتَعَد سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عن المدينةِ لعدّةِ سنواتٍ، وحين كان يُضْطَرُّ إلى الذهابِ إلى المدينةِ لسببٍ من الأسباب، كان يذهبُ إليها في أوقاتٍ لا يشعُرُ أحدٌ فيها بمجيئه.

وهكذا، وفي ذاتِ يوم جاء سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى المدينةِ في وقتٍ كان الناس فيه نِيَامًا، ونظَر سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ فإذا برجُلَيْنِ يتشاجَرانِ، وكان أحدُهما إسرائيليًّا من قومِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ، أمّا الآخَرُ فكان قِبْطيًّا من قوم فِرعَونَ. استَغاثَ الإسرائيليُّ مستعينًا بسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ على هذا القِبْطيِّ، فمَنَع سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ القِبطِيَّ من التعَدِّي على الإسرائيليِّ، فترَكَ القِبطِيُّ هذا الإسرائيليَّ وأخَذ يتشاجَرُ معَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، فلَكَمَه سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ لكْمةً بقَصْدِ أن يُفلِتَ منه، ولكنّ هذه اللَّكمةَ أدَّت إلى موتِ القِبطيِّ، ولم يكنْ لدى سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ أيُّ نيَّةٍ لقتلِ القِبطيِّ؛ لأنه كان يَعلَمُ تمامًا أنّ قَتْلَ أحدٍ إنّما هو من عملِ الشّيطان، والشّيطانُ للإنسانِ عدوٌّ مُبين.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وإنّما أغاثَه لأنّ نَصْرَ المظلوم دِينٌ في المِلَل كلِّها على الأُمم وفَرْضٌ في جميع الشرائع»[1].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

١٧ ـ رَغْمَ أنّ القتلَ بغيرِ نيّةٍ أو إرادةٍ لذلك ليس ذنبًا، لكنّ تقوى النبيِّ تكونُ على درجةٍ رفيعةٍ بحيثُ يَتَصوَّرُ الخطأَ البسيطَ أو ما هو خلافُ الأَوْلى ظُلمًا في حقِّ نفسِه، مثلَما قال سيّدُنا آدمُ وسيّدُنا يونُسُ عليهما السَّلامُ عن نفسَيْهما: أنّهما

(١) تفسير القرطبي.

ظالمَيْنِ، وبنفسِ الطريقة تَصوَّر سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ هذا القتلَ بالمصادَفةِ ظُلمًا في حقِّ نفسِه، وطلَبَ المغفرةَ من الله تعالى، وغَفَر اللهُ تعالى له.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

١٨ ـ قال سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ: يا ربِّ، لقد أحسَنْتَ إليّ كثيرًا، يعني: أنقَذْتَني من القتلِ حين كنتُ طفلًا، وأَنْعمتَ علَيّ بالعِلم والحِكمةِ ومعرفتِك، وأنقَذْتَني من شِركِ فرعَوْنَ ورجالِه وكفرِهم، وثبَتَّ قدَميَّ على الهداية، فزِدْ في إحسانِك علَيّ، ووفِّقْني إلى أن لا أكونَ في المستقبَل مُعِينًا للمجرمينَ والذين ينكرونَك[١]؛ لأنّ الذي يعينُ المجرمينَ والظالمينَ ظالمٌ مِثلُهم أيضًا، وأنا أُعاهدُك أنْ لا أكونَ مُعينًا للمجرِمينَ أبدًا.

ـ نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية قولَ النبيِّ ﷺ: «مَن مشَى معَ مظلومٍ ليُعينَه على مَظلِمتِه ثبَّتَ اللهُ قدمَيْهِ على الصّراطِ يومَ القيامة يومَ تزِلُّ فيه الأقدام، ومَن مشَى معَ ظالمٍ ليُعينَه على ظُلمِه أزَلَّ اللهُ قدَميْه على الصّراطِ يوم تَدحَضُ فيه الأقدام»[٢].

ـ يقولُ سيِّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إن النبيَّ ﷺ قال: «انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، قلنا: يا رسولَ الله، نصَرتُه مظلومًا فكيف أَنصُرُه ظالمًا؟ قال: «تكُفُّه عن الظُّلم، فذاك نَصْرُك إيّاه»[٣].

---

(١) «ليس هذا خبرًا بل هو دعاء؛ أي: فلا أكون بعدها ظهيرًا للكافرين؛ أى فلا تجعلني يا رب ظهيرًا للمجرمين». تفسير القرطبي.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٦٨ برقم ٢٢٥٥.

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

١٩ ـ بعدَ موتِ القِبطيِّ دَفَنه سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ في الرِّمال، ولم يكنْ أحدٌ غيرَ هذا الإسرائيليِّ يعلَمُ بكلِّ هذا الذي حَدَث؛ لأنّ الناسَ جميعًا في ذلك الوقتِ كانوا نِيامًا، وكان السُّوقُ خاليًا، لكنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ خَشِيَ أن يُفشيَ الإسرائيليُّ السّرَّ، ولهذا فإنه عندَما خَرَج في اليوم التالي ليتفقَّدَ الأحوالَ ويحلِّلَ الأوضاع، رأى الإسرائيليَّ نفسَه يتشاجَرُ معَ رجلٍ آخَرَ، واستَغاثَ بسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ وطَلَب العَوْنَ منه، فغَضِبَ منه سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ غضبًا شديدًا، ونَهَره قائلًا: مرةً ثانيةً تتورَّطُ في الشِّجار معَ الآخَرينَ اليوم؟ يبدو أنك سيِّئُ الخُلُق ضالٌّ غَوِيٌّ.

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

٢٠ ـ تقدَّم سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى القِبطيِّ ليُمسكَ به ويَنهيَ هذا الشِّجار، ولكنْ لأنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ كان قد أَظْهَر غضَبَه من هذا الإسرائيليِّ، لهذا اعتقَد الإسرائيليُّ خطأً أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ يتقدَّمُ منه ليُمسكَ به، فصَرَخ قائلًا: أتريدُ أن تَقتُلَني كما قتلتَ شخصًا أمسِ؟ يبدو أنك تريدُ أن تكونَ جَبّارًا في هذه البلاد، ولا تريدُ أن تكونَ من المصلِحين! وهكذا أفشَى الإسرائيليُّ ـ بحماقتِه ـ سرَّ القتلِ الذي وَقَع أمسِ، وذَهَب القِبطيُّ وأَخْبَر الفِرعَونَ بالأمرِ قائلًا: إنّ المسئولَ عن القتلِ الذي حدَثَ أمسِ هو سيّدُنا موسى عليه السَّلام.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

٢١ ـ عندَما عَلِم الفِرعونُ بالقاتل استدعَى إليه سادةَ قومِه في عاصمتِه على آخِر أطرافِ المدينة، حيث قرَّر في هذا الاجتماع قَتْلَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، ولمّا عَلِمَ أحدُ مُحِبّي سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ بهذه المؤامرةِ أَسْرع إلى سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ وأطلَعه على نوايا الحكومة، وأشار عليه أن يَرحَلَ عن هذه المدينة فورًا، وإلّا فإنّهم سيعتقلونَه ويقتُلونَه.

ويمكنُ أن يكونَ الغَرَضُ من بيانِ هذه القصَّة أنه حين يتآمَرُ كُفّارُ مكّةَ على قَتْل النبيِّ ﷺ، ويُضْطَرُّ ﷺ إلى الخروج من مَكّةَ، سيَعلَمُ أنه ليس وحدَه الذي حدَث معَه هذا، وإنّما تآمَرتِ الأُممُ السابقةُ أيضًا على أنبيائهم الكرامِ عليهمُ السَّلامُ أجمعين.

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٢٢ ـ وهكذا خرَج سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من مِصرَ خوفًا من أن يعتقلوه، ولهذا دعا ربَّه أن يُنجيَه منَ اعتقالِ قومِه له.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي

ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

٢٣ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمة: «لمّا خَرَج موسى عليه السَّلامُ فارًّا بنفسِه منفرِدًا خائفًا، لا شيءَ معَه من زادٍ ولا راحلةٍ ولا حذاءٍ، نحوَ مَدْيَن، للنَّسَبِ الّذي بينَه وبينَهم؛ لأنّ مَدْيَنَ من وَلَدِ إبراهيمَ، وموسى من وَلَدِ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ، ورأى حالَه وعَدَم معرفتِه بالطّريق، وخُلُوَّهُ من زادٍ وغيرِه، أسنَدَ أمرَه إلى الله تعالى بقولِه: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذه حالةُ المضْطَرّ. قلت: رُويَ أنّه كان يتقوَّتُ وَرَقَ الشّجر، وما وَصَل حتّى سَقَط خُفُّ قدمَيْه. قال أبو مالكٍ: وكان فِرعَونُ وَجَّه في طلبه وقال لهم: اطلُبوه في ثَنِيّاتِ الطّريق، فإنّ موسى لا يَعرِفُ الطّريقَ. فجاءه مَلَكٌ راكبًا فرسًا ومعَه عنزةٌ، فقال لموسى: اتَّبِعْني، فاتَّبَعه، فهداه إلى الطّريق. فيقال: إنّه أعطاهُ العنزةَ فكانت عصاه. ويُروَى أنّ عصاهُ إنّما أخَذها لرعيةِ الغَنَمَ من مَدْيَن، وهو أكثرُ وأصحُّ. وقال مُقاتلٌ والسُّدِّيُّ: إنّ اللهَ بَعَث إليه جِبريلَ، فاللهُ أعلمُ، وبينَ مَدْيَنَ ومِصرَ ثمانيةُ أيّامٍ، قاله ابنُ جُبَيرٍ والنّاسُ. وكان مُلكُ مَدْيَنَ لغيرِ فرعَوْنَ»[1].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾

٢٤ ـ عندما وَصَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بالقربِ من مَدْيَنَ رأى بئرًا وعندَه كثيرٌ من الناس يَسقُونَ مواشيَهُم الماءَ منه، ورأى امرأتَيْنِ تقِفانِ صامتتَيْنِ

---

(١) تفسير القرطبي.

في جانبٍ بعيد، وقد أوقَفَتا أغنامَهما عن الذِّهابِ إلى البئر، فسألَهما سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ: لماذا تَقِفانِ بعيدًا هكذا ولا تسقيانِ أغنامَكما؟ فأجابَتاه: نحن امرأتانِ ضعيفتانِ، ولا نستطيعُ أن نتقدَّمَ بأغنامِنا إلى الماءِ وَسَطَ زِحام الرِّجال هذا، كما أنّنا نستحي من الاختلاطِ بالرِّجال، ولهذا فإنّنا ننتظرُ إلى أن ينتهيَ الرُّعاةُ جميعًا من سَقْي مواشيهمُ الماءَ ويُغادروا المكانَ، وعندَئذٍ نَسْقي نحن أغنامَنا، وأبونا شيخٌ كبيرٌ ضعيف، ولو كان قويًّا لَجاء بنفسِه لسَقْي الأغنام بدلًا منا.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

٢٥ ـ رَقَّ قلبُ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ لِما سَمِعه من المرأتَيْنِ، فتقدَّم بنفسِه وسَقَى لهما أغنامَهما من الماء، ولأنه عليه السَّلامُ قد وَصَل مَدْينَ بعدَ أن قَطَع سفرًا طويلًا، ولم يكنْ أحدٌ من هناك يعرِفُه، لهذا جلسَ عليه السَّلامُ في ظِلِّ شجرةٍ وقال: يا ربِّ، إنّني في أشدِّ الحاجة إلى الخيرِ الذي تُنزِلُه علَيَّ، فأَنْزِل علَيَّ الخيرَ سريعًا يا إلهي.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٢٦ ـ مَن كان والدَ هاتَيْنِ المرأتَيْنِ؟ رَغْم الاختلافِ حولَ هذا الأمر إلّا أنّ أكثرَ المفسِّرينَ يرَوْنَ أنه سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلام، والذي أرسَلَه اللهُ تعالى نبيًّا إلى أهلِ مَديَن.

عادتِ المرأتانِ إلى بيتِهما وأَخْبَرتا والدَهما المُسِنَّ عن أمرِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وكيف أنه ساعَدهما وسَقَى لهما الأغنامَ، فأراد سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ أن يدعوَه إلى بيتِه ويستضيفَه عندَه بقَصْد ردِّ الجميل له، وهكذا ذَهبتْ إحدى هاتَيْنِ

المرأتَيْنِ تمشي على استحياءٍ إلى سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ وقالت له: إنّ والدي يدعوكَ إليه. ولمَّا وَصَل سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى والدِهما وقَصَّ عليه قصّتَه، طَمْأَنهُ سيِّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قائلًا: لقد نَجَوْتَ من قبضةِ الظالمين، ولهذا لستَ في حاجةٍ الآنَ إلى أن تحزَنَ أو تغتمَّ؛ لأنه لا حُكمَ لفِرعونَ على هذه المنطقة.

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

٢٧ ـ مَكَثَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ عدّةَ أيام ضَيْفًا في بيتِ سيِّدِنا شُعيب عليه السَّلام، وفي يوم من تلك الأيام قالت إحدى المرأتَيْنِ لأبيها: يا أبتاهُ، إنك لا تستطيعُ الخروجَ من البيتِ بسببِ الشَّيخوخة، وليس لدينا أخٌ يقومُ عنّا بالأعمالِ خارجَ البيت، ونحن لهذا نُضْطَرُّ إلى الخروج بأنفسِنا، ولهذا أُشيرُ عليك يا أبَتِ أن تتَّخذَ منه عاملًا بالأُجرةِ لدَيْكَ، وهو رجلٌ مناسبٌ تمامًا لهذا العمل، فهو قويٌّ، لأنه شَقَّ زِحامَ الناسِ عندَ البئرِ وسَقَى لنا أغنامَنا، وهو في نفسِ الوقت أمينٌ؛ لأنه ساعَدَنا دونَ أيِّ غرضٍ أو طَمَع رَغْم ضعفِنا، ولم يرفَعْ نظَرَه إلينا أبدًا. أَعجَبتْ مَشُورةُ الابنةِ أباها سيّدنا شُعيبًا عليه السَّلام، فتحدَّث في الأمرِ معَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، ووافَقَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ على ذلك.

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

٢٨ ـ لمَّا رأى سيِّدُنا شُعيبٌ عليه السَّلامُ حُسنَ أخلاقِ وتصرُّفاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ قال له: لو أحبَبْتَ أن تبقَى لدينا ثمانيةَ أعوام فإنّي أريدُ أن أزوِّجَك إحدى ابنتَيَّ هاتَيْنِ، ولئن أَقمْتَ لدينا عشَرةَ أعوام فسيكونُ هذا فضْلًا

منك وإحسانًا، ولكنْ إن أردتَ أن ترحَلَ بعدَ ثمانيةِ أعوام فلن أمنَعَك، وإن شاء اللهُ تعالى تَجِدُني ملتزِمًا بما وَعدتُ به حريصًا على تنفيذِه. وعليه وافَقَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ، فزوَّجَه سيّدُنا شُعيبٌ عليه السَّلامُ بابنتِه الصُّغرى (وكان اسمَها صافورةُ أو صافُوريا) بعدَ التشاورِ معَه في هذا الخصوص.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنه: قال لي رسولُ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم: «إذا سُئلتَ: أيَّ الأَجَليْنِ قضَى موسى؟ فقل: خيرَهما وأتمَّهما وأبرَّهما، وإن سُئلتَ: أيَّ المرأتَيْن تزوَّج؟ فقل: الصُّغرى منهما، وهي الّتي جاءت وقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: سُئل رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلّم: أيَّ الأَجَليْنِ قضَى موسى؟ قال: «أبعدَهما وأطيبَهما»[٢]، أي: أكملَ مدةَ عشْرِ سنوات[٣].

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾

٢٩ ـ قال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ: لقدِ اتَّفقْنا الآنَ فيما بينَنا، واللهُ شهيدٌ على أنّ المدةَ التي سأقضيها من المُدَّتَيْنِ اللتَيْنِ ذكرتَهما سأقضيها برضىً منِّي، وأنك لن تطالبَني بالمزيدِ إن أردتُ الرَّحيلَ.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ

---

(١) المعجم الصغير، الطبراني، ٢: ١٩.
(٢) المستدرك للحاكم، المجلد الثاني: ٤٤٢ برقم ٣٥٣١.
(٣) التفسير الكبير.

أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

٣٠ ـ بعدَ أن عمِلَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ برَعْي الغنَم عندَ سيّدِنا شُعيبٍ عليه السَّلامُ لعشْرِ سنواتٍ أخَذ زوجتَه ورَحَلا عن مَدْينَ إلى مِصرَ، وحين وَصَلا بالقربِ من جبل الطُّور، وكانت ليلةً باردةً مظلِمةً، رأى سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ من

بعيدٍ نارًا، فقال لزوجتِه: انتظري هنا، وأنا سأذهبُ عندَ تلك النارِ المشتعِلة، فلا بدَّ أنّ أحدًا يعيشُ هناك، وسأسألُ عن الطريقِ الصَّحيح إلى مِصرَ، حتى لا نَضِلَّ طريقَنا في هذا اللَّيل المظلِم، أو أنَّني سآتيكِ بجَذْوةٍ من النارِ نَصْطلي بها من هذا البردِ القارص.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٣١ ـ حينَ وَصَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ هناك رأى منظَرًا عجيبًا، فقد وَجَد أنّ النارَ التي تخرُج متوهِّجةً من شجرةٍ على الجانبِ الأيمنِ من الوادي إنّما هي مشهَدٌ جاذبٌ من نُور، وجاءه منه صوتٌ فجأةً: يا موسى عليه السَّلام، الذي يُخاطبُك الآنَ هو اللهُ تعالى، وهذا النُّورُ شَبيهُ النارِ الذي يتراءَى لكَ إنّما هو التجلِّي منِّي.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾

٣٢ ـ في تلك اللَّيلةِ كَلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ وأعطاه النُّبوَّةَ، ورَغْم أنّ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ كان على يقينٍ من أنّ هذا الصَّوتَ هو صوتُ الله تعالى، لكنّ اللهَ تعالى أعطاه بعضَ المعجِزاتِ ليُثبِّتَ قدمَه، وأمَرَه أن يُلقيَ عصاهُ على الأرض، فلمَّا ألقَى سيّدُنا موسى عصَاهُ على الأرض إذا بها تتحوَّلُ فجأةً أمامَ عينَيْهِ إلى ثُعبانٍ مُخيف، فخافَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ولاذَ بالفِرار، وعليه قال اللهُ تعالى له: يا موسى، لا تخَفْ، إنك في حِفْظي يقينًا.

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

٣٣ ـ أعطَى اللهُ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ معجِزةً أخرى هي معجِزةُ اليدِ

البيضاءِ بعدَ معجزةِ العصا، يعني: ضَعْ يدَكَ في جيبِك وأخرِجْها، ستَخرُجُ بيضاءَ لامعةً، وإن شَعرتَ ذاتَ مرّةٍ بالخوفِ فضَعْ يدَكَ على صدرِك، وعندَئذٍ ستنتهي حالةُ الخوفِ منك، والآنَ خُذْ هاتَيْنِ المعجِزتَيْنِ واذهَبْ إلى فِرعَونَ ورجالِه، وأرِهِم هاتَيْنِ المعجِزتَيْن، وادْعُهم إلى الدِّين؛ لأنَّهم بَلَغوا المدى في العصيان.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

٣٤ - قال سيِّدُنا موسى عليه السَّلام: يا ربِّ، لقد قَتَلتُ رجُلًا من قوم فِرعَونَ، ولهذا فإنّي أخافُ أن يقتلوني، وإنْ حَدَث هذا فسأحظَى بسعادةِ نَيْل الشَّهادة، ولكنّ الدعوةَ ستتوقَّفُ، وإذا لم يحاولوا قَتْلي فإنَّ الخطرَ الثانيَ هو أنْ يكذِّبوني، وفي لساني لُكْنَةٌ، ولهذا أرجو أن تُرسلَ معي أخي هارونَ يساعدُني؛ لأنه أفصَحُ منِّي لسانًا، وستظَلُّ همَّتي مرتفعةً بتصديقِه لي وبمعيَّتِه.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

٣٥ - استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ وقال: سنَجعَلُ من أخيك هارونَ قريبًا نبيًّا، ومعاونًا لك ومُعينًا، وسوف نُعطيكُما من النُّصرةِ والغَلَبةِ ما يَجعَلُ أنصارَ الفِرعَونِ لا يستطيعونَ الاقترابَ منكم، وقد أعطَيْناكم معجِزاتٍ ستنتصِرونَ في نهايةِ الأمر ببركتِها أنتم والمتَّبِعونَ لكم.

وقد نَقَل العلّامةُ وهبةُ الزُّحيلي في تفسيرِ هذه الآية هذا القولَ المنسوبَ لبعضِ السَّلَف: «ليس أحدٌ أعظَم منّةً على أخيه من موسى على هارونَ عليهما السَّلام، فإنه شَفَع فيه حتى جَعَلَه اللهُ نبيًّا ورسولًا معَه إلى فرعونَ ومَلَإه»[١].

---

(١) التفسير المنير.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

٣٦ ـ حينَ وَصَل سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ عندَ قوم فِرعَون، وأراهم المعجزاتِ، قال: إنّ اللهَ تعالى واحدٌ، ولا تليقُ العبادةُ بأحدٍ سواه. فقالوا له: أمّا هذه المعجِزاتُ فهي سِحرٌ مزعوم، وأمّا الدِّينُ الذي تدعو إليه فهو كلامٌ عجيبٌ وغريبٌ لا نستوعِبُه نحن، ولم يكن مِثلُه أبدًا في عهدِ آبائنا وأجدادِنا، ولهذا فنحن لسنا على استعدادٍ لأن نؤمنَ بك.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

٣٧ ـ حينَ لم يؤمنْ قومُ فِرعَونَ حتّى بعدَ أنْ رأَوا المعجِزاتِ الواضحةَ مثلَ تحوُّل العصَا إلى ثُعبانٍ وخروج اليدِ من الجَيْب بيضاءَ ناصعةً، قال لهم سيّدُنا موسى عليه السَّلام: سواءٌ آمنتُم بي أم لم تؤمنوا، فإنّ اللهَ تعالى ربِّي يعلَمُ حالي تمامَ العلم، بأنّني جئتُ إليكم بالهدايةِ من عندِه، وهو يَعلَمُ تمامَ العِلم أيضًا حالَ أولئك الذين سيؤمنونَ بي ويجعَلونَ بيوتَهم في الآخِرة أجمَلَ وأفضَلَ، لكنّ الذين لن يؤمنوا بالربِّ الحقيقيِّ فإنّهم ظالمونَ جاحدونَ بطبيعةِ الحال، ولن يُفلحوا أبدًا.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾

٣٨ ـ حين شاهَدَ أهلُ مِصرَ معجِزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، خَشِيَ الفِرعَونُ أن يتأثَّرَ قومُه من هذه المعجزاتِ ويَقبَلوا دعوةَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، ولهذا قال لرجالِ بَلاطِه: ليس لكم ربٌّ سواي، والربُّ الذي يَدعو إليه

سيّدُنا موسى عليه السَّلام لم نَرَه على الأرضِ أبدًا، ولو أنّ في السّماءِ إلهًا مثلَ هذا فإنّنا سنتحقّقُ من وجودِه بأنفسِنا، وهكذا أمَرَ الفِرعونُ وزيرَه هامانَ أنْ قُمْ ببناءِ منارةٍ عاليةٍ من الطِّين تُنضِجُه بالنارِ أولًا، حتى نَصعَدَ عليه وننظُرَ في السَّماءِ لنرى إن كان هناك إلهٌ لموسى أم لا، ولكنِّي أعتقدُ أنه لن يكونَ هناك إلهٌ آخَرُ أيضًا، وموسى يكذبُ حتى يَجعَلَكم تُسيئونَ بيَ الظنَّ، ويستوليَ هو على هذا البلد.

﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

٣٩ ـ لم يكنِ الفِرعونُ وجيشُه يؤمنونَ بالحسابِ يومَ القيامة، ولهذا أشاعوا الظُّلمَ والتكبُّرَ في مِصرَ، ولم يَرجِعوا عن ظُلمِهم حتى بعدَ دعوةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ لهم، فأَغْرقَ اللهُ تعالى الفِرعَونَ وجنودَه في البحر، وفي هذه الواقعة درسُ عبرةٍ لأولئك الذين يواصِلونَ الظُّلمَ ويُصِرُّونَ عليه غافلينَ عن العاقبةِ الوخيمةِ له.

﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾

٤٠ ـ شاهَدَ الفِرعَونُ وسادةُ قومِه معجزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ بأعيُنِهم، ولم يكنْ لديهِم أيُّ دليلٍ على إنكارِ هذه المعجِزات، وبالرَّغْم من ذلك كذَّبوا سيّدَنا موسى عليه السَّلام، وأبعَدوا قومَهم عن الهداية، ولذلك عُدُّوا أئمةَ الكُفرِ والشِّرك الذين يقودونَ الناسَ إلى نارِ جهنَّم، ولهذا سيكونونَ يومَ القيامة بلا مُعينٍ أو مُساعد، ومثلَما نَزَلت عليهم اللَّعَناتُ في الدُّنيا وأَغْرقَهم اللهُ تعالى في البحر، سيَلعَنُهم اللهُ تعالى في الآخِرة كذلك، وسيُدخِلُهم نارَ جهنَّم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ

ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

٤١ ـ الأُممُ التي نَسِيَت تعاليمَ أنبيائهم عليهم السَّلامُ قبلَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، وعاثُوا في الأرضِ فسادًا وظُلمًا وجَوْرًا وطُغيانًا، أهلَكَهم اللهُ تعالى، ثم أَنْزلَ التَّوراةَ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، وكان فيها البصيرةُ والهدايةُ والرَّحمةُ، حتى يعرِفَ الناسُ من خلالِها الحقَّ، ويختاروا طريقَ الهداية، ويستحِقُّوا رحمةَ الله تعالى.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

٤٢ ـ حينَ كلَّم اللهُ تعالى سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ فوقَ جبَلِ الطُّورِ وأعطاه النُّبوّةَ، لم تكنْ أنت يا محمَّدُ ﷺ موجودًا هناك في ذلك الوقتِ، ولم تكنْ تَرى ذلك المنظَر، وإنّما كان هذا كلُّه من أمورِ الغَيْبِ التي أطلَعْناكَ عليها عن طريقِ الوحي، وهذا دليلٌ على أنك نبيُّ الله حقًّا.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

٤٣ ـ جاءت بعدَ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ أُممٌ الواحدةُ تلوَ الأُخرى، وبرَغْم مرورِ فترةٍ طويلةٍ عليهم، إلّا أنّك بيَّنْتَ الأحداثَ التي مرَّت بهم بشكلٍ صحيح وتفصيليٍّ، فلم تكنْ أنت موجودًا في مَدْيَنَ في ذلك الوقتِ، ولم تكنْ ترى بنفسِك هذه الأحداثَ وتقُصُّها على الناس، كما أنّك لم تقرَأْ عن هذه الأحداثِ في أيِّ كتابٍ من الكتُب، أو أنك سَمِعتَها من أحدٍ من الناس، وإنّما نحن الذين أَخْبَرناكَ بهذه الأحداثِ عن طريقِ الوحي، ومثلَما أرسَلْنا الأنبياءَ والرُّسُلَ عليهمُ السَّلامُ من قبلِك، أرسَلْناك أنت أيضًا نبيًّا ورسولًا.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

٤٤ ـ يعني: حين كلَّمَنا موسى عليه السَّلامُ فوقَ جبَل الطُّور لم تكنْ أنت موجودًا هناك، لكنّ هذه رحمةٌ منّا أنْ أَطْلَعناكَ على هذا الكلام كلِّه، حتى تُنذرَ قومَك من غضَبِ الله تعالى؛ لأنه لم يأتِهم نبيٌّ بعدَ سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ خلالَ هذه الفترةِ الطويلة.

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٤٥ ـ لقد بُعِثتَ يا محمَّدُ ﷺ بعدَ أن ضاعت تعاليمُ الأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلامُ أو نَسِيَها الناسُ، حتى لا يبقَى للناس عُذرٌ في عَدَم الإيمان، وحينَ يُعذَّبونَ يومَ القيامة لا يقولونَ: لم يأتِنا رسولٌ فكيف نؤمنُ؟ وهذا هو السَّببُ في أنّ اللهَ تعالى

قد حَفِظ كلَّ تعاليم نبيِّنا الحبيبِ ﷺ ـ يعني: القرآنَ الكريمَ والحديثَ الشَّريفَ ـ من أيِّ تحريف، وأوصَله إلى كلِّ ربوع الدُّنيا، حتى لا تكونَ هناك حاجةٌ إلى نبيٍّ جديد.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾

٤٦ ـ ما أعجبَ أهلَ مكّة! إنْ لم نُرسِلْ إليهم نبيًّا قالوا: لم يُرسَلْ إلينا نبيٌّ، فكيف نؤمن؟ والآنَ حينَ أرسَلَ اللهُ تعالى إليهم سيّدَنا محمّدًا ﷺ يقولون: لماذا لم يُعطَ معجزاتٍ مثلَ معجزةِ العصَا واليدِ البيضاءِ التي أُعطِيتْ لسيّدِنا موسى عليه السَّلام؟ معَ أنّ قومَ فِرعونَ لمَّا رأَوْا هذه المعجِزاتِ قالوا: إنّ سيّدَنا موسى وسيّدَنا هارونَ عليهما السَّلامُ ساحرانِ، ونحن لا نؤمنُ بهما، ولو أنّ أهلَ مكّةَ يتصَوَّرونَ أنّ معجزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ هذه دليلٌ على النُّبوَّة، فلماذا لم يؤمنوا بنُبوّةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ إذًا؟ الحقيقةُ أنّ هؤلاءِ لن يؤمنوا، وإنّما هم يجادلونَ فقطْ.

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

٤٧ ـ حينَ وَصَل إنكارُ أهلِ مكّةَ هذا إلى قمَّتِه قال لهم النبيُّ ﷺ: إنّكم لا تؤمنونَ بالتَّوراةِ لأنّ فيها علاماتٍ على نُبوَّتي، ولا تؤمنونَ بالقرآنِ لأنه نَزَل عليَّ، وتقولونَ: إنّ هذَيْنِ الكتابَيْنِ سِحرٌ، فلْتأتوا أنتم بكتابٍ من عندِ الله تعالى يكونُ أكثرَ هدايةً من هذَيْنِ الكتابَيْن، فإذا فعلتُم فسأَتَّبِعُه؛ لأنَّني ـ أصلًا ـ أطلبُ الهدايةَ، وحيثُما وجدتُها فأنا على استعدادٍ لأَتَّبِعَها.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٤٨ ـ رَفَض مشركو مكّةَ الإيمانَ بالقرآنِ الكريم والتَّوراة، والآنَ إذا لم يَأْتوا

بكتابٍ أفضَلَ من هذَيْنِ الكتابَيْن ـ ولن يستطيعوا ذلك قطعًا ـ فعلى كلٍّ منهم إذًا أن يكونَ على يقينٍ من أنه ليس طالبَ هدايةٍ، وأنه ليس لديه أيُّ دليلٍ على إنكارِ الهداية، وإنّما هو يتّبعُ هواه ليس إلّا، والذين يترُكونَ هدايةَ الله تعالى ويتّبِعونَ هواهم ضالُّونَ غايةَ الضَّلال، وليس من الممكنِ لهم العودةُ إلى الهداية.

والشَّخصُ الذي يُخالفُ رغَباتِه النَّفسانيّةَ والشَّيطانيةَ ويثبُتُ على ذلك يكونُ إيمانه قويًّا إلى درجةٍ تجعَلُ من هواهُ تابعًا للهداية، مثلَما نزَل العديدُ من الآياتِ القرآنيّة طِبقًا لرغبةِ سيِّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي الله عنه، ولهذا قال رسولُ الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يكونَ هَواه تِبْعًا لِما جئتُ به»[1].

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) مشكاة المصابيح، باب الاعتصام بالكتاب والسنة، الفصل الثاني.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

٤٩ ـ لقد أَنْزلنا القرآنَ الكريمَ منجَّمًا وتدريجيًّا، وظَلَلْنا ننصَحُ الناسَ، حتى تتأَثَّرَ قلوبُ مشركي مكّةَ بشيءٍ منه في أيِّ وقتٍ من الأوقات، لكنّ المستغرِقينَ في ظُلماتِ التعصُّبِ والعنادِ لا يرَوْنَ نورَ الهداية.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

٥٠ ـ يقولُ ابنُ اسحاقَ عن أهلِ الكتابِ الذين وَرَدتِ الإشارةُ إليهم في هذه الآية: «ثمّ قَدِم على رسولِ الله ﷺ وهو بمكّةَ عشرونَ رجلًا أو قريبٌ من ذلك من النَّصارى حينَ بَلَغَهم خبَرُه من الحبَشة، فوجَدوه في المسجد، فجَلَسوا إليه وكلَّموهُ وسألوهُ، ورجالٌ من قريشٍ في أَنْدِيتهِم حولَ الكعبة، فلمّا فَرَغوا من مسألةِ رسولِ الله ﷺ عمّا أرادوا، دَعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الله عزَّ وجلَّ وتَلا عليهم القرآنَ. فلمّا سَمِعوا القرآنَ فاضَتْ أعيُنُهم من الدَّمْع، ثمّ استجابوا لله، وآمَنوا به وصَدَّقوه، وعَرَفوا منه ما كان يوصَفُ لهم في كتابِهم من أمرِه. فلمّا قاموا عنه اعتَرَضَهم أبو جَهْلٍ ابنُ هشامٍ في نفَرٍ من قُريشٍ، فقالوا لهم: خيَّبكم اللهُ من رَكْبٍ! بعَثَكم مَن وراءكم من أهلِ دينِكم ترتادونَ لهم لتأتُوهم بخبرِ الرّجُل، فلم تطمئنَّ مجالسُكم عندَه حتّى فارقتُم دِينَكم وصدَّقتُموهُ بما قال؟ ما نَعلَمُ رَكْبًا أحمقَ منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم: سَلامٌ عليكم، لا نجاهِلُكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ أنفُسَنا خيرًا»[1].

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ لأهلِ مكّةَ بأنّ الناسَ يأتُونَ من بعيدٍ للحصُول على النُّورِ مِن شَمْع النُّبوّةِ هذه، وأنتم الذين تعيشونَ بالقربِ منها تَهيمُونَ في ظلام الضَّلال.

---

(١) سيرة ابن هشام، ٢: ٢٨، والبداية والنهاية، ٣: ٨٢.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾

٥١ - أهلُ الكتابِ الذين آمَنوا لَمّا سَمِعوا القرآنَ المَجِيدَ قالوا: لقد كنَّا مسلمينَ من قبلُ، وأحدُ التفاسيرِ لهذه الآية هو: أنّهم كانوا يؤمنونَ بالنبيِّ الآخِرِ والكتابِ الآخِرِ الذي سَمِعوا عنه في الكتُبِ السَّماوية، وكانوا ينتظرونَ أن يُبعَثَ هذا النبيُّ فيؤمنوا به، فكأنَّهم كانوا قدِ اعترَفوا من قبلُ بالنبيِّ الكريم ﷺ.

والتفسيرُ الآخَرُ هو: أنّ أيَّ متَّبعٍ بصِدقٍ لأيِّ نبيٍّ إنَما هو مسلمٌ، يعني: أنهم كان مسلمينَ باتِّباعِهِمُ النبيَّ السّابقَ، والآنَ هم مسلمونَ باتِّباعِهم نبيَّ آخِرِ الزّمان ﷺ، مثلَما يقولُ أبو حَيّانَ الأنَدلُسي: «والإسلامُ صفةُ كلِّ موحِّدٍ مصَدِّقٍ بالوحي»[١].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

٥٢ - أن يَترُكَ شخصٌ دينَه ويتَّبعَ دينًا آخَرَ مرحلةٌ في غايةِ الصُّعوبة، حيث يخالفُه أصدقاؤه وأحبابُه وأقاربُه، ولا يَألونَ جُهدًا في إيذائه نفسيًّا وبَدَنيًّا، لكنّ طُلابَ الحقِّ لا يُبالُونَ بكلِّ هذه العقَبات، ويَجُدُّونَ السَّيرَ بكلِّ ثباتٍ وصبرٍ على طريقِ الحقِّ، بل إنّهم يقابِلونَ إساءاتِ المخالفينَ ومضايقاتِهم بحُسنِ الخُلُق والسلوكِ الطيِّب، ويُنفقونَ الرِّزقَ الذي أعطاهمُ اللهُ إياه على خَلْق الله.

هؤلاءِ هم الذين سيُثابونَ أَجْرَيْنِ، الأولُ: أجرُ إيمانِهم بنبيِّهم وكتابِه، والأَجرُ الثاني: على إيمانِهم بسيّدِنا محمّدٍ ﷺ والقرآنِ الكريم، مثلَما يقولُ النبيُّ ﷺ: «ثلاثةٌ لهم أَجْرانِ: رجلٌ من أهلِ الكتابِ آمَن بنبيِّه وآمَن بمحمدٍ ﷺ، والعبدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مَواليه، ورجلٌ كانت عندَه أَمَةٌ [يَطَؤُها] فأدَّبها فأحسَنَ تأديبَها، وعَلَّمها فأحسَنَ تعليمَها، ثم أعتَقَها فتزوَّجَها، فلهُ أَجْرانِ»[٢].

---

(١) تفسير البحر المحيط.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب ٣٢ برقم ٩٧.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

٥٣ ـ حين كان المشركونَ يستهدِفونَ مَن دَخَلوا في الإسلام بالاستهزاءِ وتشويهِ السُّمعة، فإنّهم كانوا يعتزِلونَهم قائلين: إذا كنتُم تفعَلونَ ما تُحِبُّونَ، فلنا الحقُّ نحن أيضًا في أن نفعَلَ ما نُحبُّ، ولكنْ إذا كنتُم تسبُّونَنا برَغْم ذلك فإنّنا لا نشتبكُ معَ الجاهلين، وإنّما نرُدُّ عليهم بالدُّعاءِ لهم بالسَّلامة، يعني: أنْ يتفضَّلَ اللهُ عليهم ويُخرِجَهم من ظُلماتِ الجَهالةِ والضَّلال، ويَهديَهم إلى نُورِ الهدايةِ والسَّلامة.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

٥٤ ـ لم يُقصِّر النبيُّ ﷺ في الدَّعوةِ إلى الإسلام أبدًا، وكان ﷺ يتمنَّى أن يُسْلِمَ الناسُ جميعًا، ولكنْ حينَ لم يُسْلِمْ أقربُ أقاربِه، ولا أهلُ مكّةَ، حَزِن واغتَمَّ، وفي هذه الآية طَمْأنةٌ للنبيِّ ﷺ بأنّك يا رسولَ الله ﷺ قد أدَّيتَ حقَّ الدَّعوةِ إلى طريقِ الهداية، أمّا أن يكونَ في قلبِ أحدٍ حبٌّ ورغبةٌ لقَبولِ الهدايةِ فهذا في يدِ الله تعالى؛ لأنه هو الذي يَعلَمُ تمامَ العِلم منِ الذي سيقودُه إخلاصُه إلى السَّير على طريقِ الهداية، وفي هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾، وقال في سُورة الشُّورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، يعني: بشكلٍ شخصيٍّ فإنّ خالقَ الهداية هو اللهُ تعالى، فإذا لم يُرِدْ لا يمكنُ أن يهتديَ أحدٌ، لكنّ الأنبياءَ جميعًا عليهمُ السَّلامُ يأتُونَ لهدايةِ الناسِ بأمرِ الله تعالى.

يقولُ أكثرُ المفسِّرين: إنّ هذه الآيةَ نَزَلت فيما يتعلَّقُ بإيمانِ أبي طالب، ولكنّ هناك اختلافًا فيما يتعلَّقُ بإيمانِه مثلَما يقولُ العلّامةُ الآلُوسيُّ: «ومسألةُ

إسلامِه خِلافيّة... ثم إنه على القول بعَدَم إسلامِه لا ينبغي سَبُّه والتكلُّمُ فيه بفُضُولِ الكلام فإنّ ذلك مما يتأذَّى به العَلَويُّونَ، بل لا يَبعُدُ أن يكونَ ممّا يتأذَّى به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الذي نَطَقتِ الآيةُ بناءً على هذه الرِّوايات بحُبِّه إياه، والاحتياطُ لا يخفَى على ذي فَهْم»[1].

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٥٥ ـ جاء في الجزءِ الأوّلِ من هذه الآية بيانٌ للعُذرِ الذي قدَّمه المشركونَ لعَدَم قَبولِهمُ الإسلامَ، مثلَما يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «قائلُ ذلك من قُريشٍ: الحارثُ بنُ عثمانَ بن نَوْفَل بن عبدِ مَنافٍ القُرشيُّ، قال للنّبيِّ ﷺ: إنّا لَنعلَمُ أنّ قولَك حقٌّ، ولكنْ يمنَعُنا أن نتَّبعَ الهُدى معَك، ونؤمنَ بك، مخافةُ أن يتخَطَّفَنا العربُ من أرضِنا، يعني: مكّةَ»[2]؛ لأنّ أكثرَهم مشركونَ مثلَنا، وحين نتخلَّى عن الشِّرك سينتهي احترامُنا من قلوبِهم، وسوف يُذِلُّونَنا ويُخزونَنا.

وفي الجزءِ الثاني من هذه الآية رَدَّ اللهُ تعالى عليهم هذا العُذرَ الذي اختَلَقوه، يعني: أنّ أهلَ الجزيرةِ العربيّةِ يحترمونَكم، ليس لأنّكم مشركونَ، وإنّما لأنّكم تسكُنونَ مكّةَ، ولكنَّكم لم تتدبَّروا أبدًا مَن الذي أسكَنَكم في هذه البلدة؟ ومنِ الذي جَعَلَها بلَدًا آمنًا؟ فليس في هذه البلدةِ أثرٌ لزرعٍ أو ثمار، فمنِ الذي يأتيكُم بكلِّ أنواع الثِّمار والزُّروع برَغْم ذلك؟ إنّ الذي فَعَل كلَّ هذا هو اللهُ تعالى، ولو لم يجعَل اللهُ تعالى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ يبني الكعبةَ في مكّةَ، لَما جاء أحدٌ إليها اليومَ، ولو لم يجعَلْ سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ يعمِّرُ مكّةَ لَما كان لهذه البلدةِ وجودٌ اليومَ،

(١) تفسير روح المعاني.
(٢) تفسير القرطبي.

ولَما وُلِدتُم أنتم أيضًا هنا، لهذا عليكم أن تتعقَّلوا الأمورَ، وأن تعمَلوا على معرفةِ المتفضِّل الحقيقيِّ عليكم، والذي جَعَل لكم مكانةً رفيعةً في شبهِ الجزيرةِ العربيَّة برَغْم شِركِكم، وحين تؤمنونَ بتوحيدِ الله تعالى، فسترتفعُ مكانتُكم إلى درجةٍ لا تستطيعونَ تصوُّرَها.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

٥٦ ـ الأُمّةُ التي تتكبَّرُ بدَلًا من أن تشكُرَ اللهَ تعالى على رَغَدِ العيش، ولا ترجعُ عن طُغيانِها برَغْم دعوة الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، فإنّ اللهَ تعالى يُهلِكُهم في نهاية الأمرِ.

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ لأهلِ مكّةَ بأنّكم إنْ لم ترجِعوا عن عصيانِكم وطُغيانِكم أيضًا، فمنَ الممكنِ جدًّا أن يَنزِلَ العذابُ عليكم، تمامًا مثلَما ترَوْنَ في أسفارِكم كثيرًا من القُرى المدمَّرةِ المهجورة، والتي لا وارثَ لها سوى اللهِ تعالى، ولا يرغَبُ أحدٌ في السَّكَن بها، والمسافرونَ وعابرو السَّبيل فقطْ همُ الذين يقيمونَ فيها ليومٍ أو يومَيْنِ لمجرَّدِ الاستراحةِ لا أكثرَ.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾

٥٧ ـ سُنّةُ الله تعالى هي أنه يُرسلُ رَسُولًا إلى المدينةِ الرئيسةِ بينَ القُرى التي سيَنزِلُ عليها العذابُ، حتى يُحذِّرَهم من عذابِ الله تعالى، فإنْ لم يرجِعْ أهلُ هذه القُرى عن ظُلمِهم وطُغيانِهم فإنّ اللهَ تعالى يُمهِلُهم لفترةٍ محدَّدةٍ حتى يتوبوا إلى الله، وإلّا فإنه يُهلِكُهم ويدمِّرُهم بسببِ ظُلمِهم المتواصلِ وطُغيانِهم المستمرِّ، وبناءً على هذه السُّنّةِ أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمدًا ﷺ في المدينةِ المركزيّةِ للجزيرةِ العربيّةِ وهيَ مكّةُ.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٥٨ ـ في هذه الآيةِ بيَّن اللهُ تعالى الفَرْقَ الواضحَ بينَ زينةِ الدُّنيا ونعيمِ الآخِرة، بمعنى: أنّ كلَّ ما لَدَيْكُم اليومَ إنما هو متاعُ هذه الحياةِ الدُّنيا وزينتُها، ومن الممكنِ أن يُصيبَكم اليومَ ليلًا زلزالٌ يُدمِّرُ كلَّ هذا المالِ والمتاع والزِّينة، وتبقَوْنَ أنتم لمجرَّدِ التّسوُّلِ من الآخَرين، ومن الممكنِ أيضًا أن يأتيَكم الموتُ اليومَ ليلًا، ويذهبُ هذا المالُ والمتاعُ كلُّه إلى أحدٍ آخَرَ، ولو بقيتُم أحياءً، وظلَّ هذا المالُ والمتاعُ في قَبْضتِكم، فإنّكم ـ على وَجْهِ اليقين ـ ستموتونَ في يوم من الأيام؛ لأنّ هذه الكائناتِ وكلَّ ما فيها عارِضٌ مؤقَّت، وسيفنَى في يوم من الأيام، لكنّ النِّعَمَ التي أعَدَّها اللهُ تعالى للمؤمنينَ في الآخِرة أفضَلُ بمراحلَ من هذا المالِ والمتاع الدُّنيَويِّ، والأهمُّ من ذلك أنه خالدٌ دائم، وسيبقَى إلى الأبدِ معَ أهلِ الإيمان، فلن يحدُثَ زلزالٌ في الجنَّة، ولن يموتَ أحدٌ فيها، أفلا تفهمونَ الفرقَ بيْنَ زينةِ هذه الدُّنيا المؤقَّتةِ وبينَ نِعَم الآخِرةِ الدائمة؟

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الدُّنيا سِجنُ المؤمن وجنّةُ الكافر»[١].

ـ يَروي سيّدُنا إبراهيمُ بنُ مَهْديٍّ السُّلَميُّ ـ عن أبيه، عن جَدِّه، وكانت له صحبةٌ من رسولِ الله ﷺ، قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ العبدَ إذا سبَقَتْ له من الله منزِلةٌ لم يَبلُغْها بعمَلِه ابتلاه اللهُ في جسَدِه أو في مالِه أو في وَلَدِه»[٢].

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١ برقم ٧٤١٧.

(٢) أبو داود، كتاب الجنائز، باب ١ برقم ٣٠٩٠.

ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

٥٩ ـ يعني: أنّ الذي آمَنَ واستحَقَّ الجنّةَ يومَ القيامة طِبقًا لوعدِ الله تعالى، هل يستوي معَ ذلك الذي أَنْعم اللهُ تعالى عليه بمالِ الدُّنيا ومتاعِها، ومعَ ذلك طغَى وتكبَّر، وأعدَّ لنفسِه مكانًا في صفوفِ المجرمينَ يومَ القيامة؟ طبيعيٌّ أنْ لا يتساوى هذانِ أبدًا.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾

٦٠ ـ يومَ القيامة سيغضَبُ اللهُ تعالى ويقولُ للمشركين: أين أولئك الذين

كنتم تشركونَهم معي؟ عندئذٍ سيَمثُلُ قادةُ الشّياطينِ والمشركينَ الذين حُكِم عليهم بالعذابِ في حضرةِ الله تعالى قائلينَ: يا ربَّنا، نحن السَّببُ في ضلالِهم، لكنَّنا لم نُجبِرْهم على الضَّلال، وإنّما مثلَما ضَلَلْنا نحن برِضانا، هم كذلك ضَلُّوا برِضاهم، ولم يكنْ هؤلاءِ يعبدونَنا فقطْ، وإنّما كانوا - في الحقيقة - يتَّبِعونَ هواهُم، بمعنى: أنّهم كانوا يختارونَ لأنفُسِهم الشيءَ الذي يحبُّونَه، أمّا ما لا يتوافَقُ معَ رغَباتِهم فإنّهم كانوا يرفُضونَه، ولهذا فإنّنا اليومَ نُعلنُ براءتَنا منهم ورجوعَنا إليك.

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾

٦١ - سيقولُ اللهُ تعالى للمشركينَ يومَ القيامة: أنْ نادُوا على أولئك الذين كنتُم تشركونَهم معي، حتى يُنقِذوكُم اليومَ من عذابي، وسينادُونَ عليهم بالفعل، ولكنْ لن يُجيبَهم أحدٌ، وحين يتيقَّنونَ من وقوع العذابِ عليهم يتمنَّونَ لو أنّهمُ اختاروا طريقَ الهداية، لَما كانوا قد ابتُلوا بالعذابِ اليومَ.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

٦٢ - سيغضَبُ اللهُ تعالى يومَ القيامة ويقولُ للمشركين: لقد جاءكم رسُولي حاملًا معَه دعوةَ التوحيد، فلماذا لم تقبَلوا دعوتَه؟ وعندَئذٍ يرَى هؤلاءِ عاقبتَهم الوخيمةَ فتصيبُهم سَكتةٌ فلا يَحْرُونَ جوابًا، بل إنّهم سينسَوْنَ في ذلك اليوم منَ الخوفِ كلَّ تلك الدَّلائلِ التي كانوا يقدِّمونَها على شِركِهم في الدنيا، ولن يجرؤَ أحدٌ منهم على مجرَّدِ سؤالِ رفيقِه بماذا يجيبُ؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهم سيكونُ قلقًا منشغِلًا بحالِه، وسيكونونَ على يقينٍ من أنهم كانوا على خطأٍ، ولهذا فإنّهم سيَدخُلونَ جهنَّمَ لا مَحالة.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

٦٣ ـ مهما كان الإنسانُ مذنِبًا بل ومشركًا، لكنّه لو تابَ توبةً صادقةً من قلبِه وآمَن وعمِلَ صالحًا، فإنّ اللهَ تعالى يعفو عن ذنوبِه، ويكتُبُه يومَ القيامة من المفلِحين.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

٦٤ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وربُّكَ يَخلُقُ ما يشاءُ مِن خَلْقِه ويَختارُ مَن يشاءُ لنُبوَّتِه»[١]. ويقولُ العلّامةُ الخازنُ: «نَزَلت هذه الآيةُ جوابًا للمشركينَ حين قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني: الوليدَ بنَ المُغيرةِ أو عُروةَ بنَ مسعودٍ الثَّقفيَّ، أَخْبرَ اللهُ تعالى أنه لا يبعَثُ الرُّسلُ باختيارِهم؛ لأنه المالكُ المطلَق، وله أن يخُصَّ ما يشاء بما يشاءُ لا اعتراضَ عليه البتَّةَ»[٢].

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

٦٥ ـ اللهُ تعالى لا يَعلَمُ تمامَ العِلم حرَكاتِ المشركينَ الظاهريَّةَ فقطْ، وإنّما يَعلَمُ كذلك تمامَ العِلم تلك المؤامراتِ التي يخطِّطونَ لها في داخلِهم، وحينَ يأتي وقتُ مؤاخَذتهم، سيُحاسِبُهم على كلِّ حركةٍ قاموا بها.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

٦٦ ـ لا تليقُ العبادةُ بأحدٍ غيرِ الله تعالى، والمستحِقُّ لكلِّ أنواع الحمدِ والثَّناءِ الكامل في الدُّنيا والآخِرة هو اللهُ تعالى فقطْ ولا أحدَ غيرُه، والمؤمنُ في هذه الدُّنيا يبدأُ كلَّ قولٍ من أقوالِه، وكلَّ فعل من أفعالِه، بحمدِ الله تعالى[٣]،

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الخازن.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد أقطع».=

وسيكونُ لسانُ المؤمنِ في الجنّة رَطْبًا بحمدِ الله تعالى أيضًا، وعلى سَبيل المثال:

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

٢ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. ولمزيدٍ من التوضيحِ والشَّرح عن الحمدِ راجعْ تفسيرَ الآيةِ الأُولى من سُورة الفاتحة.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾

٦٧ ـ كما أنّ المستحِقَّ الحقيقيَّ لكلِّ حَمْدٍ وثناءٍ هو اللهُ تعالى فقطْ، فإنّ سَلطَةَ الحُكم الحقيقيِّ فيما يتعلَّقُ بأيِّ شيءٍ هي لله تعالى فقطْ، وفي هذه الدُّنيا حُكّامٌ عديدونَ يحكُمونَ بأمرِهم، ولا يعترِفونَ بالمالكِ الحقيقيِّ، ولكنْ يومَ القيامة حينَ يَمْثُلُ المؤمنونَ والكُفّارُ جميعًا في حضرةِ الله تعالى، سيشاهدونَ بأنفُسِهم أنّ المالكَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى فقطْ، وسيكونُ الحُكمُ في ذلك اليوم له هو فقطْ، ولن يكونَ هناك حُكمٌ مخالفٌ لمبادئِ العدلِ والإنصاف. ولمزيدٍ من التوضيح حولَ الحُكم راجعِ الحاشيةَ رقم ٥٤ للآية رقم ٥٧ من سُورة الأنعام.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

٦٨ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكّةَ، أي: ألم تتدبَّروا أبدًا أنه لو أنّ اللهَ تعالى سَلَّطَ عليكمُ اللَّيلَ دائمًا أبدًا، فهل هناك معبودٌ غيرُ الله تعالى يمكنُ أن يمنَحَكم ضوءَ النهار؟ وإنْ سَلَّط عليكمُ النّهارَ دائمًا أبدًا، فهل هناك معبودٌ غيرُ الله تعالى يمكنُه

= ابن ماجه، أبواب النكاح، باب ١٩ برقم ١٨٩٤، وأبو داود، كتاب الأدب، باب ٢١ برقم ٤٨٤٠. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كلّ كلامٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم». أبو داود، كتاب الأدب، باب ٢١ برقم ٤٨٤٠.

أن يهيِّئَ لكم اللَّيلَ لتستريحوا فيه؟ بالقَطْع لا، إنّها رحمةُ الله تعالى فقطْ والتي جَعَلت لكمُ اللّيلَ لتستريحوا فيه، وجَعَلت لكمُ النّهارَ لتطلُبوا أرزاقَكم فيه، أفلا تفهَمونَ مثلَ هذه الأمورِ البسيطةِ حتى تؤدُّوا شُكرَها؟

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

٦٩ ـ يومَ القيامة سيأتي كلُّ نبيٍّ أمامَ أُمّتِه، وسيشهَدُ أنه أبلَغَهم رسالةَ التوحيد، ثم سيُسألُ المشركونَ أنِ ائْتوا بدليلٍ على شركِكم، وعندَئذٍ سَيُسْقطُ في أيديهم، ولن يستطيعوا جوابًا، وستُمحَى من أذهانِهم حتى تلك الدَّلائلُ الكاذبةُ التي كانوا يقدِّمونَها في الدُّنيا على شركِهم؛ لأنّهم سيتيقَّنونَ ـ من أحوالِ ميدانِ الحَشْر ـ أنّ دعوةَ الأنبياءِ كانت حقًّا، وأنّ المعبودَ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى فقطْ.

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

٧٠ - يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي: «إنّ قارونَ: اسمٌ أعجَميٌّ، كهارونَ، فلذلك لم ينصرفْ. كان من قومِ موسى، كان ابنَ عمِّه: يصهرَ بن قاهشَ بن لاوي بن يعقوبَ وموسى بنُ عِمرانَ بن قاهشَ، وكان ممَّن آمَن به، وأقرَأَ بني إسرائيلَ للتَّوراةِ، وكان يُسَمَّى المُنوَّرَ لحُسنِ صُورتِه، ثم تغيَّر حالُه بسببِ الغنَى فنافَقَ كما نافَقَ السَّامِريُّ»[١].

وهكذا تآمَرَ معَ فِرعونَ بقَصْدِ أن يزيدَ أموالَه وثروتَه، وأخذ يَظلِمُ قومَه - أي: بني إسرائيلَ - من أَجْل أن يُرضيَ فِرعونَ، وقدِ ازدادت ثروتُه برعايةِ الفرعَونِ له إلى درجةٍ كبيرة، بحيث أنّ مفاتيحَ أقفالِ خزائنِه كانت تحتاجُ إلى مجموعةٍ قويّةٍ من الرِّجالِ ليحمِلوها.

وقـال بنو إسرائيلَ لقارونَ ناصحينَ إيّاه: لا تغتَرَّ ولا تتفاخَرْ بثروتِك، ولكَ أن تُنفقَها في احتياجاتِك الدُّنيويّةِ ولا بأسَ في ذلك، لكنْ لا تَنْسَ نصيبَك من الآخِرة أيضًا، وكما أحسَنَ اللهُ تعالى إليك، عليكَ أن تُحسِنَ إلى الفقراءِ لكي تبنيَ لنفسِك بيتًا في الجنَّة، ولا تنشُرْ في الأرضِ الفسادَ بالظُّلم والجَوْر؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ المفسِدين.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

٧١ - كان قارونُ متكبِّرًا وطاغيًا إلى درجةِ أنه قال - ردًّا على النَّصيحة -: إنّ

(١) تفسير روح البيان.

الثَّروةَ التي عندي جمَعْتُها بعِلمي وجُهدي، ولا علاقةَ لفضلِ الله تعالى بها من قريبٍ أو بعيد، بحيث أُنفِقُ منها على خَلْقِ الله، وعليه نبَّهه اللهُ تعالى أنْ لا يغترَّ بمتاع الدُّنيا الفاني؛ لأنه قد مَضَت أُممٌ عديدةٌ قبلَ قارونَ كانوا أكثرَ منه مالًا وثروةً وقوةً، ولكنْ حين عاثُوا في الأرضِ فسادًا بظُلمِهم وطُغيانِهم، لم تستطعْ ثروتُهم أن تُنقذَهم من عذابِ الله تعالى، وأهلَكَهُم اللهُ ودمَّرهم.

وبنفسِ الطريقة، يمكنُ أن يَنزِلَ العذابُ من الله تعالى على قارونَ في أيِّ لحظة، بل إنّ ظُلمَه وطُغيانَه أصبحا كثيرَيْنِ واضحَيْنِ بحيث أصبح بالفعل مستحِقًّا لعذابِ الله، ولهذا حينَ يأتيه العذابُ لن يُسألَ: كم من الذُّنوبِ ارتكَبَ، وما هي هذه الذُّنوبُ؟ وإنّما ستبتلِعُه الأرضُ بَغْتةً.

ويُعلَمُ من هذهِ الواقعة أنّ الشّخصَ الذي يعتقدُ أنّ مالَه وثروتَه الدُّنيويّةَ إنّما هما نتيجةُ علمِه وجُهدِه، وينسَى الذي أَنْعَم عليه بهذا العِلم والجُهد، فإنه يكونُ مثلَ قارونَ طاغيًا متكبِّرًا خائنًا لشعبِه، ولكنْ من يعتقدُ أنّ كلَّ ما لديه ليس له، وإنّما هو فضْلٌ من اللهِ تعالى أَنْعَم به عليه، يَسهُلُ عليه الإنفاقُ منه في سبيلِ الله تعالى، ليس هذا فقطْ، وإنما يشعُر بسعادةٍ واطمئنانٍ بإنفاقِه أيضًا.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

٧٢ ـ ذاتَ يوم خَرَج قارونُ بكامِلِ زينتِه وعظَمتِه يحيطُ به خَدَمُه وحشَمُه، فلمّا رآهُ طُلّابُ الدُّنيا قالوا: كم هو سعيدُ الحظِّ! ليتَ لنا مثلُ هذا المالِ والجاهِ الذي لقارونَ.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾

٧٣ ـ الذين أَنْعَم اللهُ تعالى عليهم بثروةِ العِلم والتَّقوى من بني إسرائيلَ،

وفي نفسِ الوقتِ يعرِفونَ حقيقةَ هذه الدُّنيا، قالوا لطُلّابِ الدُّنيا: وا أسفاهُ عليكم! لقد غَرَّتْكم هذه الدُّنيا بعظَمتِها وجاهِها الزائل، في حينَ أنّ النِّعَمَ التي أعدَّها اللهُ تعالى لأهلِ الإيمانِ أفضَلُ من كلِّ هذا بمراحلَ، ولكنّ هذه النِّعَمَ الخالدةَ لا ينالُها إلّا الذين يجاهدونَ هوى أنفسِهم وشهواتِها، ويصبِرونَ على مشاكلِ الدُّنيا.

قال اللهُ تعالى في حديثٍ قُدُسيٍّ رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ تعالى عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «قال اللهُ: أعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَرٍ»[1].

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾

٧٤ ـ حين رَفَض قارونُ دعوةَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وظلَّ مصِرًّا على طغيانِه وتكبُّرِه، جَعَل اللهُ تعالى الأرضَ تبتلعُه في نهايةِ الأمر هو ومالَه وخزائنَه وقصورَه، ولم يستطعْ قارونُ نفسُه حينَئذٍ أن يُنقذَ نفسَه، كما لم يستطعْ مؤيِّدوه والمعجَبونَ به مساعدتَه بشيءٍ؛ لأنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يتحدَّى أمرَه أو حُكمَه.

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

٧٥ ـ الذين أصابَهم الطَّمعُ حينَ رأَوْا عظَمةَ قارونَ الدُّنيويّةَ وجاهَه، لمَّا رأَوْا عاقبتَه المثيرةَ للعبرة نَدِموا قائلينَ: لقد كانت أمانينا وتفكيرُنا خاطئًا، فليس قلّةُ المالِ أو كثرتُه دليلًا على أنّ صاحبَ هذا المالِ والثّروةِ مقبولًا عندَ الله أو ملعونًا عندَه، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى حين يُنعِمُ على أحدٍ بكثرةِ المالِ والجاهِ والعظَمةِ في

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٨ برقم ٣٢٤٤.

الدنيا، فليس من اللازم أن يكونَ نتيجةُ هذا أنّ اللهَ تعالى راضٍ عنه، وإنّما يرضَى اللهُ تعالى فقطْ عن ذلك الذي يتَّبعُ أحكامَ الله تعالى، سواءٌ كان غنيًّا أم فقيرًا، وهذا ـ في الحقيقة ـ من سوءِ فهمِنا أنّنا نعتبرُ عظَمتَه ورِفعةَ شأنِه الدُّنيويِّ فلاحًا حقيقيًّا، ونتمنَّى أن نكونَ مِثلَه، وننسَى أنّ الكُفّارَ لا يُفلحون، مهما كانوا أغنياءَ أثرياءَ، ولو أنّ اللهَ تعالى حقَّق رغباتِنا، وأصبحنا جاحدينَ مثلَ قارونَ، فسوف تبتلعُنا الأرضُ مِثلَه أيضًا، ولكنّه تعالى أحسَنَ إلينا ولم يحقِّقْ رغَباتِنا الخاطئةَ هذه.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

٧٦ ـ أعدَّ اللهُ تعالى بيتًا طيبًا ـ أي: الجنّةَ ـ وعاقبةً طيِّبةً وخَصَّ بها أولئك الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى، ولا يعتبرونَ أنفُسَهم عُظَماءَ والآخَرينَ حقيرينَ، كما لا يَعِيثون في الأرضِ فسادًا ولا ينشُرونَ فيها الظُّلْمَ والجَوْر.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

٧٧ ـ يُجازي اللهُ تعالى يومَ القيامة على الحَسنةِ بعشْرِ أمثالِها على الأقلِّ، ولا حدَّ

للزِّيادةِ في ذلك، لكنّ جزاءَ السيِّئةِ سيِّئةٌ مِثلُها، أي: أنّ كَرَم الله تعالى وفضْلَه يتجَلَّيانِ في الإثابةِ على الحَسنة، بينَما يتجَلَّى عدلُه وإنصافُه في عقابِه على السيِّئة، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ فيما رواهُ عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «قال اللهُ عزّ وجلّ: إذا هَمَّ عبدي بحَسنةٍ ولم يَعمَلْها كتَبْتُها له حسَنةً، فإنْ عَمِلها كتَبتُها عشْرَ حسَناتٍ إلى سبعِمائةِ ضعفٍ، وإذا هَمَّ بسيّئةٍ ولم يَعمَلْها لم أكتُبْها عليه، فإنْ عَمِلَها كتبتُها سيّئةً واحدةً»[١].

لكلِّ بلدٍ عُملتُها، يشتري بها الناسُ في هذا البلدِ ما يحتاجونَ إليه بها، أما عُملةُ الآخِرة فهي الحَسناتُ، والذين لا يجمَعونَ الحسَناتِ في هذه الدُّنيا يكونونَ في الآخِرة من الخائبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾

٧٨ ـ يقولُ مُقاتلٌ رضي اللهُ عنه: «خَرَج النّبيُّ ﷺ من الغارِ ليلًا مهاجِرًا إلى المدينةِ في غيرِ طريقٍ مخافةَ الطَّلَب، فلمّا رَجَع إلى الطّريقِ ونَزَل الجُحْفةَ عَرَف الطّريقَ إلى مكّةَ فاشتاقَ إليها، فقال له جِبريلُ: إنّ اللهَ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: إلى مكّة ظاهرًا عليها. قال ابنُ عبّاسٍ: نَزَلت هذه الآيةُ بالجُحْفة»[٢].

يعني: أنّ اللهَ تعالى قد فَرَض عليكَ تبليغَ هذا القرآنِ الكريم، ولهذا أنت مُضْطَرٌّ الآنَ إلى الرَّحيل عن مكّةَ؛ لأنّ أهلَ مكّةَ ـ في الوقتِ الحاضِرِ ـ ليسوا على استعدادٍ للاعترافِ بالقرآنِ الكريم، ولكنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ، سيُعيدُكَ اللهُ تعالى ثانيةً إلى مكّةَ، وهكذا تحقَّق وعدُ الله تعالى هذا بعدَ ثماني سنواتٍ، ودَخَل سيّدُنا محمّدٌ ﷺ مكّةَ فاتحًا منتصِرًا.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٥٩ برقم ٣٣٨.
(٢) تفسير القرطبي.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

٧٩ ـ كان مشركو مكّةَ يدَّعونَ أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ انحَرفَ عن دينِ آبائهم وأجدادِهم، يعني: عن عبادةِ الأصنام والعياذُ بالله، وأصبح ضالًّا، فقال النبيُّ ﷺ ردًّا على ادِّعائهم هذا: سواءٌ اعترَفتُم بي هاديًا أم لم تعترِفوا، إنّ ربِّي يَعلَمُ تمامَ العِلم مَن منّا على هُدىً، ومَن هو في ضلالٍ مُبين، وباختصار: سوف تشاهدونَ جميعًا يومَ القيامة أنّني مُهتدٍ.

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

٨٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنك لم تتَمنَّ أبدًا أن يُنزَّلَ عليك القرآنُ، ولكنّ هذا فَضْلٌ من ربِّك وكَرمٌ منه أنِ اختارَك للنُّبوة، ولهذا يجبُ على كلِّ فردٍ ممَّن يؤمنونَ بك من أُمّتِك أن يتَّبعَك ويَثبُتَ على التوحيد، وأن لا يكونَ عونًا للكافرينَ على كُفرِهم وشركِهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

٨١ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تُبالِ بمخالفةِ المشركينَ لك، واستمرَّ في دعوتِك للناسِ إلى التوحيد، ومن يؤمنُ بك لا يقتربُ من الشِّركِ أبدًا بعدَ ذلك.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

٨٢ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، يجبُ على كلِّ فردٍ من أُمّتِك أن لا يدعوَ معَ الله إلهًا آخَرَ؛ لأنّ العبادةَ لا تليقُ إلّا بالله تعالى وحدَه لا شريكَ له، وهو الباقي

الحيُّ الذي لا يموتُ، بينَما كلُّ شيءٍ في الكائناتِ إلى فناءٍ وزَوال، والناسُ جميعًا سيَمثُلونَ في حضرةِ عدالتِه يومَ القيامة، حيث يكونُ الحُكمُ طِبقًا لأمرِه، ولن يُظلَمَ أحدٌ إذ ذاك.

كلُّ شيءٍ في هذه الدُّنيا فانٍ، ولن يبقَى سوى ذاتِ الله تعالى الحيِّ الذي لا يموت، وهنا إشارةٌ إلى أنّ العَملَ الذي يُعمَلُ من أَجْلِ الدنيا يفنَى معَ الدنيا، والعمَلَ الذي يُعمَلُ من أَجْل رضا الله تعالى يبقَى ويَخلُدُ ويَدوم، ويكونُ وسيلةً للنجاةِ في القبرِ وعند الحَشْر.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا

بفَضْل الله تعالى وكَرمِه اكتَمَل تفسيرُ هذه السُّورة خلالَ واحدٍ وعشرين يومًا من أيام رمضانَ المباركة، وذلك بعدَ صلاةِ التراويح من يوم السبت ١٢ سبتمبر ٢٠٠٩م، الموافق ٢٢ رمضان ١٤٣٠هـ.

❋ ❋ ❋

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٢٩) سُورَةُ العَنكَبُوتِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «سُورةُ العَنْكَبوت»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ رقم ٤١ من السُّورة، وفي هذه الآيةِ شَبَّه اللهُ تعالى الآلهةَ الباطلةَ ببَيْتِ العَنْكَبوت، يعني: كما أنّ بيتَ العنكبوتِ لا يستطيعُ الصُّمودَ أمامَ الهواءِ الشَّديد، فيتمزَّقُ ويتطايَر، كذلك فإنّ الذين يترُكونَ اللهَ تعالى ويتَّخِذونَ من غيرِه آلهةً لهم، ويعتمِدونَ على مساعدةِ هذه الآلهةِ لهم، عليهم أن يتعقَّلوا الأمورَ؛ لأنّ الآلهةَ الباطلةَ لا تستطيعُ أن تُنقذَ نفسَها من عذابِ الله تعالى، فكيف يمكنُها أن تُنقذَ غيرَها إذًا؟

كان الذي يَدخُلُ الإسلامَ في مكّةَ يتحوَّلُ أهلُ بيتِه وأقاربُه وكلُّ مشركي مكّةَ إلى معارِضينَ له، ويستهدِفونَه بكلِّ أنواع الإيذاءِ البَدَنيِّ والنَّفْسي، وفي بدايةِ هذه السُّورة طَمْأنةٌ لهؤلاءِ الذين دَخَلوا في الإسلام أن يَثبُتوا على إسلامِهم؛ لأنّ هذه سُنّةُ الله تعالى أنه يَختبرَ أهلَ الإيمان، وقد اختَبَر مِن قبلِهم كلَّ أهل الإيمانِ الذين سبَقُوهم، والآنَ يَختبرُ الذين آمَنوا بسيّدِنا محمّدٍ ﷺ، حتى يَعلَمُ الناسُ أنّ الذين يؤمنونَ بصِدقٍ من قلوبِهم لا يمكنُ أن يُزلزِلَ إيمانَهم أيُّ إيذاءٍ، ثم قال اللهُ تعالى في نهايةِ هذه السُّورة: الذين ينهَمِكونَ في العَمل على إرضائنا رَغْم المشكلاتِ والمصاعبِ نوجِّهُهم إلى السَّيرِ على طُرقِ الهداية.

وللوالدَيْنِ مكانةٌ عظيمةٌ في الإسلام، ولهذا جاء التأكيدُ ـ بقوّة ـ على حُسن معاملتِهما، ولكنّ الوالدَيْنِ إنْ رَغَّبا أولادَهما في الشِّركِ فلا تجوزُ طاعتُهما في هذا، وهذا يعني أنه لو أنّ أعظمَ قوّةٍ في الكائناتِ وأحبَّها إلى الإنسانِ دَعَتْه إلى معصيةِ الله تعالى فلا تجوزُ طاعتُها.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إيتن هال
بعدَ صلاة العصرِ من يوم الرابعَ عشَرَ من
سبتمبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٤ رمضانَ ١٤٣٠هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ العَنكَبُوتِ (٢٩)،

مكية (٨٥)، آياتها (٦٩)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

﴿الٓمٓ﴾

١ - للتعرُّفِ على تفسيرِ الحروف المقطَّعاتِ راجعْ تفسيرَ الآيةِ الأولى من سُورةِ البقرة.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

٢ ـ هذه الدُّنيا دارُ العمَل، والآخِرةُ دارُ الحساب، وبقَدْرِ مكانةِ الإنسانِ ومقامِه في الآخِرة يكونُ ابتلاؤه في هذه الدُّنيا، حتى لا يعترضَ أحدٌ يومَ القيامة قائلًا: لماذا فازَ فلانٌ بهذه المرتبَةِ الرَّفيعة؟ وإنّما سيُشاهدُ كلُّ فردٍ أنه قد تَحمَّل من الإيذاءِ والمصاعبِ الكثيرَ في سَبيلِ رِضا ربِّه، ولهذا فهو يستحِقُّ ـ بالفعل ـ أن يُنعِمَ اللهُ تعالى عليه بهذه المكانةِ العظيمة.

وهذه السِّلسلةُ منَ الابتلاءاتِ ليست أمرًا جديدًا، وإنّما هي سُنّةُ الله تعالى منذُ الأزَل، فقدِ ابتَلَى المؤمنينَ بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ من قَبْلُ، والآنَ سيُبتَلَى المؤمنونَ بالنبيِّ الكريم ﷺ، حتى يَعلَمَ الناسُ منِ المخلِصُ ومنِ المنافقُ.

ـ عن مُصعَبِ بن سعدٍ، عن أبيه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله: أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ ثم الأمثَلُ فالأمثَل، فيُبتَلَى الرجلُ على حسَبِ دينِه، فإن كان دِينُه صُلبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دِينِه رِقّةٌ ابتُليَ على حسَبِ دِينِه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ»[١].

ـ عن خَبّاب بن الأَرتّ، قال: شَكَوْنا إلى رسولِ الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظلِّ الكعبة، قُلنا له (بَعد أن ذَكْرنا له إيذاءَ الكُفّارِ لنا): ألا تَستنصِرُ لنا، ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: «كان الرّجلُ فيمَن قبلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشار، فيوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنتَيْنِ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديد، ما دونَ لحمِه من عَظْمٍ أو عصبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دِينِه، واللهِ، لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتّى يسيرَ الرّاكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ لا يخافُ إلّا اللهَ أو الذّئبَ على غنَمِه، ولكنّكم تستعجِلون»[٢].

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٥٦ برقم ٢٣٩٨.
(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٦١٢.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

٣ ـ لئنْ فَهِم العُصَاةُ المُخطئونَ من الناسِ أنهم يُمكنُهم الهرَبُ في مكانٍ ما أو الاختفاءُ في مكانٍ آخرَ والنَّجاةُ من الحساب، وأنهم سيُفلتونَ من قبضةِ الله تعالى، فهذا ـ في الحقيقة ـ تفكيرٌ خاطئٌ وأحمقُ للغايةِ منهم؛ لأنّ اللهَ تعالى عالِمُ الغيب، وهو القادرُ المطلَق، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يَغيبَ بعيدًا عنه، كما لا يمكنُ لأحدٍ الإفلاتُ من قَبْضتِه.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

٤ ـ الإنسانُ الذي يؤمنُ بأنه سيَمثُلُ يومَ القيامةِ بينَ يدَي الله تعالى للحساب، ويعمَلُ الصّالحاتِ من أَجْل إرضائه تعالى، عليه أن يتسلَّحَ بالصبرِ على المصاعبِ التي تواجهُه في سَبيل الله تعالى، ويومُ القيامةِ قادمٌ لا مَحالةَ، حيث سيَنالُ أحسنَ الأَجْر على صبرِه.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٥ ـ الذي يَعمَلُ الصّالحاتِ تكونُ الفائدةُ له هو؛ لأنّ ثوابَ الصّالحاتِ يومَ القيامة سيكونُ له هو، واللهُ تعالى لا يَحتاجُ إلى عبادةِ أحدٍ له ولا إلى التحنُّثِ من أَجْله؛ لأنه غنيٌّ عن العالَمينَ جميعًا، وسواءٌ عَمِل أحدٌ صالحًا أو سوءًا، فإنّ هذا لا ينفَعُ اللهَ تعالى في شيءٍ ولا يَضُرُّه في شيءٍ كذلك، مثلَما جاء في الحديثِ القُدُسي، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فيما رَوى عن اللهِ تعالى أنه قال: «يا عبادي، إنّكم لن تَبلُغوا ضَرّي فتَضُرّوني، ولن تَبلُغوا نَفْعي فتنفَعوني، يا عبادي، لو أنّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أنّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنْسَكم

وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نَقَص ذلك من مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أنّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأَعطَيْتُ كلَّ إنسانٍ مسألَته ما نَقَص ذلك ممّا عندي إلّا كما يَنقُصُ المَخِيطُ إذا أُدخِلَ البحر، يا عبادي، إنّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم ثمّ أُوَفّيكم إيّاها، فمَن وَجَد خيرًا فلْيحمَدِ الله، ومن وَجَد غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلّا نفسَه»[١].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٦ ـ الذين آمَنوا وظَلُّوا يعمَلونَ الصّالحاتِ بعدَ ذلك، تبشِّرُهم هذه الآيةُ الكريمةُ أنّ كلَّ ذنوبِ كُفرِهم وشركِهم سيَغفِرُها اللهُ تعالى لهم بفَضْل إيمانِهم، وسيُثيبُهم أحسَنَ الجزاءِ على أعمالِهم الصّالحة.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَنَ بِوَلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾

٧ ـ أكَّد القرآنُ الكريمُ والحديثُ النَّبويُّ الشّريفُ ـ كثيرًا ـ على حُسن معاملةِ الوالدَيْن، ويُمكنُك الرُّجوعُ إلى الحاشية رقم **٥١** للآية رقم **٣٦** من سُورة النساءِ (٤)، والحاشية رقم **٢٣** للآية رقم **٢٣** من سُورة الإسراءِ (١٧) للتعرُّفِ بشكلٍ أكبرَ على هذا الأمر.

إنّ عقوقَ الوالدَيْنِ من كبائرِ الذُّنوب، ولكنْ إذا أَمَرَ الوالدانِ أحدًا بالشِّركِ بالله أو ارتكابِ ذنبٍ، ففي هذه الحالةِ لا تجوزُ طاعةُ الوالدَيْنِ، ومعنى هذا أنّه مهما كانتِ الشّخصيةُ التي تَأمُرُ بالشِّركِ وارتكابِ الذَّنبِ عظيمةً وعزيزةً من بَيْنِ الكائناتِ كلِّها فإنه لا تجوزُ طاعتُها في هذا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيِّدُنا عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنّما الطّاعةُ في المعروف»[٢].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب **١٥** برقم **٦٥٧٢**.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٨ برقم **٤٧٦٥**.

ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسير هذه الآية: «ورُوي عن سعدٍ، أنّه قال: كنتُ بارًّا بأُمّي فأسْلمتُ، فقالت: لَتَدعَنَّ دِينَك أو لا آكُلُ ولا أشربُ حتّى أموتَ، فتُعيَّرُ بي، ويقالُ: يا قاتلَ أُمِّه، وبَقِيَت يومًا ويومًا، فقلتُ: يا أُمّاه! لو كانت لكِ مائةُ نفسٍ، فخَرَجتْ نفسًا نفسًا ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكُلي، وإن شئتِ فلا تأكُلي، فلمّا رأتْ ذلك أكلَت، ونزَلت: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الآيةَ»[1]، ففي هذه الآيةِ مُنِع سيّدُنا سعدٌ رضي الله عنه من طاعةِ أُمِّه حين دَعَتْه إلى الشِّرك.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٨ ـ لأنّ الجميعَ سيَمثُلونَ في يومٍ من الأيام في حضرةِ الله تعالى للحساب، واللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم ظاهرَ كلِّ شخصٍ وباطنَه، لهذا يجبُ أن تخافوا من عِصيانِه، وإلّا فإنه في ذلك اليوم حين يُرفَعُ السِّتارُ عن السيِّئاتِ وتُكشَفُ أمامَ الجميع لن يكونَ سوى الخِزْي والذُّلّ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ﴾

٩ ـ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سيَجزيهمُ اللهُ تعالى خيرَ الجزاء، ومن هذا أنّ اللهَ تعالى سيُدخلُهم في معيَّةِ الصّالحينَ، ويُعلَمُ منه أنّ صُحبةَ الصّالحينَ ومعيَّتَهم نِعمةٌ عظيمةٌ من نِعَم اللهِ تعالى.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾

١٠ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآيةُ نَزلتْ في

---

(١) تفسير القرطبي.

المنافقين، كانوا يقولونَ آمَنّا بالله ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخِرة، فارتدَّ عن إيمانِه»[١]، وسيَذهبونَ إلى الكُفّار قائلينَ: في الحقيقةِ نحن كنّا معَكم، وكنّا نخدَعُ المسلمينَ، ولكنْ حين ينتصرُ المسلمونَ بتأييدِ الله تعالى ونُصرتِه، يذهَبُ هؤلاءِ إلى المسلمينَ ويَدَّعُونَ ـ كذبًا ـ قائلين: إنّما ذهبنا إلى الكُفّارِ لنطَّلعَ على أسرارِهم ليس إلّا، والحقيقةُ أنّنا كنّا معَكم من قبلُ، ونحن معَكمُ اليومَ أيضًا، ولهذا يجبُ أن نحظَى بنصيبٍ من الغنائم، لأنّنا إخوتُكم في الإسلام.

﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

١١ ـ ربّما يستطيعُ المنافقونَ تحقيقَ أهدافِهم في هذه الدُّنيا بخِداع المسلمينَ والكُفّار، لكنّ اللهَ تعالى عالِمٌ بالغَيْب، ويَعلمُ تمامَ العِلم ما تُخْفيه القلوبُ من الأسرارِ أيضًا، ولكنْ كيف سيكونُ حالُ المشركينَ حين يَفضَحُ اللهُ تعالى سرَّهم يومَ القيامة، ويكشِفُ أحوالَ المؤمنينَ والمنافقين؟

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

١٢ ـ قال مشرِكو مكّةَ للمسلمينَ: عودوا إلى طريقِنا، أي: إلى الكُفرِ والشِّرك، وسوف نوقفُ ظُلمَنا لكم ونكُفُّ أيديَنا عنكم، وإنْ كنتُم تخشَوْنَ من أنّ الشِّرك ذنبٌ، وأنّكم ستُبتَلَوْنَ يومَ القيامة بالعذابِ بسببه، فإنّ أولَ شيءٍ في هذا الخصُوص هو أنّ العقلَ لا يقتنعُ أبدًا بالإحياءِ ثانيةً بعدَ أن نموتَ ونصيرَ ترابًا، وعلى فَرْض المستحيل لو حَدَث هذا قولوا عندَ الله تعالى: إنّنا نحن الذين أشَرْنا عليكم بالشِّرك، ونحن أيضًا نَعِدُكم أنّنا سنعترفُ بمسئوليَّتِنا عن هذه المَشُورة، وسوف نَحمِلُ عنكم عبءَ ذنوبِكم.

---

(١) تفسير القرطبي.

في هذه الآيةِ إجابةٌ على المشركينَ بأنّهم يكذِبونَ كَذِبًا مَحْضًا، وسيكونُ كلُّ فردٍ يومَ القيامة منشغِلًا بحالِ نفسِه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، في ذلك اليوم سيَفِرُّ الشّخصُ من أخيه وأُمِّه وأبيه وأولادِه. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]، حتى أنّ الأحبابَ والأصدقاءَ سيُصبحونَ أعداءً لبعضِهم ما عدا المتَّقينَ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، يعني: أنّ المتَّقينَ سيكونونَ في ذلك اليوم أيضًا أصدقاءً لبعضِهم مثلَما همُ اليومَ في الدُّنيا، ومثلَما يفيدُ بعضُهم بعضًا اليومَ سيفيدُ بعضُهم بعضًا في ذلك اليوم أيضًا إن شاء اللهُ تعالى.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

١٣ ـ سيكونُ على المشركينَ يومَ القيامة أن يَحمِلوا أثقالَ ذنوبِهم، وأثقالَ ذنوبِ أولئك الذين ضَلُّوا بسببِهم ومحاولاتِهم معَهم، كما أنّ المشركينَ سيُسألونَ يومَ القيامة عن تلك الدَّعاوَى الكاذبة التي كانوا يُضِلُّونَ الناسَ عن طريقِها، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «من دَعا إلى هُدًى كان له من الأَجْر مثلُ أجورِ مَن تَبعه لا يَنقُصُ ذلك من أُجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضَلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ آثامِ مَن تَبِعَه لا يَنقُصُ ذلك من آثامِهم شيئًا»[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٢٦٧٤.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

١٤ ـ ظَلَّ سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسينَ عامًا، ولمَّا لم يرجِعْ قومُه عن ظُلمِهم حتى بعدَ هذه الفترةِ الطويلة من الدَّعوة، جاءهم طُوفانُ الماء في نهايةِ الأمر وأَغْرقَهم جميعًا، ولم يَنْجُ سوى أولئك الذين رَكِبوا السَّفينةَ معَ سيّدِنا نُوح عليه السَّلام، وقد توقَّفتْ تلك السَّفينةُ فوقَ قمّةِ جبل الجُوديِّ، وأصبحت آيةَ عِبرةٍ للأجيالِ التالية، يعني: أنّ الذين نَجَوْا هم أولئك الذين رَكِبوا السَّفينةَ بناءً على دعوةِ النبيِّ لهم، وبنفسِ الطريقة فإنّ الذين سينجُونَ في الآخِرة هم أولئك الذين سيؤمنونَ بدعوةِ النبيِّ.

وفي هذه الآيةِ طَمْأنةٌ للنبيِّ الكريم ﷺ أنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ يا رسولَ الله ﷺ بسببِ إيذاءِ أهل مكّةَ لك وعَدَم إيمانِهم بك، ولكنِ انظُرْ إلى ثباتِ سيّدِنا نُوح عليه السَّلامُ الذي ظَلَّ يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسينَ عامًا، ولم يؤمنْ به منهم سوى ثمانينَ فردًا فقط.

إلى قومِه، وقد فَعَل هذا على وَجْهِ اليقين، وبالتالي سواءٌ عَمِل أحدٌ بهذه الدَّعوةِ أم لا، لا تقعُ مسئوليّةُ ذلك على النبيِّ، وإنّما كلُّ إنسانٍ مسئولٌ عن أعمالِه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

١٧ ـ كان مشرِكو مكّةَ يعتقِدونَ أنّ الإنسانَ لا يُمكنُ أن تعودَ إليه الحياةُ ثانيةً بعدَ أن يموتَ ويصيرَ ترابًا، وفي هذه الآيةِ أُقيم الدَّليلُ على الإحياءِ عن طريقِ الخَلْق الأوّل، يعني: أنّ الذاتَ التي خَلَقتِ الإنسانَ للمرّةِ الأولى بغيرِ مادّة، وبغيرِ صورةٍ أو شكلٍ سابق، يُمكنُها أن تَخلُقَه ثانيةً على نفسِ الشّكلِ والصُّورةِ التي كان عليها، وهذا أكثرُ سهولةً ويُسرًا، ولْتتجوَّلْ في الأرضِ وتَطُفْ بها لترى أنّ الذي خَلَق الجبالَ الراسخةَ والبحارَ والمخلوقاتِ المتنوِّعَة بغيرِ نموذَجٍ سابق لا يَصعُبُ عليه إفناءُ هذا المخلوقِ وخَلْقُ مخلوقٍ مثلِه ثانيةً.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾

١٨ ـ اللهُ تعالى حاكمٌ مطلَق، ويتصرَّفُ في خَلقِه كما يشاء، لكنّه في الحسابِ والعقابِ والثوابِ لا يَظلِمُ أحدًا.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

١٩ ـ هنا تنبيهٌ للمشركينَ أنّكم سواءٌ آمنتُم بيوم القيامة أم لم تؤمِنوا، فإنّ الحقيقةَ هي أنّ الساعةَ آتيةٌ لا مَحالةَ، وستَمثُلونَ في ذلك اليوم في حضرةِ الله تعالى، وأينَما كنتُم في السّماءِ أو في الأرضِ لا يمكنُ أن تكونوا خارجَ قَبْضةِ الله تعالى، ولن يكونَ لكم صَديقٌ أو قوّةٌ يمكنُها أن تُجيرَكم من الله تعالى، ولهذا فإنّ الخيرَ لكم أن تَرجِعوا اليومَ وفورًا إلى الله تعالى؛ لأنه هو مُعينُكم وصديقُكمُ الحقيقيُّ.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٢٠ ـ هذه الدُّنيا دارُ العمَلِ ودارُ الابتلاء، ورحـمةُ الله تعالى فيـها عامّةٌ للجميع، ويستفيدُ منها المؤمنُ والكافر، لكنْ يومُ القيامةِ هو يومُ الحساب، حيث سيَنالُ الصّالحونَ الجنّةَ برحمةِ الله، وينالُ الأشرارُ جهنَّمَ بما ارتكبوهُ من سيِّئات، وهكذا فالواضحُ أنّ الذين يُنكِرونَ ذاتَ الله تعالى واليومَ الآخِرَ لم يَستعِدُّوا بشيءٍ للآخِرة، ولذا فإنّهم سيكونونَ يائسينَ من رحمةِ الله تعالى يومَ القيامة، وسيكونُ لهم عذابٌ أليم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٢١ ـ قَدَّم سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لقومِه الدَّلائلَ التي تُثبتُ التوحيدَ

وتدحَض الكُفرَ، ولمّا لم يستطعْ قومُه الردَّ على هذه الدَّلائل سَلَكوا طريقَ العُنفِ والظُّلم، وهذا هو ما يَحدُثُ في الغالبِ في هذه الحياةِ الدُّنيا، فحين يَفشَلُ قومٌ في ميدانِ العقلِ تَجِدُهم يلجَأُونَ إلى العنفِ تعصُّبًا، وهكذا قرَّر قومُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ـ فيما بينَهم ـ أن يَقتُلوا سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام، أو أن يُحَرِّقوهُ حيًّا ليكونَ عِبرةً، وحتى لا يتحدَّى أحدٌ شِركَهم مستقبَلًا، وبالتالي أشعَلوا نارًا عظيمةً، وألقَوْا سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ فيها، لكنّ اللهَ تعالى جَعَل النارَ التي به أَمْنًا وسَلامًا، بحيثُ لم تمسَّ النارُ شعرَةً منه، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم **٥٦** للآية رقم **٦٩** من سُورةِ الأنبياء (**٢١**).

وفي هذهِ الواقعة درسٌ لأهلِ الإيمان، وهو أنه إذا ابتَلَى اللهُ تعالى أحدًا عليه أن يظَلَّ ثابتًا على الإيمانِ حتّى في أصعبِ الظُّروف، أمّا الدرسُ الثاني فهو أنه حين ينجَحُ المؤمنُ في هذا الابتلاءِ فإنّ اللهَ تعالى يَجْزيهِ أعظمَ الجزاءِ في الآخِرة، بل ويجعَلُه ـ في الغالب ـ من الناجحينَ المتميِّزينَ في هذه الدُّنيا أيضًا، مثلَما أَنْعم بالنَّجاح الباهرِ على سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في مواجهةِ النُّمرود، وعلى سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ في مواجهةِ الفِرعونَ، وعلى نبيِّنا الكريم سيّدِنا محمّدٍ ﷺ في مواجهةِ مُشركي مكّةَ.

كما أنّ في هذه الـواقعةِ أيضًا دليـلًا على توحيدِ الله تعالى وقُدرتِه، وعلى نُبوّةِ سيّدِنـا إبراهيـمَ عليـه السَّلامُ وصِدقِه، والذي يُعَدُّ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكريّةِ للمشركين، بأنّ اللهَ تعالى القادرَ المطلَقَ الذي أنقَذَ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ من النارِ الملتهِبة، هو الذي ينبغي أن نؤمنَ بتوحيدِه وأن نعبدَه هو لا غيرَه.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

٢٢ ـ لم يكن لديهِم أيُّ دليلٍ قويٍّ على عبادةِ الأوثان، وإنّما ارتَبَطوا ارتباطًا

وثيقًا بعبادةِ الأوثان بسببِ تقليدِهمُ الأعمى لآبائهم وأجدادِهم فقطْ، بحيث أصبحَ هذا الأمرُ وسيلةً لوحدتِهم ومحبَّتِهم فيما بينَهم، وحين يرَوْنَ جهنَّمَ مصيرَهم يومَ القيامة سيتحوَّلُ بعضُهم إلى أعداءٍ لبعض، وسيَلعَنُ كلٌّ منهم الآخَرَ، ويتَّهمُه بأنه هو السببُ في ضَلالِه، وبأنه هو الذي أوصَلَه إلى هذا المصيرِ بإضلالِه له، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، عذابٌ بسببِ ضلالِهم، وعذابٌ بسببِ إضلالِهم غيرَهم، وعليه سيقولُ اللهُ تعالى: لكلٍّ منكم اليومَ عذابٌ مضاعَف؛ لأنّهم إن أرشَدوكم إلى الطريقِ الخاطئ فلم تكونوا أنتم عُمْيانًا حتى تتَّبِعوهم بهذا الشّكل، ولهذا فإنّ جُرمَكم مضاعَفٌ أيضًا؛ جُرمٌ لضلالِكم، وجُرمٌ لتقليدِكم الأعمى للمُضِلِّين.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٢٣ ـ كان سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ موحِّدًا منذُ البداية؛ لأنّ النبيَّ يكونُ دائمًا منزَّهًا عن الشِّركِ والكُفر، ولهذا فإنّه ما إن دعاهُ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى التوحيد حتى كان سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ أولَ المؤمنينَ به المصدِّقينَ لرسالتِه، لقد كان ابنَ أخ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام[1].

وحينَ لم يؤمنْ أهلُ العراقِ بسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ حتى بعدَ أن رأَوُا المعجزةَ العظيمةَ تَحوُّلَ النارِ إلى رَوْضة، بل وازدادت مضايقتُهم لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ عن ذي قَبْلُ، وعندَئذٍ قرَّر سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ الهجرةَ من هناك، وكان معَه في هذه الهجرةِ زوجتُه السيِّدةُ سارةُ رضي اللهُ عنها، وابنُ أخيه سيّدُنا

---

(١) «فآمن معه لوط وصدّقه، وهو ابن أخيه وأول من آمن به». صفوة التفاسير.

لوطٌ عليه السَّلام، وبعدَ الهجرةِ استقرَّ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ في فِلَسطينَ، بينَما أَرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ نبيًّا إلى سَدُوم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾

٢٤ ـ رَزَقَ اللهُ تعالى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ بولدَيْنِ في شيخوختِه، الأولُ هو: سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلامُ والذي خَرَج سيّدُنا محمدٌ عليه السَّلامُ من ذُرِّيتِه، والثاني: سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلامُ والذي وُلِد له سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام، وخَرَج من نَسْلِه كلُّ أنبياءِ بني إسرائيلَ عليهم جميعًا السَّلامُ، وسيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ هو الذي نالَ شرفَ أنْ كان كلُّ الأنبياءِ الذين جاءوا بعدَه عليهم جميعًا السَّلامُ من ذُرِّيتِه، ونَزَلتِ الكتُبُ السَّماويةُ الأربعةُ، أي: التَّوراةُ والزَّبورُ والإنْجِيلُ والقرآنُ الكريمُ على الأنبياءِ الذين خَرَجوا من ذُرِّيتِه عليهم جميعًا السَّلام.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

٢٥ ـ سيشمَلُ اللهُ تعالى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في الآخِرة في عبادِه الصَّالحين، وسيُنعِمُ عليه بعظَمةٍ لا يمكنُ تصوُّرُها بالنسبةِ لنا، لكنّ اللهَ تعالى قد أَنْعَم على سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في هذه الدُّنيا أيضًا بشأنٍ مميَّزٍ، وهو الذي جَعَل مسلمي العالَم كلِّه ومسيحيِّيه ويهودَه يعتبِرونَه إمامًا لهم، ويعظِّمونَه ويُجِلُّونَه.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

٢٦ ـ كان الرِّجالُ من قومِ لُوطٍ يترُكونَ النِّساءَ ويُشبِعونَ رغَباتِهم النَّفسيّةَ مع

الرِّجالِ أمثالِهِم، وهو أمرٌ غيرُ فِطريٍّ وغيرُ طبيعيٍّ، حتى أنّ الحيَواناتِ في الغابةِ أيضًا تتجنَّبُ مِثلَ هذا الفعل، وقد أَفْهم سيِّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ قومَه كثيرًا بأنّكم ترتكبونَ فاحشةً لم يرتكبْها أحدٌ في العالَم كلِّه من قَبْلِكم، ثم إنّكم ترتكبونَها في الطُّرُقاتِ العامّة وعلى الملأِ، كما أنّكم تقتُلونَ المسافرينَ وعابري السَّبيل وتنهَبُونَ أموالَهم، ولا بدَّ أن تَرتدِعوا عن هذا الفعل الدنيءِ وهذا الظُّلم الفاحش، وإلّا سينزِلُ عليكم عذابٌ من الله تعالى. ولم يكنْ لدى قومِ لوطٍ جوابٌ معقولٌ لرَفْض هذه النَّصيحة، ولهذا رَكِبَهم العنادُ والتعصُّبُ، فقالوا لسيِّدِنا لوطٍ عليه السَّلام: لسنا بتاركينَ هذا الفعلَ، أمّا العذابُ الذي تُخوِّفُنا منه فأْتِنا به إن كنتَ صادقًا في دعواكَ حقًّا. لقد كانوا يعتقدونَ أنّ القيامةَ لن تأتيَ أبدًا مثلَما لم تأتِ حتى الآنَ.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ

وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾

٢٧ ـ لمّا يئسَ سيّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ من إصلاح قومِه دَعا اللهَ تعالى وطَلَب منه العَوْن، فاستجابَ اللهُ دعاءه، وأرسَلَ ملائكةً لإهلاكِ قومِه، فذَهبتِ الملائكةُ أولًا إلى سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وبشَّرتْه بولادةِ أطفالٍ له رَغْم شيخوختِه، وأخبَروه أيضًا أنّ اللهَ تعالى أرسَلَهم لإهلاكِ قوم لوطٍ وتدمير قريتِهم؛ لأنّهم ظَلَموا وطَغَوْا وتجبَّروا.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

٢٨ ـ سألَهم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قائلًا: إنّ لوطًا عليه السَّلامُ يعيشُ في هذه القريةِ أيضًا، فهل ستُهلِكونَ أهلَها أمامَ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ أم ستُخرِجونَه منها أولًا؟ فأجابَتْه الملائكةُ: إنّنا نعرفُ كلَّ سُكّانِ هذه القرية معرفةً تامّةً، وسوف نُخرِجُ سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ وأهلَ بيتِه من هذه القريةِ أولًا، إلّا أنّ زوجتَه ستتخلَّفُ عنه لأنّها كافرةٌ، وسوف تَهلِكُ مع بقيّةِ أهل القرية.

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

٢٩ ـ لمَّا حضَرتِ الملائكةُ عندَ سيِّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ في صُورةِ أولادٍ في غايةِ الحُسن خافَ سيِّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ واضْطَربَ؛ لأنَّ الرِّجالَ في قومِه مُغرَمونَ بارتكابِ الفاحشة معَ الأولاد، ولهذا خَشِي سيِّدُنا لوطٌ عليه السَّلامُ أنْ يَعرِفَ قومُه بأمرِ هؤلاءِ الضُّيوف، فيأتونَه ويُهينونَهم، فلمَّا رأتِ الملائكةُ سيِّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ قلِقًا قالوا له: لا تخَفْ، إنَّنا ملائكةٌ مرسَلونَ منَ الله تعالى، ولا يستطيعُ هؤلاءِ مضايقتَنا في شيءٍ، بل إنّنا نحن الذين سنُنزِلُ عليهمُ العذابَ قريبًا، لكنَّنا سنُخرِجُك أنت وأهلَ بيتِك أولًا من هنا، إلّا أنَّ امرأتَك سينزِلُ عليها العذابُ معَ هؤلاءِ العُصاةِ؛ لأنّها لم تؤمنْ بكَ. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الواقعة راجعِ الآياتِ من ٨٠ إلى ٨٤ من سُورة الأعراف (٧)، وكذا الآياتُ من ٧٧ إلى ٨٤ من سُورة هود (١١)، والآياتُ من ٦١ إلى ٧٩ من سُورة الحِجْر (١٥).

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

٣٠ ـ لمَّا حان وقتُ نزولِ العذابِ على قوم سيِّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ قَلَبَ اللهُ قريتَهم رأسًا على عَقِب، ولا تزالُ بعضُ أطلالِ هذه القريةِ المقلوبة موجودةً بيْنَ المدينةِ والشام، وكان أهلُ مكَّةَ يشاهدونَ هذه الأطلالَ في أسفارِهم إلى الشّام بغَرَضِ التِّجارة، لكنّ الذين يَعتبِرونَ من هذه الأشياءِ هم الذين يستعمِلونَ عقولَهم.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

٣١ ـ كان أهلُ مَدْيَنَ يُطفِّفونَ في الموازينِ بإنقاصِها، ولأنّهم كانوا يُنكِرونَ يومَ القيامة، لهذا كانوا يَعِيثونَ في الأرضِ فسادًا غيرَ مُبالِينَ بالعاقبة، فأرسَلَ اللهُ تعالى

إليهم سيِّدَنا شُعَيبًا عليه السَّلامُ نبيًّا، ودَعاهم سيِّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ إلى الإيمانِ بيوم القيامة وعَدَم الإفسادِ في الأرض، لكنّهم كَذّبوا سيّدَنا شُعيبًا عليه السَّلام، وأصَرُّوا على خيانتِهم في الموازينِ وعلى إثارةِ الفساد في الأرض، وكان نتيجةَ ذلك أنّ اللهَ تعالى ابتلاهُم بزِلزالٍ شديدٍ معَ صَيْحةٍ عظيمةٍ خَلَّفتْهم وراءها في الصَّباح موتَى في بيوتِهم مُلقَينَ على وجوهِهم. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الآياتِ من ٨٥ إلى ٩٣ من سُورة الأعرافِ (٧)، وكذا الآياتُ من ٨٤ إلى ٩٥ من سُورةِ هود (١١).

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾

٣٢ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لأهل مكّةَ بأنه لا بدَّ أنّكم رأيتُم في أسفارِكم التِّجاريةِ بيوتَ ومنازلَ قوم عادٍ المدمَّرةَ في اليمن، وكذلك بيوتُ ومنازلُ قوم ثمُودَ المدمَّرةُ بينَ الحجازِ والشّام، وقد زَيَّن لهمُ الشّيطانُ كُفرَهم وشِركَهم وظُلمَهم إلى درجةِ أنّهم تَركوا الطّريقَ المستقيمَ وساروا على الطريقِ الخاطئ، معَ أنّهم كانوا قومًا عُقَلاءَ، ولوِ استعمَلوا عقولَهم لَاستطاعوا معرفةَ الحقِّ وفَهْمَه، لكنّ الذين يضَعُونَ حِجابًا من التعصُّبِ والعنادِ على عقولِهم يعجِزونَ عن فَهْم الحقِّ ومعرفتِه.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾

٣٣ ـ كان قارونُ وفِرعَونُ وهامانُ قد طَغَوْا وتجبَّروا، فأرسَلَ اللهُ تعالى إليهم سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ نبيًّا، ودَعاهم سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ إلى التوحيد، وأراهُم معجِزاتِ نبوَّتِه، لكنَّهم كذَّبوا سيّدَنا موسى عليه السَّلام، وأصَرُّوا على طُغيانِهم، وكانت نتيجةَ ذلك أنْ جَعَل اللهُ تعالى الأرضَ تبتلعُ قارونَ، وأَغْرقَ

فِرعونَ وهامانَ في البحر. إنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، ولا يستطيعُ طاغيةٌ مهما كبُرَ وتجبَّر أن يُفلِتَ من قَبْضتِه ويَفِرَّ بعيدًا عنها.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

٣٤ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى أنبياءَ إلى كلِّ الأُمـم، ونَهَى الأنبيـاءَ جميـعًا أقوامَهم عن الطُّغيانِ والظُّلم، لكنّ الذين لم يَرجِعوا عن الطُّغيانِ والظُّلم عاقَبَهم اللهُ تعالى في نهايةِ الأمر بعقوباتٍ مختلفة طبقًا للجُرم الذي ارتكَبوه، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا، وإنما استَحقُّوا العقابَ بما ارتكَبوا من ظُلم وتجبُّر.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

٣٥ ـ في هذه الآيةِ الكريمة شَبَّه اللهُ تعالى الآلهةَ الباطلةَ ببيتِ العنكَبوت، يعني: كما أنّ بيتَ العنكَبوتِ يكونُ أضعفَ البيوتِ وأوهَنَها، ولا يستطيعُ الصُّمودَ أمامَ الأمطارِ أو الرِّياح القويّة فيتمزَّقُ ويتطايَر، كذلك فإنّ الذين يترُكونَ اللهَ تعالى ويتَّخِذونَ من غيرِه آلهةً لهم، ويعتمِدونَ على مساعدةِ هذه الآلهة لهم، عليهم أن يتعقَّلوا الأمورَ؛ لأنّ الآلهةَ الباطلةَ لا تستطيعُ أن تُنقِذَ نفسَها من عذابِ الله تعالى، فكيف يمكنُها أن تُنقِذَ غيرَها إذًا؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٣٦ ـ الأشياءُ التي كان هؤلاءِ المشركونَ يعبدونَها من دونِ الله تعالى يَعلَمُ اللهُ

تعالى حقيقتَها تمامَ العِلم، وكلُّ هذه الأشياءِ عاجزةٌ تمامَ العجزِ أمامَ الله تعالى؛ لأنّ منبَعَ القوّةِ الحقيقيَّ هو اللهُ تعالى، وهو الغالبُ على الجميع، ونظامُ الكائناتِ هذا يسيرُ بحِكمتِه الكاملة، وهو ـ وحدَه ـ الذي يستحِقُّ العبادةَ لا غيرُه.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

٣٧ ـ هذه الأمثالُ يضربُها اللهُ تعالى للناسِ لكي يفهَموا توحيدَه وقُدرتَه ويؤمنوا به، ورَغْم أنّ هذه الأمثالَ للناس جميعًا، لكنْ يفهَمُها العلماءُ فقطْ؛ لأنّهم يتدبَّرونَها ويُفكِّرونَ فيها، أمّا الذين لا يتدبَّرونَها ولا يفكّرونَ فيها فإنّهم لا يستطيعونَ فَهْمَ شيءٍ من هذه الأمثال.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٣٨ ـ خَلَق اللهُ تعالى السّماواتِ والأرضَ طِبقًا لمقاييسَ صحيحةٍ، ولا حاجةَ إلى الزِّيادةِ فيها أو النُّقصانِ منها ولو بقَدْرِ ذَرّة، وفي هذا النِّظام الكامل للسَّماءِ والأرضِ آيةٌ عظيمةٌ لأهلِ الإيمانِ على قُدرةِ الله تعالى.

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

٣٩ ـ الظاهرُ أنّ الخطابَ في هذه الآيةِ للنبيِّ ﷺ، لكنّ الحقيقةَ أنه خطابٌ لأهلِ الإيمانِ جميعًا.

آداب تلاوة القرآن المجيد:

رَغْم أنه يجوزُ تلاوةُ القرآنِ الكريم بغيرِ وضوء، وفي حالةِ الوقوفِ أو الجلوسِ أو الاستلقاءِ أو المشي، لكنّ الأفضَلَ هو أن يتوضَّأَ الإنسانُ أولًا، ثم يستقبِلَ القِبلةَ، ويقفَ أو يجلسَ بكلِّ أدبٍ واطمئنانٍ ويتلوَ القرآنَ، ويستحضرَ في عَقلِه وقلبِه الإحساسَ بأنّ هذا الكتابَ ليس من تأليفِ أحد، وإنّما هو كلامُ خالقِنا ومالكِنا أَنْزَله لهدايتِنا. وعندَ بدايةِ التلاوة نقرَأُ: أعوذُ بالله من الشَّيطانِ الرَّجيم، بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم.

مقاصد تلاوة القرآن المجيد:

١ ـ للأَجْرِ والثّواب:

يقولُ سيّدُنا أبو أُمامَة الباهليُّ رضي الله عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ «اقرأوا القرآنَ، فإنّه يأتي يومَ القيامة شفيعًا لأصحابِه» (١).

---

(١) مسلم، صلاة المسافرين، باب ٤٢ برقم ١٨٧٤.

واللهُ تعالى يُثيبُ على تلاوةِ حرفٍ واحدٍ من القرآنِ بعَشْرِ حسَنات، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «من قرَأَ حرفًا من كتابِ الله فله به حسَنةٌ والحسَنةُ بعشْرِ أمثالِها، لا أقولُ: الم حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ »[1]، وكأنّ قراءةَ «الم» يُثابُ عليها بثلاثينَ حسنةً، ويقولُ أهلُ العلم: إنّ الذي يقرَأُ «ألفْ» فقطْ تَخرُجُ من فمِه الحروفُ الثلاثة «ا ل ف»، لهذا فإنّ ثوابَ قراءةِ «الم» فقطْ هو تسعونَ حسَنةً، وهذا الثوابُ سيلقاهُ كلُّ مؤمن، سواءٌ عَلِم معنى الآياتِ أم لم يَعلَمْ؛ لأنّ «الم» حروفٌ مقطَّعاتٌ، وفي القرآنِ الكريم تسعٌ وعشرونَ آيةً تشتملُ على حروفٍ مقطَّعات، ولا يَعلمُ معناها سوى الله تعالى ورسولِه ﷺ فقطْ، ولكنّه عزَّ وجلَّ يُثيبُ على قراءةِ كلِّ حرفٍ منها بعَشْرِ حسَنات.

بالإضافةِ إلى الثّوابِ الذي يُثابُه الشّخصُ على قرآءتِه للقرآنِ الكريم بنفسِه، فإنّ اللهَ تعالى يُثيبُه على الاستماع إلى القرآنِ الكريم يَتْلوهُ غيرُه، وقد أقام الإمامُ الدارميُّ في «سُنَنِه» بابًا كاملًا عن فَضْل الاستماع إلى القرآنِ الكريم، وفيه يقولُ سيّدُنا خالدُ بنُ مَعْدانَ رضي الله عنه: «إنّ الّذي يقرَأُ القرآنَ له أجرٌ، وإنّ الّذي يستمعُ له أَجْرانِ» [2]، وقراءةُ القرآنِ الكريم ليست فرضًا، لكنّ سَماعَه فرضٌ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولأنّ ثوابَ الفَرْضِ أكبرُ من ثوابِ الواجبِ والسُّنّة والمستحَبِّ، لهذا جاء التعبيرُ عن ثوابِ الاستماع إلى القرآنِ الكريم بالأجرَيْنِ.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «منِ استمعَ إلى آيةٍ من كتابِ الله، كانت له نُورًا»[3].

---

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ١٦ برقم ٢٩١٠.
(٢) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب ١٠.
(٣) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب ١٠.

٢ - لتحصيلِ العلم وتعليمِه:

يقولُ سيِّدُنا عثمانُ بنُ عَفَّان رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خيرُكم مَن تَعلَّم القرآنَ وعَلَّمه»[١]، فالقرآنُ المَجِيدُ هو أعظمُ الكتُبِ وأصدَقُها في الكائناتِ جميعًا، فإذا لم يكنْ مَن يُحصِّلُ عِلمَه ويُعلِّمُه هو أفضَلَ الناسِ فمن يكونُ أفضَلَ الناس إذًا؟

إنّ القرآنَ الكريمَ كتابٌ عظيمٌ، لدرجةِ أنّ أولَ من عَلَّم عِلمَه هو اللهُ تعالى نفسُه، وأولُ طالبٍ لعِلمِه هو سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، ويقولُ أهلُ العلم في تفسيرِ سورة الرَّحمن: إنّ اللهَ تعالى عَلَّم النبيَّ ﷺ عِلمَ القرآنِ الكريم، ثم عَلَّمه النبيُّ ﷺ لأُمّتِه، ويُعلَمُ منه أنّ تعليمَ عِلم القرآنِ الكريم من سُنَنِ اللهِ تعالى أيضًا، كما أنّه من سُنّةِ النبيِّ ﷺ، وتحصيلُ عِلم القرآنِ الكريم من سُنّةِ نبيِّنا الحَبيبِ ﷺ، وهو كذلك سُنّةٌ عن الصَّحابةِ الكرام رضوانُ الله عليهم أجمعين، وباختصار: فإنّ تحصيلَ عِلم القرآنِ الكريم وتعليمَه كلاهُما من سُنّةِ النبي ﷺ.

العلماءُ الكرامُ هم حُرّاسُ عِلْمِ القرآن: إنّ المحافظَ الحقيقيَّ على ألفاظِ القرآنِ الكريم هو اللهُ تعالى، مثلَما قال جَلَّ وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقد أَنْعم اللهُ تعالى بعِلم القرآنِ الكريم على نبيِّه الحَبيبِ ﷺ، والمحافِظونَ على هذا العِلم وحُرّاسُه همُ العلماءُ الكرامُ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا إنّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخَذ به أخَذَ بحظٍّ وافرٍ»[٢]، ولهذا ليس هناك اختلافٌ في ألفاظِ القرآنِ الكريم؛ لأنّ المحافِظَ عليه هو اللهُ تعالى، وهناك اختلافٌ في عِلم القرآنِ الكريم؛ لأنّ

---

(١) البخاري، فضائل القرآن، باب ٢١ برقم ٥٠٢٧.

(٢) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

المحافِظِينَ عليه هم العلماءُ، لكنّ اختلافَ أهلِ العِلم رحمةٌ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «اختلافُ أُمّتي رحمةٌ»(١).

ولهذا، فإنّ الفَضْلَ في وجودِ علوم القرآنِ والحديثِ والشّريعةِ حتى اليوم يعودُ إلى العلماءِ الكرام، ويجبُ أن يكونَ المسلمونَ جميعًا ممتنِّينَ للعلماءِ الكرام معترِفينَ بفَضْلِهم، وكلُّ مسلم في العالَم، سواءٌ كان طبيبًا أم زعيمًا أم عابدًا أم شيخًا، فهو تلميذٌ لعالِم من العلماءِ، سواءٌ بشكلٍ مباشرٍ أم بشكلٍ غيرِ مباشر، وعلى سبيلَ المثال: لو تصَوَّر أحدٌ أنه تَعلَّم الإسلامَ من البخاريِّ وليس من العلماءِ الكرام، فإنّ البخاريَّ نفسَه ما هو إلا نِتاجُ جهودِ واحدٍ من علماءِ الدِّين، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «يوزَنُ يومَ القيامة مِدادُ العلماء ودَمُ الشُّهداء فيرجَحُ عليهم مِدادُ العلماءِ على دمِ الشُّهداء»(٢)، كما أنّه لا يَعلَمُ إلّا اللهُ كم من الناسِ قد شربوا كأسَ الشَّهادةِ إرضاءً لله تعالى في عهدِ سيّدِنا الإمام البخاريِّ رحمةُ الله عليه، فهمُ قدِ استحَقُّوا الجنّةَ بطبيعةِ الحال، لكنّنا لا نَعلمُ اليومَ حتى أسماءَهم، بينَما سيّدُنا الإمامُ البخاريُّ رحمةُ الله عليه حيٌّ حتى اليوم في قلوبِ أهلِ الإيمان بمِدادِ قلمِه، والأحاديثُ الشّريفةُ التي دَوَّنها في «صحيحِه» تقومُ بإرشادِ الناسِ منذُ مئاتِ السِّنين، وستبقَى كذلك حتى قيام الساعة.

وهكذا، لو تصوَّرَ أحدٌ أنه لم يتعلَّم الإسلامَ من العلماءِ الكرام، وإنّما تعلَّمه مباشرةً من القرآنِ الكريم، فإنّ القرآنَ الكريمَ لم يكتُبْه اللهُ تعالى ولا النبيُّ ﷺ، وإنّما أهلُ العلم الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ تعالى عنهم جميعًا، ولذا فإنّ كلَّ شخصٍ تلميذٌ لآخَرَ بشكلٍ مباشرٍ أو بشكلٍ غيرِ مباشر، وينبغي أن يظلَّ ممتنًّا للعلماء.

وقال النبيُّ ﷺ لسيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: «يا أبا هريرة، علِّم الناسَ

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٣٦.

(٢) كنز العمال، ١٠: ١٤١.

القرآنَ وتعلَّمْه، فإنّك إن مِتَّ وأنت كذلك زارتِ الملائكةُ قبرَك كما يُزارُ البيتُ العتيق»[١]، يعني: مثلَما يكونُ الشّوقُ لزيارةِ بيتِ الله تعالى في قلوبِ المسلمين، تشتاقُ الملائكةُ لزيارةِ قبرِه أيضًا، وإن كان الذين يذهبونَ لزيارةِ بيتِ الله في موسِم الحجِّ فقطْ حوالي ثلاثةِ ملايينَ من المسلمين، فهناك ملايينُ كثيرةٌ أخرى منهم يطُوفونَ ببيتِ الله تعالى على مدارِ العام كلِّه، ولكَ أن تتصوَّرَ أنه بقَدْرِ العددِ الذي يزورُ بيتَ الله تعالى من المسلمينَ ويطُوفونَ به، بنفسِ القَدْر ستأتي الملائكةُ النُّورانيُّونَ لزيارةِ قبرِ عالِم الدِّين، ويَدْعُونَ لصاحبِ القبرِ بالمغفرة ورَفْع الدَرجات، فإلى أيِّ مدًى تكونُ عظَمةُ عالِم الدِّين هذا؟ وإليك ثلاثةَ أحاديثَ شريفةٍ عن فَضْل عالِم الدِّين:

ـ يقولُ أبو أُمامةَ الباهليُّ رضي اللهُ عنه: ذُكِر لرسولِ الله ﷺ رجُلانِ أحدُهما عابدٌ والآخَرُ عالِمٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: «فَضْلُ العالِم على العابدِ كفَضْلي على أدناكم». ثمّ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السّمواتِ والأرضِ حتّى النَّملةُ في جُحْرِها وحتّى الحوتُ لَيُصَلُّونَ على معلِّم النّاسِ الخير»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «فقيهٌ أشدُّ على الشّيطانِ من ألفِ عابدٍ»[٣].

ـ يَروي سيّدُنا عبدُ الله بن بُرَيْدةَ الأَسْلميُّ رضي الله تعالى عنه، عن أبيه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قَرأَ القرآنَ وتعلَّمَه وعمِلَ به أُلبِسَ يومَ القيامة تاجًا من نورٍ ضوؤه مِثلُ ضوءِ الشّمس، ويُكسَى والداهُ حُلَّتَيْنِ لا يُقوَّمُ بهما الدّنيا، فيقولان: بِمَ كُسينا؟ فيقال: بأَخْذِ ولدِكما القرآنَ»[٤].

---

(١) كنز العمال، ١٠: ٢٥٩.
(٢) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٥.
(٣) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨١.
(٤) المستدرك، الحاكم، ١: ٧٥٦ برقم ٢٠٨٦.

٣ ـ لتحصيلِ النَّصيحة:

أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليقرَأَه الإنسانُ بلسانِه ويُسكِنَه قلبَه، ويتقبَّلَ ما فيه من وعظٍ ونصائحَ، ويحاولَ جاهدًا العملَ بها، ولهذا قال اللهُ تعالى مرارًا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وغيرَ ذلك.

ـ الذين يَتْلُونَ القرآنَ الكريمَ بألسنتِهم، ولا يُسكِنونَه قلوبَهم، ولا يتقبَّلونَ ما فيه من نصائحَ، هؤلاءِ لا علاقةَ لهم بالدِّين، حتى وإن كانوا ـ في ظاهرِهم ـ يؤدُّونَ الصّلاةَ بصورةٍ رائعة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «يَخرُجُ في هذه الأُمّة ـ ولم يقُلْ: منها ـ قومٌ تَحقِرونَ صَلاتكم معَ صلاتِهم، يقرَأونَ القرآنَ لا يجاوزُ حُلوقَهم ـ أو حناجرَهم ـ يَمرُقونَ من الدِّين مُروقَ السَّهم من الرَّمِيَّة»[1]، وفي روايةٍ أخرى، قال النبيُّ ﷺ: «يَمرُقونَ من الدِّين مروقَ السَّهم من الرَّمِيَّة، يَقتُلونَ أهلَ الإسلام، ويَدَعُونَ أهلَ الأوثان»[2].

ـ الذين يتقبَّلونَ النُّصحَ من القرآنِ الكريم ويعمَلونَ به، سيكونُ القرآنُ الكريمُ حُجّةً لهم بحيثُ يستحِقُّونَ الجنةَ، أمّا الذين لا ينتَصِحونَ بالقرآنِ الكريم، فإنّ القرآنَ الكريمَ يكونُ حُجّةً عليهم بحيث يستحقُّونَ جهنَّم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «والقرآنُ حجّةٌ لك أو عليك»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «القرآنُ مشفَّعٌ وماحِلٌ مصدَّقٌ، مَن جَعَله إمامَه قاده إلى الجنّة، ومن جَعَله خلفَ ظهرِه ساقهَ إلى النّار»[4].

---

(١) البخاري، كتاب المرتدين، باب ٦ برقم ٦٩٣١.
(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٦ برقم ٣٣٤٤.
(٣) مسلم، كتاب الطهارة، باب ١ برقم ٥٣٤.
(٤) صحيح ابن حبان، ١: ١٢٢ برقم ١٢٤.

٤ ـ للتفكُّرِ والتدبُّر:

قال اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال النبيُّ ﷺ: «ساعةٌ من عالِمٍ متّكىءٍ على فراشِه ينظُرُ في علمِه خيرٌ من عبادةِ العابِد سبعينَ عامًا»[١].

يقولُ العلّامةُ البيضاوي: «وهو (أي: التفكُّرُ في الكائنات) أفضَلُ العباداتِ كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: لا عبادةَ كالتّفكُّر»[٢].

أمّا حالُنا اليومَ فيما يتعلَّقُ بأفضلِ العباداتِ هذه، فإنّنا وصَلْنا في غَفْلتِنا عنها إلى درجةٍ أنّ غيرَ المسلمينَ يَدَّعُونَ أنّهم قد وَصَلوا إلى القمر، بينَما رؤيةُ هلالِ العيد بالنِّسبةِ لنا لا تزالُ تمثِّلُ مشكلةً، والأُممُ الأخرى وصَلتْ إلى سماءِ العلم والتكنولوجيا بتفكُّرِها في الكائناتِ، ولا نزالُ نحن على الأرضِ يشُدُّ بعضُنا بعضًا إلى الخَلْف.

ـ ليس الأسَفُ لأنّنا فقَدْنا الحِسَّ، ولكنّ الأسفَ لأنّنا فقَدْنا الإحساسَ بأنّنا لا نُحِسُّ.

ـ وا حَسْرتاهُ على فشَلِنا! فالقافلةُ تفقِدُ متاعَها، ولا تشعُر مِن قَلْبِها بالخسارةِ التي تلحَقُ بها.

طالما كان المسلمونَ يتفكّرونَ في الكائناتِ ويتدبَّرونَ فيها، استطاعوا أن يُثْروا الحياةَ باختراعاتٍ جديدةٍ ومفيدة، وكانتِ الدُّنيا كلُّها تتغنّى بعظَمتِهم ومَجْدِهم، ولكنْ حينَ حُرِم المسلمونَ من هذا الجانب، وتخَلَّوْا عن التفكُّرِ والتدبُّرِ في الكائنات، فقد ذَلُّوا وهانوا، وصار التهميشُ قَدَرًا لهم.

---

(١) كنز العمال، ١٠: ١٥٤.

(٢) تفسير البيضاوي، سورة آل عمران (٣): الآية ١٩١.

ـ أصبحوا هم معزَّزينَ في الزّمانِ حين أَسْلموا، وصِرنا نحن أذِلَّاء حين هجَرْنا القرآنَ.

ـ ليتَنا لم نَنْسَ درسَ القرآن، لمّا أرانا الزمانَ مثلَ هذا الزمان

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

٤٠ ـ معنى إقامةِ الصّلاةِ هو: أن تُؤدَّى الصّلاةُ بكلِّ آدابِها: الظاهرةِ والباطنة، والمرادُ بالآدابِ الظاهرةِ للصّلاة: أن تُؤدَّى الصَّلواتُ كلُّها بالالتزام وفي أوقاتِها الصَّحيحةِ وطِبقًا لسُنّةِ النبيِّ ﷺ، والمرادُ بالآدابِ الباطنةِ للصّلاة: أن تُؤدَّى الصَّلواتُ بتواضُع وعَجْز وخُشوع وخُضوع وخوفٍ من الله تعالى، وكأنه يَرى اللهَ تعالى، وإلّا على الأقلِّ أن يكونَ المصَلِّي على يقينٍ من أنّ اللهَ تعالى يَراه، وأن يؤدِّيَ الصّلاةَ باحتياطٍ شديد وكأنه يؤدِّي آخِرَ صلاةٍ له في الحياة الدُّنيا؛ لأنّ من الممكنِ جدًّا أن يُفارقَ الإنسانُ الحياةَ بالفعل بعدَ الصّلاة مباشرةً، ولا يجدَ فرصةً أخرى لأداءِ صلاةٍ أخرى. ولمزيدٍ من التفصيل عن الآدابِ الظاهرةِ والآدابِ الباطنةِ للصّلاة راجعِ الحاشيةَ رقم واحد للآية رقم ٢ من سُورة المؤمنون (٢٣).

كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟

ـ اللهُ تعالى يَرى الإنسانَ في كلِّ وقتٍ وحين، وفي كلِّ مكانٍ كذلك، رَغْم أنّ الإنسانَ قليلًا ما يشعُرُ بذلك، ولكنْ على الأقلِّ يجبُ عليه ـ أثناءَ الصّلاةِ وفي حضرةِ الله تعالى وهو يلتمسُ منه تعالى ويَدعوهُ ـ أن يكونَ على يقينٍ من أنّ اللهَ تعالى يراه، والذي يؤدِّي الصَّلواتِ الخمسَ يوميًّا بيقينٍ من أنّ ربَّه يراه، فإنّه يعتادُ

تدريجيًّا على هذا الأمرِ حتى يصبحَ فطرةً ثانيةً له، وحينَ يُوسوسُ له الشّيطانُ بالسُّوءِ خارجَ الصّلاةِ فإنه يتذكَّرُ على الفَوْرِ أنّ اللهَ يراه، فيرجِعُ من فَوْرِه عن السُّوءِ الذي زَيَّن له.

ـ أَخْبَر اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم عن هدفٍ من أهدافِ إقامةِ الصَّلاة قائلًا: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، أي: اذكُروا اللهَ تعالى دائمًا بإقامةِ الصّلواتِ الخمسِ بفاصلٍ بينَها في المواقيتِ المحدَّدة لها، وحين يُوسوسُ الشّيطانُ في قلوبِكم بالسُّوءِ خارجَ الصّلاة، فتذكَّروا على الفَوْرِ أنكم ستَمثُلونَ بينَ يدَي الله تعالى في الصَّلاة التالية، فبأيِّ وجهٍ ستُقابِلونَ اللهَ تعالى في الصّلاة؟ وبهذا تَنهاكُم الصّلاةُ وذِكرُ الله تعالى عن المُنكَر.

ـ مهما كان الإنسانُ مرتكِبًا للفحشاءِ والمنكَر، فإنه يكونُ محفوظًا منهما في الصّلاة، وإذا ابتُليَ خارجَ الصّلاة بأحدِهما فإنّ الصلاةَ ـ على أيِّ حال ـ تحفَظُه منهما وتنهاهُ عنهما.

ـ الصلاةُ سببٌ ووسيلةٌ للنَّهي عن الفحشاءِ والمنكَر، أمّا الشّخصُ الذي ينوي ارتكابَ السُّوءِ برَغْم إقامتِه الصّلاةَ، فإنّ مجرَّدَ تصوُّرِه لِما قد يقولُه المصَلُّونَ الآخَرونَ عنه حينَ يذهبُ لأداءِ الصّلاةِ في المسجدِ من أنه يصلِّي ويرتكبُ السُّوءَ، سينهاهُ عن ارتكابِ هذا السُّوءِ؛ لأنه إن أصرَّ على فعلِ السُّوء سيشعُر بالخِزْي أمامَ المصَلِّينَ الآخَرين، وبالتالي سيمتنعُ عن ارتكابِ السُّوءِ ـ على الأقلِّ ـ أمامَ الناس.

ـ قال أبو العاليةِ رضي الله عنه في تفسيرِ هذه الآية: «إنّ الصّلاةَ فيها ثلاثُ خصالٍ، فكلُّ صلاةٍ لا يكونُ فيها شيءٌ من هذه الخِلال فليست بصلاةٍ: الإخلاصُ،

والخَشْية، وذِكُر الله. فالإخلاصُ يأمرُه بالمعروفِ، والخَشْيةُ تنهاهُ عن المنكَر، وذِكرُ القرآنِ يأمُرُه وينهاه»[١].

ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: كان فتًى من الأنصار يُصلِّي معَ النّبيِّ ﷺ ولا يَدَعُ شيئًا من الفواحشِ والسّرقةِ إلّا رَكِبَه، فَذُكِر للنّبيِّ ﷺ فقال: «إنّ الصلاةَ ستَنهاهُ». فلم يلبَثْ أن تابَ وصَلَحتْ حالُه. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلم: «ألم أقُلْ لكم؟»[٢].

ـ الشَّخصُ الذي يؤدِّي الصَّلاةَ بكلِّ خشوع وخضُوع ونّيةٍ خالصةٍ سوف تنهاه صَلاتُه ذاتَ يوم عنِ ارتكابِ السُّوء، ولكنّ هذا الأمرَ يتطلَّبُ وقتًا؛ لأنّ المرضَ لا يستغرقُ وقتًا في إصابتِه للإنسان، وفي بعضِ الأحيان يمرَضُ الإنسانُ في لحظةٍ لمجرَّدِ أنْ لفَحَه الهواءُ البارد، ولكنّ شفاءه منه يستغرقُ أيامًا، وبنفسِ الطريقةِ، يستغرقُ التخَلُّصُ منَ ارتكابِ السُّوء أيضًا وقتًا، فإنْ تَسلَّح الإنسانُ في مواجهةِ ذلك بالصَّبرِ والاستقامة فإنه في النِّهاية يجدُ الخلاصَ من السُّوء.

ـ الشَّخصُ الذي يظَلُّ طيلةَ عمُرِه مُبتلًى بالذنوبِ رَغْم أنه يؤدِّي الصّلواتِ كلَّها، فذلك يعني ـ بطبيعةِ الحال ـ أنه لم يكنْ مخلِصًا في صَلاتِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، ولأمثالِ هؤلاءِ المصَلِّينَ قال رسولُ الله ﷺ فيما رواه سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: «مَن لم تَنْهَه صَلاتُه عن الفحشاءِ والمنكَر، لم يَزْدَدْ بها من الله إلّا بعدًا»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) تفسير القرطبي.
(٣) تفسير ابن كثير.

- عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، قال: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «أرأيتُم لو أنّ نَهرًا ببابِ أحدِكم، يغتسلُ فيه كلَّ يوم خمسًا، ما تقولُ ذلك يُبقي من درَنِه؟»، قالوا: لا يُبقي من درَنِه شيئًا، قال: «فذلك مَثَلُ الصَّلواتِ الخمسِ، يَمْحو اللهُ بها الخطايا»[١].

- عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم خَرَج زمنَ الشّتاءِ والوَرَقُ يتَهافَت، فأخَذ بغُصنَيْنِ من شجرةٍ، قال: فجَعَل ذلك الورقُ يتَهافَتُ، قال: فقال: «يا أبا ذرٍّ»، قلت: لَبّيْك يا رسولَ الله. قال: «إنّ العبدَ المسلمَ لَيُصلِّي الصّلاةَ يريدُ بها وَجْهَ الله، فتَهافَتُ عنه ذنوبُه كما يتَهافَتُ هذا الورَقُ عن هذه الشّجرة»[٢].

ويُعلَمُ منَ الحديثَيْنِ المذكورَيْنِ أنّ اللهَ تعالى يَمْحو بأداءِ الصّلاةِ صغائرَ الذُّنوب، لكنّ كبائرَ الذّنوبِ والتقصيرَ في حقوقِ العباد لا يُغتفَرُ بها، وحين يَعلَمُ العبدُ أنّ اللهَ تعالى يغفرُ له صغائرَ ذنوبِهِ ببرَكةِ الصّلاة سيستحي منَ الله تعالى ويتجنَّبُ ارتكابَ كبائرِ الذنوب.

- نَقَل السيّدُ محمودُ الآلوسيُّ روايةً عن أبي عبدِ الله رضي اللهُ عنه، أنه قال: «مَن أحبَّ أن يعَلَمَ قُبلت صَلاتُه أم لم تُقبَلْ، فلْينظُرْ هل منَعتْه عن الفحشاءِ والمنكَر؟ فبقَدْرِ ما منَعتْه قُبِلتْ منه»[٣].

- وهناك اعتراضٌ عامٌّ على هذه الآية، وهو أنّ العديدَ من الناسِ يُصَلُّون، ومعَ ذلك يرتكبونَ السُّوءَ، فلماذا لم تَنْهَهم صَلاتُهم عن السُّوءِ إذًا؟

ويجيبُ العلّامةُ محمودُ الآلوسيُّ عن هذا الاعتراضِ في تفسيرِه «رُوحِ

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٦ برقم ٥٢٨.

(٢) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.

(٣) تفسير روح المعاني.

المعاني»، وأنا أُقدِّمُه هنا بألفاظي، بمعنَى: أنْ تنهَى الصّلاةُ المُصَلِّيَ عن الفحشاءِ، هذه واحدةٌ، والأخرى: أن ينتهيَ المُصلِّي عن الفحشاءِ، وهناك فرقٌ بينَ الاثنَيْنِ، وهذه الآيةُ حقيقةً تذكُرُ أنّ الصّلاةَ تنهَى عن الفحشاءِ والمنكَر، لكنّها لم تَقُلْ: إنّ المصَلِّي ينتهي عن الفحشاءِ والمنكَر؛ لأنّ الذين ليس في قلوبِهم خوفُ الله تعالى لا ينتهونَ عن الفحشاءِ والمنكَر مثلَما جاء في القرآنِ الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠]، يعني: أنّ اللهَ تعالى يأمُرُ الجميعَ بفعلِ الخير، وينهَى الجميعَ عن المنكَر، لكنّ أكثرَ الناس معَ ذلك لا ينتهُونَ عن المنكَر، فإذا كان الناسُ جميعًا لا ينتهُونَ عن المنكَر رَغْم نَهْي الله لهم عنه، فهل يُتصوَّرُ أن ينتهيَ الناسُ جميعًا عن المنكَرِ بنَهْي الصّلاةِ لهم عنه؟ وباختصار: سواءٌ كان الذي ينهَى عن المنكَر هو اللهَ تعالى، أم رسولَه المصطفَى ﷺ، أمِ القرآنَ الكريمَ، أم الصَّلاةَ، فإنّ الذين ينتهُونَ عن المنكرِ هم أولئك الذين يَسكُنُ خوفُ الله تعالى قلوبَهم. يا ربَّ العالَمين، أَسْكِنْ خوفَك في قلبِ هذا العبدِ الفقير إليك ذي التقصير، وفي قلبِ كلِّ مَن لهم صلةٌ به، وفي قلوبِ كلِّ أبناءِ الأُمّةِ الإسلاميّة، وازرَعْ في قلوبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ جميعًا حبَّك وحبَّ نبيِّك الحبيبِ ﷺ، آمينَ ثُم آمين.

فوائد الصلاة:

١ ـ يتمُّ تنفيذُ أمرِ الله تعالى بأداءِ الصلاة.

٢ ـ الصلاةُ عمادُ الدين.

٣ ـ الصّلاةُ مِفتاحُ الجنة.

٤ ـ الصَّلاةُ وسيلةُ النّجاةِ في الآخِرة.

٥ ـ الصّلاةُ مِعراجُ المؤمن.

٦ ـ تطمئنُّ القلوبُ بالصَّلاة.

٧ ـ الصّلاةُ تُذكِّرُ باللهِ تعالى دائمًا.

٨ ـ الصّلاةُ وسيلةٌ للعلاقة بينَ اللهِ تعالى وبينَ العبد.

٩ ـ الصّلاةُ تُطهِّرُ بدَنَ الإنسانِ وملابسَه.

١٠ ـ بالصّلاة يعتادُ الإنسانُ على الالتزام بالوقت.

١١ ـ الجميعُ ينظُرونَ إلى المصَلِّي نظرةَ احترام وتقدير.

١٢ ـ يزولُ التعبُ والإرهاقُ عن الإنسانِ بالوضوءِ خمسَ مرّاتٍ في اليوم، ويظَلُّ وجهُه نَضِرًا.

١٣ ـ الصّلاةُ في جماعةٍ تعبيرٌ عن المساواةِ والأُخوّةِ الحقيقيَّة.

١٤ ـ الإنسانُ يُناجي ربَّه تعالى في الصَّلاة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ أحدَكم إذا قام يصلِّي إنّما يُناجي ربَّه، فلْينظُرْ كيف يناجيه»[١].

٤١ـ فَضْلُ ذكرِ الله تعالى

ـ قال ابنُ زَيد وقَتادةُ: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ من كلِّ شيء، أي: أفضَلُ من العباداتِ كلِّها بغير ذِكر»[٢]، حتى أنّ أحدَ أهدافِ عبادةٍ عظيمةٍ مثلَ الصّلاةِ هو ذِكرُ الله تعالى أيضًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

---

(١) الجامع الصغير، الإمام السيوطي، برقم ٢١٨٠.

(٢) تفسير القرطبي.

ـ قال سَلمانُ: «لا شيءَ أفضَلُ من ذِكرِ الله»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا مرَرتُم برياضِ الجنّة فارتَعوا». قالوا: يا رسول الله، وما رياضُ الجنّة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكر»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «إنّ لكلِّ شيءٍ سقالةً (جَلاءً)، وإنّ سقالةَ (جَلاءَ) القلوبِ ذِكرُ الله عزَّ وجلّ، وما مِن شيءٍ أنجَى من عذابِ الله من ذِكرِ الله»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أُنبِّئُكم بخيرِ أعمالِكم وأزكاها عندَ مليكِكم وأرفعِها في دَرجاتِكم وخيرٌ لكم من إنفاقِ الذّهبِ والوَرِق وخيرٌ لكم من أن تَلقَوْا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟». قالوا: بلى. قال: «ذِكرُ الله تعالى»[٤].

ـ عن أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخُدريّ أنّهما شَهِدا على النّبيِّ ﷺ أنّه قال: «لا يَقعُدُ قومٌ يَذكُرونَ اللهَ عزَّ وجلّ إلّا حفَّتْهم الملائكةُ وغَشِيَتْهم الرّحمةُ ونَزَلت عليهمُ السَّكِينة وذَكَرهم اللهُ فيمَن عندَه»[٥].

ـ عن أبي ذرٍّ رضيَ الله عنه، قلت: يا رسولَ الله، أوْصِني، قال: «أُوصيكَ بتقوى الله، فإنّه رأسُ الأمرِ كلّه»، قلتُ يا رسولَ الله، زِدْني، قال: «عليك بتلاوةِ القرآنِ وذِكرِ الله فإنّه نُورٌ لك في الأرضِ وذُخرٌ لك في السَّماء»[٦].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.
(٢) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٨ برقم ٥٢٩.
(٣) شعب الإيمان، البيهقي، ١: ٣٩٦ برقم ٥٢٢.
(٤) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٦ برقم ٣٣٧٧.
(٥) مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ١١ برقم ٦٦٥٥.
(٦) صحيح ابن حبان، ١: ٢٠٩ برقم ٣٦٣.

ـ قال ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: المعنى: لَذِكرُ الله تعالى إيَّاكم أكبرُ من ذِكرِكم إياه سبحانَه، ثم قرأ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾»[(١)]. وهناك حديثٌ قُدُسيٌّ يؤيِّدُ هذا القولَ، وفيه يقولُ اللهُ تعالى فيما رَواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن رسولِ الله ﷺ: «أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معَه إذا ذَكَرني، فإنْ ذَكَرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ ذَكَرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم»[(٢)]، وظاهرٌ أنّ ذِكرَ الله تعالى لعبدٍ من عبادِه، وأن يكونَ هذا الذِّكرُ في ملأٍ من الملائكةِ، هو تشريفٌ كبيرٌ للعبدِ لا يمكنُ أن يقابلَه أيُّ تشريفٍ آخَرَ في الكائناتِ كلِّها.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى رضيَ اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُ الّذي يَذكُرُ ربَّه والّذي لا يَذكُرُ مِثلَ الحيِّ والميِّت»[(٣)].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ لله ملائكةً يطُوفونَ في الطُّرُق، يلتمِسونَ أهلَ الذّكر، فإذا وَجَدوا قومًا يَذكُرونَ اللهَ تنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتِكم. قال: فيَحُفُّونَهم بأَجنحتِهم إلى السّماءِ الدّنيا. قال: فيسألُهم ربُّهم وهو أعلمُ منهم: ما يقولُ عبادي؟ قالوا: يقولون: يُسبِّحونَك، ويُكبِّرونَك، ويَحمَدونَك، ويُمجّدونَك. قال: فيقولُ: هل رأَوْني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأَوْك. قال: فيقولُ: وكيف لو رأَوْني؟ قال: يقولونَ: لو رأَوْك كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيدًا، وأكثرَ لكَ تسبيحًا. قال: يقولُ: فما يسألُوني؟ قال: يسألونَك الجنّةَ. قال: يقولُ: وهل رأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربِّ ما رأَوْها. قال: يقولُ: فكيف لو أنّهم رأَوْها؟ قال: يقولون: لو أنّهم رأَوْها كانوا أشدَّ عليها حرصًا، وأشدَّ لها طلبًا، وأعظمَ فيها رغبةً. قال: فممَّ يتعوَّذونَ؟ قال: يقولونَ: من النّار. قال: يقولُ: وهل رأَوْها؟ قال:

---

(١) تفسير روح المعاني.
(٢) البخاري، كتاب التوحيد، باب ١٥ برقم ٧٤٠٥.
(٣) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٦٦ برقم ٦٤٠٧.

يقولونَ: لا والله ما رأَوْها. قال: يقولُ: فكيف لو رأَوْها؟ قال: يقولونَ: لو رأَوْها كانوا أشدَّ منها فِرارًا، وأشدَّ لها مخافةً. قال: فيقولُ: فأُشهِدُكم أنّي قد غَفرتُ لهم. قال: يقولُ مَلَكٌ من الملائكةِ: فيهم فُلانٌ ليس منهم، إنّما جاء لحاجةٍ. قال: همُ الجُلَساءُ لا يشقَى بهم جَليسُهم»[(١)].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾

٤٢ ـ لو وَصَلتِ الأمورُ حالَ دعوةِ أهل الكتابِ إلى المناظَرة، فينبغي أن تتحدَّثوا إليهم بطريقةٍ جيِّدةٍ ومعقولة ومهذَّبة، حتى لا توَلِّدوا في قلوبِهم تعصُّبًا، فلا يُلقُونَ بالًا إلى دعوتِكم، لكنْ من يتعدَّى حدودَه منهم ويُسيءُ الأدبَ معَكم، فاعتزِلوه بدَلًا من أن تُضيِّعوا الوقتَ في مجادلتِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾

٤٣ ـ إذا وجَدتمُ الفُرصةَ للحديثِ معَ أهلِ الكتابِ فيجبُ أن تبدَأوا معَهم الحديثَ في الأمورِ الإيجابيَّةِ والمشترَكة، بدَلًا من الحديثِ في الأمورِ السَّلبيّة والاختلافيّة، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ القرآنَ الكريمَ على نبيِّنا ﷺ، وأَنْزلَ التَّوراةَ والإنْجيلَ على أنبيائكم عليهم السَّلامُ، وهذا كلُّه كلامُ الله تعالى، ونحن جميعًا نؤمنُ به كلِّه، كما أنّ إلهَنا وإلهَكم واحدٌ، ونحن وأنتمُ مطيعونَ له، ولهذا لا يوجَدُ بينَنا وبينَكم أيُّ اختلافٍ في كثيرٍ من الأمورِ الأساسيَّة. وبهذه الطريقةِ من بدايةِ الحديثِ عن الأمورِ المشترَكة يتولَّدُ الاحترامُ المتبادَلُ بينَ الطرفَيْنِ، ويهتَمُّ كلٌّ منهما بما يقولُ الآخرُ.

---

(١) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٦٦ برقم ٦٤٠٨.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

٤٤ ـ أيُّها الرسُولُ الكريمُ ﷺ، مثلَما أَنْزلنا الكتُبَ السَّماويةَ على الأنبياءِ الكرام السّابقينَ عليهم السَّلام، أَنْزلنا عليكَ أنت أيضًا القرآنَ الكريمَ، ولقد كان ذِكرُ القرآنِ الكريم موجودًا في الكتُبِ السَّماوية السّابقة أيضًا، ولهذا فإنّ أهلَ الكتابِ الذين عَمِلوا بكتُبِهم سيؤمنونَ بالقرآنِ الكريم أيضًا، بل إنّ عددًا من مشركي مكّةَ ـ وإنْ لم يكونوا على علمٍ بالكتُبِ السَّماوية السّابقة ـ تأثَّروا بصِدقِ القرآنِ وصاحبِ القرآن ﷺ ودَخلوا في الإسلام. إنّ الدَّلائلَ على حقّانيّةِ القرآنِ الكريم واضحةٌ إلى درجةِ أنه لن يبقَى على إنكارِه له من الكفّارِ سوى المُبْتَلَيْنَ بالتعصُّبِ والعناد.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

٤٥ ـ كان أهلُ مكّةَ يعلَمونَ تمامًا أنّ النبيَّ ﷺ لم يقرَأْ كتابًا طيلةَ الأربعينَ عامًا السابقةِ على بَعْثتِه، كما أنه لم يَكتُبْ بيدِه شيئًا أيضًا، ولو حَدَث هذا لَشكَّكَ أهلُ الباطل في القرآنِ قائلينَ: إنك قرأتَ الكتُبَ السّابقةَ، وحَفِظتَ منها هذا الذي تقولُ، وها أنت تَتْلوهُ على الناس تدريجيًّا، ومعَ أنه لو اجتَمع كلُّ مثقَّفي العالَم كلِّه، فلن يستطيعوا الإتيانَ بكتابٍ مثلِ القرآنِ الكريم، إلا أنه كان من الممكن أنْ تكونَ هذه فرصةً لأهلِ الباطل لتأكيدِ ما يَدَّعُونَ، ولهذا أبعَدَكَ اللهُ تعالى ـ قبلَ نزولِ القرآن عليكَ ـ من مسألةِ القراءةِ والكتابةِ هذه.

يقولُ غُلام رسُول سَعيدي: إنّ الباحثينَ قالوا: إنّ في هذه الآية قَيْدًا، وهو أنّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ يقرَأُ ولا يكتُبُ قبلَ نزولِ القرآنِ الكريم، وما قرَأَه النبيُّ ﷺ

وأَمْلاه بعدَ نزولِ القرآنِ لا يتنافَى معَ هذه الآية، بل إنّ قراءتَه وكتابتَه بغيرِ أن يُعلِّمَه أحدٌ القراءةَ أو الكتابةَ معجزةٌ في ذاتِها[١].

وقد ثبتَتْ قراءةُ النبيِّ ﷺ وكتابتُه كلاهما بعدَ إعلانِ النُّبوّة، ولاحِظْ واقعةَ صُلح الحُدَيْبِيَة التي نَقَلها الإمامُ البخاريُّ في «صحيحِه»:

«عن البراء ـ رضي اللهُ عنه ـ قال: اعتَمرَ النّبيُّ ﷺ في ذي القَعْدة، (وتوجَّه إلى مكّةَ) فأبَى أهلُ مكّةَ أن يَدَعُوه يَدخُلُ مكّةَ، حتّى قاضاهم (بأنْ يعودَ هذا العامَ دونَ أن يؤدِّيَ العُمرةَ، وأن يعودَ العامَ القادمَ) على أن يُقيمَ بها ثلاثةَ أيّام، فلمّا كتَبوا الكتابَ كتَبوا: هذا ما قاضَى عليه محمّدٌ رسولُ الله ﷺ. فقالوا: لا نُقِرُّ بها، فلو نَعلمُ أنّك رسولُ الله ما مَنعناكَ، لكن أنتَ محمّدُ بنُ عبد الله. قال: «أنا رسولُ الله وأنا محمّدُ بنُ عبد الله». ثمّ قال لعليٍّ: «امحُ (ألفاظَ) رسولُ الله». (ولأنّ سيّدَنا عليًّا رضي اللهُ عنه هو الذي كان يَكتُبُ المعاهدةَ، لهذا) قال: لا، والله لا أمحوكَ أبدًا، فأخَذ رسولُ الله ﷺ الكتابَ، فكَتَب: هذا ما قاضَى عليه محمّدُ بنُ عبد الله»[٢]، وفي رواية: «فمحاهُ رسولُ الله ﷺ بيدِه»[٣].

وذَكَر عُمرُ بن شَبْةَ في كتاب «الكتاب»، له: «أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم كتَبَ بيدِه يومَ الحُدَيْبِيَةَ وأنه لم يكنْ يعلَمُ الكتابةَ قبلَ ذلك، وأنّ ذلك من معجِزاتِه أنْ عُلِّم الكتابَ من وقتِه. وقال أبو الوليد: كان مِن أَوْكدِ معجِزاتِه أنه يكتُبُ من غيرِ تعَلُّم»[٤]. وقد نَقَل العلاّمةُ الآلوسيُّ روايةً عن سيّدِنا عُتبةَ رضيَ اللّه عنه تأكيدًا لكون النبيِّ ﷺ كان يقرَأُ ويَكتُب: «ما مات النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم

(١) تفسير تبيان القرآن.
(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٨.
(٣) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٩.
(٤) الخصائص الكبرى، ٢: ٢٣٦.

حتى قرأَ وكَتَب»[١]، ويُعلَمُ منه أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه لم يكنْ يعرِفُ القراءةَ ولا الكتابةَ قبلَ إعلانِ النُّبوة، وبعدَ البَعْثةِ النَّبويّة عَلَّمه اللهُ تعالى القراءةَ والكتابةَ مثلَما عَلَّمه العِلمَ، إلّا أنه ﷺ لم يَحتَجْ كثيرًا إلى القراءةِ والكتابةِ في دعوتِه؛ لأنّ أكثرَ العربِ كانوا أُميِّين، وكانوا يحتاجونَ إلى الدَّعوةِ الشَّفهيّةِ فقطْ، وقد ذَكرَ شهابُ الدِّين خَفاجِي حديثًا للنبيِّ ﷺ بيَّن فيه النبيُّ ﷺ سببَ عَدَم كتابتِه، فقال ﷺ: «لا أريدُ الخَطَّ لئلا يقَع ظِلُّ القلم على اسمِ الله تعالى. رواه التِّرمذيُّ. فجازاهُ اللهُ تعالى على ذلك أن يَرفَعَ ظلَّه عن الأرضِ فلا يُوطَأ»[٢].

والآنَ، يتبادَرُ إلى الذِّهنِ سؤالٌ مُفادهُ: إذا كان القرآنُ الكريمُ قال عن النبيِّ ﷺ: «أُمّيٌّ»، فكيف يمكنُ أن يقرَأ؟ ولكنّ القرآنَ المَجيدَ قال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّما بُعِثتُ مُعلِّمًا»[٣]، ومَن يجعَلُه اللهُ تَعالى معلِّمًا للأمّةِ كلِّها وأُستاذًا لها، كيف يُعقَلُ أن يكونَ أُميًّا لا يقرَأُ ولا يكتُب؟ فإنْ قيلَ عنه قبلَ النُّبوة: «أُمّيٌّ»، فهو أمرٌ يمكنُ مناقشتُه، أمّا بعدَ البَعْثةِ النَّبَويَّة وقد أَرسَلَه اللهُ تعالى معلِّمًا للأُمة، فلا يجوزُ بعدَ ذلك أن يُقالَ عنه: «أُمّيٌّ»، وإذا كان سيّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ قد قَرأَ عندَ ولادتِه «لا إلَه إلّا الله محمّدٌ رسولُ الله» المكتوبةَ على أعمِدة العَرْش[٤]، وقَرأَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأعراف (٧): الآية ١٥٧.

(٢) نسيم الرياض، ٢: ٣٩٨، النبي الأمي.

(٣) سنن الدارمي، المقدمة، باب ٣٢.

(٤) عن عمر بن الخطّاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا اقترف آدم الخطيئة قال: يا ربّ، أسألك بحقّ محمّد أن غفرت لي، فقال الله: فكيف عرفت محمّدًا ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا ربّ، لأنّك لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلّا الله محمّدٌ رسول الله، فعلمت أنّك لم تضف إلى اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك، فقال الله: =

المكتوبةَ على الألواح، فكيف يمكنُ أن يكونَ إمامُ الأنبياءِ جميعًا وسيّدُهم سيّدُنا محمدٌ ﷺ لا يقرأُ؟ فاللهُ تعالى الذي عَلَّم سيّدَنا آدمَ وسيّدَنا موسى عليهما السَّلامُ القراءةَ، هو الذي عَلَّم سيّدَنا محمدًا ﷺ القراءةَ والكتابةَ، وأَنْزلَ عليه الكتابَ والحِكمة، وعلَّمَه ما لم يكنْ يَعلَم، وفضلُ اللهِ عليه عظيمٌ[1].

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

٤٦ ـ ألفاظُ القرآنِ الكريم محفوظةٌ في صُدورِ الحُفّاظ، وأسرارُه ومعانيه محفوظةٌ في صدورِ العلماء، وآياتُ القرآنِ الكريم واضحةٌ وبيّنةٌ إلى درجةِ أنه لا يمكنُ لإنسانٍ عاقلٍ أن يُنكِرَها، ولا يُنكرُها سوى الذين يتجاوَزونَ حدودَ الحقِّ والإنصاف، ويعمَهون في أوديةِ الظُّلم والعُدوان.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

٤٧ ـ حينَ طالَبَ كُفّارُ مكةَ النبيَّ ﷺ أن يأتيَهم بمعجزاتٍ مثلَ معجزةِ الناقةِ لسيّدِنا صالح عليه السَّلام، ومعجِزةِ العصَا لسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ، ومعجزةِ المائدةِ لسيّدِنا عيسى عليه السَّلام[2]، قال لهم النبيُّ ﷺ: إنّ مسألةَ المعجِزاتِ هذه في يدِ الله تعالى، وهو الذي يُنزِلُها في الوقتِ المناسب، وأمّا أنا فقد جئتُكم نذيرًا من عذابِ الله تعالى حتى تكونوا عبادًا مطيعينَ له.

= صدقت يا آدم، إنّه لأحبّ الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمّد ما خلقتك». البداية والنهاية، المجلد الأول: ٨١، باب ما ورد في خلق آدم عليه السلام.

(١) ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

(٢) «وقال كفار مكة: هلّا أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى؟». صفوة التفاسير.

يقولُ المفتي أحمدُ يار خان: معجِزاتُ النبيِّ ﷺ ثلاثةُ أقسام، أحدُها: تلك التي تحدُثُ في كلِّ وقتٍ ودونَ اختيارٍ منه ﷺ، مِثلَ: عَدَم وجودِ ظلٍّ للنبيِّ ﷺ، أو أن تَفُوحَ رائحةُ المِسكِ والعَنْبرِ من عَرَقِه ﷺ. أمّا الثاني فهو: الذي لم يُعطِ اللهُ تعالى اختيارَه للنبيِّ ﷺ مِثلَ: آياتِ القرآن (لأنّ كلَّ آيةٍ منَ القرآنِ معجزةٌ في ذاتِها، واللهُ تعالى يُنزِلُها بحِكمةٍ من عندِه)، والثالث هو: المعجِزاتُ التي تَظهَرُ من النبيِّ ﷺ باختيارٍ منه، مِثلَ: نُطقِ الحَجَر للشَّهادتَيْنِ، وانشقاقِ القمر، وإرجاع الشمسِ، والمرادُ هنا هو القسمُ الثاني من المعجِزات[1]، يعني: المعجِزاتِ التي ليست في اختيارِ النبيِّ ﷺ، وإنّما تتوقَّفُ على حِكمةِ الله.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٤٨ ـ أليس هذا القرآنُ معجزةً كافيةً لكفّارِ مكّةَ، وهو الذي يسمَعونَ تلاوتَه ليلَ نهارَ، ويعجِزونَ عن الإتيانِ بمِثلِه؟ إنه أعظمُ معجزةٍ، وقدِ انتهتِ المعجزاتُ الأخرى، بينَما معجزةُ القرآنِ الكريم باقيةٌ وخالدةٌ إلى الأبد، ولهذا فإنّهم إنْ لم يؤمنوا بمعجزةٍ عظيمةٍ مثلَ القرآنِ الكريم، فكيف يؤمنونَ بأيِّ معجزةٍ أخرى، والقرآنُ الكريمُ وإن كان رحمةً ونصيحةً للناسِ جميعًا، إلّا أنّ الذين يستفيدونَ منه هم المؤمنونَ فقط.

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ

(١) تفسير نور العرفان.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾

٤٩ ـ يعني: إن لم تؤْمنوا بنُبوَّتي برَغْم رؤيتِكم معجِزةً واضحةً مثلَ القرآنِ الكريم، فإنّكم أنتمُ الخاسرون، أمّا أنا فلا أُبالي بذلك؛ لأنّ اللهَ تعالى نفسَه هو الشهيدُ على نُبوَّتي، وعِلمُه محيطٌ، ويَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ شيءٍ في السّماءِ والأرض، ولهذا فاللهُ هو أعظمُ وأكملُ شاهدٍ.

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

٥٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، هؤلاءِ المشركونَ يقولون: لو أنّهم ـ فعلًا ـ كانوا على ضلالٍ، فلمَ لا يَنزلُ العذابُ عليهم؟ والحقيقةُ أنّ أفعالَهم تستحِقُّ أن يُهلِكَهم اللهُ فورًا، لكنّ اللهَ تعالى حدَّد لكلِّ قوم وقتَ عذابِهم، وقبلَ ذلك يمنَحُهم اللهُ تعالى فرصةً لإصلاح أحوالِهم، لكنّ الذين لا يستفيدونَ من هذه المُهلة، ولا يُصلحونَ من أنفسِهم، فإنّ العذابَ يَنزِلُ عليهم بَغْتةً من حيثُ لا يعلَمون، وهكذا

واجَهَ مشركو مكّةَ في معركةِ بَدْرٍ ووقتِ فَتْح مكّةَ عذابَ الهزيمةِ على غيرِ توقُّعِهم، أمّا ما يحُلُّ بهم يومَ القيامة بعدَ الموتِ فإنّ اللهَ تعالى هو الذي يَعلَمُ قسوتَه وشدَّتَه، مثلَما رَوى سيِّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «إذا مات أحدُكم فقد قامت قيامتُه، فاعبُدوا اللهَ كأنّكم ترَوْنَه واستغفِروه كلَّ ساعةٍ»[1].

﴿ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

٥١ ـ ما أعجبَ مشركي مكّة! إذ يعتقدونَ أنّ عذابَ الآخِرة وأَخْذَ الله تعالى لهم مجرَّدُ تهديدٍ لا أكثرَ، ولهذا يطالبونَ بالإسراع بنزولِ العذابِ. وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ لهم بأنّ الساعةَ آتيةٌ لا مَحالةَ، وكما أنّ الكُفرَ والعنادَ قد حاصَر عقولَهم وضمائرَهم في هذه الدُّنيا، ولم يترُكا لهم طريقًا لدخولِ الهداية إليهم، كذلك ستحاصِرُهم جهنَّمُ في الآخِرة من كلِّ جانبٍ، بحيثُ لا يجِدونَ طريقًا للخروج منها، وسيُنادَى عليهم أنّكم لا تُظلَمون، وأنّ ما يحدُثُ لكمُ الآنَ إنّما هو نتيجةٌ حتميّةٌ لظُلمِكم الذي كنتُم تركَبونَه أنتم في الدُّنيا.

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

٥٢ ـ كلُّ مَن كان يدخُل الإسلامَ في مكّةَ كانوا يُعكِّرونَ عليه صفوَ حياتِه، وتصبحُ عبادةُ الله تعالى بالنِّسبةِ إليه أمرًا صعبًا، وفي مثلِ هذه الظروفِ أَمرَ اللهُ تعالى المسلمينَ بالهجرةِ بأنّ أرضيَ واسعةٌ، فهاجِروا من هنا إلى حيثُ تستطيعونَ عبادتي، ويصبحُ العمَلُ بأحكام الدِّين الأُخرى سهلًا ميسورًا؛ لأنّ الهدفَ من خَلْق الإنسانِ هو عبادةُ الله تعالى، وعليه أن يُقيمَ حيثُ لا تكونُ هناك عقَباتٌ في طريقِ عبادةِ الله تعالى، ولهذا هاجَرَ المسلمونَ أولًا إلى الحبَشة، وبعدَها إلى المدينةِ

---

(١) كنز العمال، ١٥ : ٦٨٦ برقم ٤٢٧٤٨.

المنوَّرة، ولو أصبحتِ الظروفُ في أيامِنا هذه مشابهةً للظروفِ في ذلك الوقتِ لَوجَبتِ الهجرةُ.

يقولُ سيّدُنا أبو يحيى رضي اللهُ عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «البلادُ بلادُ الله، والعبادُ عبادُ الله، فحيثُما أصَبْتَ خيرًا فأقِمْ»(١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

٥٣ ـ إنّ تخلِّيَ الإنسانِ عن بيتِه ومالِه ومتَاعِه وأقاربِه وأحبابِه من أَجْل إنقاذِ الإيمانِ فقطْ ليس بالأمرِ السَّهل، فإنّ هذه الأمورَ الدُّنيَويّةَ تقفُ ـ في الغالبِ ـ عقَبةً في طريقِ الهجرة، لكنّ الموتَ حقيقةٌ عالَميّةٌ لا مفرَّ منها، وحين يأتي الموتُ تتخَلَّى كلُّ هذه الأشياءِ ـ بالضَّرورةِ ـ عن صاحبِها، والأفضَلُ من كلِّ هذا أن نترُكَ نحن كلَّ هذه الأشياءِ بمَحْضِ إرادتِنا من أَجْل رضا الله تعالى، حتى نكونَ في الآخِرة عندَ الله تعالى من الفائزين.

يقولُ صاحبُ «التفسير الكبير» في تفسير هذه الآية: «لمّا أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالمهاجرةِ صَعُب عليهم تَرْكُ الأوطانِ ومُفارقةُ الإخوان، فقال لهم: إنّ ما تكرَهونَ لا بدَّ من وقوعِه، فإنّ كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموتُ والموتُ مفرِّقُ الأحبابِ، فالأَوْلى أن يكونَ ذلك في سَبيل الله فيُجازيكم عليه»(٢).

ويقولُ العلّامةُ القُرطُبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «ورُوي أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن فَرَّ بدينِه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو قَيْدَ شِبرٍ استَوْجبَ الجنّةَ، وكان رفيقَ محمّدٍ وإبراهيمَ عليهما السّلام»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) تفسير القرطبي.

ويقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: كنتُ معَ رسول الله ـ ﷺ ـ فجاءه رجُلٌ من الأنصارِ فسَلَّم على النّبيِّ ـ ﷺ ـ ثمّ قال: يا رسولَ الله، أيُّ المؤمنينَ أفضلَ؟ قال: «أحسَنُهم خُلُقًا». قال: فأيُّ المؤمنينَ أكيَسُ؟ قال: «أكثرُهم للموتِ ذِكرًا وأحسَنُهم لِما بعدَه استعدادًا، أولئك الأكياسُ»(١).

وليس معنى هذا الحديثِ أن يَحمِلَ الإنسانُ المِسبَحةَ، ويأخُذَ في ترديدِ وِرْد «يا موتُ، يا موتُ» كلَّ يوم، وإنّما معناهُ أن يتذكَّرَ الموتَ قبلَ أن يُقدِمَ على أيِّ خُطوة، بمعنى: أنّ العملَ الذي هو مُقدِمٌ على القيام به، ألن يكونَ هذا العمَلُ بمثابةِ المصيبةِ له بعدَ موتِه يومَ القيامة حين يَمثُلُ في حضرةِ الله تعالى؟

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

٥٤ ـ والذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ يُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم بسَكِينةِ القلبِ وسَلامةِ الإيمان، ولكنْ ليس من الضَّروريِّ أن يَظهَرَ لهم أجرٌ ظاهريٌّ لأعمالِهم الصّالحةِ في الدنيا، فمثَلًا: الإنسانُ الذي يَخرُجُ من بيتِه إلى مَيْدانِ الجهاد إرضاءً لله تعالى، ويُقاتلُ بشجاعةٍ حتى يُستشهَد، مِثلُ هذا الإنسانِ أيُّ فائدةٍ سيَلقاها في هذه الدنيا إذًا؟ وفي هذهِ الآية يُطَمْئِنُ اللهُ تعالى أمثالَ هؤلاءِ الصّالحينَ بأنّهم إنْ أصابَهمُ ابتلاءٌ في هذه الدنيا لحكمة ما، فعليهم التيقن من أن يومًا سيأتي حتمًا، حيث ينالون أجرًا عظيمًا على أعمالِهم الصّالحة وعلى صَبْرِهم وتوكُّلِهم على الله، وهذا الأَجْرُ هو الخلودُ في الدَّرجاتِ العُلَى في الجنّةِ التي تَجري من تحتِها الأنهار.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٥٥ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: إنّ النّبيَّ ﷺ قال للمؤمنينَ

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣١ برقم ٤٢٥٩.

بمكَّة حين آذاهمُ المشركون: «اخرُجوا إلى المدينةِ وهاجِروا ولا تُجاوِروا الظَّلَمَةَ»، قالوا: ليس لنا بها دارٌ ولا عقارٌ ولا مَن يُطعِمُنا ولا من يَسقينا. فنَزَلت: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾[١]، يعني: تمعَّنْ قليلاً تلك الطّيورَ والمواشيَ التي لا حصرْ لها، فإنّها لا تَحمِلُ معَها غذاءها، وإنما تَخرُج كلَّ يوم باحثةً عن هذا الغذاء، وتعودُ في المساءِ ببطونٍ ممتلئة، فإنْ كان اللهُ تعالى هو الذي يَرزُقُها، فلا تغتمَّ إذًا؛ لأنه هو الذي سيَرزُقُك أيضًا، وحيثُما ستذهبُ ستجِدُ رزقَك أيضًا.

يقولُ سيّدُنا عُمرُ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنّكم كنتم تَوَكَّلونَ على الله حقَّ تَوكُّلِه لَرُزِقتُم كما تُرزَقُ الطّيرُ، تَغْدو خِمَاصًا وتَرُوحُ بِطانًا»[٢].

والمرادُ بالتوكُّلِ في هذا الحديثِ ليس تَرْكَ العمل، بل إنَّ فيه دليلًا على ضرورةِ الجِدِّ والاجتهادِ في السَّعي لطلبِ الرِّزق، مثلَما تَخرُجُ الطيورُ باحثةً عن رزقِها، وتعودُ في المساءِ ممتلئةَ البطون، ولو أنّها بَقِيت في أعشاشِها ولم تَخرُجْ منها، فإنّ الرِّزقَ لن يأتيَها طائرًا إليها، ولاحِظْ حديثًا آخَرَ عن التوكُّل:

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أعقِلُها وأتوكَّلُ أو أُطلِقُها وأتوكَّل؟ قال: «اعقِلْها وتوَكَّلْ»[٣]، حتى لا يسرقَها أحدٌ ويذهبَ بها.

يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «الدَّوابُّ هو: كلُّ ما دَبَّ من الحيَوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رزقَه، ولا يدَّخرُ إلّا ابنُ آدمَ والنَّملُ والفأر»[٤]، فهذه الأحياءُ الثلاثةُ يأكُلونَ قليلًا، ولكنْ يفكّرونَ كثيرًا في جَمْع الطعام.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٣ برقم ٢٣٤٤.

(٣) الترمذي، أبواب القيامة، باب ٦٠ برقم ٢٥١٧.

(٤) تفسير القرطبي.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

٥٦ ـ يعني: إذا كان كُفّارُ مكةَ يعترفونَ بأنّ الله تعالى هو خالقُ السّماءِ والأرض ومالكُها، فماذا جَرى لعقولِهم إذ يَترُكونَ توحيدَ الله تعالى ويُهَروِلونَ باتّجاهِ الإشراكِ به؟

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

٥٧ ـ يعني: إذا كان كُفّارُ مكةَ يعترفونَ أنّ اللهَ تعالى هو الذي يُنزِلُ الماءَ من السَّماءِ ويُحيي به الأرضَ المَيْتةَ فتخضَرُّ وتَيْنَع، ويَخلُقُ بذلك وسائلَ الرِّزقِ للمخلوقات، فلماذا لا يفهَمونَ إذًا حقيقةَ أن المستحِقَّ الحقيقيَّ للحَمْدِ والثناءِ هو اللهُ تعالى فقطْ، ولا تليقُ العبادةُ بأحدٍ سواه.

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

٥٨ ـ هذه الدُّنيا ومالُها ومتاعُها فانيةٌ، وسوف تنتهي في يوم من الأيام مثلَما تنتهي مسرحيَّةٌ من المسرحيّاتِ، في حينَ أنّ الحياةَ الآخرةَ والجنّةَ خالدتانِ، ليتهم

يفهَمون حقيقةَ أنّ هذه الحياةَ الدُّنيا إنّما هي مجرَّدُ فترةٍ قليلةٍ للابتلاءِ والاختبار، فلا ينبغي لهم أن يُضيِّعوها في اللَّهوِ والعَبَث.

والمرادُ بالحياة الدُّنيويّةِ هنا: حياةُ الكافر؛ لأنه يعتقدُ أنّ هذه الدُّنيا هي كلُّ شيء، ويقضي هذه الحياةَ في لهوٍ ولعبٍ بلا هدفٍ بسببِ غَفْلتِه عن الآخِرة، أمّا الذين في قلوبِهم يقينٌ على الآخِرة وخوفُ الله تعالى، فإنّ هذه الدُّنيا بمثابةِ النِّعمةِ لهم؛ لأنه لو لم يكنِ الابتلاءُ في الحياةِ الدُّنيا، فكيف يمكنُ أن نَنْعَمَ برؤيةِ الله تعالى وبالجنَّة في الآخِرة، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «نِعمَتِ الدّارُ الدُّنيا لمَن تزوَّدَ منها لآخِرتِه»[1]، و «الدّنيا مزرعة الآخرة»[2]، وهكذا يقولُ أهلُ العلم: أنّ مرحلةَ الطفولةِ مزرعةٌ لمرحلةِ الشَّباب، ومرحلةُ الشّبابِ مزرعةٌ لمرحلةِ الشَّيخوخة.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

٥٩ ـ حين يركَبُ المشركونَ في السفينة، ويجتاحُ الطُّوفانُ البحرَ، وتأخُذ سفينتُهم في التّأرجُح والتّرنُّح، فإنّهم حينَئذٍ يَدْعونَ اللهَ تعالى مخلِصينَ، ويَعِدُونَه بأنه إنْ نَجّاهم من هذا الطُّوفانِ فلن يُشركوا به أبدًا، ولكنْ حين يُنجِّيهم اللهُ تعالى إلى البرِّ بأمانٍ وسَلام، فإنّهم ينسَوْنَ وعدَهم ويعودونَ إلى شِركِهم.

نَقَل القاضي ثناءُ الله باني بتي ما قاله عِكرمةُ: «كان أهلُ الجاهليّةِ إذا رَكِبوا البحرَ حَمَلوا معَهمُ الأصنامَ، فإذا اشتدَّت بهمُ الرِّيحُ ألقَوْها في البحرِ وقالوا: يا ربِّ يا رَبّ»[3]. ولمزيدٍ من التوضيح لتفسيرِ هذه الآية راجع الحاشيةَ رقم **٢٣** للآية رقم **٢٢** من سُورة يونُس (١٠).

---

(١) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٢٧.

(٣) التفسير المظهري.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

٦٠ ـ لأنّهم لا يريدونَ التخلِّيَ عن مَلذَّاتِهم وشهَواتِهم الدُّنيويّةِ، ولهذا ما أنْ وَصَلوا إلى البرِّ ناجِينَ من الغرَق، حتى أخَذوا يُنكِرونَ فَضْلَ الله تعالى، وانهَمَكوا في الملَذّاتِ الدُّنيويّة، ولكنّهم سيعلمونَ قريبًا العاقبةَ الوخيمةَ لطُغيانِهم وجُحودِهم.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾

٦١ ـ كم هو عظيمٌ فضْلُ الله تعالى على المشركينَ، بأنّهم يعيشونَ في أمنٍ وسَلام بسببِ الحَرَم الشَّريف، بينَما تتلاحَقُ أحداثُ القَتْل والنَّهبِ والسَّلبِ في المناطقِ الأُخرى في الجزيرةِ العربيّة، لكنّ هؤلاءِ المشركينَ جاحِدونَ غايةَ الجحود، فهم يُنكرونَ اللهَ تعالى برَغْم هذا الفَضْل العظيم منه عليهم، ويؤمنونَ بالباطل.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

٦٢ ـ الشَّخصُ الذي اتَّضحَ لدَيْهِ تمامًا الفَرْقُ بينَ الحقِّ والباطل في صُورةِ القرآن الكريم والنبيِّ الكريم ﷺ، لكنّه كذَّبَ بالحقِّ وبغيرِ دليل، كما أنه افتَرى على الله الكذبَ والبُهتان، يعني: أنه أَشْركَ بالله تعالى وقال: إنّ اللهَ تعالى أمَرَه بهذا، فهل هناك من هو أكثرُ ظُلمًا من مِثل هذا الشَّخص؟ يعني: تكذيبُ الحقِّ والافتراءُ على الآخَر هو ظُلمٌ في كلِّ حال، لكنّ تكذيبَ الحقِّ الذي جاء من اللهِ تعالى، والافتراءَ على الله كذبًا هو أعظمُ الظُّلم، ولهذا إنْ لم تكنْ جهنَّمُ هي مصيرُ هؤلاءِ المنكِرينَ والمفترِينَ، فماذا يكونُ مصيرُهم إذًا؟

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

٦٣ ـ الذين يعمَلونَ جاهدينَ من أَجْل إرضاءِ الله تعالى، ويتحمَّلونَ كلَّ الصُّعوباتِ التي تُواجِهُهم في سَبيل ذلك، يَهديهمُ اللهُ تعالى إلى طُرُقٍ يسيرونَ عليها فينالونَ رضا الله تعالى، يعني: أنّ الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ بنِيّةٍ خالصةٍ يُعينُهمُ اللهُ تعالى، ويُبلِغُهم منازلَهم التي يقصِدونَها في ظلٍّ رحمتِه تعالى.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إيتن هال، إنجلترا
بعدَ صلاةِ العصر من يوم الثلاثاء ١٣ أكتوبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٤ شوال ١٤٣٠هـ.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «الرُّوم»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الثانيةِ فيها، وسُمِّيت هذه السُّورةُ بهذا الاسم لأنّ في أوّلِها ذِكرًا للحربِ بينَ أهلِ إيرانَ وأهل الرُّوم، والتي تَغلَّبَ فيها أهلُ إيرانَ على الرُّوم.

كان الرُّومُ أصحابَ كتابٍ سَماويٍّ مثلَ المسلمين، بينَما كان الإيرانيُّونَ مَجُوسًا، يعني: منكِرينَ للآخِرة والتوحيدِ مثلَ مشركي مكّةَ، ولهذا فَرِح المشركونَ كثيرًا بانتصارِ الإيرانيِّين، وقد نَزَلتِ الآياتُ الأُولى من هذه السُّورة في ذلك الوقتِ، وهي التي أعلَن اللهُ تعالى فيها أنّ أهلَ الرُّوم سينتصِرونَ على الإيرانيِّينَ في بِضع سنينَ، وهو ما كان يبدو صعبًا في وقتِه، لكنّ التاريخَ شاهِدٌ على أنّ نبوءةَ القرآنِ الكريم هذه كانت صحيحةً، وبعدَ سبع سنينَ فقطْ، وفي يوم غزوةِ بَدْر، انتصرَ أهلُ الرُّوم على الإيرانيِّينَ. يقولُ سيّدُنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «كان يومُ بدرٍ هزيمةَ عَبَدةِ الأوثانِ وعَبَدةِ النِّيران»[1]، وهذا دليلٌ دامغٌ على إعجازِ القرآنِ الكريم، وصِدقِ نُبوَّةِ النبيِّ ﷺ.

في الآية رقم **٣٠** من هذه السُّورة جاء الإخبارُ بأنّ الإسلامَ دينُ الفِطرة، وعليكم أن تَثبُتوا عليه بكلِّ اطمئنانٍ وقوّة، وقد جاءتْ في هذه السُّورةِ أيضًا

(١) صفوة التفاسير، سورة الروم (**٣٠**): الآية **٥**.

الدَّلائلُ على العقائدِ الإسلاميَّة الأساسيّة، يعني: التوحيدَ والنُّبوةَ والآخِرةَ، مَثَلُها مَثَلُ السُّورِ الأخرى.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا.
بعدَ صلاةِ المغربِ من يوم الخميس ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٦ شوالٍ ١٤٣٠هـ.

❋ ❋ ❋

سورة الروم (٣٠)،

مكية (٨٤)، آياتها (٦٠)، ركوعاتها (٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾

﴿الٓمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، ويُمكنُك مراجعةُ تفسيرِها في الآيةِ الأولى من سُورة البقرة.

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عِكرِمةُ رضي اللهُ عنه: «إنّ الرُّومَ وفارسَ اقتَتلوا في أدنى الأرض، قالوا: وأدنَى الأرضِ يومَئذٍ أذرُعاتٌ، بها التَقَوْا، فهُزِمت الرُّوم، فبَلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ وأصحابَه وهم بمكّةَ، فشَقَّ ذلك عليهم، وكان النبيُّ ﷺ يَكرَهُ أن يَظهَرَ الأُميُّونَ من المَجُوس على أهـل الكتابِ من الرُّوم، ففَرِح الكُفّارُ بمكةَ وشَمَتوا، فلقَوْا أصحابَ النبيِّ ﷺ، فقالوا: إنّكم أَهلُ الكتاب، والنَّصارى أهلُ كتاب، ونحن أُمِّيُّونَ، وقد ظَهرَ إخوانُنا من أهلِ فارسَ على إخوانِكم من أهلِ الكتاب، وإنّكم إنْ قاتلتُمونا لَنظهَرنَّ عليكم، فأَنْزلَ الله: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ...﴾ الآياتِ، فخَرَج أبو بكرٍ الصدِّيقُ إلى الكُفّار، فقال: أفَرِحتُم بظهورِ إخوانِكم على إخوانِنا؟ فلا تفرَحوا، ولا يُقِرَّنَّ اللهُ أعيُنَكم، فواللهِ لَيظهَرَنَّ الرُّومُ على فارس، أخبَرنا بذلك نبيُّنا ﷺ، فقام إليه أُبيُّ بن خَلَف، فقال: كذبتَ يا أبا فُضَيْل، فقال له أبو بكرٍ رضي الله عنه: أنت أكذَبُ يا عدوَّ الله، فقال: أُناحِبُكَ عشْرَ قلائصَ منِّي، وعشْرَ قلائصَ منك، فإنْ ظَهرتِ الرُّومُ على فارسَ غَرِمتُ، وإن ظَهَرتْ فارسُ على الرُّوم غَرِمتَ إلى ثلاثِ سنين، ثم جاء أبو بكرٍ إلى النبيِّ ﷺ فأَخبرَه، فقال: «ما هكذا ذُكِرَتْ، إنّما البِضعُ ما بينَ الثّلاثِ إلى التّسع، فزايِدْه في الخَطَر، وماذَّه في الأجَل»، فخَرَج أبو بكرٍ فلقيَ أُبيًّا، فقال: لعلَّك نَدِمتَ، فقال: لا، فقال: أُزايدُك في الخَطَر، وأُمادُّك في الأَجَل، فاجعَلْها مئةَ قَلُوص لمئةِ قلوصٍ إلى تسع سنين»[١].

والتاريخُ شاهدٌ على أنّ نُبوءةَ القرآنِ الكريم هذه كانت صحيحةً، وبعدَ سبع سنينَ فقطْ، وفي يوم غَزْوةِ بَدْر، انتصَر أهلُ الرُّوم على الإيرانيِّينَ. يقولُ سيّدُنا

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

ابنُ عباس رضي اللهُ عنهما: «كان يومُ بَدْر هزيمةَ عَبَدةِ الأوثانِ وعَبَدةِ النِّيران»[١]، وهذا دليلٌ دامغٌ على إعجازِ القرآنِ الكريم، وصِدق نبوّةِ النبيِّ ﷺ.

وهكذا فاز سيِّدُنا أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه بهذا الرِّهان، وأخَذ المئةَ ناقةٍ وذَهَب بها إلى رسولِ الله ﷺ، فقال له النبيُّ: ﷺ «هذا السُّحُت، تَصَدَّقْ به»[٢]، والرِّهانُ ممنوعٌ في الإسلام، وفي الوقتِ الذي قامَرَ فيه سيِّدُنا أبو بكرٍ رضي اللهُ تعالى عنه لم يكنِ الحُكم بمَنْعِه قد نَزَل بعدُ، ولهذا أمَرَه النبيُّ ﷺ بالتصدُّقِ بتلك النُّوق.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾

٣ ـ سواءٌ قبْلَ انتصارِ الرُّوم أم بعدَه أيضًا، فإنّ كلَّ ما يَحدُثُ إنّما يكونُ بقضاءِ الله وقَدَرِه، وفي اليوم الذي انتصَر فيه الرُّومُ على الإيرانيِّينَ، انتصَر المسلمونَ أيضًا على مُشركي مكةَ بعَوْنِ الله تعالى في غَزْوةِ بَدْر، وهكذا فَرِح المسلمونَ في ذلك اليوم فرحتَيْن؛ الأولى: هي أنّ نُبوءةَ القرآنِ الكريم قد ثَبَت صِدقُها وتحقَّقت، أي: انتصَر الرُّومُ، والثانيةُ: هي أنّ المسلمينَ انتصَروا في نفسِ اليوم في غَزْوةِ بَدْر.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٤ ـ هذا وعْدُ الله تعالى بأنْ ينتصرَ الرُّومُ ثانيةً بعدَ بضع سنينَ، وسيتحقَّقُ هذا الوعدُ لا مَحالةَ؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يُخلفُ وعدَه أبدًا، كما لا يستطيعُ أحدٌ أن يُقيمَ عَقَبةً في طريقِ تحقيقِ هذا الوعد؛ لأنه هو القادرُ المطلَقُ، ولكنّ المشركينَ لا يعلَمونَ هذه الحقيقةَ.

---

(١) صفوة التفاسير، سورة الروم (٣٠): الآية ٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم.

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾

٥ ـ أكثرُ الناسِ لا يعلَمونَ من هذه الحياةِ الدُّنيا إلّا الأمورَ الظاهرةَ، ويستخدِمونَ كلَّ الطُّرُق: المشروعةِ وغيرِ المشروعة في تجمِيْلِها والتفوُّقِ على الآخَرينَ فيها، وتدريجيًّا يَصِلُونَ إلى قمّةِ الظُّلم والتكبُّر، لكنَّهم يَزُولونَ في هذه الدنيا، ليتَهم حاوَلوا فهمَ الأمورِ الباطنةِ في هذه الحياةِ الدنيا، وتفكَّروا في عاقبةِ ظُلمِهم، كما زالوا في هذه الدنيا.

كما أنّ سرَّ الحياةِ الأخرى الخالدةِ كامنٌ في هذه الحياةِ الدُّنيا المؤقَّتةِ العارِضة، وفي تلك الحياةِ الخالدةِ ستَظهَرُ نتائجُ الأعمالِ الصّالحة والأعمالِ السيِّئة، والذين يغفُلونَ عن الحياةِ الخالدة، أي: عن الآخِرة، وينهَمِكونَ في الاستمتاع بظاهرِ هذه الحياة الدُّنيا، سيَفشَلونَ في الآخِرةِ يقينًا.

﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾

٦ ـ ألم يتفكَّرْ هؤلاءِ أبدًا كيف أنّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ في أحسنِ صُورة، وكما أنّ كلَّ واحدٍ من البشَر يقضي المدّةَ المحدَّدةَ له ويفنَى بعدَها، كذلك فإنّ للأرضِ والسّماءِ مدةً محدَّدةً ستفنَى بعدَها، ثم سيُحيي اللهُ تعالى الإنسانَ ويحاسبُه، ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنونَ بلقاءِ الله تعالى هذا، أي: بيوم القيامة.

﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

٧ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكّةَ بأنّكم لا بدَّ قد رأيتُم في أسفارِكمُ التِّجاريةِ قُرى قوم عادٍ وثمُودَ المدمَّرةَ، فقد كان هؤلاءِ أكثرَ منكم قوّةً، وقد حَفَروا الآبارَ، وشَقُّوا

الأنهارَ، وزَرَعوا الأرضَ وعَمَروها أكثرَ ممّا يمكنُ أن تتصوَّروهُ أنتُم، ولكنْ حين كذَّبوا رسُلَ الله تعالى دمَّرهمُ اللهُ وأهلَكَهم، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا، وإنّما يَطغَى الناسُ ويَعصُونَ الله فيستحِقُّونَ بذلك العذابَ، ولهذا يا أهلَ مكّةَ، عليكم أن تعتبروا من هؤلاء، ولا تُكذِّبوا هذا الرّسولَ المكرَّمَ، وإلّا فسيَنزِلُ العذابُ عليكم أيضًا.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٨ ـ يعني: أنّ الذين كذَّبوا بآياتِ الله تعالى وسَخِروا منها قدِ ارتكَبوا بذلك سوءًا عظيمًا، وسيكونُ مصيرُهم أيضًا في غايةِ السُّوء، وهو جهنَّمُ.

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

٩ ـ الحقيقةُ أنّ اختراعَ شيءٍ ما أمرٌ صعبٌ، لكنّ عمَلَ شيءٍ مِثلِه بعدَ ذلك يكونُ سهلًا، وبالتالي فإنّ الذاتَ التي خَلَقتِ الإنسانَ للمرَّةِ الأولى على غيرِ مِثالٍ سابق، هل يَصعُبُ عليها أن تُفنيَ هذا الإنسانَ وتُعيدَ خلقَه وتُحييَه ثانيةً على نفس الشّكلِ والصُّورةِ التي كان عليها؟ فإذا لم يعترفْ أحدٌ بعقيدةِ الآخِرة بعدَ هذا

الدَّليل البسيطِ الواضح، فأيُّ تبريرٍ سيُقدِّمُه على إنكارِه هذا عندَما يُحييه اللهُ تعالى يومَ القيامة ويَمثُلُ في حضرتِه للحساب؟

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

١٠ ـ حين يَصِلُ الكُفّارُ والمشركونَ إلى ميزانِ العَدْل يومَ القيامة، لن يكونَ لديهم أيُّ دليلٍ على كُفرِهم وشِركِهم، ولهذا ستُصيبُهم السَّكتةُ من الخوفِ والدَّهشة والحَيْرة، ولن يبدوَ لهم أيُّ أملٍ في النَّجاة.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾

١١ ـ حين يَرى الكُفّارُ والمشركونَ يومَ القيامة أنّ الذين اتَّخذوا منهم شركاءَ لله تعالى، وكانوا يأمُلونَ في أن يُعينُوهم عندَ الصِّعابِ، هم أنفُسَهم عاجِزون، فإنّهم عند ذلك سيَشعُرونَ بخطئهم، وسيُعلِنُونَ تبرُّأَهم من شُركائهم هؤلاءِ.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

١٢ ـ بعدَ الحساب يومَ القيامة سيُفصَلُ بين أهلِ الإيمانِ والكُفّار، ثم لا يجتمِعونَ بعدَ ذلك أبدًا، بمعنى: أنّ أهلَ الإيمانِ سيَدخُلونَ الجنّةَ، حيث يَخلُدونَ فيها إلى أبدِ الآبِدين، ويُلقَى بالكُفّارِ في نارِ جهنَّم، حيث يَخلُدونَ في عذابِها إلى أبدِ الآبِدين.

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

١٣ ـ المرادُ بالتسبيح في هذه الآيات: هو الصلاةُ، مثلَما قال سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «جَمعت هاتانِ الآيتانِ مواقيتَ الصَّلاة: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ

حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: المغربِ والعشاءِ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: الفجرِ، ﴿وَعَشِيًّا﴾: العصرَ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: الظهر»[1]، وبالإضافة إلى ذلك هناك بعضُ المواضع التي أُشيرَ فيها إلى أوقاتِ الصّلاة أيضًا، ولمعرفتِها يمكنُكَ مراجعةُ الآية رقم **١١٤** من سُورة هودٍ (**١١**)، والآيةِ رقم **٧٨** من سُورة الإسراءِ (**١٧**)، والآيةِ رقم **١٣٠** من سُورة طه.

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

١٤ ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، وهو الذي يُخرِجُ الدَّجاجةَ الحيّةَ من البَيْضةِ المَيْتة، ويُخرجُ البَيْضةَ المَيْتةَ من الدَّجاجةِ الحيَّة، ويَجعَلُ الأرضَ خضراءَ يانعةً بعدَ إذ جَفَّت، فهل يَصعُبُ عليه أن يُحيَيكم ثانيةً بعد أن يُميتَكم؟

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

١٥ ـ في الآياتِ القادمة جاء بيانٌ لآياتِ توحيدِ الله وقُدرتِه، يعني: كيف

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ الجميلَ الحيَّ العاقلَ من الطِّين الذي لا رُوحَ فيه، والذي تمتدُّ ذُرِّيتُه وتنتشِرُ، وتكتشفُ خزائنَ الأرضِ وكنوزَها الدَّفينةَ.

الإنسانُ يولَدُ من نُطفة، ولكنْ لأنّ الإنسانَ الأولَ خُلِق من الطِّين، لهذا نُسِب الإنسانُ إلى الطِّين باعتبارِ الخَلْقِ الأوّل، ولا تزالُ علاقةُ الإنسانِ بالطِّين قائمةً من عدّةِ اعتبارات، على سَبيل المثال: يتغذَّى الإنسانُ ويَكبَرُ على ما يَنبُتُ من الأرضِ، كما أنه عندَ ولادةِ الإنسانِ تُصبَغُ سُرّتُه بلونِ الطِّين، مثلَما يقولُ سيّدُنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه، [مرفوعًا]: «ما من مولودٍ إلّا وفي سُرّتِه من تُربتِه التي يولَدُ منها، فإذا رُدَّ إلى أرذلِ العمُر رُدَّ إلى تُربتِه التي خُلِق منها حتى يُدفَنَ فيها، وإنّي وأبو بكرٍ وعُمَرُ خُلِقنا من تربةٍ واحدةٍ وفيها نُدفَن. «الخطيب ـ عن ابن مسعود»[١].

وتَصوَّرْ من خلالِ هذا الحديثِ إلى أيِّ مدًى كان سيّدُنا أبو بكرٍ وسيّدُنا عُمَرُ رضي اللهُ عنهما قريبَيْنِ من رسولِ الله ﷺ؟ وإليك بعضَ الأحاديثِ الشّريفةِ في فَضْل الشَّيخَيْنِ رضي اللهُ عنهما:

ـ يقولُ سيّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لقد همَمْتُ أن أَبعثَ رجالًا من أصحابي إلى ملوكِ الأرض يدعونَهم إلى الإسلام كما بَعَث عيسى ابنُ مريَم الحواريِّينَ، قالوا: ألا تَبعَثُ أبا بكرٍ وعُمرَ فهما أبلَغ؟ قال: لا غنَى بي عنهما، إنّما منزلتُهما من الدِّين كمنزلةِ السَّمع والبصرِ من الجسَد. «طب والحاكم في الكنى ـ عن ابن عَمْرو طب ـ عن عَمْرو»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما وُلِد في الإسلام مولودٌ أزكَى ولا أطهَرُ ولا أفضَلُ من أبي بكرٍ وعُمَر. «الدَّيلمي وابنُ عساكر ـ عن علي»[٣].

(١) كنز العمال، ١١: ٥٦٥ برقم ٣٢٦٧٣.
(٢) كنز العمال، ١١: ٥٦٥ برقم ٣٢٦٧٤.
(٣) كنز العمال، ١١: ٥٦٥ برقم ٣٢٦٨٥.

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أبو بكرٍ وعُمرُ خيرُ أهلِ السّمواتِ والأرض، وخيرُ مَن بقيَ إلى يوم القيامة»(١).

- يقولُ سيّدُنا سَفِينةُ رضي الله عنه مَوْلى رسولِ الله ﷺ: لمّا بَنى رسولُ الله ﷺ المسجدَ جاء أبو بكرٍ رضي الله عنه بحَجَرٍ فوَضَعَه، ثمّ جاء عُمرُ بحَجَرٍ فوَضَعَه، ثمّ جاء عثمانُ بحَجَرٍ فوَضَعَه، فقال رسولُ الله ﷺ: «هؤلاء (الثلاثةُ الواحدُ تلوَ الآخَر) وُلاةُ الأمرِ من بعدي»(٢)، وقال الإمامُ الحاكم: إنه حديثٌ صحيحُ السَّند.

- تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أبو بكرٍ منّي وأنا منه، وأبو بكرٍ أخي في الدُّنيا والآخِرة»(٣).

- يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنه: رآني رسولُ الله أمشي أمامَ أبي بكرٍ، فقال: «يا أبا الدَّرداء، أتمشي أمامَ مَن هو أفضَلُ منك في الدّنيا والآخِرة؟ فوالّذي نفْسُ محمّدٍ بيدِه، ما طَلَعتِ الشّمسُ ولا غَرَبتْ على أحدٍ بعدَ النّبيّينَ والمرسَلينَ أفضَلَ من أبي بكرٍ»(٤).

- يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «حبُّ أبي بكرٍ واجبٌ على أُمّتي»(٥).

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله عَمْرو بن العاص رضي اللهُ عنه: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أتاني جِبريلُ فقال: إنّ اللهَ تعالى يأمُرُك أن تستشيرَ أبا بكرٍ»(٦).

---

(١) كنز العمال، ١١: ٥٦٧ برقم ٣٢٦٨٦.

(٢) المستدرك للحاكم، ٣: ١٤ برقم ٤٢٨٤.

(٣) كنز العمال، ١١: ٥٤٤ برقم ٣٢٥٠٠.

(٤) السيرة الحلبية، ٢: ٥٦.

(٥) المرجع السابق، ٢: ٥٦.

(٦) المرجع السابق، ٢: ٥٦.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

١٦ ـ من آياتِ قدرةِ الله تعالى: أنه خَلَق لكم أزواجَكم من نفسِ جنسِكم لتسكُنوا إليهنَّ، ولو كانت أزواجُكم من جنسٍ آخَرَ، يعني: من الجنِّ أو الحيَواناتِ مثلًا، لَما أمكَن لكليكُما السَّكَنُ إلى الآخَر، وإنّما كان ذلك سيؤدِّي إلى أن يسُودَ بينَكما جوٌّ من عَدَم الثِّقةِ والاضطراب، ومِن كرَم الله تعالى الخاصِّ على الإنسانِ أنْ خَلَق زوجَ الإنسانِ إنسانًا، ولكَ أن تتصوَّرَ حِكمةَ الله تعالى أنه بالرَّغم من أنّ الأَصْلَ مادةٌ واحدةٌ والفعلَ واحدٌ، إلّا أنه لم يَخلُق الجميعَ رجالًا أو نساءً فقطْ، وإنّما خَلَق البعضَ رجالًا والبعضَ الآخَرَ نساءً، وجَعَل بينَ هذَيْنِ فرقًا وامتيازًا جميلًا من الأعضاءِ والشَّكل والصُّورةِ والأخلاقِ والعواطف، بحيث يكونُ كلٌّ منهما جاذبًا للآخَر وباعثًا على المحبَّة والرَّحمةِ بينَهما، وبسببِ هذا الفَرْق تواصَلَ النَّسلُ الإنسانيُّ واستمرَّ، وخَلْقُ الرجُل والمرأةِ من بطنٍ واحدةٍ ليس بمَحْضِ المصادَفة، وإنّما هو مظهَرٌ لكمالِ حِكمةِ الله تعالى، وبقَدْر ما تتدبَّرُ فيه، بقَدْرِ ما تتَّضِحُ لك الدَّلائلُ على قُدرةِ الله تعالى.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ الهدفَ من الحياة الزَّوجيّةِ هو حصُولُ القلبِ على السَّكِينة والطُّمَأْنينة، ولكنْ هذا يحتاجُ إلى المحبّةِ والتراحُم المتبادَل، وهو الذي يَجعَلُ من البيتِ ما يُشبِهُ الجنّةَ.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

١٧ ـ انظُرْ إلى السّماءِ العاليةِ وما فيها من نُجومٍ لامعة، وإلى الشمسِ والقمر، اللَّذيْنِ لم يحدُثْ في نظامِهما أيُّ خللٍ أبدًا.

وانظُرْ إلى الأرضِ المتَراميةِ الأطرافِ وما فيها من أشجارٍ وحقولٍ ممتَدَّة، والتي هي بمثابةِ الوسيلةِ لغذائنا.

ثم انظُرْ إلى النَّسْلِ الإنسانيِّ الناتج من أُمٍّ واحدةٍ وأبٍ واحدٍ.

وانظُرْ إلى الفرقِ الواضح بينَهم في الألوانِ والألسِنة بغَرَض التمييزِ بينَهم، معَ أنّ كلَّ الأشياءِ التي تَخرُجُ من قالَبٍ واحدٍ في أحدِ المصانع تكونُ متطابِقةً، أمّا ما يتعلَّقُ بالإنسانِ فأمرٌ مختلفٌ، فكلُّ إنسانٍ مختلفٌ عن الآخر إلى درجةِ أنّ بصَماتِ إبهام كلِّ إنسانٍ لا تُشبِهُ بصَماتِ إبهام الآخَر، وهذا ليس مجرَّدَ مصادَفة، وإنّما فيه لأهلِ العلم آياتٌ على قُدرةِ الله تعالى وتدبيرِه.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

١٨ ـ حين يعُمُّ الظَّلامُ في اللَّيل فإنّ الناسَ ينامُونَ ليستريحوا من عناءِ النَّهارِ كلِّه، وحين يَطلُعُ ضوءُ النهارِ ينهَضُونَ في همّةٍ ونشاط، وينهمِكونَ في البحثِ عن أرزاقِهم، ورَغْم أنّ بعضَ الناس يفعَلونَ عكسَ ذلك، فينامُونَ بالنَّهارِ ويعمَلون باللَّيل، لكنّ أكثرَ الناسِ يعمَلونَ بالنَّهار فقطْ، وأمّا في المناطقِ التي لم تَصِلْها الكهرباءُ فإنّ العملَ فيها لا يكونُ إلّا بالنّهارِ فقطْ. على أيِّ حالٍ الذين يسمَعونَ النَّصيحةَ بتمعُّنٍ لهم آياتٌ على قُدُراتِ الله تعالى وتدبيرِه في هذا النِّظام الجميل للّيلِ والنَّهار.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

١٩ ـ حين يَبرُقُ البرقُ في السّماءِ فإنّكم تخشَوْنَ من أن تصيبَكم منه صاعقةٌ تُلحِقُ بكمُ الضَّررَ، ومعَ ذلك يَبعَثُ في داخِلكم الأملَ في نزولِ المطر، وبالتالي

تخضَرُّ الأرضُ اليابسةُ وتَيْنَع، وترتوي المحاصيلُ وتنمو، فيتهيَّأُ بذلك الغذاءُ للإنسانِ والحَيوانِ والطَّير، ولو أنّ الأمطارَ توقَّفت إلى الأبدِ فإنّ أرضًا شاسعةً ستتحوَّلُ إلى قَفْرٍ، وتصبحُ حياةُ البشَر فيها مستحيلةً، وريُّ الأرضِ بهذه الطريقةِ موجودٌ منذُ الأبد، وفيها لأُولي الألبابِ آياتٌ عظيمةٌ على قُدرةِ الله تعالى؛ لأنّ نظامَ الكائناتِ هذا يسيرُ مُجِدًّا في سَيْرِه بحُسن تدبيرِه عزَّ وجلّ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾

٢٠ ـ ظَهَرتِ السّماءُ والأرضُ إلى الوجودِ بحُكم الله تعالى، ولا تزالانِ قائمتَيْنِ بحُكمِه أيضًا، ولم يَحدُثْ فيهما أيُّ نقْصٍ أو خَلَلٍ منذُ آلافِ السِّنين، ولكنْ حين يأتي حُكمُ الله تعالى سينقلبُ نظامُ السّماءِ والأرضِ كلُّه رأسًا على عَقِب، وسوف تفنَى أجسادُكم في القبورِ بعدَ الموت، ولكنْ حينَ يأتي حُكمُ اللهِ تعالى، ستَظهَرُ على الفَوْرِ سماءٌ جديدةٌ وأرضٌ جديدةٌ، وستنهَضُونَ من قبورِكم أحياءً ثانيةً وفورًا أيضًا، وفي هذه الأمثلة آياتٌ واضحةٌ على قُدرةِ الله تعالى وحِكمتِه.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾

٢١ ـ اللهُ تعالى هو خالقُ السَّماءِ والأرضِ وكلِّ مَن فيهما وما فيهما ومالكُه، والجميعُ يسيرُ طِبقًا لحُكمِه وأمرِه، إلّا أنّ الجِنَّ والإنسَ غالبًا ما يعصُونَ اللهَ تعالى في الأمورِ التي أعطاهم اللهُ تعالى الاختيارَ فيها، ولكنّ هناك بعضَ الأشياءِ الأخرى هم ملتزِمونَ فيها بحُكم اللهِ تعالى وأمرِه، مثلَما يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ تعالى عنه: «كلٌّ له مُطِيعونَ في الحياةِ والبقاءِ والموتِ والبَعْثِ وإن عَصَوْا في العبادة»[1]، ويقولُ الإمامُ متولِّي الشّعراوي في تفسيرِ هذه الآية: «ولو

---

(١) تفسير الخازن.

أرادَهم سبحانَه مقهورينَ ما شَذَّ واحدٌ منهم عن مرادِ ربِّه، واللهُ عزّ وجلّ لا يريدُ أن يُحكَمَ الإنسانُ بقَهْرِ القُدرة، إنّما يريدُ لعبدِه أن يأتيَه طواعيةً مختارًا»[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾

٢٢ ـ اللهُ تعالى هو الذي خَلَق الخَلْقَ لأولِ مرة، وهو الذي سيُحييهم ثانيةً يومَ القيامة، وهو أمرٌ في غايةِ السُّهولة بالنِّسبة له، وفي هذه الآيةِ ضربُ المثَلِ بتجربةِ الخَلْق الأولِ لتسهيل فَهْمِها، يعني: من السَّهل للمخلوقِ صُنعُ أيِّ شيءٍ ثانيةً، لكنّ الخَلْقَ لأولِ مرّةٍ وإحياءهم ثانيةً كلاهما بالنِّسبةِ لله تعالى متساوٍ؛ لأنه القادرُ المطلَقُ، ولا يَصعُبُ عليه شيءٌ.

وقد بيَّن سيّدُنا ابنُ عبّاس تفسيرًا لهذه الآية قائلًا: «إعادةُ الشيءِ على الخلائقِ أهوَنُ من إبتدائه؛ لأنّهم يقومونَ بصَيْحةٍ واحدة، فذلك أهوَنُ عليهم من أن يكونوا نُطفًا ثمّ علَقًا ثمّ مُضَغًا ثمّ أَجِنّةً ثمّ أطفالًا ثمّ غِلمانًا ثمّ شُبّانًا ثمّ رِجالًا أو نساءً»[٢].

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ

(١) تفسير الشعراوي.

(٢) تفسير الخازن، وتفسير القرطبي.

ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

٢٣ ـ كان الرِّقُّ رائجًا لدى أهل الجزيرةِ العربيّة، ولم يكنْ أيُّ عبدٍ يستطيعُ أن يكونَ شريكًا لسيِّدِه في مالِه، ولا أن يتصرَّفَ فيه برضاه، وفي هذه الآيةِ أعلَن اللهُ تعالى ـ بضَرْبِه مثالَ العبيدِ ـ بُطلانَ الشِّركِ ودليلَ التوحيد، يعني: أنّ عَبيدَكم ليسوا شُركاءَ لكم في أموالِكم مثلَما يكونُ إخوانُكم شُركاءَ لكم فيه بالتَّساوي، وأنتُم لا تخشَوْنَ من عَبيدِكم حين تتصرَّفُونَ في أموالِكم مثلَما تخشَوْنَ من إخوانِكم، فيا أيُّها المشركونَ، إذا كنتُم لا ترضَوْنَ بأنْ يكونَ عَبيدُكم شُركاءَ لكم، وهم من بني الإنسانِ مِثلُكم، ولهم أيدٍ وأرجُلٌ وشكلٌ وصُورةٌ وضروريَّاتٌ حياتيَّةٌ مِثلُكم تمامًا، فما أعظمَ ظُلمَكم حين تُشركونَ هذه الأشياءَ معَ الله تعالى، وهي التي خَلَقَها اللهُ تعالى وهو مالكُها، ولا يتساوَوْنَ معَه في أيِّ كمالٍ ذاتيٍّ أو صِفاتيٍّ.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

٢٤ ـ الذين يتَّبعونَ أهواءهم بغيرِ علم، ويرفُضونَ الهدايةَ التي أُرسِلت من اللهِ تعالى، ظالمونَ ضالُّونَ إلى درجةٍ أنه لا يمكنُ أن يَهديَهم أحدٌ، كما لن يستطيعَ أحدٌ أن يساعدَهم يومَ القيامة.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٢٥ ـ في هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى عن الدِّين الإسلاميِّ: إنه دينُ الفِطرة الإنسانيّة؛ لأنّ الإسلامَ دينُ الفِطرة، ويُلبِّي كلَّ مقتَضَياتِ الفِطرة، ولذا ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يُديرَ ظهرَه للباطل، ويتَّجهَ إلى الله تعالى فقطْ، ويَثبُتَ بكلِّ اطمئنانٍ ورضىً على دينِ الإسلام، فهو الدِّينُ القَويمُ، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يحاولونَ فَهْمَ هذا الأمرِ، ولهذا يبقَوْنَ في جهلٍ بالحقيقة.

تصور إله واحد:

إن هناك تصوُّرًا لقوةٍ خارقةٍ عُليا موجودًا في فِطرةِ كلِّ إنسانٍ وفي لا شعورِه، مثلَما قال النبيُّ الكريم ﷺ: «ما مِن مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرة، فأبواهُ يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»[1].

ويُعلَمُ من هذا أنّ اللهَ تعالى قد أَوْدعَ في فِطرة بني الإنسانِ جميعًا مَلَكةَ قَبولِ التوحيد، لا فَرْقَ في ذلك بينَ مسلمٍ وغيرِ مسلم، ولا يَملِكُ أحدٌ مهما كان القُدرةَ على أن يُغيِّرَ أو يُعدِّلَ في هذه الفِطرة التي خَلَقَها اللهُ تعالى، بمعنى: أنه لا يمكنُ أن يولَدَ طفلٌ على الكُفر، وإنّما يولَدُ كلُّ مولودٍ على فِطرةِ الإسلام، حتى وإنْ

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٩ برقم ١٣٥٨.

جَعَلتْه البيئةُ المحيطةُ به أو جَعَلَه أبَواه نَصْرانيًّا أو يَهُوديًّا، فإنّ مَلَكَة قَبولِ الإسلام تبقَى موجودةً بداخلِه، وكلَّما تدبَّر وفكَّر يكونُ من الممكنِ أن يَدخُلَ الإسلامَ، ولو لم تكنْ هذه المَلَكةُ موجودةً بداخِلِ أبي جَهْل وأبي لَهَب لَما كان من المنطقيِّ دعوتُهم لقَبولِ الإسلام، ولَما كان استحقاقُهم لجهنَّمَ صحيحًا.

الرجوع إلى إله واحد:

يقولُ العلّامةُ القُرطُبي: «وفي هذا دليلٌ على أنّ الخَلْقَ جُبِلوا على الرُّجوع إلى الله في الشّدائد، وأنّ المُضْطَرَّ يجابُ دعاؤُه وإن كان كافرًا، لانقطاع الأسبابِ ورجوعِه إلى الواحدِ ربِّ الأرباب»[١].

ولهذا عَلَّمنا النبيُّ ﷺ أن نتجنَّبَ دعوةَ المظلوم، فيقولُ سيِّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اتَّقوا دعوةَ المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنّه ليس دونَها حجابٌ»[٢]، ودعاؤه يَصِلُ سريعًا إلى درجةِ القَبول، وراجعْ في هذا الخصُوص الحاشيةَ رقم ٢٣ للآية رقم ٢٢ من سُورة يونُس (١٠).

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

٢٦ ـ هنا نصيحةٌ لأهل الإسلام أنِ اثبُتوا على الدِّين الأَصْليِّ، ولا تكونوا كأولئك الذين بَدَّلوا في دينِهم تِبْعًا لأهوائهم، وتفَرَّقوا شِيَعًا، وكلُّ فرقةٍ من هؤلاء تدَّعي صحةَ نظريّاتِها وخطأَ نظريّاتِ الآخَرين.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

٢٧ ـ حينَ كان القحطُ يصيبُ مشركي مكّةَ فإنّهم كانوا يترُكونَ الأصنامَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة يونس (١٠): الآية ٢٢.

(٢) مسند أحمد، ٣: ١٥٣.

ويستغيثونَ بالله تعالى، وحين يتفضَّلُ اللهُ تعالى عليهم ويُنجِّيهم من المصائب، فإنّ الطُّغاةَ منهم كانوا يعودونَ إلى الإشراكِ بالله تعالى ثانيةً، ولأنّهم لم يكونوا يريدونَ التخلِّيَ عن المَلذّاتِ الدُّنيَويّة، فإنّهم ما إنْ يُنجِّيهمُ اللهُ تعالى من المصائبِ حتى يُنكروا فَضْلَ الله تعالى عليهم، ويستغرِقوا في المَلذّاتِ الدُّنيَويّة، ولكنّهم قريبًا سيعلَمونَ العاقبةَ السيِّئةَ لطُغيانِهم وجحودِهم.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾

٢٨ ـ لم يكنْ لدى أهلِ مكّةَ دليلٌ عَقْليٌّ على الشِّركِ الذي دَرَجوا عليه وواظَبوا على ارتكابِه، كما أنّ اللهَ تعالى لم يُنزِّلْ أيَّ دليل في حقِّ هذا الشِّرك، وإنّما هو جهلٌ منهم وضَلالٌ وتعصُّبٌ ليس إلّا.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾

٢٩ ـ بعضُ الناس لا تَسَعُهم الدُّنيا من الفَرْحةِ حين يُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم بنعمةٍ من عندِه، ويستغرِقونَ بعدَ ذلك متكبِّرينَ في اللَّهو والعَبَث، وحين يُعاقَبونَ على أفعالِهمُ القبيحة، وتَحِلُّ بهم مصيبةٌ من المصائب، فإنّهم يَيْأَسُونَ على الفَوْر، ويَشْكُون من اللهِ تعالى! وكلتا الحالتَيْن تكونُ سببًا في خسارتِهم وحلولِ العذابِ بهم، وعلى العكسِ من هؤلاءِ هناك البعضُ الذين يشكُرونَ الله تعالى على النِّعمةِ التي يُنعِمُ بها عليهم، ويستعملونَ هذه النِّعمةَ بما يتوافَقُ معَ حُكم الله تعالى، ويصبِرونَ حين تحِلُّ بهم مصيبةٌ من المصائب، ويحاولونَ النَّجاةَ من هذه المصيبةِ داعينَ اللهَ تعالى أن يُنجِّيَهم منها، وكلتا الحالتَيْنِ تكونُ سببًا في الخيرِ والبركةِ لهم، وكذا نَيْلُهم الأَجْرَ والثوابَ من الله تعالى.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

٣٠ ـ المؤمنُ الذي يرزُقُه اللهُ تعالى سَعةً في الرِّزق يكونُ للفقراءِ حقٌّ في رزقِه الواسع هذا، وهو بمثابةِ الأمانةِ التي عَهِدَ اللهُ تعالى بها إلى هذا المؤمن، وهذه الأمانةُ بمثابةِ الاختبارِ له؛ هل يؤدِّي للفقراءِ أمانتَهم فيستحِقَّ بذلك الجَنّةَ، أم يغتصبُ هذا الحقَّ لنفسِه فيستدعيَ بذلك غضَبَ الله تعالى عليه؟

وإذا كان اللهُ تعالى قد جَعَل أحدًا فقيرًا لحِكمةٍ عندَه، فقد تكفَّل به وبكرامتِه وعزّةِ نفسِه، وفي هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى الأغنياءَ من المؤمنينَ أن يؤدُّوا حقَّ الفقراءِ من الأقاربِ والمساكينِ وعابِري السَّبيل، ولهذا فإنّ المؤمنَ السَّعيدَ الذي وَفَّقه اللهُ تعالى إلى مساعدةِ الفقراء، لا ينبغي له أن يعتقدَ أنه يُحسِنُ إلى الفقراءِ ويمُنُّ عليهم، وإنّما عليه أن يؤمنَ بأنه يؤدِّي الأمانةَ إلى أهلِها ومستحِقِّيها.

بعض الأحاديث فيما يتعلق بمساعدة المحتاجين:

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزّ وجلّ يقولُ يومَ القيامة: يا ابنَ آدم! مَرِضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ! كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: أما عَلِمتَ أنّ عبدي فلانًا مرِضَ فلم تَعُدْه، أمَا عَلِمتَ أنّك لو عُدتَه لَوجدتَني عندَه؟ يا ابنَ آدم! استَطعمتُك فلم تُطعِمْني، قال: يا ربِّ! [و] كيف أُطعِمُك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: أمَا عَلِمتَ أنّه استَطعَمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أمَا عَلِمتَ أنّك لو أطعمتَه لَوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدم! استَسْقيتُكَ فلم تَسْقِني، قال: يا ربّ! كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: استَسْقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقه، أمَا إنّك لو أَسْقيتَه وجدتَ ذلك عندي»[١].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٣ برقم ٦٥٥٦.

٢ - يَروي سيّدُنا سالمٌ رضي الله عنه، عن أبيه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم لا يَظلِمُه ولا يُسْلِمُه، من كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومن فرَّج عن مسلمٍ كُربةً فرَّج اللهُ عنه بها كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومَن سَتَر مسلمًا سَتَره اللهُ يومَ القيامة»[1].

٣ - تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: إنه بعدَ الوَحْيَ الأولِ خَشِي النبيُّ ﷺ، «فقالت خديجةُ: كلّا والله، ما يُخزيكَ اللهُ أبدًا:

- إنّك لَتَصِلُ الرَّحِم.
- وتَحمِلُ الكَلَّ.
- وتُكسِبُ المعدوم.
- وتَقْري الضَّيف.
- وتُعينُ على نوائبِ الحقّ»[2].

والصِّفاتُ التي ذَكَرتْها أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ خديجةُ الكبرى رضي اللهُ عنها تسريةً عن النبيِّ ﷺ حينَ خاف واضْطرَبَ، إنما تتعلَّقُ بمساعدةِ الفقراءِ والمحتاجين، في حينَ أنّ النبيَّ ﷺ كان معروفًا إذْ ذاك بشكلٍ أكبرَ باعتبارِه صادقًا وأمينًا، ويُعلَمُ منه أنّ السيّدةَ خديجةَ الكبرى رضي اللهُ عنها تَرى أنّ الذين يساعدونَ الفقراءَ لا يُفلِحونَ في الآخِرة فقطْ، وإنّما يكونونَ من المفلِحينَ في هذه الدُّنيا أيضًا، ولهذا قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: «خيرُ النّاس مَن ينفَعُ النّاس»[3].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٨.
(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٣.
(٣) كنز العمال، ١٦: ١٢٨ برقم ٤٤١٥٤.

يقول مير درد:

ـ خَلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ للمحبّةِ والتعاطُف، وإلّا فإنّ الملائكةَ ليسوا قليلينَ بالنِّسبة لطاعتِه سبحانَه وتعالى.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

٣١ ـ مثلَما نَزَل الحُكمُ بتحريم الخمرِ تدريجيًّا، فإنّ هذه الآيةَ تمثِّلُ الخُطوةَ الأولى تُجاهَ تحريم الرِّبا، رَغْم نزولِ الحُرمةِ القَطْعيّةِ للرِّبا في الآية رقم **٢٧٥** من سُورة البقرة.

الظاهرُ في الرِّبا أنه: زيادةٌ في المال، ولكنّها ليست إضافةً عندَ الله تعالى، وإنّما هي استغلالٌ غيرُ مشروع للفقراء، وسببٌ لدمارِ العاقبة، وعلى العكسِ منها: الزَّكاةُ، فإنّ الظاهرَ فيها هو النَّقصُ في المال، ولكنّ الذين يؤدُّونَ الزّكاةَ من أَجْل رضا الله تعالى تحِلُّ البرَكةُ في أموالِهم، ويضافُ إلى أموالِهم يومَ القيامة إضافاتٌ كبيرةٌ لدرجةِ أنّ ما تَصدَّقَ به بقَدْرِ تمرةٍ في الدنيا يكونُ في الآخِرة مثلَ جبل أُحُد.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

٣٢ ـ هنا إخبارٌ لأهلِ مكّةَ أنّ اللهَ تعالى لا شريكَ له؛ لأنه هو الذي خَلَقَكم، وهيَّأَ لكم وسائلَ الرِّزقِ في الأرض، وهو الذي سيُميتُكم، وهو الذي سيُحييكُم ثانيةً في الآخِرة، لكنّ الذين تُشركونَهم معَ الله تعالى لا يستطيعُ أحدُهم أن يقومَ ولو بعمَلٍ واحد من هذه الأعمال، فكيف يمكنُ أن يكونَ شريكًا لله تعالى؟

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾:

٣٣ ـ يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي اللهُ عنه في تفسيرِ هذه الآية: «هذا قبلَ مبعثِ النّبيِّ ﷺ امتَلأتِ الأرضُ ظُلمًا وضَلالةً، فلمّا بَعَث اللهُ محمّدًا ﷺ رَجَع راجعونَ من النّاس بما كَسَبت أيدي النّاسِ من المعاصي، يعني: كفّارَ مكّةَ»(١)، لكنّ كُفّارَ مكّةَ هم الذين كانوا مُصرِّينَ على طُغيانِهم وإيذاءِ النبيِّ ﷺ، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى قدِ ابتَلاهم عقابًا على بعضِ ذنوبِهم بالقَحْطِ والمجاعة، حتى اضْطُروا إلى أكلِ

---

(١) تفسير البغوي، وتفسير روح المعاني.

الجِيَفِ والعظام[1]، ورَغْم أنّ الثوابَ الكاملَ على العمَل الصّالح، والعقابَ الكاملَ على الذُّنوبِ سيكونُ في الآخِرة، لكنّ هناك بعضَ العقابِ في هذه الدُّنيا أيضًا، حتى يَرجِعَ الناسُ عن ارتكابِ الذُّنوب.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾

٣٤ ـ هنا أمرٌ لكُفّارِ مكّةَ أنْ سِيروا في الأرض، وانظُروا ماذا جَرى للذين كذَّبوا الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام، فقد تحوَّلت مَساكنُهم إلى أطلالٍ، وكان أكثرُهم مشرِكينَ؛ لأنّ المشركينَ لا يؤمنونَ بيوم القيامة، ويغفُلونَ عن حسابِ الآخِرة، ويَعِيثُونَ في الأرضِ فسادًا.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

٣٥ ـ قبلَ أن يأتيَ يومُ القيامة، عليكم أن تَسلُكوا الطريقَ المستقيمَ، يعني: دينَ الإسلام؛ لأنّ يومَ القيامة قادمٌ لا مَحالةَ، ولا يمكنُ أن يَحُولَ أحدٌ دونَ ذلك، وبعدَ الحسابِ في ذلك اليوم سيُقسَّمُ الناسُ إلى قسمَيْنِ، وينفصِلانِ إلى أبدِ الآبدين، أمّا القسمُ الأول فهم أهلُ الإيمان، وسيَدخُلونَ هؤلاءِ الجنَّة بفَضْلِ أعمالِهم الصَّالحة، وأمّا القسمُ الثاني فهم المُنكِرونَ، وسيَدخُلُ هؤلاءِ جهنَّمَ بسببِ ذنوبِهم.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾

٣٦ ـ الذي أنْكر توحيدَ الله تعالى أَبْعدَ نفسَه عن فَضْل الله تعالى وقَرَّبها من عذابِ الكُفر، لكنّ الذين آمَنوا بالله تعالى وعَمِلوا الصّالحاتِ فهم الذين يستحِقُّونَ

---

(١) «وقع القحط والجدب بمكة بشؤم معاصي أهلها، حتى أكلوا العظام والجيف». التفسير المظهري.

فَضْلَ الله تعالى وجنّتَه، والمرادُ بالفَضْل هنا: أنّ ثوابَ الحسَنة سيكونُ من عشَرةِ أضعافٍ حتى سبعِمائةِ ضعفٍ أو أكثرَ من هذا أيضًا.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

٣٧ ـ الرِّياحُ أيضًا آيةٌ من آياتِ الله تعالى، وهي التي تُبشِّرُ بنزولِ الغَيْث، والذي تتولَّدُ بفَضْلِه وسائلُ أرزاقِكم من الأرض، وبوسيلةِ هذه الرِّياح (قبلَ اكتشافِ البترولِ والسُّولار) تسيرُ سفُنُكم، حتى تَنقُلوا بضائعَكم التِّجاريةَ لتبحَثوا من خلالِها عن أرزاقِكم، وقد أَنْعم اللهُ تعالى عليكُم بكلِّ هذه النِّعَم حتى تستفيدوا منها وتشكُروا اللهَ تعالى عليها.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٣٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، جاء الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ من قبلِك إلى أُمَمِهم بآياتِنا، فالذين كذَّبوهم أنْزلنا عليهمُ العذابَ، لكنَّنا حَفِظْنا أهلَ الإيمانِ من هذا العذابِ؛ لأنّنا تعهَّدنا بمساعدتِهم بكرَمٍ منا.

يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن رَدَّ عن عِرض أخيه المسلم كان حقًّا على اللهِ عزّ وجلّ أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنَّم يومَ القيامة»[1]، ثم تلا النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) مسند أحمد، ٦: ٤٤٩، وتفسير القرطبي.

ومن طُرُقِ مساعدةِ أهل الإيمانِ أيضًا: أنّ اللهَ تعالى يَعْفو عن ذنوبِهم لقاءَ المصاعبِ التي يواجهونَها:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا حُزْنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ، حتّى الشَّوكةُ يُشاكُها، إلّا كَفَّر اللهُ بها من خطاياه»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله رضيَ الله عنه: أتَيْتُ النّبيَّ ﷺ في مرضِه وهو يوعَكُ وعكًا شديدًا، وقلتُ: إنّك لَتوعَكُ وعكًا شديدًا. قلت: إنّ ذاك بأنّ لكَ أَجْرَيْن. قال: «أَجْل، ما من مسلمٍ يُصيبُه أذًى، إلّا حاتَّ اللهُ عنه خطاياه، كما تَحاتَّ ورَقُ الشّجر»[٣].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

٣٩ ـ اللهُ تعالى هو الذي تَحمِلُ الرِّياحُ بأمرِه السَّحابَ، وأحيانًا يُظلِّلُ هذا السَّحابُ المنطقةَ بأكملِها، وأحيانًا يتفتَّتُ إلى قِطَع تتفرَّقُ فوقَ بعضِ المناطق، ثم إنّ المناطقَ التي يَنزِلُ عليها المطرُ يفرَحُ أهلُها به، معَ أنّهم كانوا في حالةٍ من اليأْسِ قبلَ نزولِ المطر؛ لأنّ حقولَهم كانت قد جَفَّت ويَبِسَت.

---

(١) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤١.

(٢) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤٥.

(٣) البخاري، كتاب المرضى، باب ٢ برقم ٥٦٤٧.

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

٤٠ ـ لكَ أن تتصوَّرَ مدى رحمةِ الله تعالى من أنه يَجعَلُ الأرضَ خضراءَ يانعةً عن طريقِ الأمطارِ التي يُنزلُها لتُروِّيَ الأرضَ الجافّةَ لكي يهيِّئَ لكم الرِّزقَ، واللهُ تعالى هو الذي سيُحيي الموتَى بنفسِ الطريقة يومَ القيامة، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾

٤١ ـ الذين يُنكرونَ وجودَ الله تعالى حالُهم عجيبٌ للغاية، فإنْ لم يَنزِلْ عليهم المطرُ أصابَهم اليأْسُ التامُّ، وإذا نَزَل عليهم المطرُ يفرَحونَ فرحًا شديدًا إلى درجةِ التكبُّر، وإنْ هبَّت عليهم ريحٌ قويّةٌ مما يَقتُلُ الزُّروعَ وتجِفُّ منه الثِّمارُ ويصفرُّ لونُها، فإنّهم ينسَوْنَ النِّعمَ السابقةَ، ويَجْحَدونَ نِعَمَ الله تعالى ولا يشكرونَه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾

٤٢ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٨٠ من سُورة النمل (٢٧).

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾

٤٣ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٨١ من سُورة النمل (٢٧).

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي

كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾

٤٤ ـ خَلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ في غايةِ الضَّعف، وأطفالُ الإنسانِ أكثرُ ضعفًا من صغارِ الحيَوانات وأقلُّ فهمًا منها، فصغارُ الحيَواناتِ الأخرى تتماسَكُ وتَقْوَى في بضعةِ أسابيعَ أو عدّةِ شهورٍ، بينما يبقَى طفلُ الإنسانِ محتاجًا لوالدَيْه لفترةٍ طويلة، وحين يصبحُ طفلُ الإنسانِ شابًّا تدبُّ فيه قوةٌ كبيرةٌ بحيث لا يتمكَّنُ أقوى الحيَواناتِ على مواجهتِه، وحين يَشيبُ هذا الشابُّ يتَّجهُ الإنسانُ إلى الضَّعفِ مرةً ثانية.

فإذا تمعَّنّا في هذه الأحوالِ المختلفة في الحياةِ الإنسانيّة وصَلْنا إلى نتيجةٍ مفادُها: أنَّ اللهَ تعالى يَخلُقُ ما يشاء وحين يشاء؛ لأنه لا شيءَ يخفَى على علمِه، ولا شيءَ يَخرُجُ عن إطارِ قُدرتِه.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾

٤٥ ـ حين يُحاسَبُ المجرمونَ يومَ القيامة على حياتِهم الدُّنيويّة فسيَحلِفونَ كذِبًا قائلين: إنّنا لم نلبَثْ في الحياةِ الدُّنيا سوى ساعةٍ، فلماذا نحاسَبُ هذا الحسابَ القاسيَ؟

والحقيقةُ أنّهم يكذِبونَ كذبًا صريحًا بقولِهم عن حياتِهم الطويلةِ التي امتدَّت لستينَ أو لسبعينَ عامًا: إنّها ساعةٌ، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، فلقد كانوا في الدُّنيا يترُكونَ الطريقَ المستقيمَ ويسيرونَ عكسَه، وكانوا يُنكِرونَ الآخرةَ بالرَّغْم من الدَّلائل الواضحة.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

٤٦ ـ سوف تُردُّ الملائكةُ والأنبياءُ والعلماءُ في ذلك الوقتِ على أولئك المجرِمينَ قائلين: إنّكم قضَيْتُم في الدُّنيا وفي القبرِ أيضًا، ومن مولدِكم وحتى حَشْرِكم فترةٌ طويلة، كما أنّكم كنتُم تَسخَرونَ من عقيدةِ الآخِرة، ولهذا شاهِدوا اليومَ بأعيُنِكم، هذا هو يومُ الحَشْرِ الذي كنتُم تُنكِرونَه.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

٤٧ ـ حينَ يَرى الظالمونَ عاقبتَهم السيِّئةَ يومَ الحَشْر سيَصرُخونَ قائلين: لقد أخطَأْنا، ونحن الآنَ نتوبُ، ولهذا نطلُبُ العفوَ والمغفرةَ، أو أن نُمنَحَ فرصةً ثانيةً نعودُ فيها إلى الحياةِ الدنيا، ولن نكونَ من العُصاةِ أبدًا، ولكنّ وقتَ التوبةِ إذ ذاك يكونُ قد فاتَ وانتَهى، ولن يُقبَلَ إذْ ذاك عُذرٌ.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

٤٨ ـ بَيَّن اللهُ تعالى أمثلةً مختلفةً في القرآنِ الكريم تدُلُّ على التوحيدِ والنُّبوّة والآخِرة، ولكنّ كُفّارَ مكّةَ أصابَهم التعصُّبُ والعناد، فإذا أراهم النبيُّ ﷺ معجزةً

لم يقولوا سوى: إنّ هذا سِحرٌ وكذِبٌ وشَعْوذة، والحقيقةُ أنّ عنادَهم وتعصُّبَهم وصَلَفَهم قد بَلَغ المَدى، فهم ليسوا على أيِّ استعدادٍ لسَماع كلمةِ الحقِّ، وكأنَّ اللهَ تعالى قد خَتَم على قلوبِهم، وهم لا يعرِفونَ الحقيقة.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

٤٩ ـ برَغْم دعوةِ النبيِّ ﷺ المخلِصة غايةَ الإخلاص، إلّا أنّ مخالفةَ مشركي مكّةَ له ﷺ ظَلَّتْ في ازدياد، ومَن كانَ يقبَلُ الإسلامَ ضايَقوهُ وأحالوا حياتَه جحيمًا، وعليه، سَرَّى اللهُ تعالى عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنْ لا تحزَنْ ولا تغتَمَّ لإيذائهم، وإنّما واصِلْ دعوتَك إلى الإسلام بصبرٍ وتحمُّل، وقريبًا جدًّا سينتشرُ الإسلامُ تأكيدًا، وهكذا فإنّ التاريخَ شاهدٌ على أنّ وعدَ الله تعالى قد تحقَّق، ورَفْرفَتْ رايةُ الإسلام في سنواتٍ قليلةٍ ليس على مكّةَ فقط، وإنّما على كلِّ العالَم العربي.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا.
بعدَ صلاةِ الظهر من يوم الاثنينِ ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٩م
الموافق ٧ ذي القَعْدة ١٤٣٠هـ

وبفَضْل الله تعالى وكرَمِه اكتَمَل تفسيرُ سُورةِ الرُّوم في أحدَ عشَرَ يومًا: من الخامسَ عشَرَ من شهرِ أكتوبَر حتى السادسِ والعشرينَ من نفسِ الشهر

والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٣١) سُورَةُ لُقمَانَ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «سُورةُ لُقمانَ».

سبب النزول:

يقولُ الدكتورُ وَهْبة الزُّحيلي: «سببُ نزولِها: أنّ قُريشًا سألتِ النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم عن قصّةِ لُقمانَ معَ ابنِه وعن بِرِّه والدَيْه، فنَزَلتْ»[١].

وفي الآياتِ من ١٢ إلى ١٩ ذُكِرت تلك النَّصائحُ التي نَصَح بها الحَكيمُ العربيُّ المشهورُ سيّدُنا لُقمانُ عليه السَّلامُ ابنَه، ولهذا سُمِّيت السُّورةُ باسم «سُورةِ لُقمان».

في بدايةِ السُّورةِ أخبَرنا اللهُ تعالى أنّ القرآنَ الكريمَ هدايةٌ ورحمةٌ لبني الإنسانِ جميعًا، لكنّ الذين يستفيدونَ منه بشكلٍ صحيح هم الصّالحونَ، والذين يُعرِضونَ عن تعاليمِ القرآنِ الكريم لهم عذابٌ أليم.

(١) التفسير المنير.

في هذه السُّورةِ جاء الترغيبُ في حُسنِ معاملةِ الوالدَيْن، والاعتقادُ بالتوحيدِ من خلالِ أمثلةٍ مختلفة، وأن نخشَى من ذلك اليوم الذي لا يستطيعُ الوالدُ أو ابنُه أن يساعدَ أحدُهما الآخَرَ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بيرْزَاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجرِ من يوم الثلاثاء ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٩م
الموافَق ٨ ذي القَعدة ١٤٣٠هـ.

* * *

سُورَةُ لُقْمَان (٣١)،

مكية (٥٧)، آياتها (٣٤)، ركوعاتها (٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿الٓمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، للتعرُّفِ عليها راجعْ تفسيرَ الآية الأُولى من سُورة البقرة.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾

٢ ـ رَغْم أنّ القرآنَ الكريمَ وسيلةٌ لهدايةِ ورحمةِ بني البشَر جميعًا، إلّا أنّ

الذين يستفيدونَ منه هم الصالحونَ، يعني: أنّهم يُقيمونَ الصَّلاةَ، ويؤْتونَ الزَّكاة، ويوقِنونَ بالآخِرة، وقد جاء هنا ذِكرُ ثلاثِ صفاتٍ فقطْ للصّالحين، إقامةُ الصَّلاة وإيتاءُ الزَّكاة والإيمانُ بالآخِرة، وذلك لأنّ هذه الصِّفاتِ الثلاثَ ذاتُ أهميّةٍ أساسيّة، وإلّا فإنّ الصّالحينَ يلتزِمونَ بالفرائضِ والواجباتِ والسُّنَن، بل وبالمستحَبّاتِ أيضًا، وهؤلاءِ هم المفلِحون.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾

٣ ـ نَزَلت هذه الآيةُ في النَّضْرِ بن الحارثِ «كان يَخرُجُ تاجرًا إلى فارسَ فيشتري أخبارَ الأعاجم ويُحدِّثُ بها قُريشًا ويقولُ لهم: إنّ محمدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُحدِّثُكم بحديثِ عادٍ وثَمُودَ، وأنا أُحدِّثُكم بحديثِ رُستمَ وأسفَنْديارَ وأخبارِ الأكاسرة، فيستَمْلِحونَ حديثَه ويترُكونَ استماعَ القرآن، فنَزَلتْ»[١]، كما أنه «كان يشتري المغنِّياتِ فلا يظفَرُ بأحدٍ يريدُ الاسلامَ إلّا انطَلَق به إلى قَيْنتِه فيقول: أطعِميه واسْقِيه وغنِّيه؛ ويقولُ: هذا خيرٌ ممّا يدعوكَ إليه محمدٌ من الصّلاةِ والصيام»[٢]، وهكذا كان النَّضرُ بن الحارثِ يسخَرُ منَ الإسلام، ويعمَلُ جاهدًا على إبعادِ الناس عن الدُّخولِ فيه.

قضية الغناء والعزف:

قال بعضُ أهلِ العِلم في تفسيرِ هذه الآيةِ بتحريم الغناء، يعني: الغناءَ والعَزْفَ؛ لأنه وسيلةٌ للغفلةِ عن ذِكرِ الله تعالى، لكنّ العلّامةَ القُرطُبيُّ يقول: «وهو

---

(١) تفسير روح المعاني وتفسير القرطبي.
(٢) تفسير القرطبي.

الغناءُ المعتادُ عندَ المشتهِرينَ به، الّذي يُحرِّكُ النُّفوسَ ويبعَثُها على الهوى والغَزَل، والمُجونِ الّذي يُحرِّكُ السّاكنَ ويبعَثُ الكامن، فهذا النّوعُ إذا كان في شعرٍ يُشبَّبُ فيه بذِكر النّساءِ ووَصْفِ محاسنِهنَّ وذِكرِ الخمورِ والمحرَّماتِ لا يُختلَفُ في تحريمِه؛ لأنّه اللَّهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتّفاق. فأمّا ما سَلِم من ذلك فيجوزُ القليلُ منه في أوقاتِ الفَرَح، كالعُرسِ والعيدِ وعندَ التّنشيطِ على الأعمالِ الشّاقّة»[١].

الغناء في مناسبة العيد:

تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: دخَل عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ وعندي جاريتانِ تُغنِّيانِ بغناءِ بُعاثَ، فاضْطَجَع على الفراشِ وحوَّلَ وجهَه، ودَخَل أبو بكرٍ فانتَهَرني وقال: مزمارةُ الشّيطانِ عندَ النّبيّ ﷺ؟ فأَقْبلَ عليه رسولُ الله ـ عليه السّلامُ ـ فقال: «دَعْهُما»[٢]، وفي روايةٍ: فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا بكرٍ، إنّ لكلِّ قومٍ عيدًا، وهذا عيدُنا»[٣].

الغناء في مناسبة النكاح:

ـ عن عائشةَ، أنّها زَفَّت امرأةً إلى رجلٍ من الأنصارِ، فقال نبيُّ الله ﷺ: «يا عائشة، ما كان معَكم لهوٌ فإنّ الأنصارَ يُعجِبُهم اللَّهو»[٤].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: أَنْكَحَت عائشةُ ذاتَ قرابةٍ لها من الأنصار، فجاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «أَهْدَيْتُمُ الفتاة؟». قالوا: نعم. قال:

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) البخاري، كتاب العيدين، باب ٢ برقم ٩٤٩.

(٣) البخاري، كتاب العيدين، باب ٣ برقم ٩٥٢.

(٤) البخاري، كتاب النكاح، باب ٦٤ برقم ٥١٦٢.

«أرسلتُم معَها من يُغنِّي؟»، قالت: لا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «إنّ الأنصارَ قومٌ فيهم غَزَلٌ، فلو بعَثْتُم معَها من يقولُ: أتَيْناكُم أتَيْناكم فحيَّانا وحَيَّاكم»[١].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أعلِنوا هذا النِّكاحَ واضرِبوا عليه بالغِربال»[٢].

الغناء في المناسبات السعيدة

ـ يقولُ سيّدُنا البراءُ بنُ عازِب رضي اللهُ عنه: «قَدِمَ النّبيُّ ﷺ، فما رأيتُ أهلَ المدينة فَرِحوا بشيءٍ فَرَحَهم برسولِ الله ﷺ»[٣]، وحينَ دَخَل النبيُّ ﷺ المدينةَ المنوَّرةَ مهاجِرًا إليها امتَلأَتْ شوارعُ المدينة وحَواريها وأسطُحُ منازلِها بالمستقبِلينَ، حيث كان كلٌّ منهم يَرتدي أحسَنَ ما عندَه من ملابسَ، بينَما كان الأحباشُ يحمِلونَ أسلحتَهم، ويَعرِضُونَ فنونَهم الحربيَّةَ، وفي نفسِ الوقتِ كان الخَدَمُ والأطفالُ يهتِفُونَ بما يلي:

ـ اللهُ أكبر جاء رسولُ الله   اللهُ أكبر جـاء محمدٌ[٤].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: لمَّا قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ جَعَل النِّساءُ والصِّبيانُ والولائدُ يقُلْنَ:

طَلَـعَ البـدرُ علينا   مـن ثَنِيّـاتِ الوداعْ
وَجَب الشُّكرُ علينا   مـا دعـا للـهِ داعْ

---

(١) ابن ماجه، أبواب النكاح، باب ٢١ برقم ١٩٠٠.
(٢) ابن ماجه، أبواب النكاح، باب ٢٠ برقم ١٨٩٥.
(٣) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٤٦ برقم ٣٩٢٥.
(٤) سبل الهدي والرشاد، ٣: ٣٨٦، وضياء النبي، ٣: ١١٤.

أيُّهــا المبعوثُ فينا جئتَ بالأمرِ المُطاعْ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ـ ﷺ ـ مَرَّ ببعضِ المدينة فإذا هو بجَوارٍ يضرِبْنَ بدُفِّهِنّ ويتغنَّيْنَ ويقُلنَ:

نحن جَوارٍ من بني النّجّارِ يا حبَّــذا محمّدٌ مــن جارِ

فقال النّبيُّ ﷺ: «يعلَمُ اللهُ إنّي لأُحبّكُنَّ»[٢].

الغناء عند الحرب

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: جَعَل المهاجِرونَ والأنصارُ يحفِرونَ الخَندقَ حولَ المدينة، وينقُلونَ التُّرابَ على مُتونِهم ويقولون:

نحن الّذين بايَعُوا محمّدا على الإسلامِ ما بَقِينا أبدا

والنّبيُّ ﷺ يجيبُهم ويقولُ:

اللّهمّ إنّه لا خيرَ إلّا خيرُ الآخرهْ فبارِكْ في الأنصارِ والمُهاجِرهْ[٣].

يعني: أنّ النبيَّ ﷺ في غزوةِ الخندقِ رَدَّد بنفسِه هذه الأشعارَ، كما رَدَّدَها الصّحابةُ الكرامُ أيضًا رضي الله عنهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

٤ ـ الشخصُ الذي يعتادُ على الغناءِ والعَزْفِ وملَذّاتِه النَّفسيّة واللَّغوِ منَ الحديث، يغفُلُ قلبُه عن ذِكرِ الله تعالى ويَخلو من خشيتِه، فإذا تُلِيت آياتُ القرآنِ

---

(١) السيرة الحلبية، ٢: ٧٤.

(٢) ابن ماجه، أبواب النكاح، باب ٢١ برقم ٨٩٩، ١٨٩٩.

(٣) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٣٤ برقم ٢٨٣٥.

أمامَ مثلِ هذا الشّخص فإنه يُعرِضُ متكّبِرًا كأنه أصمُّ لا يسمَع، والشّخصُ الذي ليس على استعدادٍ لسماع كلام الله تعالى خالقِه ورازقِه ومالكِه، إذا لم يُتْلَ عليه خبرُ عاقبتِه الوخيمة، فماذا يُتلَى عليه إذًا؟

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

٥ ـ من أسبابِ عَدَم الوفاءِ بالوعد: أن يَشعُرَ الإنسانُ بخطأِ الوعدِ الذي وُعِد به، وبأنّ هذا الوعدَ ضارٌّ له، ولهذا فإنه لا يَفي بوعدِه حتى يُنقذَ نفسَه من الضَّرَرِ المحتمَل، والسببُ الثاني هو: أن تَحدُثَ له ظروفٌ اضْطراريّةٌ تُعجزُه عن الوفاءِ بالوعد، أو أن يَعِدَ بشيءٍ أكبرَ منَ استطاعتِه. على أيِّ حال، يُخلفُ الشّخصُ وعدَه لخطأٍ أو ضعفٍ أو اضطرارٍ، لكنّ كلَّ وعدٍ من اللهِ تعالى يكونُ مطابقًا لمقتَضياتِ العقلِ والعدل، وليس فيه أيُّ احتمالٍ لأيِّ ضَرَر؛ لأنه أحكَمُ الحاكِمينَ، ويَعلَمُ تمامَ العِلم عاقبةَ كلِّ شيءٍ ومصيرَه، كما أنه لا يَحُلُّ به ضعفٌ ولا يَحِيْقُ به اضطرارٌ، كما لا يمكنُ لأحدٍ أن يمنعَه مـن الوفـاءِ بالـوعد؛ لأنه هـو القادرُ على كلِّ شيءٍ والغالبُ على الجميع، ولهذا فإنّ ما وَعَد اللهُ تعالى به المؤمنينَ من الجنّة مطابِقٌ تمامًا لحكمتِه، ولا يَخرُجُ عن إطارِ قدرتِه.

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾

٦ ـ هنا دعوةٌ للمشركينَ إلى التوحيدِ بدلائلَ بسيطةٍ سَهْلةِ الفَهْم، يعني: أنّكم ترَوْنَ جيِّدًا أنّ اللهَ تعالى أقامَ السّماءَ بغيرِ عَمَدٍ، وجَعَل في الأرضِ الجبالَ لتحفظَ لها توازنَها، ثم جعلَ في الأرضِ ما لا يُحصَى من البشَرِ وأنواعِ الحيَواناتِ المختلفة، ثم أَنْزلَ من السّماءِ ماءً وأَنْبتَ الزُّروعَ والثمارَ المتنوِّعةَ لغذاءِ الأحياء. كلُّ هذه الأشياءِ خَلَقَها اللهُ تعالى، والآنَ أخبِروني، ماذا خَلَق أولئك الذين تعبدونَهم من دونِ الله؟

واضحٌ أنّ خالقَ كلِّ شيءٍ هو اللهُ تعالى وحدَه، وأنه ـ وحدَه ـ هو المستحِقُّ للعبادة، ولا يستحِقُّها سواه.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾

٧ ـ كان سيّدُنا لقمانُ عليه السَّلامُ من أحباشِ مِصرَ السُّود، وكانت شفَتاهُ غليظتَيْنِ، وقد تَعلَّم العِلمَ من سيّدِنا داودَ عليه السَّلام، وكان قاضيًا في بني إسرائيل، كما كان وليًّا من أولياءِ الله تعالى[1]. يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه: إنه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لم يكنْ لقمانُ نبيًّا ولكنْ كان عبدًا كثيرَ التّفكُّر حَسَنَ اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمَنَّ عليه بالحِكمة»[2]، ويقولُ الإمامُ الخازنُ في تفسيرِ هذه

(١) «كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، كان قاضيًا في بني إسرائيل، إنه كان وليًّا». تفسير القرطبي.

(٢) تفسير القرطبي.

الآية: «واتَّفق العلماءُ على أنه كان حكيمًا ولم يكنْ نبيًّا»[١].

بعض أقوال الحكمة لسيدنا لقمان عليه السلام:

ـ نَقَل ابنُ جَرير، عن عُمرَ بن قَيْس رضي اللهُ عنه، قال: «مرَّ رجُلٌ بلُقمانَ عليه السّلامُ والنّاسُ عندَه فقال: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى، قال: ألستَ الّذي كنتَ ترعى عندَ جبلِ كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما الّذي بَلَغ بك ما أرى؟ قال: تقوى الله وصِدقُ الحديثِ وأداءُ الأمانةِ وطُولُ السُّكوتِ عمّا لا يعنيني»[٢].

ـ يقولُ خالدٌ الرَّبَعيُّ رضي اللهُ عنه: «كان لُقمانُ عبدًا حبشيًّا نَجّارًا، فقال له مولاه: اذبَحْ لنا هذه الشاةَ، فذَبَحَها، قال: أخرِجْ أطيبَ مُضغتَيْنِ فيها، فأَخْرجَ اللِّسانَ والقلب، ثم مَكَث ما شاء الله، ثم قال: اذبَحْ لنا هذه الشاةَ، فذَبَحَها، فقال: أَخْرِجْ أخبَثَ مُضغتَيْنِ فيها، فأَخْرجَ اللِّسانَ والقلبَ، فقال له مَولاه: أمَرتُكَ أن تُخرجَ أطيبَ مُضغتَيْنِ فيها فأخرَجْتَهما، وأمَرتُكَ أن تُخرجَ أخبثَ مُضغتَيْنِ فيها فأَخْرجتَهما، فقال له لقمانُ: إنه ليس من شيءٍ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا»[٣].

ـ نَقَل أبو الجلدِ رضي الله عنه، عن سيّدِنا لقمانَ عليه السَّلام قولَه: «مَن كان له من نفسِه واعظًا كان له من الله حافظًا، ومَن أنصفَ النّاسَ من نفسِه زادَه اللهُ بذلك عزًّا، والذُّلُّ في طاعةِ الله أقربُ من التعزُّزِ بالمعصية»[٤].

ـ قيل لسيّدِنا لقمانَ عليه السَّلام: كم هو قبيحٌ منظرُك! فقال سيّدُنا لقمانُ عليه السَّلام: أتَعيبُ النقْشَ أم النَّقاش[٥]؟

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري.

(٤) تفسير الدر المنثور.

(٥) تفسير تبيان القرآن.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

٨ ـ عندما يشكُر أحدٌ اللهَ تعالى فإنّ شُكرَه هذا لا يُضيفُ إلى عظَمةِ الله شيئًا، وعندَما يجحَدُ أحدٌ نِعَم الله تعالى ولا يشكُرُه فإنّ هذا لا يَنقُصُ في عظَمتِه تعالى شيئًا، إلّا أنّ الشاكرَ ينالُ أَجْرَه، والجاحدَ ينالُ عقابَه، واللهُ تعالى غنيٌّ لا يَحتاجُ إلى شكرِ أحدٍ، والدُّنيا كلُّها في حاجةٍ إليه، وكلُّ ذَرَّةٍ في هذه الكائناتِ ـ باستثناءِ الطُّغاةِ من الإنسِ والجنِّ ـ تُسبِّحُ بحمدِه؛ لأنه يستحِقُّ الحمدَ بكلِّ الاعتبارات.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

٩ ـ كان العرَبُ يحترمونَ سيّدَنا لُقمانَ عليه السَّلام كثيرًا، وكانوا يؤمنونَ بأنه عالِمٌ كبيرٌ بالتاريخ وحَكيمٌ عظيمٌ كذلك، وكان يَستمِعونَ إلى كلامِه المملوءِ حِكمةً بكلِّ تمعُّنٍ وتدبُّر.

والنَّصيحةُ الأُولى التي ذَكَرَها اللهُ تعالى هنا لسيّدِنا لُقمانَ عليه السَّلامُ هي: أن لا تُشرِكْ بالله؛ لأنّ الشِّركَ ظُلمٌ عظيم، والمقصودُ منه: إخبارُ أهلِ الجزيرةِ العربيّةِ أن لُقمانَ الذي تؤمنونَ بأنه حَكيمٌ ومفكِّر، يمنَعُ ابنَه من الشِّرك، ولهذا ينبغي لكم أيضًا أن تَرجِعوا عن شِركِكم، ولكنْ، ما أعجَبَكم من بشَرٍ! إذا نَهى لقمانُ عليه السَّلامُ عن الشِّركِ قُلتُم عنه: حَكيمٌ ومُفكِّر، وإذا نَهاكم عنه سيّدُنا محمدٌ ﷺ قلتُم عنه: ساحرٌ ومجنون، فأيُّ إنصافٍ هذا؟ وقد ذَكَرت كتُبُ التفاسيرِ عدّةَ أسماءٍ لابنِ سيّدِنا لُقمانَ عليه السلام، ومنها اسم: «أَنْعَم»[1].

بعض نصائح سيدنا لقمان عليه السلام لابنه

ـ «أيْ بُنيَّ، إنّ الدّنيا بحرٌ عميق، وقد غَرِقَ فيها ناسٌ كثيرٌ، فاجعَلْ سفينتَك فيها

---

(١) «وقيل: أنعم». روح المعاني.

تقوى الله، وحَشْوَها الإيمانَ بالله، وشِراعَها التّوكُّلَ على الله، لعلّكَ أن تنجوَ، ولا أراك ناجيًا»[١].

ـ «أيْ بُنيَّ، إنّ الحِكمةَ أجلسَتِ المساكينَ مجالسَ الملوك»[٢].

ـ «يا بُنيَّ، جالسِ الصّالحينَ من عبادِ الله، فإنّك تصيبُ بمُجالستِهم خيرًا، ولعلّه أن يكونَ آخرَ ذلك أن تَنزّلَ عليهم الرّحمةُ فتُصيبَك معَهم. يا بُنيَّ، لا تجالسِ الأشرارَ، فإنك لا يُصيبُك من مجالستِهم خيرٌ، ولعلّه أن يكونَ في آخِرِ ذلك أن تَنزِلَ عليهم عقوبةٌ فتصيبَك معَهم»[٣].

ـ «يا بُنيَّ، إذا أردتَ أن تؤاخيَ رجلًا فأغضِبْه قبلَ ذلك، فإنْ أنصَفَك عند غضَبِه وإلّا فاحذَرْه»[٤].

ـ «يا بُنيَّ، لا تؤخِّر التّوبةَ، فإنّ الموتَ يأتي بَغْتةً»[٥].

ـ «يا بُنيَّ، لا تكونَنَّ أعجزَ من هذا الدِّيكِ الّذي يُصوِّتُ بالأسحارِ وأنت نائمٌ على فراشِك»[٦].

ـ «يا بُنيَّ، لا تكنْ حُلوًا فتُبلَع ولا مُرًّا فتُلفَظ»[٧].

ـ «مَن كَذَب ذَهَب ماءُ وجهِه، ومن ساء خُلُقُه كثُرَ غمُّه، ونَقْلُ الصُّخورِ من مواضعِها أيسَرُ من إفهامِ مَن لا يفهَم»[٨].

---

(١) الدر المنثور، وأخرجه أحمد عن سفيان رضي الله عنه عمن أخبره.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق، ورواه عثمان بن زائدة.
(٦) المرجع السابق، ورواه الحسن رضي الله عنه.
(٧) المرجع السابق، ورواه الحسن رضي الله عنه.
(٨) المرجع السابق، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن وهب بن منبه رضي الله عنه.

ـ عن أبي أُمامةَ رضيَ اللهُ تعالى عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ لُقمانَ عليه السّلامُ قال لابنِه: يا بُنيَّ، عليكَ بمجالسِ العلماء، واستمِعْ كلامَ الحُكماء، فإنّ اللهَ يحيي القلبَ الميِّتَ بنُورِ الحِكمة كما تَحيا الأرضُ المَيْتةُ بوابِلِ المطر»[1].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾

١٠ ـ في الآيةِ السّابقة نَصَح سيّدُنا لُقمانُ عليه السَّلامُ ابنَه أنْ لا يُشركَ بالله، لأنّ الشِّركَ ذنبٌ عظيمٌ، وفي هاتَيْنِ الآيتَيْنِ نَصَح اللهُ تعالى الأولادَ أن يهتَمُّوا اهتمامًا كبيرًا بوالدَيْهِم بعد توحيدِ الله عزَّ وجل، وأن يشكروهما معَ شكرِه تعالى.

يقولُ سُفيانُ بن عُيَيْنَةَ رضي اللهُ عنه: «مَن صَلّى الصَّلواتِ الخمسَ فقد شكَر اللهَ تعالى، ومَن دعا لوالدَيْه في أدبارِ الصَّلواتِ فقد شكَرَهما»[2]. ولمزيدٍ من التفصيل عن حُسن معاملةِ الوالدَيْنِ راجعِ الحاشيةَ رقم ٥١ للآية رقم ٣٦ من سُورة النساء (٤)، والحاشيةَ رقم ٢٣ للآية ٢٣ من سُورة الإسراء (١٧)، والحاشيةَ رقم ٧ للآية رقم ٨ من سُورة العنكبوت (٢٩).

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾

١١ ـ إنّ دَوْرَ الوالدَيْنِ في تربيةِ الأولاد وتعليمِهم في غايةِ الأهميَّة، ولهذا يستحِقُّ الوالدانِ حُسنَ المعاملةَ من الأولاد، ولكنّ الأُمَّ على وَجْهِ الخصُوص هي الأكثرُ استحقاقًا لهذا؛ لأنّها تَحمِلُ ولدَها في بطنِها تسعةَ أشهر، ثم تمرُّ بآلام الوَضْع، وتَظلُّ تُرضِعُ مولودَها لفترة، في حينَ أنّ الأبَ لا علاقةَ له بكلِّ هذه المراحل الصَّعبة، وربّما ـ لهذا السَّبب ـ أَخْبَر النبيُّ ﷺ أنّ فَضْلَ الأُمِّ يزيدُ ثلاثَ درجاتٍ عن الأب:

---

(١) الدر المنثور، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن وهب بن منبه رضي الله عنه..

(٢) تفسير القرطبي.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: جاء رجلٌ الى رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم فقال: يا رسولَ الله! مَن أحَقُّ بحُسنِ صحابتي؟

قال: «أُمُّك».

قال: [ثمّ] مَن؟

قال: «[ثمّ] أُمُّك».

قال: ثمّ مَن؟

قال: «[ثُمّ] أُمُّك».

قال: ثمّ مَن؟

قال: «ثمّ أبوك»(١).

ـ عن سيّدِنا ابن عَبّاس رضي اللهُ عنه، أنّ رجُلًا أتَى النّبيَّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلّم، فقال: إنّي نَذَرتُ إنْ فَتَح اللهُ عزَّ وجلّ عليك مكَّةَ أن آتيَ البيتَ فأُقبّلَ أسفلَ الأُسكُفة، فقال: «قبِّلْ قدمَيْ أُمِّك وقد وفَّيتَ نذْرَك»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الجنّةُ تحتَ أقدام الأُمّهات»(٣).

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِى وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَىَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

١٢ ـ لبَنُ الأمِّ:

أكثرُ مَن لهُ الحقُّ في لبَنِ الأُمِّ هو مولودُها الصَّغير، وأكثرُ مَن تستحِقُّ أن

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٢ برقم ٥٩٧١.

(٢) عمدة القارئ، كتاب الأدب، باب ٢، ٢٢: ٨٢.

(٣) كنز العمال، ١٦: ٤٦١ برقم ٤٥٤٣٩.

تُرضعَ المولودَ الصَّغيرَ هي أُمُّه، وإرضاعُ الطِّفل داخلٌ في فِطرةِ كلِّ أُمٍّ وفي طبيعتِها ومِزاجِها، وهذه الفِطرةُ موجودةٌ حتى في الحيَوانات، وبسببِها تُرضعُ الحيَواناتُ صِغارَها من ألبانِها وتَشعُرُ في ذلك بسَكينةٍ وطُمَأْنينة.

الحكمة في لبن الأم:

١ ـ لبَنُ الأُمِّ خالٍ تمامًا من الجراثيم، ولهذا لا يكونُ سببًا في أيِّ مرض؛ لأنه يَدخُلُ من صَدْرِ الأُمِّ إلى جَوْفِ الطِّفل مباشرةً، بينَما يمُرُّ لبَنُ البقرِ أو الماعزِ بعدّةِ مراحلَ، ويتنقلُ بينَ عدّةِ آنيةٍ، ويمكنُ أن تصيبَه الجراثيمُ في أيِّ مرحلةٍ من هذه المراحل، مما قد يجعَلُه مُضِرًّا بصحةِ الطِّفل.

٢ ـ لبَنُ الأُمِّ يكونُ معتدِلًا في درجةِ حرارتِه، فلا هو بالباردِ ولا هو بالساخن، وإنما يتناسَبُ تمامًا معَ مِزاجِ الطِّفل، بينَما تقومُ الأُمُّ بتسخينِ لبنِ البقرِ أو الغنم، مما قد يجعَلُه مُضِرًّا بصحةِ الطِّفل إذا ما حَدَث خَلَلٌ في درجةِ حرارتِه.

٣ ـ الأُمُّ التي تُرضعُ صغيرَها من لبَنِها تَقِلُّ نسبةُ إصابتِها بسرطانِ الثدي، وتزدادُ هذه النِّسبةُ عندَ الأُمّهاتِ اللاتي لا يُرضِعْنَ أطفالَهنَّ من لبَنِهنَّ.

٤ ـ لبَنُ الأُمِّ هو أفضَلُ غذاءٍ للمولودِ الصغير، ففيه كلُّ العناصرِ التي يحتاجُها الطِّفلُ حديثُ الوِلادة، ولا يمكنُ أن يكونَ أيُّ لبَنٍ صناعيٍّ بديلًا عن لبَنِ الأُم.

٥ ـ الأُمّهاتُ لا يُوفِّرنَ لأطفالِهنَّ عن طريقِ إرضاعِهنَّ الغذاءَ الجَسَديَّ فقطْ، وإنّما يَنقُلْنَ إليهم أيضًا التقاليدَ الوطنيّةَ والأخلاقيّاتِ والعاداتِ الطيِّبةَ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «حقُّ الولدِ على والدِه أن يُحسِنَ اسمَه ويُحسِنَ مُرضعَه ويُحسِنَ أدبَه، فإنّه مسئولٌ عنه يومَ القيامة ومؤاخَذٌ بالتّقصيرِ فيه»[1]؛ لأنّ الأخلاقَ

---

(١) روح البيان، سورة البقرة (٢): الآية ١٠٨.

الطيِّبَة للأُمِّ تنتقلُ إلى الطِّفلِ عن طريقِ اللَّبَن، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «الرَّضَاعُ يغيِّرالطِّباع»(١)، ونحن في أيامِنا هذه نشكو من أنّ أجيالَنا الجديدةَ تبتعدُ شيئًا فشيئًا عن تقاليدِنا الوطنيَّةِ وأخلاقيّاتِنا الأُسَريّة وعاداتِنا الطيِّبة، ومن بينِ أسبابِ هذا كلِّه أنّ الأُمّهاتِ تَركْنَ إرضاعَ أطفالِهنَّ من لبَنِهنَّ، والبيتُ التالي للشاعر أكبرَ إله آبادِي يعكسُ هذا الأمرَ. يقول:

ـ ماذا يرِثُ الطفلُ من عاداتِ أُمِّه وأبيه، فاللَّبَنُ صناعيٌّ مُعَلَّبٌ، والتعليمُ حكوميٌّ.

مدة إرضاع الطفل:

حقُّ الطِّفل أن يتمَّ إرضاعُه لعامَيْنِ مثلَما قال القرآنُ الكريم: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والإسلامُ لا يُحبّذُ فِطامَ الطفلِ قبلَ عامَيْن، ولهذا قرَّر سيّدُنا عُمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه مِنحةً للأطفالِ منذُ ولادتِهم، حتى لا تلجَأَ أمٌّ إلى فِطامِ طفلِها قبلَ مرورِ عامَيْنِ طمَعًا في المِنحة، وتفصيلُ ذلك فيما يلي:

منحة المولود حديث الولادة:

يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي الله عنه: «قَدِمَتْ رُفقةٌ من التُّجّار، فنَزَلوا المصَلَّى، فقال عُمرُ لعبدِ الرّحمن بن عَوْفٍ: هل لكَ أن نَحرُسَهمُ اللّيلةَ من السَّرِق؟ فباتا يَحرُسانِهم ويُصلِّيانِ ما كتَب اللهُ لهما، فسَمع عُمرُ بكاءَ صبيٍّ، فتوجَّه نحوَه، فقال لأُمِّه: اتَّقي اللهَ وأَحسِني إلى صبيِّك، ثمّ عاد إلى مكانِه، فسَمِع بكاءَه، فعاد إلى أُمِّه فقال لها مِثلَ ذلك، ثمّ عاد إلى مكانِه، فلمّا كان في آخِرِ اللّيل سَمِع بكاءه فأتَى

(١) روح البيان، سورة الأنعام (٦): الآية ١٥٠.

أُمَّه فقال: وَيْحَكِ! إنّي لَأراكِ أُمَّ سُوءٍ، ما لي أرى ابنَكِ لا يقَرُّ منذُ اللّيلة؟ قالت: يا عبدَ الله، قد أَبْرَمْتَني منذُ اللّيلة، إنّي أُريغُه عن الفِطام فيأبَى، قال: ولِمَ؟ قالت: لأنّ عُمرَ لا يَفرِضُ إلّا للفَطْم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: وَيْحَكِ! لا تَعجَليه، فصلّى الفجرَ وما يَستبينُ النّاسُ قراءتَه من غَلَبَةِ البكاء، فلمّا سَلَّم قال: يا بؤسًا لعُمر! كم قَتَل من أولادِ المسلمين، ثمّ أَمَر مُناديًا فنادى: ألَا لا تَعجَلوا صِبيانَكم عن الفِطام، فإنّا نَفرِضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام، وكَتَب بذلك إلى الآفاق: إنّا نَفرِضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام»[1].

وهكذا كان سيّدُنا عُمرُ بن الخطابِ رضي الله عنهُ أولَ حاكمٍ في تاريخ الإنسانيَّة يقومُ بإجراءِ فَرْض حكوميٍّ للطفلِ منذُ ولادتِه، ولكنْ للأسفِ الشّديد الأطفالُ الفقراءُ في العالَم الإسلاميِّ اليومَ محرومونَ من هذه النِّعمة، بينَما يستفيدُ منها الأطفالُ الأغنياءُ في العالَم غيرِ الإسلاميِّ.

منظمة الصحة العالمية:

منظّمةُ الصحةِ العالَميّة إحدى هيئاتِ الأُمم المتَّحدة الخاصّةِ بالصِّحة، وقد أُسِّست هذه المنظَّمةُ في السابع من أبريلَ عام ١٩٤٨م، وقد جاء بيانُ الهدفِ من إنشاءِ هذه المنظَّمة في ميثاقِها أن يتيسَّرَ لكلِّ أفرادِ العالَم مستوًى مرتفعٌ من الصحة، وطبقًا لدستورِ المنظَّمةِ فإنّ تعريفَ الصِّحة ليس أن لا يكونَ الإنسانُ ضعيفًا أو مريضًا فقطْ، وإنما يَحُضُّ على الرِّعايةِ البَدنيّة والذِّهنيّة والاجتماعيَّة بشكلٍ كامل، وهذه المنظَّمةُ تَتْبَعُ جمعيّةَ الصِّحةِ العالميَّة التي تَضُمُّ في عُضويَّتِها ١٩٢ دولةً.

---

(١) الطبقات لابن سعد، ٣: ٢٨٠، وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ٦٢، والفاروق عمر لمحمد حسين هيكل، ٢: ١٩٥، والمصنف لعبد الرزاق، ٥: ٣١١ برقم ٩٧١٧، والفاروق للعلامة شبلي النعماني، ٣٣٠.

طبقًا لتقرير منظمة الصحة العالمية الصادر في ٢٠٠٢م

ـ «لبَنُ الأُمِّ يهيِّئُ أفضَلَ غذاءٍ لنموِّ الطفل، كما أنه يُهيِّئُ أيضًا وفي نفس الوقت فوائدَ غذائيّةً متنوِّعةً تناسبُ تمامًا احتياجاتِ الطِّفل المتنوِّعة، ولَبَنُ الأُمِّ يحتوي على غذاءٍ مُقَوٍّ ومقدارٍ مناسبٍ من المعادِن في السِّتّةِ أشهرِ الأُولى من حياة الطِّفل، إذا يتميَّزُ هذا اللبَنُ بعناصرَ تزيدُ المناعةَ وتقوِّي الحمايةَ للطِّفل، وتحميهِ من أنواع البكتيريا المختلفةِ ومن الجراثيم الطُّفَيْليّة والمُعْدِيَة، والعناصرُ المكوِّنةُ لهذا اللَّبَنِ تزيدُ في النموِّ المناسبِ لنظام الدِّفاع الذاتيِّ لدى الطِّفل، ولهذا فإنه بناءً على الأدِلّة المتوفِّرة تنصَحُ منظَّمةُ الصِّحةِ العالَميّة بأنْ لا يُزاحِمَ أيُّ غذاءٍ آخَرَ لبَنَ الأُمِّ في تغذيةِ الطِّفل في الشهورِ السِّتّةِ الأولى من عمُرِه، وأن يستمرَّ هذا الحالُ لعامَيْنِ كاملَيْن، ومعنَى أن يكونَ لبَنُ الأُمِّ هو الغذاءَ الوحيدَ هو أنْ لا يُقدَّمَ للطِّفلِ أيُّ طعام أو شرابٍ آخَرَ سوى هذا اللبَن، وبشكلٍ عامّ فإنّ لبنَ الأُمِّ في كلِّ حال هو الأسهَلُ والأكثرُ صحةً والأرخَصُ في نفسِ الوقت، ويناسبُ الاحتياجاتِ الغذائيّةَ الضَّروريّةَ للطِّفل تمامًا.

ـ إنّ تقليلَ كميّةِ لبَنِ الأُمِّ المعطاةِ للطفل، وخاصّةً في الستةِ أشهرِ الأولى التي لا يشارِكُ لبنَ الأُمِّ فيها غذاءٌ آخَرُ، يَحمِلُ في طيّاتِه أخطارًا تسبِّبُ وَفَياتٍ وأمراضًا للأطفال، وخاصّةً في الدولِ النامية، حيث يؤدِّي إلى إصابةِ الأطفال بالإسهالِ وبأمراضِ الجهازِ التنفُّسيِّ، كما ثَبَت أيضًا أنّ لبَنَ الأُمِّ يلعبُ دورًا هامًّا في تطوُّرِ الجهازِ العصَبيِّ لدى الأطفال، وخصوصًا أولئكَ الأطفالَ الذين وُلدوا قبلَ إتمام تسعةِ أشهر، أو ذوي الوزنِ الثَّقيل أو ناقصي الوزن، أمثالُ هؤلاء يكونُ لبَنُ الأُمِّ بالنسبةِ لنموِّ جهازِهم العصبيِّ غايةً في الأهميّة»[١].

---

(١) (WHO **2002** p **56**- lack of Breast-feeding).

وهنا أمرٌ يستحِقُّ التمعُّنَ: أنّ منظّمةَ الصّحةِ العالميّة قد أَوْصَت عام ٢٠٠٢م بعدَ سنواتٍ من البحثِ بأنّ لبَنَ الأُمِّ ضروريٌّ للطفلِ حتى عُمُرِ سنتَيْنِ، في حينَ أنّ القرآنَ الكريم قد أعلَن قبل ١٤٠٠ عام:

١ ـ ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

٢ ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ الإسلامَ هو دينُ الفِطرة، وأنّ القرآنَ الكريمَ هو كلامُ الله تعالى.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

١٣ ـ الوالدانِ يستحِقّانِ كلَّ احترام وتقدير، وحقُّهما على أولادِهما عظيمٌ، لكنّ حقَّ الله تعالى مقدَّمٌ على كلِّ حقّ، ولهذا لو أمَرَ الوالدانِ أولادَهما بالشركِ بالله تعالى فلا تجوزُ طاعتُهما، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «لا طاعةَ في معصيةٍ، إنّما الطّاعةُ في المعروف»(١)، يعني: أن تكونَ الطاعةُ ويكونَ التقليدُ لأولئك الذين يكونُ هواهم تِبْعًا لحُكم الله تعالى، سواءٌ كانوا والدَيْن أم غيرَهما، إذ إنّ الجميع سيعودونَ إلى اللهِ تعالى في النِّهاية، ومَن يعصي اللهَ تعالى فبأيِّ وجهٍ سيقابلُه عزَّ وجلَّ يومَ القيامة؟

ويُعلَمُ من هذه الآية أنه إذا أمَرَ الوالدانِ أولادَهما بمعصيةِ الله تعالى فلا تنبغي طاعتُهما، ولكنْ بالرَّغم من ذلك ينبغي أن يواصِلَ الأولادُ حُسنَ معاملتِهما في الدنيا، مثلَما يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثٌ ليس لأحدٍ من النّاس فيهنَّ رُخصةٌ:

---

(١) سبق تخريجه.

ـ بِرُّ الوالدَيْنِ مسلمًا كان أو كافرًا.

ـ والوفاءُ بالعهدِ لمسلمٍ كان أو كافرًا.

ـ وأداءُ الأمانةِ إلى مسلمٍ كان أو كافرًا»[1].

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

١٤ ـ جاءت آيتانِ في الوسَطِ هكذا بمثابةِ الجُملةِ الاعتراضيَّة (يعني: الآيةَ رقم ١٤ والآيةَ رقم ١٥) بيَّنتا حُسنَ المعاملةِ للوالدَيْنِ، ثم يبدَأُ من هنا بيانُ نصائحَ سيّدِنا لُقمانَ عليه السلام.

حَبّةُ الخَرْدَل صغيرةٌ وعاديّةٌ بحيث لا تَشعُرُ بوزنِها، ولا تَراها على مسافةِ أمتارٍ قليلة، ويعني هذا أنّ الحسَنةَ البسيطةَ أو السيِّئةَ البسيطةَ لوِ ارتكبَها الإنسانُ مختبئًا وراءَ صخرةٍ أو في عِنان السّماءِ أو حتى في باطنِ الأرض فإنّها لا تَخفَى على الله تعالى، وسوف يكشِفُها اللهُ تعالى يومَ القيامة أمامَ الناس جميعًا، وسيكونُ العقابُ والثوابُ طِبقًا لها، مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

١٥ ـ حينَ يتقدَّمُ أحدٌ إلى ميدانِ العمَل، ويأمُرُ الناسَ بالعمَل الصّالح، وينهاهُم عن المنكَر، فإنّ كلَّ قُوى الباطلِ تجتمعُ ضدَّه وتقفُ في مواجهتِه بكلِّ

---

(١) كنز العمال، ١٦: ٢٨ برقم ٤٣٧٩١، وجمع الجوامع، ٤: ١٣٤ برقم ١٠٧٦٠.

قوة، وتَستخدِمُ كلَّ الأسلحةِ المتاحةِ لكي تُفشِلَه، ولهذا بُنَيَّ الحَبيبُ، لا يَحزَنْ قلبُك للمصاعبِ التي تُواجِهُك في أداءِ هذه الفريضة، وإنما عليك بالصَّبرِ عليها، وأن تُواصلَ مهمّتَك بكلِّ ثباتٍ واستقلال، والمؤكَّدُ أنّ هذا عمَلٌ يحتاجُ إلى همةٍ عاليةٍ وصبرٍ عظيم، ولهذا فإنّ أجرَه وثوابَه عظيمٌ أيضًا.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

١٦ ـ بُنيَّ الحبيبُ، لا تحتقرِ الناسَ ولا تُعرِضْ عنهم، ولا تمشِ في الأرضِ متكبِّرًا مغرورًا؛ لأنّ الله تعالى لا يحبُّ المتكبِّرين، مثلَما قال النبيُّ الكريم ﷺ: «لا يدخُلُ الجنّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ من كِبْرٍ»، قال رجلٌ: إنّ الرّجُلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسَنًا ونَعلُه حسَنةً، قال: «إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمَالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ النّاس»[1].

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

١٧ ـ بُنَيَّ الحَبيبُ، عندَما تمشي على الأرضِ فلا تكنْ مِشيتُك بطيئةً كمشيةِ المرضَى، ولا تَسِرْ مُهرولًا كالمجرِمين، وإنّما عليك أن تمشيَ مِشيةً متوسِّطةً يملأُها الوقار، وحين تتحدَّثُ فلا تَصرُخْ بصوتٍ عالٍ كالحمير، ممّا يؤذيكَ أنت ولا يَقبَلُه مَن يستمعُ إليك أيضًا، وإنّما عليك أن تتحدَّث بصوتٍ يَستسيغُه مَن يسمَعُك.

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٣٩ برقم ١٤٧.

وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾

١٨ ـ سَخَّر اللهُ تعالى الأرضَ والسَّماءَ وكلَّ ما فيهما للإنسان، بمعنى: أنه جَعَل الشمسَ والقمرَ وغيرَهما تسيرُ على نظام معيَّن بحيث يستفيدُ منها الإنسانُ بشكلٍ غيرِ مباشر، وجَعَل الأرضَ والمواشيَ والأنعامَ تابعةً للإنسانِ بشكلٍ مباشر، يستطيعُ أن يستفيدَ منها الإنسانُ كما يشاء.

كما أنّ اللهَ تعالى أَنْعم على الإنسانِ بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى من النِّعَم الظاهرةِ مثلَ: اليدِ والقَدَم وغيرِهما، والنِّعَم الباطنةِ مثلَ: القلبِ والعقل، وهو ما كان سببًا في أنّ الإنسانَ يَحكُمُ أشياءَ كثيرةً بينَ السّماءِ والأرض، والتمعُّنُ والتفكُّرُ في هذه النِّعم يُمكِّنُ الإنسانَ إلى أن يَصِلَ بسهولةٍ إلى نتيجةٍ مفادُها أنّ الذاتَ التي خَلَقتْ هذه النِّعَمَ التي لا تُحصَى للإنسان هي ذاتٌ واحدة، وهي التي تستحقُّ العبادةَ لا غيرُها، لكنّ المشرِكينَ بالرَّغْم من ذلك يجادلونَ في وجودِ الله تعالى

وتوحيدِه، معَ أنه ليس لديهِم أيُّ دليلٍ عِلميٍّ على ذلك، ولا هدايةٌ عَقْليّة، ولا حتى أيُّ دليلٍ من كتابٍ سَماويٍّ يمكنُ أن يُثبتَ شِركَهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

١٩ ـ هنا دعوةٌ لمشركي مكّةَ بأنّكم لا تملِكونَ أيَّ دليلٍ على شركِكم، ولهذا عليكم أن تتَّبِعوا القرآنَ المَجِيد؛ لأنّ اللهَ تعالى هو الذي أنزَلَه، ولكنّكم بناءً على تعصُّبِكم وعنادِكم الفارغ فقطْ تقولونَ: إنّنا سنفعَلُ ما كان يفعَلُه آباؤنا وأجدادُنا. لكنّ هؤلاءِ لا يفكِّرونَ أنه إذا كان الشّيطانُ يأخُذ آباءَ أحدٍ وأجدادَه إلى جهنَّم، فهل يُصِرُّ هو الآخَرُ على أن يسيرَ وراءهم حتى يدخُلَ جهنَّمَ هو الآخَر؟

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

٢٠ ـ الذي يخضَعُ لله تعالى ويُسلِّمُ له، ويكونُ من الصّالحينَ بإخلاصٍ كامل، فقد ألحَقَ نفسَه بالقافلةِ التي سيُنعِمُ اللهُ تعالى عليها بأجرٍ عظيم.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

٢١ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتمَّ على كُفرِ أولئكَ الذين لا يقبَلونَ الإسلامَ برَغْم دعوتِك لهم، فالحقيقةُ أنّ قلوبَهم مُصابةٌ بمرضِ التعصُّب، وهو الذي يجعَلُهم متمسِّكينَ بالكُفر، وحينَ يمثُلونَ في حضرتِنا يومَ القيامة سنكشِفُ كلَّ ما كانوا يُخفُونَ من مؤامراتٍ في قلوبِهم.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

٢٢ ـ إلى متى يَستمتعُ بنِعَم هذه الحياةِ الفانيةِ أولئك الذين يُنكِرونَ توحيدَ الله

عزَّ وجل؟ إنّهم سيموتونَ في نهايةِ الأمر، وسيُحاسَبونَ على كُفرِهم، وسوف تُفتَحُ عيونُهم على الحقيقةِ حين يُسحَبونَ على وجوهِهم ويُلقَى بهم في جهنَّم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٢٣ ـ لئن سألتَ مشركي مكّةَ هل خَلَقتْ آلهتُكم ـ التي صنَعتُموها أنتمُ اليومَ، والتي ستفنَى غدًا ـ هذا النِّظامَ للسّماءِ والأرض، والذي يعمَلُ منذُ عشَراتِ الملايينِ من السِّنين؟ أم أنَّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَها، وهو الحيُّ منذُ الأزَلِ وإلى الأبد؟ وعندئذٍ لن يكونَ أمامَهم سوى الاعترافِ بأنّ اللهَ تعالى وحدَه هو خالقُ السّماءِ والأرض.

الحمدُ لله تعالى أنّ المشركينَ اعتَرفوا رَغْمًا عنهم بأنّ خالقَ السّماءِ والأرضِ هو اللهُ تعالى، والآنَ بعدَ هذا الاعترافِ ينبغي لهم أن يؤمنوا بوَحْدانيّةِ الله تعالى، لكنّ أكثرَ هؤلاءِ لا يَعرِفونَ هذه الحقيقةَ.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

٢٤ ـ خالقُ السّماواتِ والأرضِ هو اللهُ تعالى، وهو أيضًا خالقُ كلِّ ما هو موجودٌ فيها، ولهذا فهو الذي تَليقُ العبادةُ به، وهو المستغني، يعني: أنّ الدُّنيا كلَّها محتاجةٌ إليه، وهو ليس في حاجةٍ إلى أحدٍ، ولهذا فهو الذي يستحِقُّ كلَّ حمدٍ وثناء.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

٢٥ ـ لو صُنِعت أشجارُ الأرضِ كلُّها أقلامًا، ولو جُعِلت مياهُ الأرضِ كلُّها حِبرًا ومِدادًا، ومِثلُها معَها سبعةُ أبحارٍ أخرى، وأخَذ كلُّ الخلقِ يكتُبونَ بهذه الأقلام، فإنه لن يكونَ من الممكنِ تدوينُ أوصافِ الله تعالى وكمالاتِه؛ لأنّ مياهَ البحارِ

مهما كانت كثيرةً ووفيرةً، فهِيَ - على أيِّ حال - محدودةٌ، وأوصافُ اللهِ تعالى وكمالاتُه لا حدودَ لها، ولهذا ليس في مقدورِ مخلوقٍ محدودٍ أن يُحيطَ بكلماتٍ غيرِ محدودة.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولو اجتَمَع بنو الإنسانِ جميعًا لن يستطيعوا إحصاءَ حتّى النِّعَم التي أَنْعم اللهُ بها على الإنسان، فكيف يحصُونَ كلَّ النِّعَم التي أَنْعم بها على المخلوقاتِ كلِّها، وكيف يُحيطونَ بصفاتِ الله تعالى؟ وما أحسَنَ ما قاله الشاعر:

- انتهتِ الحيَواتُ، وتحطَّمتِ الأقلامُ، ولم ينتهِ بعدُ بابٌ واحدٌ من أوصافِك.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾

٢٦ - مثلَما أنّ سَماعَ دعاءِ إنسانٍ واحدٍ أو سَماعَ دعاءِ المخلوقاتِ كلِّها في وقتٍ واحد، ورؤيةَ شيءٍ واحدٍ أو رؤيةَ كلِّ الأشياءِ في الكائناتِ كلِّها في وقتٍ واحدٍ سِيّانِ بالنِّسبةِ لله تعالى، كذلك فإنّ خَلْقَ إنسانٍ واحدٍ وإماتَته ثم إحياءه من جديدٍ، أو خَلْقَ المخلوقاتِ كلِّها وإماتَتها ثم إحياءها من جديدٍ بالنّسبةِ له عزَّ وجلَّ سِيّانِ أيضًا؛ لأنّه القادرُ المطلَق، وحين يريدُ خَلْقَ شيءٍ - صغيرًا كان أم كبيرًا - أو خَلْقَ أشياءَ لا حصرَ لها، فإنه تعالى لا يحتاجُ إلى وقتٍ أو مادّةٍ لِيخلُقَ منها، وإنّما هو يريدُ فقطْ، وعندَها يظهَرُ إلى عالَم الوجودِ ما يريدُ، مثلَما سُئل سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: كيف يُحاسبُ ربُّنا الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد؟ قال الإمامُ عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: كما يَرزقُهم في وقتٍ واحدٍ يُحاسبُهم في وقتٍ واحد[1].

---

(١) تفسير الشعراوي، سورة الأنعام (٦): الآية ٦٢.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

٢٧ ـ يُنقِصُ اللهُ تعالى جزءًا من اللَّيل في أيام الصَّيف ويُطيلُ النهارَ، ويُنقِصُ جزءًا من النهارِ في أيام الشِّتاء ويُطيلُ اللَّيل، وهكذا يتعاقَبُ اللّيلُ والنهارُ طبقًا لأُصولٍ منضبِطةٍ تمامًا.

كما أنّه تعالى جَعَل الشمسَ والقمرَ يدُورانِ في مداراتٍ محدَّدةٍ لكي تفيدَكم، والهدفُ من التذكيرِ بكلِّ هذه الأمورِ أن يُحاولَ المشركونَ فَهْمَ أنّ اللهَ تعالى واحدٌ، وهو ـ وحدَه ـ خالقُ اللّيلِ والنَّهارِ والشمسِ والقمرِ ومالكُها جميعًا، وهو وحدَه أيضًا الذي تَليقُ به العبادةُ، وأمّا ما تعبدونَ من دونِه فهو الباطلُ، ولا تليقُ العبادةُ بها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

٢٨ ـ لو أنّ اللهَ تعالى جَعَل مياهَ البحارِ في حالةِ هَيَجانٍ طُولَ الوقت لَأصبح إبحارُ السُّفُنِ فيها في غايةِ الصُّعوبة، لكنّ اللهَ تعالى من فضلِه وكرَمِه أنْ جَعَلَ

المياهَ في مستوًى مناسبٍ بحيثُ تستطيعُ السُّفُنُ السَّيرَ فوقَ سطحِها، ومعَ ذلك فإنّ اللهَ تعالى ـ في بعضِ الأحيان ـ يجعَلُ الأمواجَ هادرةً والبحارَ هائجةً بقَصْدِ إظهارِ آياتِ قُدرتِه، فإذا ما ترنَّحتِ السُّفنُ بينَ هذه الأمواج الطُّوفانيّة ذَكَر الناسُ اللهَ تعالى بكلِّ صبر، وعندما يَصِلونَ إلى هدَفِهم المنشودِ بسلامٍ شَكَروه جَلَّ وعلا.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

٢٩ ـ إذا أحاطَتِ الأمواجُ العاليةُ الهادرةُ بالمشركينَ حالَ سَفَرِهم في السُّفُن، وأخَذت هذه السُّفنُ في الترنُّح يَمْنةً ويَسْرةً، فإنّهم يَدْعونَ اللهَ تعالى مخلِصين، ويعاهدونَه بأنّهم لن يشركوا به أبدًا إذا أَنْجاهم من هذا الطُّوفان، ولكنْ حين يُبلِّغُهم اللهُ تعالى إلى البرِّ سالمينَ، ترى قليلًا من هؤلاءِ هم الذين يَثْبُتونَ على وَعْدِهم وعهدِهم، بينَما تَرى أكثرَهم لا يُوفونَ وعدَهم وعهدَهم، ويجحَدونَ اللهَ تعالى ويكفُرونَ به.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

٣٠ ـ يا أيُّها الناسُ، اتَّقوا يومَ القيامة، حينَ لا يكونُ الأبُ مستعِدًّا لأنْ يَحمِلَ عن ابنِه أثقالَه، ولا يكونُ الابنُ هو الآخَرُ مستعدًّا لذلك، والساعةُ آتيةٌ لا مَحالةَ، ولهذا ينبغي لكم أن تتَّقوا اللهَ تعالى، ولا تَنخدِعوا بزُخرُفِ الدنيا ولا بما يُزيِّنُه لكمُ الشيطان.

يقولُ سيّدُنا عِكرِمةُ رضيَ الله عنه: «وإنّ الرّجُلَ لَيأتي إلى أبيه يومَ القيامة فيقول: ألم أكنْ بكَ بارًّا، وعليكَ مُشفِقًا، وإليكَ مُحسِنًا، وأنت ترى ما أنا فيه،

فهَبْ لي حسَنةً من حسَناتِك، أوِ احمِلْ عنّي سيّئةً، فيقولُ: إنّ الّذي سألتَني يسيرٌ، ولكنّي أخافُ مِثلَ ما تخاف. وإنّ الأبَ لَيقولُ لابنِه مِثلَ ذلك فيرُدُّ عليه نحوًا من هذا. وإنّ الرّجُلَ لَيقولُ لزوجتِه: ألم أكنْ أُحسِنُ العِشْرةَ لكِ، فاحمِلي عنّي خطيئةً لعلّي أنجو، فتقولُ: إنّ ذلك لَيسيرٌ، ولكنّي أخافُ ممّا تخافُ منه»[١].

سيَشفَعُ الأنبياءُ والعلماءُ والشُّهداءُ والحُفّاظُ والصّالحونَ والقرآنُ ورمضانُ والأطفالُ الصِّغارُ ذُكورًا وإناثًا للمُذنِبينَ من أهلِ الإيمان يومَ القيامة بإذْنِ الله تعالى، وليس معنى هذا أنّهم سيَحمِلونَ أوزارَ هؤلاءِ المذنِبين، وإنّما الهدفُ منه أنّ اللهَ تعالى سيَقبَلُ شفاعةَ هؤلاءِ ويَعْفو عن ذنوبِ مَن تشفَّعوا لهم، أي: ستنتهي هذه الذنوبُ تمامًا. ولمزيدٍ من التوضيح راجعِ الحاشيةَ رقم ٧٤ للآية رقم ١٠٩ من سُورة طه (٢٠).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾

٣١ ـ جاء في الحديثِ رقم ٥٠ في «صحيح البخاريِّ»، أنّ جبريلَ الأمينَ عليه السَّلامُ سألَ رسولَ الله ﷺ: متى السّاعةُ؟ قال: «ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السّائل، وسأُخبِرُك عن أشراطِها: إذا وَلَدتِ الأَمَةُ ربَّها، وإذا تَطاولَ رُعاةُ الإبلِ البُهْمُ في البُنيان، في خمسٍ لا يَعلَمُهنّ إلّا الله». ثمّ تلا النّبيُّ ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة فاطر (٣٥): الآية ١٨.

خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله تعالى:

(١) متى تقومُ الساعة؟ (٢) متى يَنزِلُ المطر؟ (٣) ماذا تَحمِلُ الأُمُّ في بطنِها؟ (٤) ماذا سيفعَلُ العبدُ في الغدِ؟ (٥) متى سيموتُ العبدُ؟

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ عِلمَ الخمسةِ أشياءَ السابقةِ عندَ الله تعالى، وهي من عِلم الغَيْب، معَ أنّ أمورًا أخرى لا حَصْرَ لها من عِلم الغيبِ وعِلمُها عندَ الله تعالى، على سَبيل المثال: في أيِّ يوم وفي أيِّ تاريخ سيموتُ العبدُ؟ وماذا سيكونُ سببُ موتِه؟ وغيرُ ذلك، فلماذا خَصَّ اللهُ تعالى هذه الأشياءَ الخمسةَ بالذِّكر؟

السببُ في ذلك أنّ قَرويًّا سأل النبيَّ ﷺ عن هذه الأشياءِ الخمسة، فنَزَلت هذه الآيةُ ردًّا عليه، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قال مُقاتلٌ: إنّ هذه الآيةَ نَزَلت في رجلٍ من أهلِ البادية اسمُه الوارث بنُ عَمْرو بن حارثَة، أتَى النّبيَّ ﷺ فقال:

١ ـ إنّ امرأتي حُبلى فأخبِرْني ماذا تَلِد؟

٢ ـ وبلادُنا جدبةٌ فأخبِرني متى ينزِلُ الغيث؟

٣ ـ وقد عَلِمت متى وُلدتُ فأخبِرْني متى أموت؟

٤ ـ وقد عَلِمتُ ما عمِلتُ اليومَ فأخبِرْني ماذا أعمَلُ غدًا؟

٥ ـ وأخبِرْني متى تقومُ السّاعةُ؟

فأنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ»[1].

ما المراد بعلم الغيب؟

العِلمُ الذي يكونُ بالتفكُّر والتدبُّر، وبالشواهدِ والأجهزة، مثلَ: معرفةِ نزولِ المطرِ عن طريقِ السُّحُب، ومعرفةِ وَضْع الجَنِين في بطنِ أُمِّه عن طريقِ الأشعةِ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة لقمان (٣١): الآية ٣٤.

التلفزيونيّة، لا يُطلَقُ عليه عِلمُ الغَيْب، فعِلمُ الغَيْب هو: الذي يكونُ عطاءً من الله تعالى بغيرِ وسائلَ أو أسباب.

هل علم الغيب خاص بالله تعالى فقط؟

مما لا شكَّ فيه أنّ العِلمَ الذاتيَّ والكُلِّيَّ واللانهائيَّ لكلِّ غيبٍ هو لله تعالى فقطْ، لكنّ اللهَ تعالى يُنعِمُ بعِلم محدودٍ وجُزئيٍّ للغَيْب على مَن يشاءُ من عبادِه.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وقال ابنُ عبّاسٍ: هذه الخمسةُ لا يَعلَمُها إلّا اللهُ تعالى، ولا يَعلَمُها مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ، فمنِ ادَّعى أنّه يَعلَمُ شيئًا من هذه فقد كَفَر بالقرآن؛ لأنّه خالَـفَه. ثمّ إنّ الأنبياءَ يعلَمونَ كثيرًا من الغَيْب بتعريفِ الله تعالى إيّاهم. والمرادُ (ليس نَفْيَ عِلم الأنبياءِ ولكنْ) إبطالُ كونِ الكَهَنة والمنجِّمين ومن يَستسقي بالأنواءِ»[١].

ويقولُ العلّامةُ ابنُ كَثير في تفسير هذه الآية: «هذه مفاتيحُ الغَيْب الّتي استَأْثر اللهُ تعالى بعِلمِها، فلا يَعلَمُها أحدٌ إلّا بعدَ إعلامِه تعالى بها»[٢].

وتؤيِّدُ آيـاتُ القـرآنِ الكريم ما وَرَد في التفسيرَيْنِ المذكورَيْنِ مثلَما قال اللهُ تعالى:

ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة لقمان (٣١): الآية ٣٤.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة لقمان (٣١): الآية ٣٤.

ما السبب في عدم إطلاع عامة الناس على الغيب؟

اللهُ تعالى لا يُطلعُ عامّةَ الناسِ على الغَيْب؛ لأنّ الإنسانَ العاديَّ لو اطَّلعَ على الغَيْب سيَحدُثُ تعطُّلٌ وفتورٌ في كفاحِه واجتهادِه العمَليِّ، وسيبقَى قلقًا متفكِّرًا حولَ الأمورِ التي ستَحدُثُ له مستقبَلًا، على سبيل المثال: لو اطّلع أحدٌ من عامّةِ الناس على أنّ حادثةً ستَحدُثُ له بعدَ عشْرِ سنواتٍ سيموتُ فيها وَلَدُه الشابُّ ذو العشرينَ عامًا، وستصبحُ ابنتُه الشابّةُ ذاتَ الثمانيةَ عشَرَ ربيعًا عمياءَ إلى الأبد، وستُصابُ زوجتُه بالشَّلل التامِّ، فلكَ أن تتصوَّرَ في أيِّ حُزنٍ وكربٍ ستُمضي هذه الأُسرةُ السنواتِ العشْرَ التاليةَ، ولو لم تكنْ تَعلَمُ هذه الأُسرةُ بهذا كانت ستُمضي هذه السنواتِ في سعادةٍ ورضًى، ولهذا اختارَ اللهُ تعالى الأنبياءَ عليهم السَّلامُ ليُطلِعَهم على الغَيْب؛ لأنّ مقامَهم رفيعٌ، وهم الأُمَناءُ على وَحْي الله تعالى، وراضونَ برِضا الله تعالى، مثلَما كان النبيُّ ﷺ يَعلَمُ بأمرِ المنافقينَ، لكنّه ـ لحِكمةٍ عندَه ـ ظلَّ صامتًا في انتظارِ الوقتِ المناسب، وكذلك أعطَى اللهُ تعالى مَلَكَ الموتِ عِلمَ وقتِ ويوم وتاريخ ومكانِ وفاةِ العبد، وأعطَى ملائكةَ السَّحابِ والرِّياح عِلمَ المكانِ والوقتِ الذي ستهطُلُ فيه الأمطار، وأعطَى الملائكةَ عِلمَ مستقبلَ الطِّفلِ في بطنِ أُمِّه، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنّ أحَدكم يُجمَعُ خَلقُه في بطنِ أُمِّه (نُطفةً) أربعينَ يومًا، ثمّ يكونُ عَلَقةً (الدمُ ذو القِوام المتماسِك) مثل ذلك، ثمّ يكونُ مُضغةً (قطعةٌ من اللَّحم) مثلَ ذلك، ثمّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيؤمَر بأربع كلماتٍ، ويقالُ له: اكتُبْ عمَلَه ورزقَه وأَجَلَه وشقيٌّ أو سعيدٌ. ثمّ يُنفَخُ فيه الرُّوح»[1].

ويُعلَمُ منه أنّ المَلَكَ يَعلَمُ ـ بإطلاع الله له ـ أنّ هذا الطِّفلَ في بطنِ أُمِّه كيف سيكونُ عمَلُه بعدَ أن يولَدَ؟ وما هو مستوى رزقِه (من المالِ والثروةِ والعِلم والحِكمة)؟ ومتى سيموتُ؟ وهل سيكونُ سعيدًا أم شقيًّا؟ وكما أنّ الملائكةَ

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٨.

يعلَمونَ الغَيْبَ بإطلاع اللهِ لهم على ما يريدُ، كذلك يَعلَمُ الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلامُ وأولياءُ الله الصالحونَ الغَيْبَ بإطلاع الله لهم على ما يريدُ عن طريقِ المعجِزاتِ والكرامات.

وقد نَقَل العلّامةُ فَخْر الدِّين الرازي قولَ المحقِّقينَ في تفسيرِ هذه الآية بأنّ «السّببَ في إخفاءِ الساعةِ عن العباد أنّهم إذا لم يَعلَموا متى تكونُ كانوا على حَذَر منها، فيكونُ ذلك أدعَى إلى الطاعة، وأَزْجَرَ عن المعصية»[1]، ولهذا السببِ أيضًا أخفَى اللهُ تعالى وقتَ الموتِ عن عامّةِ الناس؛ لأنه إذا أُخبِر أحدٌ أنه سيموتُ بعدَ عشْرِ سنواتٍ مثلًا، فمنَ الممكنِ أن يتغلَّبَ عليه الشّيطانُ، فيقرِّرَ أن يقضيَ تسعَ سنواتٍ من العشْرِ في اللَّهو واللّعب، ثم يتوبَ بعدَ ذلك، أو أن يتملَّكَه الخوفُ من الموتِ بحيث يترُكُ كلَّ الأعمالِ ويتفرَّغُ للعبادة فقطْ، ويعيشُ أهلُ بيتِه في فقرٍ مُدقع، والحالتانِ غيرُ محمودتَيْنِ له. وباختصار: أخفَى اللهُ تعالى وقتَ قيام الساعةِ عن عامّةِ الناس حتى يعمَلوا على التخلُّص من الذُّنوبِ والآثام.

أمّا الأنبياءُ عليهم السَّلامُ فقد طَهَّرهمُ اللهُ من الذُّنوبِ من الأصل، وهم يخشَوْنَ اللهَ تعالى في كلِّ حال، ولذا لم يكنْ هناك داعٍ لإخفاءِ وقتِ قيام الساعةِ عنهم، وفي هذا الخصُوص يقولُ الشّيخ أحمدُ الصّاويّ: «إنها من الأمرِ المكتوم الذي استأْثَرَ اللهُ بعِلمِه فلم يُطلعْ عليه أحدًا إلا مِن ارتضاهُ من الرسُل. والذي يجبُ الايمانُ به أنّ رسولَ الله لم ينتقلْ من الدُّنيا حتى أَعْلَمَه اللهُ بجميع المغَيَّباتِ التي تحصُلُ فى الدنيا والآخِرة، فهو يَعلَمُها كما هي عيْنَ يقينٍ لما وَرَد: «رُفِعت ليَ الدنيا، فأنا أنظُرُ فيها كما أنظُرُ إلى كفِّي هذا، ووَرَد أنه اطَّلع على الجنّةِ وما فيها والنار وما فيها، وغيرِ ذلك بما تواتَرت به الأخبارُ، ولكنْ أُمِر بكِتمانِ البعض»[2]، ولهذا أَخْبَر

---

(١) التفسير الكبير، سورة الأعراف (٧): الآية ١٨٧.

(٢) حاشية الصاوي، السورة والآية ذاتهما.

النبيُّ ﷺ بعلاماتِ الساعة، ولكنه أخفَى تاريخَها، كما أنّ إرادةَ الله تعالى هي أن تقومَ الساعةُ بَغْتةً، وأنْ لا يَعرِفَ الناسُ بها قبلَها مثلَما يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وهكذا أخفَى اللهُ تعالى ليلةَ القَدْرِ أيضًا، حتى يَقضيَ الناسُ أكبرَ عددٍ ممكنٍ من اللَّيالي في عبادةِ الله تعالى، وأخفَى أيضًا ساعةَ القَبول في يوم الجمُعةِ حتى يقضيَ الناسُ أكبرَ وقتٍ ممكنٍ من يوم الجمُعة في ذِكرِ الله تعالى.

حين سألَ سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ النبيَّ ﷺ عن يوم القيامة قال له النبيُّ ﷺ بشكلٍ واضح: إنه لا يَعلَمُ وقتَها، لكنّه ﷺ استَعمَلَ جُملةً ذاتَ معنَيَيْنِ، لأنّ عِلمَها ليس في صالح عامّةِ الناس، وهذه أيضًا مشيئةُ الله تعالى بأنْ تأتيَ الساعةُ بَغْتةً، مثلَما قال اللهُ تعالى:

- ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

- ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢].

الله تعالى يعطي علم الغيب لمن يشاء من عباده:

وهذه أمثلةٌ على هذا فتدبَّرْها:

- قال سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

- قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «هل ترَوْنَ قِبلتي ها هنا؟ والله ما يخفَى عليَّ ركوعُكم ولا خشوعُكم، وإنّي لَأراكم وراءَ

ظهري»[١]، فالرُّكوعُ يقالُ: للصُّورةِ الظاهريّة من الصَّلاة، أما الخشوعُ فيقال: للكيفيّةِ الباطنة، ولهذا يُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ النبيَّ ﷺ يَعلَمُ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه، ويَعلَمُ كذلك ما يَغيبُ عن الأعيُن؛ لأنّ وجهَ النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلّمُ في الصّلاة يكونُ إلى القِبلة، والصَّحابةُ الكِرامُ في صفوفٍ خَلفَه، وبالرَّغْم من ذلك يعلمُ النبيُّ ﷺ ظاهرَهم وباطنَهم.

ـ رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال «إنّ اللهَ تعالى قد رَفَع ليَ الدّنيا، فأنا أنظُرُ إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يوم القيامة كأنّما أنظُر إلى كفِّي هذه»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم صَعِد أُحُدًا وأبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ، فرَجَف بهم، فقال: «اثبُتْ أُحُد! فانّما عليك نبيٌّ وصِدّيقٌ وشهيدانِ»[٣]، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلمُ أنّ سيّدَنا أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضي الله عنه سيموتُ موتةً طبيعيّة، وأنّ سيّدَنا عُمرَ وسيّدَنا عثمانَ رضي اللهُ عنهما سيُستشهَدانِ.

ـعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، أنّ عُمرَ رضي اللهُ عنه قال: إنّ رسولَ الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهل بَدْرٍ بالأمسِ، يقول: «هذا مصرَعُ فلانٍ غدًا إن شاء الله». قال: فقال عُمر: فوالّذي بَعَثَه بالحقّ، ما أخطأوا الحدودَ الّتي حدَّ رسولُ الله ﷺ[٤].

ـ عَقَد النبيُّ ﷺ بعدَ معركةِ بَدْر جلسةَ تشاوُرٍ حولَ الأَسْرى السبعينَ من الكفّار، وقُدِّمت اقتراحاتٌ عديدةٌ بأن يتِمَّ قتلُ هؤلاءِ الظالمينَ، لكنّ النبيَّ ﷺ

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨٨.

(٢) كنز العمال، ١١: ٤٢٠ برقم ٣١٩٧١.

(٣) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٧.

(٤) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٧ برقم ٧٢٢٢.

اقترح أن يكونَ «فِداؤهم أن يُعلِّموا أولادَ الأنصارِ الكتابةَ»(١)، «فكان زَيْدُ بنُ ثابتٍ رضي اللهُ عنه ممَّن عُلِّم»(٢).

ـ رُوي عن سيِّدِنا ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم جَعَل فداءَ أهلِ الجاهليّة يومَ بدرٍ أربعَ مائة، وادَّعى العباسُ أنه لا مالَ عندَه، فقال له رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «فأين المالُ الذي دفنتَه أنت وأُمُّ الفَضْلِ وقلتَ لها: إنْ أُصِبتُ فى سَفَري فهذا لبَنِيَّ: الفَضْل، وعبدِ الله، وقُثَم؟»، فقال: والله إنّي لَأعلمُ أنّك رسولُ الله، إنّ هذا الشّيءَ ما عَلِمَه إلا أنا وأُمُّ الفضل(٣).

ـ قال النبيُّ ﷺ: «أتاني اللّيلةَ ربّي تبارك وتعالى في أحسنِ صورةٍ. قال: أحسَبُه قال: في المنام. فقال: يا محمّد! هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلتُ: لا، قال: فَوضَع يدَه بينَ كتفَيَّ حتّى وَجَدتُ بردَها بينَ ثديَيَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض»(٤).

ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ زَوى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها»(٥).

ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي ـ والله ـ لَأنظُرُ الى حوضيَ الآنَ، وإنّي أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض»(٦).

فالذاتُ التي ترى حوضَ الكوثرِ وهي تعيشُ في هذه الدُّنيا، والتي أعطاها اللهُ تعالى مفاتيحَ خزائنِ الأرض، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتصوَّرَ مدى علمِها للغَيْب،

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٤٧.

(٢) طبقات ابن سعد، ٢: ٢٠.

(٣) سبل الهدى والرشاد، ٤: ١٠٥، ومسند أحمد، ١: ٣٥٣.

(٤) الترمذي، تفسير القرآن، برقم ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥.

(٥) صحيح مسلم، برقم ٢٨٨٩.

(٦) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٣ برقم ١٣٤٤.

ولا مَدى هذه الخزائنِ، وإنّما يَعلمُ اللهُ تعالى وحبيبُه النبيُّ ﷺ كم من عِلم الغَيْب وكم منَ الخزائنِ هذه أُعطِيَتْ له ﷺ، وقد قال النبيُّ ﷺ في حديثٍ آخَر: «واللهُ المعطي وأنا القاسمُ»[١].

علم الله تعالى ذاتي:

عِلمُ الله تعالى ذاتيٌّ، لم يَمنَحْه أحدٌ إياه، وعِلمُ الله تعالى قديمٌ، يعني: منذُ الأزَل، وسيبقَى إلى الأبدِ، وعِلمُ الله تعالى غيرُ محدود، ويُحيطُ بالكائناتِ كلِّها، ولا يخفَى شيءٌ على عِلمِه هذا، بينَما عِلمُ رسولِ الله ﷺ عطائيٌّ وحادثٌ، بمعنى: أنه لم يكنْ ﷺ يَعلمُه من قبلُ، لكنّ اللهَ تعالى أَنْعم عليه به بعدَ ذلك، وعِلمُ رسولِ الله ﷺ محدودٌ، يعني: بقَدْرِ ما أعطاهُ اللهُ تعالى منه، وعِلمُ رسولِ الله ﷺ قياسًا بعِلم الله تعالى المحيطِ لا يَعدِلُ حتى مجرَّدَ قطرةِ ماءٍ في مقابلِ بحارِ الدُّنيا كلِّها، ولكنّ عِلمَ رسولِ الله ﷺ في مقابلِ عِلم باقي المخلوقاتِ واسعٌ بحيث تنتهي مقاييسُ الحسابِ عندَنا ولا تستطيعُ استيعابَ حدودِه:

ـ هذا كلُّه كلامٌ بأنْ يقالَ حتى هنا وحتى هناك، فاللهُ وحدَه يَعلمُ بدايةَ تجَلِّي المحبوبِ ونهايتَه.

ـ إنّ مداهُ إلى حيث يمكنُ أن تَرى العينُ الناظرةُ.

ما الدليل على تقسيم العلم إلى ذاتي وعطائي؟

لو لم نعترفْ بهذا الفرقِ سيكونُ هناك تناقضٌ بينَ القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف، على سَبيل المثال: قال اللهُ تعالى عن نبيِّه ﷺ: إنه رؤوفٌ رحيم ﴿لَقَدْ

---

(١) البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ٧ برقم ٣١١٦.

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وخلَق الإنسانَ سميعًا بصيرًا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وعلى الجانبِ الآخَر، قال الله تُعالى عن نفسِه: إنه رؤوفٌ رحيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] وسميعٌ بصير: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، ولفَهْم كلِّ هذه الآياتِ لا مفرَّ من التسليم بالفرقِ الذي بيَّناهُ، بمعنى: أنّ كلَّ صفاتِ الله تعالى ذاتيّةٌ قديمةٌ وغيرُ محدودة، وكلُّ صفاتِ الأنبياءِ الكرام والأولياءِ الصّالحينَ والمخلوقاتِ الأُخرى جميعًا عطائيّةٌ حادثةٌ ومحدودةٌ.

وينبغي التسليمُ بهذا الفرقِ أيضًا في موضوع عِلم الغَيْب، ولهذا فإنّ المرادَ في آياتِ النَّفْي هو العِلمُ الذاتيُّ القديمُ غيرُ المحدود، وهو الذي لا يجوزُ أن يكونَ لغيرِ الله تعالى، والمرادُ في آياتِ الإثباتِ هو العِلمُ العطائيُّ الحادثُ المحدودُ، وهو الخاصُّ بالمخلوقِ فقط.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،

جامعة الكرَم: إنجلترا

بعدَ صلاة العشاءِ من يوم الجمُعة ٦ نوفمبر عام ٢٠٠٩م

الموافق ١٨ من ذي القَعدة عام ١٤٣٠هـ

وقدِ اكتمَل تفسيرُ سورةِ لُقمانَ بفضلِ الله تعالى وكرَمِه في عشَرة أيام، أي: من ٢٧ أكتوبر حتى ٦ نوفمبر ٢٠٠٩م.

والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٣٢) سُورَةُ السَّجۡدَةِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «سُورةُ السَّجدة»، وهو مأخوذٌ من مفهوم الآيةِ رقم ١٥ من السُّورة.

وفي هذه السُّورةِ إزالةٌ لشُبُهاتِ المشركينَ حولَ القرآنِ الكريم والنُّبوّةِ والتوحيدِ والآخِرة.

في البدايةِ أكَّد اللهُ تعالى على صِدقِ القرآنِ المَجيد بأنه هو الذي أَنْزلَه، ثم أكَّد على صِدقِ سيّدِنا محمد ﷺ بأنّ الكتابَ الذي جاء به سيّدُنا محمدٌ ﷺ ليس كلامَه هو، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، وقد أَنْزَله لهدايةِ بني الإنسانِ جميعًا، ثم بعدَ ذلك بيَّن اللهُ تعالى آياتِ قُدرتِه ووَحْدانيّتِه بأنه هو الذي خَلَق السّماءَ والأرضَ والإنسانَ.

لم يكن المشركونَ يؤمنونَ بالآخِرة، ولكنَّهم حين يرَوْنَ بأعيُنهم يومَ القيامة سوف يَصرُخونَ قائلين: يا ربَّنا، أعِدْنا مرةً ثانيةً إلى الدُّنيا، وسوف نعمَلُ الصّالحاتِ تأكيدًا، ولن نَعصيَك أبدًا، ولكنّ النَّدمَ في ذلك الوقتِ لا فائدةَ منه، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابِ جهنَّم.

أمّا أهلُ الإيمانِ فيؤمنونَ بالآخِرة، ويخافونَ عذابَ الله تعالى ولا يرتكِبونَ السُّوءَ، ويأمُلونَ في رحمةِ الله تعالى ويعمَلونَ الصّالحات، ولهذا سيُدخلُهم اللهُ تعالى الجنّةَ.

فضل سورة السجدة

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: «إنّ النّبيَّ ﷺ كان لا ينامُ حتّى يقرأ: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا خالدُ بن مَعْدانَ رضي الله عنه: «إنّ ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تُجادلُ عن صاحبِها في القبر، تقول: اللّهمَّ إن كنتُ من كتابِك، فشفِّعْني فيه، وإن لم أكنْ من كتابِك، فامحُني عنه، وإنّها تكونُ كالطّير تجعَلُ جناحَها عليه، فتشفَعُ له، فتمنَعُه من عذابِ القبر، وفي ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، مِثلُه»، فكان خالدٌ لا يَبيتُ حتّى يقرأَ بهما»[٢].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم السبت ٧ نوفمبر ٢٠٠٩م
الموافق ١٩ ذي القَعدة ١٤٣٠هـ.

* * *

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٩ برقم ٢٨٩٢.
(٢) سنن الدارمي، فضائل القرآن، باب ١٩ برقم ٣٤١.

سورة السجدة (٣٢)،

مكية (٧٥)، آياتها (٣٠)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿الٓمٓ﴾

١ ـ هذه حروفُ مقطَّعاتٌ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجعْ تفسيرَ الآيةِ الأُولى من سُورة البقرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

٢ ـ مضَتْ فترةٌ طويلةٌ ولم يأتِ عندَ العرب نبيٌّ من الأنبياء، ولهذا نَسُوا تعاليمَ الأنبياءِ السّابقينَ عليهمُ السَّلام، ورَغْمَ أنّ اسمَ الله تعالى كان موجودًا لديهِم، لكنّهم كانوا قد ضَلُّوا فيما يتعلَّقُ بذاتِ الله وصفاتِه، ولهذا أَرسَلَ اللهُ تعالى ـ لهدايـتِهم ـ نبيَّنا الكريمَ سيّدَنا محمدًا ﷺ، وحينَ كان النبيُّ ﷺ يَتْلو عليهم كلامَ الله تعالى (القرآنَ الكريم)، كانوا يقولون: هذا القرآنُ أَلَّفَه ذلك الرسُولُ (رسولُ الله ﷺ) من عندِ نفسِه ونَسَبه إلى اللهِ تعالى، وعليه قال اللهُ تعالى: إنّ هذا القرآنَ ليس كلامَ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وإنّما أَنْزلَه اللهُ تعالى لهدايتِكم، ولا شكَّ في أنه كلامُ الله تعالى.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

٣ ـ ما المرادُ بستةِ أيام؟ لأنّ الشمسَ لم تكنْ قد خُلِقت بعدُ، وهي التي يتحدَّد بطلوعِها وغروبِها اليومُ. وما المرادُ ـ كذلك ـ منَ استواءِ الله تعالى على العرش؟ في حينَ أنه منزَّهٌ عن المكان. والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو الذي يَعلمُ تمامَ العِلم حقيقةَ كلِّ هذه الأمورِ، ولا يَخْلو فعلٌ من أفعالِه من حِكمة.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾

٤ ـ اللهُ تعالى خالقُ الأرضِ والسَّماء، وهو الحاكمُ للنِّظام الذي يُسيِّرُهما، فإذا تركتُم اللهَ تعالى وعبدتُم غيرَه، فإنّ ما تعبدونَه لن يستطيعَ أن يُعينَكم أو يشفَعَ لكم في شيءٍ، لهذا عليكم أن تفهَموا هذه الحقيقةَ، وأن تَرجِعوا عن شركِكم، فهذه الدنيا دارُ العمل، وقد أعطَى اللهُ تعالى بني الإنسانِ فيها الاختيارَ في عَملِ ما يريدونَ

واتخاذَ القراراتِ التي يَرغَبون، لكنّ القرارَ والحُكمَ يومَ القيامة لله تعالى وحدَه، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يتحدَّى حُكمَه، إلّا أنّ الذين سيُمكنُهم الشفاعةُ بإذْنِ اللهِ تعالى منهم: الأنبياءُ والعلماءُ والأولياءُ والشُّهداءُ والحُفّاظُ وصِغارُ السنِّ الأبرياء.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

٥ ـ كلُّ الأمورِ من السَّماءِ إلى الأرض تسيرُ جادّةً في سَيْرِها بحُسنِ تدبيرِ الله تعالى، ثم سيأتي وقتٌ ستفنَى فيه كلُّ هذه الكائنات، وستقومُ الساعةُ، والتي ستُقدَّمُ فيها أعمالُ بني الإنسانِ جميعًا في حضرةِ الله تعالى، وهو الذي سيَحكُم في أمرِهم.

جاء حسابُ مقدارِ يوم القيامة في هذه الآيةِ وفي الآيةِ رقم ٤٧ من سُورة الحجِّ (٢٢) بأنه ألفُ سَنَةٍ، ثم في الآيةِ رقم ٤ من سُورة المعارج (٧٠) قال: إنه خمسونَ ألفَ سَنَةٍ، وقد قيل في بيانِ سببِ ذلك: إن الأصلَ هو أنّ مقدارَ يوم القيامةِ ألفُ سَنَة، لكنّه سيبدو للكُفّارِ بما يَعدِلُ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ بسببِ ما هم فيه من القلقِ والخوف، بينَما سيبدو هذا اليومُ لأهلِ الإيمانِ مختَصرًا للغاية، بما يَعدِلُ الوقتَ الذي تؤدَّى فيه صَلاةٌ مفروضةٌ، بسببِ البُشرى بالجنَّة، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: قيل لرسُولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: يومًا كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة ما أطولُ هذا اليوم؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلم: «والّذي نفْسي بيدِه، إنّه لَيُخفَّفُ على المؤمنِ حتّى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلّيها في الدّنيا»[١].

كم من الوقتِ سيَستغرِقُه حسابُ الناسِ جميعًا من سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٧٥.

وحتى قيام الساعة؟ لمزيدٍ من التفصيل عن ذلك راجعِ الحاشيةَ رقم ٦٠ للآية رقم ٦٢ من سُورة الأنعام (٦).

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٦ ـ اللهُ تعالى يَعلمُ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه، وكلُّ حَسنةٍ يفعَلُها الإنسان، وكلُّ سيِّئةٍ يرتكبُها، سواءٌ في السرِّ أو في العَلَن، فإنّ اللهَ تعالى يَعلَمُها تمامَ العلم، ولهذا ينبغي للمجرمينَ الخوفُ من غضَبِ الله تعالى، فليس هناك أحدٌ خارجَ قبضتِه؛ لأنه تعالى هو الغالبُ على الجميع، كما أنّ على المجرمينَ أيضًا ألا يَيْأَسوا من رحمةِ الله تعالى، لأنه تعالى رحمنٌ رحيم، ومن يتُبْ بصِدقٍ من قلبِه يغفِرْ له ويَعفُ عنه.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾

٧ ـ إنّ كلَّ شيءٍ خَلَقَه اللهُ تعالى من السّماءِ إلى الأرض، ومن الشمسِ إلى النُّجوم، ومن الإنسانِ إلى النَّملة، خَلَقَه كاملًا قويًّا جميلًا باعتبارِ الهدفِ الذي خُلِق من أَجْلِه، بحيث لا يحتاجُ إلى زيادةٍ أو نقصان.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾

٨ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأولَ، يعني: سيّدَنا آدمَ عليه السَّلام، من الطِّين مباشرةً، ثم خَلَق من ضِلعِه الأيسَرِ السيّدةِ حوّاءَ عليها السَّلام، ثم بَدأَ النَّسلُ الإنسانيُّ من النُّطفة بزواجِهما، ولا يزالُ هذا الأمرُ مستمرًّا حتى يومِنا هذا، وسيستمرُّ حتى قيام الساعة.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

٩ ـ قطرةٌ لا رُوحَ فيها هي التي تَدخُلُ إلى بطنِ الأُمِّ، يَخلُقُ اللهُ تعالى من هذه

المادةِ الوحيدةِ اللَّحمَ والعظمَ واليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ والأعصابَ والشرايينَ والقلبَ والمخَّ والعينَيْنِ والأُذُنَيْنِ وغيرَها من الأعضاءِ المختلفة، بل والمتناقضةِ أيضًا، ثم يَنفُخُ الرُّوحَ في هذا الجسَد، فيصيرُ إنسانًا جميلًا لا تَجِدُ له مثيلًا، ويَحكُمُ المخلوقاتِ الأخرى بما أعطاه اللهُ تعالى من فَهْم وفِراسة، لكنّ القليلينَ من الناس هم الذين يشعُرونَ بهذه النِّعم، ويشكُرونَ اللهَ تعالى عليها.

الروح:

المرادُ بالرُّوح: النَّفْس، والذي يَحيَا الإنسانُ بدخولِه وخروجِه، وقد نَفَخ اللهُ تعالى من روحِه في الإنسانِ، وليس معنى هذا أنّ الرُّوحَ الإنسانيّةَ جزءٌ من رُوح الله تعالى، وإنّما إضافتُها إلى الله تعالى إنّما هي من قَبيل تعظيم الرُّوح وتكريمِها، مثلَما يقالُ للكعبة: بيتُ الله؛ لأنّ لها احترامًا عظيمًا، وبنفسِ الطريقة فإنّ الرُّوحَ نعمةٌ خاصّةٌ من الله تعالى.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾

١٠ ـ لأنّ المشركينَ يُنكِرونَ وجودَ الله تعالى ولا يعترفونَ بلقائه يومَ القيامة، لهذا يقولون: إنّنا لا نستطيعُ أن نستوعبَ كيف أنّنا سنُخلَقُ من جديدٍ بعدَ أن نكونَ قد مِتنا وصِرنا ترابًا؟ وقد مرَّ الجوابُ على ذلك في سُورة الإسراء: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥١]، يعني: أنّ الذي خَلَق الإنسانَ لأولِ مرةٍ من الطِّين بغيرِ مثالٍ سابقٍ من شكلٍ أو صُورة، هل يَصعُبُ عليه أن يَخلُقَ هذا الإنسانَ مرةً ثانيةً من الطِّين على نفسِ الشكلِ والصُّورة؟

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾

١١ ـ خالقُ الموتِ والحياةِ هو اللهُ تعالى، لكنّه وَكَّل مَلَكَ الموتِ، يعني: سيّدَنا عِزْرائيلَ عليه السَّلام، بقَبْض الأرواح، وسيّدُنا عِزْرائيلُ عليه السَّلامُ يقومُ بقَبْضِ الأرواح، أحيانًا بمفردِه، وأحيانًا بمَعيّةِ معاونيهِ من الملائكة.

هنا يتبادَرُ إلى الذِّهن سؤالٌ وهو: أنّ أعدادًا لا تحصَى من البشَر يموتونَ في كلِّ أرجاءِ العالَم في وقتٍ واحد، فكيف يَقبِضُ مَلَكُ الموتِ كلَّ هذه الأرواحَ من الأماكنِ المختلفة في وقتٍ واحد؟ وهذه بعضُ الرِّواياتِ التي نَقَلَها المفسِّرونَ جوابًا عن هذا السُّؤال:

ـ «رُويَ أنّ مَلَكَ الموتِ جُعِلت له الدُّنيا مثلَ راحةِ اليد يأخُذ منها صاحبُها ما أحَبَّ من غيرِ مشقّةٍ، فهو يَقبِضُ أنفُسَ الخَلْقِ في مشارقِ الأرض ومغاربِها، وله أعوانٌ من ملائكةِ الرَّحمةِ وملائكةِ العذاب»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا زُهيرُ بن محمدٍ رضي اللهُ عنه: قيل: يا رسولَ الله، مَلَكُ الموتِ واحدٌ والزَّحفانِ يلتقيانِ من المشرقِ والمغربِ وما بينَهما من السِّقطِ والهلاكِ؟ فقال: «إنّ اللهَ حَوَى الدّنيا لمَلَكِ الموتِ حتّى جَعَلَها كالطَّستِ بينَ يدَيْ أحدِكم فهل يفوتُه منها شيءٌ؟»[٢].

ـ سأل سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ مَلَكَ الموتِ ـ واسمُه عِزْرائيلُ ـ: «يا مَلَكَ الموت، ما تصنَعُ إذا كانت نفسٌ بالمشرقِ ونفسٌ بالمغربِ ووُضِع الوباءُ بأرضٍ والتقَى الزَّحفانِ، كيف تصنَعُ؟ قال: أدعو الأرواحَ بإذْنِ الله فتكونُ بينَ أصبُعيَّ هاتَيْنِ»[٣].

---

(١) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي.
(٢) تفسير الدر المنثور، الإمام جلال الدين السيوطي.
(٣) المرجع السابق.

ـ عن ابنِ عبّاس رضي اللهُ عنهما، أنه سُئل عن نفسَيْنِ اتَّفقَ موتُهما في طَرْفةِ عينٍ: واحدٌ في المشرق وواحدٌ في المغرب، كيف قدرةُ مَلَكِ الموتِ عليهما؟ قال: «ما قدرةُ مَلَكِ الموتِ على أهلِ المشارقِ والمغاربِ والظُّلُماتِ والهواءِ والبحورِ إلّا كرجُلٍ بينَ يدَيْه مائدةٌ يتناولُ من أيِّها شاء»[1].

ـ عن مُجاهدٍ رضي الله عنه: «﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ قال: حُوِيت له الأرضُ فجُعِلت له مثلَ طَسْتٍ يتناولُ منها حيثُ يشاء»[2].

ويُعلَمُ من الرِّواياتِ المذكورة: أنه لا فَرْقَ بينَ الظاهرِ والباطن، ولا بينَ القريبِ والبعيدِ بالنِّسبة لمَلَكِ الموت، فقد طُوِيتِ الأرضُ كلُّها مثلَ السِّماط ووُضِعت أمامَه، ورَغْمَ أنّ بصيرةَ مَلَكِ الموتِ واسعةٌ، لكنّ سَعةَ البصيرةِ التي أَنْعم اللهُ تعالى بها على النبيِّ الكريم ﷺ أكبرُ بمراحلَ من تلك التي لدى الملائكة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «إنّ اللهَ زَوى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها»[3].

واللهُ تعالى لم يُعطِ النبيَّ ﷺ عِلمَ الأرضِ فقطْ، وإنّما أعطاهُ أيضًا عِلمَ السماواتِ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «أتانيَ اللّيلةَ ربّي تبارك وتعالى في أحسنِ صُورةٍ. قال: أحسَبُه قال: في المنام. فقال: يا محمّد! هل تَدري فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوَضَع يدَه بينَ كَتِفَيَّ حتّى وَجَدتُ بَرْدَها بينَ ثديَيَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض»[4].

---

(١) تفسير الدر المنثور، الإمام جلال الدين السيوطي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مسلم، كتاب الفتن، باب ٥ برقم ٧٢٥٨.

(٤) الترمذي، تفسير القرآن، برقم ٣٢٣٣.

طلب ملك الموت:

يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية هذه الروايةَ فيقول: «ورُوي أنّ مَلَك الموتِ لَمّا وكَّله اللهُ تعالى بقَبْضِ الأرواح قال: ربِّ جعلتَني أُذكَرُ بسُوءٍ ويشتُمُني بنو آدم. فقال اللهُ تعالى له: إنّي أجعَلُ للموتِ عِلَلًا وأسبابًا من الأمراضِ والأسقام ينسُبونَ الموتَ إليها فلا يَذكُرُك أحدٌ إلّا بخيرٍ»(١).

من هو رسول الموت؟

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الأمراضُ والإرجاعُ كلُّها بَريدُ الموت، ورسُولُ الموتِ، فإذا حانَ الأَجَلُ أتَى مَلَكُ الموتِ فقال: أيُّها العبد، كم خبرٍ بعدَ خبرٍ، وكم رسولٍ بعدَ رسولٍ، وكم بريدٍ بعدَ بريدٍ، أنا الخبَرُ ليس بعدي خبرٌ، وأنا الرّسولُ ليس بعدي رسولٌ، أجِبْ ربَّك طائعًا أو مُكرَهًا، ولَمّا قَبَضَ روحَه وتصارَخوا عليه قال: على مَن تَصرُخونَ وعلى من تَبكُون؟ والله ما ظَلَمتُ له أجلًا، ولا أكلتُ له رزقًا، بل دعاه ربُّه، فلْيبْكِ الباكي على نفسِه، فوالله إنّ لي عوداتٍ وعوداتٍ حتّى لا أُبقيَ فيكم أحدًا»(٢).

ـ رُوي أنه «كان يعقوبُ عليه السَّلامُ مؤاخيًا لمَلَكِ الموت، فزارَهُ، فقال له يعقوبُ: يا مَلَكَ الموت، أزائرًا جئتَ أم قابضًا روحي؟ فقال: بل زائرًا، قال: فإني أسأَلُك حاجةً، قال: وما هي؟ قال: أن تُعلِمَني إذا دَنا أَجَلي وأردتَ أن تقبِضَ رُوحي، فقال: نَعمْ، أُرسِلُ إليك رسولَيْنِ أو ثلاثةً، فلمّا انقضَى أَجَلُه أتَى إليه مَلَكُ الموت، فقال: أزائرًا جئتَ أم لقَبْضِ رُوحي؟ فقال: لقَبْضِ رُوحِك، فقال: أولستَ كنتَ أخبرتني أنك تُرسِلُ إليّ رسولَيْنِ أو ثلاثةً؟ قال: قد فعلتُ:

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) التفسير المظهري.

ـ بياضَ شعرِك بعدَ سوادِه.

ـ وضعفَ بدَنِك بعدَ قوّتِه.

ـ وانحناءَ جسمِك بعدَ استقامتِه.

ـ هذه رُسلي يا يعقوبُ إلى بني آدمَ قبلَ الموت»[١].

وليس للموت وقتٌ محدَّد، فيُمكنُه أن يأتيَ في الطُّفولةِ وفي الصِّبا وفي الشّباب وفي الشّيخوخة وفي أيِّ وقت، فلا يَعلمُ أحدٌ متى تتوقَّفُ الأنفاسُ، ولكنْ من جاءه واحدٌ من الرسُلِ السابقة أو اثنانِ، لا ينبغي له أن يغفُلَ عن الموتِ ولو لحظةً واحدة، لأنه:

ـ يا محمَّد، لقد وَصَل النَّهارُ إلى وقتِ العصرِ منه، وسوف يَحِلُّ الغروبُ في آخِره[٢].

ويقولُ سيّدُنا بابا فريد عليه الرحمة:

ـ يا فريد، أيُّها الغافل، انهَضْ، فقد أصابَ الشَّيبُ لحيتَك، والنِّهايةُ (يعني: الموتَ) مُسرِعةٌ إليك، بينَما ابتَعدَتِ البدايةُ كثيرًا.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾

(١) مكاشفة القلوب، الإمام الغزالي، الباب السادس، في الغفلة، ١٧، وإرشاد العباد، ٧.
(٢) المصرع، للصوفي ميان محمد بخش.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾

١٢ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، اليومَ هؤلاءِ المشركونَ لا يَستمِعونَ إلى كلامِك، ويَسخَرونَ من عقيدةِ الآخِرة قائلينَ: كيف يُمكنُ أن نُبعَثَ من جديدٍ بعدَ إذْ صِرنا ترابًا؟ ولكنْ حينَ يَبعَثُهم اللهُ تعالى يومَ القيامة ويُقدَّمونَ في حضرتِه، ستكونُ رءوسُهم مَحْنيّةً من فَرْطِ النَّدَم، وسيقولونَ: يا ربَّنا، لقد شاهَدْنا اليومَ بأعُينِنا كلَّ تلك الحقائقِ التي كنا نُكذِّبُ بها في الدُّنيا، وسمِعنا اليومَ بآذانِنا صِدقَ كلِّ ما كنا نُنكِرُه في الدُّنيا، وتيقَّنّا أنّ ما قاله الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام صِدقٌ كلُّه، وكنّا نحن المخطئينَ، فلو أُعِدْنا إلى الدُّنيا ثانيةً فإنّنا نُعاهدُك عهدًا راسخًا أنّنا سنعمَلُ الصالحاتِ، ولكنّ الإيمانَ عندَ الآخِرة لا فائدةَ منه. ليتَهم سَمِعوا في هذه الدُّنيا بتدبُّرٍ وتمعُّنٍ واعتبَروا بما فيها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

١٣ ـ لو أرادَ اللهُ تعالى لَهدَى الناسَ جميعًا، وجَعَلَهم يسيرونَ على طريقِ الهداية، ولَما عصاهُ أحدٌ أبدًا، لكنّ اللهَ تعالى حَكَم ألّا يُجبرَ الإنسانَ على فعلِ

السيِّئةِ أو الحسَنة، وأنّ الذين يَسيرونَ على طريقِ الهداية برغبتِهم ورضاهم ستُفتَحُ لهم أبوابُ الجنّة، والذين يختارونَ طريقَ الضَّلالِ برغبتِهم ورضاهم سيُحشَرونَ في جهنَّم وبئس المصير.

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

١٤ ـ الذين يَنسَوْنَ يومَ القيامة ولقاءَ اللهِ تعالى فيه، ويُمضُونَ حياتَهم في ارتكابِ الذُّنوب، سوف يُعرِضُ اللهُ تعالى عنهم أيضًا يومَ القيامة، ويَطرُدُهم من رحمتِه، وسيُبتَلَوْنَ بالعذابِ الدائم بسببِ ذنوبِهم ويَخلُدونَ فيه.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

١٥ ـ المؤمنونَ يستفيدونَ تمامَ الاستفادةِ من آياتِ الله تعالى، إذْ حين يُنصَحونَ بهذه الآياتِ فإنّهم يَخِرُّونَ ساجدينَ لله تعالى خوفًا من غضَبِه، ويَذكُرونَ نِعَمَه عليهم ويشكرونَه عليها، وهم يتواضَعونَ لله عزَّ وجل ويخضَعونَ له، ولا يتكبَّرونَ أبدًا.

والسُّجودُ بعدَ تلاوةِ هذه الآية واجبٌ، وللتعرُّف على كيفيّةِ سجودِ التلاوة راجعْ حاشيةَ الآية رقم ٢٠٦ من سُورة الأعراف (٧).

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

١٦ ـ شأنُ أهلِ الإيمان الكاملِ أنّهم يُقيمونَ اللَّيلَ ويتهجَّدونَ بصلاةِ النَّوافل وقتَ أن يكونَ الناسُ نيامًا؛ لأنّهم يخافونَ من الله تعالى، لكنَّهم لا يَيْأَسُونَ من رحمتِه عزَّ وجل، ويُنفقونَ من نِعَم الله تعالى التي أَنْعم بها عليهم في الأعمالِ الصّالحة.

فضل التهجد وصلاة النوافل الأخرى في الليل:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «يَنزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدّنيا حينَ يبقَى ثُلُثُ اللّيل الآخِر، يقول: مَن يدعوني فأَستجيبَ له؟ من يَسألُني فأُعطِيَه؟ من يَستغفرُني فأَغفِرَ له؟»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أفضَلُ الصّيام بعدَ رمضانَ شهرُ الله المحرَّم، وأفضَلُ الصّلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللّيل»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ سَلَام رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يا أيُّها النّاس، أَفْشُوا السَّلام، وأَطْعِموا الطّعام، وصَلُّوا والنّاسُ نيامٌ، تدُخلوا الجنّةَ بسلام»[٣].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: إنّ نبيَّ الله ﷺ كان يقومُ من اللّيل حتّى تتفطَّرَ قدَماه، فقالت عائشةُ: لم تَصنَعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَر الله لك ما تَقدَّم من ذَنْبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكونَ عبدًا شكورًا؟»[٤].

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

١٧ ـ المكافآتُ التي أعدَّها اللهُ تعالى للمؤمنينَ نظيرَ أعمالِهم الصَّالحةِ لا يَعلُم كُنهَها سوى اللهِ عزَّ وجل، وحين يَراها أهلُ الإيمانِ ستَقَرُّ بها أعيُنُهم.

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ حديثٌ قُدُسيٌّ في تفسيرِ هذه الآية، يقولُ فيه:

---

(١) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ٣٨ برقم ١١٦٣.

(٣) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٤٢ برقم ٢٤٨٥.

(٤) البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٧.

«قال اللهُ تبارك وتعالى: أعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَرٍ»[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

١٨ ـ كما أنّه لا يمكنُ أن يتَساوَى الوَفِيُّ لوطنِه معَ المتمرِّد عليه، كذلك لا يمكنُ أن يتساوَى الوَفِيُّ لأحكامِ الله تعالى معَ المتمرِّدِ عليها، وكما أنّ أحكامَهم مختلفةٌ كذلك عواقبُهم مختلفة.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

١٩ ـ حينَما يـحِلُّ أحدٌ ضيفًا على أحدٍ، فإنّ أهـلَ البيتِ يـقومونَ بتـقديم الواجبِ له أكثرَ ممّا اعتادوا على تقديمِه لأنفُسِهم؛ لأنّهم يعلَمونَ أنّ هذا الضَّيفَ لن يبقى عندَهم إلى الأبد، وأنه سوف يَرحَلُ بعدَ أيام قليلة، لكنّ الجِنانَ التي أعدَّها اللهُ تعالى لضيافةِ عبادِه المؤمنينَ دائمةٌ خالدة.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾

٢٠ ـ مصيرُ العُصاةِ هو جهنَّم، وكلَّما حاولوا الخروجَ من جهنَّمَ دُفِعوا إليها وأُلقوا فيها من جديد، ويقالُ لهم: ذُوقوا الآنَ عذابَ جهنَّم هذه التي كنتُم تكذِّبونَ بها في الدنيا.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

٢١ ـ قبلَ أن يُذيقَهم اللهُ تعالى العذابَ الأكبرَ يومَ القيامة يَبتليهم في هذه الدُّنيا

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة السجدة (٣٢) برقم ٤٧٧٩، والحديث رواه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه.

بقليلٍ من العذاب مثلَ: الأمراضِ والحوادثِ وغيرِها، حتى يشعُروا أنه ليس في اختيارِهم شيءٌ؛ لأنّ هناك قوّةً عُليا تُسيِّرُ نظامَ هذه الكائناتِ، ولهذا ينبغي لهم أن يَعتبِروا من هذه المصائبِ البسيطة، ويفكِّروا في كيفيّةِ النَّجاةِ من العذابِ الأكبر يومَ القيامة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

٢٢ ـ أكثرُ الناس ظُلمًا هو ذلك الشَّخصُ الذي تُتلَى عليه آياتُ الله تعالى، ويُعرِضُ عنها متكبِّرًا أو غافلًا، ومثلُ هذا الشّخصِ مسئولٌ عن هذا الظُّلم الذي يرتكبُه؛ لأنَ اللهَ تعالى سينتقمُ من كلِّ مجرمٍ يومَ القيامة، فكيف يُفلِتُ منَ انتقامِ الله تعالى من هو أكثرُ الناسِ ظلمًا؟

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

٢٣ ـ رَغْمَ أنّ الخطابَ في ظاهرِ هذه الآية للنبيِّ ﷺ، لكنّ المقصودينَ هم مشركو مكّةَ الذين لم يَكونوا على استعدادٍ للإيمانِ بسيّدِنا محمدٍ ﷺ والتصديقِ بالقرآنِ الكريم، وهنا تُخبرُهم الآيةُ الكريمةُ أنه كما أنّ اللهَ تعالى أَنْزل التَّوراةَ على

سيّدنا موسى عليه السَّلامُ لهدايةِ بني إسرائيلَ، فقد أَنْزلَ القرآنَ الكريمَ على النبيِّ الكريم ﷺ لهدايةِ بني البشَرِ جميعًا، ونزولُ القرآنِ المَجيد ليس بالأمرِ الجديد، فلقد نَزَلتِ الكتُبُ السَّماويةُ من قبلُ على الأنبياءِ السّابقينَ عليهم جميعًا السَّلام، ولهذا لا تشُكُّوا في القرآنِ الكريم، وإنّما آمِنوا به واحصُلوا منه على الهداية.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

٢٤ ـ رَغْمَ أنّ هذه الآيةَ نَزَلت في حقِّ بعضِ الأئمةِ الدينيِّينَ من أُمّةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ، لكنّ حُكمَها عامٌّ، يعني: أنّ اللهَ تعالى قد شَرَّف السُّعداءَ من الناسِ الذين يُوقنونَ يقينًا كاملًا بآياتِه بأنْ وَضَع على رءوسهم تاجَ الإمامةِ الدِّينيّة، فهم يُبلِّغونَ أحكامَه، ولا يَخافونَ من المصاعبِ التي تواجِهُهم في طريقِ الدَّعوةِ إلى الحقِّ، وإنّما يصبِرونَ عليها، ويواجِهونَها بكلِّ قوةٍ وثبات.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

٢٥ ـ اليومَ كلٌّ من أهلِ الكُفرِ وأهلِ الإيمان يَعتبِرُ جماعتَه على حقٍّ والآخَرَ على باطل، في حينَ أنه ـ بتدبُّرِ الدَّلائلِ والشواهد ـ لا يَصعُبُ فَهْمُ الحقِّ، ومعَ ذلك فإنّ الناسَ يتكبَّرونَ عامدينَ متعمِّدينَ. على أيِّ حال، سيَفصِلُ بينَهم يومَ القيامة ليس بشكلٍ نظَريٍّ وعَقْليٍّ فقط، وإنّما بشكلٍ عمَليٍّ أيضًا، بمعنى: أنّ أهلَ الحقِّ سيكونونَ سُعداءَ في الجنّة، بينَما يكونُ أهلُ الباطلِ في خوفٍ وقلقٍ في جهنَّم.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

٢٦ ـ في هذه الآية تنبيهٌ لأهل مكّةَ بأنّهم يمُرُّونَ في أسفارِهم التِّجاريةِ على المساكنِ المدمَّرةِ للأُممِ السابقةِ وقد تحطَّمت جُدرانُها وتهالكَت، وهي تَقُصُّ بلسانِ

حالِها طُغيانَ ساكنيها، ألَا يسمَعُ أهلُ مكّةَ ما تَقُصُّه هذه المساكنُ المدمَّرةُ؟ ألا يعتبِرونَ من هذه الأطلال؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

٢٧ ـ الأرضُ البُورُ: التي لا أثرَ فيها لزَرْع أو ماءٍ، حين يُنزِلُ اللهُ تعالى الماءَ على هذه الأرضِ، فإنّها تخضَرُّ وتَيْنَع من كلِّ جانب، وبنفسِ الطريقة حينَ يصدُرُ حُكمُ الله تعالى للموتَى من بني الإنسان، فإنّ الحياةَ تدِبُّ فيهم فورًا ويُخرَجونَ من الأرض.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

٢٨ ـ كان المسلمونَ يقولونَ لمشركي مكّةَ: أنْ آمِنوا، وإلّا فإنه حين يُفصَلُ بينَ الحقِّ والباطل يومَ القيامة، ستُبتَلَوْنَ بعذابٍ أليم بسببِ كُفرِكم، وكان مشركو مكّةَ يرُدُّونَ عليهم قائلين: أخبِرونا، هل أصابَنا أيُّ عذابٍ منذُ اليوم الذي بدَأتُم تحذِّرونَنا فيه من العذاب؟

﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

٢٩ ـ في هذه الآيةِ ردٌّ على مشركي مكّةَ، بأنّ يومَ القيامة قادمٌ في موعدِه لا مَحالَة، وسوف تتأكّدونَ بأنفسِكم حين ترَوْنَه، ولكنّ الإيمانَ عندَئذٍ لن يفيدَكم في شيءٍ، ولو طلَبتُم في ذلك اليوم مُهلةً للعودةِ إلى هذه الدُّنيا فلن تُعطَوْها، ولهذا عليكمُ الاستفادةُ من المُهلة التي أُعطِيَتْ لكم في هذه الدُّنيا وآمِنوا.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾:

٣٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنْ لم يرجِعْ هؤلاءِ عن كُفرِهم وشركِهم

بالرَّغْم من إخلاصِك الكامل في دعوتِك لهم، فلا تُبالِ بكلامِهم الجارح للقلب، وإنّما عليكَ انتظارُ النُّصرةِ من الله تعالى، ودَعْ هؤلاءِ المشركينَ ينتظرونَ هم أيضًا هلاكَهم ونارَ جهنَّم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأربعاء ١١ نوفمبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٣ ذي القعدة عام ١٤٣٠هـ.

وهكذا اكتَمل تفسيرُ سُورةِ السَّجدة في أربعةِ أيام، أي: من ٧ نوفمبر إلى ١١ نوفمبر ٢٠٠٩م.

والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٣٣) سُورَةُ الأَحْزَابِ

هذه السُّورةُ مدَنيّة؛ لأنها نَزَلت بعدَ الهجرة، واسمُها «الأحزاب»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم ٢٠ منها.

جاء في هذه السُّورةِ بيانٌ لمضامينَ عظيمةٍ، مثلًا: الظِّهارُ في الآية رقم ٤، والابنُ بالتَّبنِّي في الآية رقم ٥، وكونُ النبيِّ ﷺ أقربَ إلى المؤمنينَ من أنفسِهم في الآية رقم ٦، وغزوةُ الأحزاب: في الآيات من ٩ إلى ٢٠، وكونُ النبيِّ ﷺ الأُسوةَ الحسَنةَ في الآية رقم ٢١، وغزوةُ بني قُرَيْظةَ في الآية رقم ٢٦، ومَن هم آلُ بيتِ النبيِّ ﷺ في الآية رقم ٣٣، وزواجُ السيِّدة زينبَ بنتِ جَحْشٍ رضي الله عنها من النبيِّ ﷺ في الآية رقم ٣٧، وخَتْمُ النُّبوَّة في الآية رقم ٤٠، وشهودُ العِيان في الآية رقم ٤٥، والصَّلاةُ والسلامُ على النبيِّ ﷺ في الآية رقم ٥٦، وعن الحجابِ في الآية رقم ٥٩، ويُمكنُك الاطِّلاعُ على معاني كلِّ هذا في ثنايا تفسيرِنا للآيات، وسوف أكتفي هنا بتقديم عرضٍ مختصَر لغزوةِ الأحزابِ فقط.

غزوة الأحزاب/ الخندق

معنى الحِزب: الجماعةُ والطائفة، وجَمْعُه: أحزابٌ، وقيل لهذه الغزوةِ: الأحزابُ لأنّ كلَّ أحزابِ وجماعاتِ العرب المُعاديةِ للإسلام قدِ اتَّفقت فيما

بينَهـا وهـاجَمتِ المديـنةَ المنوَّرة، ويقالُ لهذه الغزوة: غـزوةُ الخَنْدقِ أيضًا؛ لأنّ المسلمينَ في هذه الغزوة حَفَروا خندقًا في أطرافِ المدينة حفاظًا على أنفسِهم، وحتى لا يتمكَّنَ العدوُّ من دخولِ المدينة.

حين هاجرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة كانت قبيلتانِ من اليهودِ تعيشانِ هناك، إحداهما: قبيلةُ بني النَّضِير، والأخرى: قبيلةُ بني قُرَيْظةَ، وقد أَبْرمَ النبيُّ ﷺ معهما معاهدةَ صَداقة، «فصالَحَ النبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلم يهودَ المدينة، وكتَب بينَه وبينَهم كتابَ أمنٍ»[١]، وفي غزوةِ أُحُدٍ تبدَّلَ الحالُ في المعركة بسبب تسرُّع الرُّماة، ولَحِق بالمسلمينَ ضررٌ فادحٌ وخسارةٌ كبيرةٌ في الأرواح، وبسببِ هذه الهزيمةِ الظاهريَّة للمسلمين ارتَفعَت معنَويّاتُ اليهود، وتآمَرت بنو النَّضِيرِ على قتلِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ برَغْم سَرَيانِ المعاهدة، ولكنّهم فَشِلوا في تنفيذِ مؤامَرتِهم، وعقابًا لهم على هذه الخِيانة أمَرَ النبيُّ ﷺ بإخراجِهم من المدينةِ المنوَّرة.

الذين تَرَكوا المدينةَ من بني النَّضِير ورَحَلوا إلى خَيْبرَ وأقاموا فيها، أرسَلوا وفدًا إلى مكّةَ يُحرِّضونَ قُريشًا وبعضَ القبائلِ الأخرى على مهاجمةِ المسلمين، وهكذا قامت قُريشٌ بتوحيد كلِّ القُوى المعاديةِ للإسلام في شِبه الجزيرةِ العربيّة، وفي السّنة الخامسة للهجرة اتَّجهوا بجيشٍ جَرّار قِوامُه عشَرةُ آلافِ رجلٍ إلى المدينةِ لمهاجمتِها.

حينَ عَلِم النبيُّ ﷺ بمُجْرَياتِ الأمور، عَقَد اجتماعًا معَ الصّحابةِ الكرام رضي الله عنهم للتشاوُرِ معَهم في كيفيّةِ إيقافِ زَحْف هذا الجيش الكبير، فأشار عليه سيّدُنا سَلْمانُ الفارسيُّ رضي اللهُ عنه قائلًا: يا رسولَ الله ﷺ، في بلادِنا فارسَ حين كان العدوُّ يهجُمُ علينا بهذا الشكل، فإنّنا كنّا نحفِرُ خندقًا حولَ المدينةِ حتى نوقفَ زحفَه. وأُعجِبَ النبيُّ ﷺ بهذا الاقتراح، وهكذا أمَرَ النبيُّ ﷺ بنَقْل النِّساءِ

---

(١) سبل الهدى والرشاد، ٤: ١٣.

والأطفال إلى الأماكنِ الآمِنة في المدينة المنوَّرة، وخَرَج هو نفسُه معَ ثلاثةِ آلافٍ من أصحابِه خارجَ المدينة، ووَضَعوا علاماتٍ لتحديدِ حَفْر الخنْدَق في الاتّجاهِ الذي يُحتمَلُ أن يُهاجمَهم العدوُّ منه، وعَهِد إلى كلِّ عشَرةِ أفرادٍ بحفرِ أربعينَ ياردةً من الخَنْدق بعَرْض خمسٍ ياردات وعُمق خمسٍ أخرى.

شارك المسلمونَ جميعًا في أعمالِ حَفْر الخَنْدق، وكان النبيُّ ﷺ يَحمِلُ الفأسَ بنفسِه ويقومُ بالحَفْر معَ غِلمانِه بكلِّ همّةٍ ونشاط، وكان يَحمِلُ الترابَ الناتجَ عن الحَفْر ويَرمي به خارجَ الخَنْدقِ حتى غَطَّى الترابُ شعَرَ بطنِه المبارك. ولكن، ما الذي كان لسانُ النبيِّ ﷺ وألسِنةُ الصّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم تُردِّدُه أثناءَ الحَفْر؟ انظُرْ إلى نصِّ البخاريِّ في هذا الشأن. «عن أنسٍ رضي اللهُ عنه، قال: جَعَل المهاجرونَ والأنصارُ يحفِرونَ الخَنْدقَ حولَ المدينة، وينقُلون التّرابَ على متونِـهم ويقولون:

نحـن الّذيـن بايَعـوا محمّدا ... علـى الإسـلامِ ما بَقِينـا أبدا

والنّبيُّ ﷺ يُجيبُهم ويقول:

اللّهـمّ إنّه لا خيرَ إلّا خيرُ الآخرهْ ... فبارِكْ في الأنصارِ والمُهاجِره»[1]

مفاتيح خزائن قيصر وكسرى:

يقولُ سيّدُنا البراءُ بنُ عازِب رضي اللهُ عنه: أمَرَنا رسولُ الله ﷺ بحَفْر الخَنْدق، قال: وعَرَض لنا صخرةٌ في مكانٍ من الخندق، لا تأخُذ فيها المَعاوِلُ، قال: فشكَوْها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسولُ الله ﷺ، قال عوفٌ: وأحسَبُه قال: وَضَع ثوبَه ثمّ

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٣٤ برقم ٢٨٣٥. قلت: أما بيت الأنصار فيجري على بحر الرجز بوزنه المعروف لأهل هذه الصناعة، وأما بيت النبي ﷺ فلا يجري وزنه عليه، ومع ذلك يسمى رجزًا على اعتبار معنى الرجز، وهو: الكلام المسجع. شرح سنن أبي داود، للعيني (توفي ٥٨٨هـ) ٢/ ٣٥٦.

هَبَط إلى الصّخرة، فأَخذ المِعوَلَ فقال: «بسم الله» فضَرَب ضربةً فكُسِر ثُلُثُ الحجر، وقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ الشّام، والله إنّي لَأُبصرُ قصورَها الحُمْرَ من مكاني هذا». ثمّ قال: «بسم الله» وضَرَب أخرى فكُسِر ثُلُثُ الحجر فقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ فارسَ، والله إنّي لَأُبصرُ المدائنَ، وأُبصرُ قصرَها الأبيضَ من مكاني هذا»، ثمّ قال: «بسم الله» وضَرَب ضربةً أخرى فقَلَع بقيّةَ الحجر، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ اليمن، والله إنّي لَأُبصرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا»(١).

ثلاثة أيام من الجوع وحجر على البطن:

مضَتْ ثلاثةُ أيام منذُ بداية حَفْر الخَنْدق، ولم يتيسَّرْ خلالَها للصّحابةِ الكرام لقمةٌ يتناولونَها، ولهذا رَبَط كلٌّ منهم حجرًا على بطنِه حتى يستطيعَ أن يُقيمَ ظهرَه، وحين وَصَل بهم الجُوعُ مداهُ وأصبح غيرَ محتمَل، شكَوْا للنبيِّ ﷺ ما هم فيه، وحينَئذٍ رَفَع النبيُّ ﷺ قميصَه عن بطنِه، فرأى الصَّحابةُ الكرامُ رضوانُ الله عليهم منظرًا عجيبًا، إذ إنّ كلَّ صحابيٍّ قد رَبَط على بطنِه حجرًا واحدًا، بينَما كان رحمةُ العالمينَ النبيُّ ﷺ يربِطُ على بطنِه حجرَيْنِ، فانتهتْ بذلك كلُّ شكاوى الصّحابةِ رضي الله عنهم.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو طلحةَ رضي الله عنه: «شكَوْنا إلى رسول الله ﷺ الجوعَ ورفَعْنا عن بطونِنا عن حجرٍ حجرٍ، فرَفَع رسولُ الله ﷺ عن حجَرَيْنِ»(٢).

معجزة البركة في الطعام:

يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: لمّا حُفِر الخندقُ رأيتُ

---

(١) مسند أحمد، ٤: ٣٠٣.

(٢) الترمذي، أبواب الزهد: باب ٣٩ برقم ٢٣٧١.

بالنّبيّ ﷺ خَمْصًا شديدًا، فانكفَأتُ إلى امرأتي فقلتُ: هل عندكِ شيءٌ، فإنّي رأيتُ برسول الله ﷺ خَمْصًا شديدًا؟ فأَخرجَتْ إليَّ جِرابًا فيه صاعٌ من شعيرٍ، ولنا بُهَيمةٌ داجنٌ فذَبحتُها، وطحَنَتِ الشّعيرَ ففرَغَتْ إلى فراغي، وقطّعتُها في بُرمتِها، ثمّ ولَّيتُ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضَحْني برسول الله ﷺ وبمَن معه. فجئتُه فسارَرْتُه فقلتُ: يا رسولَ الله، ذبَحْنا بهيمةً لنا وطحنّا صاعًا من شعيرٍ كان عندَنا، فتعالَ أنت ونفَرٌ معك. فصاح النّبيُّ ﷺ فقال: «يا أهلَ الخندق، إنّ جابرًا قد صَنَع سؤْرًا فحيَّ هلًا بكم»، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تُنزِلُنّ بُرْمَتَكم، ولا تَخبِزُنَّ عجينَكم حتّى أجيءَ». فجئتُ وجاء رسولُ الله ﷺ يقدُمُ النّاسَ، حتّى جئتُ امرأتي، فقالت: بِكَ وَبِكَ. فقلتُ: قد فعلتُ الّذي قُلتِ. فأَخْرَجَتْ له عجينًا، فبَصَق فيه وبارَك، ثمّ عَمِد إلى بُرْمَتِنا فبَصَق وبارَكَ، ثمّ قال: «ادعُ خابزةً فلْتُخبِزْ معي، واقدَحي من بُرْمَتِكم ولا تُنزِلوها»، وهم ألفٌ، فأَقْسَم بالله لقد أكلوا حتّى ترَكوهُ وانحرَفوا، وإنّ بُرْمَتَنا لَتَغِطُّ كما هي، وإنّ عجينَنا ليُخبَزُ كما هو[1].

قدوم جيش الكفار:

وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ لم تتجاوَزْ ستةَ أيام، بَذَل فيها المسلمونَ جهودًا جبارةً ليلَ نهارَ، واكتَملَ حَفْرُ الخندق، وحينَئذٍ قام النبيُّ ﷺ بتوزيع أفرادِ الجيش الإسلاميِّ والذي كان تَعدادُه يبلُغ ثلاثةَ آلافِ رجل، على الأماكنِ المناسبة، وحين أكمَلَ المسلمونَ استعداداتِهم دَخَل جيشُ المشركينَ العربِ الجَرَّارُ إلى حدودِ المدينة المنورة، وكان المشركونَ يعتقدونَ فيما يتعلَّقُ بالحرب أنهم سيكتسِحونَ هذه البلدةَ الصَّغيرةَ المسَمّاةَ بالمدينةِ المنوَّرة كالسَّيل الجارف، وأنهم سيَسْحَقونَ المسلمينَ سحقًا في ساعاتٍ قليلة، ولكن حين رأَوْا هذا الخندقَ العميقَ العريضَ يَحُولُ دونَ

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ٣٠ برقم ٤١٠٢.

تقدُّمِهم في طريقِهم، عندَئذٍ فَقَدوا صوابَهم، فهم لم يتصوَّروا أبدًا أن يُعيقَهم مثلُ هذا العائق، ولهذا لم يكنْ أمامَهم سوى أن ينصِبوا خيامَهم على الجانبِ الآخَر من الخَنْدق، وحاصَروا المسلمينَ، وأخَذوا ينتظرونَ الوقتَ المناسبَ لبدءِ الهجوم.

وذاتَ يوم خَرَج الفارسُ العربيُّ المعروف عَمْرُو بن عَبْدود معَ بعضِ رفاقِه المحارِبينَ يتفقَّدونَ الخَنْدق، وفي مكانٍ ما كان الخندقُ ضيِّقًا بعضَ الشيء، فوَخَزَ عَمْرٌو حصانَه فقَفَز بسُرعةِ البرق إلى الجانبِ الآخَر من الخندق، وصاحَ قائلًا: هل من مُبارِز؟ فلمّا سَمِع أسدُ الله سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه تهديداتِ هذا الكافر تقَدَّم منه حاملًا سيفَه يُلوِّحُ به في الهواء، وتبارَزَ الاثنانِ بشجاعةٍ بالغة، فكان الغبارُ يتطايرُ إلى درجةِ أنه كان يُخفيهما بينَ طَيّاتِه، وكان حبيبُ الله النبيُّ ﷺ منشغلًا إذْ ذاك بالدُّعاءِ بالنَّصر لسيِّدِنا عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه بعيونٍ دامعة، وبعدَ لحظات انقَشَع الغبارُ، فرأَتِ الدُّنيا أسدَ الله تعالى جاثمًا فوقَ صدرِ الكافر، يَفصِلُ رأسَه عن جسَدِه بسيفِه، وبعدَ هذه الواقعةِ ظلَّ الكفّارُ يحاصِرونَ المكانَ لما يقرُبُ من شهرٍ كامل، ولكنْ لم يَجرُؤْ واحدٌ منهم على الهجوم.

وبعدَ ذلك قرَّرت قبيلةُ بني قُرَيْظةَ اليهوديّةُ التي تسكنُ المدينةَ خَرْقَ المعاهدة والهجومَ على المسلمينَ من الداخل، فأرسَلَ النبيُّ ﷺ خمسَمائةٍ من المجاهدينَ لحمايةِ المدينةِ الطيِّبة، فكانوا يتجوَّلونَ في شوارعِها وحَوارِيها، ويهتِفون مكبِّرينَ بصوتٍ عالٍ يتردَّدُ صداهُ في أرجاءِ المدينةِ كلِّها، وبفَضْل هذه الخطوةِ المناسبة التي جاءت في وقتِها خاف اليهودُ وعَرَفوا أنّ المسلمينَ غيرُ غافلينَ عنهم، وأنّهم لو قاموا بأيِّ خطوةٍ حمقاءَ فسيلقَوْنَ من العقابِ ما تذكُرُه الأجيالُ القادمةُ ولا تنساه.

لم يجدوا وقتًا للصلاة:

حاول المشركونَ مرارًا أثناءَ الحصارِ عبورَ الخَنْدق، لكنَّهم لم يَنجَحوا في ذلك، وذاتَ يوم تبادَلَ الطرفانِ التراشُقَ بالحجارةِ ورَمْي السِّهام، واستمرَّ هذا التراشقُ ولم ينقطعْ إلى درجةِ أنّ المسلمينَ لم يجدوا وقتًا لأداءِ صلاةِ الظهر والعصرِ والمغربِ والعشاء، وحينَ دَخَل النبيُّ ﷺ خيمتَه في اللَّيل أمَرَ سيّدَنا بلالًا رضي الله عنه بأن يؤذِّنَ للصَّلاة، وأُقيمتِ الصَّلاة، وصَلَّى الجميعُ خلفَ سيّدِهمُ المصطفى ﷺ صلاةَ الظُّهر، ثُم أُقيمت بعدَ ذلك صَلَواتُ: العصرِ والمغربِ والعشاء، ورَغْمَ أنّ الجميعَ كانوا قد أصابَهم الإرهاقُ الشَّديدُ بسببِ الانهماكِ في الجهاد من الصَّباح إلى منتصَفِ اللَّيل، لكنَّهم حين وَقَفوا للسجودِ في حضرةِ اللهِ تعالى كانوا كأنّهم لم يُصِبْهم تعبٌ أو نَصَب، وكانوا كذلك في غايةِ النَّشاطِ والخِفّة.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: إنّ المشركينَ شَغَلوا رسولَ الله ﷺ عن أربع صَلَواتٍ يومَ الخَنْدق حتّى ذهبَ من اللّيل ما شاء اللهُ، فأمَرَ بلالًا فأذّن ثمّ أقام فصَلّى الظّهرَ ثمّ أقام فصَلّى العصرَ ثمّ أقام فصَلّى المغربَ ثمّ أقام فصَلّى العشاءَ[1].

حين طال حصارُ الكفّارِ ثارَ العديدُ من الإشاعات، وساد سوءُ الظنِّ بينَ المعادِينَ للإسلام، فقد أخَذَت المُؤَنُ تتناقَصُ تدريجيًّا، وتدَنَّت معنويّاتُهم بسببِ البردِ الشديد، وفي ليلةٍ من الليالي ثارت عاصفةٌ شديدة، وتقطَّعت حبالُ خيامِهم، وانقلبت قدورُهم، وانفلتت خيولُهم من قيودِها وفَرَّت هاربةً، وانتشَر الخوفُ بينَ الجيشِ كلِّه، فقدِ اعتقَدوا أنّ هذه العاصفةَ ستُدمِّرُهم، حينَئذٍ ركبَ أبو سفيانَ ـ وكان

(١) الترمذي، أبواب الصلاة: باب ١٨ برقم ١٧٩.

هو قائدَ هذا الأمرِ كلِّه ـ جمَلَه، وصاح قائلًا: إنّي عائدٌ، فغادروا أنتم أيضًا، وهكذا حينَ رأت قُريشٌ قائدَ جيوشِهم يفِرُّ من الميدانِ بهذا الجُبنِ الشّديد آثَرتِ السلامةَ في الهروبِ أيضًا.

يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «وكانت هذه الرِّيحُ معجِزةً للنبيِّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ والمسلمينَ كانوا قريبًا منها، لم يكنْ بينَهم وبينَها إلّا عَرْضُ الخندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبرَ عندَهم بها»[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ١٢ نوفمبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٤ ذي القَعدة ١٤٣٠هـ.

❋ ❋ ❋

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٩.

سُورَةُ الأَحْزَابِ (٣٣)،

مدنية (٩٠)، آياتها (٧٣)، ركوعاتها (٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾

١ ـ تعريفُ النبيِّ:

اصطلاحًا: النبيُّ يقالُ لذلك الإنسانِ المقدَّسِ الذي يختارُه اللهُ تعالى لتبليغِ

رسالتِه، ولهذا فإنّ المرادَ بالنبيِّ هو: ذلك الواسطةُ المقدَّسةُ التي تُبلِّغُ أحكامَ الله تعالى إلى عبادِه عن طريقِ الوَحْي.

معنى النبي:

«المُخبِرُ عنِ الغيبِ، أو المُستَقبَلِ بإلهامٍ من الله»[١].

:Prophet

يُستعمَلُ لفظُ (Prophet) في اللغةِ الإنجليزيَّة للدِّلالة على النبيِّ، ومعناه في الإنجليزية كالتالي: «النبيُّ هو: ذلك الإنسانُ المقدَّسُ الذي يكونُ على يقينٍ كاملٍ بأنه مرسَلٌ من ربِّه نبيًّا، وبهذا الاعتبار فإنّ النبيَّ يُعَدُّ الناطقَ باسم ربِّه»[٢].

ما المراد بعلم الغيب؟

العـلمُ الذي يـكونُ بالتفكُّرِ والتـدبُّر، وبالشـواهدِ والأجـهزة، مثلَ: معرفةِ نزولِ المـطر عن طريـقِ السُّحُب، ومعـرفةِ وَضْع الجنـينِ في بطـنِ أُمِّه عـن طريقِ الأشعّةِ التلفزيونيَّة، لا يُطـلَقُ عليـه عِلمُ الغَيْـب، فعلمُ الغيب هو: الذي يكونُ عطاءً من الله تعـالى بغيرِ وسائلَ أو أسبـابٍ مثلَمـا يقـولُ اللهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

---

(١) المنجد.

(٢) The term of prophet refers to an inspired person who believes that he has been sent by his God with a message to tell. He is, in this sense, the mouthpiece of his God. (Encyclopedia Britanica: vo;. **15**)

الله تعالى يعطي علم الغيب لمن يشاء من عباده:

وهذه أمثلةٌ على هذا فتدبَّرْها:

- قال سيّدُنا عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

- قال رسولُ الله ﷺ، فيما رواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «هل ترَوْنَ قِبلتي ها هنا؟ واللهِ ما يخفَى عليّ ركوعُكم ولا خشوعُكم، وإنّي لَأراكم وراءَ ظهري»[1]، فالركوعُ يقالُ للصُّورةِ الظاهريّةِ من الصَّلاة، أمّا الخشوعُ فيقالُ للكيفيّةِ الباطنة، ولهذا يُعلمُ من هذا الحديثِ أنّ النبيَّ ﷺ يَعلَمُ ظاهرَ كلِّ شيءٍ وباطنَه، ويَعلَمُ كذلك ما يَغيبُ عن الأعيُن؛ لأنّ وجهَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في الصَّلاة يكونُ إلى القِبلة، والصَّحابةُ الكرامُ في صفوفٍ خلفَه، وبالرَّغم من ذلك يَعلَمُ النبيُّ ﷺ ظاهرَهم وباطنَهم.

نداء النبي ﷺ بأسماء صفاته:

لم يخاطِبِ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ في القرآنِ الكريم باسم ذاتِه، يعني: «يا محمد»، وإنّما خاطَبه قائلًا: «يا أيُّها الرَّسُولُ» أو «يا أيُّها النَّبيُّ» وغيرَهما من أسماءِ صفاتِه ﷺ، بينَما خاطَبَ الأنبياءَ الآخَرينَ بأسماءِ ذَواتِهم، يعني: «يا آدمُ، يا موسى، يا عيسى»، ويُبيِّنُ العلّامةُ سيِّد محمود الآلُوسي سببَ ذلك قائلًا: «ناداه جَلَّ وعلا بوَصْفِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ دونَ اسمِه تعظيمًا له وتفخيمًا»[2].

---

(١) البخاري، كتاب الآذان: باب ٨٨ برقم ٧٤١.

(٢) تفسير روح المعاني.

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

٢ ـ جاء في التفاسيرِ بيانُ سببِ نزولِ الآياتِ الثلاثِ الأُولى من هذه السُّورة: بأنّها نَزَلت «في أبي سُفيانَ بن حَرْبٍ وعِكرِمةَ بن أبي جهلٍ وأبي الأعورِ عَمْرِو بن سُفيان، نَزَلوا المدينةَ على عبدِ الله بن أُبيٍّ ابن سَلُولٍ رأسِ المنافقينَ بعدَ أُحُدٍ، وقد أعطاهم النّبيُّ ﷺ الأمانَ على أن يُكلِّموه، فقام معَهم عبدُ الله بنُ سعدِ بن أبي سَرْحٍ وطُعمةُ بن أُبَيْرِقٍ، فقالوا للنّبيِّ ﷺ وعندَه عُمرُ بنُ الخطّاب: ارفُضْ ذِكرَ آلهتِنا اللّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، وقل: إنّ لها شفاعةً ومنَعةً لمَن عَبَدها، ونَدعْك وربَّك. فشَقَّ على النّبيِّ ﷺ ما قالوا، فقال عُمر: يا رسولَ الله، ائذَنْ لي في قتلِهم، فقال النّبيُّ ﷺ: «إنّي قد أعطيتُهم الأمانَ»، فقال عُمر: اخرُجوا في لعنةِ الله وغضَبِه. فأمَرَ النّبيُّ ﷺ أن يُخرَجوا من المدينة، فنزلتِ الآيةُ»[1]، يعني: لا تنخدِعْ يا رسولَ الله ﷺ بكلام المنافقينَ وتُقدِّمْ أيَّ تنازُلاتٍ في الأمورِ الدِّينية، وإنّما عليك أن تتقيَ اللهَ وتتوكَّلَ عليه، وأن تستمرَّ في اتِّباع الوحيِ الذي ينزِلُ عليك من الله تعالى، وربُّك حسيبُك في نُصرتِك وحمايتِك وعَوْنِك.

ليس هناك أدنَى شكٍّ في ثباتِ النبيِّ ﷺ وتوكُّلِه على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه ﷺ معصوم، ولا يوجَدُ أيُّ احتمالٍ لأنْ يخالفَ الأحكامَ الإلهيَّةَ، ولهذا فإنّ الخطابَ في هذه الآية ـ وإن كان للنبيِّ الكريم ﷺ في الظاهر ـ إلا أنّ المرادَ به الأُمةُ كلُّها، حتى يتوكَّلَ المسلمون ـ إلى قيام الساعة ـ على اللهِ تعالى وحدَه، ويثبُتوا على الإسلام.

كما أنّ هذه الآياتِ نَزَلت في المدينةِ المنوَّرة، وكان آلافُ الناس قد دَخَلوا في الإسلام حتى ذلك الوقت، لكنّ استقامةَ النبيِّ ﷺ وخَوْفَه من اللهِ تعالى كانت واضحةً أيضًا حتى من قَبْلِ هجرتِه، حين لم يكنْ معَه غيرُ عددٍ قليل من المسلمين،

---

(١) تفسير القرطبي.

وكانوا فريسةً لمظالمِ الكفّارِ لهم، وفي ذلك الوقتِ أيضًا طالَبَ سادةُ قُريشٍ النبيَّ الكريمَ ﷺ قائلين: يا محمَّد! إن كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديث (الإسلام) تطلُبُ به مالًا جَمَعْنا لك من أموالِنا حتى تكونَ أكثرَنا مالًا، وإن كنتَ إنّما تطلُبُ الشَّرفَ فينا فنحن نُسوِّدُك ونُشرِّفُك علينا، وإن كنتَ تريدُ مُلكًا مَلَّكْناك علينا، وإن كان أنّ ما بك الباءةَ، فاختَرْ أيَّ نساءِ قُريشٍ فنُزوِّجَك عَشْرًا، ولكنِ ارجِعْ إلى دينِنا واعبُدْ آلهتَنا واترُكْ ما أنت عليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما جئتُ بما جئتُكم به أطلُبُ أموالَكم ولا الشَّرفَ فيكم ولا المُلكَ عليكم ولكنّ اللهَ بعثَني إليكم رسولًا. «والله! لو وَضَعتُم الشّمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أترُكَ هذا الأمرَ حتّى يُظهِرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تَرَكْتُه»[1]. فأيُّ أمنيةٍ في هذه الدُّنيا المادّيةِ يمكنُ أن تكونَ أعظمَ من أن يكونَ إنسانٌ حاكمًا على بلدِه، وأكثرَ أهلِها غنًى؟ لكنّ مُهمَّتَه ﷺ ليست جَمْعَ الثروة أو حُكمَ الناس، وإنّما كانت الدَّعوةَ إلى التوحيد، ولهذا وَاجَهَ النبيُّ ﷺ مصائبَ كالجبال، لكنّه لم يتراجَعْ أبدًا عن مُهمّتِه في الدَّعوةِ إلى التوحيد.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾

٣ ـ كان أحدُ المنافقينَ يدَّعي أنّ له قلبَيْنِ، أحدُهما معَ المسلمين، والآخَرُ معَ الكافرين[2]، فنَزَلت هذه الآيةُ ردًّا عليه بأنه «لا يجتمعُ الكُفرُ والإيمانُ بالله تعالى في قلبٍ كما لا يجتمعُ قلبانِ في جوف»[3].

---

(١) سيرة ابن كثير، ١: ٤٧٤، والسيرة الحلبية، ١: ٤٣٠.
(٢) الترجمة الأردية للقرآن الكريم وتفسيره، مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم، المملكة العربية السعودية.
(٣) تفسير القرطبي.

وفي هذا إشارةٌ إلى الآياتِ التالية بعدَ ذلك، أي: كما أنه لا يكونُ في جسم الإنسانِ الواحد قلبانِ، لا يمكنُ أن يكونَ لإنسانٍ واحدٍ والدتانِ حقيقيَّتانِ، ولا والدانِ حقيقيَّانِ، فأُمُّه الحقيقيّةُ واحدةٌ، وهي التي وُلِد من بطنِها، وأبوه الحقيقيُّ أيضًا واحدٌ، وهو الذي وُلِد من نُطفتِه، والحقيقةُ لا تتغيَّرُ بقولِنا لأحدٍ: أُمِّي، أو: أبي.

اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، ويفعَلُ ما يشاء، لكنّ سُنّتَه أن يكونَ في فم الشّخصِ الواحدِ لسانٌ واحدٌ، وفي جسمِه قلبٌ واحدٌ أيضًا، ولكنْ إن قيل: إنّ فلانًا ليس في فمِه لسانٌ واحدٌ وإنّما لسانان، فليس معنى هذا أنّ في فمِه لسانَيْنِ فعلًا، وإنّما المرادُ منه نُعومةُ حديثِ هذا الشّخصِ وكذِبُه في القول، وبنفسِ الطريقة إذا قيل: إنّ فلانًا ليس في جسمِه قلبٌ واحدٌ وإنما قلبانِ، فليس معناه أنّ في جسمِه قلبَيْنِ فعلًا، وإنّما المرادُ منه ازدواجيَّتُه في التعامل ونفاقُه.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾

٤ ـ قبلَ الإسلام كان الشّخصُ في الجزيرةِ العربيّةِ إذا قال لزوجتِه: «أنتِ علَيَّ كظَهْرِ أُمِّي»، فإنّ هذا كان يُعَدُّ طلاقًا، وتصبحُ هذه المرأةُ حرامًا عليه؛ لأنه شَبَّه زوجتَه بأُمِّه، وجاء حُكمُ الإسلام في هذا الخصوصِ أنّ الزَّوجةَ لا تصبحُ أُمًّا إذا قال لها زوجُها بلسانِه: إنّها كأُمِّه، وبالتالي لا يقَعُ الطلاقُ، إلا أنّ الإسلامَ مَنَع من مِثلِ هذا القولِ أيضًا، فإذا قال زوجٌ مِثلَ هذا القولِ يصبحُ من الواجبِ عليه أداءُ كَفّارة، ويقالُ لهذا الأمر في الاصطلاح الفِقهيِّ: «الظِّهار»، وسيأتي بيانُه تفصيلًا إن شاء اللهُ تعالى في تفسير بدايةِ سُورة المجادلة (٥٨).

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾

٥ ـ قبلَ الإسلام كان الشَّخصُ في الجزيرةِ العربيّةِ إذا تبنَّى وَلَدًا فإنّ هذا الوَلَدَ

يحصُلُ على كلِّ الحقوقِ التي تكونُ للابنِ الحقيقيِّ، إلى درجةِ أنه كان يُنسَبُ إلى أبيه الجديدِ الذي تبنّاهُ، يعني: يدعوه الناسُ بابنِ هذا الأبِ الجديد، وقد قضَى الإسلامُ على هذه العادة، بمعنى: أنه لا يمكنُ أن يصبحَ أحدٌ ابنًا حقيقيًّا لأحدٍ دعاه بابنه.

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾

٦ - يعني: انسُبوا الأبناءَ بالتبنِّي إلى آبائهم الحقيقيِّينَ وادعوهم بهم؛ لأنّ هذا هو العدلُ والإنصافُ عندَ اللهِ تعالى، وإنْ لم تكونوا تعلَمونَ آباءهم الحقيقيِّينَ فإنهم بمثابةِ إخوةٍ لكم، فادعوهم بالأخِ أو الصَّديق.

- عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي اللهُ عنهما، أنّ زيدَ بنَ حارثةَ، مولى رسول الله ﷺ، ما كنّا ندعوه إلّا زيدَ ابنَ محمّدٍ، حتّى نَزَل القرآنُ: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1]، أي: فبدَأْنا نَدْعوه «زيدَ بنَ حارثةَ».

وبعدَ نزولِ هذه الآيةِ أصبح حرامًا على المسلمينَ أن يَنسُبوا أحدًا إلى أحدٍ غيرِ أبيه الحقيقيِّ، صحيحٌ أنه إذا نَسبَ أحدٌ أحدًا إلى غيرِ أبيه عن طريقِ الخطأِ، فإنه لا مؤاخَذةَ على الخطأِ والنِّسيان، أمّا إنْ نَسَبه أو نَسَبَ نفسَه إلى غيرِ أبيه قاصدًا ذلك من قلبِه، فإنّ له وعيدًا شديدًا إلى درجةِ أنه قيلَ لهذا الفعل: كفرٌ، ولكنْ إن تابَ مِثلُ هذا الشّخصِ بعدَ ذلك فإنّ اللهَ تعالى يعفو عنه؛ لأنه غفورٌ رحيم.

- يقولُ سيّدُنا سعدُ بنُ أبي وَقّاصٍ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ:

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب (٣٣) برقم ٤٧٨٢.

«منِ ادَّعى إلى غيرِ أبيه، وهو يَعلَمُ أنّه غيرُ أبيه، فالجنّةُ عليه حرامٌ»[١].

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَرغَبوا عن آبائكم، فمن رَغِب عن أبيه فهو كُفرٌ»[٢].

زيد بن حارثة رضي الله عنه:

اتَّفق المفسِّرونَ جميعًا على أنّ هذه الآيةَ نَزَلت في حقِّ سيِّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي اللهُ عنه. يقولُ العَلّامةُ ابنُ حجرٍ العَسْقلانيُّ والعلّامةُ ابنُ الأثير: إنّ قُطّاعَ الطريقِ من بني قَيْسٍ هاجَموا قبيلةَ أُمِّ زيد، ونَهَبوا متاعَ البيت، وأخَذوا زيدًا معَهم عَنْوةً، وباعوهُ في سوقِ عُكاظ، حيث اشتراه حَكيمُ بن حِزام بأربعِمائةِ درهم، وأهداه لعمَّتِه السيّدةِ خديجةَ رضي اللهُ عنها، ولمّا تزوَّجتِ السيّدةُ خديجةُ رضي الله عنها برسولِ الله ﷺ أهدَتْه زيدًا، فقام النبيُّ ﷺ في نفسِ الوقت بإعتاقِه واتَّخذ منه ابنًا له.

وسافَرَ حارثةُ والدُ زيدٍ إلى مناطقَ عديدةٍ بحثًا عنِ ابنِه، وذاتَ يوم عَرَف أنّ ابنَه في مكّةَ، «فخَرَج حارثةُ وكعبٌ أخوه بفدائه، فقَدِما مكّةَ، فسَألا عن النّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقيل: هو في المسجد، فدَخَلا عليه، فقالا: يا ابنَ عبد المطَّلِب، يا ابنَ سيّدِ قومِه، أنتم أهلُ حَرَم الله تَفُكُّونَ العانيَ وتُطعِمونَ الأسير، جئناك في وَلَدِنا عبدِك، فامنُنْ علينا، وأحسِنْ في فدائه، فإنّا سنرفَعُ لك. قال: وما ذاك؟ قالوا: زيدُ بنُ حارثة. فقال: أوَ غيرَ ذلك؟ ادعُوه، فخَيِّروه، فإنِ اختاركم فهو لكم بغيرِ فداءٍ، وإنِ اختارَني فو اللهِ ما أنا بالذي أختارُ على مَنِ اختارني فداءً، قالوا: زِدتَنا

---

(١) البخاري، كتاب الفرائض: باب ٢٩ برقم ٦٧٦٦.

(٢) البخاري، كتاب الفرائض: باب ٢٩ برقم ٦٧٦٨.

على النَّصَف، فدَعاهُ فقال: هل تَعرفُ هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي وهذا عمّي، قال: فأنا مَن قد عَلِمتَ، وقد رأيتَ صُحبتي لك، فاختَرْني أوِ اختَرْهما.فقال زيدٌ: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحدًا، أنت منِّي بمكانِ الأبِ والعمّ.فقالا: وَيْحَك يا زيد، أتختارُ العُبوديّةَ على الحُرِّية، وعلى أبيكَ وعمِّك وأهلِ بيتِك؟ قال: نعم، إنّي قد رأيتُ من هذا الرجُل شيئًا ما أنا بالذي أختارُ عليه أحدًا. فلمّا رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أَخْرجه إلى الحَجَر، فقال: «اشهَدوا أنّ زيدًا ابني، يَرِثُني وأرِثُه»، فلمّا رأى ذلك أبوه وعمُّه طابَتْ أنفُسُهما، وانصَرفا، فدُعِي زيدَ بنَ محمّد، حتى جاء اللهُ بالإسلام. وقد ذَكَر ابنُ إسحاقَ قصّةَ مجيءِ حارثةَ والدِ زَيْدٍ في طلبِه بنحوِه. وقال ابنُ الكَلْبيِّ، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابنِ عباس: لمّا تبنّى النّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم زيدًا زَوَّجه زينبَ بنتَ جَحْش، وهي بنتُ عمَّته أُمَيْمةَ بنتِ عبد المطَّلب، وزَوَّجه النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قبلَ ذلك مَوْلاتَه أُمَّ أيمن، فوَلَدت له أُسامةَ، ثم لمّا طَلَّق زينبَ زَوَّجه أُمَّ كلثوم بنتَ عُقبةَ، وأُمُّها أروى بنتُ كُرَيْز، وأُمُّها البيضاءُ بنتُ عبدِ المطَّلب، فوَلَدت له زيدَ بنَ زيد، ورُقَيّةَ، ثم طَلَّق أُمَّ كلثوم، وتزَوَّج دُرّةَ بنتَ أبي لهبٍ بن عبدِ المطَّلب، ثم طلَّقَها وتَزوَّج هندَ بنتَ العَوّام أُختَ الزُّبير.وقال ابنُ عُمر: ما كنّا ندعو زيدَ بنَ حارثةَ إلّا زيدَ بنَ محمّد، حتى نَزَلت: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾. الحديثَ. أَخْرجه البخاريُّ. ويقال: إنّ النبيَّ صلّى الله عليه وآله وسلّم سَمَّاه زيدًا لمحبّةِ قُريشٍ في هذا الاسم، وهو اسمُ قُصَيّ، وقد تقَدَّم ذِكرُ مجيءِ أبيه إلى مكّةَ في طلبِ فدائه في ترجمته[1].

هذا هو سعيدُ الحظِّ زيدُ بنُ حارثةَ رضي اللهُ عنه، الذي جَعَله النبيُّ ﷺ أميرًا على الجيشِ الإسلاميِّ يومَ مؤتة، وقدِ استُشهد رضي اللهُ عنه في هذه المعركة.

---

(١) أسد الغابة، ٢: ٢٣٨، والإصابة، ٢: ٢٤١.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾

٧ ـ النبيُّ ﷺ أقربُ إلى المؤمنينَ من أنفسِهم، وأحبُّ إليهم منها، ورحيمٌ بهم ومُحِبٌّ لهم أكثرَ من أنفسِهم، وإليك بعضَ وَمَضاتٍ من هذا الأمر:

ـ من الممكنِ أن يَلحَقَ أذًى بشخصٍ ما من قِبَل أُمِّه أو أبيه أو أصدقائه أو أحبابِه، سواءٌ بقَصْدٍ أم بغيرِ قصد، ومن الممكنِ أن يُضِلُّوه أيضًا، لكنّ النبيَّ ﷺ ينصحُ دائمًا بما فيه فلاحُ الدّنيا والآخِرة، حتى أنّ كلَّ عمَلٍ يؤْذي أهلَ الإيمانِ في الدنيا، أو يمكنُ أن يكونَ سببًا في دخولِهم جهنَّمَ في الآخِرة كان يُحزِنُ النبيَّ ﷺ كثيرًا مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ـ في بعضِ الأحيانِ يسيرُ الإنسانُ على طريقِ الهلاك باتِّباعِه هوى نفسِه، لكنّ النبيَّ ﷺ يدعو دائمًا إلى النَّجاة، مثلَما قال سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّما مَثَلي ومَثَلُ أُمّتي كمَثَل رجُلٍ استَوْقدَ نارًا فجَعَلتِ الدّوابُّ والفراشُ يقَعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجزِكم وأنتم تقَحَّمونَ فيه»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أنا أَوْلى بالمؤمنين من أنفسِهم، فمَن تُوفِّي من المؤمنينَ فتَرَك دينًا فعليَّ قضاؤه، ومَن تَرَك مالًا فلوَرَثتِه»[٢]، ويقولُ أهلُ العِلم في شرح هذا الحديث: إنه إذا مات مسلمٌ وعليه دَيْنٌ، وليس في استطاعةِ بيتِه سدادَ هذا الدّينِ، فإنّ سدادَه يكونُ واجبًا على الحاكم المسلم يؤدِّيه من بيتِ المال.

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل: باب ٦ برقم ٥٩٥٥.

(٢) البخاري، كتاب الكفالة: باب ٥ برقم ٢٢٩٨.

فالنبيُّ الذي يكونُ رحيمًا إلى هذا الحدِّ بأُمّتِه يصبحُ حقًّا على هذه الأُمّةِ أن تُحبَّه أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخَرَ، وأن تخضعَ لكلِّ حُكم من أحكامِه، مثلًا:

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إن النبيَّ ﷺ قال: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من والدِه ووَلَدِه والنّاسِ أجمعين»(١).

ـ يَروي سيّدُنا زُهرةُ بن مَعْبدٍ، عن جدِّه، أنه قال: كنّا معَ النّبيّ ﷺ وهو آخِذٌ بيدِ عُمرَ بن الخطّاب، فقال له عُمرُ: يا رسولَ الله، لَأنت أحبُّ إليّ من كلِّ شيءٍ إلّا من نفسي. فقال النّبيُّ ﷺ «لا، والّذي نفسي بيدِه (لا يمكنُ أن تكونَ مؤمنًا كاملَ الإيمان) حتّى أكونَ أحبَّ إليك من نفسِك»، فقال له عُمرُ: فإنّه الآنَ ـ والله ـ لَأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النّبيُّ ﷺ: «الآنَ يا عمر (أنت كاملُ الإيمان)»(٢).

ـ كما أنّ حبَّ النبيِّ ﷺ مقدَّمٌ على كلِّ ما سواه بالنِّسبة للمؤمن الكامل، فإنّ حُكمَ النبيِّ ﷺ وطاعتَه مقدَّمةٌ على ما سواها، مثلَما قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

ـ قال النبيُّ ﷺ، فيما رواه عنهُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يكونَ هواه تِبْعًا لِما جئتُ به»(٣).

﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾

٨ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «شَرَّف اللهُ تعالى أزواجَ نبيِّه ﷺ بأنْ جعَلهُنّ

(١) البخاري، كتاب الإيمان: باب ٨ برقم ١٥.
(٢) البخاري، كتاب الأيمان والنذور: باب ٣ برقم ٦٦٣٢.
(٣) مشكاة المصابيح، الاعتصام بالكتاب والسنة.

أمّهاتِ المؤمنين، أي: في وجوبِ التّعظيم والمبَرّةِ والإجلال، ثمّ إنّ في مصحفِ أُبيٍّ بن كَعْبٍ: «وأزواجُه أُمّهاتُهم وهُو أبٌ لهُم»[١]، ومثلَما قال النبيُّ ﷺ نفسُه فيما رواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «إنّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمُكم»[٢]، ويُعلَمُ منه أنّ النبيَّ ﷺ أبونا الدِّينيُّ والرُّوحي، وأنّ أزواجَه المُطهَّراتِ رضي اللهُ عنهُنَّ أُمّهاتُنا الدِّينيّاتُ والرُّوحيّات، وباعتبارِ هذه القَرابة فإنّ المسلمينَ جميعًا ـ رجالًا ونساءً ـ إخوةٌ وأخَواتٌ فيما بينَهم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾

٩ ـ بعدَ الهجرة آخَى النبيُّ ﷺ بينَ المهاجِرينَ والأنصار، وبسببِ ذلك كانوا يرِثُ بعضُهم بعضًا، وبعدَ نزولِ هذه الآية من القرآنِ الكريم تحدَّدتِ الوراثةُ في الأقاربِ فقط، ومنذُ ذلك الوقتِ وإلى الأبدِ سيظلُّ هذا الحُكمُ القرآنيُّ نافذًا، إلّا أنه إذا أراد شخصٌ أن يُحسِنَ إلى أصدقائه فإنّه يستطيعُ أن يُوصيَ لهم من ثُلُثِ مالِه، ولمزيدٍ من التفصيل عن الوصيَّة راجع الحاشيةَ رقم ١٣ للآية رقم ١١ من سُورة النساء (٤).

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾

١٠ ـ أخَذ اللهُ تعالى من النبيِّين جميعًا ميثاقًا بأنْ يتحمَّلوا المسئوليّةَ التي عَهِد بها إليهم ويقوموا على أمرِها، ولهذا جاء ذِكرُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ في هذه الآية

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) أبو داود، برقم ٨، كتاب الطهارة: باب ٤.

بغيرِ ذِكرِ أسمائهم أولًا، ثم بعدَ ذلك ذُكِرتْ أسماءُ خمسةِ أنبياءَ بصفةٍ خاصّة، معَ أنّ ذِكرَ هؤلاء الأنبياءِ الخمسةِ قد جاء ـ بطبيعةِ الحال ـ ضمنَ ذِكرِ الأنبياءِ جميعًا، لكنّه تعالى ذَكَرهم بشكلٍ خاصّ تكريمًا لهم؛ لأنّهم من أُولي العَزْم من الرُّسُل، وكلٌّ واحدٍ منهم نبيٌّ صاحبُ كتابٍ وصاحبُ شريعة[1].

ولو نظَرْنا إلى هؤلاءِ الأنبياءِ الكرام المذكورينَ في الآية باعتبارِ زمانِهم لَوجَدْنا أوّلَهم هو: سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلام، الذي بُعِث نبيًّا، ثم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السلام، ثم سيّدُنا موسى عليه السَّلام، ثم سيّدُنا عيسى عليه السَّلام، ثم سيّدُنا محمّدٌ ﷺ آخِرَهم، لكنّ ذِكرَ سيّدِنا محمدٍ ﷺ جاء أوّلًا في هذه الآية، وذلك إظهارًا لشَرَفِه وعظَمتِه وشأنِه، كما أنّ في ذلك إشارةً إلى أنّ النبيَّ ﷺ قد خُلق قبلَ الجميع، وإن كان قد بُعِث بعدَ الأنبياءِ جميعًا، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: سئل رسولُ الله ﷺ عن قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال: «كنتُ أوّلَهم في الخَلْق وآخِرَهم في البَعْث»[2].

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: قالوا: يا رسولَ الله، متى وَجَبتْ لك النّبوّة؟ قال: «وآدمُ بينَ الرُّوح والجسَد»[3]. ولمزيدٍ من التفصيل عن العهدِ الواردِ في هذه الآية راجعِ الحاشيةَ رقم **٤٣** للآية رقم **٨١** من سُورة آل عِمران **(٣)**.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

١١ ـ المرادُ بالصّادقيـنَ في هذه الآيـة هم: الأنبيـاءُ والرُّسُلُ، يعني: أنّ اللهَ

---

(١) «وإنّما خصّ هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النّبيّين تفضيلاً لهم. وقيل: لأنّهم أصحاب الشّرائع والكتب، وأولو العزم من الرّسل وأئمّة الأمم». تفسير القرطبي.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم **٣٦٠٩**، وكنز العمال، برقم **٣١٩١٧**.

تعالى سيَسألُ الأنبياءَ يومَ القيامة: ماذا فعلوا في توصيل رسالتِه إلى بني الإنسان، وماذا كان ردُّ أُمَمِهم عليهم؟ وسيَسألُ اللهُ تعالى هذه الأُمَم أيضًا: إلى أيِّ مدًى قَبِلوا دعوةَ أنبيائهم لهم؟ وسيَنالُ الذين أنكَروا دعوةَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ عذابًا أليمًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

١٢ ـ مثلَما حَفرتُم الخَندقَ في غزوةِ الأحزاب برَغْم الجوع والبرد، وواجهتُم

الكفّارَ بشجاعةٍ برَغْم قلةِ عددِكم، فإنّ اللهَ تعالى - بسببِ إيثارِكم وتضحيتِكم هذه - قد أمَدَّكم بمَدَدٍ غَيْبيٍّ من عندِه، لهذا عليكم أن تذكُروا فَضْلَ الله عليكم حينَ أَقْبل جيشٌ من مختلفِ القبائل في شبهِ الجزيرةِ العربيّة قِوامُه عشَرةُ آلافِ رجلٍ ليهاجِمَكم، فأرسَلَ اللهُ تعالى ريحًا عاصفًا وملائكةً أرعَبَت قلوبَ أعدائكم، فخافوا وفَرُّوا هاربين.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسير هذه الآية: «وكانت هذه الرِّيحُ معجزةً للنبيِّ ﷺ؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ والمسلمينَ كانوا قريبًا منها، لم يكنْ بينَهم وبينَها إلّا عرضُ الخَندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبرَ عندَهم بها»[1]، وفي هذه الآياتِ ذِكرٌ لغزوةِ الأحزاب، ولهذا فإنه، من أجلِ فهم سياقِ هذه الآياتِ عليك أن تطالعَ أولًا أحوالَ غزوةِ الأحزابِ التي تحدَّثنا عنها في التعريفِ بالسُّورة.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾

١٣ - جاء كفّارُ ويهودُ خَيْبَر من ناحيةِ المناطق العُلْويّةِ للمدينة، بينَما جاء مشركو مكّةَ وضواحيها إليها من ناحيةِ المناطق المنخفِضة في غَرْبِها، أي: أنّ جيشًا ضخمًا من عشَرةِ آلاف رجُل هاجَمَ المدينةَ من كلِّ ناحية، وقد أصابكمُ الخوفُ والرُّعبُ عندَما رأيتُم كثرةَ الكفّار، وزاغَت أبصارُكم، وبَلَغت قلوبُكم حناجرَكم، حتى أنّ المنافقينَ منكم أساءوا الظنَّ باللهِ تعالى معتقدينَ أنّ اللهَ تعالى لن يُمِدَّكم بعَوْنِه في ذلك اليوم، وأنه سيُقضَى على المسلمين قضاءً مُبرَمًا، وبالتالي فَرُّوا هاربينَ من الميدان، بينَما ثَبَت أهلُ الإيمانِ مع حبيبِهم النبيِّ ﷺ وكلُّهم أملٌ في نُصرةِ الله تعالى لهم.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٩.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

١٤ ـ كانت غزوةُ الأحزابِ بمثابةِ الاختبارِ الشَّديد للمسلمين، حتى يتَّضحَ الفرقُ بينَ المؤمنينَ والمنافقين.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

١٥ ـ حين حَطَّم النبيُّ ﷺ الصَّخرةَ وقصَّ عليهم خبرَ فتوحاتِ قَيْصرَ وكِسرى قال المنافقون: إنّ هذا خِداعٌ مَحْض، فكيف يمكنُ ـ أصلًا ـ أن يُخبِرَنا محمَّدٌ ﷺ من جانبٍ أنّ قصورَ قَيْصَر وكسرى تتراءَى له، وأنّ المسلمينَ سيفتَحونَ تلك البلادَ، وعلى الجانبِ الآخَر لا يَملِكُ المسلمونَ القوةَ على مواجهة القبائلِ العربيّةِ فقط، ويقومونَ مِن خَوْفِهم بحَفْر خندقٍ لحمايةِ أنفسِهم، كيف يمكنُ أن يفتحَ هؤلاءِ بلادَ قَيْصَر وكسرى إذًا؟ ولكنْ، بعدَ عدّةِ أيام رأى المنافقونَ بأعيُنِهم ظهورَ معجزةٍ من معجزاتِ النبيِّ ﷺ في صُورةِ الرِّيح العاصف، وعاد جيشُ القبائل العربيّةِ الضَّخمُ ـ من حيثُ جاء ـ يَجُرُّ أذيالَ الخَيْبة، ثم إنّ التاريخَ قد شَهِد ذلك الوقتَ الذي فُتِحت فيه بلادُ قَيْصَر وكِسرى في عهدِ سيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي الله عنه.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾

١٦ ـ في هذه الآيةِ قال المنافقونَ للمدينةِ المنوَّرة: يَثْرِبُ، ورَغْم أنّ اسمَ المدينةِ المنوَّرة كان يَثْرِبَ بالفعلِ قَبْلَ هجرةِ النبيِّ ﷺ إليها، لكنّ النبيَّ ﷺ قد مَنَع من أن يُقالَ لها: يَثْرِبُ؛ لأنّ معنى «يَثْرِبَ» ليس جيّدًا، وكلُّ شيءٍ أو شخص كان معنى اسمِه مخالفًا للعقائدِ الإسلاميّة، أو ليس جيِّدًا، فإنّ النبيَّ ﷺ كان يُغيِّرُ هذا الاسمَ، وإليك بعضَ الأمثلةِ على هذا:

ـ كان اسمُ سيّدِنا أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه: «عبدَ الكعبة»، ثم غيَّره النبيُّ ﷺ إلى: «عبدِ الله».

ـ كان اسمُ سيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: «عبدَ شمس»، فغيَّره النبيُّ ﷺ إلى: «عبدِ الرَّحمن»، ولا تزالُ سُنّةُ النبيِّ ﷺ هذه قائمةً حتى يومِنا هذا، فحين يكونُ اسمُ أيِّ مسلم مخالفًا للعقائدِ الإسلاميّة يتِمُّ تغييرُ هذا الاسم.

ـ علاوةً على مخالفةِ الاسم للعقائدِ الإسلامية، فإنّه إذا كان معنى اسم أحدٍ يشيرُ بداخِله إلى سُوءٍ أو قُبحٍ فإنّ النبيَّ ﷺ كان يغيِّره[1]، على سَبيل المثال: كانت هناك فتاةٌ تُسمَّى «عاصيةَ»، فغيَّره النبيُّ ﷺ إلى «جميلةَ»[2].

ـ وبنفسِ الطريقة كان هناك اقتراحٌ بأن يُسمَّى سيّدُنا الحُسَينُ رضي اللهُ عنه «حَرْبًا»، لكنّ النبيَّ ﷺ سَمّاه «الحُسَينَ»[3].

أمر يستحق التدبر والتمعن:

الدِّينُ الذي لا يحبُّ اسمًا يدُلُّ في جانبٍ منه على سوءٍ أو عصيانٍ أو سَفْكِ دماءٍ أو حربٍ وما شابَهَها، كيف يحبُّ مِثلُ هذا الدِّين من بني الإنسانِ مَن ينشُرُ الفاحشَة والإرهاب، أو يخالفُ القانونَ ويَسفِكُ الدِّماء؟

---

(١) «عن عائشة، أنّ النّبيّ ﷺ كان يغيّر الاسم القبيح». الترمذي، أبواب الأدب: باب ٦٦ برقم ٢٨٣٩.

(٢) «عن ابن عمر، أنّ النّبيّ ﷺ غيّر اسم عاصية وقال: أنت جميلة». الترمذي، أبواب الأدب: باب ٦٦ برقم ٢٨٣٨.

(٣) «عن علي رضي الله عنه قال: لما ولد الحسين سميته حربًا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أروني ابني ما سميتموه، قلت: حربًا، قال: بل هو حسين». مجمع الزوائد، ٨: ٥٢.

فضل المدينة المنورة وروضة الرسول ﷺ:

ـ يقولُ سيّدُنا زيدُ بنُ ثابتٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال «إنّها طَيْبَةُ، تَـنْفِي الذُّنوبَ كما تَنفي النّارُ خَبَثَ الفِضَّة»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا حاطبُ بنُ حارثٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن زارَني بعدَ موتي فكأنّما زارَني في حياتي، ومَن مات بإحدى الحرمَيْنِ بُعِث من الآمِنينَ يومَ القيامة»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَمْرٍو رضي اللهُ عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن حجَّ البيتَ ولم يَزُرْني فقد جَفَاني»[٣].

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

١٧ ـ في هذه الآيةِ الكريمة ذُكِرت طائفتانِ من المنافقين، إحداهُما: اعتَقَدَتْ أنّ الوقوفَ في وَجْه جيشٍ جَرّار قِوامُه عشَرةُ آلافِ رجُل بمثابةِ دعوةِ الموتِ لأنْ يَحيقَ بهم، فلو هَجَم هذا الجيشُ فجأةً فإنّنا سيُقضَى علينا نحن أيضًا معَ المسلمين، ولهذا انسَحَبوا في صَمْتٍ من الميدانِ عائدينَ إلى بيوتِهم. أمّا الطائفةُ الثانية فقدِ احتجَّتْ بأنّ بيوتَهم وزوجاتِهم وأطفالَهم ليسوا آمِنين، ولهذا طلَبوا الإذْنَ بالسَّماح لهم بالعودةِ إلى بيوتِهم، وقد أَبْطل القرآنُ الكريمُ قولَهم هذا بأنّهم يكذِبون، فهم لا يعتقدونَ بأنّ بيوتَهم غيرُ آمِنة، ولا يَنْوُونَ العودةَ إلى ميدانِ المعركة بعدَ تأمينِ

---

(١) البخاري، كتاب المغازي: باب ١٧ برقم ٤٠٥٠، ٤٥٨٩، ومسلم، برقم ١٣٨٤.
(٢) كنز العمال، ٥: ١٣٥ برقم ١٢٣٧٢.
(٣) كنز العمال، ٥: ١٣٥ برقم ١٢٣٦٩.

بيوتِهم، وإنّما هذه أعذارٌ يَختلقونَها لكي يَفِرُّوا من الميدان.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾

١٨ ـ لو دَخَل هـؤلاءِ الكـفّارُ المدينـةَ المـنوَّرةَ من أطرافِـها الأربعة، وقالوا للمنافقين: احمِلوا أنتم السِّلاحَ، واتَّحدوا معَنا من أَجْل قتل المسلمين، لَما اختَلَقوا عُذرَ تأمينِ بيوتِهم وأزواجِهم وأطفالِهم، ولَشاركوا فورًا في هذه الفتنة، وطَلَبوا مهلةً تكفيهم لمجرَّدِ الذهابِ إلى بيوتِهم ليحمِلوا أسلحتَهم ويعودون.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

١٩ ـ هاجَمَ ثلاثةُ آلافٍ من الكفّار المدينةَ المنوَّرةَ في غزوةِ أُحُد، فخَرَج النبيُّ ﷺ معَ ألفِ رجُلٍ من المدينة، لكنّ عبدَ الله بن أُبيٍّ عاد من الطريقِ ومعَه ثلاثُمائةٍ من المنافقين أمثالِه، وبعدَ غزوةِ أُحُدٍ عاهَدَ هؤلاءِ المنافقونَ اللهَ ورسولَه أنهم لن يَغدِروا بهم في الأوقاتِ الصَّعبة مستقبَلًا، ومعَ ذلك فقدِ ارتكَبوا نفسَ الحماقةَ في غزوةِ الأحزابِ أيضًا.

وفي هذه الآية تنبيهٌ للمنافقينَ بأنّكم قد خالفتُم ما عاهدتُمُ اللهَ عليه، ولهذا سوف تُسألونَ يومَ القيامة عن هذا العهدِ وتحاسَبون عليه.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٢٠ ـ الفِرارُ من ميدانِ المعركة خوفَ الموتِ لا يُفيدُ أحدًا؛ لأنه لا أحدَ يعيشُ إلى الأبد، إذًا سيموتُ الجميعُ، إن لم يكنِ اليومَ فغدًا، والموتُ خيرٌ من حياةٍ يملأُها الجُبنُ.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

٢١ ـ لو أراد اللهُ تعالى أن يُسلِّطَ عليكمُ الموتَ والعذابَ، أو لو أراد أن يُنعِمَ عليكم بالحياةِ والرحمة، لا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَه من ذلك، كما أنه لا أحدَ سواه يُعينُكم ويَنصُرُكم، وبالتالي إذا لم يكنِ الإعراضُ عن أحكام الخالقِ الحقيقيِّ حماقةً وهلاكًا، فماذا يكونُ إذًا؟

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٢٢ ـ اللهُ تعالى يَعرِفُ هؤلاءِ المنافقين معرفةً تامّة، وهم الذين قليلًا ما يشاركونَ في المعارك، وإنّما يجلسُ معظَمُهم في البيتِ لا أكثرَ، بل ويمنَعونَ الآخَرينَ من المشاركة في الجهاد قائلينَ لهم: لا تَضَعوا حياتَكم في خطر، واجلسوا مثلَنا في بيوتِكم، واستمتِعوا بحياتِكم.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

٢٣ ـ هؤلاءِ المنافقونَ غايةٌ في البُخل فيما يخصُّ مساعدةَ المسلمين، إذ عندَما تأتي المرحلةُ الصَّعبةُ للاشتراكِ في الحرب، فإنّهم يَجبُنون، وتَزُوغُ أعيُنهم كمَن أصابَتْه إغماءةُ الموت، وإذا انتَصر المسلمونَ في المعركةِ فإنّهم يختلقونَ قِصصًا كاذبةً عن شجاعتِهم، ويُبالغونَ في بيانِها، بقَصْدِ الحصولِ على أكبرِ قدرٍ ممكنٍ من الغنائم.

وقد فَضَحت هذه الآيةُ نفاقَهم، والحقيقةُ أنّ هؤلاءِ لم يؤمنوا من قلوبِهم، ولهذا أضاع اللهُ أعمالَهم، وكلُّ أمرٍ سهلٌ ميسورٌ لله تعالى، لكنّ معاقبةَ المنافق

على نفاقِه طبقًا لمقتَضياتِ العدلِ أكثرُ سهولةً ويُسرًا من ذلك.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٢٤ ـ عاد جيشُ الكفّارِ في غزوةِ الأحزابِ من حيثُ جاء خائبًا، لكنّ جُبنَ المنافقينَ وَصَل إلى درجةِ أنّهم كانوا لا يزالونَ مختبِئينَ في بيوتِهم في حالةٍ من الرُّعب، معتقِدينَ أنّ جيشَ الكفّارِ لا يزالُ موجودًا حتى الآنَ على الجانبِ الآخَرِ للخندق، وعلى فَرْض أنّ جيشَ الكفّارِ جاء مرةً أخرى، فستكونُ رغبةُ المنافقينَ هي أنْ يرحَلوا عن المدينة إلى أيِّ منطقةٍ قَرَويّةٍ بعيدة، ثم يَسألونَ عن أخبارِ أهلِ المدينةِ من هناك. على أيِّ حال، المنافقونَ جُبَناءُ غايةً في الجُبن، ولو أنّهم لم يَفِرُّوا من الميدان، وبَقُوا معَ المسلمينَ في الحرب، لَما كانت لهم فائدةٌ أيضًا؛ لأنّهم ـ عمليًّا ـ قليلًا ما يشاركونَ في الحرب، ويختلقونَ الأعذارَ محاولينَ البقاءَ بعيدًا عن الحرب.

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

٢٥ ـ في العام الخامسِ للهجرة اتَّحدتْ كلُّ القبائلِ المُعادِيةِ للإسلام في شبهِ الجزيرةِ العربيّة، وأعَدُّوا جيشًا قِوامُه عشَرةُ آلافِ رجل، واتَّجهوا إلى المدينةِ المنوَّرة قاصِدينَ القضاءَ التامَّ على المسلمين، وحين عَلِم النبيُّ ﷺ بهذه الأمور أمَرَ بحَفْرِ خندقٍ حولَ المدينة حتى لا يتمكَّنَ العدوُّ من دخولِها، ولهذا سُمِّيت هذه الغزوةُ «غزوةَ الخندق» أيضًا.

موقع نزول الآية:

ـ نَزَلت هذه الآيةُ أيامَ غزوةِ الخندق، في ذلك الوقتِ كان الصَّحابةُ الكرامُ رضي اللهُ عنهم يحفِرونَ الخَندقَ، وكان النبيُّ ﷺ أيضًا يشاركُهم في الحفر، وقد غطَّى الغبارُ جسدَه ﷺ المباركَ. وأثناءَ الحفرِ اعترضَتْهم صخرةٌ. يقولُ سيّدُنا البراءُ بنُ عازبٍ رضي اللهُ عنه: أمَرَنا رسولُ الله ﷺ بحَفْر الخندق، قال: وعَرَض لنا صخرةٌ في مكانٍ من الخندق، لا تأخُذ فيها المَعاوِل، قال: فشكَوْها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسولُ الله ﷺ، قال عوفٌ، وأحسَبُه قال: وَضَع ثوبَه، ثمّ هَبَط إلى الصَّخرة، فأخَذ المِعوَلَ فقال: «بسم الله» فضَرب ضربةً فكَسِر ثُلُثُ الحجر، وقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ الشّام، واللهِ إنّي لَأُبصرُ قصورَها الحُمْرَ من مكاني هذا»، ثمّ قال: «بسم الله» وضَرب ضربةً أُخرى فكُسِر ثُلُثُ الحجرِ، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ فارسَ، والله إنّي لَأُبصرُ المدائنَ، وأُبصرُ قصرَها الأبيضَ من مكاني هذا»، ثمّ قال: «بسم الله» وضَرب ضربةً أخرى فقَلَع بقيَّة الحجر، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ اليمن، والله إنّي لَأُبصرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا»[١].

---

(١) مسند أحمد، ٤: ٣٠٣.

ـ في ذلك الوقتِ رَبَط كلٌّ واحدٍ من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم حجرًا على بطنِه من شدّةِ الجُوع، بينَما كان النبيُّ ﷺ يربِطُ حجرَيْنِ. يقولُ سيّدنا أبو طلحةَ رضي اللهُ عنه: شكَوْنا إلى رسولِ الله ﷺ الجوعَ ورفَعْنا عن بطونِنا عن حجرٍ حجرٍ، فرَفَع رسولُ الله ﷺ عن حجرَيْن»[١].

ـ في ذلك الوقتِ لم يكنِ النبيُّ ﷺ يؤُمُّ الناسَ في الصَّلاة في المسجدِ النَّبويِّ، بل إنه ﷺ كان يُصلِّي معَ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أربعَ صَلَواتٍ في اليوم الواحد قضاءً. يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ المشركينَ شَغَلوا رسولَ الله ﷺ عن أربع صَلَواتٍ يوم الخندق حتّى ذَهَب من اللّيل ما شاء الله، فأمَرَ بلالًا فأذَّن، ثمّ أقام، فصلّى الظّهرَ، ثمّ أقام فصلّى العصرَ، ثمّ أقام فصلّى المغربَ، ثمّ أقام فصلّى العشاءَ[٢]. ويُعلَمُ منه أنّ أمرَ حمايةِ البلادِ والعباد في غايةِ الأهميّة، لدرجةِ أنه يجوزُ من أَجْلها تأخيرُ عبادةٍ هامّة عن وقتِها مثلِ الصلاة.

ـ فَرَّ المنافقونَ من الميدانِ بسببِ كثرةِ جيشِ الكفّار وطولِ فترة الحصار، بينَما أعلَن اليهودُ فَسْخَ العهود وأخَذوا يَخلُقونَ الفُرقةَ في المدينة، ولم يَهُنْ عَزْمُ النبيِّ ﷺ ولم يهتزَّ ثباتُه قَدْرَ أُنمُلةٍ في هذه الظروفِ العصيبة، وإنّما كان يُشجِّعُ أصحابَه رضوانُ الله عليهم بدعائه الذي يزيدُ في الإيمان، وقد نَزَلت هذه الآيةُ بهذه المناسبة، بمعنى: أنه لو دَعَتِ الضرورةُ إلى التضحيةِ بالغالي والرَّخيص في سبيلِ حمايةِ البلادِ والعباد، فإنّ في حياةِ النبيِّ ﷺ أُسوةً حسَنةً لكم.

حكم نزول الآية:

رَغْمَ أنّ هذه الآيةَ نَزَلت في مناسبةِ غزوةِ الخندق إلّا أنّ حُكمَها عامٌّ، يعني:

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد: باب ٣٩ برقم ٢٣٧١.

(٢) الترمذي، أبواب الصلاة: باب ١٨ برقم ١٧٩.

أنّ النبيَّ ﷺ ليس أُسوةً حسَنةً في غزوةِ الخندق أو ميدانِ الحربِ فقط، وإنّما حياتُه الطاهرةُ هي أعظمُ أُسوةٍ في كلِّ مناحي الحياةِ الإنسانيّة، ولكلِّ طبقةٍ من بني الإنسان، ولهذا لم يَقصُر اللهُ تعالى أُسوةَ النبيِّ ﷺ على ناحيةٍ بعينِها، وإنّما قال بشكلٍ مطلَق: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[١].

نزول الآية ومقتضيات العصر الحاضر:

قبل ١٤٢٥ عامًا من اليوم[٢] توجَّهت كلُّ قبائلِ شبهِ الجزيرةِ العربيَّة للهجوم على المسلمين، فطَلَب النبيُّ ﷺ المَشُورةَ من أصحابِه الكرام رضي اللهُ عنهم، فقال سيّدُنا سَلْمانُ الفارسيُّ رضي اللهُ عنه: يا رسولَ الله، عندَما كان جيشٌ كبيرٌ يقصِدُ إلى الهجوم على بلادِنا فارسَ، كنّا نقومُ بحَفْرِ خندقٍ حولَ المدينة لنوقفَ تقدُّمَ العدوِّ. وقد أُعجِب النبيُّ ﷺ بهذا الاقتراح؛ لأنّ الحِكمةَ ضالّةُ المؤمنِ أينَما وَجَدها أخَذها، وهكذا أمَرَ النبيُّ ﷺ بحَفْرِ الخندق، وكان النبيُّ ﷺ يشاركُ الصّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم جميعًا في حَفْرِ الخندق بيدَيْه الشريفتَيْنِ، وألسِنتُهم جميعًا رَطْبةٌ بالدُّعاءِ إلى الله تعالى بالفتح والنُّصرة، وحينَ وَصَل جيشُ الكفّارِ إلى المدينة كان حَفرُ الخندقِ قدِ اكتَمَل، وهو الذي أعاقَهم عن دخولِ المدينة، واضْطُرَّهم إلى الانسحابِ والعودةِ من حيث جاءوا بعدَ شهرٍ كاملٍ من الحصار.

وأحوالُ المسلمينَ في أيامِنا هذه أيضًا أنّ القُوى غيرَ الإسلاميّة قد هاجَمَت الحدودَ الجغرافيَّةَ والأيدلوجيّة للمسلمين، ويحاولونَ إلصاقَ تُهمةِ الإرهاب بالإسلام، لكنَّنا برَغْم الضَّرباتِ التي واجَهْناها على مدى ثمانِ سنواتٍ لم نتعلَّم الدرسَ أو نَستوعِبْه:

---

(١) القرآن الكريم، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٢١.

(٢) أي: حتى سنة كتابة المفسر الجليل هذه السطور في ٢٠٠٩م. (المترجم).

- وا أسفاهُ على الفَشَل! فقد ظلَّتِ القافلةُ تفقِدُ متاعَها، والإحساسُ بالخسارةِ ظَلَّ يفارقُ قلوبَ أهلِها.

قبل **١٤٢٥** عامًا من اليوم استفاد المسلمونَ من التكنولوجيا المتقدِّمة للشعبِ الإيراني، وحَفَروا الخندقَ في الظروفِ المُلِحّة، وأنقَذوا المسلمينَ من الدَّمار، واليومَ أيضًا لو أنّنا استفَدْنا من التقدُّم التكنولوجيِّ لدى دولةٍ غربيّةٍ متقدِّمة، وحاوَلْنا التقدُّمَ إلى الأمام في التعليم والعِلم والعدلِ والإعلام باعتبارِها أمورًا مُلحّةً، فإنّنا نستطيعُ خلالَ نصفِ قرن أن نصنَعَ لأنفسِنا مكانةً قويّةً بينَ صفوفِ الدولِ المتقدِّمةِ في هذا العالَم الحديث؛ لأنّ قرارَ المستقبَل لم يَعُدْ في ميدانِ الحرب، وإنّما في ميدانِ التعليم والاقتصاد:

- أيُّها المسلمونَ الغافلون، ستُمحَوْنَ من الوجودِ إن لم تُفيقوا، ولن يكونَ لكم ذِكرٌ بينَ مَن يُذكَرون.

وبهذه المناسبةِ أُقدِّمُ للقُرّاءِ الأعزاءِ هنا هذا الحديثَ الشَّريفَ الذي قاله نبيُّنا الحبيبُ ﷺ قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، ولكنّه يبدو أمامَنا اليومَ في صورةٍ عمَليّة.

يقولُ سيّدُنا ثَوْبانُ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يوشِكُ الأُمَمُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلةُ إلى قَصْعتِها»، فقال قائل: ومن قلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومَئذٍ كثير، ولكنّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيل، ولَينزِعَنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكُمُ المهابةَ منكم، ولَيَقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ»، فقال قائل: يا رسولَ الله، وما الوَهْنُ؟ قال: حبُّ الدّنيا وكراهيَةُ الموت»[1].

---

(١) أبو داود، كتاب الملاحم: باب ٥ برقم ٤٢٩٧.

الأسوة الكاملة:

ـ القرآنُ كتابُ هداية، ونبيُّنا الحبيبُ ﷺ هو الصُّورةُ العمَليّةُ له.

ـ في طاعتِه ﷺ طاعةُ اللهِ سبحانه وتعالى.

ـ في اتِّباعِه ﷺ حبُّ الله تعالى.

ـ في أفعالِه ﷺ رضا اللهِ تعالى.

ـ في رِفعتِه ﷺ عطاءُ الله تعالى.

ـ في محبَّتِه ﷺ رُوحُ الإيمان.

ـ في صُورتِه ﷺ معراجُ الجمال.

ـ سيرتُه ﷺ أعظمُ أُسوةٍ.

واليومَ لا يستطيعُ زوجٌ أن يجدَ الأُسوةَ في سيّدِنا عيسى عليه السلام؛ لأنه عليه السَّلامُ لم يتزوَّجْ، وكيف يجدُ عاملٌ يجدُ الأُسوةَ في سيّدنا سُليمانَ عليه السلام؛ لأنه عليه السلام قضَى حياتَه كلَّها مَلِكًا؟

لكنْ سبحانَ الله، نبيُّنا في مَلَكوتِ الله لا نبيَّ مِثْلُه.

ـ أين لا تجدُ أُسوتَه الحسَنة!

ـ منَ العامل حتى السُّلطان.

ـ من الطِّفل حتى أبيه.

ـ من الجُنديِّ حتى قائدِه.

ـ من المصَلِّي حتى الخطيب.

- من تعبُّدِه وحيدًا في غارِ حِراءَ إلى رَمْيِه بالحجارةِ في أسواقِ الطائف.

- من مغادرتِه مكّةَ في ظلام اللّيل إلى فتحِه مكّةَ في ضوءِ النهار.

- من رَعْيِه للأغنام في جبالِ مكّةَ إلى قيادتِه مئةً وخمسةً وعشرينَ ألفًا من الناس في حَجّةِ الوداع.

- وباختصار: في كلِّ جانبٍ من جوانبِ الحياة تُنيرُ أُسوتُه الحسَنةُ مثلَ البدرِ المنير.

وما أحسنَ ما قال المحقِّقُ النَّصرانيُّ مايكل هارت في عصرِنا الحاضر:

«أكثرُ الشَّخصيّاتِ التي أثَّرتْ في الناسِ في هذا العالَم على رأسِهم يأتي اسمُ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وقد يتعجَّبُ بعضُ القُرّاءِ منَ اختياري هذا وتُصيبُهم الحَيْرةُ والدَّهشة، لكنّه هو الشَّخصيةُ الوحيدةُ في التاريخ الإنسانيِّ التي نَجَحت نجاحًا باهرًا في ميدانَي الدِّين والدُّنيا كلَيْهِما، إذ إنّ أثَرَه لا يزالُ حتى اليوم قويًّا وبارزًا في كلِّ مكان برَغْم مرورِ ثلاثةَ عشَرَ قرنًا من الزّمانِ حتى اليوم[١] على انتقالِه إلى الرَّفيقِ الأعلى، فنحن نرى أنّ الفتوحاتِ الإسلاميّةَ قد لعبتْ دورًا هامًّا في التاريخ الإنسانيِّ منذُ القرنِ السابع حتى اليوم، وهذا الامتزاجُ الرائع بينَ كلِّ تلك القِيَم الدِّينيّة والدُّنيويّة هو الذي يجعَلُ محمدًا ﷺ - في رأيي - أعظمَ شخصيّةٍ مؤثِّرةٍ في تاريخ الإنسانيَّة»[٢].

قرآن حي يمشي على الأرض:

حين بَدَأَ نبيُّنا الحبيبُ سيّدُنا محمّدٌ ﷺ الدَّعوةَ إلى القرآنِ الكريم، قال

---

(١) المقصود حتى وقت كتابة مايكل هارت لهذا الكلام في كتابه المعروف (العظماء مائة وأعظمهم محمد ﷺ). (المترجم).

(٢) (The **100**: Page No. **33**).

المشركون: إنّ هذا ليس كلامَ الله تعالى، وإنّما هو كلامٌ من عندِك تنسُبُه إلى الله تعالى، وعليه قال النبيُّ ﷺ: لقد عشِتُ بينكم قبلَ نزولِ القرآن أربعينَ عامًا، وأنتم أنفسُكم تشهَدونَ وتعرِفونَ جيِّدًا أنّي أُمِّيٌّ، يعني لم أتتلمَذْ على يدِ أستاذٍ ظاهريٍّ، فتمعَّنوا في الأمر، كيف يمكنُ لشخصٍ أُمِّيٍّ لم يقرَأْ كتابًا لأربعينَ عامًا، ولم يخُطَّ شيئًا بيدِه أبدًا، أن يُقدِّمَ ـ هكذا فجأةً ـ مثْلَ هذا الكلام المعجِز الذي لا نَظيرَ له في الفصاحةِ والبلاغةِ والحِكمة والفراسة؟ ولهذا فإنه لا مجالَ للشكِّ في حقيقةِ أنّ هذا القرآنَ كلامُ الله تعالى، وليس كلامَ بشَر.

كما أنّ الذي لم يكذبْ ـ والعياذُ بالله ـ على أحدٍ أبدًا طيلةَ أربعينَ سنةً، كيف يمكنُ أن ينسُبَ إلى اللهِ تعالى كلامًا مكذوبًا؟ لهذا فإنّ حياةَ النبيِّ ﷺ الطاهرةَ بمثابةِ الدَّليل القاطع على أنّ القرآنَ المَجِيدَ كلامُ الله تعالى، والمشركونَ أنفسُهم شهداءُ على ذلك.

يقولُ العلّامةُ المَقْريزيُّ: «إنّ الأخنسَ خَلا بأبي جهلٍ (قبلَ بداية معركةِ بدَرْ) وقال: أترى محمّدًا يكذبُ؟ فقال أبو جَهل: كيف يكذبُ (محمدٌ ﷺ) على الله وقد كنّا نُسمِّيه الأمينَ؛ لأنه ما كذب قطُّ! ولكنْ إذا كانت في عبدِ منافٍ (عائلةِ سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ) السِّقايةُ والرِّفادةُ والمَشُورةُ، ثم تكونُ فيهم النُّبوّة، فأيُّ شيءٍ بقيَ لنا؟»[1]، فلمّا سمع الأخنَسُ هذا الكلامَ تَرَكَ جيشَ الكفّارِ ورَحَل عائدًا، ولم يشاركْ في معركةِ بَدْر.

لقد قَدَّم القرآنُ الكريمُ الأربعينَ سنةً الأُولى من حياةِ النبيِّ ﷺ قبلَ إعلانِ النُّبوّةِ دليلًا على صِدقِه. يقولُ الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، يعني: أنّ

(١) إمتاع الأسماع، تقي الدين المقريزي: ١: ٩١.

النبيَّ ﷺ لم يأتِ من خارجِكم، فقد وُلد بينَ ظَهْرانِيكم، وقضَى طفولَته وشبابَه بينَكم، وتزوَّج منكم وعَمِل معَكم. وباختصار: فإنّ كلَّ صفحةٍ من كتابِ حياتِه مفتوحةٌ أمامَكم، وليس فيها أيُّ جانبٍ يمكنُكم أن تستخرجوا فيه عيبًا. وبألفاظٍ أخرى: يُعلنُ القرآنُ الكريمُ أنّ النبيَّ ﷺ عاشَ الأربعينَ سنةً الأُولى قرآنًا، وعاشَ الثلاثةَ وعشرينَ عامًا الأخيرةَ يتلو عليكُمُ القرآنَ، وكأنّ النبيَّ ﷺ قرآنٌ حيٌّ يمشي على الأرض.

سَأل سيّدُنا سعدُ بنُ هشام السيّدةَ عائشةَ رضي اللهُ عنها عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ، فقالت: «ألستَ تقرَأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى، قالت: فإنّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ»[1]. يعني: أنّ كلَّ ما جاء في القرآنِ الكريم حقَّقه النبيُّ ﷺ عمَليًّا، وما أحسَن ما قاله سيِّدُنا أحمدُ رضا خان:

ـ قال الحقُّ عن خُلُقِك: عظيمٌ، وجَمَّل الحقُّ خَلْقَكَ.

ـ أُقسمُ بمَن خَلَق حسُنَك وجمالَك، لم يولَدْ مِثلُك يا سيِّدي ولن يولَد.

ـ أعطاك اللهُ مرتبةً ومقامًا لم ولن ينالَه غيرُك.

ـ فقد أَقْسَم القرآنُ الكريمُ بمدينتِك وكلامِك وخلودِك يا سيِّدي.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

٢٦ ـ سيرةُ النبيِّ الكريم ﷺ أعظَمُ أُسوةٍ لبني البشَرِ جميعًا، لكنْ يستفيدُ منها فقط أولئك الذين يؤمنونَ بوَحْدانيّةِ الله تعالى وباليوم الآخِر، ويَذكُرونَ اللهَ تعالى كثيرًا؛ لأنّ محبّةَ الله تعالى ورسولِه تكونُ في قلوبِ هؤلاءِ، وهذه المحبّةُ هي التي تُجبرُ الإنسانَ على إطاعةِ محبوبِه واتِّباعه.

---

(١) مسلم، كتاب المسافرين: باب ١٨ برقم ١٧٣٩.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

٢٧ ـ مرَّ في الآيةِ رقم ٢١٤ من سُورةِ البقرة وَعْدُ الله تعالى بأنّ أهلَ الإيمانِ يُبتَلَوْنَ في البداية بجبالٍ من المصائبِ والآلام، فإنْ ثَبَتوا على الحقِّ استقبَلَهم النَّصرُ والفتحُ فيما هو قادمٌ. حينَ رأى المهاجِرونَ والأنصارُ جيشَ الكفّارِ الجرّارَ زاد إيمانُهم ورضاهُم بالله وتسليمُهم له، وهَتَفوا قائلينَ: هذه هي جبالُ الابتلاءِ التي سيُنعِمُ اللهُ علينا بإتمام وَعْدِه بعدَ أن نواجهَها، ويستقبِلُنا ـ عندَها ـ الفتحُ والنَّصر، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فأظهَرَ أهلُ الإيمان غايةَ الاستقامة، وعندَها أرسَلَ اللهُ ريحًا عاصفًا أطار صوابَ الكفّار، فتخلَّوْا عن الحصارِ وفَرُّوا هاربين.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾

٢٨ ـ العديدُ من المؤمنينَ أهلِ الهمّةِ والعَزْم عاهَدوا اللهَ تعالى أنّهم لن يتخلَّفوا عن أيِّ غزوة، وسوف يحاربونَ معَ رسولِ الله ﷺ بكلِّ ثباتٍ حتّى في أصعبِ الظروفِ والأوقاتِ إلى أن يُستشهَدوا، وفي هذه الآيةِ ثناءٌ كبيرٌ على أهل الهِمّة والعَزْم هؤلاءِ، حيث صَدَق هؤلاءِ في وَعْدِهم وحقَّقوه عمَليًّا، فاستُشهد بعضُهم في معاركَ مختلفةٍ، وينتَظِرُ الباقونَ ـ بكلِّ إخلاص ـ دورَهم في الشهادة، ولم تتبدَّلْ إرادتُهم، كما لم تَهُنْ عزائمُهم، وفي هذا الخصوصِ لاحِظْ هذا الدُّعاءَ لسيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي اللهُ تعالى عنه: «اللّهُمَّ ارزُقْني شهادةً في سبيلِك، واجعَلْ موتي في بلدِ رسولِك ﷺ»[1].

ومن بينِ هؤلاءِ الذين أَوْفَوْا بما عاهَدوا اللهَ عليه: شهداءُ أُحُد، والذين قال

(١) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب ١٣ برقم ١٨٩٠.

عنهمُ النبيُّ الكريمُ ﷺ، فيما رواه عنه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «أشهَدُ أنّ هؤلاءِ شهداءُ عندَ الله يومَ القيامة فأْتُوهم، وزوروهم، والذي نفْسي بيدِه، لا يُسلِّمُ عليهم أحَدٌ إلى يوم القيامة إلّا رَدُّوا عليه»[1].

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

٢٩ ـ في غزوةِ الأحزاب وَفَّى أهلُ الإيمانِ بما عاهَدوا اللهَ عليه، فأَنْعَم اللهُ عليهم في هذه المعركة بالفتح والنَّصر، والتاريخُ يَذكُرُهم بكلِّ احترام وإجلال، ولهمُ البُشْرى بالجنَّةِ في الآخِرة أيضًا، ولو لم يَتُب المنافقونَ فإنّ أمرَهم إلى الله تعالى، إن شاء عذَّبهم بنفاقِهم، وإن كان نفاقُهم بسيطًا وفَّقهم إلى التوبة وعَفَا عنهم.

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

٣٠ ـ هاجَمَ كفّارُ شبهِ الجزيرةِ العربيّة المدينةَ المنوَّرةَ بكلِّ تكبُّرٍ وغرور، قاصدينَ القضاءَ المُبرَمَ على المسلمينَ وإلى الأبد، لكنّهم فَشِلوا في مُهمّتِهم، وعادوا من حيثُ جاءوا ممتلئينَ غضبًا، ولم يُضْطَرَّ المسلمونَ إلى الحربِ في هذه المعركة؛ لأنّ اللهَ تعالى أرسَلَ ريحًا عاصفًا أرعَبَتِ الكفّارَ ففرُّوا هاربين.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

٣١ ـ بعدَ أنْ فَرَغ المسلمونَ من غزوةِ الأحزاب قاموا ـ بأمرٍ من الله تعالى ـ

---

(١) المستدرك، الإمام الحاكم: ٢: ٢٧١ برقم ٢٩٧٧، وكنز العمال، ١٠: ٣٨١ برقم ٢٩٨٩٢.

بمحاصرة بني قُرَيْظةَ؛ لأنّهم فَسَخوا المعاهدةَ أثناءَ الحرب، وحاولوا بكلِّ ما يملِكونَ من قوّةٍ إلحاقَ الضَّررِ بالمسلمين، واستمرَّ الحصارُ خمسةً وعشرينَ يومًا، تراشَقَ الطَّرفانِ خلالَها بالأحجارِ والسِّهام أيضًا، وفي نهايةِ الأمر عَجَزت بنو قُريظَةَ واعتَرفَت بهزيمتِها، وارتضَى الفريقانِ لعقابِ بني قُريظَةَ سيّدَنا سعدَ بنَ معاذٍ رضي الله عنه حَكَمًا، وطبقًا لحُكم سيّدِنا سعدِ بن معاذٍ رضي اللهُ عنه تَمَّ قتلُ شبابِ بني قُريظَةَ، وسَبْيُ نسائهم وأطفالِهم؛ لأنّ بني قُريظةَ خَرَقوا المعاهدةَ في نفسِ الوقت الذي هاجَمَت فيه قبائلُ شبه الجزيرةِ العربيّة بجيشٍ كبيرٍ قِوامُه عشَرةُ آلافِ رجُل هذه البلدةَ الصَّغيرةَ المدينةَ، وكان المسلمونَ إذْ ذاك يخوضونَ معركةَ حياةٍ أو موت، ولو لم يهيِّئِ اللهُ تعالى بقُدرتِه الأسبابَ التي ثَبَّطت من همّةِ أعداءِ الإسلام، فتصوَّرْ أنت ما كان سيَحدُث؛ سيَهجُمُ الكفّارُ على المسلمينَ من الخارج، وينقَضُّ بنو قُريظةَ عليهم من الداخل، وهكذا يُقضَى على المسلمينَ قضاءً مُبرَمًا.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

٣٢ ـ جَعَل اللهُ تعالى المسلمينَ مُلّاكًا لأرضِ بني قُريظةَ ومنازِلِهم، وقَدَّر لهم مستقبَلًا فَتْحَ أرضٍ لم يكونوا قد وَصَلوا إليها بعدُ، والمرادُ بهذه الأرض هي خَيْبرُ والطائفُ وغيرُهما من البلادِ التي فُتِحت على المسلمينَ بعدَ هذه المعركة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ

لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

٣٣ ـ كانت حياةُ النبيِّ ﷺ الأُسَريّةُ بسيطةً للغاية يَسُودُها التقشُّف، فلم تكنِ النارُ توقَدُ لأيامٍ عديدةٍ في بيتِه ﷺ، وإنّما كان يعيشُ على التمر، وحينَ لم تكنِ الأحوالُ الماديّةُ للمسلمينَ على ما يُرام، كانت أُمّهاتُ المؤمنينَ رضي اللهُ عنهُنَّ يَعِشْنَ في هذه الحالة من التقشُّفِ صابراتٍ شاكرات، فلمّا توالَتِ الفتوحاتُ على المسلمينَ وأخَذوا يُصيبونَ مالَ الغنائم، وتحسَّنت الحالةُ الماليّةُ لعامّةِ المسلمينَ في المدينةِ المنوَّرة، طالَبَت أزواجُه ﷺ الطاهراتُ بزيادةٍ في النَفقةِ المقرَّرةِ لهُنَّ، وثَقُل ذلك على قلبِ النبيِّ ﷺ الطاهر، فاعتَزلَ أزواجَه لشهرٍ كاملٍ تقريبًا.

ثم نَزَلت هذه الآياتُ، يعني: إن كنتُنَّ فعلًا تُرِدْنَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا فأخبِرنَني، وسوف أُعطيكم من المالِ والمتاع، ثم أُطلِّقُكنَّ بأحسنِ الطُّرق (لأنَّني لا يمكنُ أن أجتمعَ أنا ومتاعُ الدُّنيا في بيتٍ واحد).

وحينَ نَزَلت هذه الآياتُ كانت السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ تعالى عنها أولَ مَن أخبَرَها رسولُ الله ﷺ بالأمر، عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: لمّا أُمِر رسولُ الله ﷺ

بتخييرِ أزواجِه بَدَأ بي، فقال: «إنّي ذاكرٌ لكِ أمرًا فلا عليكِ أن لا تعجَلي حتّى تستأمري أبوَيْكِ». قالت: قد عَلِم أنّ أبويَّ لم يكونا ليأمُراني بفراقِه، قالت: ثمّ قال: «إنّ اللهَ عزّ وجلّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾»، قالت: فقلتُ: في أيِّ هذا أَسْتَأْمِرُ أبويَّ؟ فإنّي أريدُ اللهَ ورسولَه والدّارَ الآخِرة. قالت: ثمّ فَعَل أزواجُ رسول الله ﷺ مِثلَ ما فعلتُ[1]. وبعدَ السيّدةِ عائشةَ رضي اللهُ عنها كان جوابُ باقي الأزواج المطهَّراتِ هو هذا الجوابَ نفْسَه، فنِلْنَ بذلك الأَجْرَ العظيمَ الواردَ ذِكرُه في هذه الآية.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾

٣٤ ـ ليس معنى هذه الآيةِ أنه كان هناك خوفٌ ـ والعياذُ بالله ـ من أنْ يَصدُرَ عن الأزواج المطهَّراتِ للنبيِّ ﷺ شيءٌ مَشِينٌ، وإنما كان المقصودُ هو إشعارَهنَّ بأنّ لهُنَّ مكانةً عظيمةً في قلوبِ الأُمّة، وأنّ حياتَهنَّ ليست لأنفُسِهنَّ فقطْ، وإنّما نموذجٌ من الهداية تَحتَذيهِ نساءُ الأُمّة كلُّها، ولهذا تتضاعفُ مسئوليّاتُهنَّ، ولو صَدَر عنهنَّ ما يسيءُ لَكان عقابُه أيضًا مضاعفًا، فالابتلاءُ على قَدْرِ المكانة.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾

٣٥ ـ إنّ أيَّ خطأٍ ولو بسيطٍ يَصدُرُ عن شخصيّةٍ محترمةٍ ومُهمّة يُعتبَرُ خطأً كبيرًا؛ لأنّ الآخَرينَ سيقتَدُونَ به ويقعُونَ في أخطاءٍ أكبرَ منه، وهكذا يعاقَبُ الشّخصُ المهمُّ على خطأِه وخطأِ الآخَرينَ أيضًا.

---

(١) مسلم، كتاب الطلاق: باب ٤ برقم ٣٦٨١.

وبنفسِ الطريقة، حينَ يقومُ شخصٌ محترمٌ ذو مكانةٍ بعَمَلٍ صالح فإنه ينَالُ قدرًا أكبرَ من التكريم؛ لأنّ الآخَرينَ يقتَدونَ به في عَمَل الصّالحات، وبالتالي يَنالُ مِثلُ هذا الشّخصِ المهمِّ أَجْرَ حسَناتِه وأَجْرَ حسَناتِ الآخَرينَ أيضًا.

والأزواجُ المطهَّراتُ للنبيِّ ﷺ لَسْنَ معزَّزاتٍ وذاتَ مقام رفيع في الأُمّةِ فقطْ، بل إنّهنَّ قد نِلْنَ شَرفَ الاقترانِ بالنبيِّ ﷺ بالزواج، وهو ما لم تنَلْه غيرُهنَّ في الدُّنيا كلِّها، ولهذا عندَما يَثبُتْنَ على الطاعةِ والصَّلاح، فإنهُنَّ ينَلْنَ أجرًا مضاعَفًا قياسًا بالنِّساءِ الأُخرَيات، ليس هذا فقطْ، وإنّما سيكونُ لهُنَّ شَرفُ معِيَّةِ النبيِّ ﷺ في الجنّةِ ويتمتَّعنَ فيها برزقٍ ونِعَمٍ خاصّةٍ متميِّزة.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾

٣٦ ـ يعني: أنّ مكانتَكُنَّ ليست كمكانةِ عامّةِ النِّساء، وإنما نِلتُنَّ شرفًا خاصًّا بكَوْنِكُنَّ زوجاتِ النبيِّ ﷺ، ولهذا كلَّما دَعَت الضَّرورةُ إلى أن تتحدَّثْنَ معَ أيٍّ من الرجال، فلا تتحدَّثْنَ بلهجةٍ ليِّنةٍ ممّا قد يُثيرُ أفكارًا سيِّئةً في أصحابِ القلوبِ المريضة، وإنّما عليكُنَّ أن تتحدَّثْنَ بلهجةٍ مهذَّبةٍ راقيةٍ يَظهَرُ منها تقوى الله والخوفُ منه.

رَغْمَ أنّ الخطابَ ـ في الظاهر ـ للأزواج المطهَّراتِ رضي اللهُ عنهنَّ، لكنّ المقصودَ به نساءُ الأُمّةِ كلُّهن.

يعني: يا أيتُها النِّساءُ المسلماتُ، مكانتُكنَّ ليست كمكانةِ النِّساءِ غيرِ المسلمات، فقد نِلتُنَّ شرفًا خاصًّا بكَوْنكُنَّ مسلماتٍ، ولهذا كلَّما دَعَت الضَّرورةُ إلى أن تتحدَّثْنَ معَ أيٍّ من الرجال، فتحدَّثْنَ بلهجةٍ يَظهَرُ منها تقوى الله والخوفُ منه، ولا ينتُجُ عنها أيُّ تصوُّرٍ خاطئٍ في أيِّ مكانٍ من قلبِ مَن يسمَعُكنَّ.

وهناك نُكتةٌ تستحِقُّ التمعُّنَ والتدبُّرَ في هذه الآية، وهي أنه إذا كانت الأزواجُ المطهَّراتُ لا مثيلَ لهُنَّ بينَ النساءِ بسببِ نسبتِهنَّ إلى رسولِ الله ﷺ، فإنَّ هذا يعني ـ تلقائيًّا ـ أنه لا يمكنُ أن يكونَ للنبيِّ ﷺ مثيلٌ.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾

٣٧ ـ يعني: لا تَخرُجْنَ من بيوتِكُنَّ لتَعرِضْنَ جمالَكُنَّ وزينتَكُنَّ، مثلَما كان يَحدُثُ في العصرِ الجاهليِّ، فإنِ اضْطُرِرتُنَّ للخروج فلْيكُنْ بطريقةٍ مهذَّبة، ولْتَعُدْنَ إلى بيوتِكُنَّ فورَ انقضاءِ الضَّرورة، واتَّبِعْنَ أحكامَ الله تعالى وأحكامَ رسولِه ﷺ، وقَرْنَ في بيوتِكُنَّ. وهذا الحُكمُ ليس خاصًّا بنساءِ النبيِّ ﷺ فقطْ، وإنّما هو حُكمٌ عامٌّ لنساءِ المسلمينَ جميعًا.

ـ تقولُ السيّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: «لو أدرَكَ رسولُ الله ﷺ ما أحدَثَ النّساءُ لَمنَعهُنَّ كما مُنِعت نساءُ بني إسرائيلَ»[١].

ـ تقولُ السيِّدةُ أُمُّ حُمَيْدٍ رضي اللهُ عنها: يا رسولَ الله، إنّا نُحبُّ الصّلاةَ، تعني: معَك، فيمنَعُنا أزواجُنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «صلاتُكنَّ في بيوتِكُنَّ خيرٌ من صلاتِكُنَّ في دُورِكُنَّ، وصَلاتُكنَّ في دُورِكُنَّ أفضَلُ من صَلاتِكُنَّ في مسجدِ الجماعة»[٢].

ـ تقولُ السيّدةُ أُمُّ سَلَمةُ رضي اللهُ عنها، عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «خيرُ مساجدِ النّساءِ قَعْرُ بيوتِهِنَّ»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الأذان: باب ١٦٣ برقم ٨٦٩.
(٢) السنن الكبرى، الإمام البيهقي: ٣: ١٣٢.
(٣) مسند أحمد، ٦: ٢٩٧.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

٣٨ ـ مَنِ المرادُ بأهلِ البيت؟

المرادُ بأهل البيت: أزواجُ النبيِّ ﷺ رضي الله عنهُنَّ: السيِّدةُ فاطمةُ الزَّهراءُ رضي الله عنها، وسيِّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه، وسيِّدُنا الحَسَنُ وسيِّدُنا الحُسَينُ رضي اللهُ عنهما.

وكونُ أزواج النبيِّ ﷺ رضي اللهُ عنهنَّ من آلِ البيتِ ثابتٌ بهذه الآيةِ من القرآنِ الكريم، بينَما كونُ الأربعةِ الآخَرينَ من أهلِ البيت ثابتٌ من الأحاديثِ الشريفة.

ـ يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقِّي: «هذه ـ كما ترى ـ آيةٌ بيِّنةٌ وحُجّةٌ نيِّرةٌ على كونِ نساءِ النبيِّ عليه السلام من أهل بيتِه، قاضيةٌ ببُطلانِ مذهبِ الشِّيعة في تخصيصِهم أهلَ البيتِ بفاطمةَ وعليٍّ وابنَيْه، أي: الحَسَن والحُسَين رضي الله عنهم، وأمّا ما تمسَّكوا به من أنّ النبيَّ عليه السلامُ خَرَج ذاتَ يوم غُدوةً وعليه مُرطٌ مُرجَّلٌ من شعَرٍ أسود، فجَلَس، فأَتَتْ فاطمةُ فأدخَلَها فيه، ثم جاء عليٌّ فأدخَلَه فيه، ثم جاء الحَسَن والحُسَينُ فأدخَلَهما فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فإنه يدُلُّ على كونِهم من أهلِ البيت لا أنّ مَن عَداهم ليسوا كذلك»[1].

يعني: أنّ أزواجَ النبيِّ ﷺ من أهل البيتِ بناءً على القرآنِ الكريم، ودَعَتِ الحاجةُ إلى ضمِّ الأربعةِ الآخَرينَ إلى أهل البيتِ عن طريقِ الرِّداءِ حتى لا يعتقدَ أحدٌ أنهم خارجَ أهلِ البيت.

ـ يقولُ سيِّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في حَجَّتِه يومَ عَرَفةَ وهو على ناقتِه القَصْواءِ يَخطُبُ، فسمعتُه يقول: «يا أيّها النّاسُ، إنّي

(١) تفسير روح البيان.

قد تركْتُ فيكم ما إنْ أخَذتُم به لن تَضِلُّوا: كتابَ الله وعِتْرتي أهلُ بيتي»(١).

ويُعلَمُ من هذا أنّ أولادَ النبيِّ ﷺ الآخَرينَ غيرَ السيّدةِ فاطمةَ رضي اللهُ عنها من أهل البيتِ أيضًا، كما أنه حيثما جاء في القرآنِ الكريم لفظُ «أهلٍ» أو «أهلِ البيت» فإنّ المرادَ منه هو: الأزواجُ والأولادُ كلاهما.

ـ يقولُ سيّدُنا زيدُ بنُ الأرقم رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّي تارِكٌ فيكم ما إن تمسَّكتُم به لن تَضِلّوا بعدي، أحدُهما أعظمُ من الآخَر: كتابَ الله، حبلٌ ممدودٌ من السّماءِ إلى الأرض، وعترتي أهلَ بيتي، ولن يتفرَّقا حتّى يَرِدَا عليَّ الحوضَ، فانظُروا كيف تَخلُفوني فيهما»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَثَلُ أهلِ بيتي مَثَلُ سفينةِ نوحٍ، مَن رَكِب فيها نَجا، ومن تَخلَّف عنها غَرِق»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا الحُسَينُ بنُ عليٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الإسلام عُريان، فلباسُه الحياءُ وزينتُه الوفاء ومروءتُه العَملُ الصالح وعِمادُه الوَرَع؛ ولكلِّ شيءٍ أساس، وأساسُ الإسلام حُبُّ أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وحُبُّ أهلِ بيتِه»(٤).

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

٣٩ ـ القرآنُ والحِكمةُ يُتْلَيانِ في بيوتِ الأزواج المطَهَّراتِ رضي اللهُ عنهُنَّ، والمرادُ بالحِكمة: الحديثُ، ويُعلَمُ منه أنّ الحديثَ يمكنُ أن يُقرَأَ بنيَّةِ الثوابِ مثلَ القرآن.

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب: باب ٣١ برقم ٣٧٨٦.
(٢) الترمذي، أبواب المناقب: باب ٣١ برقم ٣٧٨٨.
(٣) المعجم الكبير، ٢: ١٧٩ برقم ٢٥٧٠.
(٤) كنز العمال، ١١: ٥٣٩ برقم ٣٢٥٢٣.

في هذه الآيةِ أمرٌ للأزواج المطَهَّراتِ رضي اللهُ عنهُنَّ أنّ نُزولَ الآياتِ القرآنيّةِ في بيوتِكُنَّ، وظهورَ لآلئِ الحِكمة فيها، يوجبُ عليكُنَّ أن تسمَعْنَها بتمعُّنٍ وتدبُّرٍ، وأن تحفَظْنَها وتُبلِّغْنَها إلى الأُمّة، ونتيجةً لهذا الحُكم تَيسَّر للأُمّةِ المسلمةِ ذخيرةٌ ضخمةٌ من الأحاديثِ النّبويّةِ الشّريفةِ عن طريق الأزواج المطَهَّراتِ رضي اللهُ عنهن، على سَبيل المثال: تضُمُّ كتُبُ الأحاديث **٢٢١٠** حديثًا عن السيِّدة عائشةَ الصِّدِّيقة رضي اللهُ عنها، و **٣٧٨** حديثًا عن السيّدة أُمِّ سَلَمةَ رضي الله عنها، و**١٠٣** أحاديثَ عن السيّدةِ ميمونةَ رضي اللهُ عنها، و **٤٨** حديثًا عن السيّدةِ حَفْصةَ رضي الله عنها، وعشَرةُ أحاديثَ عن السيّدةِ صَفِيّةَ رضي الله عنها، وأربعةُ أحاديثَ عن السيّدةِ زينبَ رضي الله عنها.

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾

٤٠ ـ قالت بعضُ النِّساءِ للنبيِّ ﷺ: إنّا ليس لنا ذِكرٌ في القرآنِ الكريم كما للرجالِ فيه، وعليه نَزَلت هذه الآيةُ، ورَغْمَ أنّ النساءَ مشترِكاتٌ جميعُهنَّ في الأحكام كلِّها معَ الرجالِ باستثناءِ الأحكام الخاصّةِ بالنساءِ فقطْ، لكنّ اللهَ تعالى ذَكَر النساءَ أيضًا في هذه الآية تطييبًا لخاطِرهنَّ. ويُعلَمُ منه أنه إذا كانت هذه الأوصافُ موجودةً في الرجالِ والنِّساءِ على السَّواء، فإنّ أجرَهم أيضًا سيكونُ متساويًا، فلن يكونَ ثوابُ الرجُلِ الصّادق ـ مثلًا ـ أكثرَ من ثوابِ المرأةِ الصادقة، ورَغْمَ أنّ دائرةَ اختصاصِ كلٍّ من المرأةِ والرجُل مختلفةٌ، فالمرأةُ تَحمِلُ الأطفالَ في بطنِها، والرجلُ يكسَبُ الرِّزقَ لها، ولكنْ فيما يتعلَّقُ بالعملِ الصّالح والأَجْرِ والثوابِ فليس بينَ الرجُلِ والمرأة فرقٌ، وسيَنالُ كلٌّ منهما نفسَ الأَجْرِ على نفسِ الحسَنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾

٤١ ـ يقولُ المفسِّرون: إنّ النبيَّ ﷺ أرسَلَ إلى ابنةِ عمّتِه السيِّدةِ زينبَ بنتِ جَحْش رضي الله عنها أنه يريدُ أن يُزوِّجَها من غُلامِه الذي أعتَقَه سيّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي اللهُ عنه، ولكنّ السيّدةَ زينبَ وأخاها عبدَ الله بن جَحْش رَفَضا هذا العرضَ بحُجّةِ أنّ نَسَبَها أعلى من نَسَبِه، وعليه نَزَلت هذه الآيةُ، يعني: أنه لا يَحِقُّ لأحدٍ أن يختارَ بعدَ اختيارِ الله تعالى ورسولِه ﷺ، ومَن يعصي اللهَ تعالى ورسولَه سيكونُ ضالًّا ضلالًا مبينًا، وبعدَ أنْ سَمِعت السيّدةُ زينبُ بنتُ جحشٍ وأخوها عبدُ الله هذه الآيةَ وافَقا على الزَّواج، وبالفعل زَوَّج النبيُّ ﷺ السيّدَة زينَب بنتَ جَحْش رضي اللهُ عنها من سيّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي الله عنه.

ورَغْمَ أنّ هذه الآيةَ نَزَلت بخصوصِ زواج السيّدةِ زينبَ بنت جَحْش وسيّدِنا زيد بن حارثةَ رضي اللهُ عنهما، إلّا أنّ حُكمَها عامٌّ، فليس لأيِّ فردٍ مسلم أو أيِّ شعبٍ مسلم الحقُّ في أن يُقدِّمَ حُكمَه على حُكم القرآنِ والسُّنّة.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾

٤٢ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي اللهُ عنه بأنْ وَفَّقه إلى الإسلام، وذَكَر اسمَه في هذه الآية، ولم يَذكُرِ القرآنُ الكريمُ اسمَ أيِّ صحابيٍّ آخَرَ، لكنّ اسمَ سيّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي اللهُ عنه صار جزءًا من القرآن، وكلَّما قَرأَ شخصٌ هذه الآيةَ نال ثوابَ ثلاثينَ حسَنةٍ بقراءةِ اسم «زَيْدٍ» فيها؛ لأنّ كلَّ حرفٍ من حروفِ القرآن بعَشْرِ حسَنات.

وقد أَنْعم النبيُّ ﷺ على سيّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي اللهُ عنه بأنه عندَما قُدِّم سيّدُنا زيدُ بن حارثةَ إلى النبيِّ ﷺ غلامًا أعتقَه النبيُّ ﷺ وتبنَّاه. (ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٦)، ثم إنه حين بَلَغ سيّدُنا زيدُ بن حارثةَ رضي الله عنه مبلغَ الشبابِ زَوَّجه النبيُّ ﷺ منَ ابنةِ عمَّتِه السيّدةِ زينبَ رضي الله عنها. ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشية رقم ٤١.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

٤٣ ـ كَتَبْنا في تفسيرِ الآيةِ السابقة كيف زَوَّج النبيُّ ﷺ سيّدَنا زيدَ بنَ حارثةَ رضي اللهُ عنه من السيِّدة زينبَ بنتِ جَحْشٍ رضي اللهُ عنها، وكانت السيّدةُ زينبُ

رضي اللهُ عنها كثيرًا ما تَذكُرُ فَضْلَ عائلتِها وشَرَفَها، ولهذا السببِ وَصَلت الاختلافاتُ بينَ الزَّوجَيْنِ إلى حدِّ الكلامِ الجارح. وعلى الجانبِ الآخرِ أَخْبر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ ـ عن طريقِ الوَحْي، فيما رواهُ سيّدُنا عليُّ بنُ الحُسَين رضي اللهُ عنهما ـ «أنّ زينبَ سيُطلِّقُها زيدٌ ويتزوَّجُها بعدَه عليه الصَّلاةُ والسلام»[1]، وهذا حُكمٌ من الله تعالى لا بدَّ أن يُنفَّذَ على أيِّ حال، ولهذا قال سيّدُنا زيدُ بن حارثةَ رضي اللهُ عنهُ ذاتَ يومٍ للنبيِّ ﷺ: لقد ضِقتُ بمشاحَناتِ كلِّ يوم، والآنَ عَزَمتُ على طلاقِ السيِّدةِ زينبَ رضي اللهُ عنها، ورَغْمَ أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلَمُ بحُكم الله تعالى بأنّ هذا الطلاقَ واقعٌ لا محالةَ، وأنّ السيّدةَ زينبَ رضي الله عنها ستكونُ زوجةً له هو، وأنّ هذا الأمرَ لن يظَلَّ خافيًا، وإنّما سيَعلَمُ الجميعُ به، لكنْ معَ ذلك أخفَى النبيُّ ﷺ هذا الأمرَ بشكلٍ مؤقَّت؛ لأنّ السيّدةَ زينبَ رضي اللهُ عنها لم تكنْ قد طُلِّقتْ بعدُ، فأخَذ يذكِّرُ سيّدَنا زيدًا رضي اللهُ عنه بخوفِ الله تعالى ويمنَعُه من التطليق؛ لأنه ﷺ كان يخشَى أنْ يَستهدِفَه كفّارُ الجزيرةِ العربيّة بالتشنيع وإساءةِ السُّمعةِ قائلينَ بأنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ يريدُ أن يتزوَّجَ من زوجةِ ابنِه، وعليه قال اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ: لا تُبالِ بتشنيع الكفّار، ولا تخشَهُم، وإنّما عليك أن تخشاني أنا فقط، وحين طَلَّق سيّدُنا زيدُ بنُ حارثةَ رضي اللهُ عنه السيّدةَ زينبَ رضي اللهُ عنها وانقَضَتْ عِدَّتُها تزوَّجَها النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى، إذْ كان هذا هو حُكمَ الله تعالى ويجبُ أن يُنفَّذَ على أيِّ حال، كما أنّ أهلَ الإيمانِ بهذا قد شاهدوا عمليًّا أنه حين يُطلِّقُ أبناؤهم بالتبنّي زوجاتِهم فلا حَرَجَ عليهم إن تَزوَّجوا هم منهُنَّ.

ينقُل بعضُ المفسِّرينَ وبعضُ المستشرقينَ ـ في خصوصِ تفسيرِ هذه الآيةِ بعضَ الرِّواياتِ التي تُوحي بأنّ النبيَّ ﷺ أحبَّ السيِّدةَ زينبَ رضي اللهُ عنها، وهو ما

---

(١) تفسير روح المعاني.

أدَّى إلى طلاقِ السيِّدةِ زينبَ وزواجِه بها، لكنّ أكثرَ المفسِّرينَ رَفَضوا هذه الروايات، والألفاظُ القرآنِ الكريم أيضًا تدُلُّنا على أنّ هذا الزَّواجَ لم يَحدُثْ بسببِ رغبةِ النبيِّ ﷺ فيه، وإنّما حَدَث بحُكم الله تعالى وأمرِه، حتى ينتهيَ عمليًّا هذا التقليدُ الجاهليُّ الذي يقضي بتحريم الزَّواج بمُطلَّقةِ الابنِ بالتبنِّي.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: «فكانت زينبُ تفخَرُ على أزواج النّبيِّ ﷺ تقولُ: زوَّجَكُنّ أهاليكُنّ، وزوَّجَني اللهُ تعالى من فوقِ سبع سمواتٍ»[١].

ـ يقولُ الشَّعبيُّ: «كانت زينبُ تقولُ للنبيِّ ﷺ: إنّي لَأُدِلُّ عليك بثلاثٍ ما منَ امرأةٍ من نسائك تُدِلُّ بهنَّ؛ جَدِّي وجَدُّك واحدٌ، وأنّي أنكَحَنيكَ اللهُ في السماء، وأنّ السفيرَ جِبريلُ عليه السلام»[٢].

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

٤٤ ـ سُنّةُ اللهِ تعالى دائمًا فيما يتعلّقُ بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ أنه حينَ يُؤْمرُ النبيُّ بأمرٍ يصبحُ من اللازم عليه أن يعمَلَ بهذا الأمرِ على أيِّ حال، سواءٌ عَمِل به أحدٌ من أُمّتِه أم لا؛ لأنّ النبيَّ يكونُ هاديًا لأُمّتِه وقُدوةً لهم، ولأنّ اللهَ تعالى هو الذي قَدَّر زواجَ السيّدةِ زينبَ بنتِ جَحْشٍ رضي اللهُ عنها من النبيِّ الكريم ﷺ حتى ينتهيَ ـ عمليًّا ـ ذلك التقليدُ الجاهليُّ، لهذا كان على النبيِّ ﷺ أن يُتِمَّ هذا الزَّواجَ، حتى وإنْ خالَفَه في ذلك كلُّ أهلِ الجزيرةِ العربيّة وعادَوْه من أَجْلِه.

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٢٢ برقم ٧٤٢٠.

(٢) تفسير الخازن.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

٤٥ ـ أولئك السُّعَداءُ الذين اختارَهمُ اللهُ تعالى للنُّبوّة، لا يخشَوْنَ من عِداءِ أيِّ فردٍ أو أُمّةٍ في تبليغ أحكام الله تعالى، وإنّما يخشَوْنَ اللهَ تعالى فقطْ؛ لأنّ اللهَ تعالى فقطْ هو حاميهِم وناصرُهم، وهو فقطْ الذي سيُحاسبُهم.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾

٤٦ ـ كان سيّدُنا زيدُ بنُ حارثةَ رضي اللهُ عنه ابنًا بالتبنِّي للنبيِّ ﷺ، وحين طلَّق زوجتَه السيّدةَ زينبَ بنتَ جَحْشٍ رضي الله عنها، وتزوَّجها النبيُّ ﷺ، استهدَفه الكفّارُ والمنافقونَ بالطَّعنِ والتشنيع قائلين: انظُروا، لقد تزوَّج محمدٌ من مطلَّقةِ ابنِه! وفي هذه المناسبة نَزَلت هذه الآيةُ.

يعني: أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ ليس أبًا لأحدٍ من رجالِكم، فكيف يكونُ أبًا لسيّدِنا زيدِ بن حارثةَ رضي اللهُ عنه إذًا؟ والحقيقةُ أنّ كلَّ أولادِ النبيِّ ﷺ الذُّكورِ قد ماتوا في طفولتِهم، ولم يَصِلْ بأحدٍ منهم العُمُر إلى مرحلةِ البلوغ، أي: إلى المرحلةِ التي يقالُ له فيها: رجلٌ، ولهذا فليس من أبناءِ النبيِّ ﷺ الحقيقيِّينَ رجلٌ، إلّا أنّ كلَّ رجالِ أُمّتِه بمثابةِ أولادِه الرُّوحيِّين، والنبيُّ ﷺ مستحِقٌّ للتعظيم والتكريم أكثرَ من آبائهم الحقيقيِّينَ، والنبيُّ ﷺ هو الأبُ الرُّوحيُّ للجميع، وهو أكثرُ شفَقةً ورحمةً من الآباءِ الحقيقيِّين، حتّى أنه يومَ القيامة عندَما يفِرُّ الأبَوَانِ من أولادِهما والأولادُ من أبوَيْهِما، ستكونُ شفاعةُ النبيِّ الكريم ﷺ لأهلِ الإيمان، يعني: الأبناءَ الرُّوحيِّين، سببًا في سَكِينة قلوبِهم، والنبيُّ الكريمُ ﷺ هو الأبُ الرُّوحيُّ لأهلِ الإيمان، والزَّوجاتُ المطَهَّراتُ رضي اللهُ عنهُنَّ بمثابةِ الأُمّهاتِ الرُّوحيّات، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٨ للآية رقم ٦.

يقولُ الدكتورُ وهبةُ الزُّحَيلي في تفسير هذه الآية: «وأمّا أُبوَّتُه ﷺ الخاصّةُ فهو أبٌ لأربعةِ ذكور، وأربعِ بناتٍ، فقد وُلِد له: القاسمُ والطيِّبُ والطاهرُ من خديجةَ رضي اللهُ عنها، ثم ماتوا صغارًا، ووُلِد له إبراهيمُ من ماريّةَ القِبْطيّةِ ثم مات رضيعًا»[1].

ويمكنُ أن يكونَ تفسيرُ هذه الآيةِ أيضًا: أنه لم يكنْ للنبيِّ ﷺ حتى وقتِ نزولِ الآية ابنٌ على قَيْد الحياة، يعني: أنّ القاسمَ والطيِّبَ والطاهرَ كانوا قد تُوفُّوا، ولم يكنْ إبراهيمُ قد وُلِد بعدُ.

ويقولُ الدكتورُ وهبةُ الزُّحَيليُّ في هذا الخصُوص أيضًا: «وكان له أربعُ بناتٍ من خديجة: زينبُ ورُقَيّةُ وأُمُّ كلثوم وفاطمةُ، (وقد شاهد هؤلاءِ الأربَعُ البَعْثةَ النَّبويَّة وشَرُفْنَ بدخولِ الإسلام) وقد ماتتِ الثلاثُ الأُوَل في حياتِه ﷺ، ثم ماتت فاطمةُ بعدَه لستّةِ أشهر»[2].

ويقولُ العلّامةُ الشَّعراوي في تفسيرِ هذه الآية: «وأبناءُ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على الصَّحيح ـ ثلاثة: القاسمُ وعبدُ الله (وهو الطيِّبُ الطاهرُ) وإبراهيمُ»[3].

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾

٤٧ ـ في هذه الآيةِ ذُكِرَ النبيُّ ﷺ بلقبِ «خاتَم النبيِّين»، ويقولُ العلّامة الطَّبري (٢٢٤هـ ـ ٣١٠هـ) في شرح هذا: «ولكنّه رسولُ الله وخاتَمُ النبيِّين، الذي خَتَم النُّبوةَ فطُبِع عليها، فلا تُفتَحُ لأحدٍ بعدَه إلى قيام الساعة»[4].

---

(١) التفسير المنير.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير روح البيان وتفسير الشعراوي.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري.

عقيدة ختم النبوة:

المرادُ بخَتْم النُّبوة: أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ هو آخِرُ الأنبياءِ والمرسَلين، ولن يُبعَثَ نبيٌّ بعدَه.

وعقيدةُ خَتْم النُّبوةِ من العقائدِ الأساسيّةِ في الإسلام، وعليها اتّفاقُ الأُمّةِ الإسلاميّة وإجماعُها منذُ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزمان، ومَن يُنكرُ عقيدةَ خَتْم النبوَّة يَخرُجُ من دائرةِ الإسلام ويَكفُر والعياذُ بالله.

أظهَرت هذه الآيةُ الكريمةُ عقيدةَ خَتْم النُّبوةِ وصَرَّحت بها بما لا يمكنُ إنكارُه بألفاظِ «خاتَمَ النبيِّين»، ولكنْ حتى وإن لم تَنزِلْ هذه الآيةُ، فإنّ كونَه ﷺ هو النبيَّ الآخِرَ ثابتٌ من القرآنِ والسُّنّة، وإليك في هذا الخصوص بعضَ الآياتِ القُرآنيّة والأحاديثِ النَّبويّةِ الشَّريفة:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

في هذه الآيةِ الكريمةِ جاءت علامةُ المتَّقينَ على أنّهم هم الذين يؤمنونَ بالقرآنِ المَجيد الذي أُنزِل على النبيِّ ﷺ، وبالكُتُبِ السّابقةِ التي نَزَلت على الأنبياءِ السّابقينَ عليهمُ السَّلام، ولأنّ النبيَّ ﷺ آخِرُ نبيٍّ، والقرآنُ الكريمُ آخِرُ كتابٍ، لهذا جاء ذِكرُ القرآنِ الكريم والكتُبِ السّابقةِ عليه، ولم تَذكُر الآيةُ الكتُبَ التي تأتي بعدَ ذلك.

- ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

هذه الآيةُ أيضًا دليلٌ على أنّ النبيَّ ﷺ هو آخِرُ الأنبياء؛ لأنه إذا اكتمل الدِّينُ به، واختار اللهُ تعالى هذا الدِّينَ له في صُورةِ النِّعمةِ الكاملة، فليست هناك حاجةٌ إذًا إلى مجيءِ نبيٍّ آخَر.

- ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالأنبياءُ قبلَ النبيِّ ﷺ أُرسِلوا إلى أقوام بعَيْنِها وإلى أماكنَ بعَيْنِها، وفي أوقاتٍ معيَّنة، بينَما نبيُّنا الحبيبُ ﷺ - لأنه النبيُّ الآخِر - فقد أُرسِل إلى كلِّ مناطقِ الدُّنيا، وإلى البشَرِ جميعًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما: «وكان النّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثتُ إلى النّاسِ عامّةً»(١).

بعض الأحاديث المتعلقة بختم النبوة:

١ - يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ من قَبْلي كمَثَل رجُلٍ بنَى بيتًا فأحسَنَه وأجمَلَه، إلّا موضعَ لَبِنةٍ من زاويةٍ، فجَعَل النّاسُ يطُوفونَ به ويعجَبونَ له، ويقولون: هلّا وُضِعت هذه اللَّبِنة؟ قال: فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتَمُ النّبيِّين»(٢).

٢ - يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: فُضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ:

- أُعطِيتُ جوامعَ الكَلِم.
- ونُصِرتُ بالرُّعب.
- وأُحِلَّت ليَ الغنائم.
- وجُعِلت ليَ الأرضُ طَهُورًا ومسجدًا.

---

(١) البخاري، كتاب التيمم: باب ١ برقم ٣٣٥.
(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ١٨ برقم ٣٥٣٥.

ـ وأُرسِلتُ إلى الخَلْقِ كافّةً.

ـ وخُتِم بيَ النّبيُّونَ»(١).

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ الرّسالةَ والنُّبوَّة قدِ انقَطَعت، فلا رسولَ بعدي ولا نبيَّ»(٢).

٤ ـ يقولُ سيّدُنا ثَوْبانُ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ زَوَى لي الأرضَ ـ أو قال: إنّ ربّي زَوَى ليَ الأرضَ ـ فرأيتُ مَشارقَها ومَغاربَها... وإنّه سيكونُ في أُمّتي كذّابونَ ثلاثون، كلُّهم يَزعُمُ أنّه نبيٌّ، وأنا خاتَمُ النّبيِّينَ لا نبيَّ بعدي»(٣).

٥ ـ يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كنتُ أوّلَ الناسِ في الخَلْق، وآخِرَهم في البَعْث»(٤).

٦ ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ نافع رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو كان بعدي نبيٌّ لَكان عُمرَ بنَ الخطّاب»(٥).

٧ ـ يقولُ إسماعيلُ: إنّني سألتُ عبدَ الله بنَ أَوْفَى رضي الله عنه: «رأيتَ إبراهيمَ ابنَ النّبيّ ﷺ؟ قال: مات صغيرًا، ولو قُضِي أن يكونَ بعدَ محمّدٍ ﷺ نبيٌّ عاش ابنُه، ولكنْ لا نبيَّ بعدَه»(٦).

٨ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كانت بنو

---

(١) مسلم، كتاب المساجد، باب ١ برقم ١١٦٧.
(٢) الترمذي، أبواب الرؤيا، باب ٢ برقم ٢٢٧٢.
(٣) أبو داود، كتاب الفتن، باب ١ برقم ٤٢٥٢.
(٤) كنز العمال، ١١: ٤٠٩ برقم ٣١٩١٦. والحديث رواه ابن سعد عن قتادة مرسلًا.
(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٢ برقم ٣٦٨٦.
(٦) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٠٩ برقم ٦١٩٤.

إسرائيلَ تَسُوسُهمُ الأنبياءُ، كلّما هَلَك نبيٌّ خَلَفَه نبيٌّ، وإنّه لا نبيَّ بعدي، وسيكونُ خلفاءُ فيكثرون»[١].

الدلائل العقلية على ختم النبوة

- تكميلُ الدِّين:

جَعَل اللهُ تعالى النُّبوةَ بقَصْدِ إبلاغ البشَر رسالَته، وكان أولَ الأنبياءِ هو سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلام، وقد نَزَلت أحكامٌ محدودةٌ من الإسلام طِبقًا لحاجةِ الناسِ في ذلك الوقتِ وكانوا قليلينَ، وكلَّما زاد تَعدادُ البشَرِ نَزَل المزيدُ من أحكام الإسلام إليهم بقَدْرِ حاجتِهم، إلى أن أعلَن اللهُ تعالى في مناسبةِ حَجّةِ الوداع:

- ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومقصِدُ هذه الآيةِ واضحٌ تمامَ الوضوح، وهو أنّ دينَ الإسلام قد وَصَل إلى مرحلةِ الكمالِ مرورًا بالمراحلِ التدريجيَّة، والآنَ لا مجالَ للإضافة أو التبديل فيه، وحينَ اكتمَلَت رسالةُ الله تعالى لم تَعُدْ هناك حاجةٌ إلى مزيدٍ من الأنبياء، وبالتالي زَيَّن تاجُ خَتْم النُّبوّة رأسَ سيّدِنا محمدٍ ﷺ المباركَ، وانتَهَت السِّلسلةُ المقدَّسةُ للنُّبوة بعدَه ﷺ.

- تكميلُ العِرفان:

خَلَق اللهُ تعالى الخَلْقَ جميعًا لكي يعرفوه، وأولُ من قام بهذه المهمَّةِ هو سيّدُنا آدمُ عليه السَّلام، والذي عَرَّف أولادَه بالله تعالى، ثم قام الأنبياءُ جميعًا من بعدِه بتعريفِ الناسِ بالله تعالى، وبأنّ اللهَ تعالى واحدٌ أحَدٌ، ولا تَليقُ العبادةُ بسواه،

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٢ برقم ٣٤٥٥.

وظلَّ التعريفُ بالله يَطوي المراحلَ التدريجيَّةَ، وظلَّ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام يسمَعونَ من سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ العِرفانَ الإلهيَّ ويُبلِّغونَ الناسَ به، ورَغْمَ أنه لا مجالَ للشكِّ في سَماعِهم، وكلُّ ما سَمِعه الأنبياءُ الكرامُ وسيّدُنا جِبريلُ عليهم السَّلام كان صحيحًا بنسبةِ مائةٍ في المائة، لكنْ معَ ذلك هناك فرْقٌ بينَ السَّمع والرُّؤية، مثلَما قال النبيُّ ﷺ، فيما رواه سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي اللهُ عنه: «ليس الخبرُ كالمُعاينة، إنّ اللهَ عزَّ وجلّ أَخْبر موسى بما صَنَع قومُه في العِجْل، فلم يُلقِ الألواحَ، فلمّا عايَنَ ما صَنَعوا، ألقَى الألواحَ فانكَسَرت»[1].

وهكذا دعا اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّنا الكريمَ ﷺ إليه فوقَ السَّمواتِ في السابع والعشرينَ من شهر رَجَبٍ، وأَنْعم عليه برُؤيةِ ذاتِه بما يَليقُ بشأنِه تعالى، وهكذا اكتَمل العِرفانُ الإلهيُّ الذي بَدَأ بسيّدِنا آدمَ عليه السلام برؤيةِ نبيٍّ آخِرِ الزَّمان ﷺ للذّاتِ الإلهيَّة، وعاد النبيُّ ﷺ من رحلةِ المعراج، مصدِّقًا لِما جاء به كلُّ الأنبياءِ السابقينَ عليهمُ السَّلام، بأنّ التوحيدَ الذي ظلَّ الأنبياءُ الكرامُ يدعُونَ الناسَ إليه شاهدتُه لتَوّي وعدتُ إليكم، وهو فعلًا واحدٌ أَحَدٌ ولا شريكَ له، وبالتالي حينَ اكتَملَ التعريفُ بالله تعالى لم تَعُدْ هناك حاجةٌ إلى نبيٍّ آخَرَ، وهكذا انتهت سلسلةُ النُّبوةِ المقدَّسة بعدَه ﷺ.

ـ حفظُ القرآنِ الكريم

أَبْلغ كلُّ نبيٍّ قومَه رسالةَ هدايةِ الإسلام بأكملِ طريقةٍ، ولكنْ بعدَ انتقالِ النبيِّ إلى جوارِ ربِّه حرَّف قومُه في رسالةِ الهدايةِ هذه، وأضافوا إليها نظريّاتٍ باطلةً من عندِ أنفُسِهم اتِّباعًا لهواهم، وعندَئذٍ تصبحُ الحاجةُ ماسّةً إلى نبيٍّ جديدٍ ليوضِّحَ رسالةَ الإسلام الأَصْليّة ويُبرزَها من جديد، ولكن بعدَ نزولِ القرآنِ الكريم

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٧١.

جاء الإعلانُ بأنّ من غيرِ الممكن التَّحريفَ أو التبديلَ ولو قليلًا في هذا الكتاب، وسيبقَى كلُّ حرفٍ فيه محفوظًا حتى قيام الساعة، وبالتالي لن تكونَ هناك حاجةٌ إلى أيِّ نبيٍّ جديد.

ـ النُّبوةُ العالميّة

قَبْلَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ كان الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلام يأتُونَ إلى شعوبٍ مختلفةٍ في أوقاتٍ مختلفةٍ وفي أماكنَ مختلفةٍ من العالم، ولم تكنْ تعاليمُهم عالميّةً شاملةً؛ لأنه كان لا يزالُ أمامَ الإنسانيّة وقتٌ لتَطوِيَ فيه مراحلَ التطورِ والارتقاء، وفي النِّهاية كان قدومُ نبيِّنا ﷺ في الوقتِ الذي وَصَلت فيه الدُّنيا إلى مرحلةٍ تُمكّنُها من فَهْم واستيعابِ النِّظام العالميِّ للحياة، وبالتالي أَنْعم اللهُ تعالى على نبيِّنا ﷺ بالدِّين العالميِّ وأعلَن قائلًا: «إنك رحمةٌ للعالَمين ورسولٌ إلى الناسِ أجمعين»، وحينَ جاء الرسولُ العالميُّ برسالةِ الهدايةِ العالميَّة لم تَعُدْ هناك حاجةٌ إلى رسالةٍ أخرى، ولهذا انتَهَت سلسلةُ النُّبوةِ المقدَّسةِ بعدَه ﷺ:

ـ حين وَصَلتِ الدُّنيا إلى أَوْج شبابِها، جاء نظامٌ أخيرٌ من أَجْلِها.

مبدأ منطقي

كان الهدفُ من بَعْثةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام هو تمييزُ الحقِّ من الباطل، وتبليغُ الهدايةِ الكاملةِ إلى الناسِ جميعًا من أَجْل الفلاح في الدارَيْنِ، ولهذا عندما أَنْعم اللهُ تعالى على الإنسانِ بالهدايةِ الكاملة في شكلِ القرآنِ المَجيد، فإنّ الهدفَ الذي أُقيمت من أَجْلِه سلسلةُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام لا مَحالةَ قدِ انتهى؛ لأنّ المبدأَ المنطقيَّ هو أنه إذا انتفَى الشّرطُ انتهَى المشروطُ أيضًا، ولأنّ الهدايةَ الكاملةَ قد جاءت بالفعل بوسيلةِ النبيِّ الكريم ﷺ، لهذا من المنطقيِّ أن يكونَ النبيُّ ﷺ هو خاتَمَ هذه السِّلسلة.

الأسوة الأخيرة

قال أحدُ المشايخ: ليس هناك مكانٌ لم يُرسَلْ إليه نبيٌّ، أُرسِلوا إلى كلِّ قوم، جاءوا في كلِّ منطقة، وفي كلِّ زمانٍ (سَلامُ اللهِ عليهم جميعًا)، لكنّ هؤلاءِ جميعًا جاءوا لكي يذهَبوا، فقد جاءوا لوقتٍ محدَّد وزمنٍ معيَّن، وكانت أحكامُهم مؤقَّتة، وكذا أُسوتُهم، لكنّ هناك دِينًا واحدًا جاء لكي يبقَى حتى قيام الساعة، فمَن يا ترى يمكنُه القضاءُ عليه؟ إنّ ذلك الذي جاء كان آخِرَ القادمين، فإنْ ذهبَ وانتهت أُسوتُه فقد قامتِ الساعة، فليس هناك قادمٌ بعدَه، وهذه هي الأُسوةُ الباقية، وقد حَكَم اللهُ تعالى منذُ الأزَل بأنّ هذه هي الأُسوةُ الأخيرة، وستبقى حتى قيام الساعة.

ختم النبوة نعمة من الله

خَتْمُ النُّبوةِ بمثابةِ الجائزةِ الخاصّةِ من الله تعالى، وبفَضْلِها قامت أُخوَّةٌ عالميّةٌ ووَحدةٌ قويّةٌ بينَ الأُمّةِ المسلمة، ولو لم تكنْ هذه العقيدةُ لَما تيسَّرت هذه الوَحدةُ للأُمّةِ المسلمةِ أبدًا؛ لأنّ هذه الوَحدةَ كانت تتحطَّمُ معَ مجيءِ كلِّ نبيّ، وهذه الأُمّةُ الواحدةُ كانت ستنقسمُ إلى أُمم مختلفةٍ ومتعدِّدة، لكلِّ أُمةٍ منها مركزٌ روحيٌّ مختلف، وتاريخٌ مختلف، ونَبْعٌ علميٌّ وحضاريٌّ مختلف، بل إنّ الإنسانَ كان سيظَلُّ غيرَ آمِن أو مطمئنٍّ أبدًا باعتبارِ المستقبَل، ويبقى منتظرًا لقدوم نبيٍّ جديد، لكنّ عقيدةَ خَتْم النُّبوّةِ حَفِظت المسلمينَ من كلِّ اختلافٍ رئيسٍ يمكنُ أن يصبحَ سببًا لتفرُّقِهم وتمزُّقِهم فيما بينَهم من الداخل.

مرزا غلام أحمد قادياني

مِرْزا غُلام أحمَدَ قاديَاني واحدٌ ممَّن ادَّعَوا النُّبوَّةَ بعدَ النبيِّ الكريم ﷺ، وقد ادَّعى النُّبوةَ عام ١٨٩١م، وبعدَ النبيِّ ﷺ حَكَم سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله

عنه بكفرِ مُسَيْلِمةَ الكذّابِ، وفي السابع من ديسمبر عام ١٩٧٤م حَكَم البرلمانُ الوطنيُّ الباكستانيُّ بكفرِ مِرزا غُلام أحمدَ قاذْيَاني.

وعقَدَت هيئةٌ فَرْعيّةٌ من منظمةِ حقوقِ الإنسان اجتماعًا في جينيفَ في الثامن من أغُسطسَ عام ١٩٨٨م، تقدَّم فيها المِرْزائيُّونَ بطلبٍ يَشْكُونَ فيه أنّ باكستانَ قد اغتَصَبت حقوقَهم، ودُعِيت حكومةُ باكستانَ لتُرسلَ مندوبًا عنها بجينيفَ معلّقٍ، ولكنّه لن يكونَ له الحقُّ في الردِّ على أيِّ اعتراض، وفي ذلك الوقتِ أرسَلَ الرئيسُ محمَّد ضياءِ الحقِّ أستاذي الجليلَ القاضيَ الشّيخَ محمَّد كرَم شاه الأَزْهريَّ إلى جينيفَ، حتى يسمعَ فعاليّاتِ الاجتماع، ويقترحَ طريقةً مناسبةً للدفاع، وفي جينيفَ أجرى السفيرُ الباكستانيُّ إذّ ذاك السيّد سعيدٌ الدَّهْلَوي عدةَ لقاءاتٍ خاصّةٍ للقاضي الشّيخ محمد كَرم شاه معَ قُضاةِ المحكمة هناك، حتى يمكنَه إطلاعُهم على موقفِ باكستان، وقد نوقشتْ مسائلُ عديدةٌ في هذه اللقاءات، وكان من بينِها أنّ كلَّ المِرْزائيِّينَ يؤمنون بسيّدِنا محمد ﷺ، فلماذا لا يُعطُونَ الحقَّ في أن يُدْعَوْا مسلمين؟ فقال القاضي الشّيخُ محمد كرَم شاه في جوابِه عن هذا الاستفسار:

من وِجهةِ النظَر الدُّنيويّة، الأقوامُ تنفصلُ عن بعضِهم بسببِ اللَّونِ والعِرقِ واللُّغة أو الوطنِ وغيرِها من الأسباب، ولكنْ من وِجهةِ النظرِ الدِّينيةِ هناك سببٌ واحدٌ فقط لكي تنفصلَ الأُممُ عن بعضِها، يعني: عندما تكونُ لأُمةٍ من الأُمم علاقةٌ خاصّةٌ بنبيٍّ من الأنبياء، فإنّ أُمةً مستقِلّةً تَظهَرُ إلى عالَم الوجود عندَها، على سَبيل المثال: نحن المسلمينَ نؤمنُ بسيّدِنا موسى وسيّدِنا عيسى عليهما السلام، ومعَ ذلك لسنا يهودًا ولا نَصارى؛ لأنّ لنا تعلُّقًا خاصًّا بسيّدِنا محمدٍ ﷺ، ولهذا نحن مسلمون، وبنفسِ الطريقة المِرْزائيُّونَ يؤمنونَ بسيّدِنا موسى وسيّدنا عيسى عليهما

السلام، وكذا بسيّدِنا محمدٍ ﷺ، ولكنَّهم معَ ذلك ليسوا يهودًا ولا نَصارى ولا مسلمين، وإنّما هم مِرْزائيُّون؛ لأنّ لهم تعلُّقًا خاصًّا بمِرْزا غُلام أحمد قاديَاني.

ويمكنُ التعبيرُ عن وِجهةِ النظَرِ هذه بطريقةٍ أخرى، وهي: أنّ النَّصارى جميعًا يؤمنونَ بسيِّدِنا موسى عليه السلام، ولكنّ اليهودَ لا يعطونَهم الحقَّ في أن يُدعَوْا يهودًا؛ لأنّهم بجانبِ إيمانِهم بسيّدِنا موسى عليه السلام يؤمنونَ بنبيٍّ آخَرَ هو سيّدُنا عيسى عليه السَّلام، وهو الذي لا يؤمنُ به اليهودُ، وبنفسِ الطريقة فإنّ المسلمينَ جميعًا يؤمنونَ بسيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ نبيًّا، ولكنّ النَّصارى لا يسمَحونَ لهم بأن يقولوا عن أنفسِهم: نصارى؛ لأنّهم بجانبِ إيمانِهم بسيّدِنا عيسى عليه السَّلام نبيًّا يؤمنونَ بنبيٍّ آخَرَ هو سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، وهو الذي لا يؤمنُ به النَّصارى، وبنفسِ الطريقة يؤمنُ المِرْزائيُّونَ بسيّدِنا محمدٍ ﷺ، لكنّ المسلمينَ لا يُعطونَهم الحقَّ لكي يقولوا عن أنفسِهم: مسلمون؛ لأنّهم بجانبِ إيمانِهم بسيّدِنا محمدٍ ﷺ يؤمنونَ بنبوّةِ شخصٍ آخَرَ هو مِرْزا غُلام أحمد قاديَاني، وهو الذي لا يؤمنُ به المسلمونَ، وهكذا فإنّ الأمرَ ظاهرٌ وواضح، ولا ينبغي للمِرْزائيِّينَ أن يُصِرُّوا على أن يقولوا عن أنفُسِهم: مسلمون، وعليهم أن يكتفُوا بأنْ يقولوا عن أنفسِهم: قاديانيُّون، وإن كانوا مشتاقينَ حقًّا لأن يقولوا عن أنفسِهم: مسلمون، فعليهم أن يتوبوا من المِرْزائيَّة، ويدخُلوا الإسلامَ.

نزول سيدنا عيسى عليه السلام

يقولُ العلّامةُ الزَّمخشَري في تفسير هذه الآية: «فإنْ قيل: كيف كان آخِرَ الأنبياءِ وعيسى ينزلُ في آخِرِ الزمان؟ قلت: معنى كونه آخِرَ الأنبياء أنه لا يُنبَّأُ أحدٌ بعدَه، وعيسى ممن نُبِّئ قبلَه، وحين يَنزِلُ يَنزِلُ عاملًا على شريعةِ محمدٍ، مصلِّيًا

إلى قِبلتِه، كأنه بعضُ أُمّتِه»[١]، مثلَما جاء الأنبياءُ جميعًا عليهمُ السَّلامُ إلى المسجد الأقصى ليلةَ المعراج، وصَلَّوْا جماعةً وراء نبيِّنا ﷺ، معَ أنهم بُعِثوا أنبياءَ من قبلِه.

بعض الأحاديث النبوية عن نزول سيدنا عيسى عليه السلام:

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «والّذي نَفْسي بيدِه، لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنزِلَ فيكمُ ابنُ مريَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فيكسِرُ الصّليبَ، ويقتُلُ الخِنزيرَ، ويضَعُ الجِزْيَةَ، ويَفيضُ المالُ حتّى لا يقبَلَه أحدٌ، حتّى تكونَ السَّجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدّنيا وما فيها»[٢].

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تقومُ السّاعةُ حتّى يَنزِلَ فيكمُ ابنُ مريَم حَكَمًا مُقسِطًا، فيكسِرُ الصّليبَ، ويقتُل الخِنزيرَ، ويضَعُ الجِزْية، ويَفيضُ المالُ حتّى لا يقبَلَه أحدٌ»[٣].

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نَزَل ابنُ مريَمَ فيكم وإمامُكم منكم؟»[٤].

ـ يقولُ سيِّدُنا حُذَيْفةُ رضي الله عنه: اطَّلع النّبيُّ ﷺ علينا ونحن نَتذاكَرُ فقال: «ما تَذاكَرون؟». قالوا: نَذكُرُ السّاعةَ. قال: «إنّها لن تقومَ حتّى ترَوْا قبلَها عشْرَ آياتٍ». فذَكَر: الدُّخانَ، والدّجّالَ، والدّابّةَ، وطلوعَ الشّمس من مغربِها، ونزولَ عيسى ابن مريَم ﷺ، ويَأْجوجَ ومَأْجوج، وثلاثةَ خسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ

---

(١) تفسير الكشاف.

(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥١ برقم ٣٤٤٨.

(٣) البخاري، كتاب المظالم، باب ٣١ برقم ٢٤٧٦.

(٤) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥١ برقم ٣٤٤٩.

بالمغربِ وخسفٌ بجزيرةِ العرب، وآخِرُ ذلك: نارٌ تَخرُجُ من اليمنِ تَطرُدُ النّاسَ إلى محشَرِهم»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا نُوَاسُ بن سَمْعانَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال ذاتَ صباح: «إذْ بَعَث اللهُ المسيحَ ابنَ مريمَ، فيَنزِلُ عندَ المنارةِ البيضاءِ شَرْقيَّ دمشقَ بينَ مَهْرُودَتَيْنِ، واضعًا كفَّيْه على أجنحةِ مَلَكيْنِ إذا طَأْطأَ رأسَه قَطَر، وإذا رَفَعَه تحدَّر منه جُمانٌ كاللُّؤلؤ»(٢).

ـ يقول سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس بيني وبينَه نبيٌّ ـ يعني: عيسى ـ وإنّه نازلٌ، فإذا رأيتُموه فاعرِفوه، رجلٌ مربوعٌ إلى الحُمرةِ والبياض، بينَ مُمَصَّرتَيْنِ، كأنّ رأسَه يَقطُرُ وإن لم يُصِبْه بَلَلٌ، فيقاتلُ النّاسَ على الإسلام فيَدُقُّ الصَّليبَ ويقتُلُ الخِنزيرَ ويضَعُ الجِزية، ويُهلِكُ اللهُ في زمانِه المِلَلَ كلَّها إلّا الإسلامَ، ويُهلِكُ المسيحُ الدّجّالَ فيمكُثُ في الأرض أربعينَ سنةً ثمّ يُتوفَّى فيُصلّي عليه المسلمون»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ سَلَام رضي الله عنه: «مكتوبٌ في التَّوراةِ في صفةِ محمّدٍ: وعيسى ابنُ مريَمَ يُدفَنُ معه. قال فقال أبو مودودٍ: وقد بقي في البيتِ موضعُ قبرٍ»(٤).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) مسلم، كتاب الفتن، باب ١٣ برقم ٧٢٨٥.

(٢) مسلم، كتاب الفتن، باب ٢٠ برقم ٢٩٣٧.

(٣) أبو داود، كتاب الملاحم، باب ١٤ برقم ٤٣٢٤.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦١٧.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

٤٨ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «لم يَفرِضِ اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه فريضةً إلّا جَعَل لها حدًّا معلومًا (مثلًا: خمسُ صَلَواتٍ في أوقاتٍ محدَّدة، وصيامٌ في شهرِ رمضان، والحجُّ مرةً في العمُر، وزكاةُ المال مرةً في السَّنَة) ثم عَذَر أهلَها في حال العُذرِ غيرَ الذِّكر، فإنه لم يَجعَلْ له حدًّا ينتهي إليه ولم يَعذِرْ أحدًا في تَرْكِه إلّا مغلوبًا على عقلِه، وأمَرَهم به في الأحوالِ كلِّها فقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

يعني: باللَّيل والنَّهار في البرِّ والبحرِ وفي الصِّحة والسُّقم وفي السرِّ والعلانيَة»[١].

ـ يقولُ سيِّدُنا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أفضَلُ الذِّكر: لا إلهَ إلّا الله، وأفضلُ الدُّعاءِ: الحمدُ لله»[٢].

ـ يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ القلوبَ تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحديد»، قيل: فما جَلاؤها يا رسولَ الله؟ قال: «كثرةُ تلاوةِ كتابِ الله تعالى وكثرةُ الذِّكر لله عزَّ و جلّ»[٣]، ولمزيدٍ من التفصيل عن ذِكرِ الله تعالى راجع الحاشيةَ رقم ٣٨ للآية رقم ٢٨ من سورة الرَّعد (١٣)، والحاشيةَ رقم ٤١ للآية رقم ٤٥ من سورة العنكبوت (٢٩).

يقولُ العلّامةُ الزَّمخشَريُّ في تفسيرِ هذه الآية: «ويجوزُ أن يريدَ بالذِّكر وإكثارِه: تكثيرَ الطاعاتِ والإقبالَ على العبادات؛ فإنّ كلَّ طاعةٍ وكلَّ خيرٍ من جُملةِ الذِّكر»[٤].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾

٤٩ ـ الذين يَذكُرونَ اللهَ تعالى دائمًا، ويعيشونَ حياتَهم طبقًا لأحكامِه، تدعو لهمُ الملائكةُ بنزولِ الرَّحمةِ عليهم، واللهُ تعالى يُنزِلُ رحمتَه عليهم، ويُخرِجُهم من ظُلماتِ الضَّلالِ إلى نورِ الهداية.

---

(١) تفسير الخازن.
(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩ برقم ٣٣٨٣.
(٣) كنز العمال، ٢: ٢٤ برقم ٣٩٢٤.
(٤) تفسير الكشاف.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

٥٠ ـ حين يَمثُلُ الذاكرونَ والمتَّقونَ في حضرةِ الله تعالى يومَ القيامة سيُلقي اللهُ تعالى عليهمُ السَّلامَ بقولِه: «السَّلامُ عليكم»[١]، ويأمُرُ بأن يَدخُلوا دارَ السَّلام، أي: الجنّةَ، حيث سيَستقبِلُهم الملائكةُ بقولهم: «السَّلامُ عليكم».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾

٥١ ـ تعريفُ الشاهد:

شاهِد: لفظٌ عربيّ، وتعريفُه عندَ أهل اللُّغة هو: «الذي يُخبِرُ بما شَهِدَه»[٢]، ويُقال: الذي يُخبرُ بما شَهِده بنفسِه، يعني: لم يَسمَعْ من أحدٍ، وإنّما رأى بعينَيْه، هذا هو الشاهدُ في اللُّغة العربيّة، ويقالُ له في الأُرديّة: «چشم ديد گواه: شاهدُ العِيَان»، ويقالُ له في الإنجليزية: «Eye - witness»، وتعريفُ «Eye - witness» كالتالي: A person who has personally seen something happen and can give evidence about it.، يعني: يقالُ للشَّخص الذي رأى واقعةً بعينَيْه، ثم يَشهَدُ بذلك.

وباختصار: الشاهدُ يقالُ للشّخص الذي يكونُ حاضرًا في الموقع ورأى الواقعةَ بناظرَيْهِ. والآنَ، تصبحُ ترجمةُ الآية ـ واضعينَ هذا المفهومَ في أذهانِنا ـ كأنّ اللهَ تعالى قال: يا أيُّها النبيُّ ﷺ، لا شكَّ أننا أرسَلْناك حاضرًا وناظرًا (شاهدَ عيان): O prophet! Indeed we have sent you as an eye - witness، وهذه هي ترجمةُ الشّيخ أحمد رضا خان، يعني: أنّ اللهَ تعالى قد أرسَلَ النبيَّ الكريمَ حاضرًا وناظرًا[٣].

---

(١) «أي: يسلم الرب تعالى عليهم» ـ تفسير الخازن.

(٢) المنجد.

(٣) كنز الإيمان.

والآنَ السؤالُ هو: النبيُّ ﷺ شاهدٌ لمَن؟

قال اللهُ تعالى:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ [المزمل: ١٥].

المرادُ بلفظِ «إليكُم»: الأُمّةُ كلُّها، والأُمّةُ قسمان، الأُولى: أُمّةُ إجابةٍ، وهي التي قَبِلَت دعوتَه ﷺ، وهم المسلمونَ. والثانية: أُمّةُ الدَّعوة، وهم الذين دعاهم النبيُّ ﷺ إلى الهداية، وهم الدنيا كلُّها، والنبيُّ ﷺ شاهدٌ للمسلمينَ باعتبارِ أُمّةِ الإجابة، وباعتبارِ أُمّةِ الدَّعوةِ فهو شاهدٌ للدنيا كلِّها.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ـ لهذا يقولُ المفسِّرونَ في تفسيرِ هذه الآية: «يا أيُّها النبيُّ إنّا أرسَلْناكَ شاهدًا على مَن بُعِثتَ إليهم»، يعني: كلُّ مَن أنت نبيٌّ له أنت حاضرٌ عندَه وناظرٌ له أيضًا.

ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «أُرسِلتُ الى الخَلْقِ كافّةً، وخُتِم بيَ النّبيُّونَ»[1]، والمرادُ بالخَلْق كافةً: أنّ كلَّ مخلوقٍ ممكنٌ أنا نبيُّه، وهذا يعني أنّ النبيَّ ﷺ قال: أنا نبيُّ ذَرّاتِ التّرابِ أيضًا، ونبيُّ قَطَراتِ الماءِ كذلك، أنا نبيُّ وحوشِ الغابة، ونبيُّ طيورِ السَّماءِ أيضًا، أنا نبيُّ الجِنِّ ونبيُّ الإنسِ أيضًا، ومعنى هذا: أنّ النبيَّ ﷺ شاهدُ كلِّ مخلوق، وحاضرٌ عندَه وناظرٌ له أيضًا.

---

(١) مسلم، كتاب المساجد، برقم ٥.

كيف يكون النبي ﷺ حاضرًا وناظرًا عند كل مخلوق؟

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «مرَّ النّبيُّ ﷺ بحائطٍ من حيطانِ المدينةِ أو مكّةَ، فسَمِعَ صوتَ إنسانَيْنِ يُعذَّبانِ في قبورِهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «يُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ»، ثمّ قال: «بلَى، كان أحدُهما لا يَستتِرُ من بولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمة». ثمّ دَعا بجريدةٍ فكسَرَها كسرتَيْنِ، فوَضَع على كلِّ قبرٍ منهما كَسْرةً. فقيلَ له: يا رسولَ الله، لمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلّه أن يُخفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا أو إلى أن يَيْبَسا»[1].

وكأنّ النبيَّ ﷺ قال: أيُّها الصَّحابةُ، إنّني في الظاهرِ معَكم، ولكنّي لستُ معَكم فقطْ، وإنّما معَ أهلِ البَرْزَخ أيضًا، وأستطيعُ أن أُساعدَهم كذلك، فأنا شاهدٌ عندَهم وشاهدٌ عندَكم أيضًا، وبنفسِ الطريقة حين سأكونُ في البَرْزَخ لن أكونَ شاهدًا لهم فقطْ، وإنّما سأكونُ شاهدًا لكم أيضًا، وأستطيعُ أن أُساعدَكم كذلك، وتأييدًا لهذا الكلام لاحظِ الحديثَ الشّريفَ التالي:

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ لله ملائكةً سيّاحينَ يُبلِّغونَ عن أُمّتيَ السّلامَ». قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «حياتي خيرٌ لكم، تُحدّثوني وأتحدَّثُ لكم، ووفاتي خيرٌ لكم، تُعرَضُ علَيّ أعمالُكم، فما رأيتُ من خيرٍ حَمِدتُ اللهَ عليه، وما رأيتُ من شرٍّ استَغفَرْتُ اللهَ لكم»[2]، فكما أنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ كان شاهدًا لأهل البَرْزَخ حالَ كونِه يعيشُ معَ الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم في الحياة، فهو اليومَ كذلك في حياةِ البَرْزَخ شاهدٌ لنا، يَستغفرُ لنا ويساعدُنا.

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

(٢) مجمع الزوائد، ٩: ٢٤، والبداية والنهاية، المجلد ٣: ٥: ٢٧٥.

النبي ﷺ واحد، فكيف يكون شاهدًا للجميع؟

ـ يقولُ سيّدُنا زُهيرُ بن محمّدٍ رضي اللهُ عنه: «قيل: يا رسولَ الله، مَلَكُ الموتِ واحدٌ والزَّحفانِ يلتقيانِ من المشرقِ والمغربِ وما بينَهما من السِّقطِ والهلاكِ، فقال: «إنّ اللهَ حَوَى الدّنيا لمَلَكِ الموت، حتّى جَعَلها كالطَّستِ بينَ يدَيْ أحدِكم، فهل يفوتُه منها شيء؟»»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ تعالى قد رفع ليَ الدّنيا، فأنا أنظُرُ إليها وإلى ما هو كائنٌ فيها إلى يوم القيامةِ كأنّما أنظُرُ إلى كفِّي هذه»(٢).

ـ لِنفترِضْ أنّ الإمامَ كان يَخطُبُ في المسجدِ في التاسعةِ ليلًا بعدَ صلاةِ العشاء، وكان أمامَه عشرونَ رجلًا يستمعونَ إليه، وفي هذه الأثناءِ قُتِل رجلٌ في المدينة، وجاء ذِكرُ أسماءِ بعضِ الحاضرينَ في المسجد بينَ القَتلة، فإنّ الإمامَ يستطيعُ أن يشهَدَ في المحكمةِ أنّ أحدًا من العشرينَ رجُلًا هؤلاءِ لم يُشارِكْ في جريمةِ القَتْل؛ لأنه شاهِدُ عِيانٍ عليهم بأنّهم وقتَ وقوع الجريمةِ كانوا أمامي في المسجد. والآنَ، إذا كان الإمامُ ـ وهو فردٌ واحدٌ ـ يستطيعُ أن يكونَ شاهدًا لعشرينَ رجلًا، وإذا كان مَلَكُ الموتِ واحدًا ويستطيعُ أن يكونَ شاهدًا على الناسِ جميعًا في الشرقِ والغرب، فلا مناصَ من الاعترافِ بأنّ النبيَّ ﷺ ـ وهو فردٌ واحد ـ يمكنُ أن يكونَ شاهدًا للجميع، ولهذا فإنّ أحدَ مفاهيم الحاضرِ الناظرِ أيضًا هو أنّ النبيَّ ﷺ في قبرِه المُنير، ونحن جميعًا ماثلونَ في حضرتِه، وهو ناظِرُنا.

---

(١) تفسير الدر المنثور، سورة السجدة (٣٢)، الآية ١١.

(٢) كنز العمال، ١١: ٤٢٠ برقم ٣١٩٧١.

النبي الكريم ﷺ حاضر وناظر عند الله تعالى أيضًا:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعرفتُه ضروريّةٌ قبلَ عبادتِه، أي مَن هو الذي يستحقُّ العبادةَ؟ ولهذا كَتَب العلّامةُ الآلوسيُّ والعلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرَيْهِما معنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: «لِيَعرِفُونِ»، يعني: أولًا لا بدَّ من حصولِ معرفةِ الله تعالى، ثم بعدَ ذلك تعبُدونَه، وهكذا أرسَلَ اللهُ تعالى بادئَ ذي بَدْءٍ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ للتعريفِ به، فقال للدُّنيا كلِّها: إنّ اللهَ واحدٌ أحَد، ثم تَوالَى الأنبياءُ بعدَ ذلك، سيّدُنا نوحٌ، ثم سيّدُنا إبراهيمُ، ثم سيّدُنا موسى، ثم سيّدُنا عيسى عليهم جميعًا السَّلامُ، وأَخْبَروا الدُّنيا كلَّها أيضًا أنّ اللهَ واحدٌ أحَد، ولكنْ لم يَرَ أحدٌ من الأنبياءِ اللهَ تعالى بعينَيْه، وإنّما سَمِع من سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ وبَلَّغ ما سَمِع منه بأنّ اللهَ تعالى واحدٌ أحَدٌ، معَ أنّ جِبريلَ عليه السَّلامُ هو الآخَرُ لم يَرَ اللهَ تعالى أيضًا، ونحن نؤمنُ بأنّ ما سَمِعَه الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام، وما بَلَّغَهم به سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلام، كان صحيحًا مائةً في المائة، ولكنْ ليس مَن سَمِع كمَن رأى، وهناك فَرْقٌ بالفعل بينَ السَّمع والمشاهَدة، والأمرُ ليس مجرَّدَ مَثَلٍ يُضرَب، وإنّما هو فطرةٌ إنسانيّة، والنبيُّ ﷺ قال: «**ليس الخَبَرُ كالمُعاينة**»[1]، والأنبياءُ جميعًا سَمِعوا من سيّدِنا جِبريلَ عليه السَّلامُ أنّ اللهَ واحدٌ أحَد، لكنّ اللهَ تعالى دَعا نبيَّ آخِرِ الزّمان ﷺ ليلةَ المِعراج إلى اللامكانِ وقال له: تعالَ بنفسِك، وانظُرْ إليّ بعينَيْ رأسِك، وأَخْبِرْ أهلَ الدنيا جميعًا أنّ ما قالهُ الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلامُ منذُ البداية وحتى اليوم من أنّ اللهَ واحدٌ أحَد رأيتُه بنفسي وعُدتُ إليكم، واللهُ ـ بالفعل ـ واحدٌ أحَد، وهكذا دَعَا اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ إليه ليلةَ المعراج وجَعَله شاهدًا لذاتِه الإلهيَّة.

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٧١.

وكما أنّ الإسلامَ بَدأَ بسيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وظلَّ الأمرُ يرتقي طبقًا لظروفِ كلِّ عصرٍ، حتى وَصَل إلى مُنتهاهُ حينَ أعلَن اللهُ تعالى في عهدِ نبيِّ آخِرِ الزمان ﷺ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وبنفسِ الطريقة بَدَأ التعريفُ بالله تعالى لبني البشَر بسيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ووَصَل مُنتهاهُ حينَ شاهَدَ نبيُّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ اللهَ تعالى بعينَيْهِ ليلةَ المعراج، وبعدَ اكتمال الإسلام والتعريفِ بالله تعالى لم تَعُدْ هناك حاجةٌ إلى النُّبوَّة، ولهذا أنهَى اللهُ تعالى سلسلةَ النُّبوّةِ بسيّدِنا محمدٍ النبيِّ الكريم ﷺ، وباختصار: فإنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ قد مَثُلَ ليلةَ المعراج في حضرةِ الله تعالى، وشاهَدَ الذاتَ الإلهيَّةَ بعينَيْه، وبهذا يكونُ النبيُّ ﷺ شاهدًا لله تعالى وحاضرًا وناظرًا له.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾

٥٢ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ داعيًا، حتى يدعوَ الناسَ إلى توحيدِ الله تعالى وطاعتِه، كما أنه تعالى أرسَلَه ﷺ سِراجًا مُنيرًا، حتى تتَّضحَ طُرُقُ الحقِّ والباطل، فيترُكَ الناسُ طريقَ الباطل ويختاروا طريقَ الحق.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾

٥٣ ـ المرادُ بالفَضْل الكبير: الجنَّةُ ونِعَمُها، والتي أعَدَّها اللهُ تعالى لأهلِ الإيمان.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾

٥٤ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجع الحاشيةَ رقم ٢ للآية رقم ١ من السُّورة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

٥٥ - يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فهذا في الرجُل يتزوَّجُ المرأةَ، ثم يُطلِّقُها من قَبْلِ أن يمَسَّها، فإذا طَلَّقها واحدةً بانَتْ منه، ولا عِدّةَ عليها تتزوَّجُ من شاءت، ثم قرَأ: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ يقول: إن كان سَمَّى لها صَداقًا، فليس لها إلّا النِّصفُ، فإنْ لم يكنْ سَمَّى لها صَداقًا، مَتَّعها على قَدْرِ عُسرِه ويُسرِه، وهو السَّراحُ الجميل»[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

٥٦ - يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ للنبيِّ ﷺ امتيازًا في بعضِ الأحكام لا يشاركُه فيه أحدٌ آخرُ من المسلمين، على سَبيل المثال: كانت صلاةُ التهجُّدِ صلاةً خاصّةً بالنِّسبةِ إليه ﷺ، وقد حَرَص ﷺ دائمًا على الالتزام بها، بينَما هي لباقي المسلمينَ نافلةٌ. وأَخْذُ الصَّدَقةِ مُحرَّمٌ عليه ﷺ وعلى آلِ بيتِه الكرام، في حينَ أنها ليست حرامًا على باقي المسلمين. أزواجُه ﷺ بالنِّسبةِ للأُمّةِ المسلمةِ كلِّها بمنزِلةِ الأُمّهات، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يَنكِحَ منهُنَّ بعدَ انتقالِه ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى، وبنفسِ الطريقة ذُكِرت في هذه الآياتِ بعضُ الخصوصيّاتِ المتعلِّقةِ بنِكاح النبيِّ ﷺ:

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

ـ النِّساءُ اللّائي أعطاهُنَّ النبيُّ ﷺ صَداقًا حلالٌ له، حتى وإن كان عددُهنَّ أكثرَ من أربعِ نساءٍ، بينَما لا يجوزُ لباقي المسلمينَ الاحتفاظُ بأكثرَ من أربعِ زوجاتٍ في وقتٍ واحد.

ـ الإماءُ المحَلَّلاتُ للنبيِّ ﷺ لهُنَّ خصوصيّةٌ، وهي: أنه لا يجوزُ لأحدٍ النِّكاحُ منهُنَّ بعدَه ﷺ مَثَلُهنَّ مثَلُ الأزواج المطَهَّراتِ مِثلَ: السيّدةِ مارِيةَ القِبْطيّةِ رضي الله عنها.

ـ هناك شرطٌ خاصٌّ لنكاح النبيِّ ﷺ من بناتِ العمِّ وبناتِ العمَّة، وبناتِ الخالِ وبناتِ الخالة، وهو: أن تكونَ هؤلاءِ النِّسوةُ قد وَقَفنَ معَ النبيِّ ﷺ في هجرتِه إلى من مكّةَ؛ لأنّ التي لم تُهاجِرْ من مكّةَ بغيرِ سببٍ لا تكونُ محبّةُ اللهِ تعالى ومحبّةُ رسولِه مسيطِرةً على قلبِها، ولهذا لا تستحِقُّ أن يَنكِحَها النبيُّ ﷺ.

ـ المرأةُ المؤمنةُ التي وَهَبتْ نفْسَها للنبيِّ ﷺ، أي: قَدَّمت نفسَها للزَّواج من النبيِّ ﷺ بغيرِ صَداق، ووافَقَ النبيُّ ﷺ على الزَّواج منها أيضًا، فإنّ زواجَ النبيِّ ﷺ من هذه المرأةِ بغيرِ صَداق حُكمٌ خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ فقطْ، ولكنْ برَغْم هذه الرُّخصة فإنّ النبيَّ ﷺ قد أعطَى لكلِّ واحدةٍ صَداقَها، بينَما لا يجوزُ لأحدٍ آخَرَ من المسلمينَ أن يتزوَّجَ بغيرِ صَداق؛ لأنه يلزَمُ تعيينُ الصَّداقِ للنساءِ، وإلّا وَجَب أداءُ مهرِ المِثل لها بعدَ الدُّخولِ بها[١].

يجوزُ للمسلمينَ الزَّواجُ من أهلِ الكتاب، أي: منَ المرأةِ اليهوديّةِ أو النَّصرانيّة، ولكنْ جاء في هذه الآيةِ شرطٌ بالنِّسبة للنبيِّ ﷺ، وهو: أن تكونَ المرأةُ مؤمنةً حتى لا تكونَ امرأةٌ يهوديّةٌ أو نَصْرانيّةٌ أُمًّا للمؤمنين، وحتى تنتهيَ إمكانيّةُ أن تتزوَّجَ ـ بعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ ـ من أحدٍ من أهلِ الكتاب، كما أنّ النبيَّ ﷺ لو تزوَّجَ منَ امرأةٍ

---

(١) «من شرائط النكاح: وجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يسم» التفسير المظهري.

من أهل الكتابِ لَاتّجَه أهلُ الإيمان إلى الزَّواج من نساءِ أهل الكتابِ بشكلٍ أكبرَ حفاظًا على هذه السُّنّة النَّبويّة وإحياءً لها، وبالتالي تُحرَمُ نساءٌ مسلماتٌ من الزَّواج.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

٥٧ ـ المرأةُ وِحدةٌ مهمّةٌ من الوحداتِ المكوِّنةِ للمجتمع الإنسانيّة، ولا يمكنُ أن يوجَدَ مجتمعٌ صالحٌ دونَ أن نقومَ بتعليم المرأةِ تعليمًا جيِّدًا، وتربيتِها تربيةً صالحة، والمجتمعُ الذي أضاءَ فيه النبيُّ ﷺ مِصباحَ الإسلام كان مجتمعًا يَتِيهُ في ظلام الجَهْل منذُ قرون، والمجتمعُ الذي يريدُ الإسلامُ تأسيسَه يمتنعُ فيه الاختلاطُ غيرُ المنضبط بينَ الرِّجالِ والنِّساء، وبالتالي كانت الحاجةُ ماسّةً إلى نساءٍ رَبّاهُنَّ النبيُّ ﷺ وعلَّمهُنَّ وأعَدَّهنَّ بنفسِه من أَجْل إرشادِ هذه الوحدةِ الهامّةِ من وحداتِ المجتمع، ولهذا أجازَ اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ أن يتزوَّجَ بأكثرَ من أربع نساءٍ في وقتٍ واحد، حتى لا يَشعُرَ النبيُّ ﷺ بنَقْصٍ أو ضِيقٍ فيما يتعلَّقُ بالإرشادِ الدِّينيِّ للنِّساء. ولمزيدٍ من التفصيل عن تعدُّد أزواج النبيِّ ﷺ وزواج باقي المسلمينَ بأربع راجعِ الحاشيةَ رقم ٦ للآية رقم ٣ من سُورة النساء (٤).

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾

٥٨ ـ يجبُ على المسلم الذي يتزوَّجُ بأكثرَ من واحدةٍ أن يُحدِّدَ لكلٍّ منهُنَّ الوقتَ الخاصَّ بها، وأن لا يَمِيزَ بينَهنَّ في شيءٍ، لكنْ لا يَلزَمُ النبيَّ ﷺ تحديدُ مِثل هذا الوقت، فقد أجازَ اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ في هذه الآية أن يُقيمَ ما يشاءُ من الوقتِ عندَ من يشاءُ من نسائه، وأن يتجنَّبَ منهُنَّ مَن يشاء، ويَطلُبَهنَّ وقتَما يشاء، ومعَ ذلك

سيَعِشْنَ سعيداتٍ، وسترضَى كلٌّ منهُنَّ بما حدَّده لها النبيُّ ﷺ من وقتٍ؛ لأنَّ أعظمَ شرفٍ لها هو أنّها زوجةُ نبيٍّ آخِرِ الزّمان ﷺ، وهي ببركةِ هذه النِّسبة أُمٌّ للمؤمنينَ جميعًا.

وإذا كان اللهُ تعالى لم يوجِبْ على النبيِّ ﷺ تحديدَ وقتٍ خاصٍّ لكلِّ زوجة، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان دائمًا يقرِّرُ مِثلَ هذا الوقت، وفي أواخِر أيامِه، وبسببِ مرضِه، استأْذنَ أزواجَه جميعًا في أن يُقيمَ عندَ السيِّدةِ عائشةَ رضي اللهُ عنها، مثلَما قالتِ السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: «لمّا ثَقُل النّبيُّ ﷺ واشتَدَّ به وَجَعُه، استأْذنَ أزواجَه في أن يُمرَّضَ في بيتي، فأَذِنَّ له»[1].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾

٥٩ ـ يعني: كلُّ أقسام النِّساءِ اللّائي حَلَّلهُنَّ اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ في الآية ٥٠ لا يَحِلُّ للنبيِّ ﷺ غيرُهنَّ من النِّساء، بل ولا يَحِلُّ له أن يُطلِّقَ واحدةً من زوجاتِه اللائي في عِصمتِه ويتزوَّجَ غيرَها مهما كانت جميلةً، لكنْ إن أراد النبيُّ ﷺ أن يتزوَّجَ دونَ أن يُطلِّقَ فإنه يستطيعُ ذلك معَ واحدةٍ ممَّن ذُكِرنَ في الآية ٥٠، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ النبيَّ ﷺ لم يتزوَّجْ بعدَها منَ امرأةٍ حُرّةٍ، ولكنْ ظلَّتِ الإماءُ حلالًا له كما كُنَّ من قبلُ.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾

٦٠ ـ يقولُ الإمامُ أحمدُ بنُ عليٍّ الجَصّاص: «قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ يدُلُّ على جوازِ النّظرِ إلى وجهِ المرأةِ الأجنبيّةِ، إذْ لا يُعجِبُه حُسنُها إلّا وقد نَظَر إليها»[2].

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٤٧ برقم ١٩٨.

(٢) أحكام القرآن للجصاص، ٥: ٢٤١.

ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «في هذه الآية دليلٌ على جوازِ أن يَنظُرَ الرجُلُ إلى من يريدُ زواجَها»(١) مثلَما يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ المُغيرةَ بنَ شُعبةَ أراد أن يتزوّج امرأةً، فقال له النّبيُّ ﷺ: «اذهَبْ فانظُرْ إليها، فإنّه أحرى أن يُؤدمَ بينَكما»(٢)، وهكذا نَظَر إليها المُغيرةُ رضي الله عنه وتزوَّجها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾

٦١ ـ كان العربُ، طبقًا لتقاليدِهم الموروثة، يدخُلونَ بيوتَ النبيِّ ﷺ بلا

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) ابن ماجه، أبواب النكاح، باب ٩ برقم ١٨٦٥.

استئذانٍ، وكانوا إذا دعاهم النبيُّ ﷺ إلى طعام أتَوْهُ قبلَ موعدِ الطّعام بوقتٍ طويل، فيجلسونَ ينتظرونَ إعدادَ الطعام، ثُم بعدَ تناوُلِ الطعام يظَلُّونَ جالسينَ يتسامرونَ لوقتٍ متأخِّر، وعليه نَزَلت هذه الآيةُ: بأنْ لا تَدخُلوا بيوتَ النبيِّ ﷺ بغيرِ استئذان، وحين يدعُوكم إلى طعامٍ فاذهَبوا إليه في الوقتِ المناسب، ثم لا تُطيلوا الجلوسَ بعدَ الطعام وعودوا إلى بيوتِكم؛ لأنّ ذهابَكم قبلَ الطّعام بوقتٍ طويل، ومكوثَكم بعدَه لوقتٍ طويلٍ أيضًا يُربِكُ الحياةَ الأُسَريّةَ والمعاملاتِ الخاصّةَ بالنبيِّ ﷺ، وهو ما يؤْذي النبيَّ ﷺ، وإن كان لا يَنهاكُم عن ذلك بسببِ حيائِه الفِطريِّ وحُسن أخلاقِه ﷺ، ولهذا أَنْزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ في القرآنِ الكريم ليعلِّمَكم الأدبَ، ورَغْم أنّ هذه الآيةَ نَزَلت فيما يتعلَّقُ ببيوتِ النبيِّ ﷺ إلّا أنّ حُكمَها عامٌّ، ويجبُ مراعاةُ كلِّ هذه الآدابِ عندَ الذهابِ إلى بيوتِ المسلمينَ جميعًا بحيث لا نَخلُقُ مشاكلَ لصاحبِ البيتِ المضيف.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾

٦٢ ـ برَغْم أنّ هذا الجزءَ من الآيةَ نزَل بخصوصِ أزواج النبيِّ ﷺ المطَهَّراتِ رضي اللهُ عنهُنَّ، إلّا أنّ حُكمَها عامٌّ، وعندَما يَطلُبُ أحدٌ شيئًا من النّساءِ في بيتٍ من البيوتِ أو يسألُهنَّ شيئًا، يجبُ أن يكونَ هناك حجابٌ بينَه وبينَهنَّ، وبهذا لا يجدُ الشّيطانُ فرصةً لأنْ يوسوسَ إلى قلوبِكم بأفكارٍ سيئة.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾

٦٣ ـ روَى الإمامُ ابنُ جَرير الطَّبريُّ، بسندِه، عن سيّدِنا ابن زَيْد رضي الله عنه، أنه «ربَّما بَلَغ النبيَّ ﷺ أنّ الرجُلَ يقول: لو أنّ النبيَّ ﷺ توفِّي تزوَّجْتُ فلانةَ من بعدِه،

قال: فكان ذلك يؤذي النبيَّ ﷺ؛ فنزَل القرآنُ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ»[1]، يعني: لا تقولوا مِثلَ هذا الكلام التافهِ الذي يؤذي النبيَّ ﷺ؛ لأنّ «أذاكم رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم ونكاحَكم أزواجَه من بعدِه عندَ الله عظيمٌ من الإثم»[2].

﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

٦٤ ـ يعني: أنّ الحديثَ عن النبيِّ ﷺ وعن أزواجِه المطَهَّراتِ رضي اللهُ عنهُنَّ بما يُهينُ ذنبٌ عظيمٌ، ويجبُ أن لا نضَعَ في قلوبِنا أو أذهانِنا أفكارًا سيّئةً عنهم؛ لأنّ الظاهرَ والباطنَ أمامَ الله تعالى سواءٌ، وهو يَعلَمُ تمامَ العلم ما تُخْفيه الصدورُ وما في القلبِ من خيالاتٍ وأفكار.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾

٦٥ ـ يجبُ على النِّساء أن يتَّقِينَ اللهَ تعالى، وأن يَحتَجِبْنَ من غيرِ المحارم، أمّا آباؤهن وأجدادُهنَّ وأبناؤهنَّ وإخوانُهنَّ وأبناءُ إخوانِهنَّ فهم محارمُ لهُنَّ، ويمكنُهم أن يدخلوا عليهِنَّ، وقد مرَّ ذِكرُ المحارم في الحاشيةِ رقم **٣٧** والحاشيةِ رقم **٣٨** للآيةِ **٣١** من سُورة النُّور (**٢٤**).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

٦٦ ـ إذا نظَرْنا إلى سِياقِ هذه الآية ووقتِ نزولِها لَوجدْنا القبائلَ العربيّةَ في ذلك الوقتِ تعمَلُ جُهدَها للقضاءِ على المسلمينَ قضاءً مُبرَمًا من جانبٍ، ومن

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

جانبٍ آخَرَ وجَدْناهم منهمِكينَ في إيذاءِ النبيِّ ﷺ باتِّهاماتٍ كاذبةٍ لا أساسَ لها من الصِّحة، ونزولُ هذه الآية يُعَدُّ تحدِّيًا كبيرًا لأعداءِ الإسلام، يعني: أنّ الذاتَ التي يتفضَّلُ عليها اللهُ تعالى بنفسِه، لا يُمكنُكم أن تمَسُّوا ولو شعرةً من جسمِه بسُوء، والذاتُ التي يُبيِّنُ اللهُ تعالى بنفسِه عظَمتَها وفضْلَها لا قيمةَ ولا أثرَ لاتّهاماتِكم الملفَّقة ضِدَّها.

ما المراد بالصلاة على النبي؟

صلاةُ الله تعالى على النبيِّ ﷺ تعني ثناءَ الله تعالى عليه عندَ الملائكة، بينَما صَلاةُ الملائكة عليه ﷺ تعني: الدُّعاءَ إلى الله تعالى بأنْ يُنزِلَ رحمتَه وبركاتِه على النبيِّ ﷺ[1]، أمّا فيما يتعلَّقُ بصلاةِ المؤمنينَ على النبيِّ ﷺ فيقولُ عنها العلّامةُ ابنُ منظور: «وأمّا قولُنا: اللّهمَّ صَلِّ على محمّدٍ، فمعناه: عظِّمْه في الدُّنيا بإعلاءِ ذِكره، و اظهارِ دعوتِه، وابقاءِ شريعتِه، وفي الآخرة بتشفيعِه في أمّتِه، وتضعيفِ أجرِه ومَثُوبتِه»[2].

ورَغْمَ أنّنا مأمورونَ بأنْ نُصلِّيَ على النبيِّ ﷺ ونُسلِّمَ عليه، لكنَّنا لا نعرفُ شأنَ النُّبوةِ والرِّسالة كما حقُّه، ولا نستطيعُ أن نؤدِّيَ حقَّها كما يجبُ، ولهذا نقولُ: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ، أي: يا الله، أنت الذي تعرفُ شأنَ حبيبِك وقَدْرَه ومنزلَته معرفةً صحيحةً، ولهذا أرسِلْ صلاةً وسلامًا منّا على حبيبِك بما يليقُ بشأنِه[3].

---

(١) «ثناءه عليه عند الملائكة... وصلاة الملائكة: الدّعاء». البخاري، سورة الأحزاب (٣٣)، باب ٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور.

(٣) «لمّا أمرنا الله سبحانه بالصّلاة عليه، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك، وأحلناه على الله، وقلنا: اللّهمّ صلّ أنت على محمّدٍ، لأنّك أعلم بما يليق به» ـ لسان العرب لابن منظور.

أقسام الصلاة على النبي:

١ ـ فَرْضٌ: الصّلاةُ على النبيِّ ﷺ في العمُرِ مرةً فرضٌ[١]؛ لأنّ الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٢ ـ واجبٌ: إذا ذُكِر اسمُ النبيِّ ﷺ يجبُ الصَّلاةُ والسَّلامُ عليه، تعظيمًا لشأنِه ﷺ[٢].

٣ ـ سنّةٌ: الصَّلاةُ والسَّلامُ على النبيِّ ﷺ في القَعْدةِ الأخيرةِ للصَّلاةِ المفروضة، وفي القَعْدتَيْنِ في صلاةِ النوافل والسُّنّةِ غيرِ المؤكَّدة، وفي صلاةِ الجَنازة: سُنّةٌ[٣].

٤ ـ مستحَبٌّ: باستثناءِ بعضِ الأوقات وبعضِ الأماكن، فإنّ الصَّلاةَ على النبيِّ ﷺ والتسليمَ عليه مستحَبٌّ في كلِّ وقتٍ ومكان، مثلَ: وقتِ دخولِ المسجد، ووقتِ الخروج منه، ووقتِ زيارةِ قبرِه المُنير، وفي خُطَبِ الجُمعة وغيرِها، وبعدَ الأذان، وفي بدايةِ الدُّعاءِ وآخرِه، وعندَ الوضوء، وعندَ نسيانِ أيِّ شيء، ووقتِ الوعظِ والنَّصيحة، ووقتِ التعليم والتّعلُّم، وعندَ قراءةِ الحديثِ الشّريف[٤].

---

(١) «مقتضى الدليل افتراضها فى العمر مرة» ـ ردالمحتار، سنن الصلاة، ١: ٥١٧.

(٢) «وإيجابها كلما ذكر» ـ ردالمحتار، سنن الصلاة، ١: ٥١٧.

(٣) «في قعود أخير مطلقًا، وكذا في قعود أول فى النوافل غير الرواتب تأمل، وفي صلاة الجنازة». رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥١٨.

(٤) «(قوله: ومستحبّةٌ في كلّ أوقات الإمكان) أي: حيث لا مانع. ونصّ العلماء على استحبابها في مواضع: يوم الجمعة وليلتها، وزيد يوم السّبت والأحد والخميس، لما ورد في كلٍّ من الثّلاثة، وعند الصّباح والمساء، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند زيارة قبره الشّريف ـ ﷺ ـ وعند الصّفا والمروة، وفي خطبة الجمعة وغيرها، وعقب إجابة المؤذّن، وعند الإقامة، وأوّل الدّعاء وأوسطه وآخره، وعقب دعاء القنوت، وعند الفراغ من التّلبية، وعند الاجتماع والافتراق، وعند الوضوء، وعند طنين الأذن، وعند نسيان الشّيء، وعند=

٥ ـ مكروهٌ: الصَّلاةُ على النبيِّ ﷺ في غيرِ القَعْدةِ الأخيرةِ (وفي القَعْدتَيْنِ في صلاةِ النوافل والسُّنَن غيرِ المؤكدة)، ودعاءِ القنوتِ وصلاةِ الجَنازة مكروهة في أيِّ مكان(١).

٦ ـ حرامٌ: الصّلاةُ على النبيِّ ﷺ حرامٌ عندَ ارتكابِ الحرام(٢).

الصلاة الإبراهيمية:

يقولُ سيِّدُنا كعبُ بن عُجْرَة رضي الله عنه: قُلنا: يا رسولَ الله، السّلامُ عليكَ قد عرفناه، فكيف الصّلاةُ عليك؟ قال: «قولوا: اللّهُمَّ صلِّ على محمّدٍ، وعلى آلِ محمّدٍ، كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ، وعلى آلِ إبراهيمَ، إنّك حميدٌ مَجِيدٌ، اللّهُمَّ بارِكْ على محمّدٍ، وعلى آلِ محمّدٍ، كما بارَكْتَ على إبراهيمَ، و على آلِ إبراهيم، إنّك حميدٌ مَجِيدٌ»(٣)، ويقالُ لهذه الصّلاة: صلاةُ أهلِ البيت أيضًا، مثلَما وَرَد في الحديثِ التالي:

صلاة أهل البيت:

يقولُ سيِّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ أبي ليلى: لقِيَني كعبُ بنُ عُجرةَ فقال: ألا أُهدي لك هديّةً سمعتُها من النّبيّ، ﷺ؟ فقلتُ: بلى، فأهدها لي. فقال: سأَلْنا

= الوعظ ونشر العلوم، وعند قراءة الحديث ابتداءً وانتهاءً، وعند كتابة السّؤال والفتيا، ولكلّ مصنّفٍ ودارسٍ ومدرّسٍ وخطيبٍ وخاطبٍ ومتزوّجٍ ومزوّجٍ، وفي الرّسائل، وبين يدي سائر الأمور المهمّة، وعند ذكرٍ أو سماع اسمه ﷺ». رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥١٨.

(١) «مكروهة في صلاة غير تشهد أخير وغير قنوت وتر، وكذا في غير صلاة الجنازة فتسن فيها». رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥١٨.

(٢) «عند عمل محرم». حاشية الطحطاوي، سنن الصلاة.

(٣) سنن النسائي، كتاب السهو، باب ٥١ برقم ١٢٨٩.

رسولَ الله ﷺ فقلنا: يا رسولَ الله، كيف الصّلاةُ عليكم أهلَ البيت؟ فإنّ الله قد عَلَّمنا كيف نُسلِّمُ. قال: «قولوا: اللّهُمَّ صلِّ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّدٍ، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنّك حَميدٌ مَجِيدٌ، اللّهُمّ بارِكْ على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ، كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنّك حميدٌ مَجِيدٌ»[1].

ما المراد بالسلام؟

تسليمُ المؤمنينَ على النبيِّ ﷺ يعني: أنهم يُسلِّمون من قلوبِهم بكلِّ حُكم من أحكامِه ﷺ، ويَدعُونَ له بالرحمةِ والسلام.

ألفاظ السلام:

- يقولُ سيّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «كنتُ آتيهِ كلَّ سَحَرٍ فأقولُ: السّلامُ عليكَ يا نبيَّ الله»[2].

- يقولُ العلّامةُ شهابُ الدِّين خَفَاجي: إنّ الصّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم كانوا يُسلِّمونَ على النبيِّ قائلين: «الصّلاةُ والسّلامُ عليك يا رسولَ الله»[3].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: كنّا نُصلِّي خلفَ النّبيِّ ﷺ فنقولُ: السّلامُ على الله. فقال النّبيُّ ﷺ: «إنّ اللهَ هو السّلام، ولكنْ قولوا: التّحيّاتُ لله والصَّلَواتُ والطّيِّبات، السّلامُ عليكَ أيُّها النّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السّلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصّالحين، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه»[4].

---

(١) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ١١ برقم ٣٣٧٠.
(٢) سنن النسائي، كتاب السهو، باب ١٧ برقم ١٢١٤.
(٣) نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض، ٥: ١٨.
(٤) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٥ برقم ٧٣٨١، ٦٢٣٠.

كيفية السلام في التشهد:

يجبُ أن لا يكونَ في قلبِ المصلِّي وذهنِه ـ وقتَ قراءةِ التشهد ـ نيّةُ أنه يُكرِّرُ هذه المناجاةَ بأسلوبِ الحكايةِ التي حَدَثت ليلةَ المعراج بينَ النبيِّ ﷺ واللهِ تعالى والملائكة، وإنّما يجبُ أن يكونَ المفهومُ الحقيقيُّ لهذه الكلماتِ مُسيطِرًا على قلبِه وذهنِه، وكأنه يُقدِّمُ بنفسِه فروضَ الحمدِ والثّناءِ في الحضرةِ الإلهيّة، ويُقدِّمُ هديةَ السّلام في الحضرةِ النَّبويّة، ويدعو بالسّلامةِ لنفسِه وللمؤمنينَ جميعًا وللملائكة[١].

يقولُ العّلامةُ العَيْنيُّ: «ويُحتمَلُ أن يقالَ على طريقةِ أهل العِرفان: إنّ المصَلِّينَ لمّا استَفتَحوا بابَ المَلَكوتِ بالتحيّات أَذِنَ لهم بالدُّخول في حَريم الحيِّ الّذي لا يموت، فقَرَّت أعيُنُهم بالمناجاة، فنُبِّهوا على أنّ ذلك بواسطة نبيِّ الرّحمة وبركةِ متابعتِه، فإذا التفَتُوا فإذا الحَبيبُ في حَرَم الحبيب حاضر، فأَقْبَلوا عليه قائلينَ: السّلامُ عليك أيُّها النّبيّ ورحمةُ الله وبركاتُه»[٢]. ويقولُ الإمامُ الغزاليُّ رحمه الله: «وهو معنى «التحيَّات»، وأحضِرْ في قلبِك النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وشخصَه الكريمَ وقل: السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه»[٣].

الصلاة والتسليم معًا في وقت واحد:

في هذه الآية أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمان أن يُصَلُّوا ويُسلِّموا على النبيِّ ﷺ

---

(١) «ولابد من أن يقصد بألفاظ التشهد معانيها التي وضعت لها من عنده كأنه يحيى الله ويسلم على النبي وعلى نفسه وأولياء الله تعالى، ولا يقصد الإخبار، والحكاية عما وقع فى المعراج منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن ربه سبحانه ومن الملائكة عليهم السلام». رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥١٠، الفتاوى العالمگيرية، سنن الصلاة، الدر المختار، مراقي الفلاح.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٦: ١١١.

(٣) إحياء علوم الدين، ١: ١٦٩.

في وقتٍ واحد، وقراءةُ الصّلاةِ الإبراهيميّةَ في الصّلاة وقراءةُ السّلام في التشهدِ إنما هما تنفيذٌ لأمرِ القرآنِ الكريم؛ لأنّ الصّلاةَ كلَّها في حُكم المجلسِ الواحد، ولكنْ خارجَ الصّلاة إذا قرأَ أحدٌ الصّلاةَ الإبراهيميّةَ فقطْ، فإنّ حُكمَ القرآنِ الكريم لن يكونَ قد تمَّ تنفيذُه كاملًا؛ لأنّ السّلامَ ليس شاملًا فيها، وإنْ قرأَ السّلامَ الذي ورَدَ في «التحيَّات»، أي: «السّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه»، فهذا أيضًا ليس تنفيذًا كاملًا لحُكم القرآنِ الكريم؛ لأنه لا يشمَلُ الصّلاةَ على النبيِّ ﷺ، ولهذا فإنّ تنفيذَ حُكم القرآنِ الكريم يكونُ كاملًا إذا كانتِ الصّلاةُ والسّلامُ على النبيِّ ﷺ معًا، والأحاديثُ التي وَرَد فيها الحُكمُ بالصّلاةِ على النبيِّ فقطْ إمّا أنّها قبلَ نزولِ هذه الآية، أو أنّ الأمرَ بالصّلاةِ على النبيِّ يشمَلُ أيضًا السّلامَ عليه؛ لأنّ الأمرَ جاء في الآية بالاثنَيْنِ معًا، ولهذا قال الإمامُ النَّوويُّ وبعضُ علماءِ الشافعيّة: إنّ هذه الآيةَ تقتضي أنّ قراءةَ الصّلاةِ على النبيِّ والسلام عليه معًا واجبةٌ، وقراءةَ الصّلاةِ عليه دونَ السّلام مكروهةٌ كراهةً تحريميّة[1].

وفيما يلي صلاةٌ على النبيِّ ﷺ مختصَرة، وتشمَلُ السلامَ عليه أيضًا: «اللّهُمَّ صلِّ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلِ سيّدِنا محمّد وبارِكْ وسَلِّمْ».

فضل الصلاة والتسليم على النبي ﷺ

١ - يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ لله ملائكةً سَيّاحينَ في الأرض يُبلِّغوني عن أُمّتيَ السّلامَ»[2].

٢ - يقولُ سيّدُنا أبو طلحةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ جاء ذاتَ يومٍ والبِشرُ يُرى في وجهِه، فقال: «إنّه جاءني جِبريلُ ﷺ فقال: أَما يُرضيكَ يا محمّد

---

(١) تفسير تبيان القرآن، سورة الأحزاب (٣٣)، الآية ٥٦.

(٢) مصنف عبد الرزاق، ٢: ٢١٥ برقم ٣١١٦، وصحيح ابن حبان، ٢: ١٠٣ برقم ٩١٠.

أنْ لا يُصلِّيَ عليك أحدٌ من أُمّتِك إلّا صَلَّيتُ عليه عشرًا، ولا يُسلِّمَ عليك أحدٌ من أُمّتِك إلّا سَلَّمتُ عليه عَشْرًا؟ قلت: بلى إي ربِّ»[١]. وهناك كذلك حديثٌ قُدُسيٌّ جَعَل اللهُ تعالى الملائكةَ فيه شركاءَ في هذا الأمر، يعني: أنّ اللهَ تعالى يقولُ: مَن صَلّى عليكَ مرةً صَلَّيتُ عليه أنا وملائكتي عشْرَ مرات، ومَن سَلَّم عليك مرةً سَلَّمتُ عليه أنا وملائكتي عشْرَ مرّات[٢].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن صَلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صَلّى اللهُ عليه عشْرَ صَلَواتٍ، وحُطَّت عنه عشْرُ خطيئاتٍ، ورُفِعت له عشْرُ درجاتٍ»[٣].

٤ ـ يَروي سيّدُنا الحُسَينُ رضي الله عنه، عن أبيه رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تجعَلوا قبري عيدًا ولا تَجعَلوا بيوتَكم قبورًا، وصَلُّوا عليّ وسَلِّموا حيثما كنتم، فتبلُغُني صلاتُكم وسلامُكم»[٤]، ومعنى: لا تجعَلوه عيدًا، أي: لا تَزُوروا قبري مرةً أو مرَّتَيْنِ فقطْ في العام مثلَ الأعياد فتُصَلُّوا وتُسلِّموا علَيَّ، وإنّما لو أمكنَكم أن تَزوروا قبري مرّاتٍ كثيرةً وتُصَلُّوا وتُسلِّموا علَيّ فافعَلوا، وإلّا فحيثما كنتُم صَلُّوا وسَلِّموا عَليَّ كثيرًا وباستمرار.

٥ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «رَغِم أنفُ رجلٍ ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ، ورَغِم أنفُ رجلٍ دَخَل عليه رمضانُ ثمّ انسَلَخَ

---

(١) سنن النسائي، كتاب السهو، باب ٥٥ برقم ١٢٩٦، وكنز العمال، ١: ٤٩٢ برقم ١٢٧٢.

(٢) «أتاني جبريل فقال: إن الله قال: من صلى عليك صليت عليه أنا وملائكتي عشرًا، ومن سلم عليك سلمت عليه أنا وملائكتي عشرًا». كنز العمال، ١: ٥٠٠ برقم ٢٢١٠.

(٣) سنن النسائي، كتاب السهو، باب ٥٥ برقم ١٢٩٨.

(٤) كنز العمال، ١: ٤٩٨ برقم ٢١٩٩. ورواه الحكيم عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده.

قبلَ أن يُغفَرَ له، ورَغِم أنفُ رجلٍ أدرَكَ عندَه أبواهُ الكِبَرَ فلم يُدخِلاه الجنّةَ»[١].

٦ ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنه: خرَجتُ ذاتَ يومٍ فأتَيْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، قال: «ألا أُخبِرُكم بأبخلِ النّاس؟»، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «مَن ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ علَيَّ فذلك أبخَلُ النّاس»[٢]، يعني: هناك بخيلٌ، وهو الذي يبخَلُ بالمال، وهناك بخيلٌ آخرُ، وهو الذي يبخَلُ بالسّلام فلا يَرُدُّه، وهناك بخيلٌ ثالثٌ، وهو أكبرُهم وأسوأُهم، وهو الذي يُذكَرُ أمامَه اسمُ النبيِّ الكريم ﷺ ولا يُصلّي عليه.

سماع أهل القبور للسلام

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا مرَّ الرّجلُ بقبرٍ يَعرِفُه فسَلَّم عليه رَدَّ عليه السّلامَ وعَرَفَه، وإذا مرَّ بقبرٍ لا يَعرِفُه فسَلَّم عليه رَدَّ عليه السّلامَ»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: إن رسولَ الله ﷺ قال: «العبدُ إذا وُضِع في قبرِه، وتولَّى وذَهَب أصحابُه ـ حتّى إنّه لَيسمعُ قَرْعَ نعالِهم ـ ...»[٤].

سماع الصلاة والسلام من بعيد

يُعلَمُ من الأحاديثِ المذكورة أنّ كلَّ صاحبِ قبرٍ يتعرَّفُ على مَن يزورُ قبرَه من قريب، ويسمعُ كلامَه أيضًا، لكنّ نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ يسمعُنا ويتعرَّفُ علينا من

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠٠ برقم ٣٥٤٥.

(٢) جلاء الأفهام، الشيخ ابن القيم، ٦٥ برقم ٩٨، والترغيب والترهيب، الصلاة على النبي، ٢: ٥١٠.

(٣) شعب الإيمان، ٧: ١٧ برقم ٩٢٩٦.

(٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٦٨ برقم ١٣٣٨.

قُرب، ويسمعُنا ويتعرَّفُ علينا من بُعدٍ أيضًا، مثلَما جاء في الأحاديثِ التالية:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أكثِروا الصّلاةَ علَيَّ يومَ الجمُعة، فإنّه يومٌ مشهود تشهَدُه الملائكة، ليس من عبدٍ يُصلّي علَيّ إلّا بَلَغَني صوتُه حيث كان»، قلنا: وبعدَ وفاتِك؟ قال: «وبعدَ وفاتي، إنّ الله حرَّم على الأرض أن تأكلَ أجسادَ الأنبياء»[1].

ـ يقولُ الإمامُ محمدُ بنُ عبد الله الجَزُوليُّ رحمه الله: «قيل لرسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: أرأيتَ صلاةَ المُصَلِّينَ عليك ممَّن غاب عنك ومَن يأتي بعدَك، ما حالُهما عندَك؟ فقال: أسمعُ صلاةَ أهلِ محبّتي وأعرِفُهم وتُعرَضُ علَيَّ صلاةُ غيرِهم عرضًا»[2].

ـ ملايينُ الصّلاة والسّلام على تلك الأُذُنِ التي تسمَعُ من قُربٍ ومن بُعدٍ، إنها أُذُنُ لآلئِ الكرامة.

سماع صلاة وسلام الجميع في وقت واحد

يقولُ الإمامُ شهابُ الدِّين القَسْطَلّانيُّ: سُئل رجلٌ: «كيف يَرُدُّ النبيُّ ﷺ على مَن سَلَّم عليه من مشارقِ الأرض ومغاربِها في آنٍ واحد؟ فأنشَد قولَ أبي الطيِّب:

كالشمسِ في وَسَطِ السَّماءِ ونورُها ... يغشَى البلادَ مشارقًا ومغاربا

كالبدرِ من حيثُ التفتَ رأيتَهُ ... يهدي إلى عينَيْكَ نورًا ثاقبا

ولا ريبَ أنّ حالَه ﷺ في البَرْزَخ أفضَلُ وأكملُ من حالِ الملائكة، هذا سيّدُنا عِزْرائيلُ عليه السَّلامُ يقبِضُ مئاتِ الآلاف من الأرواح في وقتٍ واحد، ولا

---

(١) جلاء الأفهام، الشيخ ابن القيم، ٦٨ برقم ١٠٨.

(٢) دلائل الخيرات، فضائل الصلاة.

يشغَلُه قبضٌ عن قبضٍ، وهو معَ ذلك مشغولٌ بعبادةِ الله تعالى، مُقبِلٌ على التسبيحِ والتقديس، (وإذا كان اللهُ تعالى قد أعطَى لمَلَكٍ من الملائكة هذه القدرةَ العظيمةَ، فما بالُك بنبيِّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ، كم تكونُ قدرتُه، وهو أفضَلُ وأكمَلُ من الملائكةِ جميعًا) فنبيُّنا ﷺ حيٌّ في قبرِه يُصلِّي ويعبُدُ ربَّه ويشاهدُه، لا يزالُ في حضرةِ اقترابِه، متلذِّذًا بسَماع خطابِه»[1].

الحمد والصلاة

ـ يقولُ سيّدُنا فَضالةُ بن عُبَيدٍ رضي اللهُ عنه: بَيْنا رسولُ الله ﷺ قاعدًا، إذ دَخَل رجلٌ فصَلَّى فقال: اللّهُمَّ اغفِرْ لي وارحَمْني، فقال رسولُ الله ﷺ: «عَجِلتَ أيّها المصَلِّي؟ إذا صَلَّيتَ فقَعدتَ فاحمَدِ اللهَ بما هو أهلُه وصلِّ عليَّ ثمّ ادعُهُ»، قال: ثمّ صَلَّى رجلٌ آخَرُ بعدَ ذلك فحَمِد اللهَ وصلَّى على النّبيِّ ﷺ، فقال له النّبيُّ ﷺ: «أيُّها المصَلِّي، ادعُ تُجَبْ»[2]، ويُعلَمُ منه أنّ ذِكرَ الله تعالى والصّلاةَ والسَلامَ على النبيِّ ﷺ بصوتٍ عالٍ بعدَ الصّلاة أمرٌ من النبيِّ ﷺ، وسببٌ لقَبولِ الدّعاء؛ لأنّ الشخصَيْنِ المذكورَيْنِ قد صَلَّيا وسَلَّما على النبيِّ ﷺ بصوتٍ عالٍ، وسمع الصّحابةُ الكرامُ كلماتِهما، وذَكَروها في الحديث.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه بحمدِ الله والصّلاةِ علَيَّ فهو أقطَعُ أبترُ ممحوقٌ من كلِّ بركةٍ»[3].

كتابة الصلاة والسلام على النبي ﷺ

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن صَلّى عليَّ في

---

(١) شرح الزرقاني، ١٢: ٢٠٥، والأنوار المحمدية، ٦٠٢.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٦٤ برقم ٣٤٧٦.

(٣) كنز العمال، ١: ٥٥٨ برقم ٢٥١٠.

كتابٍ لم تَزَلِ الملائكةُ تستغفرُ له ما دامَ اسمي في ذلك الكتاب»[١].

الصلاة والسلام على النبي ﷺ في الدعاء

ـ عن سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه قال: «كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتّى يُصلَّى على محمّدٍ وآلِ محمّدٍ ﷺ»[٢]، فإذا صُلِّي على محمّدٍ رُفِع الحجابُ وقُبِل الدّعاء».

ـ يقولُ سيّدُنا عمرُ بن الخطاب رضي اللهُ عنه: «إنّ الدّعاءَ موقوفٌ بينَ السّماءِ والأرض لا يصعَدُ منه شيءٌ حتّى تُصلِّيَ على نبيِّك ﷺ»[٣].

ـ يقولُ أبو سُليمانَ الدارانيُّ: «من أراد أن يسألَ اللهَ حاجتَه فلْيُكثِرْ بالصّلاةِ على النّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم ثمّ يسألُ اللهَ حاجتَه، وليختِمْ بالصّلاةِ على النّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلم، فإنّ اللهَ يَقبَلُ الصّلاتَيْنِ، وهو أكرمُ من أن يدَعَ ما بينَهما»[٤].

ـ بعضُ الأعمال يكونُ مقبولًا، والبعضُ الآخَرُ مردودًا، ما عدا الصّلاةَ على النبيِّ ﷺ، فإنّ اللهَ تعالى يقبَلُها كلَّها، وربّما لهذا السببِ قال سيّدُنا عبدُ الله بن عبّاس رضي الله عنهما: «إذا دعوتَ اللهَ عزَّ وجلَّ فاجعَلْ في دعائك الصّلاةَ على النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فإنّ الصَّلاةَ عليه مقبولةٌ، واللهُ سبحانَه أكرمُ من أن يَقبَلَ بعضًا ويَرُدَّ بعضًا»[٥].

---

(١) كنز العمال، ١: ٥٠٧ برقم ٢٢٤٣.
(٢) مجمع الزوائد، ١٠: ١٦٠، والمعجم الأوسط، ٧٢٥.
(٣) الترمذي، ٤٨٦، أبواب الوتر، باب ٢١ برقم ٢٢٤٣.
(٤) رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥٢٠، ودلائل الخيرات، فضائل الصلاة.
(٥) رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥٢٠.

قراءة الصلاة على النبي ﷺ عند النسيان

ـ يقولُ سيّدُنا عثمانُ بن أبي حَرْبٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أراد أن يحدِّثَ بحديثٍ فنَسِيَه فلْيُصَلِّ عليّ، فإنّ صلاتَه عليّ خَلَفٌ من حديثِه عسى أن يَذكُرَه»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالك رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا نَسِيتُم شيئًا فصَلُّوا عليَّ تَذكُرونَه إن شاء اللهُ تعالى»[٢].

الصلاة والسلام على النبي ﷺ بعد الأذان

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاص رضي اللهُ عنه: إنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إذا سمِعتُم المؤذِّنَ فقولوا مِثلَ ما يقول: ثمّ صَلُّوا عليَّ فإنّه مَن صلّى عليَّ صلاةً صلّى اللهُ عليه بها عَشْرًا، ثمّ سَلُوا اللهَ ليَ الوسيلةَ، فإنّها منزلةٌ في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأل ليَ الوسيلةَ حَلَّت له الشّفاعةُ»[٣].

صلاة الملائكة على قبر النبي ﷺ المبارك

يقولُ سيّدُنا كعبٌ رضي الله عنه: «ما من يومٍ يَطلُعُ إلّا نَزَل سبعونَ ألفًا من الملائكة، حتّى يَحُفّوا بقبرِ النّبيِّ ﷺ يضربونَ بأجنحتِهم، ويُصلُّونَ على رسولِ الله ﷺ، حتّى إذا أمسَوْا، عَرَجوا وهَبَط مِثلُهم، فصَنَعوا مِثلَ ذلك، حتّى إذا انشَقَّت عنه الأرضُ، خَرَج في سبعينَ ألفًا من الملائكة يُزفّونَه»[٤].

---

(١) كنز العمال، برقم ٤١٦٦٤. وابن السني في عمل اليوم والليلة، عن عثمان بن أبي حرب الباهلي.
(٢) الأنوار المحمدية، ٤٣١.
(٣) مسلم، كتاب الصلاة، باب ٧ برقم ٨٤٩.
(٤) سنن الدارمي، المقدمة، باب ١٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

٦٧ ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يؤذيَه في شيءٍ، ولهذا فإنّ معنى هذه الآيةِ يمكنُ أن يكونَ: إنّ الذين يعصُونَ الله ورسولَه يُحرَمونَ من رحمةِ الله تعالى، ويستحِقُّونَ عذابَ الخِزي في الآخِرة بسببِ سيئآتِهم، كما يمكنُ أن يكونَ معنى هذه الآية: إنّ الذين يؤذونَ رسولَ الله ﷺ يؤذونَ ـ بذلك ـ الله تعالى أيضًا، فاللهُ تعالى يقرِّرُ أنّ إيذاءَ النبيِّ ﷺ إيذاءٌ له.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

٦٨ ـ الذين يؤذونَ المؤمنينَ من الرجالِ والنِّساء يرتكبونَ بذلك كذبًا صريحًا وذنبًا عظيمًا، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من العقاب، وبالتالي فإنه إذا كان إيذاءُ عامّةِ المسلمينَ بلا سببٍ ذنبًا واضحًا، فإنّ الذين يُسيئونَ الأدبَ في حقِّ أزواجِ النبيِّ ﷺ المطَهَّراتِ وآلِه ﷺ وأصحابِه الكرام رضي الله عنهم جميعًا ويؤذونَهم، إنّما يَدعُونَ غضَبَ الله تعالى أن يَنزِلَ عليهم.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن مُغفَّل رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتّخِذوهم غَرَضًا بعدي، فمَن أحبَّهم فبِحُبّي أحبَّهم، ومن أبغَضَهم فببُغْضي أبغضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله، ومَن آذى اللهَ فيوشِكُ أن يأخُذَه»[1].

ولهذا لا يَليقُ بأيِّ مسلم أن يضايقَ الآخرينَ أو يؤذيَهم بغيرِ سبب، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «المسلمُ مَن سَلِم المسلمونَ

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٢.

من لسانِه ويدِه، والمؤمنُ مَن أَمِنَه النّاسُ على دمائهم وأموالِهم»[1].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

٦٩ ـ حين هاجَرَ المسلمونَ من مكةَ واستقَرُّوا في المدينةِ المنوَّرة، كان المجتمعُ في المدينةِ إذ ذاك مجتمعًا متعدِّدَ الأديان، فكان اليهودُ والمشركونَ والوثَنيُّونَ والنَّصارَى يسكنونَ هناك، وكان شُربُ الخمرِ وارتكابُ الفاحشة رائجًا بينَهم، وكان الأَوْباشُ والفُسّاقُ منهم يلاحِقونَ النِّساءَ حين يَخرُجْنَ لقضاءِ حاجتِهِنَّ، ويرتكبونَ حركاتٍ دنيئةً مُسيئةً معَهنّ، وحين سَكَن المسلمونَ هناك كان هؤلاءِ يضايقونَ النِّساءَ المسلماتِ أيضًا ويتحرَّشُونَ بهِنَّ، وعليه حَذَّرهم المسلمونَ بأنّ مِثلَ هذه الأمورِ الوضيعة لا يَسمَحُ بها

---

(١) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ١٢ برقم ٢٦٢٧.

دينُنا، فرَدَّ عليهم هؤلاءِ الفُسّاقُ من الشبابِ قائلين: إننا لا نستطيعُ أن نتعرَّفَ على مَن منَ النساءِ مسلماتٌ ومن منهُنَّ غيرُ ذلك، وإلّا لَما تحرَّشْنا بهِنَّ، ولهذا عندما أخبَر المسلمونَ النبيَّ ﷺ بهذا الواقعَ نزَلت هذه الآيةُ بأنّ النساءَ المسلماتِ حينَ يخرُجْنَ من بيوتِهنَّ فإنهنَّ يلبِسْنَ الجِلباب، أي: ما يُغطِّي أجسامَهنَّ ورؤوسَهنَّ، حتى يُعرَفْنَ من غيرِهنَّ من النساءِ بأنّ هؤلاءِ نساءٌ مسلمات، فلا يُضايِقُهنَّ أحدٌ.

إنّ الطريقةَ الفِطريّةَ التي جاء بها القرآنُ الكريم قبلَ ١٤٠٠ عام لحمايةِ النِّساءِ من الأَوْباش من الرِّجال لا تزالُ حتى اليوم هي الوصفةُ الأنجَعَ والأنجَحَ في هذا الخصوص؛ لأنّ أنظارَ الأَوْباشِ من الرجالِ تتعقَّبُ من النساءِ اللائي تتكشَّفُ أعضاءِ أبدانِهنَّ من ملابسِهنَّ، أو تثيرُ ملابسُهنَّ شهوةَ من يراهُنَّ.

على سَبيل المثال: تسيرُ الراهباتُ النَّصرانيّاتُ في الأسواقِ في بريطانيا، فلا يَرفَعُ الأَوْباشُ من الرجالِ أنظارَهم إليهنَّ؛ لأنّ الراهباتِ لا يُظهِرْنَ الأماكنَ الحَسّاسةَ في أجسادِهنَّ، وبالتالي لا يثيرُ ذلك رغبةً في الآخرينَ ولا يجذِبُهم إليهنَّ، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ فإنّ هؤلاءِ الأَوْباشَ يعرفونَ أنّ هؤلاءِ نساءٌ ديّناتٌ، ولن يقَعْنَ في شباكِهم، وملابسُ الراهباتِ النَّصرانيات تُشبهُ الجِلبابَ الإسلاميَّ، حيث لا يَظهَرُ منه سوى وجهِ المرأة ويدَيْها، بينَما يكونُ الجسدُ كلُّه بما فيه الرأسُ مغطًّى بملابسَ واسعةٍ فضفاضةٍ لا تشِفُّ عما تحتَها من البدن، وبنفسِ الطريقة إذا خَرَجت المرأةُ المسلمةُ مرتديةً الجِلبابَ غاضّةً بصرَها، فإنّ ذلك يحفَظُها من نظَراتِ السُّوءِ ومنَ الإيذاء، وهناك اختلافٌ في تغطية وجهِ المرأة وكفَّيْها، ولكنْ على أيِّ حالٍ تستطيعُ المرأةُ أن تُظهِرَ وجهَها وكفَّيْها عندَ الضّرورة مثلَما يقول الدكتورُ وَهْبة الزُّحيلي: «والعورةُ: هي ما عدا الوجهَ والكفَّيْنِ»[1].

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ٧: ١٨.

- تقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ، دَخَلت على رسولِ الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ، فأعرَضَ عنها رسولُ الله ﷺ وقال: «يا أسماء، إنّ المرأةَ إذا بَلَغتِ المَحِيض لم تصلُحْ أن يُرى منها إلّا هذا وهذا». وأشار إلى وجهِه وكفَّيه[1].

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «... ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ، رءوسُهنَّ كأَسْنِمةِ البُخْتِ المائلة، لا يَدخُلْنَ الجنّةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنّ ريحَها لَتوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا»[2].

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنه لم يكنْ للنبيِّ ﷺ ابنةٌ واحدة، وإنّما كان له أربعُ بنات، وقد وَرَدت أسماؤهنَّ في تفسيرِ الآية رقم ٤٠.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾

٧٠ - في هذه الآية وَعَد اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ بأنه إن لم يَرجِعْ هؤلاءِ المنافقونَ وأصحابُ الباطن السيِّئ، الذين ينشُرونَ الإشاعاتِ الكاذبةَ عن الإسلام، عن مؤامراتهم، فسوف نُنعِمُ عليك بالغَلَبةِ عليهم، وعندَئذٍ إمّا أن يتوبوا ويُسْلموا، أو أن يتِمَّ طردُهم من المدينةِ المنوَّرة.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾

٧١ - هؤلاءِ الناسُ قدِ ابتَعَدوا تمامًا عن رحمةِ الله تعالى؛ لأنّ إثارةَ الفتنةِ والفسادِ قد أصبح فطرةً ثانيةً لهم، ولهذا حيثُما يذهَبون سيؤخَذون ويُقتَلونَ بسببِ إثارتِهم للفتنة.

---

(١) أبو داود، كتاب اللباس، باب ١٣ برقم ٤١٠٤.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٣ برقم ٧١٩٤.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

٧٢ ـ يقولُ العلّامةُ الصّاوي: «وفيه تسلِيةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، أي: فلا تحزَنْ على وجودِ المنافقينَ فى قومِك، فإنه سُنّةٌ قديمةٌ كما كان في قوم موسى منهم السامِريُّ وأتباعُه وقارونُ وأتباعُه»(١)، وكان المنافقونَ موجودينَ أيامَ الأنبياءِ السابقينَ أيضًا، وحينَ كان نفاقُهم يظهَرُ وينكشف، ويثيرونَ الفتنةَ ويرتكبونَ الفاحشةَ، فإنّهم كانوا يعاقَبُونَ بالقتل أو بالنَّفي خارجَ البلاد. وهكذا كانت هذه سُنّةَ الله تعالى من قبلُ، ولا تزالُ هذه سُنَّتَه ولا تبديلَ فيها.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

٧٣ ـ لأنّ الكفّارَ ينكرونَ يومَ القيامة، لهذا حينَ كانوا يُنذَرونَ بعذابِ الله تعالى، فإنّهم كانوا يظُّنونَ أنّ هذا مجرَّدُ تهديدٍ من المسلمينَ لهم، وكانوا كثيرًا ما يسألونَ ساخِرينَ: متى تقومُ هذه الساعةُ التي يُخوِّفونَ منها؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: إنّ عِلمَها عندَ الله تعالى، ولكنْ من يدري؟ فربَّما تكونُ قريبًا جدًّا. ولمزيدٍ من التفصيل عن يوم القيامة راجع الحاشيةَ رقم ١٠٤ للآية رقم ١٨٧ من سُورة الأعراف، وكذا الحاشيةُ رقم ٦١ للآية رقم ٦٦ من سُورة النَّمل.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾

٧٤ ـ الذين لا يؤمنونَ بيوم القيامة في أيامِنا هذه، حين يُلقَوْن في النارِ على وجوهِهم يومَ القيامة سيعودُ إليهم صوابُهم، وسيَصرُخونَ قائلينَ: ليتَنا أطَعْنا الله تعالى ورسولَه لَما ابـتُلِيْنا بهذا العذاب، ولكنّ النَّدَم لا ينفَعُ بشيءٍ في ذلك الوقت.

---

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾

٧٥ ـ سيقولُ أولئك الذين يحترقونَ في نارِ جهنَّمَ أيضًا: يا ربَّنا، إنّ أكابرَنا وسادتَنا أضَلُّونا عن الطريقِ المستقيم، لهذا عذِّبْهم عذابًا مضاعَفًا: عذابًا لضلالِهم، وعذابًا لإضلالِنا، وعليه سيقولُ اللهُ تعالى: كلٌّ منكُم اليومَ له عذابٌ مضاعَفٌ؛ لأنهم إن أرشَدوكم إلى الطريقِ الخاطئ فهل كنتُم أنتم عُمْيانًا فاتَّبعتُموهم؟ ولهذا فإنّ جُرمَكم أنتم أيضًا مضاعَفٌ: جُرمٌ لضلالِكم، وجُرمٌ لاتِّباعِكم الأعمى للضالِّين. وقد مرَّت الإشارةُ إلى هذا المضمونِ قبلَ ذلك في الآية رقم ٣٨ من سُورة الأعراف (٧).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

٧٦ ـ كان سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ رسولًا معزَّزًا يستحِقُّ الثَّناءَ، وقد أحسَن إلى بني إسرائيلَ كثيرًا إذْ نَجّاهم منَ استعبادِ الفِرعَوْنِ لهم، ولكنْ بالرَّغم من ذلك فإنّ قومَه كانوا يتَّهمونَه كذبًا فيجرَحونَ قلبَه، ومِن بينِ هذه الاتِّهاماتِ الكاذبة ما بيَّنه النبيُّ الكريمُ ﷺ نفسُه:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ موسى كان رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرى من جِلدِه شيءٌ، استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه من بني

إسرائيلَ، فقالوا: ما يَستترُ هذا التَّستُّرَ إلّا من عيبٍ بجِلدِه، إمّا بَرَصٌ وإمّا أُدْرةٌ[١] وإمّا آفةٌ. وإنّ الله أراد أن يُبرّئَه ممّا قالوا لموسى، فخلا يومًا وحدَه فوَضَع ثيابَه على الحجر ثمّ اغتَسل، فلمّا فَرَغ أَقْبل إلى ثيابِه ليأخُذَها، وإنّ الحجرَ (تحرَّك بأمرِ الله تعالى و) عدا بثوبِه، فأخَذ موسى عصاه وطلَبَ الحجرَ، فجَعَل يقولُ: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتّى انتَهى إلى ملأٍ من بني إسرائيلَ، فرأَوْه عُريانًا أحسَنَ ما خَلَق الله، وأَبْرأه ممّا يقولونَ، وقام الحجرُ فأخَذ ثوبَه فلبِسَه، وطَفِقَ بالحجرِ ضربًا بعصاه، فوالله إنّ بالحجرِ لَنَدْبًا من أثرِ ضربِه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا»[٢].

ويُعلَمُ منه أنه كما أنّ اللهَ تعالى جَعَل أخلاقَ الأنبياءِ والرسُلِ عليهمُ السَّلام وسلوكَهم جَذّابًا وجميلًا، بنفسِ الطريقة خَلَق أجسادَهم جميلةً لا عيبَ فيها، ولم يَثبُتْ أنه كان هناك نبيٌّ أعمى أو أصمُّ أو أبكَمُ أو مُعاقٌ في يَدْيه أو قدمَيْه، والذين يتَّهمونَ الأنبياءَ كذبًا لن يَجْنوا سوى الحسرةِ والنَّدم حين يكشِفُ اللهُ تعالى كذبَهم ويُظهِرُ الحقَّ، وهنا تنبيهٌ للمسلمين عن طريق هذا المثالِ أنْ لا يؤْذوا نبيَّهم ﷺ بسُوءِ الظنِّ مثلَما آذى قومُ موسى نبيَّهم عليه السَّلام، فيُفسِدوا بذلك آخِرتَهم.

على أيِّ حال، يؤكِّدُ أهلُ العلم أنه ليس هناك إمكانٌ لأنْ يؤْذيَ أحدٌ من الصَّحابة الكرام قلبَ النبيِّ ﷺ عمدًا، وأنّ المحرِّكَ الأصليَّ والمثيرَ للقَصَصِ الموجودةِ في الرِّوايات بهذا الشَّكل هم المنافقون، ونَذكُرُ فيما يلي واحدةً من هذه الواقعاتِ، والتي كَتَب عنها الحافظُ ابنُ حجرٍ العَسْقلانيُّ والعلّامةُ بدرُ الدِّين العَيْنيُّ أن مُختلِقَها كان مُعتِّبَ بنَ قُشَيْر، وكان من المنافقين[٣].

---

(١) بالضم والفتح وإسكان الدال، وبالفتح والتحريك: فتق يكون في إحدى الخصيتين. عمدة القاري، ٨: ٢٣٠.

(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٣٠ برقم ٣٤٠٤.

(٣) «وفى رواية الواقدى أنه معتب بن قشير من بنى عمرو بن عوف وكان من المنافقين». فتح الباري، ٨: ٥٦ برقم ٤٣٣٥، و عمدة القاري، ١٧: ٣١١ برقم ٤٣٣٥.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: لمّا كان يومُ حُنَيْنٍ آثَرَ النّبيُّ ﷺ أُناسًا في القِسمة، فأعطَى الأقرعَ بنَ حابسٍ مائةً من الإبِل، وأعطَى عُيَيْنةَ مثلَ ذلك، وأعطَى أُناسًا من أشرافِ العرب، فآثَرهم يومَئذٍ في القِسمة. قال رجلٌ: والله إنّ هذه القِسمةَ ما عُدِل فيها، وما أُريدَ بها وجهُ الله. فقلتُ: والله لأُخْبِرَنّ النّبيَّ ﷺ، فأتَيْتُه فأَخْبرتُه (فاحمرَّ وجهُه ﷺ من الغضَب) فقال: «فمَن يَعدِلُ إذا لم يَعدِل اللهُ ورسولُه؟ رَحِم اللهُ موسى، قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصَبَر»[1]، وقد كانت طريقةُ النبيِّ ﷺ ـ طبقًا للظروف ـ أنّ المسلمينَ الذين كان إيمانُهم لا يزالُ ضعيفًا، كان يُعطيهم مالًا أكثرَ من غيرِهم تقريبًا لهم وتشجيعًا على الثّباتِ على الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾

٧٧ ـ يا أهلَ الإيمان، عليكم بالتقوى في أعمالِكم، وعليكم بالصِّدقِ في أقوالِكم، وستكونُ نتيجةُ هذا أنّ اللهَ تعالى سيُصلحُ أعمالَكم، ويمنَحُها شرفَ القَبول، كما أنه سيعفو عن الأخطاءِ التي وَقَعتْ منكم من قبلُ.

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾

٧٨ ـ لقد عَرَض اللهُ تعالى أحكامَ الشَّريعةِ على السماواتِ والأرضِ والجبال، وأعطاهم الاختيارَ بأنّهم إنْ عَمِلوا طِبقًا لهذه الأحكام فسيُعطيهم أجرًا عظيمًا، وإن لم يتّبعوها ويعمَلوا بها فسيُعاقبُهم على ذلك، فلمّا سَمِعوا ذلك اضْطَرَبوا وخافوا من أن يُقصِّروا في حَمْل هذه الأمانةِ والوفاءِ بمسئوليّاتِها، وأمامَ هذا التخوُّفِ منهم رَفَضوا قَبولَ هذه الأحكام، بينَما قَبِلَها الإنسانُ لمّا رأى أجرَها وثوابَها، ثم بعدَ ذلك

---

(١) البخاري، كتاب الخمس، باب ١٩ برقم ٣١٥٠.

حاوَلَ بعضُ الناس غايةَ جُهدِهم أداءَ حقِّ هذه الأمانةِ كاملًا ونَجَحوا في ذلك، ومِن هؤلاءِ: الأنبياءُ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصّالحون، لكنّ أكثرَ الناس ظالمٌ وجاهل، بمعنى: أنهم ساروا على طريقِ الظُّلم دونَ وَضْع العاقبةِ في الاعتبار، وبناءً على هذه الأكثريّة قالتِ الآيةُ عن الإنسانِ عمومًا: ﴿ظَلُومًا﴾ و﴿جَهُولًا﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

٧٩ ـ ستكونُ عاقبةُ حَمْل عبءِ الأمانةِ هذا أنّ المنافقينَ والمشركينَ سيستحِقُّونَ العذابَ لتضييعِهم هذه الأمانةَ، بينَما سيستحِقُّ أهلُ الإيمانِ رحمةَ الله تعالى ومغفرَته بفَضْل حِفاظِهم على هذه الأمانة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الاثنين ٧ ديسمبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٠ ذي الحجة ١٤٣٠هـ.

في هذه السُّورة مضامينُ تستحقُّ بحثًا وتحقيقًا خاصًا مثلَ: غزوةِ الأحزاب والأُسوةِ الحسَنة وخَتْم النُّبوة وشاهدِ العِيان والحجابِ وغيرِها، ومع ذلك، فقد مَنَّ اللهُ علَيَّ بإكمالِ تفسير هذه السُّورة في خمسةٍ وعشرينَ يومًا فقط، أي: من ١٢ نوفمبر إلى ٧ ديسمبر عام ٢٠٠٩م، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٣٤) سُورَةُ سَبَإٍ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «سبَأٌ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ رقم ١٥ فيها.

في الآيةِ الثالثة من هذه السُّورةِ أَقْسَم النبيُّ الكريم ﷺ قائلًا: إنَّ الساعَة آتيةٌ لا مَحالَة، حتى يَنالَ الصّالحونَ أجرَ حسَناتِهم، ويعاقَبُ الظالمونَ على ظُلمِهم.

ثم جاء الحديثُ في السُّورة عن عَظَمةِ سيّدِنا داودَ وسيّدِنا سُليمانَ عليهما السَّلام، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْعم عليهما بمعجِزاتٍ عديدة ومُلكٍ واسع، ومعَ ذلك ظَلّا دائمًا شاكرَيْنِ لله تعالى المتفضِّل الحقيقيِّ عليهما، وفيه لمحةٌ فكريّةٌ للأغنياءِ والكُبَراءِ في عصرِنا هذا، والذين ما أن يُنعِمَ اللهُ تعالى عليهم ببعضِ نِعَمِه حتى يجحَدوا فَضْلَه.

ثم جاء بيانٌ لمثالِ مدينة سبأٍ باليمن، حيث الطَّقسُ الرائعُ والأرضُ الخَصْبة، والأشجارُ المثمِرة والخُضرةُ الدّائمةُ في كلِّ مكانٍ منها، ولكنْ حين جَحَد أهلُ تلك المدينة نِعَمَ الله تعالى عليهم دمَّر اللهُ مدينتَهم دمارًا جَعَل الناسَ فيها يرحَلونَ عنها من شدّةِ ما أصابَهم من الجوع فيها.

وفي الآيةِ رقم ٢٨ من السُّورة جاء الحديثُ عن أنّ نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ أُرْسِلَ نبيًّا إلى بني البشَر جميعًا وحتى قيام الساعة، ولهذا لن يُرسَلَ بعدَه ﷺ نبيٌّ آخَرُ.

الفقراءُ الذين كان الأثرياءُ والمتكبِّرونَ سببًا في ضلالِهم في هذه الدُّنيا، يَسُبُّونَ هؤلاءِ الأثرياءَ والمتكبِّرينَ قائلين: إنّنا حُرِمنا من الهداية بسببِكم، وفي ذلك الوقتِ سيندَمُ العُصاةُ من الأثرياءِ والفقراءِ الذين اتَّبعوهم بغيرِ هدًى كلُّهم على السواء.

وفي نهايةِ السُّورة قيلَ لأهل مكّةَ: إنّ النبيَّ ﷺ ليس غريبًا عنكم، فهو من أهل بلدِكم، وواحدٌ من قبيلتِكم ومجتمعِكم، وأنتم تعرِفونَ جيِّدًا صِدقَه وأمانتَه، والنبيُّ ﷺ لا يدعوكم طمَعًا في هدفٍ دُنيَويٍّ شخصيّ، وإنما هو مُحِبٌّ لخيرِكم، ويريدُ أن يُنقذَكم من نارِ جهنَّم، فإنْ لم تؤمنوا به اليومَ، فستندَمون يومَ القيامة، وستُعلِنونَ إيمانَكم يومَها، ولكنّ الإيمانَ في ذلك الوقتِ لن يكونَ مقبولًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الاثنين ١٤ ديسمبر ٢٠٠٩م
الموافق ٢٧ ذي الحجة ١٤٣٠هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ سَبَإٍ (٣٤)،

مكية (٥٨)، آياتها (٥٤)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾

١ ـ المالكُ الحقيقيُّ لكلِّ شيءٍ في الأرضِ والسّماء هو اللهُ تعالى، وكلُّ نعمةٍ على أحدٍ مهما كان هي من عطاءِ الله عزَّ وجلّ، ولهذا فإنّ المستحِقَّ الحقيقيَّ لكلِّ

أنواع الشكرِ والثّناءِ هو اللهُ تعالى، وكلُّ نعمةٍ سينالُها أحدٌ في الآخِرةِ أيضًا ستكونُ من كرَم اللهِ تعالى كذلك، ولهذا فإنّ المستحِقَّ لكلِّ حمدٍ وثناءٍ في الآخِرةِ هو اللهُ تعالى أيضًا، بل إنّ كثيرًا من الأشرارِ في هذه الدُّنيا يُثْني عليهم الآخَرونَ، وفي الآخِرة سيشاهِدُ الجميعُ أنّ المستحِقَّ للثّناءِ هو اللهُ تعالى وحدَه، خالقُ هذا النِّظام كلِّه ومالكُه، وهو العالِمُ تمامَ العِلم بظاهرِه وباطِنِه، وهو الذي يُسيِّرُه بحكمتِه البالغة.

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ ﴾

٢ ـ الماءُ الذي يتسرَّبُ إلى الأرض، والحبوبُ التي تدخُلُ فيها، والنباتاتُ التي تَنبُتُ منها، والمعادنُ وما شابَهَها والتي تَخرُج منها، والمطرُ الذي ينزِلُ من السّماء، والملائكةُ الذين ينزِلونَ منها، والدُّعاءُ الذي يصعَدُ من الأرض، وكذا الأبخِرةُ وغيرُها، اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم كلَّ هذه الأشياءِ، ونظامُ الكائناتِ هذا يسيرُ برحمتِه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾

٣ ـ كان النبيُّ ﷺ قبلَ النُّبوّةِ أيضًا لا يقولُ إلّا صِدقًا، ولهذا كان كفّارُ مكّةَ يُطلِقونَ عليه لقبَ الصّادقِ الأمين، وحينَ أَنْكر كفّارُ مكةَ قيامَ الساعة، أَقْسم النبيُّ ﷺ بربِّه قائلًا: إنّ الساعةَ آتيةٌ لا مَحالَة، وكأنّه ﷺ كان يُنبِّهُهم قائلًا: يا أهلَ مكّةَ، إنّكم تشاهدونَ بأنفُسِكم أنّني لا أكذبُ أبدًا حتى في الأحوالِ العاديّة، واليومَ أُقسمُ لكم بأنّ القيامةَ ستأتي، فكيف يمكنُ أن يكونَ هذا كذبًا؟

يقولُ الإمامُ ابنُ كَثيرٍ في تفسيرِ هذه الآية: إنّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّه ﷺ في ثلاثةِ مواضعَ من القرآنِ الكريم بأنْ يُقسِمَ بربِّه مُعلِنًا حَتْميّةَ قيام الساعة، الموضعُ الأول:

هو الآيةُ رقم **٥٣** من سُورة يونُس (**١٠**)، والموضعُ الثاني: هو الآيةُ رقم **٣** من سُورة سَبَأ (**٣٤**)، والموضعُ الثالثُ هو: الآيةُ رقم **٧** من سُورة التغابُن (**٦٤**).

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

٤ ـ كان كفّار مكةَ يستدِلُّونَ بشكلٍ عامٍّ على إنكارِهم يومَ القيامة قائلينَ: إننا إذا متنا وكنّا ترابًا، وتناثَرتْ ذرّاتُ أجسادِنا هنا وهناك، فكيف يمكنُ جمعُها مرةً ثانيةً؟ وقد أجابَ القرآنُ الكريم عن كلامِهم هذا في مواضعَ مختلفةٍ منه، وفي هذه الآيةِ أيضًا جاء بيانُ دليلَيْنِ فيما يتعلَّقُ بيوم القيامة، الدّليلُ الأول: هو أنّ الذي أَقْسم مُعلِنًا قيامَها هو تلك الذاتُ التي تعترفونَ بصِدقِها في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة.

الدّليلُ الثاني: هو أنّ اللهَ تعالى عالِمُ الغَيْب، ولا تخفَى عليه ذَرّةٌ من ذَرّاتِ الأرضِ أو السماء، وإنّما كلُّ شيءٍ حتى وإن كان أصغرَ من الذَّرةِ محفوظٌ عندَه في اللَّوح المحفوظ، ولهذا فإنّ جَمْعَ هذه الذَّراتِ ثانيةً لا يُمثِّلُ أيَّ صعوبةٍ بالنّسبةِ لله تعالى القادِر المطلَق عالِم الغَيْب، معَ أنه تعالى ليس في حاجةٍ إلى أن يُعيدَ جَمْعَ هذه الذَّراتِ لكي يَخلُقَ من جديد، بل إنه كما خَلَق الإنسانَ لأولِ مرةٍ من الطِّين على غيرِ صُورةٍ أو شكلٍ سابق، يستطيعُ أن يخلُقَه ثانيةً.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

٥ ـ سيُنعِمُ اللهُ تعالى على أهل الإيمانِ الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ برزقِ الجنة، وسيعاقَبُ الذين يكذِّبونَ آياتِ القرآن الكريم بعذابٍ أليم.

في هذه الآياتِ إشارةٌ إلى مبدأٍ أساسيٍّ حولَ حَتْميّةِ قيام الساعة، فكثيرًا ما يَحدُثُ في هذه الدُّنيا أن يظَلَّ شخصٌ يرتكبُ الظُّلمَ طيلةَ حياتِه، ويغمِطُ الآخَرينَ

حقوقَهم، ولا يعاقِبُه أحد، وعلى الجانبِ الآخَر نجدُ شخصًا آخَرَ يعيشُ حياتَه كلَّها مظلومًا، ولا يُنصفُه أحدُ، ولهذا من الضَّروريِّ أن تكونَ هناك حياةٌ أخرى بعدَ هذه الحياة، يعاقَبُ فيها الظّالمُ على ظُلمِه، ويُنْصَفُ فيها المظلومُ ممّا وَقَع عليه من ظُلم.

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

٦ ـ في هذهِ الآيةِ الكريمة طَمْأنَ اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ بأنه إذا كان مشركو مكّةَ منهمِكينَ في تكذيبِ القرآنِ الكريم فلا تغتمَّ ولا تحزَنْ؛ لأنّ أهلَ العِلم يعرِفونَ جيّدًا وعلى يقينٍ من أنّ القرآنَ حقٌّ، وأنه أُنزِل عليكَ من الله تعالى، وأنه هو الذي يَهدي إلى طريقِ رضا الله تعالى.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

٧ ـ كان الكفّارُ يقولونَ لأصدقائهم على سَبيل التحقيرِ والاستهزاء: أنْ تعالَوْا نُرِكم شخصًا (يعني سيّدَنا محمدًا ﷺ) يقولُ كلامًا في غايةِ العجَب ولا يَقبَلُ التصديقَ، يعني: أنكم حينَ تموتونَ وتصيرونَ ذَرّاتٍ من تراب، سيَبعَثُكم اللهُ من جديد، ويُعلَمُ منه أنّ هذا الشخصَ إمّا أنه يفتري على الله كذبًا، وإمّا أنه مجنون.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾

٨ ـ كان كفّارُ مكةَ يعلمونَ جيّدًا أنّ سيّدَنا محمدًا ﷺ صادقٌ، وأنه لا يمكنُ أن يكذبَ، وكانوا يعلَمونَ أيضًا أنّ سيّدَنا محمدًا ﷺ أمينٌ، يعني: يحافظُ على أماناتِهم، ولهذا لا يمكنُ أن يكونَ مجنونًا؛ لأنّ المجنونَ لا يَعِي أمرَ نفسه، فكيف يمكنُه الحفاظُ على أموالِ الآخَرين؟ والحقيقةُ هي أنّ كفّارَ مكّةَ كانوا يُنكرونَ الآخرةَ، ولكي

يستمرُّوا على ضلالِهم البعيدِ هذا كانوا يتَّهمونَ النبيَّ ﷺ - كذبًا وافتراءً - بالكذبِ والجنون، وسيَشعُرونَ بحماقتِهم هذه عندَما يُبتلَوْنَ بعذابِ الآخرة.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

٩ - ألا يَرى مُنكرو القيامةِ أنّ السماءَ والأرضَ قد أحاطَتْ من الجهاتِ الأربع، ولو أرادَ اللهُ تعالى لَخسَفَ بهم الأرضَ مثلَما فَعَل معَ قارونَ، أو أمطَرَهم بالأحجارِ كما فَعَل معَ قومِ لوط، ولهذا ينبغي لهم أن يخافوا من غضبِ الله تعالى، وأن يعمَلوا ما بوُسعِهم بحثًا عن الحقِّ؛ لأنّ هناك آياتٍ على قُدرةِ الله تعالى في اتِّساع السّماءِ والأرضِ لكلِّ من يواصلُ بحثَه في طلبِ الحق.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ

وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

١٠ ـ تفضَّل اللهُ تعالى على سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ، وذَكَر هنا معجزتَيْنِ من معجزاتِه الكثيرة، الأولى: تتعلَّقُ بحلاوةِ صوتِه وجاذبيَّتِه، التي تَجعلُ حتى الطيورَ والجبالَ تشتركُ معَه في التسبيح، أما الثانيةُ فهي: لِينُ الحديدِ كالعجينِ عندَما يلمِسُه سيّدُنا داودُ عليه السَّلامُ بيدِه، فيصنَعُ منه عليه السَّلامُ دروعًا خفيفةً فَضْفاضَةً من حَلَقاتٍ مناسبة، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذا الأمرِ راجع الآيتَيْنِ ٧٩ و ٨٠ من سُورة الأنبياء (٢١).

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾

١١ ـ مثلَما سَخَّر اللهُ تعالى الجبالَ والطيورَ لسيّدِنا داودَ عليه السَّلام، فقد تفَضَّل على سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ أيضًا وتكرَّم عليه، وسَخَّر له الرِّيحَ، فكان الريحُ يحمِلُ عرشَ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام ويسافرُ به في سُرعةٍ عجيبة، بحيث كان يقطَعُ في عدّةِ ساعاتٍ من الصّباح مسافاتٍ تقطَعُها مَطِيَّةٌ سريعةٌ في شهرٍ كامل، ويقطَعُ مِثلَ هذه المسافاتِ في عدّةِ ساعاتٍ من المساءِ أيضًا.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: إنّ سيّدَنا الحَسَنَ البصريَّ رحمَه الله قال: «شَغَلت سُليمانَ الخَيْلُ حتّى فاتَتْه صلاةُ العصر، فعقَر الخيلَ (حزِن سيّدُنا سُليمانُ عليه السلام بشدّةٍ لفواتِ وقتِ الصلاة، بحيث أنه ذَبَح تلك الخيولَ التي كانت سببًا في فواتِ وقتِ الصلاة، وكان من الجائزِ في شريعتِه التَّضحيةُ

بالخيول، مَثَلُها مثَلُ الثِّيرانِ والأبقار) فأبدَلَه اللهُ خيرًا منها وأسرعَ، أُبدِلَ الرِّيحَ تجري بأمرِه حيث شاء، غُدوُّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ»[١]، ويُعلَمُ منه أنه إذا كنّا نريدُ رضا الله تعالى بالفعل، ينبغي لنا أن نعتزلَ كلَّ شيءٍ وكلَّ جماعةٍ تجعَلُنا غافلينَ عن الصّلاةِ وعن ذكرِ الله تعالى.

﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾

١٢ ـ مثلَما ألانَ اللهُ تعالى الحديدَ لسيّدِنا داودَ عليه السَّلام، فقد أجرَى لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ عينًا من النُّحاسِ المنصهِر، ولكنّه لم يكنْ ساخنًا، فكان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ يصنَعُ منه بسهولةٍ ما يشاء، ثم يعودُ النُّحاسُ المنصهِرُ إلى حالةِ التجمُّد.

﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

١٣ ـ معَ أنّ الجِنَّ جميعًا كانوا تابعينَ لسيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، ولكنْ كان مِن بينِهم صُنّاعٌ، وبسببِ هؤلاءِ جاء ذِكرُ بعضِ الجِنِّ هنا[٢]، ومَن عصا من الجنِّ سيّدَنا سُليمانَ عليه السَّلام سيعاقَبُ بنارِ جهنَّم. يقولُ سيّدُنا سُدِّي: «مَلَكًا بيدِه سَوْطٌ من نار، فمَن زاغَ عن أمرِ سُليمانَ ضربَه بذلك السَّوطِ ضربةً من حيث لا يراهُ فأحرقَتْه»[٣].

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾

١٤ ـ كان الجِنُّ يصنَعونَ لسيّدِنا سُليمانَ وبأمرِه قلاعًا وتماثيلَ وقدورًا وجفانًا عظيمةَ الحجم، والجِفَانُ تقال لتلك: الأواني التي يوضَعُ فيها الطعامُ

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير نور العرفان.
(٣) تفسير القرطبي.

ويتحلَّقُ الناسُ حولَها جالسينَ ليتناولوا هذا الطعامَ، لكنّ الجِنَّ اقتَطَعوا من الجبالِ وصَنَعوا جِفانًا ضخمةً مثلَ أحواضِ الماء، فكان ألفُ رجلٍ يستطيعونَ التحلُّقَ جالسينَ حولَ كلٍّ واحدٍ منها يتناولونَ الطعامَ، كما صَنَعوا من صخورِ الجبالِ آنِيةً عظيمةً يصعُبُ إنزالُها من فوقِ المواقد، فكان الناسُ يصعَدونَ إلى فُوَّهتِها باستخدام السَّلالم ليستطيعوا إخراجَ الطعام منها[١].

قُدِّر ليَ أن أزورَ فِلَسطينَ في ينايرَ من عام ٢٠٠٠م، فرأيتُ على جُدرانِ الطابقِ السُّفْلي للمسجدِ الأقصى أحجارًا ضخمةً لا يستطيعُ إنسانٌ أن يحمِلَها، ولا بدَّ أن الجِنَّ هم الذين حَمَلوها وثبَّتوها في الجُدران.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾

١٥ ـ أَنْعمَ اللهُ تعالى على سيّدِنا داودَ عليه السَّلامُ وعلى آلِه بإنعاماتٍ خاصّةٍ، ولهذا يأمُرُهم أن يَشكروا اللهَ تعالى على هذه النِّعَم، لأنّ أكثرَ الناس يَنْسَوْنَ نِعَمَ الله عليهم، والذين يشكرونَ اللهَ تعالى قليلونَ للغاية، وينبغي لنا أن نختليَ بأنفُسِنا أحيانًا لنفكِّر: كم من الناسِ في العالَم اليومَ محرومونَ من الطعام والملابسِ والسَّكَنِ والصِّحةِ والأيدي والأرجُل والسَّمع والبصر، لكنَّهم معَ ذلك يشكرونَ اللهَ تعالى، أمّا نحن فبرَغْم كلِّ هذه النِّعَم من اللهِ تعالى علينا لا نؤدِّي شكرَه، فبأيِّ وجهٍ يا ترى نُقابلُ اللهَ تعالى يومَ القيامة؟

ـ يقولُ ثابتٌ البُنانيُّ: «كان داود، عليه السَّلامُ، قد جَزَّأ على أهلِه ووَلَدِه ونسائه الصّلاةَ، فكان لا تأتي عليهم ساعةٌ من اللّيلِ والنّهار إلّا وإنسانٌ من آلِ داودَ قائمٌ يُصلِّي»[٢].

---

(١) تفسير خزائن العرفان.

(٢) تفسير ابن كثير.

ـ حين نَزَلت هذه الآيةُ صَعِد النبيُّ ﷺ المِنبَر وتلا هذه الآيَة، ثم قال: «ثلاثٌ من أوتِيَهُنَّ فقد أُوتيَ مِثلَ ما أُوتيَ آلُ داود»، قال: فقلنا: ما هُنّ؟ فقال: «العدلُ في الرّضا والغضب، والقَصْدُ في الفقرِ والغنى، وخَشْيةُ الله في السّرِّ والعلانيَة»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا المُغيرةُ بن شُعبةَ رضي اللهُ عنه: إنّ سيّدَنا داودَ عليه السَّلامُ قال: يا ربِّ، هل بات أحدٌ من خَلْقِك اللّيلةَ أطولَ ذِكرًا لك منّي؟ فأوحى اللهُ إليه: نعم، الضُّفدَع، وأَنْزلَ اللهُ عزَّ وجلّ عليه ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾، قال: يا ربِّ، كيف أُطيقُ شُكرَك وأنت الّذي تُنعِمُ عليَّ، ثمّ ترزُقُني على النّعمةِ الشُّكرَ[2] ثمّ تزيدُني في نعمةٍ بعدَ نعمةٍ، فالنِّعمةُ منك يا ربِّ، والشّكرُ منك، وكيف أُطيقُ شكرَك؟، قال: الآنَ عرفتَني يا داودَ حقَّ معرفتي[3].

﴿ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾

١٦ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ بحُكم الرِّيح والجِنِّ والطَّيرِ أيضًا بجانبِ حُكم الإنسان.

من هم الجن؟

الجِنُّ: مخلوقاتٌ من نار، ولا يظهَرونَ لنا، وقد أعطاهمُ اللهُ تعالى المقدرةَ على التشكُّلِ في الأشكالِ التي يريدونَها، وهذه المخلوقاتُ تشبهُ الإنسانَ فيما يتعلَّقُ بالأكل والشربِ والعقلِ والشعورِ والموتِ والحياةِ والأولاد، لكنّ أعمارَهم طويلةٌ للغاية.

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) «حكي عن داود عليه السلام أنه قال: أي رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة مجدّدة منك عليّ». القرطبي، سورة إبراهيم (١٤): الآية ٧.

(٣) شعب الإيمان، ٤: ١٠١ برقم ٤٤١٣.

ومن الفَرْض على الجنِّ أن يؤمنوا بالله تعالى ويعمَلوا طِبقًا للأحكام الإلهيَّةِ مَثَلُهم مَثَلُ بني الإنسان، مثلَما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبعضُ الجنِّ مسلمٌ وبعضُه كافر، والكافرُ الشِّريرُ منهم يقالُ له: شيطانٌ، وكان إبليسُ أيضًا من الجنِّ مثلَما يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥].

هل يعلم الجن الغيب؟

كان الجنُّ يدَّعُونَ أنّهم يعلمونَ الغيبَ(١)، وقد بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ واقعةً تُثبِتُ عدَم معرفةِ الجنِّ بالغَيْب، فقد كان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ يظَلُّ منشغلًا في العبادةِ لأيام وشهور، وكان يُسخِّرُ شِرارَ الجنِّ في أعمالٍ شاقة، وذاتَ مرة كَلَّف سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ شِرارَ الجنِّ بعملٍ من الأعمال، واتَّكأَ هو على عصاه منشغِلًا بالعبادةِ في المِحراب، وفي تلك الأثناء مات سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلام، لكنّ جسَدَه ظلَّ عامًا كاملًا واقفًا مستندًا على العصا، وظلَّ الجِنُّ يعتقدونَ أنه ـ عليه السَّلام ـ حيٌّ، إلى أنْ أكَلت العُثّة(٢) العصا من داخِلِها حتى جعَلتْها خاويةً، فسَقَطتِ العصا، وعندَما بدَأَ جسَدُ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ في السقوطِ عندَها فقط عَلِمتِ الجنُّ أنّ سيّدَنا سُليمانَ عليه السلام قد مات، واعترَفوا ـ مضْطَرِّينَ ـ بأنّ هم لو كانوا يعرِفونَ الغيبَ لَما بقُوا عامًا كاملًا في هذا العذابِ المُخزي، وكانوا قد كُلِّفوا بأعمالٍ شاقّةٍ مُخْزِية بسببِ شرورِهم وعصيانِهم، وهكذا ما أنْ عَلِموا بموتِ

---

(١) «كانت الجن تدّعي علم الغيب» تفسير القرطبي.

(٢) بالضم: دود يقع في الصوف والثياب والطعام. (تاج العروس: سوس، عثث).

سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ حتى فَرُّوا هاربينَ، وقد عَلِم الناسُ أيضًا من هذه الواقعةِ أنّ ادِّعاءاتِ الجنِّ كاذبةٌ، وأنّهم لا يعلَمونَ الغيبَ، كما يُعلَمُ منها أيضًا أنّ أجسادَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام تظَلُّ صحيحةً سليمةً حتى بعدَ وفاتِهم، ولهذا أكَلَت العُثّةُ عصا سيّدِنا سُليمانَ من الداخل، لكنّها لم تستطعْ إلحاقَ أيِّ ضررٍ بجسدِه، وقد مرَّت في الآية رقم ٥٩ من سُورة البقرة واقعةٌ حدَثَتْ لنبيٍّ من الأنبياءِ عليهم السَّلام أماتَه اللهُ تعالى ثُم أحياهُ بعدَ مائةِ عام، وكان جسَدُه صحيحًا سليمًا.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

١٧ ـ كانت هناك مدينةٌ يمنيّةٌ تُدعَى سَبأً في جنوبِ الجزيرةِ العربيّة. يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «إنّ الآيةَ الّتي كانت لأهلِ سَبَأٍ في مساكنِهم: أنّهم لم يرَوْا فيها بعوضةً قطُّ ولا ذُبابًا ولا بُرغوثًا ولا قَمْلةً ولا عَقرَبًا ولا حيّةً ولا غيرَها من الهوامّ، وإذا جاءهم الرّكْبُ في ثيابِهم القملُ والدّوابُّ فإذا نَظَروا إلى بيوتِهم ماتتِ الدّوابُّ. وقيل: إنّ الآيةَ هي الجَنّتانِ، كانت المرأةُ تمشي فيهما وعلى رأسِها مِكتَلٌ فيمتلئُ من أنواع الفواكهِ من غيرِ أن تمَسَّها بيدِها، قاله قَتادةُ. ورُوي أنّ الجنّـتَـيْنِ كانتا بين جَبَلَيْنِ باليمن. قال سُفيان: وُجِد فيهما قصرانِ مكتوبٌ على أحدِهما: نحن بَنَيْنا سِلْحينَ في سبعينَ خريفًا دائبين، وعلى الآخَرِ مكتوبٌ: نحن بَنَيْنا صِرْواحَ، مَقِيلٌ ومَراح، فكانت إحدى الجنّتَيْنِ عن يمينِ الوادي والأُخرى عن شمالِه. قال القُشَيريُّ: ولم يُرِدْ جنّتَيْنِ اثنتَيْن، بل أراد من الجنّتَيْنِ يَمنةً ويَسْرةً، أي: كانت بلادُهم ذاتَ بساتينَ وأشجارٍ وثمارٍ، تستترُ النّاسُ بظلالها»[1].

وباختصار: فإنّها كانت مدينةً رائعةً باعتبارِ الطّقسِ فيها، وخضراءَ يانعةً باعتبارِ

---

(١) تفسير القرطبي.

خصوبةِ أراضيها، وكانت هذه الميزاتُ بمثابةِ آيةٍ عظيمةٍ لأهل سَبَأٍ، ولو أنّهم نَظَروا إلى البلادِ المحيطة بهم لَما وَجَدوا في بعضِها الماءَ، وبعضُها أرضُه غيرُ خَصْبة، ولهذا فإنّ هذه النِّعمَ الدُّنيويّة كانت تقتضي منهم أن يعمَلوا جاهدينَ من أَجْل معرفةِ المتفضِّل الحقيقيِّ عليهم، ويؤدُّوا شُكرَ الله تعالى على هذه النِّعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ولهذا أمَرَهمُ اللهُ تعالى عن طريقِ الأنبياءِ أنكم تأكلونَ من رزقِ الله تعالى فأدُّوا شكرَه.

﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

١٨ ـ لكنْ حينَما أَعرَضَ أهلُ سَبَأٍ عن تعاليمِ أنبيائهم عليهمُ السَّلامُ، ولم يُقدِّروا نِعَمَ الله عليهم حقَّ قَدْرِها، اجتاحَتْهم في نهايةِ الأمر سيولٌ أغرَقَت حدائقَهم وبساتينَهم الخضراءَ اليانعةَ وقَضَت عليها، ولم تَعُدْ هناك شجرةٌ من الأشجارِ يمكنُ تناولُ ثمارِها باستثناءِ بعضِ أشجارِ التُّوت.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

١٩ ـ المرادُ بالقُرى المبارَكةِ هنا: منطقةُ الشام وفِلَسطينُ، والمرادُ بالقُرى الظاهرة بينَ سَبَأٍ والشام: تلك القُرى التي كانت تقَعُ على جانبَي الطريقِ العامِّ على مسافاتٍ متقاربة، والتي لم يكنِ المسافرونَ يواجِهونَ خطَرَ اللصوصِ بسببِها، كما لم يكونوا يواجِهونَ أيَّ صعوبةٍ في الحصُولِ على موادِّ الطعام والشّراب، ولهذا لم يكونو يخشَوْنَ خطرًا في سفرِهم ليلًا أو نهارًا؛ لأنه كانت هناك سلسلةٌ طويلةٌ من المنازِل التي يمكنُهم النُّزولُ فيها، وتتوفَّرُ في كلِّ منزلٍ كلُّ أنواع التسهيلات.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾

٢٠ ـ مثلَما جَحَد بنو إسرائيلَ وهم في التِّيه نعمةَ المَنِّ والسَّلوى التي نَزَلت عليهم من السَّماء، وطَلَبوا ما يَنبُتُ من الأرضِ طعامًا، كذلك جَحَد أهلُ سَبَأٍ نِعمَ الله عليهم من طُرُقٍ آمنةٍ ومنازلَ متقاربةٍ، وطَلَبوا أن تتباعَدَ المسافاتُ بينَ المنازل، حتى يخوضوا هم أيضًا تجرِبةَ الجوع والعطشِ والمشَقّةِ ومخاطرَ اللصُوص في الطُّرُقِ مثلَ الأُمم الأُخرى، وهكذا جَحَدوا نِعَمَ الله عليهم فظَلَموا بذلك أنفسَهم، فأرسَلَ اللهُ تعالى عليهم سيلًا دمَّر قُراهم ومساكنَهم عقابًا لهم على جحودِهم، والذين نَجَوْا منهم من الغَرَقِ رَحَلوا عن سَبَأٍ وتفَرَّقوا في مناطقَ مختلفةٍ، وبقِيت قَصَصُ الرَّفاهيةِ التي عاشوها كشعبٍ، ولكنْ لم يبقَ في الدُّنيا شعبٌ باسم شعبِ سَبَأ.

في هذه الواقعة آياتُ عِبرةٍ عظيمة، بمعنى: أنّ الأقوامَ التي لا تقدِّرُ نِعَمَ الله تعالى حقَّ قَدْرِها يُمحَى كلُّ أثرٍ لهم في الدُّنيا، لكنْ لا يَعتبِرُ من هذه الآياتِ سوى أولئك الذين يصبِرونَ على المصائب، ويشكرونَ اللهَ تعالى على النِّعم، أمّا الجاحدونَ والذين لا صبرَ لهم فلا يَعتبِرون.

﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

٢١ ـ عندما طَلَب إبليسُ مُهلةً من الله تعالى، وأعطاهُ اللهُ تعالى هذه المُهلةَ، قال الشّيطانُ: يا ربِّ، سوف أُضِلُّ كلَّ الناسِ باستثناءِ عبادِك الذين اختَرْتَهم. لم يكنْ في ذلك الوقتِ على يقينٍ من أنه سينجَحُ في دعواهُ هذه، فقدِ ادَّعى هذا على أساسِ الظَّنِّ، ولكنْ حينَ قَبِل أهلُ سَبَأٍ إضلالَه لهم ثَبَت ظنُّه وصار يقينًا، وعلى

العكس من هؤلاء، لم يكنْ للشّيطانِ أثرٌ على عبادِ الله المخلَصين، ولن يستطيعَ أن يكونَ له أثرٌ في المستقبَل؛ لأنّهم دائمًا مطيعونَ لله تعالى.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾

٢٢ ـ ليس لدى الشّيطانِ قوةٌ يستطيعُ بها إجبارَ أحدٍ على الضَّلال، فهو يُرغِّبُ في الضَّلالِ فقطْ، فيسيرُ وراءه الجاحدونَ، ولقد أُعطِيَ الشّيطانُ قوةً من أَجْلِ اختبارِ الإنسان، حتى يتبيَّنَ للناسِ منِ الذي يَرفُضُ اتِّباعَ الشّيطانِ ويؤمنُ بالآخِرة، ومنِ الذي يقَعُ في حبائلِ الشيطانِ وينكِرَ الآخِرة.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾

٢٣ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ لمشركي مكّةَ بأنّ الذين تعبدونَهم مِن دونِ الله، وتعتقدونَ أنّهم وسيلةٌ لدَفْع الشرِّ وجلبِ الخير، اطلُبوا العونَ منهم في أوقاتِ

الشِّدة، وسترَوْنَ أنّهم لن يستطيعوا تقديمَ أيِّ عونٍ لكم؛ لأنهم ليس لهم أيُّ سلطانٍ على أيِّ شيءٍ في السماءِ والأرض ولو كان بمقدارِ ذَرّة، كما أنّهم لا يدَ لهم مطلقًا في خَلْق هذا الشيءِ، وإنّما أنتم الذين جَعَلتُم منهم آلهةً الآنَ، بينَما السماءُ والأرضُ موجودتانِ من قَبْلِهم أصلًا، وخالقُهما هو اللهُ تعالى، وهو لا يحتاجُ إلى عونِ أحدٍ، فهو القادرُ المطلَقُ والمختارُ الكاملُ، وهو الذي يستحِقُّ العبادةَ.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾

٢٤ ـ كان مشركو مكّةَ يعتقدونَ أنه إذا قامتِ السّاعةُ حقًّا فإنّ آلهتَهم التي يعبُدونَها ستشفَعُ لهم، وفي هذه الآيةِ إبطالٌ لهذا الاعتقاد، بأنه لن يستطيعَ أحدٌ التجرُّؤُ على الشَّفاعةِ لأحدٍ في ذلك اليوم، وإنّما أهلُ الإيمان فقطِ الذين أَذِنَ اللهُ لهم بالشَّفاعةِ هم الذين سيَشفَعونَ، وسَيشفَعونَ فقطْ لأولئك المذنِبينَ الذين كانت خاتمتُهم على الإيمان، ولكنْ لأنّ مشركي مكّةَ وآلهتَهم في الأصلِ محرومونَ منَ الإيمان، لهذا لا يستطيعونَ الشّفاعةَ لأحدٍ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يشفَعَ لهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

٢٥ ـ الذين سيُسمَحُ لهم يومَ القيامةِ بالشَّفاعةِ سيكونونَ خائفينَ من هَيْبةِ الله تعالى، وعندَما يسمَحُ اللهُ تعالى لهم بالشَّفاعةِ يبتعدُ الخوفُ والارتباكُ عن قلوبِهم، ويَسألُ بعضُهم بعضًا: ماذا قال ربُّكم؟ وسيقولون: لقد قال اللهُ الحقَّ، فهُو الأعلى والأعظَم، ولم يُنعِمْ علينا برضاهُ فقطْ، وإنّما أَذِن لنا أن نَشفَعَ في المذنِبينَ من أهلِ الإيمان.

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

٢٦ ـ سَأل النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى مشركي مكّةَ: من يُنزِلُ المطرَ من السَّماءِ

عليكم، ويُنبتُ لكم نباتَ الأرض ويهيِّئُ لكم الرِّزق؟ ولأنّهم لن تكونَ لديهم الشجاعةُ للإجابةِ عن السُّؤال، لذا سيقولُ النبيُّ ﷺ لهم: إنه اللهُ تعالى الذي يهيِّئُ لكمُ الرِّزقَ، وهو الذي يستحِقُّ العبادةَ، ولهذا فإنّنا نعبدُه، والآنَ احكُموا أنتم؛ من مِنّا على هدًى ومَن في ضلالٍ مُبين؟

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

٢٧ ـ يعني: أنّنا قد وَضَّحنا الحقَّ من الباطل، وما ندعوكم إليه من التوحيدِ الهدفُ منه خَيْرُكم، حتى تنجُوا من عذابِ الآخِرة، وإلّا لن يُضارَّ أحدٌ بعملِ الآخَر، وكلُّ شخصٍ مسئولٌ عن أعمالِه، ولو أنّنا قصَّرنا في شيءٍ فلن تُسألوا عنه، كما أنّنا لن نُسألَ عن أعمالِكم.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٢٨ ـ يا مشركي مكّةَ، سواءٌ آمنتُم اليومَ بما نقولُ أو لم تؤمنوا، عليكُم أن تسمَعوا بإمعانٍ وتدبُّر، إنّ يومًا سيأتي، يَجمَعُ اللهُ تعالى فيه الجميعَ، ويفصِلُ فيه بينَنا، حيث لن يمكنَكم إنكارُ حُكمِه، لأنه يَعلَمُ كلَّ شيءٍ تمامَ العلم، وحُكمُه هو الحقُّ وهو الأفضَلُ على الإطلاق.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٢٩ ـ سَأل النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى مشركي مكّةَ قائلًا: الذين اتَّخذتُم منهم شركاءَ لله تعالى، أخبِروني، هل يُمكنُكم تقديمُ شيءٍ خلقَتْه آلهتُكم هذه؟ وإذا كانوا لا يستطيعونَ خَلْقَ شيءٍ، فإنّهم على وجهِ اليقين لا يمكنُ أن يكونوا شركاءَ لله تعالى؛

لأنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى واحدٌ أحد، ولا شريكَ له أو مثيل، وهو الحكيمُ غايةَ الحِكمة والغالبُ على الجميع.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾

٣٠ ـ جاء الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ قبلَ النبيِّ ﷺ إلى كلِّ قوم ومنطقةٍ وفي كلِّ وقتٍ بشكل منفصِل، وعلى سَبيل المثال: أُرسِلَ سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ إلى قوم عاد: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وأُرسِلَ سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ إلى قوم ثمود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وأُرسِلَ سيّدُنا شُعَيبٌ عليه السَّلامُ إلى أهل مَدْيَنَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وأُرسِل سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ إلى بني إسرائيل: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وفي النِّهايةِ أَرسَلَ اللهُ تعالى نبيَّنا الحبيبَ ﷺ إلى كلِّ مكانٍ في الدُّنيا وإلى البشَرِ جميعًا، ولهذا فإنّ نُبوَّته ﷺ تشمَلُ كلَّ الأجيال القادمةِ حتى قيام الساعة؛ لأنه ﷺ خاتَمُ الأنبياءِ والمرسَلين.

نبوة النبي ﷺ العالمية في ضوء القرآن الكريم:

١ ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٨٥].

٢ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

٣ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ١].

٤ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٢٨].

نبوته ﷺ العالمية في ضوء الحديث الشريف:

١ ـ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أنّ النّبيَّ ﷺ قال: «... وكان النّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثتُ إلى النّاسِ عامّةً»[١].

٢ ـ عن جابرِ بن عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «... كان كلُّ نبيٍّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ»[٢].

٣ ـ عن أبي هريرةَ، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطِيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصِرتُ بالرُّعب، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائم، وجُعِلت ليَ الأرضُ طَهورًا ومسجدًا، وأُرسِلتُ إلى الخَلْقِ كافّةً، وخُتِم بيَ النّبيُّونَ»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب التيمم، باب ١ برقم ٣٣٥.

(٢) مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم ٣ برقم ١١٦٣.

(٣) مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم ٥ برقم ١١٦٧.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٣١ - يُعلَمُ منه أنّ أكثرَ الناسِ لن يؤمنوا بالنبيِّ ﷺ؛ لأنّهم لا يحاولونَ فَهْمَ رسالةِ النبيِّ ﷺ.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾

٣٢ - كان المشركونَ يقولون: متى تأتي هذه القيامةُ التي تُخوِّفُنا من عذابها؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: إنّ الله تعالى قد حدَّد يومًا للقيامة طِبقًا لحِكمتِه، وحين يَحِلُّ موعدُ هذا اليوم لن يتقدَّمَ عنه ولو لحظةً، كما لن يتأخَّرَ عنه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

٣٣ - كان كفّارُ مكّةَ يقولون: إنّهم لن يؤمنوا بالقرآنِ الكريم أبدًا، ليس هذا

فقطْ، بل إنّهم لن يؤمنوا حتّى بالكتُبِ السَّماويةِ التي نَزَلت من قَبْلِه؛ لأنّ فيها ذِكرًا للنبيِّ الكريم ﷺ، واليومَ هؤلاءِ الظالمونَ الذين يُنكرونَ القرآنَ الكريمَ على اتِّفاقٍ واتحادٍ فيما بينَهم، حين يوقَفونَ أمامَ ربِّهم يومَ القيامة، ويعاقَبُونَ على أفعالِهم القبيحة، عندَئذٍ سيَركَبُهم الخوفُ، فيتبادَلونَ الاتِّهاماتِ فيما بينَهم، ويقولُ المستضعَفُونَ للمتكبِّرين: لو لم تَقِفوا عقَبةً في طريقِنا لكُنّا آمَنّا، ولَما كنّا مستحِقِّينَ لهذا العذابِ اليومَ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴾

٣٤ ـ سيقولُ المتكبِّرونَ للمستضعَفِين: لو أنّكم فَهِمتُم الهدايةَ بالفعل، فكان ينبغي لكم قَبولُها في كلِّ حال، وما كنّا نستطيعُ أن نَمنَعَكم من هذا بالقوة، ولهذا أنتُم المجرمونَ، فلا تورِّطونا معَكم في هذا الأمر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ﴾

٣٥ ـ سيقولُ المستضعَونَ الفقراءُ للمتكبِّرين: صحيحٌ أنكم لم تُجبِرونا على شيءٍ، لكنّ مؤامراتِكم المستمرةَ ليلَ نهارَ ضدَّ الإسلام، وحِيَلَكم الخادعةَ فيما يتعلَّقُ بالتوحيدِ قد خَدَعتْنا إلى حدٍّ ما، بحيث أُجبِرنا على اتِّباعِكم والسَّيرِ خلفَكم.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

٣٦ ـ سينالُ المتكبِّرونَ عقابَ إضلالِهم للمستضعَفِين، وسَينالُ المستضعَفُونَ

عقابَ تقليدِهم الأعمى للضالِّين، وحين توضَعُ السلاسلُ في أعناقِ الاثنَيْنِ ويُسحَبُونَ إلى العذاب، يَندَمونَ أشدَّ النَّدم على كُفرِهم، وسيحاولُ كلٌّ منهم إخفاءَ نَدَمِه عن الآخَر.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

٣٧ ـ في هذه الآيةِ يُطَمْئنُ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بأنه إذا لم يؤمنْ بك سادةُ مكّةَ وأثرياؤها، فلا تحزَنْ ولا تغتَمَّ، فحيثما أرسَلْنا نبيًّا من قَبْلِك إلى أيِّ قوْم كان الأغنياءُ والمُرفَّهونَ من الناسِ أولَ من يُكذِّبُ به؛ لأنّهم يشعُرونَ بخطرٍ منه على سُلطتِهم ورفاهيّتِهم، ولهذا لم يكونوا يتدبَّرونَ دعوةَ النبيِّ، وينكرونَها دونَ فَهْم بدافع تعصُّبِهم وعنادِهم لا أكثَر.

أكثرُ الذين يؤمنونَ في البداية بأيِّ نبيٍّ يكونونَ من الضُّعَفاءِ والمساكين، وهم الذين يسمَعونَ دعوتَه بتمعُّنٍ وتدبُّر، فيؤمنونَ به، بل إنّ أحدَ الدَّلائل على صِدقِ أيِّ نبيٍّ هو أنّ الذين يؤمنونَ به ـ في البداية ـ هم الضُّعَفاءُ، مثلَما سَأل هِرَقْلُ أبا سُفيانَ رضي اللهُ عنه عن النبيِّ الكريم ﷺ قائلًا: «وسألتُك: أشرافُ النّاس اتّبعُوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أنّ ضُعَفاءهم اتّبعُوه، وهم أتباع الرُّسُل»[1].

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

٣٨ ـ يقولُ المتكبِّرونَ لأهلِ الإيمان: عندَنا أموالٌ وثروةٌ أكثرُ ممّا عندَكم، فلو كنّا ضالِّينَ لَغضِبَ اللهُ علينا، ولَما كانت لدينا وَفْرةٌ في الأموالِ والثَّرَوات، ولهذا فإنّ الأمرَ الأوَّل هو أنه ليست هناك قيامةٌ أصلًا، وعلى افتراضِ أنّ الساعةَ أتَتْ، فستُراعَى

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٦ برقم ٧.

مكانتُنا وعظَمتُنا الدُّنيويّةُ، ولن نُعذَّبَ. فرَدَّ عليهم النبيُّ ﷺ قائلًا: إنّ زيادةَ الرزقِ أو قِلّتَه ليست دليلًا على كَوْنِ أحدٍ على الحقِّ أو على الباطل، وهذا التفاوتُ يكونُ بمثابةِ الاختيارِ والابتلاء، ولو كانت سَعةُ الرِّزقِ دليلًا على صحةِ موقفِ أحدٍ لَما أنْعمَ اللهُ تعالى على أحدٍ من الكفّارِ بذَرّةٍ منه، ولكنّ أكثرَ الناس لا يفهَمونَ هذه الحِكمةَ.

وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾

٣٩ ـ يعني: أنّ كثرةَ المالِ والأولادِ ليست بالأشياءِ التي تَجعَلُ الإنسانَ قريبًا من الله تعالى، ولكنّ وسيلةَ القربِ من الله تعالى هي الإيمانُ والعمَلُ الصّالح، ولهذا

سينالُ المؤمنونَ أجرًا عظيمًا على أعمالِهم الصَّالحة، وسيكونونَ في الدَّرجاتِ العُلا من الجنةِ آمنينَ مطمئنِّين.

يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ لا ينظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكن يَنظُر إلى قلوبِكم وأعمالِكم»[1].

والحقيقةُ أنّ الطريقةَ الأساسيّةَ للقُربِ من الله تعالى هي الإيمانُ والعمَلُ الصّالح، فإذا أَنْفق أحدٌ مالَه في سَبيل الله تعالى، وكان أولادُه مطيعِينَ لله تعالى، فإنّ المالَ والأولادَ عندَئذٍ يكونانِ وسيلةً للقُربِ منَ الله تعالى، لكنْ لو أَنْفق أحدٌ مالَه في عصيانِ الله تعالى، وكان أولادُه عُصاةً لله تعالى، فإنّ المالَ والأولادَ عندَئذٍ يكونانِ وسيلةً للبُعدِ عن الله تعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

٤٠ ـ الذين يَسْعَوْنَ دائمًا في تكذيبِ آياتِ الله تعالى، سيُقيَّدونَ ويُلقَى بهم في جهنَّم، ولن يستطيعوا الفِرارَ إلى أيِّ مكان.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ ﴾

٤١ ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إن رسولَ الله ﷺ قال: «قال اللهُ: أَنْفِقْ يا ابنَ آدم (على بني الإنسان إرضاءً لي) أُنفِقْ عليكَ»[2].

ـ تقولُ السيِّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال لي: «لا توكي فيوكَى عليكِ»[3].

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٠ برقم ٦٥٤٣.
(٢) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٢.
(٣) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٢٢ برقم ١٤٣٣، وفي حديث آخر: «عن أسماء بنت أبي بكر =

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

٤٢ ـ الرازقُ الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى، لكنّه جَعَل بعضَ وسائل الرِّزق، وبعضَ الرازقينَ المَجازيِّين، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ لأنَّ الرازقينَ المَجازيِّينَ مهما كانوا مالُهم محدودٌ، وله نهايةٌ، أمّا خزائنُ الله تعالى فلا حدَّ لها، ولا تنتهي أبدًا.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾

٤٣ ـ الذين يعبُدونَ الملائكةَ ويعتقِدونَ أنّهم بناتُ الله تعالى! سيَسأَلُ اللهُ تعالى الملائكةَ أمامَهم: هل كان هؤلاءِ يعبُدونكم؟ معَ أنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم كلَّ شيءٍ، ولكنّ المقصودَ بهذا السُّؤال تأنيبُ المشركين، ولهذا سيقولُ الملائكة: يا الله تعالى، أنت منزَّهٌ عن الشِّرك، وأنت مالكُنا ومعبودُنا، وليس لنا أيّةُ علاقةٍ بهؤلاءِ الناس، كما أنّنا لم نُلقِّنْهم الشِّركَ، وإنّما كانت الشياطينُ والجِنُّ يُرغّبونَهم في عبادةِ غيرِ الله تعالى، ولهذا فإنّ الحقيقةَ هي أنّ هؤلاءِ كانوا يؤمنونَ بالجِنِّ، ويتَّبعونَهم ويعبُدونَهم، ويعتقِدونَ أنّهم ملائكةٌ. ولكَ أن تتصوَّر أنت إلى أيِّ مدًى سيكونُ يأسُ المشركينَ ونَدَمُهم عندَما يسمَعونَ هذا التبرُّؤَ من لسانِ آلهتِهم.

وقد سُئل سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ هذا السؤالَ. ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ١٥٥ للآية رقم ١١٦ من سُورة المائدة (٥).

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

٤٤ ـ المُنكِرونَ للقيامة اليومَ، والذين يترُكونَ اللهَ تعالى ويعبُدونَ غيرَه، هؤلاءِ

= ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي... ولا تحصي فيحصي الله عليكِ» مسلم، كتاب الزكاة، باب ٢٨ برقم ٢٣٧٥.

ظالمون، ولن يستطيعَ أحدٌ منهم يومَ القيامة أن ينفعَ الآخَرَ أو أن يَضُرَّه، وإنما سيُلقَوْنَ في جهنَّمَ ويقالُ لهم: ذوقوا الآنَ عذابَ جهنَّمَ الذي كنتُم تكذِّبونَ به.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

٤٥ ـ حين كان النبيُّ ﷺ يتلو آياتِ القرآنِ الكريم على كفّارِ مكّةَ ويَدْعُوهم إلى التوحيد، ولأنّهم لم يكنْ لديهم أيُّ دليلٍ ينفي التوحيدَ، لهذا كانوا أحيانًا يقولون: إنّ محمدًا هو الذي يؤلِّفُ هذا القرآنَ من عندِ نفسِه ثم يَنسُبُه إلى اللهِ تعالى، وأحيانًا أخرى يقولون: إنّ فيه سحرًا فلا تقتربوا منه لأنه يريدُ أن يُضِلَّكم عن دينِ آبائكم وأجدادِكم.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾

٤٦ ـ لم يكن لدى مشركي العربِ كتابٌ سَماويٌّ يقرأونَه مِثلَ اليهودِ والنَّصارى، كما لم يأتِهم مَن يُنذرُهم منذُ فترةٍ طويلة، ولهذا كانوا يتمنَّوْنَ أن يأتيَهم نبيٌّ، ولكنْ عندَما جاءهم النبيُّ لم يُقدِّروه حقَّ قَدْرِه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

٤٧ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للمشركينَ بأنّ الذين كَذّبوا الأنبياءَ من قَبْلِهم كانوا أكثرَ منهم مالًا وثروةً وأعظَم شأنًا، بحيث أنّ أهلَ مكّةَ لا يستطيعونَ الوصُولَ إلى مِعشارِ ما وَصَلوا هم إليه، ولكنْ حينَ كذَّبَ هؤلاءِ الأغنياءُ الأقوياءُ الأنبياءَ، لم يستطيعوا الإفلاتَ من عذابِ الله تعالى وهم مَن هم، فما بالُكَ بكفّارِ مكّةَ قياسًا بهم؟ فإنْ لم

يرجِعوا عن معاداةِ النبيِّ ﷺ فإنّهم أيضًا لن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابِ الله تعالى.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾

٤٨ ـ عندَما قال كفّارُ مكةَ عن النبيِّ ﷺ: إنه مجنون، وأخَذوا ينشُرونَ هذه الدعاياتِ الكاذبةَ في المحافِلِ العامّةِ بكلِّ ما أُوتوا من قوةٍ، حتى لا يقتربَ أحدٌ من النبيِّ ﷺ، فقال لهمُ النبيُّ ﷺ: اعمَلوا بنصيحتي ولو لوقتٍ قصير ثم انظُروا، وستَتَّضِحُ الحقيقةُ أمامَكم تمامًا، أي: اترُكوا هذه المحافلَ العامّةَ، لأنه كثيرًا ما تقفُ القَراباتُ والصَّداقاتُ والمُحاباةُ عقَبةً في طريقِ قولِ الحق، كما أنّ الإنسانَ حين يتكلَّمُ أمامَ الناسِ قد يأخُذُه الحماسُ في بعضِ الأحيان فيقولُ كلامًا لا تكونُ نتيجتُه طيِّبةً، ويَندَمُ بعدَ ذلك أشدَّ النَّدم، ولهذا أنصَحُكم أن تختَلوا بأنفُسِكم، أوِ اجلِسوا معَ أحدِ أصدقائكم الأعزّاءِ الذين لا تشعُرونَ بحَرَجٍ أو حاجزٍ أمامَه في الحديثِ عمّا في القلب، ثم ترفَّعوا عن كلِّ تعصُّبٍ ومحاباة، وتفكَّروا بعدَها في أمري، فأنا لستُ غريبًا عنكم، ولستُ حديثَ الورودِ إليكم فلا تعلمونَ عنّي

شيئًا، وإنّما أنا واحدٌ من أهلِ مكّةَ وأنتمي إلى مجتمعِكم هذا، ومَوْلِدي وطفولتي وشبابي وزواجي، وباختصار: كلُّ صفحةٍ في كتابِ حياتي واضحةٌ أمامَكم، فهل تستطيعونَ تقديمَ واقعةٍ ظَهرتُ فيها مجنونًا؟ على العكسِ من ذلك، فأنتم تُلقِّبُونَني بالصّادقِ الأمينِ بسببِ ما ترَوْنَه من سلوكي وأعمالي.

يعني: ألم تتفكَّروا كيف يمكنُ أن يكونَ مجنونًا ذلك الشخصُ الذي يُسمِعُكم كلامًا في غايةِ الفصاحةِ والبلاغة، ومليئًا بالحِكمة، ويُحذِّرُكم مقدَّمًا من سوءِ العاقبة ليُنقِذَكم منها؟ لقدِ اختار اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ للنُّبوة، والنبيُّ لا يكونُ مجنونًا، وإنّما يكونُ الأكثرَ عقلًا وتحمُّلًا للمسئوليّةِ بينَ الناس.

من يكون المجنون؟

المجنونُ يقالُ لذلك: الشَّخصِ الذي ذَهَب عقلُه وانتَهى فَهْمُه، ولا يستطيعُ التمييزَ بينَ الصِّدقِ والكذب، وبينَ الحِكمةِ والحماقة، وبينَ الأمانةِ والخِيانة، لكنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ يتربَّعُ فوقَ أعلى قمةٍ للصِّدقِ والحِكمةِ والأمانةِ والاستقامة، وتأمَّلْ فيما يلي بعضَ الأمثلةِ على ذلك:

صدق النبي ﷺ

يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: لمّا نَزَلت «وأنذِرْ عشيرتَك الأقرَبينَ ورَهْطَكَ منهمُ المُخلَصِينَ»، خَرَج رسولُ الله ﷺ حتّى صَعِد الصَّفا فهَتَف: «يا صباحاه»، فقالوا: مَن هذا؟ فاجتمَعوا إليه، فقال: «أرأيتُم إنْ أخبَرتُكم أنّ خَيْلًا تَخرُجُ من سَفْح هذا الجبلِ أكنتُم مُصَدِّقيّ؟». قالوا: ما جَرَّبْنا عليكَ كذبًا. قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ». قال أبو لهبٍ: تبًّا لك، ما جمَعْتَنا إلّا لهذا؟ ثمّ قام، فنَزَلتْ «تبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ وقد تَبَّ» هكذا قَرأَها الأعمشُ يومَئذٍ[1].

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة سبأ (٣٤): باب ٢ برقم ٤٨٠١.

في هذا المجلسِ الوحيدِ طَلَب النبيُّ ﷺ الجوابَ عن أمرَيْنِ فيما يتعلَّقُ بالمستقبَل، الأول: هجومُ العدوِّ، والثاني: عذابُ يوم القيامة، وكلا الأَمرَيْنِ يتعلَّقُ بعِلم الغَيْب، لكنّ كفّارَ مكّةَ صَدَّقوا واحدًا منهما، يعني: هجومَ العدوِّ، وأنكَروا الثانيَ، يعني: عذابَ الآخِرة. والآنَ احكُمْ أنت، أيُّ دليلٍ كان لدى كفّارِ مكّةَ جَعَلَهم يُصدِّقونَ أمرًا ويكذِّبونَ الآخَرَ سوى عنادِهم وعصبيَّتِهم؟ واحكُمْ أنت أيضًا، مَن كان المجنونَ؛ كفّارُ مكّةَ الذين أجابوا إجاباتٍ متناقضةً عن أسئلةٍ متماثِلة، أم النبيِّ ﷺ ـ والعياذُ بالله ـ والذي كان يحذِّرُهم مقدَّمًا من عذابِ الآخِرة؟

حكمة النبي ﷺ

عندَما أصبح النبيُّ ﷺ في الخامسةِ والثلاثينَ من العمُر، هَدَمتْ قُريشٌ الكعبةَ وأخَذوا في إعادةِ بنائها من جديدٍ، وشارَكَهم النبيُّ ﷺ في هذا العمَل، فكان يحمِلُ الأحجارَ على كتِفِه الشّريفِ ويأتي بها للبناءِ، وكانت كلُّ القبائل منشغِلةً في بناءِ الكعبةِ بكلِّ حُبٍّ وتفاهُم، ولكنْ حين جاء وقتُ وَضْع الحجرِ الأسودِ في مكانِه اشتَعَلت نيرانُ التعصُّبِ بينَهم، إذْ كان القيامُ بتثبيتِ الحَجَرِ الأسودِ في مكانِه شرَفٌ ما بعدَه شَرَف، وكانت كلُّ قبيلةٍ ترغَبُ في أن تَنالَ هي هذا الشَّرَفَ، وظلَّت الأمورُ على هذا المِنوالِ من التَّوتُّرِ الشّديدِ لعدّةِ أيام، وكان من الممكنِ أن تنشَبَ المعاركُ بينَهم في أيِّ لحظة، وفي النِّهاية اجتَمع سادةُ القبائل جميعًا في المسجدِ الحرام، واستقرَّ رأيُهم على أن يَقْضُوا اللَّيلَ كلَّه في مكانِهم هذا بالمسجد، ومن يَدخُلُ من بابِ المسجد في الصَّباح يُعهَدُ إليه بالحُكم في أمرِ تثبيتِ الحَجَرِ الأسود.

«فكان أولَ داخلٍ منه رسولُ الله ﷺ، فلمّا رأَوْه قالوا: هذا الأمينُ رَضِينا، هذا محمّدٌ... فلمَّا انتَهى إليهم وأخبَروه الخَبَرَ، فوَضَعَ رسولُ الله ﷺ إزارَه وبَسَطَه في الأرض، فأخَذَ ﷺ الحَجَرَ الأسودَ فوَضَعَه فيه بيدِه الشّريفة، ثم قال: لِتَأخُذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثّوب ـ أي: بزاويةٍ من زواياه ـ ثمّ ارفَعوه جميعًا، ففَعَلوا، حتّى إذا

بَلَغوا به موضعَه وَضَعه هو ﷺ»[١]. لقد كان أهلُ مكّةَ يُلقِّبونَ النبيَّ ﷺ من قبلِ هذا بالصّادقِ الأمين بسببِ صِدقِهِ وأمانتِه، ولكنّهم لمّا رأَوْا حُكمَه في هذا النِّزاع اعتَرفوا جميعًا بحِكمتِه وفِطنتِه وكياستِه ﷺ، والآنَ أخبِرْني أنت إذًا، هل يستطيعُ مجنونٌ أن يتصرَّفَ هذا التصرُّفَ الحكيم؟

أمانة النبي ﷺ واستقامته:

ذاتَ ليلةٍ جَمَع كفّارُ مكّةَ بعضَ الشبابِ وأعطَوْا كلَّ واحدٍ منهم سيفًا وأوقَفُوهم على بابِ بيتِ النبيِّ ﷺ وقالوا لهم: حين يَخرُجُ محمدٌ من بيتِه احمِلوا عليه واقتُلوه. وفي تلك الليلةِ قال النبيُّ ﷺ لسيّدِنا عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لقد أُمِرتُ اليومَ بالهجرة، فاضْطَجِعْ أنت في فراشي والتحِفْ بردائي الأحمر، ولا تخَفْ فلن يستطيعَ أحدٌ أن يُصيبَك بسُوء، وكفّارُ مكةَ هؤلاءِ الذين يريدونَ قتلي، لهم أماناتٌ عندي، وأنا أعهَدُ بها إليك، فأعِدْ هذه الأماناتِ إلى فلانٍ وفلانٍ وفلان، وبعدَ ذلك هاجِرْ أنت إلى المدينة[٢]. إنّنا لا نجدُ في تاريخ الإنسانيّةِ مثالًا كهذا، فالعدوُّ يأتي ليقتُلَ النبيَّ ﷺ، بينَما النبيُّ ﷺ يؤكِّدُ على الحفاظِ على أماناتِهم التي عندَه، والنبيُّ الذي لا يَخُونُ في أمانةِ أعدائه حتى في مِثل هذا الوقتِ العصيبِ الحَسّاس، إنْ كان مِثلُ هذا النبيِّ مجنونًا، فمن يا تُرى يمكنُ أن يقالَ عنه: عاقلٌ إذًا؟!

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

٤٩ ـ يعني: أنا لم أطلُبْ أبدًا أجرًا على دعوتي إلى الإسلام، ولكنْ في تصوُّرِكم إن كنتُ طالبتُ بشيءٍ ذاتَ مرّةٍ فاحتفِظوا بهذا الأجرِ عندَكم، فأنا لا

---

(١) السيرة الحلبية، ١: ٢١٠.

(٢) «أنه ﷺ وصى عليًّا رضي الله تعالى عنه بحفظ ذمته وأداء أمانته ظاهرًا على أعين الناس». السيرة الحلبية، ٢: ٤٧.

أحتاجُه؛ لأنّ الذي يُعطيني الأجرَ على دعوتي هو ربِّي، وهو يَعلَمُ نيَّتي وإخلاصي.

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾

٥٠ ـ اللهُ تعالى يُنزِّلُ الحقَّ على أنبيائه الكرام عليهمُ السَّلام، ثم يُبلِّغُ رسالتَه إلى الناسِ عن طريقِهم، كما أنّ اللهَ تعالى عَلّامُ الغيوب، وهو يختارُ لمنصِبِ النُّبوةِ مَن لدَيْه إمكانيّةُ النُّبوة.

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

٥١ ـ يستمرُّ ظلامُ اللَّيل ما لم تَطلُع الشمسُ، ولكنْ حينَ تَطلُعُ الشمسُ فإنّ انقشاعَ الظّلام عمَلٌ فِطْريّ، وبنفسِ الطريقة فإنّ الباطلَ يستمرُّ في تقديم خداعِه بمختلفِ الطُّرقِ طالما كان الحقُّ وراءَ حجابٍ، ولكنْ عندما يظهَرُ الحقُّ ويتَبدَّى، فإنّ الهواءَ يَخرُجُ من بالوناتِ الباطل، وبعدَها لا يستطيعُ أن يَعرِضَ الباطلُ ما يخدَعُ به الناسَ، بل ولا يستطيعُ أن يُعيدَ ما كان يقدِّمُه من قبلُ من مُراوغات.

﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾

٥٢ ـ النبيُّ لا يكونُ ضالًّا، ومعنى هذه الآية: أنّ الإنسانَ الذي يَضِلُّ يكونُ له في هذا دَخلٌ من التقصير، ولهذا يستحِقُّ أن يعاقَبَ على هذا الضَّلال، والشّخصُ الذي يهتدي فإنّ الفضلَ فيه يكونُ للوحي الذي يَنزِلُ على الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، ولو لم يُرسِل اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ فمِن أين يمكنُ أن يهتديَ؟

بعدَ أن أجابَ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ عن إحدى المسائل قال: «أقولَ فيها برأيي، فإن يكنْ صوابًا فمن الله، وإن يكنْ خطأً فمنّي ومن الشّيطان، واللهُ ورسولُه بريئانِ منه»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير.

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾

٥٣ ـ اللهُ تعالى أقربُ إلى الإنسانِ من حَبْل الوَريد، وهو يسمَعُ كلَّ شيءٍ، ولهذا على كلِّ إنسانٍ أن يكونَ محتاطًا؛ لأنّ ربَّه يراه كلَّ وقت.

يقولُ العلّامةُ إسماعيلُ حقّي في تفسيرِ هذه الآية: «وقيل للنّابغةِ حينَ أسلَمَ: أصبَوْتَ؟ يعني: آمنتَ بمحمدٍ، قال: بلى، غَلَبني بثلاثِ آياتٍ من كتابِ الله فأردتُ أن أقولَ ثلاثةَ أبياتٍ من الشِّعر على قافيتِها، فلمّا سمِعتُ هذه الآيةَ تعبتُ فيها ولم أُطِقْ، فعلِمتُ أنه ليس من كلام البشَر»(١).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

٥٤ ـ عندَما يرَى المنكِرونَ عاقبتَهم السيِّئةَ يومَ القيامة سيعمَلونَ جاهدينَ على الهرب، ولكنْ لن تكونَ هناك أيُّ إمكانيةٍ للفِرار، بل على العكسِ حينَ يحاولونَ الفِرارَ تُمسِكُ بهمُ الملائكةُ، ولا يسمَحونَ لهم بالتقدُّم ولو خُطوةً واحدةً إلى الأمام.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

٥٥ ـ حينَ لا يجدُ المنكِرونَ طريقًا للفِرار يومَ القيامة سيقولون: إنّنا نؤمنُ برسولِ الله ﷺ، لكنَّهم لن يَجِدوا الإيمانَ؛ لأنّ مكانَ الإيمانِ هو الدنيا، وهم الآنَ بعيدونَ عن الدُّنيا ويستحيلُ عودتُهم إليها.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

٥٦ ـ كان لدى المنكِرينَ في الدُّنيا وقتٌ لكي يتدبَّروا فيه رسالةَ التوحيدِ

(١) تفسير روح البيان.

التي دعاهم إليها النبيُّ الكريمُ ﷺ ويؤمنوا به، ولكنَّهم إذْ ذاكَ كَذَّبوا النبيَّ ﷺ دون تدبُّرٍ أو فَهْم، ورفَضوا الإيمانَ به، ولهذا لا فائدةَ من إيمانِهم حين يرَوْن العذابَ، مثلَما لم تكنْ هناك فائدةٌ لإيمانِ فرعَوْنَ حين كان يغرَقُ في الماء.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾

٥٧ ـ الذين يُضَحُّونَ في هذه الدنيا برَغَباتِهم من أَجْل رضا اللهِ تعالى، ستُقدَّرُ رَغَباتُهم هذه في الآخِرة، والذين يُعرِضونَ عن أحكام الله تعالى في هذه الدنيا، ويتَّبعونَ أهواءهم، ستُرفَضُ رَغَباتُهم يومَ القيامة، مثلَما ستكونُ رغبةُ المنكِرينَ هناك أن يُقبَلَ إيمانُهم، وأن يَنْجُوا من العذاب، ولكن سيَحُولُ بينَهم وبينَ رغَباتِهم حجابٌ لا يزولُ أبدًا، كما حَدَث هذا الأمرُ أيضًا معَ متَّبِعي أهوائهم من الأُمم السابقة؛ لأنّهم أيضًا كانوا مُبْتَلَيْنَ بالشكِّ، ويشكِّكونَ الآخَرينَ أيضًا.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعةُ الكرم، إنجلترا
بعدَ صلاة الظهر من يوم الاثنين ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٩م
الموافق ١١ محرم ١٤١٣هـ.

وقد اكتَملَ تفسيرُ سُورة سَبَأٍ في أربعةَ عشَرَ يومًا فقطْ، أي من ١٤ ديسمبر إلى ٢٨ ديسمبر، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

فهرس المطالب التفصيلي
للمجلد الرابع
(من سورة المؤمنون إلى سورة سبأ)

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
ثلاثون حسنة لتلاوة اسم زيد رضي الله عنه	٣٣	٣٧	٤٣	٤٦٥
اتقوا الله تعالى في الصحابة	٣٣	٥٨	٦٨	٥٠٨
لم يجرح الصحابة قلب النبي ﷺ عن عمد أبدًا	٣٣	٦٩	٧٦	٥١٣
الإنسان وعظمة الإنسان				
مراحل تخليق الطفل في بطن أمه	٢٣	١٤	١٠	١٩
الشهوة والعقل كلاهما في داخل الإنسان	٢٥	٤٤	٣٦	١٣٢
فطرة الإنسان وجبلته لا تتغير	٢٦	١٨٤	٧٥	١٧١
يُدْفَنُ الإنسان في التراب الذي خُلِقَ منه	٣٠	٢٠	١٥	٣٣٧
يولد الإنسان أضعف بكثير من مواليد الحيوانات الأخرى	٣٠	٥٤	٤٤	٣٥٦
لماذا لا يفي الإنسان بوعده	٣١	٩	٥	٣٦٦
وعد الله حق	٣١	٩	٥	٣٦٦
القلب واللسان هما الأفضل أو الأسوأ	٣١	١٢	٧	٣٦٧
لا تكن حلوًا ولا مُرًّا	٣١	١٣	٩	٣٦٩
أصول اتخاذ أحد صديقًا	٣١	١٣	٩	٣٦٩
الجهاد والشهادة				
الغناء عند الحرب	٣١	٦	٣	٣٦٢
قرأ النبي ﷺ الأشعار بنفسه	٣١	٦	٣	٣٦٢
غزوة الخندق/ الأحزاب	٣٣	التعارف	التعارف	٤١٧
ترديد النبي ﷺ والصحابة الأشعار في الحرب	٣٣	التعارف	التعارف	٤١٧
مفاتيح خزائن قيصر وكسرى	٣٣	التعارف	التعارف	٤١٧

المضمون	السورة	الآية	الحاشية	الصفحة
هناك عداوة دائمة للمخلصين من الناس	٢٣	٢٤	١٦	٢١
الصالحون يعملون الحسنة ومع ذلك يخافون	٢٣	٦٠	٣٣	٣١
استغفروا الله دائمًا	٢٩	٥٣	٥٠	٣٢٠
انصح نفسك	٣١	١٢	٧	٣٦٧
كن منصفًا مع نفسك	٣١	١٢	٧	٣٦٧
الله تعالى يرى قلوبكم وأعمالكم	٣٤	٣٧	٣٩	٥٤٠
الصواب من الله والخطأ مني	٣٤	٥٠	٥٢	٥٤٨
الإيمان وأهل الإيمان – أولياء الله				
سيكون يوم القيامة لأهل الإيمان بما يعدل وقت أداء صلاة مفروضة	٢٥	٢٤	٢٣	١٢٦
سيستريح المؤمنون في الجنة يوم القيامة للقيلولة	٢٥	٢٤	٢٣	١٢٦
سيستر الله تعالى أهل الإيمان يوم القيامة	٢٦	٨٧	٤٣	١٥٩
إحضار آصف بن برخيا للعرش	٢٧	٤٠	٣٧	٢٠١
إيمان السيد أبي طالب	٢٨	٥٦	٥٤	٢٦٠
الجالس في مجالس الذاكرين غير محروم	٢٩	٤٥	٤١	٣١١
سَتُمْحَى ذنوب أهل الإيمان بفضل صبرهم على الإيذاء	٣٠	٤٧	٣٨	٣٥٣
الله تعالى متعهدٌ بمساعدة أهل الإيمان كرمًا	٣٠	٤٧	٣٨	٣٥٣
لأهل الإيمان نِعَمٌ لم ترها عينٌ	٣٢	١٧	١٧	٤١٠
الجنة والنار				
جنة الفردوس	٢٣	١١	٨	١٨

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).

(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).

(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).

(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).

(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).

(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).

(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).

(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).

(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).

(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.

(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).

(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).
(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).
(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).
(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).
(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.
(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.
(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بكڈپو، الهند.
(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).
(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.
(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).
(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).
(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).

(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).

(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.

(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.

(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٦) سنن أبي داوود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).

(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).

(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيڈمی، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنی، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.
(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
(١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.
(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.
(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.
(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.
(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.
(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).
(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.
(151) The Living Bible: British Edition, 1975.
(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

